

دكتور طيب تيزيني

مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط

الطبعة الخامسة

مع مقدمة

الهيئة العامة لكتبة الأسكندرية	
رقم التصنيف : 181.92	رقم التسجيل : 976



المنظمة الوطنية لكتبة الإسكندرية
National Organization of the Alexandria Library

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

دار دمشق - دمشق شارع نور سعيد

هاتف ١١١.٢٢ - ١١١.٤٨



مقدمة الطبعة الخامسة

انقضت عشر سنوات على صدور « مشروع رؤية جديدة للفكر العربي الوسيط » ، منذ عام ١٩٧١ حتى الآن . وهي فترة ذات دلالة خاصة في سياق البحث العلمي في الوطن العربي . فيها برزت اخطر قضية ثقافية في الحياة الثقافية العربية الراهنة . تلك هي قضية التراث العربي منهجا وتطبيقا .

اننا نعيش هذه المرحلة بكل ثقلها وآفاقها ، بكل اشكالاتها وتعتيداتنا وحساسيتها . واذا كنا نمثل شاهدا على ذلك ، فانا ، في الوقت نفسه ، نعدك مسؤوليتنا التاريخية الكبرى ازاءه .

لقد مرت على العالم العربي في المرحلة المعنية احداث ذات ابعاد متعددة ، اقتصادية وسياسية وثقافية ، تشير كلها الى محور مركزي ، ذلك هو المعركة على التراث العربي ، النظري منه على وجه الخصوص . من هنا ، نتبين احد اوجه الاهمية لاعادة طباعة هذا الكتاب الذي بين ايدينا .

فلقد صدر الكتاب المذكور مستجيبا لاحتياجات تلك الوضعية فاعلا فيها ، معرضا كل الاطراف المهتمة بالقضية . فالمسألة الفلسفية في المجتمع العربي الاسلامي الوسيط ظهرت على انها تتصل اوثق اتصال بالمسألة الثقافية العربية المعاصرة : ان الجسور التراثية بين الماضي والحاضر برزت على اكثر ما يكون البروز وبصورة تتضح فيها اشكالية هذه الجسور في مناهج البحث المهيمنة في العالم العربي .

لقد تبين ، اذ صدر الكتاب ، ان العودة الى الفكر الفلسفي العربي القروسطي ليس من الضروري ان تمثل ترفا ثقافيا نظريا أولا ، وليس من الضروري ان تجسد موقفا منهجيا من المواقف المنهجية المهيمنة ثانيا . واذا لم يكن الامر لا هذا ولا ذاك ، فقد اتضح ان العودة الى ذلك الفكر يمكن ان تمثل مطلبا جديا عميقا من مطالب المرحلة العربية الراهنة في وجهها الثقافي النظري كما اتضح انها يمكن ان تجسد موقفا منهجيا خارجا على البنية المهيمنة وممهدا لوضعية نوعية جديدة في البحث الفلسفي التاريخي العربي .

لم يكن من السهل ان يختط طريق جديد على النحو المشار اليه . فالخصوم يشبهون السلاح في وجه الوليد ، داعين الى نقضه او التقليل من قيمته . ولم يكن هذا الوليد قد اكتشف بعد بعمق اشكال العمل المنهجي القادرة على مواجهة النقد المدمر والمنطلق من الخصوم . ورغم ذلك استطاع ان يثبت ، وان يحقق حضورا كثيفا في الحياة الثقافية النظرية العربية .

ان « مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط » يصدر في طبعته الخامسة في وقت صدر فيه أيضا كتاب « من التراث الى الثورة » ، اي في وقت اتضحت فيه بمزيد من العمق والخطورة والحسمة أهمية المنهج في البحث التراثي النظري العربي . وبذلك ، فان قراءة الاول اكتسبت دعما منهجيا مبدئيا في قراءة الثاني .

واذا كان الكتاب الاول يصدر اليوم في طبعته الجديدة ، فان هذا يشير بوضوح الى أهمية المسألة المطروحة فيه المرحلة العربية الراهنة أولا ، وإلى أهمية منهجية البحث المتبعة فيه ثانيا . والجمهور العربي الناهض الذي تلقف الكتاب باهتمام بالغ ، سوف يفرك ، نائية ، الأهمية القصوى للثقة التي أولاها إياه منذ طبعته الأولى .

ولا سبيل الى تجاوز القول بأن الكتاب المعني سوف يشهد إعادة بناء شاملة في طبعة لاحقة منه بحيث تتاح له فرصة الظهور بمزيد من التدقيق والتعميق . ويبقى أن نقول بأن انجاز هذه المهمة سوف يقترن بعملية اتمام ما بدأناه بكتاب « من التراث الى الثورة » .

اننا سنحافظ على كتاب « مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط » في صيغته التي اكتسبها منذ عشر سنوات والتي امتلك على أساسها القدرة على إثارة المناقشة الفلسفية العلمية في صفوف المثقفين والمفكرين والطلبة . نقول ذلك رغم أننا جادون في جهدنا في صيغته « مشروع الرؤية » الجديد والذي بدأناه بـ « من التراث الى الثورة » ، أي المشروع السليبي سينطوي على المراحل الفلسفية التي تعرض لها الكتاب الاول ، وأن بمزيد من الاتساع والشمول والتعميق .

هكذا تظهر الطبعة الخامسة من الكتاب العتيد حاملة كل الأمل في خلق مزيد من الحوار الفلسفي التاريخي العربي ضمن أفق ناهض وبأبعاد أكثر رحابة .

دمشق في ١٩٨١/٤/٦

المؤلف

على طريق الوضوح المنهجي

هنالك حاليا واقع فكري يبرز بالحاح ، يتميز بكون علم تاريخ الفلسفة لا يعالج بشكل كاف من وجهة النظر العلمية العميقة ، وذلك بالرغم من أن ثمة كمية من الأعمال الجيدة قد صدرت مؤخرا (١) . ان هذا الوضع لا يلحق ضررا بالقطاع الخاص المعني هنا فقط ، قطاع تاريخ الفلسفة ، وإنما يمتد بتأثيره السلبي هذا الى أبعد من ذلك . ذلك لأن المقولات والمفاهيم ، وخصوصا البعض منها الذي ساهم بشكل أساسي في بناء وتشكيل أنظمة Systems (٢) العلوم المختلفة ، لا يمكن معالجتها بشكل شامل نسبيا وعلمي حازم ، اذا نظر اليها فقط من خلال انتظام منطقي ، حتى ولو تم ذلك بالعلاقة مع الفروع العلمية الأخرى .

ان المعالجة الدقيقة لواحد من تلك المفاهيم في نشوئه وعلى الأقل من خلال فترات تطوره الجوهرية ، أي في تاريخيته الجدلية – وبالطبع بمساعدة فروع المعرفة الأخرى – هي المخولة والقدرة فعلا على اكسابنا ، ما أمكن ، فهما علميا شاملا لذلك المفهوم . فمفهوم الجوهر Substance (٣) مثلا ، الذي لعب دورا رئيسا في الأنظمة الفلسفية للفلاسفة اليونان الطبيعيين الأول كما عند أرسطو بشكل خاص ، والذي تضمن منطلقا ورؤية مادية فلسفية أولية ، ان هذا المفهوم لا يمكن فهمه اطلاقا من حيث هو خطوة أولية وأساسية على طريق خلق مفهوم جدلي متماسك عن المادة فقط من خلال

(١) بخصوص هذا ينبغي ان يشار الى أن الأبحاث في مجال تاريخ الفلسفة قد استنفدت من وجهة النظر المثالية الميتافيزيقية . ومن طرف آخر تتعاضد أهمية دراسة هذا الفرع العلمي ، تاريخ الفلسفة ، من وجهة نظر علمية معمقة تعاطفا له منحى عمودي وآخر أفقي ، أي من الناحيتين التسمية والكمية .

(٢) الكلمة باللغة الأصلية ، التي كتب فيها هذا الكتاب ، هي Systeme . ونحن سوف نقتصر فيما بعد على كتابة الكلمة بالألمانية دون إعادة الإفصاح المقدم هنا .

Substanz (٣)

تعريفات منطقية وانطلاقاً من مرحلة تطوره الراهنة التي يجتازها خصوصاً على أيدي بعض الفلاسفة المثاليين (١) .

ولا شك ان نتيجة هذا المنطلق المنهجي الضيق لا يمكن أن تكون إلا رفض ذلك المفهوم (الجوهر) كخطيئة أصلية مثقلة بمضمون ميتافيزيقي ، كما أن مثل هذا المنطلق اللاتاريخي في تاريخ الفلسفة يمكن أن يؤدي بسهولة الى ازالة هذا العلم نفسه ، من حيث هو كذلك .

ان تشكيل وتطوير نظريات وفرضيات ومقولات ومفاهيم علمية لا يمكن ان يستجيباً لمستلزمات الدقة العلمية انطلاقاً من البناء المنطقي لهذه النظريات والفرضيات والمقولات والمفاهيم فقط . ان عملية التشكيل والتطوير تلك ينبغي ، استجابة لذلك المبدأ العلمي ، أن تردف وتعمق من خلال بحث تلك الركائز العلمية في تاريخيتها . بكلمة أخرى ، ان المنطق ينبغي أن يرى ويمارس في تاريخه ، والتاريخ في منطقته، وذلك بشكل عضوي وثيق . فالحظة المنطقية الجدلية في مفهوم ما يمكن استنطاقها واستخراجها بشكل أدق وأكثر شمولية ، حين تبحث في وحدتها العميقة مع تاريخها ، أي مع تاريخ المفهوم نفسه (٢) .

ان الاهمية الكبيرة لهذه المسألة تظهر بشكل خاص في الوقت الراهن بالنسبة الى قضايا جديدة في العلوم الطبيعية والتكنولوجية والاجتماعية . فليس من النادر أن نلقى آراء ونظريات تعالج بعض المفاهيم ، مثل «البنية» أو «الشكل» أو «النظام» أو «التقدم» ، وذلك انطلاقاً من اعتبارات تتعلق بمستوى تطور هذه المفاهيم الراهن فقط ، ولكن من خلال ذلك يهتمل جانب أساسي هام من جوانب تلك المفاهيم . ان التاريخ والمنطق يكملان بعضهما في وحدة جدلية ، وهذا يعني أن أحدهما لا ينفي أو يستنفذ الآخر . **فبغض النظر عن الأولوية الوجودية (الانطولوجية) للتاريخ ، فان كليهما جوهرى**

(١) مثل G. Jacoby و N. Hartmann ، انظر حول هذا : الفلسفة الالمانية من ١٩١٧ حتى ١٩٤٥ ، ص ٢٦ - ٣٦ ، و : الفلسفة الالمانية بعد ١٩٤٥ ، ص ٣٦ - ٤٠ ، برلين ١٩٦١ لمجموعة من المؤلفين .

(٢) ان هذه الفكرة الجوهرية ، الخاصة بفهم جدلي لبناء الفكر الفلسفي ، عبر عنها هيجل بشكل بارز ، وان كان قد أتم هذا منطلقاً من « فكرته المطلقة » . فهو يؤكد « بأن تتابع أنظمة Systeme الفلسفة في التاريخ هو نفس التتابع في الاشتغال المنطقي للتحديدات المفهومية الخاصة بالفكرة » ، (G.W.F. Hegel : محاضرات حول تاريخ الفلسفة - مقدمة . لايبزغ ١٩٤٠ ، ص ١١٩) .

من أجل وضع وتطوير مفاهيم علمية فلسفية ما . ولكن هذه المساواة في الجوهرية والأهمية لا تعني ، بطبيعة الحال ، اغماض العين لتقاء الحالة العيانية الخاصة التي يمكن أن تعرض لنا ، بما فيها من تعقيدات وبما لها من جوانب جوهرية وأخرى ثانوية .

لهذا كله نجد أن مجرى فترة من فترات التاريخ النظري ، في تعقده وفي غناه ، لا يمكن أن يستوعب ويسير غوره بحزم علمي إلا من خلال منهجية Methodology (١) حازمة علمياً ، منهجية لها القدرة على استشفاف وسبر غور ذلك المجرى بلحظيته ، التاريخية والمنطقية . وهنا لابد من التأكيد على أن هذا القول لا يقوم على امتياز صوري خاص بالمنهجية هذه لتقاء المنهجيات الأخرى ، بل أنه يشتق من القانونية الذاتية للتطور التاريخي الخاص بالفكر النظري .

لقد حلت المنهجية هذه قضية « التاريخي » و « المنطقي » في خطوطها الأساسية ، حيث انطلقت من أنه — في المنطق — يجب على تاريخ الفكر أن يلتحم ويتآخى مع قوانين الفكر نفسه .

ونحن حين نحاول هنا دراسة الفكر الفلسفي المادي لدى الفلاسفة العرب المسلمين في العصر الوسيط في علاقاته الوثيقة قليلاً أو كثيراً بالفكر الفلسفي اليوناني ، فإننا لا نعمل على اقحام ذلك الفكر العربي الإسلامي ضمن إطار تلك المنهجية اقحاماً ولا على تطويره لها بشكل تعسفي ، ذلك أن مثل هذا الأمر لا يعدو أن يكون عملية هجينة غريبة عن العلم التاريخي والفلسفي . على عكس ذلك ، نحن نطمح هنا إلى أن نبحث تاريخ الفكر ذاك من خلال منظار جديد يؤكد في الخط الأول على وحدة التاريخ الإنساني وعلى عملية النمو الذاتي لهذا التاريخ ، وبالتالي على كون المنهجية العلمية المعاصرة قادرة على تمثيل التاريخ ذاك واستيعابه بشكل أعمق وأكثر غنى ودقة مما فعلته المنهجيات السابقة التي تكونت ضمن هذا التاريخ .

إن وضع المسألة بهذا الشكل جعلنا نتلمس بالضرورة القضايا الرئيسية في الفكر العربي الإسلامي الوسيط ، التي مارست تأثيراً ملحوظاً على تشكل ونمو وتطور هذا الفكر . لذلك جاء هذا البحث في مجمله دراسة لتاريخ الفكر الفلسفي المادي اليوناني والعربي الإسلامي في حلقاته الجوهرية التي حققها ، ومن خلال المسائل الرئيسية — في رأينا — التي عالجها .

Methodologie (١)

القسم الاول

المجذور التاريخية والمعرفية للفكر الفلسفي المادي والمتالي

بين المادية والمثالية والاسطورة

النشوء المعقد للفكر الفلسفي المادي والمثالي

ان تاريخ الفكر النظري له خاصيته الذاتية . هذه الخاصية تكمن في عملية تكون معتدة لاتجاهين فلسفيين ، يكتسب كل منهما طابعا متعارضاً مع الآخر بشكل آخذ في العمق والوضوح . هذان الاتجاهان هما المادي والمثالي (١) . انهما لم يتكونا دفعة واحدة كشكلين من اشكال الفكر الفلسفي . فهما قد اجتازا تاريخاً خاصاً بهما ، ولا يزالان يمارسان وجودهما ويتابعان بالتالي سيرهما التاريخي . وقد تم هذا ، ويتم في عصرنا ، ليس بمعنى انهما يضعان لنفسيهما غايات بعيدة وقريبة بشكل قبلي ميتافيزيقي teleologic (٢) . ان الاخذ بهذا الرأي لا ينسجم اطلاقاً مع الوقائع التاريخية الميانية ، بل يقوم على مصادر دينية تنطلق من عملية خلق الهي للتاريخ وللعالَم عموماً . من طرف آخر ينبغي ابراز واقع كون عملية التطور الفكري هذه ، المميزة بتشكيل اتجاهين او ميلين فلسفيين رئيسيين ، لم تأخذ مداها بشكل محايد ، اي دون نزاع . فالمادية والمثالية لم تتطورا بعيداً عن بعضهما

(١) قد يعمو من ناقله القول ان نشر الى اننا هنا نستخدم ونبحث هذين المفهومين المثالية Idealism والمادية Materialism من حيث هما مفهومان « فلسفيان انطولوجيان » ، وليس من حيث دلالتهم « الاخلاقية moral » . هذا بالرغم من انهما ، كمفهومين فلسفيين انطولوجيين ، يتضمنان في انهما نتائج اخلاقية نظرية وموقفا اخلاقيا عمليا .

(٢) teleologisch . ان هيجل يقول بهذه الغائية القبلية الميتافيزيقية . فهو يقرر : « نحن يجب علينا ان نبحث في التاريخ عن هدف عام ، عن هدف نهائي للعالَم ... » (ج.ف.ف. هيجل : العقل في التاريخ - مقدمة لفلسفة تاريخ العالم ، لايبزغ ، دار نشر فلكنس ماينر ١٩١٧ ، ص ٥٠) .

أو الى جانب بعضهما ، بل من خلال بعضهما ، وبشكل خاص ، ضد بعضهما . لقد أكدتا نفسيهما وأرستا قواعدهما ليس من خلال تطور

الذاتي لكلا الاتجاهين الفلسفيين الرئيسيين ، هذا الميل الذي يمتلك
القانونية التطورية الخاصة .

ان هذا يؤكد عليه هنا بالحاج ، لانه ذو أهمية مبدئية بارزة بالنسبة
الى القضايا المطروحة في هذا الكتاب .

وبالطبع فانا ، آخذين بعين الاعتبار هذه الرؤية المنهجية للمضمون
الداخلي لتاريخ الفكر الانساني النظري ، سوف نفهم هذا التاريخ على انه
تاريخ لقطبين نشأ وتطورا على اساس معطيات الفعالية النظرية والعملية
للانسان الاجتماعي . ونحن اذ نقول « قطبين » ، لانعني انهما الوحييدان
اللذان يتمتعان بوجود نظري في الدماغ الانساني ، بل الى جانبهما وحولهما
تتواجد عناصر « جانبية » . غير ان « قطبية » ذيك القطبين و « جانبية »
العناصر تلك ليستا مطلقتين ، بل هنالك علاقة وثيقة متبادلة بينهما ، لها
طابع جدلي ، وذلك بمعنى أن العناصر الجانبية لا تزال بعد على طريق
نضجها الذاتي واكتسابها هوية واضحة متميزة ، أي انها لا تزال بعد في
طريقها الى أن تتحول الى جزء لا يتجزأ من واحد من القطبين ، بحيث يجري
تمثلها منه ضمن فعالية ذاتية .

والمسألة هذه ، مسألة العلاقة الوثيقة ذات الطابع الجدلي والقائمة
بين القطبين والعناصر الجانبية ، تتبدى من خلال كون القطبين نفسيهما
نتاج تطور طويل وبطيء ومعقد للغاية للعناصر الجانبية . ولكن هذا لايعني
انهما يفهمان فقط من زاوية كونهما نتاج ذلك التطور ، ذلك لأن وجود
العناصر الجانبية المتناقضة بشكل خفي وجوداً نسبي تماماً وهذا يرتد الى
انها تقوم على علاقة وجودية (انطولوجية) عميقة مع القطبين المومي اليهما ،
والى انها ، من حيث مضمونها الميلي tendentious (١) الجوهرى ، تخص

تبدو ظاهرياً وكأنها تشكل قطاعاً خاصاً متميزاً عن المادية وعن المثالية .
الا أنها ، في حقيقة الأمر ، ما هي الا نمو طبيعي للفكر الفلسفي المثالي .
وظهورها كشيء مجانب - جانبي - للمادية والمثالية اللتين تشكلان القطبين
المتميزين ، لا يخفي حقيقتها القائمة على علاقة داخلية مع المثالية .

الفكر اليوناني الفلسفي والتطور الفلسفي اللاحق

ان انجلز حينما يقول « بأنه في الاشكال المتعددة للفلسفة اليونانية
توجد ، مسبقاً ، تقريباً كل اساليب الرؤية اللاحقة بشكل بدري اولي » (١)،
فان هذا لا ينبغي ان يفهم بمعنى ان التطور الاساسي للفكر النظري
اقتصر على العصر اليوناني النهجي (الكلاسيكي) ، وانه بالتالي سوف يظل
هكذا ، بحيث انه لن يجري انجاز شيء جوهري في هذا المجال بعد العصر
ذاك ، او أنه ، بشكل محدد ، لم ينجز شيء جوهري في هذا الاتجاه . ان
رأياً مثل هذا يشبه ولا شك رأي هيجل الصوفي ، الذي يتوجب من خلاله
على « العقل العالمي » ان يجد مرحلته القصوى في نظام هيجل الفلسفي
نفسه . بالطبع ، حين تعطى المسألة هذا الاطار الصوفي ، فانها تكون قد
افتقدت عنصراً جوهرياً ، هو امكانية حلها حلاً متطابقاً مع معطيات التقدم
العلمي والاجتماعي الانساني .

ونحن اذ اوردنا ما تقدم ، فاننا لم نطمح بذلك الى ان نشير الى
النوعيات الجديدة في الفلسفة الحديثة او المعاصرة ، بل ان المسألة تدور هنا
حول اكتشاف وتعريية وعرض الجوانب الجديدة نوعياً في تطور الفكر الفلسفي
لدى الفلاسفة الاسلاميين العرب ، تقريباً من القرن الثامن حتى القرن الثاني
عشر ، وخصوصاً فيما يتعلق بالميل المادي في انظمتهم الفلسفية . ومن خلال انجاز
هذه المحاولة سوف نكتسب اليقين بان الاستمرارية Continuity (٢)
في التطور النظري الانساني بمجموعه لا تنفي ولا تستنفد اللااستمرارية
Discontinuity (٣) النوعية الخاصة ، المتمثلة بوحدة من فترات ذلك التطور .
اننا سوف نحاول البرهان بدقة وثائقية ووضوح نظري ما أمكن ، في مجرى
هذا الكتاب ، على ان تينك اللحظتين أو المنحيتين (اي الاستمرارية
واللااستمرارية) في التطور النظري المعني يشكلان وحدة جدلية عميقة

(١) F. Engels مقدمة قديمة لـ « ضد ديرنغ » - حول الجدل . في كتاب « ضد ديرنغ »

دار نشر ديتز ، برلين ١٩٥٦ ، ص ٤١٤ .

(٢) Kontinuitaet (٣) Diskontinuitaet

نسبية ، لا يمكن بمعزل عنها فهم واستيعاب تاريخ الفلسفة في خطه العام وفي دقائقه وتفرداته فهماً واستيعاباً علميين عميقين .

أن تكون أساليب الرؤية الفلسفية اللاحقة على الفلسفة اليونانية قد وجدت تعبيرها الأولي مسبقاً في هذه الفلسفة ، لا يعني إطلاقاً القول بتتابع للفلسفة اليونانية قائم على نفي منعطفات نوعية فلسفياً ، انه لا يعني القول بتطور مستقيم . ان التطور النظري الفكري ، كأي تطور آخر ، يتم ، منظوراً إليه من خلال ميله ومضمونه ، ليس فقط كمياً ، وإنما أيضاً نوعياً . بيد أن خاصية التطور النظري الفكري الموهلة في التجريد يمكن أن تثير الاعتقاداتها - بسبب الاستقلالية *Independence* (١) النسبية التي تتمتع بها تجاه الواقع الخارجي الموضوعي والتي اكتسبتها على مر الحقب التاريخية، كما وبسبب التأثير الملحوظ للتقليد *Tradition* (٢) المستمر داخل التطور النظري الفكري ذاك - تمثل بشكل جوهري استمرارية ذات منحنى مستقيم . لكن هذا الرأي يبقى فاقد الأساس العلمي ومتعارضاً مع الوقائع التاريخية العيانية .

ان نتائج ابحاث في الحقول النظرية والتجريبية والاجتماعية السياسية والاقتصادية ، وان كانت حتى الآن قليلة، تقدم مادة كافية كبرهان واضح على وجود منعطفات نوعية في تاريخ الفكر النظري لدى الشعوب المختلفة ، ومن ضمنها ولا شك ، الشعوب العربية الإسلامية في العصر الوسيط .

ان هذه الرؤية المادية الجدلية لخاصية وطابع التطور أو التقدم الفكري النظري تقف في تعارض حازم مع تلك التي ترى هذا التطور على انه تاريخ خطأ (أو ضلال) ملء بالمغزى . ان *J. Petzoldt* ، الذي ينطلق من هذا الفهم لتاريخ الفكر ، يرى الخطأ ذلك ممثلاً بمفهوم الجوهر (٣) . ونحن حيث نحاول تجنب طرح هذه المسألة بشكل جزئي مبتور ، كما يفعل ممثلو الرأي السابق ، بل نطمح الى طرحها تاريخياً عياناً *concrete* (٤) ، فإننا نجد ان قضايا نشوء وتطور الفكر النظري لدى اليونانيين القدماء ولدى العرب في العصر الوسيط وكذلك التجارب الاجتماعية العملية بشكل عام تبين أن سلوك وتفكير الانسان الواقعيين - بالمعنى الأولي البدائي للمادية - والمتجهين

Selbststaendigkeit (١) *Tradition* (٢)

(٣) انظر كتاب *J. Petzoldt* : قضية العالم ، الطبعة الثانية - لايبزغ وبرلين ١٩١٢ .

(٤) *konkret*

نحو الاشياء وعلائقها استطاعا تأكيد وجودهما فقط حيث نشبت بينهما وبين العنصر الاسطوري المثالي ، الأخذ بالتكون والتطور الى جانبهما ، نزاعات وتناقضات ضرورية .

عنصران في تحديد العلاقة البدائية بين « المادية والمثالية »

هنا يتوجب الكشف عن عنصرين أساسيين ، أساسيين انطلاقاً من العلاقة التاريخية الأولية البدائية بين « المادية » و « المثالية » ، هذه الرابطة التي تأخذ شكل وطابع الاسطورة Myth (١) . ان هذه الفرضية ، كما سنرى في هذه الدراسة القصيرة حول الخطوات الاولى لنشوء الفكر المادي والفكر المثالي ، سوف يكون ثقلها والأخذ بها في خطوطها الاساسية العامة اكثر معقولة واقتراباً من الموقف العلمي من رفضها .

ففي البدء نجد رابطة أولية توحد نسبياً بين بدور الاتجاهين الفكريين المومي اليهما فوق . بيد انه من الضروري التأكيد على أن الحديث هنا يدور بالضبط حول البدور الاولى الجتينية للمادية والمثالية ، هذه البدور التي وجدت تعبيرها بشكل جوهري في الموقف العملي المباشر للانسان تلقاء العالم المادي وتلقاء ذاته هو نفسه . غير أن هذا ينبغي أن يفهم بمعنى أنه لا يمكن التحدث هنا بعد عن تناقض متميز بين الميل المادي والآخر المثالي على الصعيد النظري theoretic (٢) في تلك المرحلة التاريخية البدائية . الا انه يمكن ، بل يجب التحدث في هذا الاطار عن وجود حد أدنى من التفكير « النظري » . ذلك لأن العامل الحاسم في عملية الانتقال او الانفصال النهائية للكائن الانساني عن العالم الحيواني قد كمن في نشاطية وفعالية هذا الكائن المكتسبة اجتماعياً ، والتي تبلورت في صنع واستعمال أدوات عمل وفي خلق وسيلة مشتركة للتفاهم ، أي في تكوين لغة .

ان هذا ، تاريخياً ، مفهوم بذاته ، فعلى أساس المستوى البدائي للقوى المنتجة (الانسان نفسه وأدوات العمل المستعملة ومنشأته واماكنه وتوابعه) في تلك العهود ، وكذلك انطلاقاً من سيطرة الملكية العامة للقوى المنتجة ولوسائل الاستهلاك ، كان الناس آنذاك قادرين على الإبقاء على حياتهم فقط حيث كانوا ينتجون ويستهلكون بشكل جماعي . وقد اشترط هذا بطبيعة الامر وجود لغة معينة مشتركة .

theoretisch (٢) Mythos (١)

ان هذه الفعالية الانسانية الضرورية اطلاقاً والمزدوجة ، أي الانتاج المادي والتفاهم اللغوي المشترك ، كان قد توجب عليها أن تتضمن في نفس الآن لحظة معينة من الوعيية Consciousness (١) . ذلك لأن الوجود الواقعي لانس ذلك العصر البدائي استطاع تحقيق ذاته ، من حيث هو واقعي فعلاً ، فقط ضمن اطار واتجاه محددين قائمين على قدرة اولئك الناس على استيعابهم وسيطرتهم على محيطهم Environment (٢) ذهنياً وعملياً بقدر ومستوى ضروريين .

وهكذا ففي الانسان ، من حيث هو جوهر اجتماعي صانع للأدوات ، يكمن بشكل ضروري وتلقائي حد أدنى من « التفكير النظري » . بهذا المعنى وضمن هذا الاطار من فهم القضية نجد هذا « التفكير النظري » صفة فطرية خاصة بالانسان (٣) .

في وضع اجتماعي بدائي لا تنتج فيه ، بشكل أساسي ، قيم للتبادل والعرض والطلب وانما فقط قيم للاستعمال والاستهلاك ، كحد أدنى لحفظ البقاء ، يكون الوعي Consciousness (٤) « بالطبع وبالدرجة الاولى فقط وعياً للمحيط الحسي القريب nearest (٥) وعياً للعلاقة البدائية مع اشخاص واشياء اخرى ما عدا (خط التاكيد مني : ط.ت) مع الفرد الصائر على طريق وعي ذاته ... » (٦) . ان الوعي الخاص بالضرورة المباشرة ، أي وعي القطعان Herds (٧) ، ملتحم الى حد كبير بالعالم المادي المحيط والمباشر . نقول هنا « الى حد كبير » لتؤكد على أن ذلك الالتحام لم يكن « كلياً » ، والا لامتنع القول بوجود « ذات انسانية » و « موضوع مادي » . كما أن الطبيعة والمجتمع لم يكونا في الاعتبار الاول بالنسبة الى الانسان ، المتضمن ذلك الوعي القطيعي ، الا شيئاً واحداً متجانساً .

بهذا القدر وفي هذا الاتجاه كان ذلك الوعي وعياً موضوعياً Objective (٨) .

Bewusstheit (١) Umwelt (٢)

(٣) انظر : ف. انجلز - مقدمة قديمة لـ « ضد ديرنغ » - حول الجدل . في كتاب « ضد ديرنغ » ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٤١٠ .

Bewusstsein (٤) Naechste (٥)

(٦) ك. ماركس و ف. انجلز : الايديولوجية الالمانية . نشر في : ماركس - انجلز . المؤلفات ، المجلد ٣ ، دار نشر ديتشر ، برلين ١٩٥٦ ، ص ٣١ .

Herden (٧) Objektiv (٨)

ذلك لانه اكتسب وجوده ، كما سبق وقيل ، من خلال كونه وعياً للعلاقة البدائية مع ناس واشياء أخرى ماعدا مع الفرد السالك طريق وعي ذاته . لكن موضوعية ذلك هي في الوقت نفسه نسبية relative (١) ، وذلك لان الوعي الانساني هو دائما وفي مجموع الاحوال ذاتي subjective (٢) . هذا يعني أن الناس ، حتى في أوضاعهم الأكثر بدائية ، لم يمارسوا وجودهم في هوية Identity (٣) مطلقة مع محيطهم ، لذلك فالكل والجزء لم يستوعبا من قبلهم اطلاقا كشيء واحد ، بل جرى التمييز بينهما بقدر ما .

ضمن هذا الاطار الضيق للوجود الضروري لحدٍ أو قدر ما من الفعالية « التنظيرية » Theorize (٤) لدى الانسان البدائي ، تنسم العنصر المادي (الواقعي) والعنصر المثالي (اللاواقعي أو الماورائي) خيوط وجودهما الاولى وتحركا ، ولكن ، بعد ، ليس في شكل تناقض متميز بوضوح ضمن ذلك الوعي .

هذا ما يخص العنصر الاول في قضيتنا . وهو يقوم ، كما تبين ، على تحديد العلاقة الاولى ، البدائية بين « المادية و » المثالية ، التي تتحقق في « الاسطورة » ومن خلالها .

اما العنصر الثاني فانه يستبين من خلال دياكتيك الرؤية لتلك العلاقة البدائية الاصلية ، وذلك على أساس من أن هذه العلاقة توجد في صيرورة وتحول دائمين ، وأن ميل Tendency (٥) هذه الصيرورة وهذا التحول يقوم على عملية تشكل ونمو قانوني regular (٦) للعنصر المادي من الطرف الاول وعلى اقضاء العنصر المثالي من الطرف الآخر .

ولقد وضعت الفعالية العملية للانسان ، أي العمل ، الحجر الأساسي لنشوء الاسطورة ، وفي نفس الوقت لانحلالها الى العنصر المادي (الواقعي) والعنصر المثالي (اللاواقعي أو الماورائي) . والجدير بالملاحظة العميقة انه في عملية الانتاج Process of Production (٧) ذاتها انبعث ذلك الفكر « النظري » البدائي ، أي الاسطورة ، واكد ذاته . انه نشأ كرد فعل ذهني تلقائي على المثيرات الحسية المسببة عن العلاقات بين الانسان ومحيطه ، هذه العلاقات التي يكمن مبعثها ، هي بالتالي ، في أعمال الانسان أدوات عمل بدائية ،

Identitaet (٣)	Subjektiv (٢)	Relativ (١)
Gesetzmaessig (٦)	Tendenz (٥)	Theorethisieren (٤)
		Produktions prozess (٧)

ذات آفاق ضحلة ، في محيطه الخارجي المحدود .

ضمن هذا الحقل وبهذا الحد استطاعت « الاسطورة » انجاز وظيفتها .
التي قامت على التوجيه Orientation (١) الضروري الهادف قليلاً أو كثيراً
للانسان تجاه الاشياء الخارجية المعطاة وعلائقها الموضوعية . وفي الحقيقة ،
استطاع الانسان كسب حياته المادية ، حيث تمكن ، ولو بالحد الأدنى ، من
تحويل العالم الموضوعي الخارجي الى موضوع Object (٢) له ، من
حيث هو ذات Subject (٣) فعالة عملياً .

ومن خلال الفعل الواعي اكثر فاكثر والخاص بالانسان ، هذا الفعل
الذي يكتسب ، من خلال استخدام أدوات العمل وبالتالي من خلال التأثير
على العالم الخارجي ، لامباشرة Indirection (٤) تنحوي باتجاه تعميق ذاتها
اكثراً فاكثراً ، من خلال ذلك الفعل يعيد الانسان ذهنياً تركيب ذلك
العالم ثم يوضعه ثانية . ان هذه العملية ، المنشطرة الى شقين والموحدة
في نفس الوقت ، تميزت بكون الانسان قد لجأ الى تمديد مقاييس وخصائص
جسده ونفسه على المحيط المادي الخارجي ، وبكونه - في اتجاه معاكس -
قد عمل على تمديد مقاييس وخصائص المحيط ذلك عليه نفسه . وقد فعل
هذا بدافع من حاجاته الحياتية المادية المباشرة ، التي لم يكن تحقيقها ممكناً
الا من خلال اقتراب معمق من العالم المادي ، أي من خلال النفاذ الى هذا
العالم بقانونياته الخاصة وتحويل ذلك الى موقف عملي منه (أي من العالم) .

هذه العملية الجدلية بين الانسان والعالم المحيط به يمكن فهمها اذن
على انها في نفس الوقت توضع Objectification (٥) للانسان وتديت
Subjectification (٦) للعالم المادي المحيط أو أحياءه - بمعنى اضعاف الحياة
الانسانية عليه - . ولا شك ان هذا قد كان ، ضمن الأطر التاريخية التي
وجد فيها ، عملية واقعية ايجابية ذات مضمون فكري ، تكمن وظيفته ،
بشكل أساسي ، في تمثل ذلك الموضوع ذهنياً والسيطرة عليه عملياً .

ان هـ . وهـ . ا . فرنكفورت ، اللذين يستشهدان بـ « كرولي » حيث
يقول « ليس للانسان البدائي الا اسلوب واحد للتفكير ، واسلوب واحد
للتعبير ، واسلوب واحد للكلام - الاسلوب الشخصي » ، يفسران قوله هذا
بتأكيدهما كما يلي : « وهذا ليس معناه (كما يحسب الكثيرون) ان

Subjekt (٣)	Objekt (٢)	Orientierung (١)
Subjektivierung (٦)	Objektivierung (٥)	Unmittelbarkeit (٤)

الانسان البدائي ، حين يحاول تفسير الظواهر الطبيعية ، يفتقد على عالم الجماد صفات انسانية . ان الانسان البدائي لا يعرف عالماً جماداً أبداً . ولهذا السبب عينه ، لا « يشخص » ظواهر الجماد ، ولا يملأ عالماً فارغاً بأشباح الموتى ، كما تريدنا « الروحانية » أن نعتقد . (١)

على هذا التفسير لقول كرولي السابق نرى ضرورة التعليق بما يلي :

١ - من الضروري التمييز بين الاحيائية او الحياتية وبين الروحانية ، ذلك لأن الأولى سادت الفترة الأولى من حياة الانسان ، وهي العصر الحجري القديم . في هذه الفترة نشأ الشكل الاول للمجتمع الانساني ، الممثل بمجتمع القطيع ونشأ معه الوعي الانساني البدائي ، ووعي القطيع ، والوعي القطيعي . كان انسان ذلك العصر يرى في الظواهر الطبيعية ينابيع قوة حية . فهو لم يضاعف هذه الظواهر ، أي انه لم يضيف اليها قوى أخرى ماورائية وذات طبيعة روحية . انطلاقاً من هذا الواقع التاريخي تبرز حقيقة أساسية بالنسبة اليها ، وهي ان وعي الانسان الاول سابق على الوعي الديني ، اللاواعي ، وبالتالي الممهّد للفكر المثالي اللاحق . بهذا نود القول أن الانسان البدائي ، المتوحش ، لم يلجأ الى اغداق صفات ماورائية على الطبيعة المحيطة به ، بل اغداق عليها الكثير من صفاته نفسه (٢) ، بشكل استحال فيه الى قوى انسانية حية يتعايش معها عبر الادوات الحجرية البدائية .

٢ - ان هـ . وهـ .١. فرانكفورت من خلال رأيهما بأن الانسان البدائي لا « يفتقد على عالم الجماد صفات انسانية » ، حين يحاول تفسير الظواهر الطبيعية ، لا يدركان حقيقة العملية الجدلية التي تتم بين الانسان ذاك والظواهر الطبيعية المحيطة به . فمما لا سبيل للشك فيه أن وجود الانسان البدائي قد ارتبط بالضرورة بتلك العملية ، التي كمنت في أنسنة تلك الظواهر من قبله ، أي في تحويل الطبيعة الى موضوع انساني ، ولو بحدود دنيا . وإلا فوجوده ، ببساطة ، كان عرضة للهلاك . لقد كان عليه أن يتآخى مع الطبيعة ، أن ينظر اليها ، من حيث هي عضوية شبيهة

(١) هـ . فرانكفورت ، هـ .١. فرانكفورت ، جون ا. ولسن ، توركيلد جاكوبسن : ما قبل الفلسفة - ترجمة جبرا ابراهيم جبرا ، منشورات دار مكتبة الحياة - (فرع بغداد) ١٩٦٠ ص ١٦ .

(٢) انظر حول ذلك بحثاً لـ G.A. Gurew ، نشر في كتاب : الفلسفة والمجتمع - اصدار ف. بغوه وهـ . شولتسه ، دار نشر الاكاديمية ، برلين ١٩٥٨ ، وبشكل خاص الصفحات ٤٨٠ - ٤٨٢ .

بعضويته . وبالطبع كان هذا ، في الوقت الذي تم فيه من خلال الفعالية الأولية والمحدودة للانسان ، يتحقق دون استيعاب ذهني (فهمي) قائم على استمرارية زمنية طويلة . وفي هذا المشرق من الطرق نجد هـ . وهـ . ا . فرتكفورت يتعرضان لمسألة الزمان والمكان في الدهنية الاسطورية ، بشكل يسلب تأكيدهما السابق ، حول عدم اغداق الانسان البدائي صفات انسانية على محيطه ، صحته ، وذلك حيث يكتبان : « والفكرة الميثوبية من (الزمان) ، كاختها عن (المكان) ، كيفية ومجسمة ، لا كمية ومجردة . ان الفكر الميثوبي لا يعرف الزمان كبقاء متساوق ، او كتعاقب لحظات متماثلة الكيفية . فالانسان الاول . . . لم يعرف فكرة الزمن التي تشكل اطار التاريخ لنا » (١) .

طبيعي انه في الوقت الذي لم يعرف فيه الفكر ذاك « فكرة » الزمن التي تشكل اطار التاريخ لنا ، فان تساوقاً ما ، تساوقاً تاريخياً الى حد ما كان لابد من وجوده في الفكر المشار اليه هنا ، بشكل يسمح للانسان البدائي مثلاً اتقاء الوحش الضاري ، الذي رآه سابقاً مرة او اكثر من مرة . ان التجربة العملية اليومية للانسان هذا كانت تعمق باستمرار فهمه الزمني - التاريخي - لمحيطه . اي ان ذاكرته وتذكره كانا ينموان بشكل متساوق مع نمو سيطرته على محيطه من خلال ادوات العمل الأولية ، ومع نمو وتطور قدرته على التعبير الكلامي وعلى ايجاد المفاهيم . فالذهن التاريخي الزمني ، بغض النظر عن بدائيته وعن كونه لم يكتسب بعد طابعاً فكرياً متناسقاً ، شكل لحظة ضرورية في تبصر الانسان الاول البدائي « النظري » والسلوكي . وهكذا نرى ، كما يلاحظ G.A. Gurew انه حتى Lévy-Bruhl قال بوجود فكر منطقي في المجتمع البدائي الى جانب فكر سابق على المنطقية (٢) .

ولا شك ان فكراً منطقياً - بهذا نعني هنا الفكر الانساني البدائي الموجه لحفظ وتعميق عملية تبيؤ الانسان مع محيطه - يشترط وجود نوع ما من الاستبصار التاريخي الزمني لعلاقة الانسان البدائي مع محيطه ، ووجود فعل قائم على انسنة الطبيعة من قبل الانسان ، وبالتالي على اغداق واضفاء هذا الانسان صفاته الانسانية على الطبيعة . وهذا يعني ان تطور موقف المواجهة للانسان تلقاء الطبيعة من المباشرة النسبية الى اللامباشرة

(١) هـ . فرانكفورت ، هـ . ا . فرتكفورت ، جون ا . ولسن ، توركلد جاكوبسن : نفس المصدر المعطى سابقاً ، ص ٣٦ .

(٢) انظر : G.A. Gurew ، في نفس المصدر المعطى سابقاً ، ص ٧٩ .

— بمعنى ارتفاع الانسان على الطبيعة ذهنياً وعملياً — كان قد مر بمرحلة معينة ، لم يستطع فيها الانسان البدائي التمييز بين الذاتي والموضوعي الا بحدود دنيا نسبية ، اقتضتها طبيعة الفعالية العملية الحياتية للانسان تلقاء الطبيعة (١) . ضمن تلك الحدود اسبغ ، او بشكل أدق ، توجب على الانسان ان يسبغ على الطبيعة صفاته الحية الانسانية .

مما سبق يتبين ان الطبيعة Nature (٢) ، وادوات العمل ، والفعالية الانسانية الهادفة بالضرورة والواعية نسبياً ، قد مكنت ، مجتمعة ، من نشوء الاسطورة ومن صياغتها . لقد كتب ماركس ، في حينه ، في مخطوطاته الفلسفية الاقتصادية ، ملقياً ضوءاً مكثفاً على العلاقة الضرورية الجدلية بين الانسان والطبيعة : « ان الطبيعة هي الجسد اللاعضوي للانسان ، يعني الطبيعة بحدود كونها ليست هي نفسها جسماً انسانياً . ان يعيش الانسان من الطبيعة ، يعني : ان الطبيعة هي جسده ، الذي يجب ان يبقى معه في تفاعل مستمر ، وذلك لكي لا يموت . » ثم يتابع قائلاً : « ان تكون الحياة العقلية والطبيعية للانسان متعلقة بالطبيعة ، ليس له معنى آخر ، سوى ان الطبيعة تتعلق بذاتها ، حيث ان الانسان جزء من الطبيعة » (٣) .

مرحلتان أساسيتان في التطور الاجتماعي للمجتمع البدائي وتأثيرهما على تطور الفكر الميثوبي — الاسطورة —

لاشك ان الكشف عن هذه العلاقة المتبادلة بين الانسان والطبيعة ، في خطوطها العامة ، ذو أهمية خاصة .

في البدء ينبغي الإشارة الى انه ، من حيث الامكان ، يكمن في تلك

(١) ان كون الانسان البدائي ، من حيث هو اجتماعي ، فاعلاً يصنع أدوات تتيح له ، ضمن عوامل أخرى ، ارتفاعه على الطبيعة ذهنياً وعملياً ، اي اخذه موقفاً مواجهها — متقاطبا — للطبيعة ، يجعل من التعذر قبول الصيغة المطلقة التالية : « ولذا فان التمييز بين الذاتي والموضوعي لسن يعني له (اي للانسان) أي شيء مطلقاً . » (هـ . فرانكفورت ، هـ . ١ . فرانكفورت ... : نفس المصدر المعطى سابقاً ، ص ٢٣) .

(٢) Natur

(٣) ك . ماركس : نقد الاقتصاد القومي — موجود ضمن : المخطوطات الفلسفية الاقتصادية ، في مجلد بحث عنوان : ك . ماركس/ف . أنجلو : دراسات اقتصادية صغرة ، برلين ، دار نشر ديتز ١٩٥٥ ، ص ١٠٣ .

العلاقة عنصر لاعقلاني irrationalistic (١) . ذلك لأن هذا الامكان القابل للتحقق وجد ويوجد دائماً في اثناء عملية التعميم الفكري النظري وفي مجموع الفعالية الفكرية الانسانية . وبالطبع ، لا يمكن اعتبار هذا العنصر اللاعقلاني فقط من حيث هو تعبير عن العجز العملي والدهني للانسان البدائي، وانما، وبالدرجة الاولى ، من حيث هو نتاج مباشر لفعاليته الانتاجية النشيطة بهذا القدر أو ذاك ، هذه الفعالية التي لا بد منها والتي تحدّد بالتالي من خلال مستوى منخفض للتكنيك الموضوع تحت التصرف ، كما من خلال خصائص العلاقات الاجتماعية القائمة على التملك العام البدائي .

ولقد تحدّدت ملامح الوعي الانساني البدائي primitive (٢) وخصائصه العامة من خلال خلفيته الاجتماعية الاقتصادية والتكنيكية . بالطبع لا يجوز هنا فهم ذلك بمعنى « اشتقاق » الوعي ذاك من خلفيته المشار اليها اشتقاقاً ميكانيكياً ، وذلك بالرغم من بدائية الوعي المعني هنا . ذلك لأن بينه وبين خلفيته تلك علاقة جدلية لانفي ، بل تؤكد الوجود النوعي الخاص به (أي بالوعي) .

أما الوضع الاجتماعي الاقتصادي ، وهو ما يكون الخلفية تلك ، فيمكن تحديد مضمونه الجوهرية من خلال الواقع التاريخي الذي قام على كون جميع أعضاء المجموعات الانسانية البدائية قد توجب عليهم ان يمارسوا عملاً جسدياً ، لكي يستطيعوا العيش . عن هذا الوضع ، المتميز بالحاجة المادية المباشرة ، ترتبت نتيجة هامة ، وهي أن أولئك الاعضاء لم يتوفر لديهم ، بشكل عام، وقت للتفكر في مسائل الوجود الجوهرية والكلية . وقد بقي هذا الحال سائداً على الأقل حتى تلاشى وتجوّز اجداد القبائل Ancestry (٣) من قبل نظام الاجداد الرؤساء Chief ain ancestry (٤) . هنا ، في هذا النظام الجديد ، تكونت تعارض (تناقض) ذو طابع زراعي ضمن القوى الاجتماعية . وقد واكب ذلك التعارض نشوء وتطور وجه ايديولوجي جديد نسبياً ، اضعف من الوعي الجماعي الذي سيطر حتى ذلك الحين اضعافاً ، ان لم يكن كلياً ، فقد كان قوياً .

(١) irrationalistisch (٢) primitiv (٣) Ahnen

(٤) Haeuptlingahnen . انظر حول هذا الموضوع : G. Paetsch ، نشيد لوفالانفي وفكرة الاله الاملى - مطبوع كمخطوط في : عدد خاص من المجلة العلمية لجامعة فريدريك شلر، بينا ، ١٩٦٣ ، ص ٧٩ .

في المجتمع البدائي تدور المسألة اذن حول فترتين اساسيتين من تطور العلاقات الاجتماعية والوضع الايديولوجي . الفترة الاولى ، وهي العصر الحجري القديم Palaeolithic (١) ، كانت تقوم على اقتصاد الضرورة ، أي انتاج الحد الأدنى الضروري من القيم الاستهلاكية ، دون انتاج بغاية التبادل . كما تميزت هذه الفترة التاريخية الاولى بسيطرة العمل الجماعي وشموليته . وقد امتدت حتى العصر الحجري الجديد Neolithic (٢) ، حيث تبدأ الفترة الثانية ، أي حتى عام ٤.٠٠٠ ق م تقريباً (٣) .

لقد كتب John Lewis ، متعرضاً للعصر الحجري القديم : « بأن ناس هذه الفترة (قد طوروا) التكنولوجيا وفن المفائر الى درجة ملحوظة (٤) . أما المرحلة الثانية التي تلت تلك فقد كانت مسرحاً لتحولات ذات شأن كبير ضمن بنية « الاتحاد العائلي البدائي » Matriarchy (٥) ، هذه التحولات التي ارتبطت نشوؤها بنشوء ظواهر جديدة في الاقتصاد البدائي . فقد كان ظهور الزراعة ، وتربية الدواجن من الصيد ، وجمع الثمار البرية ، وكذلك تحسين أدوات العمل التكنيكية طبقاً لتنامي درجة سيطرة الانسان على الطبيعة ، وأخيراً تطور أشكال جديدة من تقسيم العمل - وأخص منها ظهور قبائل الرعاة على انقاض تقسيم العمل البدائي المرتبط بوجود الجماعة Community (٦) - ، كل هذا ، مجتمعاً ، ساهم في تشكل مجموعات اجتماعية معينة ، سادت فيها علاقات اجتماعية ذات طابع نزاعي ، وذلك الى جانب العلاقات الأخرى ذات الطابع المشامي المتجانس . لأن ظهور قبائل الرعاة لم يكن فقط تعبيراً عن تطور متنامٍ للخيرات المادية والتكنيك ، وإنما كان أيضاً الأساس العام من أجل ادخال التبادل في الخيرات المادية الاقتصادية ، وبالتالي الطريقة للحصول على فائض معين في بعض المنتجات ، مثل اللحم والدواجن (٧) .

في ذلك الواقع الاجتماعي كمنت البدايات البسيطة للتطور اللاحق

Palaeolitikum (١) Neolitikum (٢)

(٣) انظر : John Lewis ، الصيرورة الانسانية للانسان ، دار نشر العلوم الشعبية الألمانية ، برلين ١٩٦٤ ، ص ٥١ . قارن ذلك أيضاً ب : J. Bernal ، العلم في التاريخ ، برلين ١٩٦١ ، ص ٥٢ .

(٤) ج . لويس : نفس المصدر المشار اليه سابقاً - نفس الصفحة .

Gemeinschaft (٦) Gens (٥)

(٧) قارن : الكتاب التعليمي للاقتصاد السياسي ، دار نشر ديتر ، برلين ١٩٦٠ ، ص ٢٦ .

على أساس من الامتيازات الاجتماعية والثقافية ، التي اكتسبت من قبل الآباء الاولين (الأجداد أو الأسلاف) Ancestry . خلال ذلك نشأت نزاعات مختلفة عديدة بين هؤلاء الآباء . وقد اجتل هؤلاء أكثر فأكثر المواقع الحاسمة ضمن جماعاتهم المتكونة من اتحاد عائلي واحد أو أكثر .

هذه هي بشكل عام الملامح الأساسية للعلاقات الاجتماعية البدائية التي يمكن فهمها - وذلك بالعلاقة مع فهم دقيق لمستوى القوى الانتاجية الخاصة بتلك العلاقات - من طرح قضية الاتجاه العام لتفسير علمي تاريخي لعالم افكار World of Thoughts (١) الانسان المجتمعي القديم .

الاسطورة والسحر والطقس

لقد سبق وبيّنا انه من الامور الواردة ان نعتبر الاسطورة اللحظة « النظرية » في الوعي الانساني البدائي . اننا نعني بهذا انه الى جانب الاسطورة قد وجد السحر Magic (٢) والطقس Rite (٣) ضمن الوعي ذاك . لقد بحث George Thomson في كتابه حول « الفلاسفة الأول » اشكال وعي الانسان البدائي ، فاعتبرها تصورات غير ناضجة حول الطبيعة . انه قصرها اولاً ، على السحر « الذي توجب عليه ، من حيث هو تكنيك انتاج وهمي ، أن يعدل - يتجاوز - نواقص التكنيك Technics (٤) الواقعي ، ومن طرف آخر على الاساطير . . . » التي كمنت بداياتها فقط في المرافقة الشفوية للسلوك السحري ، هذه البدايات التي تطورت على نحو متدرج الى نظرية اولية rudimentary (٥) حول الواقع (٦) .

لاشك انه وجدت علاقة متبادلة بين السحر والاسطورة والطقس في الشكل الذي يبرزه تومسون هنا . ولكن هل اقتصرت « الاسطورة » فعلاً على هذه المرافقة الشفوية ؟ تاريخياً ونظرياً - معرياً يمكن القول بان الاسطورة نشأت كلحظة مؤولة في وعي ذلك الانسان ، في الوقت الذي استطاع فيه هذا الأخير تأكيد نفسه ، من حيث هو انسان فاعل يصنع ويستعمل . ويعيد صنع ادوات العمل . وعلى هذا الأساس قامت الوظيفة الايدولوجية - المعرفية والاجتماعية للاسطورة . اما هذه الوظيفة فيمكن

Ritus (٣)

Magie (٢)

Gedankenwelt (١)

rudimentaer (٥)

Technik (٤)

(٦) ج . تومسون : الفلاسفة الاول ، دار نشر الاكاديمية ، برلين ١٩٦١ ، ص ٢٩١ .

تحديدها بالتوجيه الهادف المؤؤل ، الضروري والبدائي للانسان بالنسبة الى محيطه الواقعي ، أي بالنسبة الى موضوع Object وعملية Process (١) الانتاج الذي يمارسه بدوافع حيائية مباشرة . في هذا الاطار من المسألة يمكن اعتبار الاسطورة جزءاً من عملية الانتاج ، بيد أنها لم تكن ملتزمة به بشكل مطلق . اذ أن الاحاطة الأولية الضرورية بعملية الانتاج وبالواقع الطبيعي من قبل الانسان البدائي - بوعيه الميثوبي ، الاسطوري - لا يمكن ان تتم اذا لم يرتفع هذا الانسان ذهنياً وبقرار ما على تلك العملية وذلك الواقع .

ونحن هنا نستطيع الافتراض بأن الاسطورة والسحر قد تطورا موازيين لبعضهما ، ومن خلال تأثير متبادل . والجزء المتكلم من الاسطورة كان له انعكاسه ووجوده الذهني في دماغ الانسان ، ذلك لأن الكلمة أو اللغة بشكل عام « هي الواقع المباشر للفكر » (٢) . اذن هنالك عنصر « تأويلي » معين ، يمكن الكشف عنه في اثناء بدايات تطور الاسطورة . كذلك السحر والطقس يمكن اعتبارهما ممارسة Practice (٣) الاسطورة . اما الاسطورة فنستطيع تحديدها من حيث هي الانعكاس « الفكري » ، أو بشكل أدق ، التوجيه الذهني الهادف للسحر والطقس تلقاء الواقع الطبيعي المحيط . ونحن اذ نتكلم عن « بداية » للفعالية الاسطورية لدى الانسان البدائي ، فانما نفهم من خلال ذلك نشوء اتجاه ، أو بدقة أكثر ، نشوء ميل لتطور ذهني (نظري) .

وقد تبلور هذا الميل بشكل خاص عبر عملية بطيئة قامت على انفصال الاسطورة عن عملية الانتاج المباشر ، بحيث اكتسبت (أي الاسطورة) استقلالية معينة تلقاء السحر والطقس .

الاسطورة في وحدتها وانشطارها .

ان وضع القضية بالنسبة الى نشوء وتطور اللحظة المادية (الواقعية) واللحظة المثالية (اللاواقعية) يمكن له ، في حال اخذنا ما سبق بعين الاعتبار ، أن يوضّح ، انطلاقاً من مركبين من القضايا :

(١) Prozess

(٢) ك. ماركس/ف. انجلز : الايديولوجية الالمانية ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٤٣٢ .

(٣) Praxis

١ - في المرحلة الأولى من تطور المجتمع البدائي (العصر الحجري القديم) تشكل الاسطورة اسلوب نظر هادف ، يتميز بالدرجة الأولى بكونه موحدًا unitary (١) وليس منشطاً أو متميزاً . وقد اكتسب الانسان هذا الاسلوب من خلال محاولته الضرورية والدؤوبة الكشف عن « ذات » العالم الموضوعي ، أي قانونيته ، وبالتالي السيطرة عليه عن طريق أنسنته . و « وحدة » اسلوب النظر الهادف ذاك هي نسبية ، بمعنى انها لا تنفي ان تكون اساطير الانسان البدائي في المرحلة الأولى من تاريخه متعددة الاشكال والمضامين . فهي ، في نسبتها ، قد عبرت عن الاسلوب Weise (٢) والميل ضمن الاسطورة للانفعال أمام مؤثرات خارجية ، كما للرد على هذه المؤثرات . وهكذا فانها (أي الاسطورة) تعبر عن اتجاه عملية استيعاب وفهم الواقع الموضوعي الطبيعي ، أكثر مما تعبر عن نفسها كالحظة ذهنية مستقلة وعاكسة للواقع ذاك .

بيد أن « وحدة » اسلوب النظر الهادف ضمن الاسطورة اكتسبت مبررات وجودها الموضوعية من الواقع الاجتماعي ، الذي ساد فترة التطور للمجتمع (أي العصر الحجري القديم) ، هذه الفترة التي قامت بشكل عام وجوهري على اقتصاد الكفاف أو الحاجة المباشرة Economy of direct need (٣) ، وبالتالي على ضرورة ممارسة عمل جماعي مشترك .

٢ - أما المركب الآخر من القضايا ، الذي يلقي ضوءاً ساطعاً على نشوء وتطور اللحظة المادية والآخرى المثالية (الواقعية واللاواقعية) ، فإنه ينطلق من ايضاح الجذور الأولى البدائية للمسألة الأساسية للفلسفة Fundamental Question of Philosophy (٤) ، هذه المسألة التي تعتبر الترسانة الأكثر حسماً في فهم التاريخ الفلسفي . لقد كتب ف. أنجلز حول ذلك مايلي : « ان مسألة علاقة الفكر بالكون ، العقل بالطبيعة ، لها جذورها ، بشكل لا يقل عن كل الأديان ، في التصورات الجاهلية البدائية ، الخاصة بحالة التوحش (٥) . أن يكون للفكر الفلسفي جذوره ، حسب أنجلز ، في هذه الفترة التاريخية الموعلة في القدم ، يعني في رأينا أن نبحث عن هذه الجذور في

einheitlich (١) Weise (٢) Notwirtschaft (٣)

Grundfrage der Philosophie (٤)

(٥) ف. أنجلز : لودفغ فويرباخ وسقوط الفلسفة الألمانية الكلاسيكية . موجود في : ل. ماركس/ف. أنجلز : أعمال مختارة في مجلدين ، برلين ١٩٥٧ ، مجلد ٢ ، ص ٣٤٤ .

« الاسطورة » . ولقد كتب H. Ley مشيراً الى وجود « مركبين متعارضين ، من حيث ميلهما ، » (١) ضمن الاسطورة .

ان كلا الحلين الأساسيين للمسألة الأساسية للفلسفة ، المثالي والمادي ، قد وجدا بدورهما الأولية في الاسطورة . وفي الوقت الذي وجدت بينهما الاسطورة ، فان هذا التوحيد لم يكن مطلقاً . ان وحدة مطلقة لم توجد أبداً بينهما ، اذ ان هذا غير قابل للتحقق لا معرفياً ولا اجتماعياً . فالميل لتجاوز الوحدة تلك من خلال انشطار وتمايز طبيعي وضروري كان قائماً في صلب الاسطورة . ذلك لأن « الوحدة » بدأت تكتسب وجودها ، في الوقت الذي اخذت فيه تفقد باستمرار من وحدتها تلك لمصلحة تشكل ميل التناقض والتعارض ذاك وتعميقه . وفي الحقيقة ، في هذا الميل تمركزت وتبلورت بدور فكر نظري فلسفي مستقبلي .

ان هذا يعني اذن ان « وحدة » الفكر الانساني البدائي ، المتمثل بالاسطورة ، احتوت في نفس الآن انشطاراً بلدياً الى اللاواقعي (المثالي) والواقعي (المادي) . بيد اننا حين نتحدث هنا عن ميل طبيعي وضروري ضمن الاسطورة لانشطارها ، وبالتالي لتجاوز ذاتها ، فاننا نرى ان هذا قد تم على مستوى الممارسة الاجتماعية الانتاجية اكثر مما قد تم على مستوى « النظرية » . ولذا فانه لا يمكن ، بعد ، التحدث في اطار هذه المرحلة الانسانية عن فكر فلسفي .

التناقض بين شكل الاسطورة ومضمونها

اما الشكل الذي اكتسبه التطور الذهني للانسان البدائي ، فقد وجد تعبيره في نزاعات غامضة بين المنحيين ، الواقعي واللاواقعي ضمن الاسطورة . كما ان الاسطورة ، التي تضمنت بدوراً أولية غامضة لعنصر فكري واقعي وآخر لا واقعي ، يمكن ان تظهر ، من حيث الشكل Form (٢) الذي اخذته ، غير حقيقية True (٣) . وهذا مانجده في أغلب الحالات . في هذا الصدد يكتب هـ . و هـ . ١. فرانكفورت في مدخلهما لكتاب « ماقبل الفلسفة » بأن الصور الاسطورية في الادب والفن « من نتاج الخيال ، ولكنها ليست مجرد وهم » (٤) . ان هذا — ولا شك — صحيح . ذلك انه ينبغي علينا أن نميز

(١) هـ . لاي : تاريخ حركة التنوير والاحاد — برلين ١٩٦٦ ، مجلد ١ ، ص ٢٢ .

(٢) Form (٣) Wahr

(٤) هـ . فرانكفورت ، هـ . ١. فرانكفورت ، جون . ١. ولسن ، توركيلد جاكوبسن : نفس

المصدر المعطى سابقاً ، ص ١٨ .

هنا ، بقدر ما نستطيع من الدقة ، شكل الاسطورة عن هدفها . فشكلها مرتبط ، في ذهن البدائي ، بقدرته على الارتفاع على الواقع الطبيعي والانفلات من علاقته المباشرة به ، وبالتالي بإمكاناته على التجريد الذهني . بيد أن التجريد هذا لا يعني تجريد الواقع الطبيعي الموضوعي بشكل منطقي وعقلي ، بل الارتفاع عليه ارتفاعاً حسيّاً وهمياً ورمزياً ، بحيث تظل علاقة محددة قائمة بين ذاك « الشكل » الاسطوري والواقع الطبيعي الموضوعي . أي أن الشكل الذي تأخذه الاسطورة ليس من الضروري أن يكون بينه وبين الواقع ذاك علاقة جوهريّة . على العكس من هذا ، نجد مثل هذه العلاقة الجوهريّة سائداً بين مضمون الاسطورة وهدفها وبين الواقع الطبيعي الموضوعي ، في هذه الأغوار البعيدة السحيقة من التاريخ الفكري الانساني يمكننا ، انطلاقاً مما سبق ، رؤية واستجلاء التناقض النسبي الذي هيمن على العلاقة الجدلية بين الشكل والمضمون ، ولا يزال كذلك حتى الآن (١) .

بالإضافة الى ذلك ينبغي الإشارة الى أن معياراً علمياً دقيقاً لتحقيق أو لعدم حقيقة اسطورة معينة لا يمكنه أن يكتفي بالانطلاق من مضمون وشكل الاسطورة تلك ، بل أن الاجابة على السؤال حول كيفية تشكلها وتطورها وحول الظروف التي رافقت ذلك وساهمت فيه ، لهو أمر لا بد منه في سبيل القاء ضوء ساطع على قضيتنا . أي أن هذا يشترط كشف وإيضاح **الدوافع** Motives (٢) التي تكمن وراء عملية تكون الاسطورة . كما يشترط ، من طرف آخر ، تحديد واجلاء كيفية توجّه Approach (٣) الاسطورة للاستجابة والاجابة على المؤثرات الخارجية . فـ « لماذا » و « كيف » ينبغي إذن الكشف عنهما في الاسطورة والتأكيد عليهما والتمييز بينهما .

علاقة الاسطورة بالواقع الطبيعي وعملية تلاشيها وتجاوزها

لقد طرح كارل ماركس في حينه الموضوع التالي : « أن كل الاسطورية Mythologie تتغلب وتسيطر على القوى الطبيعية وتكيفها في الوهم ومن خلال الوهم : أنها تتلاشى إذن مع السيطرة الحقيقية على هذه نفسها

(١) أن قضية التناقض أو التطابق بين الشكل والمضمون من المسائل الهامة ، التي تالجها علوم عديدة في عصرنا ، مثل علم اللغة وعلم الجمال الخ... وهنا ، وبشكل عام ، نستطيع القول بأن المضمون يتطور بمنحى أسرع من منحى الشكل ، هذا طبعا بالرغم من أننا نستطيع

(اي القوى الطبيعية : ط.ت) « (١) .

من هذه الموضوعات يمكن ابراز ناحيتين ، الاولى تقوم على أن الاسطورة لها تاريخ، تاريخ خاص بها . أما الناحية الثانية فتكمن في كون الاسطورة ترفع ويجري تجاوزها ، في الوقت الذي تتحول فيه سيطرة الانسان الحقيقية على الطبيعة المحيطة به الى واقع حي وواسع نسبياً . ولكن هل بإمكاننا فهم هذا بمعنى أن الاسطورة تمثل شيئاً مفرغاً من أي انعكاس صحيح له ؟ ان الاجابة على هذا التساؤل بالإيجاب تتضمن نتيجة لا يمكن فعلاً تبريرها والأخذ بها من وجهة نظر تاريخية معمقة . هذه النتيجة هي عدم اعترافنا للانسان البدائي بتملكه عنصراً ذهنياً (فكرياً) هادفاً ، في الحد الأدنى الضروري ، الى سبر جوانب محيطه الطبيعي واخضاعه لضرورات حياته الضرورية . ولكن انكاراً لمثل هذا التبيؤ « الفكري » الأولي والتلقائي للانسان تجاه الطبيعة المحيطة به يعني عملياً ، وفي آخر تحليل ، انقراض وتلاشي الانسان تحت ضغط الضرورة المعاشية اليومية ، وذلك منذ « بداية » نشوئه . انه (الانسان البدائي) لم يتبياً فقط تبيؤاً بيولوجياً ، وانما ايضاً، وبشكل نسبي ، تبيؤاً فكرياً هادفاً واجتماعياً . اذ انه بدأ يوجد، من حيث هو انسان ، في الوقت الذي أخذ يمارس فيه عملاً بواسطة أدوات عمل بدائية ، كالفأس الحجري أو الابرة العظمية .

ان فعالية الانسان العملية لهي فعالية متوسطة . فهي تتم بأدوات عمل، ومن خلالها ، ولكن ليس بشكل ميكانيكي . ذلك لأن استعمال وصنع أدوات عمل يتطلب من مستعملها ومستخدمها حداً أدنى معيناً من الهدفية الواعية . وهذا يشترط ضمناً وجود تطور ذهني (فكري) لدى الانسان . فعملية العمل هي بشكل جوهري نشاطية هادفة مسبقة ، يقوم بها الانسان للالام بموضوع عمله (اي الطبيعة) وانسنته . وبذلك تكون قدرته على استخدام وصنع أدوات عمل مرتبطة بمخطط ذهني (فكري) في دماغه، مخطط يسبق تحقيق هذه القدرة ويرافقها في نفس الآن : ان « الفكري » يتحول الى « مادي » . وهذا الأخير ، الذي يمكن تسميته هنا ايضاً بـ « الموضوع » يشترط وجود الفكري ، الذي يمكن تسميته هنا ايضاً بـ « الذات » . وهنا نجد انفسنا امام حقيقة هامة تكمن في أن سلوك الانسان البدائي وذهنه لم يكونا ابداً خاضعين لضرورة ميكانيكية مطلقة ، بل كانا في مجموع مراحلهما يتمتعان بنصيب من الحرية تلقاء الواقع الطبيعي الموضوعي .

(١) ك. ماركس : نقد الاقتصاد السياسي ، برلين ١٩٥١ ، ص ٢٦٨ .

بيد أنه على أساس هذه المعطيات وانطلاقاً منه انبثقت إمكانية الانحراف عنها والتعالي عليها ، بحيث بدأ الأمر كما لو أن «الفكرة» ، التي ينتجها دماغ الإنسان ضمن تأثيرات عديدة معقدة ، تسبق العالم المادي في الوجود ، وتمنحه خصائصه الذاتية ، المعبر عنها بـ «الروح» أو «النفس» . فالطبيعة ، حسب ذلك ، ليست هي الوجود « الحقيقي » وليست هي أصل « ذاتها » ، وإنما الفكرة « عنها » هي التي تتمتع بذلك الوجود الحقيقي المحض ، وهي بالتالي المبدعة للطبيعة .

ان واقع اقتصاد المجتمع البدائي القائم على الكفاف والحاجة الأولية قد عبر عن نفسه بأشكال متعددة واقعية ولا واقعية في الاسطورة ، التي اكتسبت الشكل الأولي لوعي الإنسان البدائي ، أي الشكل المتمتع بالحد الأدنى الضروري من « الوعية » . بهذا المعنى نجد الاسطورة قد اكتسبت طابعاً عمومياً ، وذلك من حيث كونها قد جسدت اللحظة « النظرية » التشوفية في وعي مجموعة أو عدة مجموعات إنسانية بدائية . ان خلفية هذه « العمومية الاسطورية » يمكن تفصيلها ، حسب رأينا ، في طابع عملية العمل ، الذي انجزته تلك المجموعات الإنسانية . فالطابع هذا كان أيضاً عمومياً ، إذ لم يكن بإمكان الفرد تحقيق وجوده المادي الا من خلال نشاط مجموعته . لذا فان موضوع عملية العمل تلك ، أي العالم الطبيعي الموضوعي ، هو ، ان تكلمنا بلغته ماركس ، « موضعه الحياة الجنسية (من الجنس) ، وهو مفهوم يقابل بمفهوم النوع : ط . ت (لانسان » (١) . كما أن موضوع عملية العمل هو كذلك ، من حيث كونه يستوعب ويُمثل من قبل الذات الإنسانية العارفة والموضوعة . أما الحياة « الجنسية » ، التي كونتها المجموعة الإنسانية البدائية ، فقد عبرت عن ذاتها من خلال الاسطورة الجنسية (الجماعية) .

بيد أن عمومية أو جماعية الاسطورة كانت قد تضمنت منذ بدء تكونها وتبلورها (أي الاسطورة) ميلاً كامناً للتمايز الذاتي ، وبالتالي للانقسام الذاتي . ان سلوك الإنسان البدائي قد حُدد من خلال إمكانات العمل الذي ينجزه . وكذلك « فكره » أكد نفسه أكثر فأكثر كمخططٍ واعٍ لسلوكه ، وكان عاكساً فعالاً ، بقدر ما ، للعالم المحيط به . ان هذا يعني ، في نهاية

(١) ك. ماركس : نقد الاقتصاد القومي - ضمن : المخطوطات الفلسفية الاقتصادية ، نفس المعطيات السابقة ، ص ١٠٥ .

الأمر ، أن كل اسطورة تتضمن ، بشكل أو آخـر ، شيئاً من الحقيقة . وما
فن المغاور في العصر الحجري القديم الا برهان واضح على ذلك (١) .

نتائج التقدم في التكنيك والاصوات الطبيعية والتجريد الذهني

ان الابحاث التي قدمها بعض العلماء (٢) في مجالات العلوم المقارنة
والواصفة الخاصة بالشعوب - العلوم الاثنوغرافية والانتولوجية - تـري ،
بالتعاون مع نتائج ابحاث فلسفية اخرى ، أهمية الدور الذي مارسه تطور
وتمايز « الاصوات الطبيعية » لدى الانسان البدائي ، هذه الاصوات التي
خدمته كوسيلة للتفاهم . ولقد نشأت وتطورت هذه الاصوات ضمن ومن
خلال عملية العمل . ولذا فانها تميزت نوعياً عن الاصوات الحيوانية ، التي
لا تربطها علاقة منطقية ما والخاوية من مضمون هادف « ذهنياً » .

بالعلاقة مع تقدم تكنيك العمل ومع العمل الجماعي تطورت الاصوات
الطبيعية واكتسبت اشكالا أكثر تمايزاً وخصباً . وقد تم هذا متأخياً مع
تطور الميل للتعميم والتجريد الذهنيين في دماغ الانسان انطلاقاً من أشياء
وعلائق طبيعية واجتماعية : ان نمو هذه القدرة لدى الانسان (أي التعميم
والتجريد) ساهم بشكل اساسي وحاسم الى حد بعيد في تبلور وتطور
الفكر الفلسفي المتميز في وقت لاحق (٣) . وقد جسدت « الاسطورة » ذلك
الميل واحتوته ، وكانت هي بالتالي تعبيراً عنه .

(١) في المؤلف الضخم (تاريخ عام للفن) - لايبزغ ١٩٦٥ ، مجلد ١ - نجد اشكالا وصلتنا
من تلك الفترة التاريخية ، ليس لها فقط قيمة تاريخية ، وانما أيضا قيمة جمالية . فمن
الشكلين « رأس حصان » و « امرأة بقرن » مثلا ، من العصر الحجري الاول (ص ٥٥٣ و ٥٥٤)
يمكن التعرف على كيفية عكس انسان ذلك العصر لمحيطه الطبيعي ، وبأي شكل قد تم هذا :
لقد تم بأسلوب واقعي (انظر : ص ٢٦) . هذه الحقيقة التاريخية دعمت من قبل الباحث
الفرنسي G. de Mortillet (عاش من ١٨٢١ حتى ١٨٩٨) ، حيث أبان ان فن العصر
الحجري القديم مترع بمضمون واقعي (انظر: تاريخ الفلسفة، مجلد (١) ، برلين ١٩٦٠ ، ص ٢٠).

(٢) مثل Leonhardt و Westermann

(٣) ان الانسان « يرسم حيوانا . وهو بهذا يكون ملاحظاته حول هذا الحيوان . انه يعيد
تركيب شكله دائما بثقة أكبر . انه يعطي معرفته المنيقة عن هذا الشكل صورة محددة ،
وبذلك يشبثها . وفي نفس الوقت يتعلم التعميم : ففي شكل واحد تستجمع الخصائص
(من قبل الانسان) ، التي روتبت لدى وعول كثيرة » . (تاريخ عام للفن - نفس المعطيات
السابقة ، ص ٢٠) .

تجاوز وهمي للعالم المادي ، ومحاولة استيعابه نظرياً وعملياً

كما أن الميل هذا تضمن كلا اللحظتين ، الواقعية واللاواقعية . وهاتان اللحظتان قادتاها بدورهما باتجاهين متعارضين . فالواحدة منهما ، وهي « اللاواقعية » ، انبعثت عن العجز النسبي للإنسان البدائي لتلقاء محيطه الطبيعي الموضوعي وتلقاء نفسه هو . أما اللحظة الأخرى فقد كانت تعبيراً عن الموقف الإنساني الهادف واقعياً هذا الموقف المشترط وجوده حياتياً ، كما كانت تعبيراً عن رد فعل الإنسان على محيطه والتأثير عليه .

وقد عمقت اللحظة الأولى ، اللاواقعية ، وجودها من خلال منحها ينبوعاً ، الذي هو العجز ، طابعاً نظرياً ناجزاً ، وذلك من خلال لجوئها ، في حال تعاملها مع الطبيعة ، الى « قوى » ليست بذات وجود حقيقي مشخص . انها رأت في الظواهر الطبيعية ، التي وقف الإنسان عاجزاً لتلقاءها قوى وهمية ، معتبرة اياها المبدعة لتلك الظواهر . وهي ، أي اللحظة اللاواقعية ، اذ اختطت طريق تعمقها واكتسابها طابعاً متميزاً ومستقلاً عن اللحظة الواقعية ، فانها ارسيت بذلك الحجر الاساسي للتطور اللاحق للفكر الفلسفي المثالي وللتنصور الديني .

ان « روح » و « قوة » الشيء ، حسب الفكر الفلسفي المثالي والتنصور الديني ، ليسا من هذا الشيء . فهو لا يتضمنهما بمعنى انه اصلهما وينبوعهما ، بل بمعنى انهما يضيفان عليه وجوده الحقيقي ، فهو ظل مشوّه لهما . وهكذا فالعلاقة بينهما وبينه ليست علاقة مساواة ، ذلك ان « القوة » و « الروح » يتمتعان بوجود مستقل في « مكان ما » حيث يمارسان ، من هنا ، تأثيراً على الشيء وعلائقه مع الاشياء الأخرى ، هذا التأثير الذي يمتد حتى عملية الابداع من عدم مطلق .

بالطبع ، لا يجوز للمرء ان يبالغ في تقدير الدور الاولى للتطور الفلسفي المثالي والوهمي . بيد انه مما لا شك فيه ان في هذه « الدور » قد كمنت اصول الاديان التي نشأت لاحقاً الى جانب المثالية الفلسفية ومن خلال فعل متبادل معها . ان الدينية Religiosity (١) ، التي استقت جذورها من العجز الإنساني الموضوعي والذاتي ، قد وقفت في تعارض متسع اكثر فاكثر مع مطامح الإنسان الاولى في تحقيق سيطرة حقيقية لا وهمية على

Religiositaet (١)

عالمه المادي المعطى وفي تحويل (انسنة) هذا العالم تحويلاً هادفاً . ولقد حمل هذا في احشائه نتيجة سلبية تلقاء عملية المعرفة ، حيث أدى بها الى الشلل . لم يعد المرء يتكلم هنا عن « معرفة » حقيقية للعالم الحقيقي (المادي) ، وانما عن عملية تهدف الى سلخ العالم هذا من « ماديته » ، وذلك للتأثير على احداثه وعلائقه لصالح رفع وهمي لعجز الفرد والمجموعة الانسانية البدائية(١) .

ان كل هذه اللحظات قد احتضنت من قبل «الاسطورة» . بيد ان الميل الآخر المضاد ، الميل الواقعي ، وقف في تعارض متنام اكثر فأكثر واعمق مع تلك اللحظات الناشئة عن العجز . وقد تم هذا انطلاقاً من «عملية العمل» الانسانية اليومية وتحت تأثير متطلباتها . وحيث تم هذا ، فانه اتخذ وجهة واضحة المعالم ، تركزت في رؤية الانسان البدائي للعالم الخارجي ليس من حيث هو شريك ثان له ، وليس من حيث هو ذات موجودة خارجاً عنه ، وانما - وهذا هو المهم - كتحقيق مباشر له (اي للعالم الخارجي) .

ان هذه العلاقة العملية والوجودية (الانطولوجية) بين الانسان والعالم الخارجي كانت في نفس الوقت المنطلق الاول للمحوّل والترسانة الحقيقية - الاصلية - للتطور اللاحق الخاص بالاتجاه الفلسفي المادي وبالعلم عموماً .

هل تاريخ الفكر الفلسفي احادي الجانب ؟

اننا نستطيع ، بناء على ما سبق ، رفض الراي القائم على أن تطور تاريخ الفكر النظري قد سار بشكل احادي ، بمعنى أنه تاريخ لمفهوم أساسي واحد فقط ، دون التكلم عن مفهوم آخر مضاف له . فالفيلسوف الالماني الوضعي J. Petzoldt حاول ان « يقرب الى الافهام ، على أساس من علم النفس ، تاريخ التفكير بالعالم من حيث هو تاريخ ذو مغزى لضلالات (اخطاء) ، وذلك بمعنى أنه (ذلك التاريخ) يلاحق ويتابع خطأ أصلياً منطقياً وتجريبياً موجوداً في مجموع الرؤى الفلسفية الكونية تقريباً »(٢) . ويتابع القول بأن المفكرين الذين جعلوا من ذلك المفهوم ، السليدي يسميه

(١) ان تصور افلاطون ، الفيلسوف المثالي الكبير ، عن المعرفة كـ « تذكر » يمنح عملية « سلخ العالم » تلك وضوحاً نظرياً بارزاً . وبالعالم لم يتحقق هذا الا بعد نشوء «الفلسفة» بالمعنى المتميز .

(٢) ي. بتسولدت : قضية العالم ، نفس المعطيات السابقة ، مقدمة الطبعة الاولى .

بالجوهر Substance، المبدأ الأوجد والأشمل لنظمهم الفلسفية ، لم يستطيعوا ان يستوعبوا كون هذا المبدأ غير مفهوم بذاته ، لأنه يمكن تحديده والتعرف عليه فقط من خلال معالجته في علاقته العضوية مع غيره (١) . وكذلك فالتفكير يبدأ ، حسب رايه ، مع نشوء وتطور التمايز والتعارض . وبما ان هذا ، حسب رايه أيضاً ، قد تحقق لأول مرة في تاريخ الفكر على يد الفلاسفة الوضعيين Schuppe و Avenarius و Mach ، فانه يدين مجموع التاريخ السابق على هؤلاء كتاريخ « ضلال أو خطأ ذي مغزى عميق » . وقد كان من الممكن تجنب هذا الضلال ، لو وجدت الشخصيات الفذة المؤهلة لانجاز ذلك (٢) .

على هذا النمط اللاتاريخي ، وانطلاقاً من احكام مسبقة ، تعرض المسألة ، ويحاول إكسابها طابع الموضوعية العلمية .

ونحن حين نفترض ، كما يريد بتسرلذت ، أن الاتجاه المادي قد بقي الوحيد السائد في تاريخ الفكر الانساني حتى نشوء المذهب الوضعي ، وأن العنصر « الفكري » أو « الروحي » بالتالي لم يتواجد مع الاتجاه ذاك كمفهوم متعارض معه ، فاننا سوف نصل الى النتيجة الضرورية التالية ، وهي ان كل الفترة التاريخية تلك تاريخ للفكر المادي الفلسفي فقط ، القائم على الضلال والخطأ . بيد ان الأخذ بهذا الرأي والنظر الى التاريخ الفكري من هذا المنظور يشكل خطأ مزدوجاً : فمن طرف ادل لأن الفكر الفلسفي ، المادي والمثالي ، قد تشكل بالأصل انطلاقة من « اسطورة » المجموعات الانسانية البدائية . وثانياً لأن « الفكري » أو اللحظة الفكرية نفسها في دماغ الانسان قد جرى تملكها وتفسيرها من هذين الميادين الفلسفيين الأصليين بدرجة ورؤية مختلفتين .

فالحظة المادية في الميل المادي تضمنت ، على هذا الشكل ، اللحظة الروحية أو الفكرية مفهومة وماخوذة من خلال رؤية واقعية .

من هذا المنطلق يمكن ان يبدو الأمر كما لو كان وحدة مطلقة بين الوجود المادي والوجود الواعي نسبياً ، أي بين الوجود المادي وانعكاسه الذهني (الوعبي) في دماغ الانسان البدائي . الا ان هذا الافتراض غير دقيق . ذلك لأنه في الوقت الذي كانت فيه هذه الوحدة المطلقة تفصح عن نفسها — وهي في الأصل من مخلفات فترة انتقال الحيوان الى انسان — ،

(١) انظر : نفس المصدر السابق ، ص ٣٠ — ٣٢ .

(٢) نفس المصدر السابق ، ص ٨٠ و ٨٤ .

كانت ذات أهمية ثانوية ، غير جوهرية . أما الأهمية الجوهرية فقد اكتسبتها ، في هذه الحال ، عملية انفصال الانسان عن الطبيعة وارتفاعه عليها . هذا يعني أن اللحظة الفكرية والمحيط المادي لم ينظر اليهما على انهما الشيء نفسه ، وأن اللحظة الفكرية بالتالي لم ينكر وجودها .

إن التثبيت من وجود اللحظة الأخيرة تلك يعطينا اياه ، كما رأينا ، واقع الاسطورة البدائية ومضمون الانظمة الفلسفية المادية لدى الفلاسفة الطبيعيين اليونان في التطور اللاحق . فهنا احتفظت اللحظة الفكرية « بخاصيتها » في اطار المادي (أي المحيط المادي) ، وذلك كجزء « خاص » ضمن هذا المادي . انها استوعبت كقطاع خاص ب « بالحركة والحيوية » في العالم المادي . هذا الاتجاه في فهم القطاع الفكري شكل قاسما مشتركا بين وعي الانسان البدائي وبين الفكر الفلسفي للفلاسفة الطبيعيين اولئك ، وعلى الاخص الدريين منهم .

من طرف آخر نجد ان اللحظة الفكرية قد جرى تمثيلها من قبل الاسطورة في المجموعات الانسانية البدائية ومن الاتجاه الفلسفي المثالي اللاحق بشكل لا واقعي ، ماورائي . وقد تم هذا ، في جوهر المسألة ، على حساب المادي (المحيط المادي) . من خلال ذلك لم يستطع هذا الأخير أن يؤكد ذاته الا كمجال مظهر للفكري .

أيهما أكثر قدمية واصالة ، الميل المادي أم الميل المثالي ؟

والآن ، وبعد ما استعرضناه من أمور ، نرى السؤال التالي يفرض نفسه علينا بالحاح : أيهما تكون قبل ، الميل المادي أم الميل المثالي ؟ إن التوغل في جوهر القضية يظهر أن هذين الميلين لم يجتازا في نشوئهما تطورا متساويا متوازيا ، بل تطورا متمائزا برز فيه الميل المادي قبل الآخر المثالي . وفي الحقيقة ، هذا يعود الى أن الانسان « بداء » يوجد كإنسان ، حيثما استطاع أن يحقق حدا أدنى لتمثل الأشياء وعلاقتها المادية تمثلا ذهنيا وبشكل « واقعي » ، أي حينما استطاع تحقيق حد أدنى من التبيؤ العملي و « الذهني » مع محيطه المادي .

وإذا أخذنا بعين الاعتبار النتائج والانعكاسات الذهنية لعملية التبيؤ هذه في رأس الانسان البدائي ، فربما ستظهر لنا غامضة ، أسرارية . بيد أن الدافع الى ذلك — وهنا تكمن العقدة — هو رد الفعل الانساني الهادف والواعي قليلا أو كثيرا على المحيط المادي الخارجي ، الذي يستثير ،

بالأصل ، رد الفعل ذلك .

ان هذه المسألة تكتسب بعدها واطارها العلمي والفلسفي ، حيثما تستوعب وتفهم بعلاقتها مع الواقع التاريخي التالي ، وهو أنه مع نشوء الانسان كفة رد الفعل الجسمي عن ان يكتسب الدور الحاسم في عملية التبيؤ الانساني مع المحيط المادي الخارجي . فردود الفعل الأكثر بدائية وعفوية « لانسان » عصر التوحش ، لم يكن لها ان تبرز ، من حيث هي ردود فعل انسانية ، دون هدفية واعية الى درجة ما . ذلك لأن « العفوية » في سلوك وذهنية البدائي كانت ، مع تطوير وتحسين تكتيك العمل والاحرف الصوتية ، ترتد شيئا فشيئا الى وراء . ولذا كانت عملية تعميق وتطوير « الهدفية الواعية » في سلوك وذهنية الانسان متلازمة عضويا مع عملية تعميق الحرية الانسانية تجاه المحيط المادي ، وبالتالي تجسيدا ذهنيا جدليا حيا لمستوى وطابع التكتيك (الآلات الخشبية والحجرية والعظمية الخ . .) المستخدم من قبل الانسان البدائي .

هكذا نرى ان الفكر الفلسفي المادي يستمد وجوده الاصلي من الموقف الطبيعي الذي يجد الانسان نفسه مرفعا على أخذه تجاه العالم المادي المحيط . بالرغم من ان هذا الموقف ، بحد ذاته ، لا يؤدي الى تكوين فكر فلسفي متميز . بيد ان ذلك الموقف الطبيعي كان ولا يزال احد الاسلحة الماضية في يد الفكر المادي ضد المثالية وضد « الغيبية » بكل اشكالها .

لذا فان معيار حقيقة السؤال : ايهما تكون قبل ، الميل المادي ام الميل المثالي ، يكمن في الاجابة على السؤال التالي : ماهي السمة الجوهرية للانسان ، من حيث هو كذلك لا ونحن نعلم ، حسبما سبق ، ان هذه السمة تكمن في كونه (اي الانسان) كائنا فعلا عاملا ، في كونه يقف من العالم المادي موقفا واقعيا realistic (١) من خلال تكتيك العمل . لقد كان على الانسان منذ « البدء » أن يعمل و « يفكر » واقعيا . بالطبع لا يجوز فهم هذا « البدء » بشكل لا تاريخي ولا جدلي . فان يكون الانسان قد عمل وفكر منذ البدء واقعيا ، لا يعني ان هذا يفهم بالضرورة على أساس الانعكاس الذهني للعمل الإنساني الانتاجي ، بل على أساس « الدافع » المحرك لفعل الانسان ولتفكيره . اما هذا الدافع المحرك فهو ضرورة التبيؤ الطبيعي بهدف حفظ واستمرار الحياة .

realistisch (١)

بيد أن ذلك يتضمن تناقضا بين النظرية والممارسة ، بين العمل المتحقق بدافع حياتي ضروري (التبيؤ الطبيعي الاجتماعي) وبين انعكاسه الذهني . و الحقيقة ، هذا التناقض يمكن فهمه وتبريره على أساس أن ليس هنالك أصلا وحدة (هوية) مطلقة بين الفكر والممارسة العملية . ومن الضروري جدا أخذ ذلك التناقض بعين الاعتبار ، إذا أردنا دراسة وتفحص « المادية » و « المثالية » في نشوئهما وتطورهما .

التمييز بين الهيمنة والتقدمية التاريخية ، بين حقيقة الاسطورة ومشروعيتها التاريخية .

الى جانب ذلك تظهر لنا دراسة ذلك التناقض أهمية التمييز بين ناحيتين ، الاولى هي « الهيمنة أو السيادة » والاخرى هي « التقدمية التاريخية » . ففي اطار الممارسة العملية و « الفكر » كان الميل الواقعي ضمن الاسطورة في آن واحد مهيمنا وتقدما ، ذلك انه قد ساهم ، في اطار الامكانات المعطاة ، في توجيه الانسان البدائي الى عالمه المادي الحقيقي وليس الوهمي ، وبالتالي في تطوير عملية المعرفة الانسانية . وبهذا المعنى فقد كان (الميل ذاك) ، آخذين بعين الاعتبار الاطار التاريخي الذي احتواه ، في نفس الوقت صحيحا معرفيا ومشروعا من الناحية التاريخية والاجتماعية .

بيد انه مع تعمق « وعي » العجز الانساني وتعمق انحراف الخيال Imagination (١) والمعرفة عن الواقع الطبيعي والاجتماعي ، أخذ الميل المادي يخسر من هيمنته اكثر فاكثرا .

ان هذا الوضع الجديد انطلق في نموه في وقت اخذت فيه الأديان الاولى تتكون وتتلور - تقريبا في المجموعات القبلية - . في هذه المرحلة نجد أن طرفي النزاع : الميل المادي والميل المثالي ، يبلغان مستوى متعادلا في الهيمنة والسيادة في المستوى الذهني (النظري) . هنا تبرز مسالتان ينبغي التاكيد عليهما : ١ - ان الممارسة الانتاجية المباشرة للانسان ظلت تشكل دعامة أساسية وقوية للميل المادي (الواقعي) ٢٠ - لم يتغير شيء جوهري بخصوص « حقيقة » الميل المثالي . فقد بقي هذا انعكاسا وهميا للعالم المادي ، بالرغم من انه ظل مشروعا ، من حيث الاطار التاريخي .

كما يبرز لنا هذا حقيقة أخرى ، وهي أن طرفي النزاع المشار اليهما ،

Phantasic (١)

منظورا اليهما بالنسبة الى نزاعهما على المستويين النظري والعملي ، لم يتعادلا . ذلك لان الميل المادي (الواقعي) احتفظ ، بشكل عام ، بالهيمنة والتقدمية في توجيه الانسان البدائي .

من هنا نستطيع اكتشاف خطأ الرأي القائل بان الميل المادي والمثالي (اللاواقعي) كانا متحدين بشكل وثيق في الاسطورة ، بحيث ينتهي حينئذ القول بوجود تمايز معين بينهما(١) .

ان فهما تاريخيا جدليا للاسطورة يتنافى مع النظر الى تاريخها من حيث هو تاريخ اوهام وضلالات ذهنية بدائية ومن حيث هو بعيد عن عملية نمو حقيقي معقد للمعرفة الانسانية(٢) .

وجود العالم المادي الموضوعي وانعكاسه الواعي وعوامل تكون هذا الانعكاس .

في مجمل تاريخ الاسطورة تكونت لدى الناس البدائيين ، وان كان بشكل غامض ومن خلال الموقف العملي اليومي المباشر ، حقيقة جوهرية ، هي ان للاشياء الطبيعية ، كالاشجار والاحجار والماء والمطر ، التي لهم (للناس) بها علاقة يومية مباشرة ، وجودها المستقل عن وجودهم وخارجا عنه . بالطبع ، اذا كانت هذه الحقيقة غامضة لدى اولئك الناس البدائيين ، وان تكن قد برزت لديهم بشكل اساسي من خلال ممارستهم العملية اليومية التلقائية والبسيطة ، فان هذا لا يؤدي الى انكار وجودها .

لقد ساهم في ابراز وترسيخ تلك الحقيقة في ذهن انسان المجموعات

(١) في هذا الاتجاه يكتب مثلاً ر. جارودي : « في عصر لم توجد فيه العبودية بعد ومعها تقسيم المجتمع الى طبقات متعادلة لا يزال الدين والعلم ، المثالية والمادية ملتصقين في الاسطورة ، ولا يوجدان بعد في تناقض مع بعضهما ... » (ر. جارودي : الحرية كمقولة فلسفية وتاريخية ، برلين ١٩٥٩ ، ص ٢٤) .

(٢) ان اللاعقلاني الفرنسي « غوستاف لوبون » يرى التطور التاريخي عبارة عن تطور « الوجدية الوهمية » ، بحيث يطرح كل عنصر عقلاني في التاريخ جانبا . انه يكتب : « ونقوم الوجدية على الخضوع لاهام بالغة من القوة ما تنفست معه من سلطان العقل ، وتاريخ البشرية هو تاريخ هذه الاهام على الخصوص ، وتنمو الامة اذا ما حازت اوهاما دينية او سياسية قادرة على تحريك جهودها ... » (غوستاف لوبون : فلسفة التاريخ ، الطبعة العربية ، دار المعارف بمصر ١٩٥٤ ، ص ١٢٢) .

البدائية عاملان أساسيان ، هما الممارسة الانتاجية اليومية، وظاهرة الموت . فالإنسان ذاك كان متوجها عليه (كما هو الحال أيضا بالنسبة الى انسان عصرنا وكما سيبقى الامر هذا في المستقبل) بضرورة طبيعية ان ينفذ الى العالم المادي المحيط بكثير أو قليل من العمق والدقة . كان يتوجب عليه ان يرتبط به بشكل أو آخر ، ان يمتلكه ويحوله بقدر ما الى ينبوع لحياته المحدودة . بيد ان ذلك العالم المادي لم يكن عديم المقاومة تلقاء السلاح « اي أدوات العمل » المشهر في وجهه من قبل الانسان البدائي .

لقد كان على الانسان ان يكتشف أبعاد هذا العالم ، أي « قانونيته الخاصة » ، من خلال عملية طويلة ومعقدة . على هذا الطريق الشائك كانت أدوات العمل ، الآخذة بالتطور كما وكيفاً ، وقدرة التفكير المتنامية شيئاً فشيئاً تشكلان المحرك الاساسي .

في مجرى هذه العملية دخل في ذهنية الانسان البدائي تحول جديد ، كمن في الانتقال من مفهوم المحيط Environment (١) الى مفهوم العالم World (٢) ، وذلك لأن الانسان هذا تجاوز الأفق الضيق المحدد من خلال بنية مجموعته البشرية الموجود بينها ، والتي هي بدورها ذات أفق محدد : فمجموعته البشرية هذه ، التي كونت محيط كل عضو فيها ، تضمنت اتجاه تحولها الى مجموعة مؤلفة من عدة عشائر ، وذلك بالعلاقة مع عملية التحول والتطور الاقتصادي ، التي طرأت على المجتمع البدائي .

اما ظاهرة الموت فقد ساهمت في تكوين وتعميق **الحس** بموضوعية العالم المادي الخارجي في ذهن الانسان البدائي ، حيث كان هذا الاخير مضطراً - بطبيعة حياته اليومية - الى المقارنة المباشرة والموازنة الحسية بين ظاهرتين ، هما الموضوع غير المتحرك والجامد « الذي لا يتلاشى ولا يذهب هباءً » من طرف أول ، والقوة ، أو الروح التي تدخل مع الموت في حالة سكون وانعدام من طرف آخر . وبالرغم من أن أفراد المجموعات البدائية كانوا ملتصقين بالمحيط المادي المعطى التصاقاً قوياً وعلى نحو مباشر، فان ذلك لم يؤد بهم الى اعتبار وجود المحيط مرهوناً بوجودهم .

ان فهم هذا ينطلق ، كما أسلفنا ، من مبررات وشروط عملية . فالتقاطب بين الوعي والعالم ، الذي تبلور وتطور الى جانب ومن خلال نشوء

Welt (٢) Umwelt (١)

وتطور تقسيم العمل الانساني الى واحد فكري وآخر يدوي (جسدي) في المجتمع الجديد الطبقي ، لم يصبح بإمكانه تجاوز الوضع السابق (أي الاقرار العملي والذهني المباشر بموضوعية العالم الخارجي) الا حيث فصلت الفعالية الذهنية الفكرية عن الفعالية العملية المباشرة . وبطبيعة الحال فقد كان ذلك «التقاطب» خطوة هامة وضرورية على طريق التوصل الى «المفهوم» المجرد « عن العالم المادي ، هذا المفهوم الذي يبقى بالرغم من تجريديته ملتصقا بـ « جوهر » العالم المادي . كما أن « القوى » ، التي اعتبرت « أرواح » الظواهر الطبيعية ، تنظر اليها باعتبارها ذاتية هذه الظواهر . فالروح ، بهذا المعنى ، اكتسبت اطارا ماديا طبيعيا ، بحيث اعتبرت جزءا من العالم المادي : انها احيائية بدائية ، ولكن ضمن حس ورؤية واقعيين (ماديين) .

ان هذا التصور الأولي حول ترويح (من الروح) شامل للظواهر الطبيعية لدى الانسان البدائي يمكن اخذها على انها الاصل السحيق للمبدأ العلمي الخاص « بالحركة الذاتية » لهذه الظواهر . وهذا على الرغم من الصورة « الاسطورية » التي اكتسبها ذلك التصور البدائي .



ان الميل الواقعي (المادي) اكثر اصالة وقدماء من الميل اللاواقعي (المثالي) في التاريخ الفكري الانساني ، وذلك باعتبار ان نشاطية الانتاج للانسان الاجتماعي تنفي ، في الاصل ، كل انحراف لا واقعي ، ومن طرف آخر باعتبار ان الدوافع والبواعث المباشرة لهذه النشاطية تمارس في دماغ الانسان البدائي توجيها واقعيا .

وبطبيعة الحال ، فنحن حين نكلمنا عن ميل « مادي » ضمن الاسطورة البدائية ، فاننا لا نعني بذلك سوى الاصل الطبيعي لما سوف ينشأ لاحقا من اتجاه « فلسفي » خاص ومتميز .

ان هوية ، او وحدة مطلقة بين الوعي الانساني والعالم المادي لم توجد ، ولم يكن لها ان توجد . وانه ، في الحقيقة ، لخطا فاحش ان ننطلق من أن الانسان ، حتى في أدنى مراحل تطوره « لم يعرف أي تناقض بين نفسه وبين محيطه الطبيعي » (١) .

(١) Arthur Drews : تاريخ الاحادية Monismus في العصر القديم ،

هايدلبرغ ١٩١٣ ، اصدار المكتبة الجامعية لكارل ونتر ، ص ١ .

لاشك ان الانسان البدائي قد تعرف على العالم المادي المحيط وتلمسه في حياته المباشرة كعالم واحد . ولكن الكثرة ، كثرة الظواهرات في العالم هذا ، انعكست أيضا في التفهم العملي للانسان ذاك . اما حقيقة هذا القول ، فانها تكمن في الموقف العملي الواقعي للانسان تجاه عالمه الخارجي المحيط . ذلك لان المباشرة الخاصة بوعيه بالنسبة الى العالم الخارجي ذاك هي ، في نفس الآن ، تذيبت - من الذات - ، وتوضيع - من الموضوع - له ، أي لوعيه ، وليس الواحد دون الآخر ، أي ليس تذيبت دون توضيع ، والعكس .

اما العام والمفرد Individual (١) ، والوحدة والكثرة ، والهوية والتناقض ، فان هذه جميعا قد اكتسبت ترسانات أصيلة (أولية) في الوعي الانساني ، وذلك من خلال وحدة عميقة كثيرا أو قليلا تجمع بين الواحدة والأخرى . وبإلحاح هذه الحقيقة لا تفقد شيئا من واقعها ومفعولها حين نعلم ان التطور النظري المعرفي اللاحق قد نحا باتجاه تعميق فعالية التعميم والتجريد لدى الانسان .

ولقد فهم وعومل العالم المادي كشيء جسمي . اما الذهني (الوضع الذهني) فقد تملك خاصيته في نظر ذلك الانسان في الجسمي نفسه . ولذلك نستطيع الافتراض بان التقسيم الدقيق اللاحق للعالم أو الوجود الى « مادي » وإلى « فكري » قد اكتسب أصوله الأولية من الواقع ذاك البدائي (٢) .

ان الانسان البدائي قد استوعب العالم المادي في عموميته المحسوسة . ولقد تضمنت عملية الاستيعاب هذه اتجاهها للتجريد . وهو (أي الانسان) قد تعلم ، ببطء ومدفوعا من حاجاته الحياتية الأولية ، ان استنبات وتعميق عملية التجريد الذهني من العوامل الجوهرية لحفظ وتطوير نفسه .

★ ★ ★

ونحن اذ حاولنا ، فيما سبق ، معالجة العلاقة بين الواقعية (المادية) والاسطورة من جهة ، واللاواقعية (المثالية) والاسطورة من جهة أخرى لدى المجموعات الانسانية البدائية ، فاننا نرى نفسنا قد توصلنا ، على ضوء

(١) Einzelnes

(٢) قارن هذا بكتاب S. Luria : بدايات فكر يوناني ، دار نشر الاكاديمية ، برلين

١٩٦٣ ، ص ١٣

ذلك ، الى نتيجة أساسية تتعلق بالتصور حول « المادة » أو العالم المادي لدى المجموعات تلك . ان هذه النتيجة تقوم على أن التصور Notion (١) ذلك في وعي الانسان البدائي لم يتعد حسية هذا الوعي وعيانية الظواهر المادية . ان هذا التصور ، الذي لبي وعكس المتطلبات الحيوية لكفاح الانسان مع الطبيعة ، حقق ، مع نشوء وتطور اتحاد جديد من قبائل عدة ، قفزة جديدة هامة كمنت في التحول من « تصور المحيط » الى « تصور العالم » .

اما معرفة « العام » في تجريده فلم تجتز آنذاك الا تطورا ضئيلا . وقد كان على الوحدة (الهوية) الاصلية النسبية بين الانسان والعالم الخارجي أن ترغم شيئا فشيئا على التراجع ، وبالتالي على السماح للانشطار والتناقض بالبروز بشكل أعمق . ونحن نرى من وراء ذلك عاملين ، هما تطور مستوى شروط العمل الانساني ، وتطور وتكامل القدرة على التفكير المجرد . وبالطبع ، فكما أننا غير قادرين أبدا على التكلم عن وحدة « مطلقة » بين الانسان والعالم المادي ، فاننا أيضا غير قادرين أبدا على التكلم عن ثنائية « مطلقة » بين الانسان والعالم المادي .

واذن فقد توجب انقضاء فترات تاريخية كاملة ، حتى استطاع الانسان رؤية العالم ذاك واستيعابه بشكل مفهومي واع في تناقضاته الحقيقية ووحدته المجردة .

وأخيرا نرى من الضروري الإشارة الى أن البحث عن أصول أولية للفكر الفلسفي المادي والمثالي في « أسطورة » الانسان البدائي لا يعني أننا نجد ذلك الفكر في هذه الاسطورة . ذلك لأن تفكيراً فلسفياً أخذ في التكون والتطور ، حيث انقسم العمل الانساني الى واحد فكري وآخر يدوي (جسدي) في المجتمع الطبقي الجديد ، الذي قام على انقراض المجموعات الانسانية البدائية .

أما الذي استطعنا تفصيله في « الاسطورة » تلك ورسم ملامحه الأولى البعيدة ، فهو فترة ما قبل تاريخ الفكر الفلسفي المتميز والمنظم .

القسم الثاني

معالم المشكلة الفلسفية في شكلها المبكر اليوناني

الموضع الاجتماعي - الاقتصادي وفكري في اليونان القديمة وشروط نشوء الفلاسفة هناك

ان معالجة قضايا التطور الفلسفي المادي ، وعلى الاخص « مفهوم المادة » في واحدة او في عدة من فترات تطوره الرئيسية في اليونان القديمة - كما في العصر العربي الاسلامي الوسيط - ، لا يمكن لها (للمعالجة) ان تكتفي بالانطلاق منها نفسها ، لكي تكون قادرة على كشف الملامح والاتجاهات الرئيسية لذلك التطور الفلسفي أو لذلك « المفهوم » . فمن النتائج الأساسية للعلم الاجتماعي المعاصر التأكيد على أن تاريخ فترة اجتماعية ما يشكل وحدة كلية عضوية ، وعلى أنه ، من طرف آخر ، توجد هنالك حلقات أو عناصر ضمن هذه الوحدة تمارس تأثيراً أكثر حسمية وأكثر أهمية من حلقات أخرى في التطور القانوني لتاريخ الحقبة الزمنية المحددة . هذا يعني ، بطبيعة الأمر ، أنه من الخطأ النظر الى الحلقات والقطاعات المختلفة والمكوّنة للمجتمع الانساني على انها متساوية في فعلها وتأثيرها ، ويؤدي بالتالي الى أن نرفض مثلاً هراء الوجودي الفرنسي البير كاموالقائم على مساواة السكير في حائته بالقائد الاجتماعي أو الحربي في جبهة كفاحه . بيد أن هذا بدوره لا يدعونا الى رفض الحقيقة التالية ، وهي ان العناصر والقطاعات « الأخرى » من المجتمع تمارس فيه أيضاً فعاليتها المؤثرة ، وان لها بالتالي خاصيتها النوعية المستقلة نسبياً عن تلك القطاعات الأكثر حسماً وأهمية .

ان العوامل التي تمارس ، في النهاية ، حسب معطيات العلم الاجتماعي المعاصر ، الدور الأكثر حسمية في عملية التطور الاجتماعي الانساني هي الاجتماعية - الاقتصادية . بينما اشكال الوعي الاجتماعي ، من فن وفلسفة

وعلم ، فانها ، وان تكن فعالة ، لا تملك ان تمارس فعلاً ذلك الدور . ونحن نستطيع التأكد من صحة هذه الموضوعية العلمية ، اذا درسنا بشكل خاص ملامح المجتمع البدائي الاجتماعية - الاقتصادية والفكرية . وقد حاولنا ذلك في القسم الاول من هذا الكتاب .

ان ذلك المجتمع البدائي قد تميز ، بالخط الاول ، بكونه مجتمعاً قام على الكفاف الاقتصادي والفكري . الا ان هذا الواقع اكتسب في التطور اللاحق ، أي مع عملية انتقال وتحول المجتمع البدائي الى المجتمع الطبقي وتوطد هذا الأخير ، أشكالاً جديدة ، بحيث نشأت صعوبات جدية أمام الباحث ، يمكن أن تؤدي ، اذا لم توضع في اطارها الصحيح ، الى تشويش القضية في ذهنه . من هذه الصعوبات مثلاً ان يتبنى المرء الرأي القائم على ان « النظرية » أو الفكر النظري عموماً يجد جذره ومبرر وجوده ، بالدرجة الاولى ، في ذاته . أو انه أكثر من ذلك ، أصل العالم المادي الخارجي ، هذا بالرغم من كون الفكر ذاك يتمتع بوجود مستقل نسبياً عن الواقع الاجتماعي . ان تلك الاشكال الجديدة من تطور الحياة الاجتماعية - الاقتصادية والفكرية ، هذه الاشكال الآخذة بالتعقد والتشعب أكثر فأكثر ، لا يمكن دراستها وتقصي ابعادها طبقاً لمتطلبات البحث العلمي التاريخي الدقيق اذا أريد للوضع الاجتماعي - الاقتصادي ان يشتق من ظواهر فكرية ما . ونحن في الوقت الذي تؤكد فيه على أن تلك الاشكال الفكرية تمارس تأثيراً ايجابياً أو سلبياً فعلاً على الواقع المادي الموضوعي ، فاننا - منطلقين من معطيات العلوم الطبيعية والاجتماعية ومعطيات تاريخ الفكر الفلسفي - لا نشك في ان الاشكال الفكرية المعنية تخضع ، في الأخير وبشكل غير مباشر ومتوسط ، الى التأثير الأكثر حسماً للآطار الاجتماعي - الاقتصادي الذي تندرج فيه . انها ، تلك الاشكال الفكرية ، تجيب على المشكلات التي يطرحها الاطوار ذاك ، وتؤثر هي بدورها على هذه العملية بمجملها ، سلبياً أو ايجابياً . فهي نفسها التي تصوغ الاسئلة المطروحة عليها من قبل الواقع الاجتماعي - الاقتصادي ، وبذلك تؤكد نفسها كعنصر فعال ديناميكي في عملية التطور الاجتماعي - الاقتصادي وفي وعي هذه العملية من قبل الانسان الاجتماعي .

لذا فان انجاز بحث علمي دقيق للفكر الفلسفي في تاريخه الذي يشمل بالطبع الفترة اليونانية بما فيها من اتجاه مادي ساهم بأشكال وحدود مختلفة في التأثير على الفكر العربي الاسلامي الوسيط ، أقول ان انجاز بحث من هذا النوع يستلزم كشف وتحديد الخلفية الاجتماعية - الاقتصادية لذلك الفكر .

وبالرغم من وضوح منهجنا هذا في البحث ، فاننا نود التنويه بأننا نرفض ،
 بوعي ، طرح القضية من خلال منطلق ميكانيكي يرى في الفكر الفلسفي ،
 والنظري بشكل عام ، امتداداً كميّاً لتلك الخلفية . ان الاقتصادية Economism (١)
 تشوه المسألة حقاً ، حيثما تعتبر مظاهر الحياة الاجتماعية والفكرية الثقافية
 كلها خاضعة لحتمية اقتصادية خضوعاً اشتقاقياً ، بمعنى ان تلك المظاهر ،
 لكي تجد تفسيرها ، ينبغي ان تستنبط (تُشتق) من الأسس الاقتصادية
 للمجتمع الذي يحتويها . ولكننا ، من ناحية أخرى ، نرى في « النظرية
 الداتية اللاتاريخية » والنظرية الأخرى القائمة على « النقد النفسي
 الداتي » لتاريخ الفكر الفلسفي خطراً يماثل خطر « الاقتصادية » على البحث
 العلمي لتاريخ الفكر هذا . ولنا مثال على « النقد النفسي » و« اللاتاريخية »
 في عشرات الكتب الصادرة والتي تصدر باللغة العربية لمؤرخي الفلسفة
 العرب ، امثال عبد الرحمن بدوي .

وبالطبع ، فنحن حين نرى ضرورة الخلفية الاجتماعية الاقتصادية للفكر
 الفلسفي من أجل طرح وتحديد ملامح وآفاق تطوره الأساسية ، فاننا
 نريد بذلك تشخيص الأطر العامة الضرورية لتلك الأرضية ، تلك الأطر التي
 تحركت ضمنها امكانية نشوء الفكر ذاك .

ان نشوء « الفلسفة » ارتبط بانبثاق تقسيم العمل الانساني الى واحد
 فكري وآخر يدوي (جسدي) وتواقت ، مبدئياً ، معه . هذا بمعنى نفي
 اي تأثير ميكانيكي على بعضهما . ذلك لان الثاني منهما ، أي تقسيم العمل ،
 قد قدم امكانية نشوء وتطور فكر فلسفي متميز . وفي الحقيقة ، ان محاولة
 بحث اصول الفكر هذا بمعزل عن التأثير الذي مارسه على ذلك تقسيم العمل
 خاطئة ، بمقدار ماهو خاطيء الراي القائل بتلازم ميكانيكي بين تكون تقسيم
 العمل ونشوء الفلسفة .

لقد أخذت تتكون بدايات فكر فلسفي بالمعنى المتميز لأول مرة في
 تاريخ البشرية لدى اليونان القدماء في القرن السادس ق.م ، مع ان تقسيماً
 للعمل الى فكري ويدوي كان موجوداً قبل ذلك في بلدان أخرى ، مثل مصر
 وما بين النهرين . هذا الواقع التاريخي يطرح علينا واجب البحث عن عوامل
 أخرى ساهمت ، مباشرة أو بشكل متوسط ، في تكوين الملامح الأولية للفكر
 الفلسفي .

(١) Oekonomismus

في هذا الاطار من طرح القضية يجب ملاحظة ان اليونان القديمة قد وجدت منذ القرن الحادي عشر ق.م ضمن عملية تحول جديد ، يمكن تحديده ، بشكل عام ، بأنه اتجاه جديد لاقامة مجتمع عبودي . ان أهمية هذا التحول كمنت ، في ذلك الوقت ، في كونه مثل انقلاباً اجتماعياً جوهرياً في العلاقات البطريركية (العلاقات الابوية) القديمة ، وفي كونه، بالتالي، قد أرغم العصر « الذهبي » ، الذي قام على تلك العلاقات ، على التلاشي .

فتقسيم العمل ، من حيث هو كذلك في التاريخ الاجتماعي ، جلب معه أيضاً في الإنتاج المادي المعاشي بالنسبة الى الحد الأدنى من متطلبات الحياة المعاشية. ولكن هذا كان ، في نفس الوقت، دفعة ضرورية لتحقيق مبدا تبادل المنتجات بين الافراد ، كما بين العائلات . ولا شك في أن ادخال الإنتاج التبادلي الى الحياة الاقتصادية للمجتمع اليوناني كان المهد الحقيقي لتكون وتبلور وجه اجتماعي جديد في تلك الحياة . فقيمة التبادل ، التي هي البضاعة ، أخذت تتحول الى العامل الفعال والمميز في تطور المجتمع اليوناني . ودون ريب ، فان نشوء وتطور الإنتاج البضائعي في ذلك المجتمع شكل نقطة تحول أساسية في تطوره . والعلاقات الاجتماعية البطريركية وجدت نفسها ضمن عملية تلاش آخذ في العمق والاتساع ، ولكن التبادل البضائعي لم يتحقق في الحياة الاقتصادية العامة الا بشكل بطيء . فهو طالما لم يفرغ بعد المجتمع كله ، أي

الاستهلاكية . أما البديل لذلك فكان مجتمعاً موحداً ، من حيث كليته ، ومنقسماً ، من حيث تناقضاته الطبقيّة الجديدة . ومن الجدير بالذكر أن علاقات الملكية الجديدة هي التي عملت على اكساب المجتمع الجديد ملامحه الأساسية العامة . ولقد كان على الاقتصاد الزراعي البدائي كاقصاد لا منازع له ، أن يفقد ، خلال ذلك ، أكثر فأكثر من جذوره العميقة ، وذلك في وقت أخذ فيه العمل اليدوي يمارس في الحياة الاجتماعية العامة دوراً متزايداً في الأهمية . والعمل اليدوي هذا توسع وتطور بشكل طردي بالنسبة الى تسارع تحقيق الانتاج البضائعي والتبادل البضائعي على مستوى مجموع الحياة المادية للمجتمع . على طريق هذا التحول في الانتاج والتبادل البضائعيين أخذت تبرز بقوة ضرورة التحسين المستمر « للمعادل » البضائعي العام . أما التحول العميق ، الذي طرأ على علاقات الانتاج الجماعية القبلية وأدى بها لأن تصبح علاقات نقد مجردة ، غير شخصية و « غير قابلة لأن تدرك » ، فإنه استطاع أن يكتسب مضمونه الاجتماعي ، حيثما تحول ذلك المعادل البضائعي الى نقد معدني .

الا ان هذه العملية لم تأخذ أبعادها على طريق منسجم ، خال من أزمات النمو وتناقضاته . فهي في مسيرتها ، تميزت باحتوائها تناقضاً أساسياً بين علاقات الانتاج البطريكية القديمة ، المتجمدة والمتكلسة اقتصادياً وبين النمط الجديد من الانتاج للحياة الاجتماعية المادية ، وهو الانتاج البضائعي . وانطلاقاً من تيار هذا النمط الانتاجي ومن خلاله دافع العالم الجديد عن نفسه ضد العالم القديم ، وذلك بطموحه وبعملة التاريخي المشروع على مدّ كيانه على مجموع المجالات الاجتماعية .

ولقد اهتزت علاقات الملكية الزراعية القديمة ، الكبيرة والصغيرة نتيجة تطور وتعاظم أهمية الانتاج التبادلي البضائعي . ولكنها ، وخصوصاً الكبيرة منها ، لم تنزل . في هذا الواقع الاجتماعي عبرت عن نفسها إحدى الملامح الجوهرية للوضع الاجتماعي الاقتصادي والفكري الذي ساد آنذاك : الطابع التواطؤي للعناصر المتناقضة والمكونة لذلك الوضع . أما الكشف عن هذا الطابع ، فإنه يتعاق أساساً بتوضيح دقيق لحالة القوى الاجتماعية الطبقيّة ، التي كانت آخذة في التشكل والنماء .

لقد كتب ف. أنجلز في حينه الموضوعة الأساسية التالية : « ان مرحلة الانتاج البضائعي ، التي تبدأ بها الحضارة ، تحدد ، من الناحية

الاقتصادية ، من خلال دخول ١ - النقد المعدني ، وبالتالي الراسمال المالي والفائدة والربا و ٢ - دخول التجار كطبقة وسيطة بين المنتجين و ٣ - دخول الملكية الخاصة والرهن العقاري و ٤ - دخول العمل العبودي ، من حيث هو الشكل المسيطر للإنتاج (١) . وفي الحقيقة ، نجد ان ميزان القوى الاجتماعي قد تغير في اليونان القديمة لصالح تكوين وتوطيد طبقة اجتماعية جديدة ، هي طبقة التجار . وقد تحقق هذا من خلال توسيع وتشعيب دائرة التبادل البضائمي ضمن منطقة واحدة وعدة مناطق . اما الدور الوسيط بين البائعين والمشتريين فقد مارسه بالأصل تلك الطبقة الجديدة . ولا شك أن تكون الطبقة هذه وتميزها ، من حيث هي كذلك ، عن بقية القطاعات الاجتماعية يعتبر تحولاً أساسياً في مجمل التطور الاجتماعي الانساني . فهي قد جلبت معها مرحلة جديدة من مراحل تقسيم العمل . انها خلقت ، في آسيا الصغرى في اليونان على وجه الخصوص ، نظام تجارة ضخماً اثر على مجمل الحياة الاقتصادية الاجتماعية . ولقد تكون وتطور مع هذا النظام التجاري بالضرورة رأسمال تجاري وربوي . ذلك لأن طبقة التجار تلك استلزم وجودها هذا الراسمال كوسيلة ضرورية لطرح وفرض شخصيتها الاقتصادية في المجتمع الجديد . من طرف آخر نلاحظ ان ترسيخ هذا الراسمال وتوسيع نطاق وجوده لهو تعبير عميق عن الدرجة المتزايدة لاستغلال الطبقة الرئيسية الأخرى ، طبقة العبيد .

لقد كان التجار في نفس الوقت مالكي عبيد . الا انهم لم يكونوا الوحيدين من حيث تملكهم عبيداً . فقد شاركهم في ذلك أيضاً الملاك الكبار والفلاحون الصغار والعمال اليدويون . ان هؤلاء جميعاً كوتوا الفئات الأساسية ضمن السكان الاحرار في المجتمع . مقابل هؤلاء كلهم انتظم العبيد في تقاطب أخذ اكثر فأكثر في الاحتداد . ان هذه البنية الاجتماعية الطبقيّة قد تكونت خلال عملية طويلة ومعقدة ضمن المجموعات القبلية وعلى أساس الملكية الخاصة ومد سلطتها على مجموع قطاعات المجتمع . وقد وضع الحجر الاساسي لهذا التحول الكبير خلال « الفترة الهومرية - نسبة الى هومروس - » ، التي امتدت من القرن الحادي عشر حتى القرن التاسع ق.م (٢) .

اما في القرنين الثامن والسابع ق.م فقد اكتسبت عملية التحويل تلك

(١) ف. انجلز : اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة ، برلين ١٩٥٢ - ضمن (كتابات مختارة ، مجلد ٢ ، ص ٣٠١) .

(٢) انظر حول ذلك : الموسوعة الصغيرة - تاريخ العالم ، لايبزغ ١٩٦٦ ص ٢٦٦ .

طابعاً سريعاً وواسعاً . وهنا ينبغي الملاحظة بأن ادخال « صك العملة » النقدية في الحياة الاجتماعية - الاقتصادية العامة قد ساهم بشكل جوهري في توطيد تلك البنية الاجتماعية الطبقيّة . أما اكتساب عملية صك العملة النقدية طابعاً ثابتاً دورياً ، فقد كان في القرن السابع ق.م (١) .

ان هذه الصورة عن البنية الاجتماعية الطبقيّة للمجتمع العبودي اليوناني قد كوّنت بجوانبها التمايزية المتعددة وحدة عضوية . وبطبيعة الأمر ، فنحن حين نتحدث عن تلك الجوانب ، من حيث هي تمايزية ، فاننا نؤكد بذلك على واقع هام ، وهو ان وحدة هذه الجوانب نسبية . بمعنى انها تحتوي انشطارات ذاتية جسّدت به شكل اساسي طبقتا العبيد والاحرار . ولكن حتى ضمن طبقة الاحرار تلك - وهذا الأمر له أهمية كبيرة بالنسبة الى مسألة تكون وتطور الفكر الفلسفي آنذاك - تكونت ونشبت تناقضات وصراعات اسهمت في اعطاء المجتمع اليوناني جوانب هامة من ملامحه الاساسية .

في التمايز والتناقض ضمن طبقة مالكي العبيد من الطرف الاول - وقد تجسد هذا في انشطارهم الى الارستوقراطية المالكة للعبيد والديموقراطية المالكة للعبيد - ، وفي الوضع الاجتماعي المساوي للعبيد تجاه مالكيهم ككل ، وفي المستوى المرتفع نسبياً لتطور الانتاج البضائعي ونظام النقد المعدني من الطرف الآخر ، في ذلك كله كمنّت الخلفية الاجتماعية - الاقتصادية لنشوء الفكر الفلسفي في اليونان القديمة . اما الديموقراطية المالكة للعبيد فقد كانت المهد الخصب لذلك الفكر . وبطبيعة الأمر ، سوف يتساءل المرء في هذا المجال حول الاسباب التي حالت دون تكون وتطور الفلسفة من قبل العبيد في ذلك الوقت . من أجل هذا نرى من الضروري طرح واثارة النقاط التالية : لاشك ان التعرض لموقع العبيد آنذاك ضمن الفعلية الانسانية المنقسمة الى شكيلين اساسيين ، الفكري واليدوي (الجسدي) ، وبالتالي لموقفهم من ذلك يشكل حلقة أساسية من قضيتنا . في حقيقة الأمر ، نجد ان تقسيم العمل ذاك قد اكتسب ملامحه الاساسية الاولى بالعلاقة مع انشطار وانقسام المجتمع اليوناني الى طبقات اجتماعية . فالوحدة العميقة النسبية بين العمل اليدوي (الجسدي) والعمل الذهني (الفكري) التي

(١) انظر نفس المصدر السابق ، ص ٢٦٧ . بالإضافة الى هذا انظر : ج. تومسون ، الفلاسفة الاول ، نفس المعطيات السابقة ، ص ١٥٩ و : موسوعة ماير الجديدة في ثمانية مجلدات ، المجلد ٥ ، لايبزغ ١٩٦٣ ، ص ٩٣٩ .

سادت في المجتمع البدائي ، تمر هنا في مرحلة جديدة نوعياً تتميز بكونها (أي المرحلة) اتجاهها لتجاوز الوحدة تلك تجاوزاً شاملاً . فبدلاً من الوحدة ، نجد المجتمع الجديد يؤكد على فصل « الفكري » عن « الجسدي » . وفي هذا الإطار مارس « النقد المعدني » دوراً أساسياً .

ان النقد ، الذي تتجسد فيه قيم اجتماعية واقتصادية ، يحمل طابع وسيطٍ مجرد ، غير شخصي ، وبالتالي طابع خالق للحياة اليومية بكل قيمها . كما ان علاقات الانتاج الاجتماعية الواقعية ، وبشكل خاص تلك العلاقات منها القائمة بين المنتجين الباشرين ، ظهرت كما لو انها فقدت وجودها المشخص فتحوّلت ، على هذه الطريق ، الى « وهم » غير قابِل للفهم . ومجرد بقاء متزايدة . ان الاتجاه نحو « سحق » غير المالكين بدا على أساس تعميق « النقد » في الحياة العامة ، كما لو كان شيئاً مصيرياً لاراد له . ذلك لأن النقد ، من حيث هو كذلك ، غير خاضع في المجتمع الطبقي العدائي لرقابة الانسان . والمنتجات المؤنسة ، التي كان عليها أن تساهم في تكامل صانعها ، الانسان ، تكاملاً مادياً وفكرياً وعاطفياً ، وقفت امامه بعداء تحمل طموحها في اذلاله وتصفيده في قيود لا تتكسر . انه يستطيع تملكها ، تلك التي هي نتاجه هو ، فقط حيثما يملك شيئاً من ذلك « الضمن الوهم » ، الذي هو النقد : « بيد ان ما يمنحني حياتي ، هو أيضاً الذي يمنحني وجود الناس الآخرين من اجلي . وهذا بالنسبة الي هو الانسان الآخر » (١) .

وفي الحين الذي يتضمن فيه النقد الصفة لأن يكون كونياً وقهاراً ، نجده يجسد درجة عليا من التجريد . انه (أي النقد) ادخل باشكاله العديدة في الحياة الاجتماعية - الاقتصادية الجديدة لاكتساب التبادل والانتاج البضائعيين طابعاً دورياً منتظماً . خلال ذلك كمن « العصب » الاساسي للحياة الاقتصادية بالدرجة الاولى في ايدي مالكي العبيد .

والمرء لا يسهه الا ان يلاحظ الواقع التالي ، وهو ان عملية التجريد من كل البضائع ، التي توصل الى مفهوم « النقد » ، هذه العملية التجريدية قد انجزت بشكل اساسي من قبل المالكين ، أي من اولئك التجار الذين مارسوا التبادل البضائعي . ان ذلك الواقع يصبح مفهوماً لدينا ، حالما نعلم ان نشوء وتطور النقد المعدني استلزم درجة عالية من تطور الفكر النظري المجرد

(١) ك. ماركس/ ف. انجلز: دراسات اقتصادية صغيرة - نفس المعطيات السابقة ، ص ١٦١ .

لدى المفكرين و « الحكماء » ضمن طبقة التجار وأصحاب الأعمال ومالكي السفن آنذاك . ان هذا المكسب التاريخي في الفكر النظري كان في نفس الوقت بداية انعطاف كبير في ابتعاد الفكر عن الواقع الحي ، وحجراً أساسياً حاسماً لتقسيم الفعالية الانسانية الى قطاع فكري وآخر يدوي .

ان تقسيم العمل هذا اكتسب ، في ظروف العلاقات الاجتماعية العبودية ، طابعاً « غير عادل » . ذلك لأن القطاع الفكري من العمل الانساني انتصب تلقاء القطاع اليدوي بعدائية وبروحية « النخبة » . لقد تنظر الى هذا الأخير على انه ارفع نوعية من الأول . هكذا ، وفي آخر تحليل ، يتحدد طابع ذلك التقسيم للعمل : طبقتان اجتماعيتان ، هما العبيد ومالكو العبيد ، ووجودان متميزان من الفعالية الانسانية ، هما العمل الفكري والعمل اليدوي (الجسدي) . وكالفكر ، الذي يخضع اليد والجسد لمخططه ولطامحه ، هكذا أيضاً طبقة مالكي العبيد بالنسبة الى طبقة العبيد . فمالكو العبيد لا يتصرفون فقط بوسائل الانتاج **الصماء** في المجتمع (مثل الفأس والسكين وخزان الماء) ، وانما أيضاً بوسائل الانتاج **الموهوبة لغوياً** ، التي هي العبيد ، المنتجون المباشرون للقيم الاجتماعية . ذلك لأن « العبد لم يبع قوة عمله لمالك العبيد ، كالثور الذي لا يبيع جهوده للفلاح . إن العبد ، بمجموع قوة عمله ، لهو مباع مرة واحدة وإلى الأبد لمالكة » (١) . وبالنسبة لهذا يوجد العبد تحت مستوى الفكر النظري ، أو أكثر من ذلك ، إنه يوجد خارج هذا الفكر ، تماماً كالثور . فكلاهما ، العبد والثور ، لا يعترف بهما كمواطنين ضمن المواطنين الآخرين .

ان هذه الهوة السحيقة بين **الفكر والعمل** ، بين النظرية (الحكمة) والممارسة ، كنتيجة مشروعة للتقاطب الاجتماعي العميق بين العبيد ومالكي العبيد ، طبعت بميسمها مجموع الحياة الاجتماعية في اليونان القديمة . بيد ان تقسيم العمل الى فكري وجسدي لم يتحدد آفاقه فقط ضمن التقاطب الاساسي الكبير بين الطبقتين الاجتماعيتين الاساسيتين آنذاك ، مالكي العبيد والعبيد ، بل انه برز ضمن الطبقة الأولى ، المسيطرة على المجتمع اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً وايدولوجياً . فمما لاشك فيه انه ليس جميع افراد هذه الطبقة المسيطرة لديهم القدرة على التنظير والتفكير الفلسفي . فكان قسم منهم قد انصرف كثيراً أو قليلاً الى أمور الفكر مساهمة منه في تكوين

(١) ل. ماركس : العمل المأجور والراسمال . موجود في ماركس/انجلز : كتابات مختارة .

مجلد ١ ، ص ٧٠ - ٧١ .

الملاح الأساسية لوعي طبقته الاجتماعي ، لايجاد المبررات الايديولوجية الضرورية لوجود طبقته . وقد اتفق ايديولوجيو (مفكرو) الطبقة المسيطرة في اليونان القديمة من الوسط المثقف ضمن هذه الطبقة . الا ان هذا لايعني ان الطبقة الاجتماعية المسيطرة تلك لم تكن ، في مجموعها ، مهتمة بأمور الفكر والثقافة ، بالرغم من ان القسم الاكبر منها كان يتعاطى الفكر والثقافة ، دون ان يكون مبدعاً لهما . ولكن حقيقة تبقى جوهرية ، وهي ان التقاطب بين قطاعي الفعالية الانسانية ، الفكري والجسدي ، يبقى معبراً ، بالترجيح **الاولى** ، عن التقاطب الاجتماعي الاساسي بين كلا الطبقتين الاجتماعيتين الكبيرتين ، مالكي العبيد والعبيد .

في ذلك الواقع التاريخي المحلل فوق كمن واحد من الاسباب الأساسية التي أدت الى نشوء الفلسفة في اليونان القديمة في «رحم» طبقة مالكي العبيد ، وليس طبقة العبيد : ان هذه الطبقة — الأولى — ، التي ملكت في ايديها السلطة الاجتماعية — الاقتصادية ، استطاعت ، في الخط الجوهري العام ، ان تجعل من اسلوب تفكيرها الاسلوب السائد في مجموع حقول المجتمع . ونحن اذ نأخذ بعين الاعتبار التناقض الداخلي بين اصحاب الاعمال والتجار ومالكي السفن من جهة وبين ملاك الاراضي الكبار من جهة أخرى ، فاننا سوف نجد ان مبدعي اسلوب التفكير ذاك قد سلكوا طريق الكفاح على جبهتين : فمن طرف ضد الايديولوجية القبلية الشائخة والكابحة لتقدم الانتاج البضائعي والتجارة المنفتحة ، ومن طرف آخر ضد اولئك الافراد — ايضا ضمن الطبقة المسيطرة — الذين حاولوا منفردين وبكثير او قليل من الحزم ان يرفضوا « العبودية » او أن يكافحوها (١) . ولكن بالرغم من ذلك فان تضامنا طبقياً واضحاً ظل يحيط بالجناحين الاساسيين من مالكي العبيد ، الديموقراطيين والارستوقراطيين ، ويوجههم — في الخط العام — ضد عدوهم المشترك ، العبيد .

على العكس من ذلك ، لم يستطع العبيد ، على الرغم من الرابطة

(١) ان ارسطو يقدم لنا هنا وثيقة قيمة على ذلك . فهو يكتب : « ... ان الآخرين يمتدنون بان الطغيان يخالف الحق الطبيعي . وفقط بقوة قانون وضي (موضوع) يمكن للواحد ، حسب رأي اولئك ، ان يكون مبدعاً وللآخر ان يكون حراً . بعكس ذلك ، فانهما ، انطلاقاً من الطبيعة ، لا يختلفان من بعضهما ابداً . ولذلك فان سيطرة السيد على العبد هي ايضا ليست مشروعة ، وانما تقوم فقط على الارغام » . (ارسطو : السياسة ، دار نشر فلنكس نايتز ، لايبزغ ١٩٤٨ ، ص ٧) .

الاجتماعية العميقة التي توحد بينهم موضوعياً ، ان يكونوا ويطوروا حياة ثقافية مشتركة بينهم وخاصة بهم . فهم انحدروا من شعوب عديدة متباينة ، مما لم يتح لهم امتلاك لغة واحدة مشتركة . بالاضافة الى هذا ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار وضعهم الاقتصادي - الاجتماعي والانساني الذي عانوا منه ، وضع اضطهاد هائل وتعرض للإبادة الجماعية في أحيان كثيرة من خلال الحروب مثلاً .

ان وضع العبيد هذا في المجتمع اليوناني تظفر اليه ، بالعلاقة مع تفسير مثالي للعلاقة بين النفس والجسد ، كما لو كان أمراً طبيعياً ، من طبائع الأمور . لذلك اعتبر (أي وضع العبيد) شيئاً ضرورياً من أجل ضمان استمرار القاعدة المادية السلبية والمنفعلة للمجتمع ، كما هو الحال تماماً بالنسبة الى علاقة الجسد المادي السلبي والمنفعل بالنفس الروحية الايجابية والفاعلة . وقد أدى وضع المسألة من خلال هذا المنظور الاجتماعي والفكري ، كما المحدث سابقاً ، الى اعتبار العبيد عاجزين عن ممارسة فعالية فكرية ما . ولذا فهم دون مستوى الرؤية الفكرية (الروحية) للامور . والعبيد اذن ، من حيث هم كذلك ، سوف لن يكونوا قادرين على خلق عالم فكري خاص بهم . بل أكثر من ذلك ، سوف لن يعطوا الحق لانجاز ذلك ، لأن الحق أصلاً - هكذا ، وفي الخط العام ، طرحت المسألة في الفكر الفلسفي والحقوقى اليوناني ، المادي منه والمثالي - مقولة تكتسب وجودها الاجتماعي المياني فقط ضمن اطار الاحرار ، مالكي العبيد .



ان محاولة دراسة وتقصي الوجوه العديدة لقضية نشوء وتطور الفكر الفلسفي في اليونان القديمة تستلزم استكمال الصورة الاجتماعية البنيوية ، أي ان التعرض لوضع طبقة التجار وأصحاب الاعمال ومالكي السفن ضمن عملية الانتاج المادي لابد منه من أجل ذلك الهدف . وعلى سبيل التذكير ، نحن رأينا أن ادخال النقد المعدني في الحياة الاقتصادية اليونانية قد ساهم في خلق نهوض مرموق في تطور واستكمال الانتاج البضائمي . بيد ان هذا النهوض الانتاجي وما رافقه من مظاهر اجتماعية واقتصادية أخرى وضعت أمامه - منذ البدء - كوابح وعراقيل ليست بذات أهمية قليلة . وقد قام بعملية « الفرملة » هذه ، كلا الجناحين الرئيسيين ضمن طبقة مالكي العبيد ، اللذين هما ملاك الاراضي الكبار من جهة والتجار والمتعهدون والباعة وأصحاب السفن من جهة أخرى . ان الطبقة الاخيرة هذه لم تشارك مباشرة في عملية

الانتاج البضائعي . فقد انحصر دورها في كونها وسيطا بين المنتجين والمشتريين (المستهلكين) . والنقد ، الذي تجمع أكثر فأكثر في أيدي أفرادها ، اكتسب وظيفة أداة ضخمة لها طابع شمولي اجتماعي وموجهة في اتجاه الاضطهاد الاجتماعي - الاقتصادي والايديولوجي . كما ان التجميع الدائم والثابت للنقد أدى فشيئا فشيئا الى أن تحول الى رأسمال تجاري .

والآن ، ان كانت طبقة التجار قد اخذت وضعا غير منتج مباشرة ضمن عملية الانتاج البضائية ، فان هذا طبعا لم يتأت عن مصلحة ذاتية لها . ان هذا قد رجع الى طبيعة وظيفة الرأسمال التجاري الذي وجد تحت تصرفها . فلقد نشأ وتطور هذا الرأسمال التجاري والرأسمال الربوي ليس في علاقة مباشرة عضوية مع عملية الانتاج الاقتصادي المباشرة ، كما هو الحال بالنسبة الى الرأسمال الصناعي . بيد أنه بمعزل عن عملية الانتاج هذه ، لم يكن لذلك الشككين من الرأسمال (اي التجاري والربوي) أن يصل الى الآفاق الواسعة التي حققها في المجتمع اليوناني الحضاري (الطبقي) . وبالرغم من وجود علاقة وتأثير جدلي متبادل بين الاشكال الثلاثة من الرأسمال - مع الاخذ بعين الاعتبار ضعف الصناعي منها - ، فان الدور الجوهرى في الحياة الاقتصادية اليونانية مورس من قبل التجاري والربوي .

ولقد كان العبيد وبضائع أخرى موضوع التجارة الاساسي (١) . انهم كونوا قوى الانتاج الرئيسية . وبما انهم استغلوا واضطهدوا من قبل سادتهم حتى الرمق الاخير ، فقد كانوا يفقدون مجددا كل اهتمام ومصلحة في العمل المرهق الموكول اليهم .

واذا لاحظنا ، الى جانب وضع العبيد ذاك ، وأخذنا بالحسبان النتائج المبيدة للنزاعات السياسية والعسكرية المستمرة بين مالكي العبيد في الدولات المختلفة وبين الفئات المتوسطة الحرة ، التي (اي النزاعات) نشبت بدوافع منافسات تجارية ، فاننا سوف نصل الى تقرير واقع اجتماعي اتسع وتعمق آنذاك أكثر فأكثر ، وهو تكلس وجمود الحركة التجارية والتكنيك والانتاج الاقتصادي ، وكذلك نشوء أزمة سياسية داخل طبقة مالكي العبيد عموماً ، والجناح الديمقراطي منهم على الاخص (المكون من التجار والباعة

(١) « في روما ، كما في اليونان ، لعبت تجارة الاشياء الكمالية والخاصة بالزينة الى جانب التجارة بالعبيد وبضائع أخرى دورا كبيرا . وقد جلب ذلك من بلدان الشرق . » (الكتاب التعليمي للاقتصاد السياسي ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٣٦) .

وملاك السفن والحرفيين) . وقد مرت هذه الازمة السياسية بواحدة من فتراتها العميقة خلال الحرب البيلوبونيسية ، التي نشبت بين السنوات ٤٣١ - ٤٠٤ ق.م بين سبارطة واليونان ، وكان من نتائجها اخضاع اليونان من قبل سبارطة ، حيث أصبحت السلطة بأيدي الديكتاتوريات المدعومة من ملاك الاراضي الكبار .

ان الفترة الممتدة من القرن الثامن حتى القرن الخامس ق.م كانت الزمن الذي بلغت فيه اليونان القديمة ازدهارها الكبير في الحياة الاجتماعية - الاقتصادية والثقافية الفكرية . وقد تطور وتقدم آنذاك الفكر الفلسفي النظري بشكل عاصف ، وخصوصا في المدينتين Milet و Ephesus في نهايات القرن السادس ق.م. وخلال حكم (تراسيبولس) ، حوالي القرن السادس ، عاش البلد في ازدهار شامل .



ان نشوء وتطور تلك الظاهرة الجديدة ، اي الفكر الفلسفي ، لم يكن ليتحقق لولا وجود بعض العوامل الخاصة في هذا المجال ، التي كانت ، بشكل أساسي ، مفقودة في المجتمعات العبودية السابقة على المجتمع اليوناني . ومن أجل تبين الملامح الأساسية لتلك العوامل نرى ضرورة طرح السؤال التسالي : ضمن أية ظروف تكونت ضرورة التصدي للاسطورة والتصور الديني في الحياة الفكرية اليونانية ، بحيث استطاع الفكر الفلسفي الطبيعي احتلال مواقع قوية فيها ؟ انه لخطأ فادح أن نلجأ الى الاجابة على هذا السؤال بالتاكيد المضخم على الدور الذي مارسته المعطيات الاقتصادية - الاجتماعية والتكنيكية في استخراج وتكوين الفكر الفلسفي ذاك . ان القيام بذلك يؤدي بنا الى « الميكانيكية » . وقد تعرضنا لهذه الظاهرة في صفحات سبقت من هذا الكتاب . ان تلك المعطيات الاجتماعية - الاقتصادية والتكنيكية (تقسيم العمل الانساني الى واحد فكري تقوم به « النخبة » وآخر جسدي تنجزه « الحثالة » ، والتطور الواسع للتجارة وبالتسالي للراسمال التجاري بمواكبة تطور الانتاج البضائي ، واكتشاف واستخدام النقد المعدني ، واخضاع عملية الانتاج الاقتصادي للدورة التجارية ، والموقف المتوثب والطموح والمغامر والمعلن للتجار تلقاء مصالحهم في الدولة والمجتمع) وضعت حجر الاساس لامكانية نشوء وتطور فكر فلسفي متميز .

ان Salomo Luria يؤكد بحق : « انه تبسيط (للأمور) غير مقبول ان يعمل المرء على توضيح النمو العاصف للعلم اليوناني في ذلك الوقت (أي

بداية القرن السادس ق.م : ط.ت) بالدرجة الأولى من خلال حاجات
التكتيك . فمن أجل اشباع هذه الحاجات كان يكفي كليا العلم العملي
للشرق القديم « (١) » .

ان البواعث المباشرة على نشوء الفكر الفلسفي في اليونان القديمة
انطلقت من مهد الجناح الديمقراطي ضمن طبقة مالكي العبيد ، هذا المهد
الذي اتسم بخصوبته السياسية والمؤسسية والفكرية . ان النزاعات
الاجتماعية والسياسية بين ملاك الاراضي الكبار والجناح ذاك حددت بقدر
كبير ملامح الوجه الفكري الثقافي للبلد . ولكن ليست هذه الملامح فقط
تحددت بذلك التقدر من خلال تلك النزاعات ، بل أيضاً درجة تطور وتوسع
الانتاج البضائعي والنقد المعدني والتجارة في الحياة الاقتصادية للمجتمع .
خلال تلك النزاعات وفي اعقابها كان الجناح الديمقراطي يجني نجاحات
ومكتسبات عديدة ومرموقة ، منها مثلاً ازالة الطائفة للعلاقات القبلية
القائمة على الدين . وقد تحققت هذه الخطوة انطلاقاً من التشريعات التي
سنّها « صولون » . كذلك رفع مستوى الزراعة خلال حكم
« بايسستراتوس » في منطقة اثينا في منتصف القرن السادس ق.م . واخيراً
يمكننا ذكر الثورة الديمقراطية التي قادها « كلايستينس » عام ٥٠٩ ق.م ،
والتي اسقطت النبلاء نهائياً ومعها العلاقات القبلية . اما التناقض
الاجتماعي الطبقي « الذي قامت عليه المؤسسات الاجتماعية والسياسية
فلم يعد بين النبلاء والشعب العام ، وانما أصبح بين العبيد والاحرار ... » (٢) .

واذا كان النزاع الطبقي الاجتماعي - الاقتصادي قد تحدت آفاته
في تلك الفترة بالدرجة الأولى من خلال الاحرار والعبيد ، فان التناقض
والصراع الايديولوجي بين ملاك الاراضي الكبار النبلاء المتفلب عليهم
اقتصادياً واجتماعياً وبين ملاك العبيد الاحرار لم يتلاشياً .

ان ديمقراطية (من الديمقراطية) المجتمع اليوناني من قبل الجناح
الديمقراطي ضمن مالكي العبيد لم تشمل السياسة والاقتصاد فقط ،
وانما ، وبالعلاقة مع هذا ، أيضاً الحياة الثقافية (الفلسفة والفن
والادب ...) . وقد كان الديموقراطيون في سياستهم « عقلانيين » .
و « عقلانيته » هذه تكونت وتطورت من خلال كفاح مكشوف ومستتر

(١) س. لوريا : بدايات فكر يوناني ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٧ .

(٢) ف. انجلز : اصل العائلة ... ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٤٨ .

ضد الايديولوجية القبلية والاسطورية الدينية . واكثر فأكثر برزت ايديولوجية الديموقراطيين ورؤيتهم الفلسفية في الحياة اليونانية العامة . والجدير بالذكر أن الأساس الاجتماعي - الاقتصادي الموضوعي للمجتمع الجديد قد قطع الطريق مسبقاً على المؤسسات الدينية في محاولتها كسب وظيفة اجتماعية وسياسية في المجتمع هذا . وفي الحقيقة ، كانت عملية « قطع الطريق » تلك شيئاً ضرورياً وطبيعياً ضمن ظروف التطور الذاتي لليونان .

ان الفلسفة والعلم ، وقد كانا يشكلان شيئاً (واحداً) أكثر مما كانا يتمايزان ، استطاعا كسب جذور عميقة في حياة المجتمع الجديد من خلال صراعهما مع الدين والاسطورة ذات المضامين الغيبية . ذلك لأن الفلسفة - حتى في شكلها الأكثر بدائية - تمارس وجودها من خلال « المفاهيم » . بيد أنه من الضروري ملاحظة جانب آخر من المسألة ، وهو أن الفلسفة والعلم اليونانيين قد نشأ وتطورا بعلاقة وثيقة مع تمثيل وتعميم وتطوير المكتسبات النظرية والتكنيكية لحضارات شرقية سابقة ، وبشكل خاص تلك المكتسبات الرياضية والفلكية للبابليين (١) .

الحرية الفردية السياسية والاقتصادية ، وليست « المصلحة العامة » ، المجددة بشخص الملك أو شيخ القبيلة . الوعي الفردي ، وليس وعي الجماعة العام . « الحكمة » (٢) المنفتحة على العالم الطبيعي المتحرك ، وليست الرهينة المؤمنة البعيدة عن ذلك العالم . وأخيراً الفكر المجرد وغير المباشر ، وليس الفكر العملي المباشر . أن هذا كله قد استنبت بشكل مباشر وبخصوصية ذلك الوجه من أوجه الوعي الاجتماعي ، وهو الفلسفة . وقد مارست « الآلهة » خلال ذلك دوراً غير جوهري في حياة الفرد .

(١) لقد كتب س. لوريا ، فيما يخص ذلك ، ما يلي : « في عصر الاندثار القديم للعمل الحرفي والتجارة اليونانيين في بداية القرن السادس ق.م كان الهلينيون قد ملكوا مسبقاً علمهم الأولي ، وأن يكن البدائي جداً . عدا ذلك قدمت لهم (لليونان) العلاقات مع بلدان الشرق القديم المتقدمة ، مع بابل وفارس المتأثرة بها من طرف ومع مصر من طرف آخر ، الامكانية لتأبعة وتحسين هذا العلم : على المرء ألا ينسى أن علم الشرق في ذلك الحين تجاوز كثيراً العلم اليوناني . . ولكن التكنيك أيضاً لم يكن في ذلك الوقت في اليونان متطوراً كتكنيك الشرق . وقد كان خلال بعض قرون غير ممكن للعالم الهليني أن يقترب من الشرق في هذا المجال » . (س. لوريا : بدايات فكر يوناني ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٧) .

(٢) نستمد في أذهاننا واقع الحكماء السبعة في اليونان في النصف الأول من القرن السادس

فاني يجب التنوع الاقتصادي والسياسي والفكري في داخل البلد ، نجد ان توسع وتشعب حركة التبادل التجاري مع بلدان اجنبية عديدة قد ساهم في إضعاف تأثير « الالهة » والاساطير الايمانية في الحياة العامة آنذاك . فقد رافق عملية التبادل الاقتصادي مع شعوب مختلفة تبادل سياسي واخلاقي وفكري . لقد اتاح هذا لليونان التوصل الى الاعتقاد بعدم جدوى تلك الالهة والاساطير . بل أكثر من هذا ، فالاساطير والالهة المشار اليها أخضعت لفهم تجاري معقلن . فلم يكن هنالك تكلس فكري أو روتين حضاري أو انزال وطني ، بل ساد ، بدلاً من ذلك ، تداخل سياسي واقتصادي ووطني وتسامح فكري . لهذا لم تكن الفلسفة اليونانية نتاج المجتمع الخاص ، المجتمع اليوناني فقط ، كما يعتقد البعض . فالحكيم الهليني ، الذي يعتبره R. Schottlaender ظاهرة وطنية محلية^(١) ، كان في الحقيقة ، اذا جاز التعبير ، ظاهرة عالمية ، ونتاجاً بارزاً للفعل المشترك بين الجناح الديمقراطي اليوناني ضمن طبقة مالكي العبيد المسيطرة — هذا الجناح الذي تطور وتوطد في آسيا الصغرى التي تالف سكانها من شعوب مختلفة — وبين بلدان الشرق العريقة بالحضارة في الحقول المختلفة ، وخصوصاً في حقل العلم والتكنيك^(٢) .

وبالرغم من أن عملية الانتاج قد خضعت للدورة الاقتصادية التجارية، فان تشكل طبقة التجار وتوطيدها في الحياة الاقتصادية للمجتمع اليوناني مارس دوراً عملاقاً في تطور اليونان القديمة . أما القطيعة مع الايديولوجية القبلية الاسطورية بشكل عام فقد تمت بعنف وبدافع من الرؤية الجديدة للعالم المادي . بيد أن هذه القطيعة لم تأخذ طابع تجاوز (رفع) شامل للاسطورية . ولايضاح هذا الأمر نرى ضرورة ابراز الواقع التالي : لقد تشكلت الاسطورية ، كما اظهرنا سابقاً وبشيء من التفصيل ، في الحقبة التي ساد فيها المجتمع البدائي — اما تطورها وتحولها الى منظومة من الاساطير المضبوطة ذهنياً فقد تحقق في الفترة الأخيرة من ذلك المجتمع ، فترة المجموعات القبلية وخلال نشوئها وتطورها (أي الاسطورية) تبلور فيها اتجاهان أو ميلان أساسيان ، واحد واقعي (مادي بمعنى المادية الطبيعية العفوية) ولا واقعي (مثالي بمعنى تجاوز الواقع المادي تجاوزاً وهمياً) .

(١) انظر : ر. شوتلندر ، قواعد العلم المتناهية في القدم لدى اليونان — المقطع المنون ب « الحكيم الهليني كظاهرة وطنية » ، دار نشر الاكاديمية ، برلين ١٩٦٤ .
(٢) انظر : س. لوريسا : بدايات فكر يوناني ، نفس المعطيات السابقة ص ٧ و ٢١ - ٢٧ .

وحيث اخذ الفكر الفلسفي يحبو ويشرب نحو آفاق المستقبل ، لم يستطع الا أن يأخذ الواقع الأسطوري المتناقض هذا بعين الاعتبار . فهو ، أي الفكر الفلسفي ، من حيث كونه ، في اطار الاستمرارية والتواصل Continuity (١) ضمن التفكير الانساني ، امتداداً نوعياً جديداً للميل الواقعي ضمن الاسطورة، لم يستطع التكون الا من خلال استيعاب فلسفي للميل الواقعي ذاك ، وتجاوز الميل للواقعي .

وفي نهاية عملية « الاستيعاب » والتجاوز هذه ومن خلالها انبثقت الفلسفة . ان هذه الاخيرة - الفلسفة - قد اكتسبت لدى الفلاسفة الطبيعيين اليونان الاول طابعاً علمياً وايدولوجياً . فلقد كان هؤلاء علماء طبيعة استطاعوا أن يجسدوا فلسفياً ايدولوجياً مطامح الطبقة الجديدة الاجتماعية ، أو بشكل أدق ، مطامح الجناح الديمقراطي ضمن طبقة السادة . ومن خلالهم توحدت الايدولوجيا الطبقيّة بالفلسفة ، أي بالمعرفة الطبيعية . هنا يجدر التنويه بالأهمية العظمى للوحدة التي تحققت آنذاك بين الفلسفة والعلم من خلال « الفلسفة الطبيعية » تلك . بيد أنه من اللازم الا يغض الباحث طرفه عن واقع مارس بدرجات متباينة تأثيراً سلبياً على الفلسفة اليونانية القديمة في مختلف فتراتهما . وهذا الواقع يمكن تحديده بخضوع عملية الانتاج الاجتماعية الشاملة للرأسمال التجاري - الرأبوي . فاللامسة أو التعامل المباشر الحي والتحويلي مع الواقع الحقيقي ، أي مع « موضوع » عملية العمل ، هذا الموضوع الذي يتحول بدوره عبر عملية العمل تلك الى « ذاتها » ، أقول ان ذلك التعامل المباشر لم يتحقق في ممارسة طبقة السادة ، المجسدة والحاملة للفكر الفلسفي الجديد . والفلاسفة الطبيعيون اليونان الاول ، الذين نشأوا ونموا في احضان الطبقة هذه ، عبروا عن ذلك الواقع السلبي في فعاليتهم الفكرية وفي فهمهم لها . وقد اكتسبت الفعالية الفكرية هذه الدرجة العليا من « المفهومية » من خلال عملية تمايز الفكري عن المادي بشكل عميق المعالم ، وبشكل أدى الى انتصاهما كمفهومين متعارضين .

من الناحية المعرفية النظرية يمكن القول بأن تلك الخطوة كوّنت الاطار الكبير ، الذي انبثقت وانطلقت منه الفلسفة . بيد أنه عبر ذلك قد نشأت عقبة على طريق التطور اللاحق للفكر المجرد . هذه العقبة لم تنشأ

بسبب فقد الفكر هذا طابعه العملي المباشر وغير المتوسط ، ذلك لأن هذا يشكل ، في الحقيقة ، خطوة كبيرة في اتجاه تعميق وتوسيع الاحاطة والسيطرة العملية والنظرية على الواقع المادي الموضوعي من قبل الانسان ، وبالتالي - وهذا جدير بالملاحظة - في اتجاها تعميق القدرة التجريدية والتعميمية لفكر الانسان . ان الاحاطة بـ « المادي » في ملامحه الجوهرية احاطة نظرية شاملة نسبياً لا يمكن ان تتم وتحقق الا على طريق تطور تلك القدرة التجريدية التعميمية وعبر تعميقها لدى الانسان . اما العقبة الناشئة عن الانفصال العميق المتميز لك « مادي » عن « الفكري » بالنسبة الى تطور فلسفي مادي لاحق فقد كمننت في الموقف المتعالي من « المادي » او الممارسة العملية المادية ، حيث تنظر اليها كشيء سلبي ، هو دون مستوى « الفكري »
الفعال .

ان هذا التمايز المتعالي بين المادي والفكري يمكن ملاحظته حتى في النظرة الى العالم لدى الفلاسفة الماديين (اليونان) الاول ، الذي بسببه ، وطبعاً بسبب عوامل أخرى ، « توجب عليها (اي على تلك النظرة) لاحقاً اخلاء الطريق لاساليب أو رؤى نظرية أخرى » (١) . كما يمكن ملاحظة ذلك التمايز أيضاً في الانظمة الفلسفية اللاحقة لكلا الاتجاهين ، المادي والمثالي ، الاكثر تطوراً (٢) .

ان نمو وتطور الانتاج البضائعي كان قد كبح بحدود معينة تحت تأثيرات مختلفة ، منها التأكيد القوي على عملية « ادخار » النقد والراسمال التجاري ، وبالتالي التأثير السلبي الناجم عن ذلك فيما يخص « دورة »

(١) ف.ه. انجلو : ضد ديرنغ - برلين ١٩٥٩ ، ص ٤١٢ .

(٢) في هذا الاطار من المسألة ينبغي التنويه بأن اوسطو هو الذي استطاع كأول واحد في تاريخ الفلسفة « تنظير » الهوية بين النظرية والممارسة نظرياً اجتماعياً - حقوقياً وفلسفياً . فقد كتب : « ان رجال الخبرة يعرفون فقط الـ « بيان » ، اما الـ « لماذا » فلا . اما الفنانون فيعرفون الـ « لماذا » والسبب . لذلك فإننا نقدر في كل الاختصاصات الفنانين القياديين بشكل أعلى ، ونعتقد بانهم يعرفون أكثر وأنهم أكثر حكمة من العمال اليدويين . لانهم يعرفون سبب ما ينشأ . (على العكس من ذلك - التثنيدي مني : طهت - يشبه العمال اليدويون اشياء معينة غير حية ... وكما ينبعث الفرد من الاشياء هدية النفس (او الروح) وذلك بفضل طبيعتها المحددة ، كذلك أيضاً العمال اليدويون بفضل العادة) . اتنا نقدر من خلال ذلك الفنانين القياديين عالياً من حيث كونهم أكثر حكمة ليس لانهم قادرون على العمل بشكل خاص ، وانما لانهم يمتلكون « المفهوم » ويعرفون الاسباب » . (اوسطو : ما بعد الطبيعة - اصدار ف. باسنغ ، دار نشر البناء ، برلين ١٩٦٠ ، ص ١٨ و ١٩) .

النقد الانتاجية . وحينما يكتب ماركس بأن « ادخار الذهب والفضة » الذي يمثل تملصاً مكرراً منهما (من الذهب والفضة) من الدورة الانتاجية ، هو في نفس الوقت حفظ الثروة العامة بأمان ضد الدورة ، حيث تضيع هذه (الثروة) بالتبادل مع الثروة الخاصة المتلاشية أخيراً في الاستهلاك « (١) » ، ان ماركس حين يبرز هذا الجانب الاقتصادي ، فانه — أي الجانب الاقتصادي — ينطبق على الاحداث الاقتصادية للقرن السادس ق.م في اليونان القديمة . ان « الانتاج المادي » ضيق عليه من خلال ذلك بحدود واضحة . وهذا ماجلب معه ، من طرف آخر ، تحفظات معينة في الموقف السياسي لطبقة التجار والبحارة تجاه عملية التطور عموماً ، والانتاج البضائعي على الاخص .

ان هذا الموقف السياسي وخلفيته الاقتصادية تلك قد ظهرا في الحياة اليونانية العامة بالارتباط مع التهديد المتنامي للملكي العبيد من قبل عبيدهم ، ومع تضامن المالكين هؤلاء مع النبلاء ، بحيث ان هؤلاء وأولئك كانوا يميلون الى ابعاد « الملكية العقارية والارض عن تأثيرات الانتاج البضائعي » (٢) . والآن ، وان تأثرت الفلسفة الطبيعية اليونانية بطابع هذه المساومة التاريخية الاجتماعية — الاقتصادية ، بحيث انها حملت في أحشائها لحظة بارزة من السلبية تلقاء الفعالية الانسانية الجسدية وبالتالي تلقاء الانتاج المادي المباشر للحاجات المعاشية الاستهلاكية ولادوات الانتاج ، فان ذلك لا يؤلف جوهرها (أي الفلسفة تلك) . ان جوهرها ، ضمن الظروف الاجتماعية والفكرية آنذاك ، لا يمكن تحديده من حيث هو سلبي تأملي . ولكن حتى اذا لم تستطع هذه الفلسفة الطبيعية ان تقيم « علائق عملية بين الطبيعة والانسان وإنما فقط علائق نظرية محضة » (٣) ، فانها حددت واجبها الجوهري ببحث الطبيعة واكتشاف « ذاتها » ، وذلك بتعارض مباشر مع الدين والاسطورية الدينية . عدا ذلك ، ليس من الحقيقة في شيء ان تخضع التاريخ القديم لمقاييسنا الحالية ، بمعنى اقحامه فيها اقحاماً تعسفياً . بل ان فهمه ودراسته ضمن الشروط التاريخية التي كانت سائدة آنذاك يشكلان منطلقاً أساسياً في مسألتنا هذه . طبعاً ، نحن لانستطيع انكار اللحظة السلبية في موقف الفلسفة تلك من العالم المادي — وخصوصاً عملية

(١) ك. ماركس : موجزات نقد الاقتصاد السياسي — دار نشر ديتز ، برلين ١٩٥٢ ، ص ٨٧٢ .

(٢) ج. تومسون : الفلاسفة الاول ، نفس المعطيات السابقة ، ص ١٧١ .

(٣) ... فلاسفة : الحديثة ... نفس المعطيات السابقة ، ص ١٨١ .

الانتاج المادي - . بيد أن هذه اللحظة كانت نتاجاً تاريخياً لتقسيم العمل الإنساني ، هذا التقسيم الذي أدى - من خلال الطاقات الجسدية الهائلة للعبء - إلى ازدهار حضاري مادي وثقافي عميق الجذور والآفاق .
ان « مفهومية » الوعي المجردة ظهرت لدى اليونان في خاصيتها المستقلة لأول مرة في التاريخ الفلسفي . ونحن إذا لاحظنا أن الفلاسفة اليونان الطبيعيين الأول لم يسبروا غور الطبيعة من حيث تفصيلاتها ودقائقها ، وإنما من حيث هي كل ، فانهم كانوا في ذلك منسجمين مع المستوى التكنيكي والاقتصادي والعلمي ، الذي حدد لهم امكانيات وطاقات الوسائل المستخدمة في تعاملهم مع الطبيعة .

لقد استحدث وطور أولئك الفلاسفة « الحكمة » ، التي كوّنت الوعي الفلسفي - العلمي آنذاك . أي أنها شملت الفلسفة والعلوم المفردة ، بالرغم من أن بدايات استقلال بعض مظاهر هذه العلوم عن الفلسفة شقت طريقها في ذلك الوقت . لقد رأى « الحكماء » موضوع حكمتهم في **الواقع المادي الجوهري** . وهم تعاملوا مع « موضوعهم » هذا من بعيد ، يعني بشكل غير متوسط ، وسيلتهم في ذلك عقلهم النير المجرب في الحياة الجديدة ، هذا العقل الذي ظل - نتيجة للتطور ذي الآفاق الضيقة نسبياً - إلى حد بعيد مرتبطاً بحسية الواقع المادي . وإذا كانت الفلسفة والعلم لدى الفلاسفة أولئك منصهرة في وحدة مباشرة لاتنقسم (١) ، فانهم لجأوا إلى تأملات واهمة لسد الثغرات التي كانت تنشأ في نظامهم الفلسفي لعدم توفر القدرة لديهم على تغطية كثير من المسائل التي طرحوها تغطية معرفية - علمية دقيقة . ان اللحظة التجريبية والاداة التكنيكية لم يمارسا لديهم دوراً كبيراً وفعالاً . هذا يبرز لنا واقع ان « الاسطورة » لم تتلاش تماماً من عالم الفكر اليوناني المثالي والمادي على حد سواء . بل أكثر من ذلك ، ان الاسطورة قد كوّنت آنذاك منظومة ذهنية متماسكة .

بيد ان الفلاسفة الطبيعيين الأول تجاوزوا « الاسطورية » القديمة ، حيث ا طرحوا جانباً المضمون الديني فيها ، وحيث احتفظوا ، من طرف آخر ، بجوانبها الطبيعية الواقعية . ولكن هذه الجوانب نفسها كانت تفقد شيئاً فشيئاً أرضيتها ، وذلك عبر توسع وتعمق الحرية الشخصية

(١) قارن هذا ب : العلم والنظرة من العالم في العالم القديم - دار النشر الألمانية للعلوم ، برلين ١٩٦٦ ، ص ١١ .

والسياسية والفكرية ضمن جناح مالكي العبيد الديمقراطي . والوعي الفلسفي تطور من خلال عملية نمو موازية لعملية تلاشي « الاسطورية » عموماً . الا انه جدير بالذكر أن « الاسطورية » قد اكتسبت في الإنالمة الفلسفية الطبيعية الاولى ، في الخط العام ، شكلاً فردياً . وهذا قد نفاذ الفردية في « الاسطورية » كان مساوياً لبداية تلاشيها (أي الاسطورية) من الوعي الانساني .

ان النواقص والثغرات النظرية الخاصة في الرؤية الفلسفية للفلاسفة اليونان الطبيعيين الاول ، التي بسببها « توجب عليها (اي على تلك الرؤية) لاحقاً اخلاء الطريق لأساليب أو رؤى نظرية أخرى » ، ان وجود تلك النواقص والثغرات لا يدعونا ابداً الى اغفال أو انكار الدور العملاق لتلك الفلسفة الطبيعية الذي مارسه في تطوير واغناء المعرفة والفكر الانسانيين على أساس فلسفي مادي . ذلك لأن قيمتها العظمى وتفوقها البارز تجاه الفلسفة المثالية الغيبية يكمنان بالضبط في دورها التاريخي ذاك .

★ ★ ★

مفهوم « الطبيعة » لدى الفلاسفة الميليين - الميلبيين -

١ - ان بداية التفلسف بالمعنى الخاص المتميز كانت ، في نفس الوقت ، البداية الحقيقية للعمل والتعامل بمفاهيم مجردة . بيد ان هذا اشترط ، على نحو مسبق ، فصلاً منطقياً فلسفياً للتفلسف عن الدين والاسطورة . وممع نشوء « الفلسفة » حقق الفكر الانساني الخطوة العقيدية الاولى في تاريخه . انه قد اختتم بذلك فترة « ما قبل تاريخه » .

على اساس القانونية الداخلية للتطور الاجتماعي - الاقتصادي والسياسي والفكري لليونان القديمة ، التي عرضنا لها في الفصل السابق ، امكن لهذا الشكل الجديد من الفكر الانساني ، الفلسفة ، ان يتكون فقط ضمن مفهوم مادي . ان ارسطو يقدم لنا في اطار هذه المسألة وثيقة هامة حتى الحد الاقصى . ففي كتابه « ما بعد الطبيعة » يقرر بان « العدد الاكبر من اولئك ، الذين تفلسفوا لأول مرة ، اعتقد بان اصول كل الاشياء توجد في شكل المادة » (١) . ونحن بدورنا سنعمل على تقصي ابعاد وآفاق هذا المفهوم « المادة » لدى اولئك الاولين في تاريخ الفلسفة والتفلسف ، وعلى نحو التحديد لدى طاليس واناكسيمندر واناكسمينس . ان ارسطو ، الذي اقتنى أعمال ما قبل السقراطيين وقراها (٢) ، يرى بان طاليس (نشأ في ملطية من جزيرة ايونية ، من ٦٢٤ - ٥٤٧ ق.م) هو الاول بينهم (٣) .

لهذا فان دراسة الآراء الفلسفية لطاليس ذات اهمية من الدرجة الاولى ليس فقط من اجل تاريخ الفلسفة عموماً ، وانما أيضاً من اجل استيعاب مسائل « نظرية المعرفة » و« المنطق » . فهي (أي الدراسة تلك) تثير كيف وضمن اية ظروف تكونت وتطورت المفاهيم الفلسفية الاولى ، اي كيف عبر الفكر

(١) ارسطو : ما بعد الطبيعة - نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٢ .

(٢) انظر : W. Capelle : ما قبل السقراطيين - دار نشر الاكاديمية ، برلين ١٩٦١ ، ص ١٧ .

(٣) انظر : ارسطو ، ما بعد الطبيعة ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٤ .

الفلسفي عن نفسه . بهذا المعنى وضمن هذا الاطار من المسألة يمكن استيعاب « تاريخ الفلسفة » من حيث هو تاريخ لعملية المعرفة الانسانية ، للفكر النظري . ولاشك أن هذا يتطبق بالخط الأول على مفهوم «المادة» الفلسفي . لقد دارت المسألة الرئيسية بالنسبة الى طاليس وأخلافه حول تحديد « المفهوم الفلسفي الاساسي » الذي يعبر عن الجوهر الكلي للوجود المادي . وهو حيث فعل ذلك ، استطاع أن يقيم عليه (على ذلك المفهوم الاساسي) بياناً فلسفياً شمولياً .

لدى طاليس وتلميذه اناكسيمنس واناكسمندر يحتل مفهوم الطبيعة مكاناً مركزياً وانطلاقاً . فالطبيعة تبرز هنا من حيث هي الوجود الوحيد الحقيقي ، ومن حيث هي موضوع البحث والملاحظة العلمية . ولكن في نفس الوقت ينبغي الإشارة الى انه في الانظمة الفلسفية الطبيعية للفلاسفة الميليين (نسبة الى مدينة ملطية) اولئك يمكن الكشف عن أفكار اسطورية أو حتى دينية . الا اننا في حال قيامنا بعملية تقويم فلسفية لتلك الانظمة الفلسفية لا نملك الا أن نؤكد على الحقيقة ، وهي أن الخطوة العميقة والشاملة نسبياً لتحرير الفكر الانساني من كوابح نموه الاسطورية والدينية قد تمت بالدرجة الاولى على أيدي أولئك الفلاسفة الطبيعيين الشجعان .

ان طاليس قد ارسى الحجر الاساسي لتكوّن وتبلور تلك الخطوة . كقضية أولية ومركزية لمذهب الفلسفي الطبيعي رأى « أصل العالم » . وقد توجب على الوعي **الاسطوري الجماعي** أن يفقد من مقومات وجوده تحت تأثير الظروف الاجتماعية - الاقتصادية والثقافية الجديدة . والبديل الاساسي الذي حل محله هو الوعي **الفردى الفلسفي** . هذا يعني على نحو آخر ، أن « العام » أفسح المجال للـ « خاص » ، وذلك عبر عملية تطور بطيئة ، ولكن شاملة ، للفكر الانساني .

ولكن هاهنا يدخل تناقض أصيل ينبغي كشف ملامحه : ان الوعي العام الحسي البدائي قد عمل على الاحاطة بالعالم ، بشكل عام ، من حيث هو (أي العالم) واحد . فقد كان العالم هذا في نظر الوعي ذاك **واحداً** . بيد أن وحدة العالم لم تؤخذ من حيث هي واقع مطلق . الا أن نسبيتها لم تكون الجانب الجوهرى على **المستوى النظري** في نظر الوعي العام الحسي ذاك ، بل انها (أي نسبة وحدة العالم) برزت عبر الممارسة العملية الانتاجية للانسان . فالانسان يكتشف **عملياً** ، أي من خلال تعامله مع العالم ، ان هذا

العالم يحتوي التناقض والتمايز الى جانب الوحدة .

ومع تأسيس الدولة اليونانية (بولس) الكلاسيكية ببنيتها السياسية والاقتصادية - الاجتماعية وبمؤسساتها الثقافية الفكرية والادارية ، تكتسب وحدة العالم شكلا جديدا نوعيا في وعي الانسان اليوناني « الحر » . ان العالم المادي ظل يرى من حيث وحدته . الا ان نسبية واطلاقية هذه الوحدة احتلتها ، مجتمعتين ، مكانا بارزا في وعي الانسان اليوناني الجديد . فهذا الانسان ، الذي لم ينظر الى الموضوع المادي على العموم كشيء حسي مباشر وغير متوسط ، كما كان الامر بالنسبة الى الوعي الحسي العام (الجماعي) ، بل كشيء غير مباشر ومتوسط عبر الممارسة الانسانية العملية الهادفة على نحو فلسفي ، ان هذا الانسان وجد في التناقض حقيقة وجودية لا سبيل الى تجاهلها ضمن الطبيعة والفكر على حد سواء .

ولا شك ان تعامل الانسان مع الواقع الاجتماعي الحضاري ، هذا التعامل الواقعي المتوسط ، قد جعل الوعي الانساني يقترب اكثر عمقا من الملامح الجوهرية للواقع الاجتماعي والطبيعي .

لقد كانت « اللامباشرة » في أبعادها وآفاقها الفلسفية الناشئة عامل اقتراب عميق من « ذات » العالم ، وليس عامل ابتعاد عنها . ولكنها (اللامباشرة) في اطارها الفلسفي المثالي ساهمت فعلا في عملية الابتعاد هذه وفي اصطناع هوة بين العالم والفكر ، وبالتالي في مضاعفة العالم ، على طريقة افلاطون مثلا . على العكس من ذلك ، نجد تلك « اللامباشرة » ، المجسدة في تعاضد استقلالية الفكر النسبية عن الواقع ، هي التي صاغت الطريق النظري للفكر في عملية سبره لجوهر العالم .

ان العملية الكمية والتنوعية لاعادة بناء الحياة الاجتماعية المادية العامة لليونان القديمة استنبتت ، على نحو معقد ومتوسط ، امكانية تكوين وبلورة عملية نوعية وكمية اخرى لاعادة بناء المقومات الاساسية لوعي الانسان اليوناني « الحر » .

مما تقدم تستبين لنا حقيقة جوهرية ، وهي ان ازاحة الوعي الجمعي (العام) للفرد الموجود في المجتمع اللاتطبعي من خلال الوعي الفردي لانسان المجتمع العبودي (الطبقي) اليوناني قد تمت ، بحيث ان هذا الوعي الجديد قد تضمن واحتوى في آن واحد العمومية والفردية ، او العام والخاص . ولا شك ان الوعي الفلسفي الجديد قد رفع الوعي الميثوبي (الاسطوري) البدائي

الى درجة عالية ومتميزة بشكل عميق ، حيث ادخل فيه ، في آن واحد ،
عنصر العمومية وعنصر الفردية . بتعبير آخر ، انه اسهم في تكوين ملامح رؤية
جدلية جديدة تطرح « الوحدة » و « التناقض » من خلال كونهما جانبيين
جوهريين متواجدين في موضوع واحد ، هو الواقع المادي أو الفكر . وضمن
هذه الزاوية الفكرية ينبغي التأكيد على وجود تعارض تاريخي ومعرفي نظري
بين كلا الوعيين المومي اليهما فوق .

لقد حاول طاليس ، الفيلسوف الاول ، ان يرجع « الكثرة » في العالم
الى مفهوم « الوحدة » لهذا العالم . وفي الحقيقة ، لم تكن هذه المحاولة ، من
حيث الشكل ، أصيلة ، أي انها لم تكن المحاولة الاولى من نوعها . فهي قد
وجدت لدى مفكرين ضمن شعوب أخرى سابقة (١) .

والآن ، حين نحاول استخلاص واستخراج الملامح الجوهرية في محاولة
طاليس في ارجاعه أصل العالم الى « الماء » ، فاننا مدعوون الى أخذ ذلك
بعين الاعتبار ضمن علائقه مع النظام الفلسفي لطاليس ومع الوضع الاجتماعي
الحضاري والفكري الذي كان سائدا آنذاك .

والجدير بالملاحظة هو أن طاليس ، كالفلاسفة الايونيين (نسبة الى
جزيرة إيونيا اليونانية القديمة) الآخرين ، كان في نفس الوقت عالما طبيعيا .
فقد برز في الحقول الرياضية والفلكية بشكل خاص . ولذا فقد اعتبر
واحدا من حكماء عصره « السبعة » . وقد مثل مذهبه الفلسفي الطبيعي
تحولا حقيقيا من الاسطورية (الواقعية واللاواقعية) والتصورات الدينية
التي أتى بها « هزيود » و « فريكيديس » و « الأرفكيون » الى تفكير نظري
عقلي ، أي تحولا مبررا من حيث المضمون والشكل من الاسطورة الى العقل
Ratio عموما .

وعلى ذلك الطريق تمكنت عملية « استقلالية » الفكر أن تكتسب وتائر
لم تشهد مثل تسارعها وعمقها من قبل . ومن أجل استيعاب الاهمية الكبيرة

(١) « في التماثيل المصرية القديمة توجد ارماسات للسؤال من الاصل المادي للظواهر
الطبيعية . فالمرء يجد الماء العذب مذكورا ، الذي ينشئ كل الاشياء الحية ، والذي تتحدر
منه جميع الاشياء . أو أيضا الهواء ، الذي يملأ الفراغ ويوجد في كل الاشياء » . (تاريخ
الفلسفة - المجلد الاول ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٣٤) ثم نقرأ في نفس المصدر ،
ص ٣٥ ما يلي : « ان بلوتارك أعلن بأن الحكيم اليوناني المعروف طاليس تعلم في وقت لاحق
(من المصريين بأن يفترض الماء كاصل وكبداية لكل الاشياء) » .

لهذه العملية ، علينا أن نضع نصب أعيننا تلك المحاولة التي قامت على إرجاع التعدد الضخم والهائل لظواهرات العالم المادي الموضوعي الى أصل واحد ، وذلك عبر كفاح واع ، مستتر أو مكشوف ضد اللاعقلانية بأشكالها المختلفة . ان عملية التعميم والتجريد قد تحققت لدى طاليس من خلال موقف فلسفي عقلاني مادي . وهذا ما يدمونا الى رفض القول الأخذ بتبسيطية ظاهرة لدى بحث مسألة أصل العالم الطاليسي ، هذا القول الذي يؤكد أصحابه من خلاله بأن تصور طاليس حول أصل العالم لا يتضمن طابعاً أو مضموناً معرفياً (١) .

ان انكار وجود مثل هذا المضمون المعرفي في تصور طاليس حول أصل العالم يذهب بعيداً ، حيث يتطابق مع رأي هيجل في « محاضرات حول تاريخ الفلسفة » من أن تاريخ هذا الشكل للوعي الاجتماعي ، أي الفلسفة ، لا يبدأ مع الفلاسفة الايونيين الماديين ، وانما بمفهوم « الكون » أو الوجود الفلسفي المعرفي الذي طرحه الاليون على نحو ميتافيزيقي (بالمعنى اللاجدلي) .

والمسألة تلك تدور حول تحديد بدايات الفكر الفلسفي الخاص بالتميز . ولذلك فهي تشكل فعلاً مسألة جوهرية من مسائل تاريخ الفلسفة . وفي الوقت الذي كانت فيه البدايات الفلسفية لدى الايونيين بدائية وغير مستكملة بعد مقومات الفكر النظري المتقدم ، فانها بالرغم من ذلك بدايات لهذا الفكر .

ان « الفلسفة » قد ظهرت من حيث هي كذلك لأول مرة في التاريخ الفكري البشري في منظومة طاليس الفكرية ، ليس فقط كنظرة عقلية في الوجود والمعرفة والانسان . انها نشأت أيضاً ، وبطبيعة الحال ، في شكل مفهوم .

لقد تضمن مفهوم « الماء » لدى طاليس محتوى معرفياً نظرياً وايدولوجياً . فعبره هدف طاليس الى تجاوز التصورات البدائية الغيبية حول العالم التي أتى بها هزيود وفريكيديس والارفكيون ، وبالتالي الى رؤية الوجود كما هو ، في وحدته المادية .

بيد أنه ، من طرف آخر ، غير وارد في رأينا أن نضمن مفهوم أصل العالم الطاليسي ، الماء ، معنى تجريدياً بعيداً عن الحسّية .

ان المفهوم ذاك يتميز بنقطتين : الاولى أن العالم يكون وحدة عضوية ،

(١) انظر حول ذلك : س. لوريا ، بداية فكر يوناني - نفس المعطيات السابقة ، ص ٣٩ . فهو يكتب على هذه الصفحة : « انه لايجوز للمرء أن يحمل كلمات طاليس ، بأن الماء المادة الاولى ، معنى معرفياً . انه (طاليس) تصور العالم كجزيرة صغيرة تسبح في الماء اللانهائية لبحر العالم » .

وحدة واقعية (أي مادية) عيانية، يُعبّر عنها بمفهوم « المادة الأولى الكلية ». هذا يعني أن هناك مادة أولى كلية سائدة بشكل شامل ، عنها يتحدر العالم المتحقق بتركيباته واختلاطاته وتفاعلاته المتعددة .

ان « الماء » في صفته الكونية تلك يتضمن درجة عالية من التجريد والتعميم الفكريين . فعملية الصعود الى المفهوم الكوني الشامل « الماء » توصل اليها عبر رفع « مرحلي » لشيئية الشيء المفرد ، بحيث أن ذلك « الماء » الكوني ، ذلك التتويج النهائي لتلك العملية ، يحتوي في ذاته حسية وشيئية الشيء المفرد من حيث هو شيء عام .

انطلاقاً من ذلك يوجد الشيء المفرد حقا كـ « عام » متفرد ، والشيء العام كـ « مفرد » معمم . ان هذا « المفرد المعمم » هو في الحقيقة أصل العالم الطاليسي . وبناء على ذلك توصل « أصل العالم » هذا الى الحسية المؤطرة باطار مفهومي ، أي أنه لم يرتفع في منظومة طاليس الفلسفية تماما الى خاصية المفهوم المجرد .

بيد أنه ينبغي أن نضع في حسابنا الواقع التالي، وهو أن رؤية العالم المادي في وحدته ، كما هي واردة في « أصل العالم » الطاليسي ، ما هي الا وحدة من الدرجة الثانية ، ان صح التعبير .

ومن أجل تبيان أبعاد هذه المسألة ، نود أن نورد فقرة معروفة من « ما بعد الطبيعة » لأرسطو ، تسلط ضوءاً كشافاً عليها . هنالك يقول أرسطو بأن الاكثرية من أولئك الذين تفلسفوا لأول مرة « يحددون ذلك الشيء كعنصر وكنبوع للموجود ، الذي يتكون منه كل شيء والذي منه ينشأ (أي أكل شيء) باعتباره الأول ، والذي ينتهي اليه كل شيء باعتباره الأخير — حيث أن الماء ثابت وأنه يتغير فقط في أعراضه (تأثيراته) .

لذلك فهم يفترضون بأن لا شيء ينشأ ويتلاشى حقا ، بحيث أن ذلك النوع من الطبيعة يبقى محفوظا دائما . . . وبالمعنى نفسه لا ينشأ ولا يضمحل أيضا شيء آخر . أذن ينبغي أن يوجد طبيعة ما — سواء كانت واحدة أو أكثر من واحدة — يتكون منها كل شيء ، بينما تظل هي نفسها ثابتة » (١) .

عن ذلك تبرز مسألة ، وهي أنه يوجد مادة أولى يتحدد من خلالها جوهر العالم من حيث كليته (أي العالم) ومن حيث مفرداته وخصوصياته .

(١) أرسطو : ما بعد الطبيعة — نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٣ — ٢٤ .

وهذه المادة الأولى تبقى ، من حيث كقيفيتها ، ثابتة ، وغير خاضعة للتغير ، بينما هي خاضعة للتغير والتبدل من حيث تأثيراتها الكمية . وعلى هذا الطريق يفصل طاليس بشكل ميتافيزيقي مبتسر الجوهر عن الظاهرة ، وبالعكس . فإن نقول بأن لا شيء ينشأ ولا شيء يضمحل ، يؤدي ، بطبيعة الامر ، الى القول بأن لا شيء يتحول ويتغير . وحين يخيّل إلينا أن شيئاً ما يتغير ، فإن هذا لا يخرج عن نطاق كونه شيئاً « ظاهرياً » ، أي غير جوهري . وعلى هذا ، فالجوهري ، الذي يمثل في هذه الحال الماء ، يظهر أو يتمظهر ، أما الظاهرة فإنها لا تتجوهري ، انها غير جوهريّة .

فنحن لا نلاحظ هنا انتقالاً وتحولاً أو « سيلاناً » من الأول (الجوهر) الى الاخرى (الظاهرة) . وفي الحين الذي نأخذ فيه بعين الاعتبار ذلك الفصل الميتافيزيقي المبتسر ، يصبح واضحاً أن « عالم » طاليس ، المكون من الماء ، واحد ، وأن « الوحدة » المادية (المائية) هي أولى صفاته التي تعينه وتحدده . ولكن هذه الوحدة تنفي عنه أن يكون متضمناً « كثرة كقيفية » . أي انها وحدة لا تحتوي التمايز الكيفي .

هذا يري بوضوح أن الصعود من الشيء المفرد الى الشيء العام (الذي هو الماء) لا يتم لدى طاليس من خلال قفزة من كقيفيات متباينة ، أو على الأقل من كقيفية واحدة (التي يكونها الشيء المفرد ، وهو هنا الماء العياني المحسوس) الى كقيفية أخرى أعلى (التي هي الشيء العام ، أي الماء كمفهوم فلسفي يحتوي الجانب الجوهري من جميع مياه العالم ، الذي هو كونها كذلك ، أي ماء) . فالكيفية المفردة نفسها المجسدة بالماء العياني الحسي تجوهري ، دون أن يظهر الشيء العام ، من حيث هو عام .

ان H. Ley يلاحظ بحق أن . « مفهوم » المبادأة لم ينشأ ويتبلور في مذهب طاليس الفلسفي (١) . ونحن نرى أن هذا يعوّذ ، ضمن ما يعود اليه ، الى العلاقة الوحيدة الجانب وغير المتبادلة بين الجوهر والظاهرة . وهنا ايضاً نرى المسألة محددة من حيث هي مسألة العلاقة بين « العام » و « الخاص » .

ان « أصل العالم » الطاليسي هو ، بذلك ، التعبير الأوفى عن جوهر خالد وثابت : فالجوهري هذا الخالد وغير المتغير يوجد بذاته ولذاته ، أما تأثيراته ، أو بشكل أدق ، ظاهراته ، فإنها توجد من خلال التغير . وهي ، لذلك ، لنا . والآن ، اذا كان ذلك « الجوهر » الطاليسي قد احتوى اطاراً

(١) انظر : هـ . لاي - تاريخ التنوير والالحاد ، نفس المعطيات السابقة ، ص ١٨٦ .

معرفياً نظرياً ، أي تحديداً مفهوماً عاماً ، بمعنى أنه (أي الجوهر) خالد ولا يمكن أن يضمحل ، بينما تأثيراته (مظاهره) - ومن ضمنها الإنسان بتفكيره - تتميز بوجودها الطارئ والشانوي ، ان صح التعبير ، أقول اذا كان ذلك كذلك ، فان هذا الطابع المعرفي النظري لم يكتسب بعد تماماً خاصية المفهوم الشامل المجرد . انني لا أقصد من ذلك أن أخضع « أصل العالم » الطاليسي لرؤانا الفلسفية للمعاصرة . ولكن لا يُسمح للمرء ، من طرف آخر ، أن يحمله أكثر مما يحمل أصلاً .

لقد احتوى تصور طاليس حول « الماء » ، كأصل للعالم ثغرات كبيرة بارزة بوضوح للعيان ، ولكنها مشروطة تاريخياً بمجموع الثغرات التي عانت منها الفلسفة الايونية كلها ، والتي أتاحت وجود فرصة ذهبية « مشروعة » للانقضاء على تلك الفلسفة ، المثلة في حينها للاتجاه الفلسفي المادي ، من قبل الفلسفة المثالية والدين .

في مقدمة تلك الثغرات يقف التصور الذي كان لا يزال غارقاً في الأطر البدائية القديمة ، وهو النفس أو الفكر الانساني .

في هذا المجال يخبر أرسطو ، عبر حديثه عن أولئك الذين اتخذوا للعالم أصلاً مادياً : « . . انهم حسبوا ، بدون حق ، العنصر القادر على الحركة بشكل طبيعي (والمقصود بذلك النفس : ط . ت) من طبيعة الاصول . لذلك بدا للبعض ان النفس نار . وايضاً طاليس بدا له ، حسب ما يخبر المرء ، أن يدرك النفس كشيء قادر على الحركة ، حيث قال بأن المغناطيس له نفس ، لانه يحرك الحديد ، . . » (١) .

في معرض الحديث عن رأي طاليس في « النفس » ، ينبغي مقدماً أن تؤكد بأنه لعب دوراً كبيراً جداً في حينه في الكفاح من أجل « العقل » الناشئ وضد عدوه المزدوج ، الاسطورة والاديان البدائية آنذاك . الا ان هذا لم يكن ليستطيع اخفاء ميكانيكية ذلك الرأي . بل أكثر من هذا ، فكفاح طاليس ضد ذلك العدو ، من خلال دفاعه عن « عقله » الطبيعي ، كشف نقاط الضعف المعرفية وانسداد آفاق المستقبل البعيد أمام ذلك الرأي « الميكانيكي » .

ان طاليس والفلاسفة الايونيين الآخرين اعتبروا « الفكري » أو « النفسي » في آخر تحليل شيئاً مادياً . اما منطلقه - ومنطلق الآخرين - في

(١) أرسطو : حول النفس - دار نشر الاكاديمية ، برلين ١٩٥٩ ، ص ١٠ - ١١ .

ذلك ، فقد قام على أن كل شيء ذو طبيعة مادية ، وهو مادي . وفي الوقت الذي يؤكد فيه طاليس على مادية العالم — مما كان له على كل حال أثر عميق في تطور الفكر الفلسفي- المادي اللاحق — ، فإنه توصل من خلال ذلك الى القول بأن النفس (الفكر معني أيضاً) هي كذلك مادة .

ونحن إن أخذنا هذه المسألة من زاويتنا الفلسفية المعاصرة ، فإنه ينبغي علينا أن نميز بين « المادة » وبين « المادي » . ذلك لأننا، حسب ذلك، نعتبر « الفكري » « مادياً » وليس مادة . بمعنى أن « الفكري » ظاهرة تخضع في وجودها ، على وجه العموم ، لقوانين العالم المادي .

الا أن طاليس اعتبر « الفكري » أو « النفسي » نفسه مادة . وضمن هذا الإطار (المادة) ميز طاليس المادة عن النفس . فالنفس هذه ليست أكثر من كونها الجانب الديناميكي « الحركي » من المادة نفسها ، أي من أصل العالم ، الماء . لقد كان هذا ، على ثغراته التاريخية العميقة، خطوة بارزة على طريق اكتشاف خاصية « الفكري » . كما لعب دوراً تاريخياً كبيراً في الكفاح ضد الآراء المتوارثة حول وجود نفس « لا » مادية مستقلة. الا أن فكرة طاليس هذه عن الفكري أو النفسي تحولت ، في مضمونها الميكانيكي ، الى موضوع هجوم عنيف أكثر فأكثر من قبيل المفكرين المثاليين والأخذين بالدين .

ان طاليس لم يستطع طرح مفهوم المادة بشكل دقيق فلسفياً . الا انه قد قدم على هذا الطريق مبهّدات عبقرية . فتكوين هذا المفهوم اقتضى دائماً شرطين : الاول ، بلوغ « المفهومية » درجة كافية من تطورها . والثاني هو توضيح العلاقة الجدلية بين العام والخاص، بين العام والحسي والمجرد. بالطبع لم يكن بمقدور طاليس والفلاسفة الميليين الآخرين (اناكسمندر واناكسمانس) ان يحلوا هذه العضلة ، لانهم جميعاً لم يتوصلوا الى مقولة « الفكر » من حيث هو كذلك . ذلك لانهم بالرغم من تمييزهم الانطولوجي بين « الفكري » و « المادة » ، فقد ظل الفكري هذا ، في نظرهم ، جزءاً من المادة . وقد انتبه انجلز في حينه الى هذا الجانب الاساسي في الفلسفة الملية ، حيث رأى « ان الفلسفة القديمة (اليونانية) كانت مادية مبكرة بدائية . وهي ، من حيث هي كذلك ، لم تكن قادرة على ايصال علاقة الفكر بالمادة الى النقطة الدقيقة . اما ضرورة ايضاح ذلك ، فقد قادت الى القول بوجود نفس ممكنة الانفصال عن الجسد ، وبعد ذلك الى التأكيد على

عدم فناء هذه النفس ، و أخيراً الى القول بآله واحد . فالمادية القديمة تفيت اذن من خلال المثالية « (١) » .

وفي الوقت الذي نأخذ فيه بعين الاعتبار التراث الفكري القديم ، يصبح بإمكاننا التأكيد على أن أصل العالم الطاليسي كان الشكل الأولي لمفهوم مادي جدلي لاحق حول المادة . أما السمات الرئيسية لهذا الشكل المبكر فيمكن تقصيصها في النقاط التالية :

١ - الاعتراف المؤكد صراحة ، من طرف أول ، بالموضوعية المادية لأصل العالم المادي ، وبالموضوعية النفسية للنفس أو الفكر ، من طرف آخر . أما « أصل العالم » الطاليسي ، الماء ، فيمكن اعتباره ، في مواصفاته الطاليسية المحددة ، « جوهر » . والجوهر هذا ، كما رأينا ، موجود بذاته غير متغير وغير متحول . أما المتغير والمتحول فهي « تأثيراته » و « ظاهراته » . بيد أن السمة الأساسية لهذا « الجوهر » ، منظوراً إليه في إطار الوضع الفكري آنذاك ، لا تقوم بالدرجة الأولى على التأكيد على طابعه الميتافيزيقي ، اللاجدلي هذا ، وإنما على كونه قد مارس دوراً إيجابياً خطيراً في تسليط الاضواء على العالم المادي الموضوعي وفي ضبط الفكر الانساني في آفاق هذا العالم . بل أكثر من هذا ، علينا أن نتفكر في العلاقة الوثيقة التي نشأت وتبلورت آنذاك بين العلم القديم وتلك الرؤية الفلسفية المادية . في الحقيقة ، هذه العلاقة والتأكيد عليها عملياً علمياً ونظرياً فلسفياً قد اتاخا لمسألة « وحدة العالم المادية » أن تتطور على نحو واسع عميق .

هذا يبرز بوضوح أن « الجوهر » بمعناه المادي الطاليسي ، أي من حيث هو « أصل » العالم المادي ، يمثل خطوة رئيسية على طريق تقديم الفكر والمعرفة الانسانية للعالم المادي بما فيه الطبيعة والمجتمع والإنسان .

٢ - أن أصل العالم ، أو « الجوهر الأصلي » الطاليسي يتضمن في ذاته ، بشكل ضروري ، حركته « الذاتية » . فهو ، بمعزل عن هذه الحركة لا يمكن أن يتصور وأن يتفكر به . أن سببه الأول والآخر لا يمكن أن يكون إلا هو نفسه . فهو (أي الجوهر) ، كما سنرى لاحقاً لدى العديدين من المفكرين أمثال لوكريطس وابن رشد وسبينوزا ، سبب ذاته *causa sui* وبالطبع ، لم يكن لهذا الرأي أن يفرض نفسه إلا من خلال الكفاح المفصّل عنه والمستتر ضد الاساطير القديمة المتوارثة والمعاصرة وضد التصورات

(١) ف. انجلز : ضد ديرنغ - نفس المعطيات السابقة ، ص ١٦٩ - ١٧٠ .

الدينية حول « محرك قديم لا يتحرك » . والحركة هي ، كالجوهر الاصيلي، غير مخلوقة ولا يمكن فسادها واضمحلالها . وقد اخبر عن ذلك Simplicius قائلا : « ... وهم (أي الفلاسفة المليون وغيرهم : ط . ت) اشتروا وجود الحركة خالدة . ذلك لأنه دون حركة لا يوجد نشوء ولا اضمحلال » (١) .

أما التعبير عن وجود الحركة في « المادة » فهو كونها « حية » و « نفسية » . ولذلك كانت النفس العنصر الحركي ، أو مبدأ الحركة في الطبيعة . لقد لاحظ هيجل مرة بحق : « من الافضل ان يكون للمغنطيس نفس (كما عبر طاليس) من ان يكون له قوة لكي يجذب . فالقوة هي نوع من الصفة الممكن فصلها عن المادة ، انها تتصور كصفة . بعكس ذلك النفس ، هذا المحرك لذاته ، والذي هو وطبيعة المادة شيء واحد » (٢) .

ومن الجدير بالذكر أن المادة الاصلية الطاليسية تتميز بكونها تتضمن ، على نحو ذاتي ، الحركة الدائرية . فمن المعروف لدينا أن طاليس يعتبر « مادته الاصلية » ايضاً ثابتة وغير متغيرة . وهذا يكشف لنا تناقضاً في رأي طاليس حول « مادته » تلك ، التي هي « الجوهر الاول » . فمن الطرف الاول يظل هذا الجوهر من الناحية الكمية ثابتاً وغير متغير . من الطرف الآخر يوجد الجوهر ذاك في حركة مغلقة ، في حركة ميكانيكية كمية . وفي كلا الحالتين نجد فكرة هامة ساهمت الى حد كبير في تقدم العلم والفلسفة ، وهي فكرة حفظ المادة وحفظ كمية الحركة التي تحتويها المادة . وباعتبار أن الجوهر الاصيلي نفسه غير مؤهل للحركة - حيث أن هذه الحركة من خصائص « ظواهر » الجوهر - ، فانه يبرز في ميتافيزيقية متميزة : فهو من طرف ، وظهرته من طرف آخر . وقد أظهرنا سابقاً هذا الطابع الميتافيزيقي - اللاجدلي للفصل بين الشيء ومظهره ، الذي نجده لدى « كانت » على نحو بارز وعميق .

٣ - انطلاقاً من رؤانا الفلسفية المتطورة المعاصرة نعلم بأنه من اجل تكوين مفهوم دقيق عن « المادة » لا تقتصر المسألة على إبراز الموضوعية المادية والاولوية الانطولوجية (الوجودية) لها ، أي للمادة فقط . ان هذا ولا شك هام وضروري في سبيل ذلك الهدف . وفي الحقيقة ، ان ذلك التحديد من اخص خصائص « الجوهر » الطاليسي المادي . ولكن تأثير هذا

(١) ف . كابيلي : ما قبل السقراطيين ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٨٤ .

(٢) ج . ف . ف . هيجل : محاضرات حول تاريخ الفلسفة - مجلد ١ ، ص ٢٠٨ .

الجوهر المادي على الاعضاء الحسية الانسانية واعادة هذا التأثير من الاعضاء تلك على المادة يشكلان جانباً أساسياً ضرورياً من نظرية فلسفية جدلية حول « المادة » . أي أن تكوين مثل هذه النظرية يقتضي الاقرار بوجود « جوهر » مادي بشكل موضوعي ، أي لذاته ، كما يقتضي التأكيد على أن هذا الجوهر يتمظهر ، أي أنه يوجد من خلال قانونية خاصة به نكشفها نحن عبر ممارستنا العلمية والعملية الاجتماعية . هذا يعني اذن أن البحث في العلاقة بين المادة والاحساس شيء لا محيد عنه في سبيل صياغة مفهوم دقيق عن « المادة » .

والحقيقة ، أن طاليس والفلاسفة الميليين الآخرين لم يكن بإمكانهم الأجابة الأكثر دقة وعمقا على المسائل تلك ، هذه الاجابة التي اقتضت ، لكي تتحقق بالحدود الاولى الأساسية ، مرور الفين وخمسمائة سنة من تاريخ الفكر الانساني . فحينما ننطلق من أن « أصل العالم » الطاليسي - الجوهر - لا متغير ومتحرك فقط لذاته ، فإن الامكانية سوف تنتفي حينذاك للتحديث عن وجود توسط بينه وبين احاسيسنا . وفي الوقت السدي يقصر فيه طاليس عملية التوسط هذه على العلاقة بين « ظاهرات » او « اعراض » الجوهر وبين احاسيسنا ، فانه يكون قد عبّر ، على نحو غير مباشر ، عن الهوة النسبية التي اكدت عليها الفلسفة اليونانية عموماً (فلسفة السادة) بين الممارسة العملية والاخرى الفكرية النظرية : **قصور الممارسة العملية المادية هذه عن الاحاطة بـ «الجوهر» ، واقتصارها في ذلك على « الظاهرة » .**

وهكذا اذن تصبح التجربة والملاحظة الحسيتان ، اللتان تشكل « اعراض » الجوهر غير المتغير موضوعهما ، الأساس الحقيقي الوحيد لعملية المعرفة .

هنا ينبغي ان نشير الى انه من الخطأ تقييم وتقويم هذا الحل الطاليسي لموضوع المعرفة من خلال مقاييس فلسفية لاحقة متطورة ، بمعنى اقحام مقاييسنا في آراء طاليس تلك اقحاماً ميكانيكياً لاتاريخياً . ذلك لأن مثل هذه الخطوة سوف تجعلنا نرفض « جوهر » طاليس ووجهة نظره في المعرفة من حيث دورهما الايجابي في تاريخ الفلسفة ، وبالذات في عصرهما . بل أكثر من هذا ، اننا نرى هنا بأن مفهوم « أصل العالم Arché » كوّن في حينه الفرضية الفلسفية للفكر الفلسفي في بداياته ، الفرضية التي تضمنت حقاً مادة خصبة معطاءة لتطور فلسفي لاحق . ولاشك ان الامر ،

كل أمر ، صعب ومعقد في بداياته . وهذا ينطبق أيضاً على مسألتنا هنا .

٤ - على أساس من فهم تلك الأمور يصبح غير وارد أن نطرح السؤال فيما إذا حل طاليس ، في مفهومه ذلك عن أصل العالم « المسألة الأساسية في الفلسفة » ، التي تتحدد بالاجابة على الأولوية الوجودية للفكر تلقاء المادة ، أو العكس ، حلاً مادياً . فانطلاقاً من الواقع التاريخي بأن المسألة الفلسفية الأساسية تلك لم تتكون وتنبور دفعة واحدة ، ومن خلال مجهود فيلسوف واحد أو عدة فلاسفة ، وإنما عبر عملية تمثّل وطرح معقدة حتى الحد الأقصى تمت بين مجموعة ضخمة من الآراء ووجهات النظر الفلسفية والعلمية ، انطلاقاً من ذلك الواقع التاريخي نستطيع فهم موقف طاليس من المسألة الأساسية تلك بالدرجة الأولى من اجابتنا على السؤال التالي : الى أي حد وضمن أية أبعاد فلسفية استطاع طاليس المساهمة في اكساب هذه « المسألة » ملامحها الأولية - البدئية - ، طبعاً على أساس مادي فلسفي ؟

وفي هذا الإطار من القضية نود التحذير من محاولة « تطويع » التاريخ الفلسفي - ومن ضمنه الفترة الطاليسية - للصيغة الحالية المعاصرة للمسألة الأساسية للفلسفة ، كما أوردناها فوق ، كأن نحاول مثلاً ان « نشق » ذلك التاريخ من هذه المسألة ، وان نرفض بالتالي مالا ينضف تحت هيكلها الحالي المتطور . بل بالعكس من ذلك ، نحن نرى ضرورة استخلاص ملامح هذه « المسألة الأساسية » من تاريخها الخاص والتطورات التي طرأت على بنيتها في العصر الحديث والمعاصر . فهنا ، ضمن هذه الرؤية ينتفي الحديث عن « تطويع » « لتاريخ » المسألة الأساسية تلك من قبل وضعها وبنيتها التي اكتسبتها في العصر الحديث ، خصوصاً لدى تمثلي الفلسفة المادية الجدلية .

ومما هو جدير بالاثارة والابراز كون « عدم تغير » الجوهر و « تغير » اعراضه يخضعان لقانونية طبيعية ، بل ربما يمكن القول بأن الجوهر واعراضه هم صلب هذه القانونية . ومن الضروري التمييز هنا بين « الضرورة الطبيعية » و « المصير » . فطاليس ، الذي رأى موضوع التفلسف (الفلسفة) بشكل جوهر في الطبيعة ، لم يستطع بالرغم من ذلك التوصل الى مفهوم خاص متميز حول « الضرورة » الطبيعية . والسبب في هذا لا يكمن فقط في « أن مفهوم السبب لم يكن موجوداً » (١) عنده ، وإنما أيضاً لان هذه المحاولة قد أحبطت بازعاجات وكوابح جدية من قبل مخلفات التصورات اللاهوتية

(١) لينين : من التركة الفلسفية - برلين ١٩٦١ ، ص ٢٤٨ .

الاسطورية القديمة . لقد كتب أرسطو عن الفلاسفة القدماء ، ومن ضمنهم طاليس ، بأنهم « جعلوا الآلهة تنقسم بالماء ، الذي سموه Styx » (١) .
ان هذا الوضع يبرز بوضوح أكثر حينما نأخذ بعين الاعتبار التدخل
ذاك للـ « آلهة » في أصل العالم الطاليسي ، الماء ، وذلك بالرغم من أن هذه
الآلهة لدى طاليس تتضمن طابعا طبيعيا ، اذ يعتبرها قوى أو « نفوس »
الماء ..

ان أرسطو يخبرنا عن طبيعة « آلهة » طاليس الطبيعية قائلا: « والبعض
أكد أن النفس مغمورة في العالم ، ولذلك ربما اعتقد طاليس أن الكل مملوء
بالآلهة » (٢) .

من الواضح ان المسألة لا تدور هنا اطلاقا حول رأي تاليهي Deism (٣) .
يتدخل الاله بحسبه مرة واحدة في العالم - حين الخلق - ويرتد منكفئا عن
العالم تاركا اياه يسير بحسب قوانين وجوده الخاص ، بل حول وجهة نظر
قائمة على وحدة وجود « مادية ، يكون الاله ، في منظورها ، ضمن العالم ،
او قانونية هذا العالم .

وعلى هذا النحو يصبح جليا أن تلك الازعاجات والكوابح اللاهوتية
الاسطورية ، التي تمثلت باستبقاء طاليس لمفهوم « الآلهة » ، كانت كذلك
(أي في صفتها الكابحة المزعجة هذه) فقط من الناحية الذاتية . أما من
الناحية الموضوعية فلم تكن كذلك . هذا لأن تصور طاليس حول الوجود
« المؤث » كان خطوة هامة على طريق تكوين الاتجاه المادي الإلحادي هذا
موضوعيا . أما ذاتيا ، فقد مارس ذلك التصور تأثيراً سلبيا على عملية
تشكل وتكامل المفهوم الفلسفي من حيث هو شكل منطقي نظري يعكس واقعا
وجوديا معينا ، هذا بالرغم من أن بدايات امكانية تكون مثل هذا المفهوم
كانت واردة لدى طاليس نفسه . ان اللحظة « الشخصية والحسية » كانت
جزءا أساسيا في « تصور » طاليس حول الوجود

تبقى كلمة جوهرية وحاسمة في تحديد الموقع التاريخي لطاليس : لقد
كان المفكر الاول الذي استطاع أن ينتقل بالفكر البشري من **التصور الميثوي**
(الاسطوري) الى الرؤية الفلسفية المادية ، أي الذي استطاع أن ينتقل بذلك

(١) أرسطو : ما بعد الطبيعة - نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٤ .

(٢) ف. كابيلي : ما قبل السقراطيين ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٧٢ .

(٣) Deismus

الفكر من وعي المجموعات الانسانية الجمعي الى وعي المجتمع الانساني الطبقي..
ها هنا يمكن اذن تقصي أهمية الفكر الطاليسي اجتماعيا وتاريخيا ومعرفيا .
٢٣ - في الوقت الذي نلاحظ فيه أن الفلسفة تشكل وحدة فلسفية
فكرية متجانسة في الملامح الجوهرية ، فإنها تفصح عن نقاط تمايز محددة
نوعا .

ضمن هذا التمايز في وحدة الفلسفة المليية تبرز شخصية ثانية بعد
طاليس ، هي **اناكسمندر** (٦١١ - ٥٤٥ ق . م) . ان هذا الفيلسوف قد
اهتم ، كطاليس ، بمشكلة « أصل » العالم . وحاول ان يجيب على نقاطها
الاولية .

ونحن هنا سنحاول فيما يلي استقصاء « الجديد » لدى مفكرنا هذا ،
وهو (أي الجديد) موجود فعلا لديه . في مؤلف ف كابيلي « ما قبل السقراطيين »
توجد وثيقتان حول انا كسمندر ذاتا أهمية مبدئية بالنسبة الى قضية فهم
آرائه في « أصل » الوجود ، الاولى مصدرها Simplicius ، والثانية
مصدرها أرسطو .

في الوثيقة الاولى نقرا ما يلي : « اناكسمندروس ، ابن براكسيادس
من مليت ، تلميذ وخلف طاليس ، افترض « اللانهائي » كأصل وعنصر للأشياء
بحيث أنه كأول واحد استخدم هذه التسمية للأصل .

ولكنه لم يحدد الماء أو شيئا آخر مما يدعى بالعناصر ، وانما اتخذ
جوهر آخر لا نهائيا ، عنه نشأت مجموع السماوات والعوالم فيها . لكن
من أين للأشياء نشوؤها ، ها هنا يحدث أيضا اضمحلالها ، طبقا للذنب .
ذلك لأنها (أي الأشياء) تقدم لبعضها كفارة وغرامة بسبب لاعدالتها ، طبقا
لنظام الزمن . ومن الواضح ان اناكسمندر ، الذي لاحظ تحول العناصر
الاربعة الى بعضها ، لم يرغب في قبول واحد منها كأساس (جوهر) ، وانما
واحد آخر الى جانبها « (١) . أما في الوثيقة الثانية نقرا مايلي : « ان اللانهائي
يكون ، من حيث هو مادة ، السبب . . . كذلك كل المفكرين الآخرين يستخدمون
اللانهائي كمادة » (٢) .

عن ذلك تنتج النقاط الرئيسية التالية :

(١) نفس المصدر السابق - ص ٨١ - ٨٢ .

(٢) نفس المصدر السابق .

١- ان « أصل العالم » لدى اناكسمندر لهو ، بشكل واضح ، ذو طبيعة مادية . فهو نفسه المادة . وهذا قد رأيناه لدى طاليس بالنسبة الى « أصله » ، بغض النظر عن التباين في التسمية .

٢- ان « أصل العالم » ، الذي يسميه اناكسمندر Apeiron ، ليس هو المادة الكونية المشخصة والحسية، كما هو الحال بالنسبة الى «ماء» طاليس ، وانما هو - وهنا يكمن الجديد في فكر اناكسمندر المادي - التجريد من هذه المادة الكونية .

٣- ان « الحتمية » تتحول الى المبدأ الضروري للعالم . وهذا يشكل نقطة أساسية في منظومة اناكسمندر الفلسفية . ان « ضبط » العالم من خلال حتمية قانونية طبيعية كان ، الى جانب القول بالـ Apeiron ، منطلقا قويا للفكر الفلسفي المادي في كفاحه ضد الإسطورية الدينية والفلسفة المثالية .

٤- ان الـ Apeiron يوجد فقط في حركة . ونفسه هي حركته . بيد أن هذه الأخيرة (حركته) تتحدد بكونها ميكانيكية ، كمية، وبكونها حركة دائرية . اما أن يكون اناكسمندر قد عجز عن التمييز بين «أصله للعالم - اللانهائي» وحركة هذا الاصل ، كما لاحظ كاييلي بحق ، فان هذا بالرغم من ذلك تعبير بارز أولي عن الحركة «الدائرية» للمادة نفسها ، أي لأصل العالم . اما ما هو ذو أهمية خاصة بالنسبة الى تكوين وتطوير مفهوم من المادة او العالم المادي لدى اناكسمندر ، فانه يكمن بالدرجة الاولى ولا شك في الخصائص الجوهرية للـ Apeiron نفسه المتعلقة بقضية « عملية المعرفة » . وهكذا فالحاجات المعرفية والنطقية من المادة هي ما نظمته فلسفته

بالنسبة الى الـ Apeiron .

في البدء تجدر الملاحظة بأن « أصل العالم » هذا ما هو الا تجريد عن العالم المادي نفسه . وهنا ينبغي أن نشير الى مسألت منهجية في رؤيتنا لذلك « الاصل » ، وهي انه من الخطأ تاريخيا قسر مفهوم الـ Apeiron بشكل تعسفي ضمن تقويمنا المعاصر للامور . ذلك لأن مثل هذه الرؤية المنهجية كفيفة بالخط الهائل من قيمة ذلك المفهوم .

في الحقيقة ، نحن نرى أن الـ Apeiron شكل الخطوة الاولى الحقيقية على طريق نشوء وتطور المفهوم ، من حيث هو كذلك عموما . وفي سبيل ذلك لم تقم المسألة على عملية ارجاع الظاهرات والاشياء الحسية

المتعددة الى شيء أو ظاهرة واحدة . فبالرغم من أنه يكمن في عملية « الإرجاع » هذه عنصر تجريد معين ، فان مايجري هنا هو بشكل جوهري فقط رفع جزئية اشياء جزئية عديدة حسية لصالح شيء واحد حسي .

ان هذا « التجريد » يمكن للمرء أن يسميه بتجريد مُحسَّس ، كما يمكن اعتباره ، من خلال هذا المنظور ، الأساس الاولي لعملية التجريد عموما . بيد أنه من الضروري في هذا الحقل تجنب التباس معين ، هو أن نعتبر هذا الأساس الأساس الخاص المتميز لعملية التجريد تلك ، في الوقت الذي تبقى فيه تلك الدرجة من التجريد المحسَّس ذات علاقة غير مباشرة مع التجريد بالمعنى الخاص التميز .

ان هذا القول يعني ، بالعلاقة مع الـ Apeiron ، أن اناكسيمندر يجسد في « أصله للعالم » ليس فقط تلك الدرجة الحسية من عملية التجريد المشار اليها ، وانما أيضا - وهنا جوهر المشكلة لديه - النقطة الاولي الخاصة specific (١) في تلك العملية . هكذا يبدو اذن الـ Apeiron في كونه حلقة جوهريّة من حلقات نشوء وتطور الـ « المفهوم » من حيث هو كذلك .

ان الـ Apeiron يمثل شيئا غير متمايز من حيث الكيف . وهنا نجد انفسنا موافقين (كأبيلي) في رأيه ، بأن اناكسيمندر يدخل في هذه النقطة تناقضا على نحو واضح ، حينما يحدد « أصله للعالم » كشيء غير متمايز (أي لا يحتوي تناقضات) ولا يمكن تحديده كيفيا ، في الوقت الذي يعمل فيه (أي اناكسيمندر) على إبراز وتحديد تأثيرات وأعراض « أصله » ذلك (٢) .

ان هذه المواصفات للـ Apeiron قد أشار اليها Simplicius قائلا : « ان اناكسيمندروس يفترض نشوء الاشياء ليس نتيجة تغير نوعي للعنصر الاصل ، وانما نتيجة طرح للتناقضات على أساس من الحركة الخالدة » (٣) .

ان فكرة طرح التناقضات عن الـ Apeiron لها مساس بمسألة « الجوهر » الطاليسي . فمن خلال تلك الفكرة تابع اناكسيمندر الخط الفلسفي الذي استحدثه طاليس والقائم على الأخذ بـ « جوهر » في ذاته ، جوهر لا يتضمن شيئا من « التناقضات » ، بل يكون هوية مطلقة .

(١) spezifisch

(٢) نفس المصدر السابق - ص ٧٥ .

(٣) نفس المصدر السابق - ص ٨٤ - ٨٥ .

ولكن الحديث عن « تأثيرات » أو « ظاهرات » هذا الجوهر يعني اقامة تعارض مطلق بينه وبينها . فكانما هنالك « حامل » و « محمول » لا تربط بينهما علاقة « جوهرية » . ان هذا التناقض المصطنع بين الجوهر وظاهرته لم يوجد للمرة الاولى لدى أناكسيمندر . فطاليس كان في « أصله » عن العالم قد احتوى هذا التناقض . طبعاً مع الفارق بين كلا الفيلسوفين ، القائم على ان المسألة هذه لم تكن بعد قد اكتسبت لدى طاليس طابعها الواضح المتميز ، كما هو الحال لدى أناكسيمندر . فهذا الاخير أبدى اهتماماً كبيراً بمسألة ايضاح « تأثيرات وأعراض » الـ Apeiron . انطلاقاً من هذه النقطة يمكن ادراك الوضوح الذي اكتسبه التناقض المومي اليه فوق على يد أناكسيمندر .

إذا كان أناكسيمندر قد اختار الـ Apeiron ، أي اللانهائي كجوهر أصل للعالم لكي يفسر « الحركة » (١) وقدمها ، فان علاقة الحركة بذلك الأصل ظلت ، مع ذلك ، غير محلولة . فنحن نعلم بأن « الجوهر الاصل » لدى طاليس وأناكسيمندر ، على حد سواء ، غير قادر على احتواء أكثر من « حركة » دائرية مغلقة . وبذلك تكتسب الحركة هذه ، في آخر تحليل ، طابع « ثبات » مطلق ، اذا هي منددت على أنظمة كونية مختلفة . بمعنى آخر ، ان تلك الحركة هي كذلك ، أي حركة ، بالنسبة الى « الجوهر » الذي يتضمنها ، ولكنها تفقد طابعها الحركي بالنسبة الى أعراض وتأثيرات الجوهر . انها اذن حركة « الجوهر » المنفصل عن « أعراضه » و « أحواله » . والذي نراه هنا هو ان رأي أناكسيمندر هذا حول « الحركة » يمكن ان يكون له مساس واضح برأيه حول الارض . فالارض ، بحسب ذلك ، « تتحرك » . حول النقطة المركزية للعالم » (٢) ، أي انها توجد في هذه النقطة المركزية . والشمس والقمر يتحركان حولها : فالارض - وهي الجوهر - من الطرف الاول ، وأعراضها (الكواكب والنجوم الاخرى) من الطرف الآخر .

(١) لقد كتب ارسطو في « ما بعد الطبيعة » بأن أناكسيمندر قد اختار الـ Apeiron كمبدأ أساسي لكي « لا تتوقف المبرورة » . (انظر : ف. كابيلي : ما قبل السقراطيين - نفس المعطيات السابقة ، ص ٨٣) .

(٢) انظر : س. لوريا ، بدايات فكر يوناني - نفس المعطيات السابقة ، ص ٤٢ .

وهناك نقطة أساسية أخرى تتعلق بتحديد الـ *Apeiron* لدى
 أناكسيمندر والـ « ماء » لدى طاليس ، وتنشأ ، على نحو ضروري ، عن
 وجود الهوة المتكونة بين « الجوهر » و « أعراضه » أو « تأثيراته » ، هذه
 الهوة التي احتوت القصور الحاسم في رأي أناكسيمندر وطاليس حول « أصلهما »
 للعالم . والنقطة الأساسية تلك هي الموقف الميكانيكي الذي اتخذ تلقاء
 « الفكر » الإنساني . فهذا الأخير ، من حيث هو كذلك ، لا يخص الجوهر .
 أنه يخص أعراضه . أن هذا المنطلق يؤدي إلى نتيجة هامة ، وهي أن الفكر
 (العرض) فسي قادر على معرفة الجوهر والاحاطة به ذهنياً .

على هذا النحو تسد آفاق اللقاء بين الفكر « العارف » والجوهر
 « المعروف » ، وتلقى الظلال اللاذرية حول العلاقة بين كليهما . وفي الحقيقة ،
 أن واحدة من القضايا الرئيسية الأساسية المتعلقة بتكوين « مفهوم » فلسفي
 مادي دقيق عن المادة أو العالم المادي ، هذه القضية المتمثلة بالاقرار بإمكانية
 انعكاس العالم الخارجي « العام » من خلال الفكر ، أن ذلك قد ظل في إطار
 فكر أناكسيمندر وطاليس غير محلول ، واقتضى الكفاح لاحقاً من أجل وضوح
 وتماسك وعمق أكثر في طرح المسألة .

٣٣ - أن أناكسيمينس هو الشخصية الفلسفية الملية الأخيرة (عاش
 ٥٨٨ - ٥٢٥ ق.م) . وهو ، كاناكسيمندر ، تلميذ لطاليس . لقد تابع
 خطه الفلسفي المادي . ولكنه ، في طريقه لمسألة « المبدأ الأصل » للعالم ،
 لم يحقق قفزة نوعية تلقاء سلفيه الكبارين . بل يمكن القول أن أناكسيمينس
 يمثل خطوة إلى وراء فيما يخص استكمال الجانب التجريدي في « أصل »
 العالم الذي طرحه في مذهبه الفلسفي .

أن كابيلي في كتابه « ما قبل السقراطيين » يمثل الرأي بأن أناكسيمينس
 استطاع حل التناقض الذي احاط سابقاً بنظرة أناكسيمندر حول « الجوهر »
 و « أعراضه أو تأثيراته » (١) .

إلا أن المسألة ، كما سنرى ، ليست فعلاً كذلك . فقد ظل
 أناكسيمينس يتحرك ضمن الأطر الميتافيزيقية لمفهوم « الجوهر » و « أعراضه »
 التي فصلها عنه هوة عميقة . أن « وحدة » المبدأ الأصل ، الذي هو
 الهواء عند أناكسيمينس ، لم يستطع الاحتفاظ بها وانقاذها إلا على نحو
 كمي ، وذلك حيث « يرجع كل الاختلافات النوعية للأشياء إلى اختلافات
 كمية » (٢) .

(١) انظر : ف. كابيلي ، ما قبل السقراطيين ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٨٩ .

(٢) نفس المصدر السابق .

ان الـ « Apeiron » قد انتصب في تاريخ الفكر المادي كمحاولة جدية عميقة للاخاطة بالعالم المادي احاطة « فكرية » . انه قد ا طرح جانباً التركيز على جانب أو عنصر طبيعي من العالم ، كالماء والهواء والتراب الخ... . فنظر الى هذا العالم من حيث هو « المادة اللانهائية اللامتعينة » . من هذا المنظور للقضية نرى ان اناكسمندر تجاوز بقوة استاذة طاليس وزميله اناكسمينس .

لقد احتوى مفهوم الـ « Apeiron » في ذاته امكانية ضخمة للاسهام في تكوين « مفهوم » فلسفي مادي عن « المادة » . ولاشك أن المحاولات اللاحقة في هذا السبيل قد اتكأت بشكل عميق على ذلك المكسب الفلسفي ، الذي تمثل بالـ Apeiron . خلال عرضنا السابق للمشكلة الفلسفية الاولى لدى الفلاسفة الميليين - مع ابداء التحفظ فيما يخص اناكسيمندر - تستبين لنا حقيقة أساسية : ان هؤلاء الفلاسفة ، في الوقت الذي الحوا فيه على ضرورة تحديد أصل مادي واحد للعالم فقدموا في ذلك الاجابة على هجمات التصورات الفلسفية المثالية والاسطورية ، لم يستطيعوا استيعاب « وحدة » هذا الأصل على نحو حي ، أي في علاقتها « بكثرة » الأصل ذاك . فالأصل الواحد لا يوجد ، بحسب ذلك ، في علاقة جوهرية مع مظاهره واحواله . فكانما العملية تقوم على ارجاع العالم كله الى جزء واحد منه . ان تحويل جزء من العالم الى كل ، أي اعطاء هذا الجزء طابع الكلية والعمومية ، لم يحل المشكلة ، بل اثارها حتى الحد الاقصى .

وبالطبع ، يكمن الطابع الميتافيزيقي (اللاجدي) لرؤية الفلاسفة الميليين ، وعلى الاخص طاليس واناكسمينس ، في انها قامت على تقرير « سبب » واحد ، كما سيفعل لاحقاً ارسطو ، أي في انها لم تر في العالم أسباباً ومسببات لا تخص ، يكون منها السبب أيضاً مسبباً ، وذلك في الوقت الذي يؤكد فيه على مصدر هذه الاسباب والمسببات المادي الواحد ، الذي هو العالم المادي نفسه .

ان من المسائل الجوهرية في تاريخ الفلسفة تلك القضية التي طرحها المليون العظام ، فاتحين بذلك الابواب لحل لاحق علمي دقيق .

سوف نرى ، في الفصل التالي ، كيف عمل ديموقريطس على حل قضية أصل العالم Arché على نحو مادي ، متابعاً ومطوراً ، في ذلك ، للفلاسفة الطبيعيين أولئك ، ولكن عبر ركام من المصاعب والهجمات من طرف الفكر الفلسفي المثالي . ان الفلاسفة الطبيعيين الأول وديموقريطس قد اثروا في رؤاهم تلك على الفكر العربي المادي الوسيط بشكل مباشر ومن خلال اسهامهم في « تكوين » ارسطو ، الذي مارس بدوره على الفكر ذاك تأثيراً ضخماً .

المعالم الأساسية لمفهوم «الذرة» لدى ديموقريطس

٩ - لقد وجد الاتجاه المادي الفلسفي في اليونان القديمة قمته في المذهب الدري . وفيما سبق كانت الفلسفة الملية - ممثلة بطاليس واناكسمندر واناكسيمنس - قد نشأت وتبلورت كمحاولة عبقرية أولية لتفسير الوجود على نحو مادي عقلاني . وهي ، من حيث هي كذلك ، قد أصبحت جزءاً جوهرياً وهاماً من تاريخ الانسانية الفكري . لقد طرحت نفسها كمدافع عن العقل Ratio والطبيعة ضد التصورات المتوارثة والمعاصرة الاسطورية ، المفارقة والدينية . وعلى هذا النحو كانت تعبيراً « فلسفياً » عن العلاقات الاجتماعية الجديدة المتأخية الى حد كبير مع العلم والتقدم الاجتماعي .

بيد انه عبر عملية تغير البنى الاجتماعية والسياسية للمجتمع اليوناني وبالعلاقة مع الهجمات المتعاضمة من طرف الافكار المثالية الرجعية للأورفيين والفيثاغوريين والافكار الميتافيزيقية للإيليين ، لم يكن للفلسفة الملية المادية أن تظل محتفظة بقدرتها على الصمود والمجابهة . هذا اذا اخذنا أيضاً بعين الاعتبار النقاط الضعيفة ضمن هذه الفلسفة ، والتي كانت موضوع هجوم مركز من قبل تلك الاطراف .

وقد كان لنقاط الضعف تلك انعكاساتها البعيدة في النظم الفلسفية المادية اللاحقة ، بحيث لا يمكن استيعاب هذه النظم بمعزل عن علاقتها بالفلسفة الملية .

ان هيراقليطس ، وهو واحد من الفلاسفة الايونيين واحد مؤسسي « الديالكتيك » ، لم يستطع ان يقود نظريته حول « الحركة » حتى النهاية دون تناقض . هذا في الوقت الذي تؤكد فيه على اهميتها التاريخية الفلسفية . لقد توجب عليه الاجابة على سؤاليين أساسيين كبيرين : إن كان كل شيء يتحرك ، فكيف تتم هذه الحركة ، أي ، كيف ينشأ الجديد ؟ هذا أولاً . من طرف آخر ، ماذا يعني القول بـ « النار » كأصل مبدئي للعالم ؟ .

في الحقيقة ، هذان التساؤلان كانا قد طرحا في حينه امام ممثلي

الفلسفة الملية . لقد اختار المليون « اصولاً » للعالم مختلفة ، ثم اضاف هيراقليطس « اصلاً » جديداً هو « النار » . ومجموع هؤلاء قد اجابوا على التساؤل حول « الحركة » بشكل ميكانيكي بدائي . فالزمان والحركة حتملاً طابعاً ميتافيزيقياً (لاجدياً) . ذلك لأن « المبدأ الاصل » ، سواء كان الماء أو اللامحدود Apeiron ، الهواء أو النار ، جُرد من الزمان والحركة واستثوب من حيث هو جوهر غير منقسم وغير قابل للانقسام والتجزئ . وعلى العكس من ذلك ، تنظر الى امراض ومظاهر هذا الجوهر من حيث هي موجودة في زمان ومكان وحركة .

عدا ذلك ظلت تلك الفلسفة الايونية بممثليها جميعاً (طاليس ، واناكسيمندر ، واناكسمينس وهيراقليطس) تتحرك في اطار ميكانيكي ميتافيزيقي في حلها لمشكلات « مصدر » و « خاصية » الفكر الانساني و « حرية » و « ضرورة » الفعل الانساني . ان هذا الحل الميكانيكي الميتافيزيقي لتلك المشكلات اعطى دائماً المبررات للفلاسفة المثاليين وللدن للهجوم على الاتجاه المادي عموماً ، هذا الهجوم الذي اكتسب من الناحية التاريخية طابعاً مشروعاً .

هذا يبرز حقيقة تاريخية ، هي ان الفلسفة المثالية قد استطاعت ان تكتسب ابعادها وآفاقها النظرية المعرفية على حساب نقاط الضعف والثغرات في الفلسفة المادية نفسها الى حد اساسي . اننا هنا قد اغفلنا العامل الاجتماعي الحضاري فقط لأن الحديث يدور حول العامل النظري المعرفي .

بالتعارض مع « النار المتحركة بشكل خالد » لدى هيراقليطس ومع « الاصل المبدأ المتحرك لذاته وبداته » لدى طاليس واناكسمندر واناكسمينس ، نجد الايليين قد اكدوا على « الوجود الواحد والثابت ، الذي لا يتغير ولا يتحرك » .

بيد انه من اللازم الاشارة الى أن مصادر « الوجود » الايلي هذا ينبغي ان تنقضى ايضاً في « المبادئ الاصول » التي طرحها الفلاسفة الايونيون ، وبالضبط في تحديد هؤلاء للعلاقة بين « الاصل المبدأ » و « امراضه » تحديداً يعارض على اساسه الاصل باعراضه ليس نسبياً في الخط الاول ، وانما اطلاقاً .

وقد رأينا محاولة طريفة قام بها امبيدوقلس واناكساغوراس تركرت

في التوفيق بين هيراقليطس وبرمنيدس الايلي . فقد افترضنا ، على طريقة برمنيدس ، وجود « جوهر » لامتغير ولا متحرك وغير مخلوق . ولكنهما لم يستطيعا ، من طرف آخر ، تجنب مشكلة « الكثرة » و « الحركة » . ولقد رأينا فيما سبق ، ان هذا قد كوّن تناقضاً في فلسفة الايونيين ، اي في موقفهم من « الجوهر » و « اعراضه » .

وبهذا المعنى وضمن هذه الرؤية لأمور لم يكن فقط امبيدوقلس واناكساغوراس « ثنائيين » (١) ، وإنما نلاحظ هذا الاتجاه الثنائي في الفلسفة الملية . الا ان لويكيوبوس وديموقريطس نفسيهما لم يتمكنوا في فرضيتهما حول « الذرة » من التحرر من معالم هذه الثنائية .

٢ - لقد دارت المسألة لدى لويكيوبوس وديموقريطس (٦٠) - ٣٧٠ ق.م) ، المفكرين الماديين الكبارين ، حول تحديد واثبات « وحدة » العالم . اما زينون بأرائه الرياضية حول لانهائية التقسيم لموضوع أو شيء ما وحول عدم امكانية الحركة والكثرة ، فقد قدم اثارات عميقة للفكر « الذري » لدى لويكيوبوس وديموقريطس .

ان س. لوريا يحاول بحق ان يكشف عن العلاقة بين ما يسميه بـ « الذرية الرياضية المبكرة » من طرف ، وبين النقد الذي وجهه زينون الى مفهومي « الامتداد » و « الكثرة » والى « ذرية » لويكيوبوس وديموقريطس من طرف آخر (٢) .

والذي نراه ان نقد زينون للمفهومين السابقين اقتضى ، تاريخياً ، وجود مثل هذه الذرية « الرياضية » . في الوقت الذي أكد فيه زينون ، على خلاف الذرية « الرياضية » ، على ان كل « سعة » لا تحتوي امتداداً هي بمثابة الصفر وبأنها لا يمكن ان تساوي أبداً سعة حقيقية يمكن رصدها واقعياً ، في الوقت الذي أكد فيه ذلك ، توصل الى النتيجة التالية ، وهي ان كل سعة ينبغي ان تمتلك امتداداً معيناً ، لكي تكون شيئاً ما ، وانها — لذلك — قابلة للانقسام على نحو لانهائي .

عن هذه الامكانية للانقسام اللانهائي لسعة ما ذات امتداد ينتج ، بحسب زينون ، البرهان على نفي وانكار وجود الكثرة والاشياء المتكثرة . وانطلاقاً من هذه الرؤية رأى زينون « الوجود » الواحد اللامتحرك وحدده

(١) انظر نفس المصدر السابق — ص ٢٨١ .

(٢) انظر : س. لوريا ، بدايات فكر يوناني ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٦٨ — ٧٨ .

من حيث هو ثابت لا متحرك .

لقد بدأ الأمر آنذاك وانسياقا من مبادئ الذرية الرياضية كما لو كانت تلك الآراء الزينونية الكلمة الحقيقية الأخيرة في هذا الحقل . الا أن المحاولات الفلسفية التي قام بها امبيدوقلس واناكساغوراس ، والتي تركزت على استقصاء قضية « الوحدة » و « الكثرة » ، اظهرت امكانية الاخذ باتجاه آخر مغاير ، كما اظهرت تناقض نظرية زينون على الأقل مع نتائج التطور الاجتماعي المشخص .

وقد اكتسب هذا « التناقض » طابعا أكثر حدة على يدي لويكيبوس وديموقريطس . فقد كان في رأيهما انه لا يمكن تقسيم عنصر أو جسم ما الى لانهاية . ذلك لان تقسيما لانهايا يؤدي ، برأيهما ، الى القول بان كل الاجسام والمواد تتألف من « خلاء » ، أي يؤدي الى نفي وجود « الملاء » . على العكس من ذلك ، انهما - لويكيبوس وديموقريطس - قد جعلوا من « الملاء » مفهوما مركزيا في عملية ارساء الاساس للنظرية الذرية الجديدة . لقد أخذت هذه النظرية على عاتقها مهمة البرهنة والدفاع عن الوجود الحقيقي المادي للعالم . وبما أن لويكيبوس وديموقريطس قد اعطيا مفهوم « الحركة » أهمية كبيرة ، فانهما توصلا ، على نحو ضروري الى مفهوم « الخلاء » المرتبط بالمفهوم الأول بشكل وثيق . لقد قال ارسطو في معرض حديثه عن الذرية : « ... ولكن الحركة غير ممكنة ، اذا لم يوجد خلاء متميز (عن المادة) .

وبهذا القدر القليل من الامكانية يمكن أن يوجد كثرة من الاشياء ، اذا لم يوجد شيء يفصل ما بين هذه الاشياء ... » (١) . على هذا السبيل استطاع لويكيبوس وديموقريطس أن يدافعا عن فلسفة الطبيعة الايونية ضد هجوم الايليين ، وأن يواصلوا بالتالي المساهمة المتنامية حتى قمتها آنذاك .

والآن نحاول استجلاء المواضع الأساسية للبنيان الضخم للمذهب الذري هذا .

أن « الذرة » Atom تكون القاع الاصلي لهذا البنيان . وهي تتمتع بوجود حقيقي موضوعي . أما « الخلاء » فانه ، بالرغم من كونه ، كما يقول ارسطو ، « لا يتمتع بوجود أقل من وجود الجسم الملىء » (٢) ، لا يملك

(١) ف. كابيلي : ما قبل السقراطيين - نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٩١ .

(٢) نفس المصدر السابق - ص ٢٩٣ .

نفس الأهمية الوجودية المتمثلة في حيازة « الملاء » . ذلك لأنه (أي الخلاء) ببساطة يمثل الوجود ، بينما الملاء يمثل الوجود . أن أخذ هذه المسألة بعين الاعتبار ضروري بخصوص إيضاح مضمون « وحدة العالم » في المذهب الدرّي .

وبناء على ذلك فالليرة (الموجود) واللاموجود يكوّنان المصموم الحقيقي للعالم المادي . ولكن انطلاقاً من وجود تمايز في أهمية « الملاء » و « الخلاء » ، فإن هنالك أيضاً تمايزاً في أهمية المكونات الجوهرية لـ « وحدة العالم » تلك . ذلك لأن هذه المكونات (الذرات ، أي الملاء ، والخلاء) متساوية في الأهمية الوجودية من حيث الزمان ، ومختلفة في هذه الأهمية من حيث الدار .

(ونحن سوف نلاحظ لاحقاً في الفكر العربي - الإسلامي الوسيط الأخذ بمنحى مادي هرطقي دور هذه المسألة في عملية الإلهان على قسطنطين العالم المادي) .

هذا يعني وجود تمايز وجودي بين تلك المكونات ، إلا أن هذا التمايز لا يتعدى نطاق الدرجة في الوجود . هذا هو الجانب الأول . وهناك جانب آخر للمسألة . فإذا أخذنا بعين الاعتبار « التعدد » أو « الكثرة » الناشئة عن تلك المكونات الوجودية الأساسية ، فإننا سوف نسجل تمايزاً بين المكونات و « الكثرة » تلك . أن هذا التمايز يعبر عن نفسه من خلال انهو - بين الليرة كعنصر موحد وغير متغير وبين مركباتها . وثمة مشكلة نواجهها بالنسبة إلى قضية « الوحدة » . فضمن المكونات الأساسية للعالم نفسها، الذرات ، لا تسود وحدة . أن كل ذرة تشكل لنفسها بنياناً مغلقاً . فهي توجد بلا علاقة مع الذرات الأخرى المجاورة والمحيطية ومع الخلاء الذي يفصلها (أي الليرة) عن تلك الذرات المجاورة لها والمحيطية بها .

أن الليرة لا تتميز من حيث هي « نوعية » Quality (١) ما أو من حيث هي متضمنة صفات نوعية ما . أنها تتميز عن الذرات الأخرى من خلال صفاتها الكمية ، وهي الشكل والوضع والنظام ، هذه الصفات المتعلقة أصلاً بـ « الخلاء » . أنها (الليرة) بنيان وجودي خالد ، محددة معالها الجوهرية مرة واحدة وإلى الأبد ، وغير متعلق بشيء آخر سوى ذاته . وبنتيجة الحركة المكانية للذرات في المكان الخالي « تتدافع على بعضها

وتتداخل ببعضها بالشكل الذي يتيح لها تماس بعضها والتواجد مع بعضها . ولكنه (أي ديموقريطس) لا يجعل منها وحدة حقيقية . ذلك لأنه من حماقة كليا الافتراض بأن شيئين أو أكثر يصبحان في وقتٍ ما شيئا واحداً» (١) .

وإذا كان الامر كذلك ، فإن الذرات (الوجود) والخلاء (اللاوجود) لا توجد آنذاك في حركة وفي زمان . بل ان هذين الأخيرين، الحركة والزمان، لا يمكن التوحيد بينهما وبين الذرات والخلاء بشكل من الاشكال . ان هذا الواقع يحتفظ أبداً ودائماً بوجوده، بالرغم من التحفظ الجانبي بأن الذرات تتحرك مكانياً ، ميكانيكياً . ففي الزمان والحركة توجد فقط التأثيرات وعوارض الذرات تلك . ان هذا يدكر بـ « جوهر » المليون (طاليس ...) الذي يؤكد على تحركه فقط حيثما يؤخذ بمعزل عن تأثيراته وعوارضه ، أي في ذاته ولذاته . كما يؤكد ، من طرف آخر على عدم وجوده في الزمان والحركة حيث يرى في علاقته مع تأثيراته وعوارضه تلك .

لقد سبق ورأينا أن العالم « الحقيقي » لدى الايونيين يتكون من جوهر واحد وحيد فقط . ف « الماء » أو الـ « Apreiron » الخ ... يشكل في ذاته شيئاً موحداً . اما لدى لويكيبوس وديموقريطس فليست الذرة الواحدة ، وانما الذرات الكثيرة هي جواهر العالم .

وإذا نظرنا الى هذه الكثرة « العددية » لجواهر العالم من حيث هي موجودة الى جانب بعضها دون علاقة متبادلة جدلية ، فاننا سوف نعتبرها، بالمقارنة مع الجوهر الايوني في وحدته ، خطوة الى وراء . ولكن مما لا شك فيه أن فكرة تمظهر الوحدة (وحدة الذرات) في الكثرة (كثرتها) تشكل في عصرها فتحاً كبيراً في عملية التقدم الفكري الجدلي ، المتعارض مع الفكر المثالي الواحدي . ونحن حين نقيم تلك الخطوة على هذا النحو ، فسانا نرى أيضاً أن « التمايز » ضمن « الوحدة » ليس الا جانباً واحداً من قضية « الوحدة » . اما الجانب الآخر والهام فهو « التأثير المتبادل » ضمن مكونات الوحدة .

ان « ذرات » لويكيبوس وديموقريطس لا تشكل وحدة واحدة فقط ، وانما وحدات منفصلة عن بعضها . ذلك لأن القول بوحدات (ذرات) موحدة يفضي ، بحسب الاستشهاد الذي اوردناه أخيراً ، الى طرح مبدأ « الهوية » جانباً ، أي الى الافتراض (الاحتمال) بأن « شيئين أو أكثر

(١) نفس المصدر السابق - ص ٣٩٧ .

يصبحان في وقت ما شيئاً واحداً » . ان مبدأ « الهوية » هذا يشهد لدى ديموقريطس مرحلة عليا من تطوره . وقد تم ذلك على طريق آخر غير الذي سلكه المليون .

فالمسألة تدور بالنسبة الى ديموقريطس حول « هوية » تظهر كما لو كانت مرتبطة بانتهاكها لنفسها . الا ان هذا الانتهاك ليس وارداً في الحقيقة ، ذلك لأن هذه الهوية ليست سوى هوية ذرة واحدة لا تدع نفسها ترصف ضمن وحدة مكونة من عدة ذرات . لان انتظامها في وحدة من هذا النوع يجعل من الممكن ان نتحدث عن وجود « تمايز » ضمنها ، هذا التمايز الذي سيتجسد في الذرات المتعددة المكونة للوحدة تلك .

ان « الوحدة » تتعلق اذن لدى ديموقريطس بالواحد « الوحدوي » وليس بالواحد « الكثروي » . فالوحدة هي وحدة الذرة الواحدة . والذرة في صفتها هذه تحتاج وجود الذرات الاخرى ، في احسن حال ، من أجل القيام بحركتها الميكانيكية .

وبما أن حركة الذرات تتم من خلال فعل ميكانيكي ، مثل دفعة من خارج ، فانها (أي الحركة) تمنح الذرات نوعاً من التوحيد أو الترابط . هذا يعني أن القول بكون الذرات تكون لدى ديموقريطس « وحدة » صحيح ، من حيث أن هذه الوحدة تنبعث من « خارج » . هذا طبعا مع التأكيد الضروري على أن « الحركة » كفعل ميكانيكي ليس لها مصدر سوى العالم الذي .



لم تكن قضية « الوحدة » في المنظومة الدرية لدى ديموقريطس هي القضية الوحيدة التي اعتورتها هذه الالتباسات ، والتي (أي القضية) يمكن ردها ، كما رأينا ، الى الذرة « الواحدة » . هنالك أيضاً قضية الحركة . لقد كتب بلوتارك حول ذلك ما يلي : « . . ما الذي يؤكد ديموقريطس ؟ . . . ان نشوءاً (أي حركة) من اللاموجود لا يوجد . أما من الموجود فسوف لا يكون شيء (بالمعنى الحقيقي) ناشئاً ، لأن الذرات - نتيجة صلابتها - لم تعان أي خلل أو تغير . وعلى هذا فلا يمكن أن يأتي لون من اجسام أولى لا متغيرة وغير ملونة ، كما لا يمكن أن تأتي طبيعة أو نفس من اجسام أولى لا متغيرة وعديمة الكيفية » (١) .

(١) انظر : ف. كابيلي - ماقبل السقراطيين ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٣٩٩ .

ان هذا يشكل وثيقة هامة حول قضية الحركة عموماً . وهو يمكن أن يلقي ضوءاً ساطعاً على قضية « أصل العالم » لدى ديموقريطس : فإن لا ينشأ شيء ، يعني ، بالمعنى المباشر ، أن لا شيء يتحرك . ان مبدأ « حفظ المادة » يؤكد عليه هنا بقوة ، كما أكد عليه فيما سبق المليون . ولكن « الحركة » تكتسب ، في خلال ذلك ، طابعاً ثانوياً تأملياً .

ان « الذرة » يمكن مقارنتها هنا بـ « الجوهر » الطاليسي أو البرمنيدسي اللامتحرك واللامتغير . وعلى هذا فان جوهره (من الفعل يجوهر) العالم الحقيقي لدى الفلاسفة الطبيعيين الاول ولدى اللذين قد تمت على طريق ازالة « الحركة الذاتية » لهذا العالم بالرغم من انهم لم يلجأوا فعلاً الى مصدر حركي خارج العالم ككل . اذا تحرك شيء أو تغير ، فان هذا مجرد فعل ميكانيكي من خارج . الا ان هذا الـ « خارج » يظل ضمن اطار العالم اللذي نفسه . على هذه المسألة يعلق Simplicians قائلاً : « ديموقريطس يقول بأن الذرات بطبيعتها غير متحركة ، وبأنها تحرك من خلال صدمة » (١) . في مثل هذه الذرية الميكانيكية من الممكن دائماً وبالطبع تحت ضغط الفلاسفة المثاليين « الانتقال » الى « محرك » أو الى جوهر ما يوجد خارجاً عن المحرك وذلك لتفسير مصدر الحركة . فان يكون العالم - في هذه الحال الذرة موجوداً خارج الزمان والحركة ، يؤدي الى تصدعه من حيث هو موجود بذاته . ان عالماً بلا حركة هو عالم بلا زمان . فالحركة تبرز هنا من حيث هي المعيار الوجودي للزمان . وبالطبع ، القول بوجود مثل ذلك العالم يقود ، مباشرة أو على نحو غير مباشر ، الى القول بوجود « قوة » ما محركاً لهذا العالم وتوجد خارجاً عنه . ولكن بالرغم من وجود تلك الملاحظات بالنسبة الى قضية الحركة والوحدة ، فان لويكيبوس وديموقريطس حلاً « المشكلة الأساسية » في الفلسفة بشكل حازم .

ان الذرة والخلاء ، اي العالم الحقيقي المادي ، يوجدان مستقلين عن الوعي الانساني . وهذه الاستقلالية تمتلك طابعاً خاصاً : فالمسألة تدور عموماً حول عالم واحد ومنتجانس ، ومؤلف في كل الانحاء من ذرات وخلاء . واذا اراد المرء ان يتحدث عن استقلالية كل شيء على حدة أو استقلالية العالم عموماً ، فانه من الضروري ان يكون ذلك ضمن اطار من العلاقات النسبية المحددة .

ان هذا ، كما يظهر ، مسألة من مسائل نظرية المعرفة . فالسؤال يطرح

(١) نفس المصدر السابق - ص ٤٠٣ .

نفسه : بالنسبة الى ماذا توجد الذرات والخلاء بشكل موضوعي مستقل ؟ ان
الاجابة على هذا السؤال نجدها مطروحة بشكل اولي لدى الفلاسفة الايونيين
(طاليس ، واناكسيمندر واناكسيمنس وهيرقليطيس) .

ولكن المسألة تكتسب طابعا اكثر دقة لدى ديموقريطس . فهنا وجهان
من المسألة ينبغي التعرض لهما وبنفس الوقت التمييز بينهما :

اولاً : ان ديموقريطس لم يتجاوز الفلاسفة الايونيين في طرحه لمسألة
خاصية الفكر . فمنطلقه الذري الميكانيكي قاده بالضرورة ، كما يرى
Theophrast ، الى « ان يدع الفكر ينشأ على أساس اختلاط
دقيق في الجسم . ان هذا الرأي ربما كان بالنسبة اليه صحيحاً ، بحيث انه
اعتبر النفس (أو الروح) مادة جسمية » (١) . تماماً كـ « الماء » و « اللامحدود
Apeiron و « الهواء » و « النار » ، فان « الذرة » لا تشكل فقط
مصدر « الفكر » ، وانما ايضا مادته .

ثانياً : ان الاستقلالية التي تحدثنا عنها والخاصة بالعالم الذري لم
تبرز فقط بمعنى ان هذا العالم يتمتع باولوية الوجودية تلقاء الوعي الانساني
من حيث هو ذرة لطيفة وذات شكل كروي ، وانما أيضاً - وهذا هو الجديد
في المسألة - بمعنى ان العالم ذاك يعكس في ذلك الوعي مشكلاً على هذا النحو
« الموضوع » والمصدر الوحيد للمعرفة .

ان معرفة العالم الخارجي من خلال الفكر ، واتمام ذلك عن طريق الانعكاس ،
ان هذا يشكل نقطتين أساسيتين طرحهما ديموقريطس . وطبقاً لهذا استطاع
ديموقريطس على نحو عبثي ان يتجاوز وجهة النظر الايونية حول « الفكر » .
ولايضاح اكثر ، نقول بان ديموقريطس توصل الى معرفة الوظيفة الأساسية للفكر ،
وهي عكس العالم الخارجي الموضوعي . ولكن المسألة القائمة على تحديد خاصية
أو طبيعة الفكر بقيت معقدة . بيد انه بالرغم من هذا ، استطاع ديموقريطس
ان يطور قضية العلاقة المعرفية بين الفكر والواقع خطوة ضخمة الى امام ،
وذلك بمعارضة مباشرة للرؤى المثالية الايمانية التي كانت مسيطرة آنذاك .

لقد اكتسبت قضية « مفهوم المادة » من خلال اكتشاف ديموقريطس
للـ « انعكاس » جوانب عديدة عميقة .

اما « وحدة » العالم الخارجي ، اي الذرات (الملاء) والخلاء كما طرحها
ديموقريطس في كيانها العياني ، فقد وجدت انعكاسها « المفهومي » في الفكر :

(١) نفس المصدر السابق - ص ٤٢٨ .

ان الفكر يستطيع ، حسب ديموقريطس ، معرفة الحقيقة ، التي تستلقي « في العمق » (١) . والعمق هذاهو الذرات والخلاء، التي لا تشكل ، كما رأينا ، وحدة داخلية حقيقية . هذا يظهر ان الحقيقة ، التي يجد الفكر في الكشف عنها ، ذات طابع مفرد . فهي حقيقة الذرة الواحدة المفردة .

ان ديموقريطس لم يستطع ان يتغلب « ضمن » الفكر على « اللاوحدة » ضمن الواقع المادي . الا أن الفكرة عن وحدة العالم تغلف مجموع النظام الفلسفي للدري لديموقريطس . وعلى هذا الطريق توصل ديموقريطس الى مفهوم الوحدة .

هاهنا يكمن تناقض يستدعي الانتباه والتقصي العميقين . انه تناقض بين مفهوم الوحدة وبين العالم المادي المجزأ الى وحدات .

بيد أنه انطلاقاً من أن الذرات لا تتضمن خصائص نوعية أكثر من كونها معطيات مادية لا تنقسم وخالدة ، فإنه ينتج الأمر التالي : اذا ماثلت كل ذرة الذرات الأخرى من الناحية الكيفية ، فإن العالم أو الفيلسوف قادر ، من خلال « المفهوم » الذي يستخدمه في ذلك ، على أن يتعرف على مجموع الذرات فيما اذا استطاع أن يتعرف فقط على ذرة واحدة . ولذا فإن الفكر وحده ، أي الفعالية الذهنية الانسانية، يستطيع معرفة العالم للدري كما هو في ذاته .

أما « الملاحظة » فتستطيع بدورها الكشف عن ذلك العالم للدري ، ولكن ليس كما هو في ذاته ، وإنما كما هو في تأثيراته وأعراضه ، التي تتحدد من خلال وضعه وشكله ونظامه .

هكذا يتبين لنا أن وضع قضية مفهوم « المادة » أو « العالم المادي » يمكن استيعابها ، في شكلها الديموقريطسي، على طريق فض ملامح العلاقة بين « العام » و « الخاص » أو « الكل » و « الجزء » . ذلك أنه من الأمور الجوهرية لدى العمل على صياغة نظرية فلسفية مادية عن « المادة » أن تحدد معالم الكيفية التي ينعكس حسبها العالم المادي الخارجي في الوعي الانساني . وقد اكتسب حل هذه المسألة لدى ديموقريطس طابعاً ذا شقين :

لقد ظهر لنا سابقاً أنه نتيجة المشابهة أو المماثلة النوعية بين جميع الذرات تبرز كل ذرة كمقياس لجميع الذرات هذه . فكل ذرة تصبح ، على هذا النحو ، مركزاً لكل الذرات الأخرى . وإذا كان ديموقريطس قد امتنع ، كما أخبرنا Simplicius ، عن اعتبار الذرات موجودة ضمن وحدة

(١) نفس المصدر السابق - ص ٤٢٧ .

تضمها جميعا ، فانه استطاع النفاذ الى فكرة وحدتها على اساس المماثلة النوعية الكلية بينها . اذ ذاك تصبح الوحدة معطاة في كل ذرة . الا أن هذه « الوحدة » محددة على نحو **مضموني** ، وليس على نحو **عديدي** . فالفرد والكل يظهران اذن في شكل الذرة الواحدة ومجموع الذرات في آن واحد : ذلك لأن « العام » يتأصل في مجموع الذرات ، من ناحية أولى ، ولأن صفة الذرة الواحدة قائمة ، بسبب ذلك ، في مجموع الذرات من ناحية ثانية . وفي رأينا أنه لا توجد هنا قضية أصلية حول العام - الخاص ، أو الكل - الجزء . فمن نافلة الامور أن نتحدث هنا عن تأثير وتأثير حقيقيين بين كلا القطبين . ذلك لأن المسألة تدور هنا أولا وأخيرا حول « وحدة » خالية من « الكثرة » . فالعلاقة الحقيقية الجدلية بين العام والخاص تشترط في الخط الاول وجود الهوية والتمايز ، في آن واحد .

ان هذا جميعا يظهر أن ديموقريطس لم يستطع حتى أن **يطرح** مسألة العلاقة تلك على نحو دقيق . فالاطار **الظاهري** لوحدة الذرات حدد آفاق وإبعاد التحرك لهذه العلاقة .

ان « الانعكاس » يبرز لدى ديموقريطس كمفهوم مركزي وكجوهر للمعرفة في نظرية المعرفة الديموقريطسية^(١) . والعالم المادي يُعرف من قبل الانسان في هذا الشكل الانعكاسي . أما العلاقة ، المشار اليها فوق ، بين العام والخاص والآخذة ، في **مستوى الواقع الذري** ، طابعا ظاهريا ، أي غير حقيقي ، على النحو الذي أوضحناه ، فانها تكتسب في **مستوى الفكر** طابعا حقيقيا .

وكما شهدنا المسألة بالنسبة الى الـ « وحدة » ، هاهنا نشهد أيضا تناقضا بين المادي الواقعي والفكري العاكس . وهذا يعود الى عاملين . أولا - ان « الفكر » قد وصل على يد ديموقريطس درجة مرموقة من « الاستقلالية » النسبية تلقاء « الواقع المادي » . أما العامل الثاني - ويتعلق بالاول - فيقوم على كون الفكر ذاك قد اكتسب تلك الدرجة من تطوره بالنسبة الى مسألة « الهوية » بشذل اساسي . أما « التمايز » فلم يكن قد أقام لنفسه جذورا في ذلك « الفكر » الديموقريطسي . فهذا يعكس « العالم الذري » في هويته اللامتمايزة : ان المماثلة بين الذرات الموجودة في وحدة لاحقيقية تُعكس في الفكر كمماثلة بين ذرات موجودة في وحدة هوية عارية من التمايز والكثرة .

(١) حول هذه المسألة يخبرنا Theophrast ما يلي : « انه - أي ديموقريطس - يجعل الرؤية تتم على اساس الانعكاس ، وحول هذا له رأي خاص » . (نفس المصدر السابق - ص ٢٣١) .

وإذا أردنا الآن رصد « الجديد » العميق في فكر ديموقريطس الذي ،
فإننا سنجد نقطتين لا يمكن تجاهلهما إطلاقاً .

١ - لأول مرة في تاريخ الفكر الفلسفي ، سحب ، على يد ديموقريطس ،
خط تعارض نظري معرفي بين الواقع والفكر ، أو بين العالم المادي والوعي
الإنساني ، وذلك من خلال انعكاس العالم المادي في الوعي ذاته . ونحن حيث
نلاحظ هذه المسألة في أطوارها التاريخي ، فإننا حينئذ سوف نغض النظر عن
الثغرات والمثالب في نظرية « الانعكاس » الديموقريطسية هذه ، والتي
عاجزاً فوق شيء من التفصيل . لقد اختط ديموقريطس من خلال نظريته
البدائية هذه طريقاً عملاقاً للتقدم في الفكر آنذاك في عموماً ، وفي « نظرية
المعرفة » على الخصوص ، وبالتالي في إطار قضى « مفهوم » المادة أو العالم
المادي .

٢ - مع اكتشاف « علاقة الانعكاس » ، قبل ديموقريطس نستطيع
تسجيل خطوة أخرى على طريق صياغة « مفهوم » فلسفي مادي جدلي عن
المادة أو العالم المادي . هذه الخطوة هي بداية ، ان لم نقل أكثر من ذلك ،
اضعاف مفهوم « الجوهر » اللاجدي . فمقابلة العالم المادي الخارجي بالفكر
القادر وحده على معرفة هذا العالم تتضمن الميل للاعتراف بأن ذلك العالم
لا يوجد بذاته ولذاته ، دون حركة أو قدرة على التماثل الذاتي ، وإنما من
حيث هو منفتح ، ونشيط ذاتياً ، وقابل للمعرفة والاستكناه من قبل
الإنسان الفعال نظرياً وعملياً .

لقد كتب حول هذه النقطة الجوهرية Sextus Empiricus مايلي :
« ان افلاطون كديموقريطس كانا يمثلان الرأي بأنه فقط تلك الأشياء موجودة
حقاً ، التي يمكن الاحاطة بها من خلال الفكر وحده . وسبب ذلك لدى
ديموقريطس هو ان الواقع لا يحتوي شيئاً قابلاً للملاحظة عن طريق الحس ،
لأن الذرات المكونة لجميع الأشياء تملك جوهرها عارياً عن أية نوعية
حسية . . . » (١) .

ان القول بقدرة الفكر على التقاط الواقع عن طريق الانعكاس كان خطوة
ضرورية على طريق تكوين رؤية مادية وجدلية أكثر دقة وعمقا لقضية « العالم »
أو « المادة » ، هذا بالرغم من الطابع الميكانيكي - المشروط تاريخياً - لنظرية
الانعكاس هذه .

(١) نفس المصدر السابق - ص ٤٣٥ - ٤٣٦ .

في الحقيقة ، ان طرح العالم أو المادة من خلال الفكر العاكس كان قد تم لأول مرة على يد ديموقريطس . ف « اقحام » الفكر هذا في اطار العالم الذري الخالد اللامتحرك واللازماني قاد بالضرورة الى فتح « ثغرة » في هذا العالم ، فتحول من عالم مغلق ، وجوده بذاته ، الى عالم منفتح ، وجوده يمتد فينا نحن . ولكن انطلاقا من أن ديموقريطس قد حدد الفكر بكونه ذرات نارية ناعمة لطيفة وذات شكل دائري ، فقد أصبحت العلاقة بينه وبين الواقع الذري المادي علاقة بين عالمين متجانسين في الحدود العامة : فالكل ذو طبيعة ذرية واحدة ، يكون نوعية واحدة وحيدة . وهذه النوعية تتمظهر في كميات لا تحصى .

ان ديموقريطس لم يستطع طرح العلاقة تلك من خلال مقابلة نظرية معرفية للفكر بالواقع ، على اعتبار أن هذين يشكلان نوعيتين اثنتين ، الفكرية والمادية . ولكنه لم يكن في ذلك الوحيد في تاريخ الفلسفة ، بل أن هذا خط يميز ، على طول ذلك التاريخ ، الفلاسفة الماديين الميكانيكيين . ولكن هذا قد كلف الفلسفة المادية الكثير باتاحتها للفلسفة المثالية ، والافلاطونية منها بشكل خاص ، امكانات تطور واسعة .

الا أن قيمة ديموقريطس التاريخية تبقى ولا شك هامة حتى الحد الأقصى : انه المفكر الكبير الذي قدم - كما رأينا - ارهاصات عميقة وضخمة في حينه للفكر الفلسفي المادي ، والذي دافع عن هذا الفكر ضد المثالية والايماينية .

سوف نجد لاحقا ، في العصر العربي - الاسلامي الوسيط ، كيف استطاع الاشاعرة ادخال تعديلات جوهرية على النظرية الذرية الديموقريطسية ، بحيث أدى ذلك الى اجهاض المضمون المادي الفلسفي فيها . وهذا يظهر واقعا تاريخيا دقيقا ، هو أن فكرة ما بمضمون معين يمكن - في اطار اجتماعي حضاري آخر مختلف - تبنيها مع اكسابها مضمونا آخر مناقضا تماما لمضمونها السابق .

« فالذرية » الديموقريطسية المادية التي كانت في البداية

أرسطو العالم المادي و« مفهوم » المادة كمشكلة فلسفية أساسية والنازح في ذلك بين الماديتين والمثاليين

الخطوة الفعلية الأولى على طريق تكون « مفهوم » المادة - الجوهر -

١ - لدى أرسطو نشهد قضية العالم المادي و « المفهوم » عنه وقد اكتسبت آفاق عميقة وشاملة . فلأول مرة في تاريخ الفكر الفلسفي يصبح على يده ممكنا أن نتحدث عن « مفهوم » المادة - الجوهر - بالمعنى الخاص المتميز . ولقد شهدنا سابقا لدى اناكسيمندر وديموقريطس ، كما ابتنا ، ميلا في اتجاه تكون « المفهوم » هذا . الا ان هذا الميل حمل طابعا ميكانيكيا واضحا ، فائثار ، بذلك ، ردود فعل عنيفة معادية في صفوف الفلاسفة المثاليين وانتقادات شتى من طرف الفلاسفة الماديين اللاحقين .

ان تاريخ تكوين وتطور « مقولات » فلسفية محددة على نحو منطقي دقيق قد مر آنذاك ، في عصر أرسطو ، في منعطف معقد وعصيب : ان الميكانيكية العفوية في مجموع الفلسفة المادية القديمة برؤيتها للـ « فكر » كشيء جسمي ، من طرف اول ، والمثالية الافلاطونية برؤيتها له ، اي للفكر ، كعنصر روحي مثالي بحث ، من طرف ثان ، إن هاتين النظريتين قد اشتبكنا في صراع شامل وعنيف مع بعضهما .

لقد اخذت « الافلاطونية » المهمة الكبيرة على عاتقها ، التي تبنتها عن الارفكيين والفيثاغوريين ، وهي مكافحة وابداء كل بادرة فلسفية مادية تنشأ آنذاك . وقد كانت « الذرية » بالخط الأول محط انظار الافلاطونية . ان كفاح افلاطون ضد الاتجاه الفلسفي المادي تضمن نقطتين ، الأولى نفي وجود حقيقي للعالم المادي . أما النقطة الثانية فهي اعلانه « الفكرة »

أو « المفهوم » كمبدأ وحيد أعلى ومطلق للوجود ، أي كمبدأ حقيقي وحيد . وبالطبع ، لم يكن افلاطون الفيلسوف الأول الذي طرح الفكر المثالي . ولكنه استطاع لأول مرة في تاريخ الفكر الانساني أن يرفع هذا الفكر الى درجة عالية ، وذلك حيث عمل على دفع عملية « استقلالية » الفكر عن الواقع الى حد بعيد ، بشكل أدى الى جعل هذه الاستقلالية مطلقة .

ان افلاطون ، الذي وضع المعالم الأساسية لفلسفة « المثالية الموضوعية » ، اثار حتى الحد الأقصى مسألة الفكر من حيث هو كقولك . وفي الحقيقة ، نشأت فلسفته ، وعلى الأخص نظرية المثل منها ، كرد فعل مباشر على وضد الانظمة الفلسفية المادية للايونيين والدرسين . وهذا يعني أيضاً كرد فعل مباشر على وضد وضع « الفكر » في هذه الانظمة .

فان نظر الماديون اولئك الى الفكر كشيء جسمي ، أو على الأصح ، كشيء مادي وعلى أنه - في منظور انطولوجي - امتداد للمادة أو للعالم المادي الخارجي (هذا بفض النظر عن التمييز النظري المعرفي الطفيف والانوعي بين الفكر والمادة) ، فان الخط الجوهري لنظرية المثل الافلاطونية يكمن في خلق هوة مطلقة بين الشيء والفكر ، أو بين « موضوع » المثل والمثال نفسه ، وبالتالي في استقلالية المثال المطلقة تلقاء « موضوعه » اللاحقيقي ، بحيث يتحول هذا المثال الى مبدع « حقيقي » لموضوعه « اللاحقيقي » . طبعاً ، هذا « الابداع » لايعني الخلق من عدم ، بل منح الشيء وجوده .

بدلك استطاع افلاطون اقامة دعائم فكر اثيني Dualism ، ركنه هما « الحقيقي » و « اللاحقيقي » ، الفكرة والشيء . وفي الوقت الذي يؤكد فيه على الهوة السحيقة بين الحقيقي واللاحقيقي من زاوية التمايز الذاتي ، بمعنى أن « اللاحقيقي » بالرغم من ذلك موجود وان كان وجوده بمثابة التلاتعين والاتصال ، بعكس « الحقيقي » الذي يفضل « اللاحقيقي » من حيث الحقيقة الذاتية ، أي انه يلتقي في « الوجود » مع « اللاحقيقي » ، في ذلك الوقت نلاحظ ذلك التفصيل بين كلا الشكليين الوجوديين يدخل النطاق الانطولوجي - الوجودي : في الحقيقة توجد فقط المثل . وهي من حيث هي كذلك ، تنفي وجود شيء آخر ، وتنفي بالتالي أية علاقة حقيقية لها مع الشيء . هنا يوجد تناقض لاسبيل الى اخفائه . وقد انطلق منه ارسطو لاحقاً في خلال انتقاده العميق - ولكن غير الحازم - لاستاذه . لقد رأى افلاطون أن « الشيء » ينشأ من « مثاله » أو « فكرته » .

ولكنه لم ير ، من طرف آخر ، هذا الشيء في علاقة « حقيقية » مع مثاله .
فهو (الشيء) ليس أكثر من ظل باهت لمثاله .

ان افلاطون في ذلك لم « يقلب » العلاقة بين الشيء والمثال او الفكرة ،
كما طرحت لدى الماديين الطبيعيين السابقين ، وديموقريطس منهم على
الخصوص ، وانما فعل أكثر من ذلك . انه عمل على نفي واحد من قطبي
العلاقة تلك ، وهو الشيء ، وذلك لصالح القطب - المفهوم - المطلق الأعلى ،
وهو المثال . ان المثال هو الجوهر الحقيقي للعالم ، بينما الشيء يمثل
اللاوجود . وهذا الاخير (اللاوجود) يختلف عن « اللاوجود » الديموقريطيسي
بكونه غير مشارك اطلاقاً في تمثل « الحقيقة » الوجودية . وبذلك يفسد
واضحاً انه من غير الدقة ان نتحدث - بالعلاقة مع نظرية المثل الافلاطونية -
عن افلاطون ، دون أي تحفظ ، كممثل للفلسفة المثالية الموضوعية ، كما هو
الحال في الكثير من الابحاث والكتب . وسبب ذلك هو ان المسألة في
مضمونها و ميلها تدور لدى افلاطون حول موضوعة Objectivation
ظاهرية للشيء ، وللعالم المادي كله .

ان « الشيء » يعاني لدى افلاطون ، كما لاحظ ارستو في حينه ،
« من كون التعريف ينسب الى شيء آخر غير الاشياء الحسية . انه (أي
افلاطون) يرى بأنه من غير الممكن أن يوجد تعريف عام لشيء حسي ، لأن
الاشياء الحسية موجودة في تغير مستمر » (١) . في هذه المسألة نجد تعبيراً
عن أحد المبادئ الافلاطونية الأساسية ، وهو الثبات الروحي (المفهومي)
لعالم المثل « الحقيقي » . اما كيف يوجد الشيء المفرد المتحرك والمتغير
دائماً ، فان هذا يتم بفضل مشاركته للفكرة ، فكرته هو (٢) . ولكن حينما
يتفكر المرء بأن افلاطون يمتنع عن اعتبار الفكرة (او المثال) الجوهر
الحقيقي للشيء المفرد ، فانه يصبح واضحاً أن تلك المشاركة ليست أكثر
من تركيب وهمي غير حائز على مقتضيات الوجود .

لذا فانه غير مضبوط ان نؤكد بأن مجموع اشكال المثالية الموضوعية
« ينتظمها » خط أساسي مشترك ، هو « أنها في مقولاتها الفلسفية تعترف
بالعالم الخارجي موجوداً على نحو موضوعي ، وانما بشكل نتيجة فعالية
روحية خالقة » (٣) . ذلك لأن هذا العالم الخارجي (المادي) ، حسب

(١) ارستو : ما بعد الطبيعة - نفس المعطيات السابقة ، ص ٣٢ .

(٢) نفس المصدر السابق - نفس الصفحة .

(٣) قاموس فلسفي - تأليف مجموعة من الفلاسفة ، لايبيرغ ١٩٦٤ ، ص ٢٤٧ .

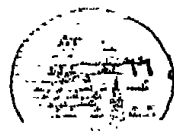
افلاطون ، مؤسس المثالية الموضوعية ، ليس معترفاً بوجوده موضوعياً ولا هو « موضوع » للمعرفة .

في هذه النقطة الجوهرية تكمن مخالفة صريحة لمبدأ العلاقة المتبادلة correlative (١) بين العام والمفرد - أي بين البيت العام وظلاله القائمة ، البيوت المفردة العيانية . وفي الوقت الذي يرفض فيه أرسطو بحزم هذا « الاعتراف » الشكلي ، أي اللاحقيقي بـ « المفرد » العياني لصالح « المثال » العام المتمتع بالوجود الحقيقي ، وفي الوقت الذي يرفض فيه بالتالي « مضاعفة » افلاطون للعالم ، نجده يضع حجر أساس متين لبحث جدلي معمق للعلاقة المذكورة : « ... ان المرء لا يستطيع ان يفترض بأن بيتاً ما يوجد الى جانب البيوت المفردة » (٢) . وقد تبني أرسطو بذلك المحاولة الشجاعة لطرح نظرية متطورة واكثر دنيوية حول « المادة » و « العالم المادي » . وهذه النظرية تكون مجموعة مركبة من القضايا ينبغي اخذها بعين الاعتبار للاحاطة الاكثر عمقا وجدية بتلك النظرية . من جملة هذه القضايا نجد العلاقات التالية : العام - الخاص ، والصورة - المادة ، والواقع - الامكان ، والمحرك - المتحرك ، والمجرد - العياني .

٢ - في البدء نرى ضرورة ابراز مبدأ أساسي لدى أرسطو ، وهو الاشتقاق الاصلي لاشكال الفكر من العالم المادي . في هذا المبدأ يفصل أرسطو بوضوح وحزم عن نظرية المثل الافلاطونية « البربرية » بل « الطفولية » : « .. اكيد أن المقولة الحق ليست السبب في أن يكون الشيء . انما الشيء هو الذي يظهر في نفس الآن السبب في أن المقولة حق (خط التشديد مني : ط . ت) » (٣) .

هذه الحقيقة الكائنة في أن الوجود الواعي ، أو الوعي ينشثق من الوجود الموضوعي ، وليس العكس ، ان هذه الحقيقة هي الحجر الاساسي في الميل المادي لدى أرسطو . ان هذا « الميل » نجده في فكر أرسطو أيضا لدى بحثه للـ « ملاحظة » . ففي بحثه حول النفس يكتب مايلي : « ان الاختلاف (بين الملاحظة والمعرفة : ط . ت) يكمن في أن ما يبعث على التحقق ، لدى الاولى (الملاحظة) ، موجود خارجا : الموضوع القابل للنظر والقابل للسمع ، وهكذا

(١) korrelativ



(٢) أرسطو : ما بعد الطبيعة - نفس المعطيات السابقة ، ص ٧٥ .

(٣) أرسطو : المقولات - لايبزغ ١٩٢٨ ، ص ٧٥ .

الاشياء الاخرى القابلة للملاحظة . ان هذا يأتي من كون الملاحظة توجه نفسها في فعاليتها باتجاه المفرد ، اما المعرفة فباتجاه العام » (١) .

وهكذا يحل أرسطو المسألة الأساسية في الفلسفة (العلاقة بين الوعي والوجود) على نحو مادي أولي : ف « المتحس » و « المتحس » ليسا نفس الشيء من حيث الوجود . ذلك لأن الأول ، « المتحس » لا يقتضي ، لكي يوجد ، وجود « المتحس » ، ولكن العكس صحيح . ان أرسطو هنا فيلسوف حسي صريح ، اذ أنه يعترف ، أولا ، بالواقع الموضوعي ك « باعث » للملاحظة ، كما يعترف ثانيا ، بهذه الملاحظة ك « وسيط » للمعرفة .

لقد رأينا سابقا أن انتهاك العلاقة « العام - الخاص » من قبل افلاطون لحساب العام قد أدى الى منزلق منطقي في منظومته الفلسفية ، الى جانب المنزلق الوجودي الواقعي . وهذا عمل بدوره على إعاقة نمو الجوانب الفلسفية المادية لدى أرسطو .

إذا كان أرسطو قد انطلق ، كما رأينا سابقا ، من الشيء ، وليس من القول (المقولة) ، وأكد بالتالي على الأولوية الوجودية للشيء ، فإنه يحدد أيضا ما يفهمه تحت مفهوم « الشيء » : ان الشيء (أو الشيء المفرد) يملك ذاته . هذا يعني أن منطق الشيء هو نفسه ذاته .

أما « العام » فهو نوعية محددة تملك وجودها العلائقي ، ولكنه ليس شيئا مستقلا في نفسه . والحقيقة ، ان هذا يشكل قضية أساسية شهدت على يد أرسطو حلا بارزا . فهو يقرر بأن « تلك الينابيع العامة لا توجد ... ، لأن ينبوع الاشياء المفردة هو دائما شيء مفرد . فالإنسان هو طبعاً بشكل عام ينبوع الإنسان ، بيد أنه لا يوجد إنسان عام ... » (٢) وعلى هذا النحو يشتق العام اذن من المفرد .

بهذا يصبح مفهوما :

١ - ان الأساس الحقيقي للوجود هو المفرد .

٢ - ان العام يبرز عبر ومن خلال المفرد .

ان هاتين النتيجةين ، اللتين مارستا في العصور الوسيطة دورا كبيرا في تكوين ما سمي لاحقا ب « الاسمية » - وهو تعبير عن الاتجاه الفلسفي

(١) أرسطو : حول النفس - نفس المعطيات السابقة ، ص ٣٤ - ٣٥ .

(٢) أرسطو : ما بعد الطبيعة - نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٨٢ .

المادي آنذاك - ، سوف ينتهكهما أرسطو نفسه في مناسبات أخرى ، حيث يؤكد على ثنائية « المادة - الصورة » ويجعل من صورة الصور المانح الاصلي للحركة وللوجود المتحقق .

أما الآن ، في الحين الذي يرى فيه أرسطو « المفرد » على أنه ، انطولوجيا ، الوجود أو الجوهر الحقيقي الاصلي ، فإنه يعتبر عالم الاشياء المفردة هنا غير متصل discontinuous (١) . عدا ذلك يرى أرسطو أن هذه الجواهر المفردة غير المتصلة تشارك جميعا في وجود جوهر عام ، أي أن هذا الجوهر العام داخل فيها جميعا . أنه المادة ، الجوهر الذي لا يفسد ، أي لا يضمحل .

إن أرسطو في ذلك قد حاول طرح العلاقة بين العام والخاص على نحو جدلي بارز .

وهناك نقطة تبدو لنا هامة بالنسبة الى هذه المسألة ، وهي وضع العام (المادة) بالنسبة الى الاشياء المفردة . لقد أثبتنا سابقا أن العام يتمتع بوجود علائقي .

ولكن هذا العام - الممثل بالمادة من حيث هي جوهر لا يفسد لكل الجواهر المفردة - لا يتمتع فقط بوجود علائقي ، أي بالعلاقة مع شيء آخر ، وإنما هو يمثل أيضا جوهرًا في ذاته . إلا أن هذا « الجوهر في ذاته » لا يمكن ، أولا ، أن يتصور موجودا تلقاء الجواهر المفردة على نحو ميتافيزيقي ، أي منفصلاً عنها إطلاقاً . كذلك لا يمكن تصوره ، على نحو ماء، إلا من حيث هو موجود متمتعاً بكيانه المستقل النسبي .

انطلاقاً من هذا التحديد الوجودي (الانطولوجي) يعمل أرسطو على تعريف المادة ، التي تكون لديه أحد الجانبين المحددين للكون . إن محاولته هذه لتعريف المادة قد أرسى الحجر الأساسي للفكر الفلسفي المتميز . لقد كتب معرفاً إياها : « **أني ادعو الأول ، المتاصل في كل شيء ، بالمادة ، هذا الأول الذي ينشأ عنه شيء ما** » (خط التشديد مني : ط . ت) « (٢) .

إن أهمية هذا التعريف من الدرجة القصوى في تاريخ الفلسفة . أنه

(١) diskontinuierlich

(٢) أرسطو : الطبيعة ١ ، ٩ ، ١٩٢ ، ٢ . اخذ من : I. W. Nikolajew : مراحل التطور الجوهري لقولة « مادة » . نشر في : الفلسفة والمجتمع ، دار نشر الأكاديمية ، برلين ١٩٥٨ ، ص ٢٠٩ .

المحاولة الاولى للاحاطة بـ « المادة » في كلها المجرد ، دون الوقوف عند أي من جوانبها البنيوية العيانية المفردة . ولقد قامت أهمية ذلك ، ضمن ما قامت عليه ، على سد الثغرة بين « خاصية » و « وظيفة » الفكر ، هذه الثغرة التي اكتسبت وجودها في مذهب ديموقريطس الذري ، كما رأينا .

ان تجاوز تلك الثغرة يعني ان أرسطو استطاع التوصل الى مفهوم **المادة المجرد** . ان « المادة » ، من حيث هي كذلك ، لا توجد . انها توجد فقط من خلال أشكال مادة بنيوية عيانية . أما من حيث هي كذلك ، فانها تشكل تجريدا مفهوميا . وهذا الاخير - التجريد المفهومي - لا علاقة له بما يمكن تسميته بشطح أو تعسف فكري ، وانما هو ظاهرة ذاتية مشروطة موضوعيا لكونها توجد في علاقة وظيفية ومضمونية *intensionale* (١) مع الاشياء والظواهر والعلائق المادية العيانية .

ان العام (وهو التجريد « المادة ») لا يوجد الا في الاشياء والظواهر والعلائق المادية **المفردة** ، وهذه كلها تحتوي في ذاتها لحظة من العام . ان أرسطو قد أخط ، بذلك ، لثما كثيفا قد ظل مكتسبا وجوده بين **العام والخاص** (المفرد) . وفي الحقيقة ، هاهنا يلامس أرسطو قضية جد هامة ، وهي موضوعية « العام » .

فالعام هذا يتمتع بوجود موضوعي ، بقدر ما يتمظهر فيه الخاص (المفرد) . فكلاهما ، العام والمفرد ، موضوعي ، أي له وجود حقيقي غير وهمي . وفي القرون اللاحقة (الرسيطة) تشهد هذه العلاقة (عام - خاص) تطورا ملحوظا من خلال طرح « الكليات » و « الجزئيات العينية » لدى المذهب الاسمي - المادي ، والواقعي - المثالي .

بيد اننا لانستطيع ان نجد في فكر أرسطو الفلسفي تماسكا . ان هذا يبرز خصوصا لدى اخذه « المادة » كشيء عياني : « هل يوجد شيء الى جانب الشيء العياني أم لا ؟ (تحت الشيء العياني أفهم المادة بكل ماهي مرتبطة به) » (٢) .

سوف نلاحظ لاحقا ان تارجح أرسطو بين الديالكتيك والميتافيزيقا ، بين المادية والمثالية يبرز في معظم القضايا التي طرحها في حينه . وهذا قد حدث بالرغم من قوانين منطق الصور **التماسك ذاتيا** ، وعلى الاخص

(١) *intensional*

(٢) أرسطو : ما بعد الطبيعة - نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٥١ .

قانون التناقض وقانون الثالث المرفوع .

حينما عرض أرسطو مفهومه عن المادة في موضوعيتها ومن حيث هي تجريد مفهومي ، عمل على اقامة جسور عديدة ما بينها وبين « الوعي أو الفكر » ، من حيث هما (اي المادة والفكر) مقولتان متضائفتان بالمعنى المعرفي النظري . لقد كتب حول ذلك مايلي : « أن يفكر المرء ، هذا يستطيعه كل واحد اذا اراد . ولكن أن .. يحس المرء ، فان هذا غير متيسر له . ذلك لانه من الضروري ان يكون المحس موجودا » (١) . في هذه النقطة الواضحة على نحو متميز حول مصدر وعملية المعرفة يتابع أرسطو الراي الديموقريطسي حول وجود درجتين للمعرفة ، وهما الاحساس (ويسميه ديموقريطس المعرفة المظلمة) والفكر أو الفهم . الا ان هذا الوضوح بالنسبة الى هذه النقطة يسلب في مواضع اخرى يتكلم فيها عن نفس المسألة .

ان المحس ، وهو بالطبع ، العالم الخارجي الموضوعي ، لا يوجد بحسب ذلك لذاته ، أي دون فعالية ذاتية وقدرة على التعبير الذاتي . فالفقرة التي سقناها أخيرا من أرسطو ثري أن المحس يمكن أن يعرف ضمن عملية معرفية معقدة ، وذلك من خلال الانسان المستخدم حسه وفكره . ان الاحساس هو المصدر المتوسط أي غير المباشر . ومن خلاله وعن طريقه ينفذ الفكر الى العالم الخارجي الموضوعي . ولكن أن يكون الاحساس في بداية المعرفة ، فان هذا لا يعني أنه دائما المعرفة الحقيقية أو ، لنقل ، قمة هذه المعرفة . فهذه القمة يجسدها الفكر المجرد وبالتالي العلم المجرد . ان الفكر المجرد يستطيع أن يفض النظر عن « السرير المفرد العياني » وأن يصل ، على هذا الطريق الى مفهوم السرير . وهذا المفهوم لا يحيط فقط بمجموع الأسرة الموجودة راهنا ، وإنما أيضا تلك التي يمكن أن تصنع في المستقبل .

لاشك أن أرسطو في هذه المسألة يمثل فكرا ماديا جدليا بعيدا عن أية ميكانيكية . والحقيقة أننا نستطيع أن نجد هذا الموقف المادي الجدلي المتناسك في « التحليل الثاني » . هاهنا يكتب أرسطو بعمق نافذ : « ... ان المعرفة لا تدع نفسها تكتسب لا من العام دون استقراء ، ولا من خلال استقراء دون ملاحظة » (٢) .

في معالجته لهذه المسألة النظرية المعرفية انطلق أرسطو من تجربته

(١) أرسطو : النفس II ، ٥ :

(٢) أرسطو : التحليل الثاني - I ٧١٥١٧ v b وما بعدها .

العلمية التجريبية التي تشترط الأخذ بالعالم المادي موضوعا للملاحظة والنشاطية العلمية ، وذلك دون أية إسقاطات خارجية . ولا شك أن أرسطو قد ساهم في ذلك بشكل فعال في دفع العلم التجريبي الى أمام .

ان « المادة » هي بالنسبة اليه الاشياء الحسية العيانية التي توجد فقط من حيث علائقها مع بعضها . وهذه الاشياء المفردة تملك شيئا مشتركا بينها جميعا ، وهو ماديتها وقدمها في القبل والبعد .

واذا كان أفلاطون قد سلب « المادة » كل وجود حقيقي ، بحيث أحالها الى شبح خيالي ، فان عالم الطبيعة الكبير أرسطو ، قد عرّفها بأنها « ... مجموع كل الاشياء ، التي تملك جوهر ماديا ، وتتحرك وتتغير بشكل خالد ، دون بداية ودون نهاية » (١) .



ان الوجود لدى أرسطو ليس ذا طبيعة « مادية » فقط . وفي الحقيقة ، تشكل وحدة الوجود عنده « فعلا » ، الا أنه فعل طبيعي قائم على توحيد الصورة بالمادة .

ولكن جانبي الوجود هذين ليسا ذات لحمة واحدة ، والا فليسا هما جانبيين اثنين . والتمايز بينهما قائم لاعتبار انطولوجي (وجودي) وآخر معرفي . وضمن هذا الاطار من المسألة يفهم أرسطو تحت « مادة » : « ما هو ليس هذا المشار اليه بحسب التحقق » ، وانما ما هو هذا المشار اليه بحسب الاستطاعة » (٢) .

ان « المادة » لا يمكن لها ، على هذا النحو ، أن تطرح نفسها الا من حيث هي مفهوم مضاف لمفهوم « الصورة » .

الى جانب ذلك يؤكد أرسطو على تمايز آخر أكثر أهمية وخطورة ، وهو التمايز حسب « الذات » . فالمادة تمثل ، بحسب ذلك ، العنصر السلبي أو « الموضوع » السلبي المنفعل للصورة (أو الذات) الايجابية الفاعلة . ان الصورة تطبع المادة ، أي تمنحها « مقومات » وجودها الحقيقي . ذلك لأن المادة ، من حيث هي كذلك ، « غير متعينة » (٣) ، اذ ليست هي أكثر من امكان وجودي . وهذا الامكان يتحول الى وجود متحقق بدءاً من اكتسابه

(١) أرسطو : الطبيعة - ٢٠٩ ، ٣ - ٧ .

(٢) أرسطو : ما بعد الطبيعة - نفس المعطيات السابقة ، ص ١٩٢ .

(٣) أرسطو : نفس المصدر السابق ، ص ١٧٧ .

صورة ما : «كذلك توجد المادة بحسب الاستطاعة (الامكان) ، لانها تستطيع التوصل الى هيئة (صورة) . ولكنها في هيئتها ، حالما توجد بحسب التحقق» (١) .

ولكن شيئا ما يوجد ، من حيث هو كذلك ، فقط في وحدة المادة بالصورة . وطالما هو لا يتمتع بـ « صورة اي هيئة » ، فانه « لا تعين » أولي . ولكن حسب أرسطو لا يوجد في الواقع شيء دون صورة . وهذا بمعنى أن بين كلا القطبين (الصورة والمادة) علاقة متبادلة نسبية . فالصورة التي تمثل الفعل *actus* بالنسبة الى مادة ما (اي الامكان) ، هي ، ضمن علاقة أخرى ، مادة بالنسبة الى صورة أعلى . والحال نفسه ينطبق أيضا على المادة . فالخشب هو « مادة » بالنسبة الى الطاولة ، الصورة ، المتكونة منه . ولكن الخشب هذا نفسه يمثل « الصورة » بالنسبة الى العناصر الأولية المتكون منها .

واذا كانت المادة الامكان الوجودي الأولي ، وبالتالي المجال اللامتعين لتمظهر الصورة ، فانها كذلك الوجود « الكمي » أو الهيكل الكمي الأولي للوجود .

أما تحولها الى وجود « نوعي » متعين ، فيتم عبر اكتسابها صورة مطابقة . ضمن هذا الاطار من المسألة تعتبر الصورة عامل « التشخيص » والتحديد في نشوء وتطور شيء أو جنس ما .

ان هذا قد شكل قضية معقدة ومتشعبة في المنظومة الفلسفية الارسطية . لقد كتب أرسطو : « ان المفهوم المتكون بمساعدة الاختلافات يظهر أكثر ما يكون على أنه مفهوم الصورة والتحقق » ، أما المفهوم المتكون بمساعدة الاجزاء فيظهر على أنه مفهوم المادة» (٢) . ان رأيه هذا يدعمه ويؤكد على النحو التالي : « هل تجعل المادة تقريبا الاشياء مختلفة من حيث الهيئة (الشكل) ، اذا كانت هي نفسها (المادة) مختلفة بمعنى ما ، أم تعمل ذلك على الاقل بهذا المعنى » ؟ فلماذا يكون (هذا) الحصان مختلفا من حيث الهيئة عن (هذا) الانسان ؟ (ان مفهوميهما يتعلقان أيضا بالمادة !) . اكيد لأن المفهوم متضمن تناقضا ولكن مع أن الذكورة والانوثة اعراض خاصة بالكائن الحي ،

(١) نفس المصدر السابق - ص ٢١٦ .

(٢) نفس المصدر السابق - ص ١٩٤ .

فانها ليست عوارض بحسب جوهره، وانما عوارض في المادة، في الجسم» (١)،
«... ان الجوهر (أي الصورة . ط.ت) يطابق النوعية، والنوعية تخص
الطبيعة المعينة تماما . اما الكم فانه ، على العكس ، يخص الطبيعة غير
المتعينة» (٢) . فكما يظهر من كلام أرسطو، تمثل الصورة العنصر أو الجوهر
المصور بالنسبة الى المادة المهيأة للتصوير ، أي لكي تمنح هيئة ما . كذلك
تحول جنس الى جنس آخر يشكل عملية تكون صورية محددة .

ولكن اذا كانت صورة أجزاء جنس واحد واحدة ، فان اجناسا مختلفة
تملك صوراً مختلفة . بيد ان مجموع الصور تملك شيئاً مشتركاً بينها ،
وهو لا ماديتها ذات الطبيعة « المفهومية » . وبما أن هذا هو الجوهر في
(أي في الصور) ، فهي لذلك واحدة . وهنا يبرز التساؤل حول مصدر
الاختلاف في الاشياء .

ما الذي يؤدي بـ « الفردي » أو « العياني الشخص » الى التكون ومن
أين يشتق فعل « التشخيص » في عالم الاشياء الطبيعية ؟ أي ما هو العامل
الاساسي الذي يمنح الشيء « شخصه » ؟ ان أرسطو يجيب على هذا السؤال
مثيراً الكثير من الاعتقاد بالتأرجح بين مواقع مختلفة ، ولكن في نفس الآن
مقترباً من مواقع المادية : « بوضوح : لا يوجد سوى سماء واحدة . ذلك
لأنه اذا وجد سماءات كثيرة — كما يوجد ناس كثيرون — ، فانه سوف تكون
الينابيع للسماءات المفردة واحدة من حيث الشكل (الهيئة) ، ولكن كثيرة
من حيث العدد . والآن ، فالاشياء التي هي كثيرة من حيث العدد ، لها
مادة ، ذلك لان المفهوم ذاته ، مثل « الانسان » هو المفهوم بالنسبة لكثيرين
— من الناس : ط.ت — « (٣) وبوضوح أكثر يؤكد أرسطو : « ان ما ليس
له مادة ، هو عموماً وبشكل مباشر كل شيء يكون واحداً » (٤) .

وعلى أساس من ذلك ، فان المادة — وليست الصورة — هي التي تمنح
شيئاً ما شخصه . فشيء ما هو مادته الجوهرية . ان صفات الشيء هذا
متعلقة بـ « جوهره المادي » . طبعاً الحديث يدور هنا حول الشيء المفرد .
ولكن هذا لا يغير شيئاً في الأمر القائم على ان المادة ليست سلبية بشكل
مطلق تلقاء الصورة . فالتأثير الممارس على المادة من قبل الصورة لا يتم

(١) نفس المصدر السابق — ص ٢٤٣ — ٢٤٤ .

(٢) نفس المصدر السابق — ص ٢٥٨ .

(٣) نفس المصدر السابق — ص ٢٩٢ .

(٤) نفس المصدر السابق — ص ٢٠٢ .

دون تأثير مقابل من المادة على الصورة . وهذا يشكل لحظة جوهرية في عملية صيرورة الشيء .

اما الإشكال فانه يبرز في امكانية الطرح لهذه المسألة على نحوين مختلفين . فمن طرف اول يؤكد أرسطو ان الهيولى تمثل الوجود المطلق غير المتعين والممكن والذي لا يمكن تحديده بأكثر من ذلك ، أي اقرب من ذلك . عدا ذلك هي دائماً بحاجة الى صورة ، لكي تتحول الى واقع . أما من طرف آخر فيرى أرسطو الصور كلها واحدة من حيث المضمون والجوهر ، وهي بصفاتها هذه غير متميزة وغير متعينة . فإن توجد صور تكون مع المادة « وحدة » ، ويوجد بالتالي صورة الصور - الاله الذي يحرك ولا يتحرك - العارية من كل مادة ، ان هذا لا يغير من الحقيقة الأساسية ، وهي أن الصور كلها ذات مضمون وجوهر واحد . ان أرسطو لم يستطع أن يحل هذا التناقض الوجودي . وبالنسبة اليها فاننا نرى ضرورة **الالحاح على وجود هذا التناقض في وجهة نظر أرسطو** ليتبين لنا وجه التعقيد والتأرجح بين المادية والمثالية . ان هذا التعقيد والتأرجح كان قد احتوى آفاقاً خصبة ضخمة بالنسبة الى التطور الفلسفي اللاحق في اليونان وفي المجتمع العربي - الاسلامي الوسيط كما في فترات تاريخية أخرى . فحيث يؤكد على واحد من الجانبين (وهما القول بأن المادة تمثل فعل التشخيص ، والقول بأن الصورة - على العكس من ذلك - تمثل هذا الفعل) ، يكسب أو يخسر العلم الطبيعي ، وبالتالي الفلسفة المادية . ان ابراز المادة في مقدمة المشكلة من خلال القول بها كعنصر مشخص ، يعني اضعاف الصورة كمبدأ فعال ومتعال على المادة . وبما أن الصورة قد أحيطت مسبقاً من قبل أرسطو بأغلفة مثالية ميتافيزيقية ، فقد اتجه الفكر الفلسفي المادي الهرطقي اللاحق باتجاه مناوئ للوضع ذاك الذي اكتسبته الصورة على يد أرسطو ، وذلك من خلال « الحركة الذاتية » حيث أصبحت هذه الأخيرة في علاقة وجودية متأصلة مع المادة .

والحقيقة ان الحل المادي الهرطقي اللاحق لم يكن في « قلب » علاقة المادة بالصورة في صيغتها الارسطية قلباً ميكانيكياً ، بحيث يؤكد ، على العكس من أرسطو ، على أولوية المادة تلقاء الصورة . ان الحل الذي تكون تاريخياً في التطور اللاحق قام على ادخال « الحركة » في الحقل الوجودي للمادة ، أي على اعتبار الصورة الحركة الداخلية للمادة .

ان هذه مسألة جوهرية وأساسية حتى الحد الأقصى ، بالنسبة الى

مجموعة من مشكلات التطور الفلسفي اللاحق . لقد رأى ارسطو أن مصدر حركة المادة ليس هو المادة وإنما هو الصورة . وهي (أي المادة) تكتسب هذه الحركة من « خارج » ، ذلك لأنها غير قادرة على التحرك الذاتي . لقد كتب ارسطو حول ذلك مايلي :

« ... ان الجوهر لا يبعث تغيره الخاص ... وأن نبحث عن هذا السبب (سبب النشوء والاضمحلال : ط.ت) ، يعني أن نبحث عن مصدر مختلف عن المصدر المادي ، وهو - كما سنقول - السؤال عن بداية الحركة » (١) . وبما أن المادة اللامتعينة عارية من كل تصرف ذاتي ، وبما أن الصورة لا توجد في علاقة وجودية متأصلة مع المادة ، فإنها (أي المادة) دائماً في الوضع الذي تجد فيه نفسها منساقة في اتجاه تقبل أية صورة . إنها تتقبل ، من حيث الامكان ، كل الصور . بذلك تكون مادة منفصلة سلبية وملحقة .

هاهنا تبرز مسألة الوجود اللابدائي واللانهايي للمادة . ومرة أخرى نكتشف هنا تناقضاً في طرح هذا المسألة من قبل ارسطو ، تناقضاً يتأتى من الموقف غير الحازم والمتأرجح بين الاتجاه المادي والاتجاه المثالي ، كما يتأتى من الجهد الملحوظ لارسطو لأخذ موقف إيجابي متميز لحد ما من الاتجاه المادي .

لقد رأينا من خلال الاستشهاد حول تحديد « الطبيعة » ، أن الأشياء ذات الجوهر المادي تتحرك وتتغير على نحو خالد ، دون بداية ولا نهاية . ولكنه في كتاب « مابعد الطبيعة » يقرر مايلي ، آخذاً بموقف مثالي ميتافيزيقي : « بأن الشكل أقدم وأكثر وجوداً من ... المادة » (٢) . وحينما يعتبر ارسطو أنه من غير الممكن تحديد المادة كجوهر (٣) ، فإن الاستنتاج يصبح وارداً بأن المادة - لكونها أيضاً أقل قدماً من الصورة وبالتالي ليست جوهرأ - عرض للصورة . ذلك لأن الاعراض « ... ليست أقدم من الجوهر لا حسب المفهوم ولا حسب الزمان ولا حسب النشوء ، والا فإنها شيء مستقل (٤) . أن هذا التناقض ليس مجرد مفارقة أو خلفاً منطقياً ، وإنما هو تعبير عميق عن الكفاح الدائب بين « ارسطو » العالم التجريبي

(١) نفس المصدر السابق - ص ٢٥ .

(٢) نفس المصدر السابق - ص ١٥٤ .

(٣) نفس المصدر السابق - ص ١٥٥ .

(٤) نفس المصدر السابق - ص ١٨١ .

و « أرسطو » الذي بقي حتى الأخير متأثراً قليلاً أو كثيراً باطر الأفلاطونية المثالية الميتافيزيقية . وهنا ربما يمكن القول بأنه « لو لم يتوجب على أرسطو أن يكافح ضد نظرية المثل لأفلاطون ، لما كان عليه أن يحتاج الى فرضية مبدأ صوري انفصالي ... » (١) .

أما ما يميز « مثل » أرسطو بشكل جوهري عن « مثل » أفلاطون ، فإنه يكمن في أن الأولى ضمن العالم الأرضي (المادي) توجد مع أشياء عيانية ، وبالتالي في أنها ليست بذات طبيعة عمومية . فالصورة « الارسطية » توجد هاهنا مع الشيء القابل لأن يكتسب صورة . إن « الصورة » الارسطية هي بهذا المعنى مشيئة ، بالرغم من أنها تبلغ الشيء الموجود بالامكان من خارج لكي تحوله الى شيء بالفعل . ولهذا فقد كانت نظرية المثل الارسطية أقل ضرراً وسلبية بالنسبة الى تطور العلم الطبيعي من ضرر وسلبية نظرية المثل الافلاطونية .

إن الثنائية المكثفة في نظرية المثل الافلاطونية ، التي لم يستطع أرسطو في منظومته الفلسفية تجاوزها على نحو حازم ، بقيت في هذه المنظومة تمارس وجوداً معيناً ، ولكن انطلاقاً من مواقع أكثر « دنيوية » واقترباً من مادية طبيعية . وهذا يصبح مفهوماً من خلال الحقيقة الأساسية ، وهي أن « المثل » الافلاطوني لا يوجد في علاقة حقيقية مع الشيء ، وأن هوة سحيقة من حيث الجوهر توجد بينهما . بينما المثل الارسطي في إطار العالم الأرضي (المادي) لا يوجد كجوهر مستقل بشكل مطلق ، وإنما هو تحقق لما يدعى إمكانه بالمادة (٢) .

بالرغم من لابدائية ولا نهائية المادة والصورة من حيث هما كذلك ، فإنهما لا يؤلفان وحدة داخلية . انهما يوجدان الى جانب بعضهما وعلى نحو متواز . وذلك لأن أرسطو يرى وحدة التناقضات غير ممكنة . وهذا واضح اذا اخذنا بعين الاعتبار المنطق الارسطي الذي يعتمد بشكل أساسي قانون نفي التناقض . إن هذا يدكرنا بـ « ذرات » ديموقريطس التي

(١) H. Mielke : معارف وضلالات في الفلسفة الطبيعية اليونانية . موجود في : العلم والنظرة العامة عن العالم في العصر القديم ، نفس المعطيات السابقة ، ص ١٦١ - ١٦٢ .
(٢) لقد كتب F. Mehring بحق بأن أرسطو ، على العكس من أفلاطون « ... لا يفسر الصور كجواهر قائمة لذاتها ومنفصلة عن الأشياء ، وإنما كالجوهر الداخلي للأشياء المفردة ذاتها » . F. Mehring مقالات حول تاريخ الفلسفة - لايبزغ ، دون تاريخ اصدار ، اصدار O. Bergner ، ص ١٧ .

لا يمكنها ان تشكل وحدة ، باعتبار انه لا يمكن تصور « شيئين » يصبحان شيئاً « واحداً » . ان كلا المجموعتين ، الذرات ، والصورة والمادة ، لا يكتسب وجودها أكثر من شكل **تعايش ضروري** (الذرة مع الذرة ، والصورة مع المادة) . بالطبع مع الفارق الجوهرى ، وهو أن الذرات تكتسب حركتها من ذاتها ، بالرغم من الطابع الميكانيكي لهذه الحركة، بينما المادة الارسطية تستقبل حركتها في أول وآخر تحليل من صورة الصور المجسدة للكمال النهائي .

ان مثالية ارسطو وميتافيزيقيته بالنسبة الى « الصورة » تبرز في اعتباره اياها - وهي التي تشكل مبدأ الحركة - مجردة من التكوّن والضرورة والاضمحلال . هاهنا كمنت دون شك احدى النقاط التي اثرت بشكل سلبي على عملية تطور العلم الطبيعي . ولا شك ان ارسطو قد تأثر في ذلك بمفهوم افلاطون عن الحركة والمثل .

لقد عولجت قضية (المادة - الصورة) من قبل النظم الفلسفية القديمة والوسيلة اللاحقة كقضية مركزية ليس فقط في الحقل الفلسفي، وانما أيضاً في العلوم الطبيعية . ولذا فقد كان الموقف منها وحلها من قبل النظم الفلسفية تلك معياراً أو مؤشراً أساسياً لكون احداها مادية أو مثالية . ونحن اذا اخذنا الجانب المثالي الميتافيزيقي للحل الذي قدمه ارسطو للقضية تلك ، فاننا سوف نجد ان الحل هذا يمثل خطوة الى وراء بالنسبة الى وجهات نظر الفلاسفة الايونيين البدائية حول « أصل العالم » كما بالنسبة الى الذرية الديموقريطسية . بالطبع ، نحن لا نستطيع اجتزاء هذه المسألة من اطارها التاريخي العياني ، اذا اردنا استيعابها بدقة . والاجابة على السؤال حول البواعث الرئيسية على اخذ ارسطو في تلك المسألة ، بل في معظم المسائل التي طرحها ، موقفاً مثالياً ميتافيزيقياً على وجه العموم، تشكل نقطة عقدية في فهمنا لارسطو . ان هذه الاجابة لا يمكنها ، اذا أريد لها ان تكون دقيقة ، الا ان تأخذ بثلاث نقاط :

١ - الاتجاه الميكانيكي للفلاسفة الايونيين ، كما لمثل الفلسفة الذرية ديموقريطس .

٢ - تأثر ارسطو العميق بافلاطون على وجه العموم . وهذا لا يبرز فقط في اعماله المبكرة ، مثل المحاورتين « اويديموس » و « بروتربتيكوس »،

بل أيضاً في عمله الرئيسي اللاحق « ما بعد الطبيعة » (١) .
٣ - التأكيد المضخم على الـ « نظرية » أو « العمل الفكري النظري »
تلقاء الممارسة العملية التجريبية والعلوم التطبيقية .



ان عرضاً أساسياً لتعليم أرسطو حول « الصورة » لا يُستنفذ من خلال تقريره بأن الصورة هي المبدأ الفعّال بالنسبة الى الهيولي اللامصورة - اللامتعينة - والسلبية ، وانها (أي الصورة) مبدأ الحركة بالنسبة الى هذه الهيولي . ان أرسطو يتحدث أيضاً عما يسميه بـ « غاية » الوجود . وبحسب هذا يصبح كل شيء في الوجود « خاضعاً » لغائية مطلقة ، بدءاً من المادة اللامتعينة وانتهاءً بصورة الصور ، التي هي الاله . هاهنا ينبغي أخذ نقطتين من هذه القضية بعين الاعتبار والنظر اليهما على نحو متميز . فمن طرف أول ينسحب مبدأ الغائية ذلك على مجموع اشكال الوجود ، كما قلنا من قبل ، هذه الاشكال الوجودية التي لاتجد ينبوعها الأول الا في الاله المحرك الذي لا يتحرك ، او صورة الصور . ولكن من طرف آخر ، في الوقت الذي يؤكد فيه أرسطو « على غائية الطبيعة على وجه العموم ، فانه يفصل نفسه عن تعليم افلاطون حول نفس العالم الواعية والواضحة للغاية ، ويطور مفهوم الغائية الداخلية واللاواعية للطبيعة » (٢) .

أما ما يهمننا هنا من هذه المسألة ، فهو شكل العلاقة بين الهيولي والصورة بالنسبة الى « الصيرورة » . فانطلاقاً من أن العلم ، حسب أرسطو ، يبحث دائماً وبالدرجة الأولى عن « الأسباب » ، يعمل أرسطو على تحديد ما يفهم تحت مفهوم « السبب » : ان المرء يتكلم « عن سبب بأربعة معاني : بالمعنى الأول نقول ، سبب هو الجوهر وبذلك (أيضاً) الوجود الذي يخص ذاته . . . ، بالمعنى الثاني تكون المادة وبالتالي الجوهر ، سبباً . في المعنى الثالث يكون سبباً الأين لبداية الحركة . في المعنى الرابع تكون - بالعكس من المعنى الثالث - الغاية ، وبالتالي الخير ، سبباً : ذلك لأن هذا هو الهدف النهائي لكل نشوء ولكل حركة » (٣) . في الوقت الذي يرى فيه أرسطو هذه الاسباب الأربعة على أنها إلهييدة للوجود ، فانه

(١) انظر تفصيلاً حول ذلك : G. Redlow : النظرية ، برلين ١٩٦٦ ، ص ١٠٤-١٢٠ .

(٢) موجز تاريخ الفلسفة - دار نشر ديتس ، برلين ١٩٦٦ ، ص ٧٣ .

(٣) أرسطو : ما بعد الطبيعة - نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٣ .

يرجعها الى سببين رئيسيين . وقد فعل هذا انطلاقاً من تحديده الشامل للوجود من خلال جانبيه الأساسيين ، وهما الصورة والمادة .

إذا كان أرسطو قد رأى في « الصورة » ليس فقط هيئة مسادة ما الخارجية ، وإنما أيضاً وبالدرجة الأولى **العامل الفعال الداخلي** في تحديد « كيفية » المادة ، فإنه يصبح بالنسبة اليه أمراً طبيعياً أن تكون الأسباب الصورية والباعثة والغائية وحدة عضوية . فالحركة تحقق نفسها باتجاه هدفها وبدافع من غايتها . والغاية هذه تكمن في تحقيق شيء تحقيقاً وجودياً فعلياً ، أي في وصول المادة اللامتينة الى الصورة . ان هذه الصيرورة - صيرورة الشيء من الامكان الى التحقق - فعل غائي قبلي . ولا شك أن هذه الغائية القبلية المبالغ فيها - وان كانت تتميز بعض الشيء عن غائية افلاطون - تذكرنا بالمثل الافلاطونية التي تحيط بما يتم في عالم الواقع العياني على نحو غائي قبلي شامل . ان أرسطو لا يقول ، كما رأينا ، بأن الصورة تكون وحدة داخلية مع المادة . وهذه المسألة تبرز بوضوح أكثر حينما نأخذ بعين الاعتبار ان أرسطو جعل المادة أولاً باول ملحقة بالصورة ، وذلك بمعنى ان المادة تمثل « الامكان » المرتبط بـ « اللاوجود » والذي يحتاج الى صورة لكي يتحول الى « تحقق » .

ان أرسطو حذر في تحديده اللغوي والمضموني لمفهوم « الوجود » و « اللاوجود » . ان « اللاوجود » لا يحمل لديه معنى اللاوجود **المحض** **اطلاقاً** . ان هذا التحديد الأولي كنا قد شهدناه ، في حينه ، لدى ديموقريطس ، كما سنشهد لاحقاً في الانظمة الفلسفية للفلاسفة الاسلاميين العرب الوسيطيين ، الآخذين بالاتجاه المادي الهرطقي في ملامحه العامة المعقدة . وقد اعتبر ديموقريطس أن « الخلاء » هو اللاوجود . بينما أرسطو رأى هذا الأخير ممثلاً في « الامكان » . وبالرغم من ان أرسطو يحد من قيمة « اللاوجود » في المستوى المنطقي ، اذ يرى بأنه من الممكن ان يكون « كمقولة منطقية ، قائماً على اساس غير صحيح ، خاطئ ، فإنه يرى فيه (في اللاوجود) . من حيث الجانب الانطولوجي ، مماثلاً لـ « وجود » ، وان كان وجوداً بالامكان (١) . والمهم في ذلك هو الخدمة العظمى التي قدمها

(١) نفس المصدر السابق - ص ٢٣٦ - ٢٣٧ .

في مجال طرحه لديالكتيك الامكان والتحقيق (١) .

لقد رأى ارسطو الحركة والتغير عموماً في عملية التحول من الامكان الى التحقيق ، أي من المادة الى الصورة . اما كيفية انجاز هذه العملية ، فانها قائمة على ملازمة الصورة بالمادة .

ان ارسطو يحدد العناصر التي تتجاذب تلك العملية التحويلية . فهو

« ... ان ارسطو يحدد العناصر التي تتجاذب تلك العملية التحويلية . فهو »

الذي يتغير شيء ما من خلاله ، هو المحرك الأول . اما ما يتحرك ، فهو المادة . واما بأي اتجاه يتغير هذا الشيء ، فهو الشكل (٢) . وبالأصل ، أن عناصر حركة التغير هذا هي اثنان ، المحرك والمحرك .

ان المحرك ، أي المادة ، هو ، بحسب ارسطو ، موضوع التغير أو اطاره . اما الصورة ، التي تتضمن في ذاتها السبب الغائي والسبب الباعث ، فهي مانحة الحركة . وطموح المادة اللامتعينة في الصورة الكاملة يؤدي بها الى التوصل اليها وبالتالي الى تحولها (أي المادة) الى وجود ، أي الى « لاوجود » متحقق . وفي الحقيقة ، هذا الطموح مع تحققه يشكل جذر التغير لدى ارسطو .

ولا شك اننا ، بعد ماسبق ، قادرون على القول بأن « المادة » الارسطية ، بالرغم من « التضيق » عليها من قبل الصورة المحركة الفاعلة ، تحتفظ لنفسها بوجود « خاص » نسبياً ، هو طموحها (= حركيتها) في الالتحام بالصورة .

وحين يعتبر ارسطو ان الحركة تتم من خلال ملازمة المادة بالصورة (٣) ، فانه يتبقى علينا البحث في العلاقة بين الصور المحركة في العالم التحتي وبين

(١) ان F. A. Lange : في كتابه حول تاريخ المادية يكافح بعنف المفهوم الارسطي حول « الامكان » ، فيسلبه كل وجود موضوعي حقيقي : « ... ان الوجود حسب الامكان هو ، في الوقت الذي يفادر فيه المرء ارض الهم ، لاشيء محض ، غير موجود ابداً . » F. A. Lange : تاريخ المادية - لايبزغ ١٩٠٥ ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ . ان العقل الكائني الحديث - ويمثله أيضا Lange - هو دون الطرح الجدلي لك « امكان » وال « واقع » الذي احاط ارسطو من خلاله بملامح جوهرية من المسألة .

(٢) ارسطو : مابعد الطبيعة - نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٧٨ .

(٣) « (كل شيء يكون ، فقط نتيجة ملازمة وليس نتيجة نمو مشترك ، هذا العيان

- او الشخص - ، هو مادة وليس جوهر) » - نفس المصدر السابق ، ص ٢٧٩ .

صورة الصور ، أي المحرك الأول . ان هذه العلاقة تبقى ضمن الاطار الارسطي غير مفهومة . فمجال الحركة هو العالم التحتي (غير الثابت) . اذ ليس من حركة « خارج الاشياء » ، ذلك لان التغير يتم دائماً في اطار انواع المقال حيث هو موجود ... » (١) .

من طرف آخر ، يؤكد ارسطو ان مصدر الحركة يكمن في المحرك الأول الذي « لا يتحرك » . ان هذا المحرك الأول يحرك « دون أن يصبح هو نفسه متحركاً ... فالمطموح فيه الأول ، والمفكر فيه الأول هما شيء واحد ... ذلك لأن المصدر هو الفكر ... فاللامتحرك هو اذن بالضرورة موجود ... فيتبين عما قيل انه يوجد جوهر خالد غير متحرك ومتميز عن الاشياء الحسية (٢) » .

لنلاحظ : ان ذلك المصدر الأول لامحرك ، بالرغم من ان كل الحركة تنبع منه ! كيف يستطيع ارسطو التوفيق بين مقولته عن الحركة ، من حيث هي ملامسة المحرك بالمحرك ، مع مصادره حول محرك أول لا يتحرك ؟ انه لم يستطع حل هذه القضية لا بمساعدة « منطق » الصوري ولا بدعم من نظريته حول « الطبيعة » ، لقد كان هذا « الفشل » ، بمعنى معين ، كسباً للعلم ولل فكر الهرطقي . اذ انه كان فشلاً لوجهة النظر الفلسفية الميتافيزيقية حول الحركة « المقحمة » او « اللاذاتية » . بمعنى ان هذه « المفارقة » الصارخة قد تحولت ، حيث رفضت ، الى مثير فعال للتقدم العلمي ، وذلك بالتأكيد على مفهوم « الحركة الذاتية » . لقد لاحظ هذا مؤرخ الفلسفة Zeller ، ولكن على نحو غير مباشر . فهو يرى بأن ارسطو « لم يقبل بالفعالية النشيطة او بتدخل الاله في سير العالم » (٣) . ان مثل هذا « التدخل » يتم على نحو متوسط ، عبر سلسلة من الوسائط . هذه المسألة سوف تتحول لاحقاً ، في العصر الوسيط العربي - الاسلامي والاوربي الى موضوع مباحثات عنيفة خضعت ، في الخط العام ، لمستويات ومقتضيات التقدم الاجتماعي - الصناعي والعلمي آنذاك . ان الغزالي وابن رشد سوف يكونان لاحقاً نموذجين كبيرين للاتجاهين اللذين سادا آنذاك في هذا الحقل .

* * *

(١) نفس المصدر السابق - ص ٢٦٤ .

(٢) نفس المصدر السابق - ص ٢٨٦/٢٨٧/٢٨٨ .

(٣) Zeller : موجز تاريخ الفلسفة اليونانية - لايبزغ ١٩٠٨ ، ص ١٨٦ .

والآن نود التعرض على نحو اقرب لـ « مادة » من حيث هي مفهوم نظري معرفي ، وذلك بالعلاقة مع كونها مفهوماً انطولوجياً . وفي سبيل ذلك تعيد الى الازهان الاستشهاديين اللذين اثبتناهما سابقاً حول هذه المسألة : ان المحس ينبغي ان يكون موجوداً ، اذا أريد لإحساس عاكس له (للمحس) أن يوجد . والشئ (أي العالم المادي الموضوعي) هو السبب في كون قول (مقولة) ما صحيحاً ، وليس العكس . ان ذلك « المحس » وهذا « الشئ » يحتاجان تحليلاً دقيقاً لتبيان القضية الأرسطية حول امكانية معرفة المادة ، وحول انعكاسها كشيء « عام » في الوعي الانساني ومن خلال « المفهوم » . لنتساءل عما يفهمه أرسطو تحت مفاهيم « المحس » و « الشئ » و « المقولة » . انه يعبر عن علاقة المادة بالمعرفة في رايه الشهير بأن « المادة ... غير ممكن أن يتعرف عليها انطلاقاً منها نفسها » (١) . واذا لاحظنا هذا بالعلاقة مع تعريف أرسطو للمادة ، كما رأينا سابقاً ، كجوهر أول أكامن في كل شيء ، وعنه ينشأ كل شيء ، فانه يصبح واضحاً أن أرسطو هنا يرى في « المادة » بنية للوجود قائمة دائماً وجوهرية . و « جوهرية » المادة هنا توضع بتعارض مطلق مع « العرض » . انه يقيم بين الجوهر والعرض ، أي بين العام والمفرد ، هوة لا تتجاوز . والجوهر العام هذا غير قابل لأن يعرف من قبل الملاحظة الحسية : « اننا لا نرى الملاحظات الحسية على انها حكمة . ولكن مؤكداً انها تكون المعارف الأكثر حسية للأشياء المفردة » (٢) . ان هذا الأمر يفتدو واضحاً انطلاقاً من ان « المرء لا يستطيع أن يقرر شيئاً صحيحاً حول شيء يتبدل ... » (٣) .

فبحسب ذلك ، لا يمكن الوصول الى تقرير حقائق صحيحة عن المادة ، أي الجوهر العام ، وذلك لانها تتحرك وتتبدل . وبذلك يكون أرسطو قد خلق هوة ميتافيزيقية بين « الجوهر » و « الظاهرة » ، بين « العام » و « المفرد » لا يمكن تجاوزها وتخطيها بالوسائل الخاصة التي يتصرف بها النظام الفلسفي الأرسطي . وفي نفس الوقت كان أرسطو في ذلك قد أرسى أساس تطور لاحق في هذا الاتجاه الميتافيزيقي ، شهدنا شكله الأساسي في القرن التاسع عشر في الفصل الكانتي بين « الشئ في ذاته - الجوهر » و « الشئ لنا - الظاهرة » . وهذا كله أدى الى تعميق

(١) أرسطو : ما بعد الطبيعة - نفس المعطيات السابقة ، ص ١٧٣ .

(٢) نفس المصدر السابق - ص ١٩ .

(٣) نفس المصدر السابق - ص ٩٤ .

العقبة على طريق رؤية جدلية متماسكة حول المادة كمقولة نظرية معرفية
يتعرف عليها عن طريق انعكاسها الجدلي في الوعي الانساني . وفي الحقيقة ،
ان ارسطو « يتلبك » على نحو واضح في المسائل المتعلقة بالعام والمفرد ،
والجوهر والظاهرة .

ونحن نرى ان جذر هذا « التلبك » يكمن في وجهة نظر ارسطو عن
« الجوهر » . فهو يكتب حول ذلك بوضوح منطقي عميق : « الجوهر هو
ذلك الشيء الذي يتحدد من خلاله كل شيء آخر ، بينما هو نفسه لا يتحدد
من خلال شيء آخر » (١) . ان هذا الجوهر الأول هو كذلك (اي جوهر
أول) من حيث « ١ - المفهوم ، وكذلك ٢ - (من حيث) المعرفة ، وكذلك
٣ - من حيث الزمان » (٢) .

والجوهر هذا يضعه ارسطو بالتعارض مع **ظواهراته** ، التي تمثل في
آخر تحليل صفاته . وبناء على ذلك يتحول الجوهر ذاك الى « حامل »
لصفاته تلك (٣) .

الا ان ارسطو لا يقتصر على « الاحساس » الموجه الى الاشياء المفردة
من حيث هو . اي الاحساس ، أداة المعرفة . الحقيقة ان الامر لدى ارسطو
يتحدد كما يلي : انه حين يتحدث عن « العام » كشيء **مادي** ، هو المادة ،
فهو يقصر موضوع المعرفة على الاشياء المفردة المتكونة عن هذا العام .
في هذه الحال تصبح « الملاحظة الحسية » وسيلة المعرفة الوحيدة والمناسبة .
ولكنه ، من طرف آخر ، حين يتحدث عن « العام » كجوهر **روحي محض**
وغير متحرك وبالتالي منفصل عن الاشياء الحسية ، فان المسألة بالنسبة
الى « موضوع » و « وسيلة » المعرفة تنتقل الى مستوى آخر . هاهنا
يصبح العام صورة الصور او « الاله » المحرك الذي لا يتحرك . وهذا قابل
لان يعرف ، ولكن ليس بمعنى « المعرفة » عموما ، وانما المعرفة الداخلة
ضمن مفهوم « العلم الأول » الذي هو الفلسفة : « ان يوجد شيء خالدا
لا متحرك ومنفصل ، يؤدي الى ان تكون معرفته بشكل واضح مسألة

(١) نفس المصدر السابق - ص ١٥٣ - ١٥٤ .

(٢) نفس المصدر السابق - ص ١٥٢ .

(٣) ان هذا الرأي الارسطي حول علاقة الجوهر بصفاته يمثل به شكل عام Polikarow
! بلماريا) و Zweiling (المانيا الديمقراطية) . فهما يتحدثان عن مادة « مستقلة » ومن
صفات لها « غير مستقلة » : انظر : المجلة الالمانية للفلسفة - العدد - ٥ - ١٩٥٦ .

خاصة بعلم ملاحظ (نظري) « (١) . هذا العلم يوصل ، بعكس العلوم الأخرى الملاحظة النظرية والعملية التطبيقية ، الى الحقيقة المطلقة المحضة عن ذلك الوجود الخالد واللامتحرك ، بغض النظر عن كل تعرض للـ «حسي» و « العياني » .

وحين يؤكد ارسطو على أن « الفلسفة الأولى » تجعل من ذلك الوجود المطلق موضوع بحث لها وأنها ، لذلك ، هي التي تستطيع وحدها الوصول الى الحقيقة المطلقة المحضة ، فانه يرى سبب ذلك في أن العلوم النظرية الأخرى ، كعلم الطبيعة والرياضيات (هذا بغض النظر تماماً عن العلوم التطبيقية التي لا يمكن ان تُمنح في هذا المستوى أي اعتبار) تبحث في الأشياء المنفصلة (عن العالم الأرضي تحت القمر) ولكن المتحركة ، كما هو الحال بالنسبة الى العلوم الطبيعية ، أو تبحث في الأشياء غير المنفصلة ولكن اللامتحركة جزئياً كما هو الحال بالنسبة الى الرياضيات (٢) . « ... أما ذلك العلم الأول فانه يعالج أشياء منفصلة وغير متحركة » (٣) .

وهنا ينبغي التنبيه الى أن ارسطو يفهم هنا تحت مفهوم « المعرفة » الطموح الانساني الدائم والتأملي *contemplative* (٤) للاحاطة بالحرّك الأول المطلق الذي لا يتحرك . هذا يعني ان المسألة لديه لا تدور حول معرفة حقيقية تضع في حساباتها بالدرجة الأولى العلاقة المعرفية الانعكاسية بين الذات (الانسان) والموضوع (العالم الطبيعي الخارجي) .

بالعلاقة مع هذه المسألة نستطيع أن نرى في الموضوعية الأرسطية القائلة بأن « العلم يوجد فقط حول العام » (٥) تأكيداً على وجود هوة بين « المعرفة » والواقع الحقيقي الموضوعي ، بحيث يصبح غير وارد ان نتحدث عن امكانية التعرف على المادة في كليّاتها .

ان هذه « التأملية » النظرية المعرفية التي تحيط كثيراً أو قليلاً بالمنظومة الفلسفية الأرسطية تبين وتعهّد لاحقاً بكل عناية من قبل

(١) ارسطو : ما بعد الطبيعة - نفس المعطيات السابقة ، ص ١٤٤ .

(٢) انظر : نفس المصدر السابق - ص ١٤٤/٥٠ .

(٣) نفس المصدر السابق - ص ١٤٤ .

kontemplativ (٤)

(٥) ارسطو - ما بعد الطبيعة - ص ٣٢٩ .

الافلاطونيين المحدثين والارسطيين الافلاطونيين ، وكانت بالتالي أساساً
مكننا للفصل بين العلوم « النظرية » والأخرى « التطبيقية العملية » (١) .
والآن ، وأخيراً نحاول ان نختزل قضية « مفهوم المادة » والعالم
المادي لدى ارسطو من خلال النقاط التالية :

١ - انه من الامور غير الممكنة ان نحاول اكتشاف وجهة نظر موحدة
في التركة الفلسفية الارسطية حول قضية المادة والعالم المادي . ذلك لأن
الازدواجية في طرح القضية هذه ، كما في قضايا أخرى ، تشكل خطأ مميزاً
لفكر ارسطو الفلسفي . انها ازدواجية بين المادية والجدلية من طرف ، وبين
المثالية والميتافيزيقيا من طرف آخر . بيد ان هذه « الازدواجية » كانت قد
تحولت لاحقاً . وخصوصاً في العصور الوسيطة ، الى **عامل حيوي وعميق**
في بلورة الإنجاهين الفلسفيين الكبيرين : **الاسمي والواقعي** . هذا الى جانب
انها خلقت تشويشاً فكرياً في أذهان مثقفي العصور اللاحقة ، الا انه تشويش
عميق الافاق والابعاد ، حيث عمل على إثارة أولئك المثقفين فكرياً إثارة
خصبة .

٢ - ان وجهة نظر ارسطو في « المادة » قد حققت تقدماً عملاقاً
على طريق تحرير المادة كمقولة فلسفية من الآراء البنيوية حولها (أي الآراء
التي تأخذ بجانب من جوانب العالم المادي المشخص ، مثل الماء أو الهواء) .
وبذلك تحقق تقدم مرموق في مجال « التجريد » الفكري النظري . ان
المفهومية المجردة التي عبر عنها مفهوم ارسطو حول المادة لم تكن قد شهدناها
في الانظمة الفلسفية ما قبل الارسطية . فلا الـ Apeiron الاناكسمندري
ولا الـ « ذرة » الديموقريطسية استطاعا بلوغ **الخاصية** النظرية المعرفية
لمفهوم المادة أو العالم المادي . ان ذلك قد تحقق لأول مرة على يد ارسطو .
قال الـ Apeiron كان يفتقد تشبيهاً نظرياً معرياً ، أي انه لم يبلغ مستوى
« المفهوم » : أولاً : بخادسيته التي هي المفهومية المجردة : وثانياً ، بوظيفته
التي هي عكس العالم الموضوعي الخارجي .

كذلك الـ « ذرة » كانت متخلفة نظرياً معرياً حتى عن الـ Apeiron ،
ولكنها تجاوزته من خلال ادخال وظيفة الفكر : كما من خلال ادخال « فكرة »
وحدة العالم المادي في الفلسفة المسادية عموماً ، وفي نظرية المعرفة المسادية
على نحو خاص . بيد ان الـ « ذرة » لم ترفع الى مستوى التجريد النظري ،

(١) قارن ذلك بـ : W. Jaeger ، ارسطو ، برلين ١٩٥٥ ، ص ٦١ .

ذلك لان « الفكر » ظل ينظر اليه في الاطار الديموقريطسي على انه امتداد مادي كمي ، وان كانت مادته تتميز بكونها ناعمة ودقيقة ...

٣ - ان « مفهوم المادة » والعالم الارسطي يتميز بكونه الشكل الاول المنسّق منطقياً وبوعي لمفهوم الجوهر ، كما عرضناه سابقاً ، اي القائم على الفصل المنسّق منطقياً وبوعي بين « الجوهر » و « الظاهرة » . ولكن في الوقت الذي تضمن فيه « مفهوم » ارسطو ذاك حول الجوهر فكرة قديمة المادة الاولى العامة ، فانه قد ارسى بذلك خطوة كبيرة اساسية وخطيرة على طريق صياغة مفهوم فلسفي مادي جدلي دقيق حول « المادة » . الى جانب ذلك نجد عمق هذه الخطوة في كونها حققت تحرر « الفكر » الانساني من « المفرد » و « الخاص » برفعه الى مستوى « الكل » و « العام » . وعلى اساس من ذلك تحققت العملية الاولى الحاسمة في مجال انفصال واستقلالية « الفكر » النسبية والمشروعة لتقاء « الواقع » .

٤ - اذا استطاع ارسطو صياغة « مفهوم » عن المادة تجاوز فيه التصورات البنيوية والعيانية ، اي التي تنطلق من احد الجوانب الحسية المفردة في العالم المادي ، مثل الهواء والماء والذرة والمعدن الخ ... ، فانه لم يتمكن من طرح كيفية انعكاس ذلك « الجوهر المادي العام المتأصل في كل شيء مفرد » في الراس الانساني . ان ارسطو لم يستخدم في سبيل ذلك مفهوم الانعكاس ، الذي اكتشفه ، في ملمحه الاولى الميكانيكي ، ديموقريطس في حينه . ونحن نرى ان سبب ذلك القصور كمن في التعليم الارسطي حول « الطموح » او « الشوق » كطريق و « كمنهج » للمعرفة . اما الجوهر العمومي المتأصل في كل شيء (وهو المادة الاولى) ، فانه لا يمكن ان يكون موضوع معرفة حقة . فقط الاشياء المفردة يمكن التعرف عليها من قبل الانحساس . وعلى العكس من ذلك كله ، يعتبر ارسطو ان « العام الالهي » هو وحده قابل لان يُطمع في التعرف عليه وفي الاشتياق اليه من قبل الفكر . ان الانسان يستطيع الطموح في ذلك « للتعرف » عليه ، ولكن فقط من خلال فعالية فكرية « تأملية » .

هكذا يظهر جليسا ان الحديث عن « معرفة » لدى ارسطو يعني « معرفة » صورة الصور وليس الجوهر المادي ، كما يعني التشوف التألمي اللاتاريخي والداخلي وليس المعرفة الانسانية التاريخية المتوسطة من خلال الاحساس . الى جانب ذلك نجد الفصل المطلق بين الجوهر المادي

العام وبين ظاهراته المفردة ، بين الحسي وبين العقلي ، عثرة أساسية أخرى على طريق تكوّن مفهوم أرسطي جدلي موحد حول المعرفة .

هـ - ان الرأي الفذ الأرسطي حول الحركة من حيث هي انتقال من الامكان الى التحقق قد احتوى بذرة جدلية عقلانية هامة حتى الحد الأقصى .
أما عنصر الإزعاج فيأتي في خلال ذلك عن رأي أرسطو بأن الحركة تكتسب وجودها الحقيقي من مبدأ غائي أول ، هو صورة الصور أو المحرك الذي لا يتحرك . وهذا يظهر لنا البعد الحقيقي لاعتبار أرسطو ان المادة تمثل الامكان أولاً بأول ، بينما الصورة تمثل الواقع المتحقق .

ان جوهر القصور المثالي الميتافيزيقي في علاقة المادة بالصورة لدى أرسطو يكمن جوهرياً في سلب المادة حركتها الذاتية . ذلك لأن المادة دون حركتها هذه تصبح ، وهذا مفهوم بذاته ، عاجزة عن أي فعل « ذاتي » . حينئذ تصبح في وضع تحتاج فيه دائماً قوة خارجية ما ، حسب تعبير العالم الميكانيكي الكبير نيوتن لاحقاً . ان هذه « القوة » يعبر عنها باللغة الأرسطية بـ « الصورة » المطلقة المجسّدة في ذاتها ، في آن واحد ، علتها هي نفسها والعلة الغائية وعلة الكمال المطلق . ان فقدان « الحركة الذاتية » للجوهر المادي في مذهب أرسطو الفلسفي جعل هذا المذهب - مع الأخذ بعين الاعتبار النقاط المادية التي أوردناها سابقاً - يحتوي تمزقاً أو انشطاراً أساسياً الى المادية والمثالية ، والى الجدلية والميتافيزيقية .

سوف نجد لاحقاً ان هذه المسألة (الحركة الذاتية للمادة) تثار مجدداً وبقوة من قبل الفيلسوف الذري أبيقور ، كما من قبل الفلاسفة العرب الاسلاميين الناحين منحى مادياً ، وفي طليعتهم ابن رشد . وقد ابرز التطور الفلسفي اللاحق - وعلى الاخص في العصر الوسيط - ان التأكيد على « الحركة الذاتية » للعالم المادي كان يرافقه دائماً بالتأكيد على العلم والعقل في الحياة الفكرية الثقافية والحياة الاجتماعية العامة .

٦ - ان « مفهوم » أرسطو حول المادة يبرز امامنا في ابعاده وآفاقه العميقة والانقلابية من خلال أخذه بـ « المادة » كجانب من جوانب الوجود . فالوجود الأرسطي يتحدد من خلال جانبيه الأساسيين ، الالهي العقلي المجرد من كل حسية وبالتالي من كل امكان ، والجانب المادي المتضمن الحركة ، والامكان . وبالرغم من هذا الفصل الأنطولوجي الحاد بين كلا الجانبين الوجوديين ، فان قضية « الوجود الواحد » تجد لنفسها متنفساً في كون المادة الأولى ، الموجودة بالامكان ، وكون الصورة الموجودة

بالتحقق والمكاملة للمادة ، « يطمحان » أبداً في التعرف على الوجود الالهي المطلق . انهما في نزوع دائم نحو هذا الهدف .

ان هذا ، ولاشك ، يشكل خطوة الى امام بالنسبة الى قضية « العالم الواحد » وبالمقارنة مع رؤية افلاطون وحادثة العالم هذه فقط في « المثل » . وهذا هو في الحقيقة ما جعل ارسطو أقرب الى روح التقدم العلمي الطبيعي والفلسفي المادي . ونحن حين نعتبر ارسطو ممثلاً للفلسفة المثالية الموضوعية ، فان هذا لا يعني انه والفلسفة المثالية الموضوعية الافلاطونية شيء واحد . فهو في « نظرية المعرفة » ، كما اوردنا ملامحها الاساسية عنده ، وفي مفهومه عن « المادة » و « الحركة » و « اللاوجود » ، يقدم لنا مثلاً حياً على التارجح المتزع بالوعود والافساق الخصمية الفكرية ، التي سوف تتحقق على أيدي مفكرين أكثر حزمًا في مراقفهم من التقدم الاجتماعي والعلمي الطبيعي والفلسفي .

٧ - ان ارسطو لم يتغلب على التعارض بين « المادة » من حيث هي مجردة ، وبينها من حيث هي حسية . والمقصود هنا بذلك مفهومه **النظري المعرفي** - أي تعريفه الفلسفي للمادة - وليست آراؤه حول تركيبها ودرجات وجودها . فهو يرى المادة تارة حسية ، وتارة مجردة . وهذا ليس قائماً عنده على اساس من الفهم الجدلي الفلسفي، بحيث ان « الحسية » تتضمن « التجريدية » وبالعكس ، وانما على تشويش في الموقف وتارجح بين الامور المختلفة (١) . هذا يبرز مجدداً ان حل المشكلة الارسطية هذه ، أي ذلك التارجح والتشويش في الموقف الواحد وفي المواقف المتعددة ، لا يمكن تجاوزها وحلها من خلال ارسطو نفسه . لقد كان على تاريخ الفكر الانساني ان يكون مفكرين جدداً ، من طراز ابن رشد ، يستطيعون تحقيق تلك المهمة التاريخية الضخمة . والمسألة هذه لا تقوم على أهمية هؤلاء المفكرين الجدد الا بمقدار ما مثلوهم من اطر حضارية - اجتماعية واقتصادية وعلمية - جديدة ومتميزة عن تلك التي عاش ضمنها ارسطو . ان ارسطو قد عمل على طرح مشكلة الفكر الفلسفي بأبعادها ، التي حاولنا رصدها فيما سبق . ولكنه لم يحلها في كثير من جوانبها . الا ان أهميته تبقى ضخمة وعميقة الجذور حتى عصرنا هذا في كونه قدّم فعلاً ذلك الطرح الأولي الخلاق . وسوف نجد

(١) ان « عدم الانضباط » هذا في فكر ارسطو قد اشار اليه بدوره Zeller في كتابه « موجز تاريخ الفلسفة اليونانية - نفس المعطيات السابقة » ص ١٨٣ . حيث يرى ان المادة لدى ارسطو « تفهم مرة في معنى مجرد ، ومرة في معنى حسي - عياني » .

في الفصول التالية ان اتمام المهمة الارسطية في العصر العربي الاسلامي الوسيط كان يقتضي تجاوز ارسطو تجاوزاً جدياً ضمن مقتضيات ذلك العصر الاجتماعية والاقتصادية والعلمية .

لقد تمثل ارسطو **العصر العبودي** القديم بقوة ويفكر حي وثاب . وتجاوزه في كثير من النقاط المثالية الميتافيزيقية قد تحقق فعلاً من قبل مفكرين عظام عاشوا في مجتمع كانت فيه العلاقات **البورجوازية المبكرة** تشرئب بعنقها نحو الاستمرار وتطمح في حيازة الوجود الشامل ، وان لم يتحقق لها ذلك كله . هذا المجتمع هو العربي الاسلامي الوسيط الذي سيكون بمفكره موضوع بحثنا فيما يلي :

وثمة كلمة اخيرة اساسية في فهم ارسطو وعصره . لقد تكلم ، كما رأينا ، عن عقل اولي خالد يحرك ولا يتحرك ، ومجرد عن المادة ، أي مفارق لها ، وهو بذلك فاعل . وعلى العكس من ذلك العقل المنفعل المتواجد مع التفير . لقد اثارت مسألة « العقل الفعال او الفاعل » هذه مشكلات كبيرة فيما تلى من فترات فكرية . والمهم في ذلك هو ان ارسطو قد اكسب هذا « العقل » طابعاً لا انسانياً ، وبالتالي اقام بينه وبين العقل الانساني البائد هوة سحيقة . والفلاسفة ، أي مفكرو وسادة المجتمع العبودي ، هم المؤهلون للاتصال بذلك العقل على طريق الشوق والطموح . اما العبيد **فبطبيعة الأمور** بعيدون عن كل ذلك .

ان « العقل الفعال » هذا سوف يكتسب لاحقاً ، وبشكل خاص لدى شارح ارسطو الكبير اسكندر الافروديسي ومجدد الفكر الفلسفي العظيم ابن رشد ، تفسيرات مختلفة على نحو عميق . ان ابن رشد سوف يجعل هذا « العقل الفعال » ، بالعلاقة مع مذهبه حول وحدة الوجود المادية ، القاسم المشترك بين **مجموع** الناس ، وذلك بتأكيده على الالتحام الانطولوجي العضوي بين ذلك العقل والعقل « المنفعل » . هاهنا يكمن الجديد في الفكر الديموقراطي . وبالطبع ، نحن سوف نكون عاجزين عن فهم هذا « الجديد » بمعزل عن الارهاصات البورجوازية في العصر العربي الاسلامي الوسيط ، التي طرحنا اولياً فكرة الحرية والمساواة .

القسم الثالث

لفكر العربي الإسلامي الوسيط في حلقاته الأساسية

ملاحظات حول مسألة تقويم جريد لئراثنا العربي - الاسلامي - ولما كتب حوله

ليس من شك في أن طرح قضية **المنهجية** في حقل البحث التاريخي أمر في غاية الأهمية العلمية . ذلك لأن على أساسها لايجري تقويم التاريخ فحسب ، وانما لكونها ، في تقويمها هذا ، تتجاوز التاريخ لكي تمتد بينه وبين الحاضر أكثر مايمكن من الجسور والرباطات . ونحن سوف نقع في مخاطر ومتاهات ذاتية ، حيثما نعتقد ان هذه المسألة محلولة سلفاً من قبل أسلافنا . كما اننا ، من طرف آخر ، سوف نقع في مخاطر ومتاهات ذاتية أخرى ، لا تقل في تأثيرها السلبي عن تلك ، حينما نرفض كل ما طرحه أسلافنا في هذا المجال ، هكذا دون ضابط أو رادع ، بحجة التجديد الشامل في رؤانا العلمية التاريخية . بيد انه يبقى ، على كل حال ، ايجابياً وضرورياً ان تثار هذه المسألة بكل ابعادها وجوانبها الفلسفية والاجتماعية والاقتصادية والادبية والعلمية الخ . . فاهمية ذلك لا تقوم فقط على منطلقات فكرية نظرية وحسب ، بل ايضاً على متطلبات التقدم الاجتماعي والقومي في الوطن العربي . ان ملامح مرحلة الانتقال من المجتمع الاقطاعي - الرأسمالي المتخلف والقاصر الى المجتمع الاشتراكي الجديد ، التي يصر قطرنا واقطار عربية أخرى على تعميقها والسير بها بنجاح ، وان ضرورة تجاوز التجزئة القومية في الوطن العربي في الوقت الراهن واللاحق ، ان ذلك كله يضع ، ضمن ما يضع ، امام المفكرين العرب مهمة معقدة وذات ابعاد شاملة ، تقوم على كتابة تاريخنا من جديد ، وعلى ضوء اعمق التطورات في هذا الحقل . هذا يعني أن مجابهة « التخلف » الاجتماعي الشامل و « التجزئة » القومية في وطننا لا تشترط فقط تثوير القطاعات الاجتماعية والاقتصادية والتكنولوجية والسياسية ، وانما تقتضي ايضاً ، وبشكل ضروري ، ثورة ثقافية منظمة ومخططة تتمثل تراثنا الفكري الايجابي والجوانب الايجابية من الواقع الثقافي - الحضاري الراهن ضمن وحدة جدلية عميقة ، كما تعمل على تطوير ذلك **بالتأخي العميق** مع مقتضيات تحررنا وتقدمنا الاجتماعي والقومي . ان وضع القضية من هذه الرؤية

يتضمن ويشترط اشكال حلولها **الممكنة** . وهذا يشير بدوره الى حقيقة ان انجاز هذه العملية المعقدة لن يكون سوى نتاج عمل جماعي منسق من قبل مجموع المثقفين العرب ، القادرين فعلاً على المساهمة في ذلك . وبالضبط هذا ما يعطي فصول هذا الكتاب طابع المحاولة الفردية الأولية لتسليط الضوء على المسألة ، وبالتالي لاثارة جوانب أساسية جوهرية منها .

في الحقيقة ، ان فشل الكثيرين من المستشرقين والباحثين العرب في استخراج وتطوير وتعميق وجهة نظر علمية موحدة حول العصر العربي - الاسلامي الفكري الوسيط لهو ذو دلالة عميقة . فهو يكمن في كونهم لم يدرسوا هذا العصر الفكري في **علائقه الاجتماعية - الاقتصادية والسياسية** . لقد انطلقوا ، في آخر تحليل ، من موضوعة استقلالية « الفكر » تلقاء « الواقع الاجتماعي المادي » ، فعمزوا ، على هذه الطريق ، عن فهم **استمرارية الفكر Discontinue of Thought** (١) ، أي خاصية الفكر في كل من فترات تطوره التاريخي . ان الفكر يتضمن في ذاته ليس فقط استقلالية نسبية تلقاء الواقع الاجتماعي المادي ، **وانما أيضاً ارتباطاً** انطولوجيا (وجوديا) بهذا الواقع . وبذلك فهو يحتوي ، في نفس الآن ، استمرارية ولا استمرارية .

فمن أجل بحث العصر الفكري المشار اليه ، تبين الأهمية القصوى لكشف الأطر التاريخية والاجتماعية - الاقتصادية ، التي ترعرع وشب فيها العصر ذلك .

انا نقول بكون هذه الأطر قد هيأت ، بشكل غير مباشر ومتوسط ، **امكانية نشوء وتطور الفكر العربي - الاسلامي الفد** ، ولا نقول **ضرورة ذلك** . اما **تحول** هذه الامكانية الى ضرورة ، فقد كان نتاج المنطق والبنية الداخليين **الخاصين** بالفكر الانساني منذ الحضارات الكلاسيكية قبل العصر العربي - الاسلامي حتى هذا العصر الاخير (٢) .

ان محاولة اعادة نظر شاملة في مجموع تراثنا العربي - الاسلامي وفيما كتب حوله لاتعدو ان تكون التعبير العميق عن طموحنا المشروع في ايجاد

(١) Diskontinuitaet des Denkens

(٢) قارن هذا ب : العلم والنظرة عن العالم في العصر القديم ، دار النشر الالمانية المؤممة للعلوم ، برلين ١٩٦٦ ، ص ٧٣ .

ركائز متينة لنا في عملية استيعابنا لهذا التراث واحاطتنا به احاطة علمية ،
منطلقين في ذلك بالطبع - اذا اردنا ان لانفقد حسنا كناس من القرن
العشرين - من أعمق نتائج ومكتسبات العلوم الاجتماعية والسياسية
والاقتصادية وعلوم تاريخ الدين واللغة والفن وغيرها .

ولقد قلنا أن العديدين من المستشرقين والباحثين العرب قد فشلوا ،
بحدود متباينة ، في استخراج وتطوير رؤية علمية حول العهد العربي -
الاسلامي الوسيط . هذا صحيح ، ويمكن اقامة البرهان عليه بشكل واسع
من خلال نماذج وعينات عديدة . انهم لم يحوزوا على رؤية علمية تاريخية
دقيقة الى التاريخ . ذلك لأنهم انطلقوا ، في ابحاثهم ، من أطر فلسفية
مثالية او غيبية ساذجة ، وليس من الحركة الحقيقية للفكر العربي -
الاسلامي ، الذي هو وثيقة عصره النظرية . وهم ، على هذا الطريق ،
عملوا على تطويع تاريخنا العملاق تطويعاً تعسفياً .

ان حركة بحث وتقصي تراثنا الفكري قد اكتسبت في وطننا العربي ،
خصوصاً بعد الحرب العالمية الثانية ومع تحقيق الاستقلال السياسي
لبلدان عربية معينة ، ابعاداً جديدة كما وكيفاً . ولقد دارت المسألة في بعض
اقطار وطننا بعد الحرب العالمية الأولى حول مايلي : هل ننطلق في تقويمنا
لتراثنا الحضاري من المنهجيات التي نجدها لدى نقاد ومؤرخي هذا التراث
في القرون العاشر او الحادي عشر او الثالث عشر او الرابع عشر او الخامس
عشر الخ . . . ، ام نأخذ بالمنهجيات الحديثة لدى شبنجلر او توينبي او
ارنست رينان او غوستاف لوبون الخ . . . ؟ والحقيقة ، كان ذلك التساؤل
الكبير يؤدي بشكل مباشر او غير مباشر الى القضية الأخرى ، وهي : هل
نتابع مسيرتنا الحضارية ، كما حددت اركانها ومنطلقاتها في تراثنا
الحضاري ، ام نحاول طرح قضايانا الراهنة من خلال رؤى ومنهجيات
جديدة تتلاءم مع طبيعة هذه القضايا ؟

ان ذلك يبرز بوضوح طبيعة الكفاح ، الذي نشب بين ممثلي القديم
وممثلي الجديد . وفي الحقيقة ، كان تكون وتطور « الاتجاه التجديدي »
استجابة واعية قليلاً او كثيراً للمرحلة الاجتماعية - الاقتصادية والسياسية
الجديدة . فلقد اخذت بوادر العلاقات الانتاجية الرأسمالية تنشئ قواعد
لها في حياة الوطن العربي . بالطبع ، كانت هذه العملية قد بدأت قبل الحرب
العالمية الأولى ، وبشكل مختلف ومتمايز من قطر عربي الى آخر . بيد أنها
(العملية) اكتسبت منذ النصف الثاني من قرننا وتأثر سريعة وواسعة

نسبياً . كان هذا يحقق نفسه عبر « نضال » عفوي أعلنته العلاقات الاجتماعية الرأسمالية الجديدة ضد العلاقات الاقطاعية القديمة المتخلفة والمتبلدة . غير أن هذا « النضال » قد تمّ ضمن **تواطؤ تاريخي** بين البورجوازية المدنية الناشئة واقطاع الريف . ففي الخط العام ، تحولت أعداد كبيرة من اقطاعيي الريف الى بورجوازيين مدينيين . وقد عمل على تعميق هذا التواطؤ الاقطاعي - البورجوازي المدّ الاستعماري الاقتصادي والثقافي في معظم بلدان العالم ، والمتخلفة منها على وجه الخصوص . لقد اخذت بواكير التطور الرأسمالي الصناعي تمد جذورها في الوطن العربي في وقت وصلت فيه الرأسمالية الاوربية مرحلة الاستعمار ، وبالتالي تقسيم العالم حسب مطامعه . وقد أدى هذا الى أن يكون الاستعمار في الوضع الذي يجعله قادراً على قمع أية حركة صناعية ديموقراطية في العالم المتخلف في المهد ، كما أدى الى أن تمد البواكير تلك يدها بقوة الى الاقطاع . وهكذا فالطبقة الجديدة ، البورجوازية ، لم تطرح نفسها ، من حيث هي « طبقة اجتماعية » ، عبر ثورة صناعية وايدولوجية واخلاقية . لقد ظلت تتحرك ضمن الأطر العامة للوجود الاقطاعي . وبذلك ، فانها لم تكتسب هوية خاصة بها . ان هذا جعل منها « هجينة » ، تمد نفسها الى امام مشدودة بالف وثاق ووثاق الى وراء . انها لم ترفض الذهنية (الايدولوجية) الغيبية والفلسفة المثالية ، بل حاولت التوفيق بين هذه الذهنية وبين الفلسفة والعلم ، ولكن لصالح الاولى .

ان التواطؤ التاريخي ، الذي عنقد بين الطبقتين ، الاقطاعية المضحلة والبورجوازية العاجزة عمل ، بالعلاقة مع عوامل أخرى ، على ابراز الجانب **الايدولوجي** في علاقة هزيلة مع المعرفة العلمية والفلسفة المادية . فالبورجوازية ، كطبقة جديدة صاعدة ، ظلت تعانق الايدولوجية الاقطاعية المعادية للعلم والفلسفة المادية ، بحيث لم يُتَح لها أن تعيش تلك الفترة النسبية من النضال من أجل زعزعة العالم القديم بمبادئه واسسه الاقتصادية والاجتماعية والفلسفية والاخلاقية . ان مرحلة العداء العاصف للذهنية الغيبية والفلسفة المثالية والاخلاقية الارستوقراطية المتفسخة ، هذه المرحلة التي عاشتها بعمق مثلاً الثورة البورجوازية الفرنسية الكبسرى ١٧٨٩ ، لم تعرفها الكيانات البورجوازية القاصرة ، التي نشأت في الوطن العربي . فالانتقائية الفكرية ، والفوضى وعدم الوضوح الايدولوجيان ، والانكفاء في حالات عديدة نحو القديم أو التنازل في قضايا كثيرة تجاه هذا

القديم : ان هذا ما يحدد الرؤى الفكرية لمثلي « الجديد » . ونحن ان تتبعنا الامر هذا بدقة تاريخية ، فاننا نجد ان هذا الوضع قد وجد تعبيره في الحركة الفكرية الثقافية في الاقطار العربية ، وبشكل خاص في تلك التي اعلنت فيها بدايات الكفاح بين « القديم » و « الجديد » ، مثل مصر وسوريا .

لقد طرح المفكرون العرب ، الآخذون بالذهنية الاقطاعية ، القضية انطلاقاً من ان « الجديد » يكتسب وجوده الحقيقي من خلال « القديم المتكامل » ، وما هو بالتالي الا امتداد ميكانيكي لهذا القديم . ولذلك فتقويم القديم ينطلق منه ذاته ، أي من « المنهجية » التي طرحها هذا القديم . وفي الحقيقة ، ان المفكرين هؤلاء لم يخرجوا عن كونهم نصّيين سلفيين . فهم يتحدثون عن تصورات ومبادئ « فوق » الزمان والمكان ، ويرفضون ، بذلك ، اخضاع هذه التصورات والمبادئ لمفهوم التطور والنقد التاريخي . ولهذا فتقويمهم للتراث العربي - الاسلامي لا يشكل ، في حقيقة الامر ، الا اعادة وتكراراً لهذا التراث على عواهنه ، مع بعض الاضافات « الجديدة » غير « الجوهرية » وغير « الأساسية » . وبإمكان الباحث في هذا الحقل ذكر مجموعة من أسماء مثلي الاتجاه السلفي ، منهم البارز ، مثل محمد البهي في كتابه « الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي » - القاهرة ١٩٦٠ ، ومنهم بعض الشباب والكهول المغمورين . لقد كتب أحد هؤلاء في مجلة « الطليعة - دمشق » العدد ٢٠٨ ، ٢٠ حزيران ١٩٧٠ « الفكرة التالية ذات الدلالة البارزة : « ان تاريخنا العربي الذي بين ايدينا ليس بحاجة الى تحليل . فما وصلنا منه محل مدروس صحيح غير قابل للطعن ... » .

أما على الطرف الآخر ، فاننا نجد امثال محمد عبده وعلي عبد الرازق وطه حسين وأحمد أمين وعباس محمود العقاد يمثلون ، بشكل متفاوت ، الاتجاه « التجديدي » القائم على طرح تراثنا الفكري (والحضاري العام) من خلال رؤية جديدة معاصرة ، رؤية حاول ممثلوها منحها طابع العلمية الرصينة .

الا ان هؤلاء المجددين ، الذين اقبلوا على دراسة تراثنا بحماسة دفاعاً عن العلمية والدقة في البحث ودفاعاً عن التراث نفسه ، لم يستطيعوا بدورهم التنفيذ الى جوهر المشكلة . لقد كان من وراء ذلك ، كما نرى ، عاملان أساسيان : الاول اجتماعي سياسي موضوعي ، وهو انهم لم يستطيعوا تجاوز التواطؤ التاريخي ، الذي انعقد بين الدهنية (الايديولوجية)

الاقطاعية والاخرى البورجوازية، تجاوزا فكرياً . فظلوا ، على هذه الطريق ،
انتقائيين ، معتدلين ، مساومين . والجدير بالذكر ان الفكر الليبرالي
البورجوازي في اوربا قد ساهم ، من خلال المفكرين العرب الذين عاشوا
أو درسوا هناك ، في تكوين ملامح هذا الاتجاه « التجديدي » . أما العامل
الثاني فهو ذاتي معرفي كمن في كون المفكرين اولئك لم يستطيعوا الاقتراب
من المنهج المادي التاريخي في بحث المجتمع والتاريخ الانساني ، وذلك
نتيجة الضعف والضحالة اللذين لحقا بالذهنية البورجوازية من جراء
تواطؤها مع الذهنية الاقطاعية . فتحت ضغط هذا التواطؤ الكبير تآثر
اولئك المفكرون المجددون بقوة بالمناهج الدراسية السائدة في المجتمعات
الرأسمالية الاوربية في مرحلة تحولها الى **مواقع تبريرية رجعية مناهضة**
للتقدم الاجتماعي والعلمي والفكري . غير ان هذا لم يقف عائقاً دون نشوء
وتبلور ميل معين نحو المنهجية التاريخية المادية . بالطبع نحن نتكلم هنا
عن « ميل » لا أكثر ، ولدى بعض ممثلي « الجديد » ، وليس لديهم جميعاً .

ان احمد امين وطه حسين وعبد الحميد العبادي مثلاً ، الذين عملوا
على دراسة الحياة العقلية والادبية والسياسية في الفترة العربية الاسلامية
الوسيطة (١) ، يختلفون في وضوح وعمق طرحهم للمسألة . فاحمد امين
يصنف التاريخ العقلي الاسلامي تصنيفاً مثالياً ، لا تاريخياً ، يبعده عن
تفهم هذا التاريخ بشكل دقيق . انه يتحدث عن « فجر الاسلام » و« ضحى
الاسلام » و « ظهر الاسلام » . ولا شك انه متأثر ، مباشرة أو بشكل غير
مباشر في تصنيفه هذا للتاريخ بآراء شبنجلر وتوينبي حول السير
التاريخي . غير انه ، وهو الذي ينطلق من ذلك التصنيف الذاتي للتاريخ
الفكري العربي - الاسلامي ، يظهر ، في كثير من خطوات بحثه ، حساً
تاريخياً جديلاً في تفهمه لقضايا معينة من ذلك التاريخ .

أما طه حسين فيمكن اعتباره ابرز المجددين في فهم تراثنا الفكري
ضمن ممثلي الذهنية (الايديولوجية) البورجوازية - الاقطاعية . فهو ،
في الحين الذي يكتب فيه بان العلم « لا يعرف الكلمة الاخيرة في مسألة من
مسائله ، وانما حقائقه كلها إضافية موقوتة » لها قيمتها حتى يتكشف
البحث عما يزيل هذه القيمة أو يغيرها (٢) ، اقول ، في ذلك الحين الذي

(١) انظر : احمد امين ، فجر الاسلام - الطبعة التاسعة ١٩٦٤ ، المقدمة .

(٢) المصدر السابق ص (٧) .

يؤكد فيه ، ولو بشيء من عدم الدقة ، على الطابع الجدلي للتطور الفكري ، نراه من طرف آخر يحذر من الرأي السطحي القائل ، بأن « عناية الكاتب والباحث ستتناول الأشخاص وتقتصر عليهم » (١) . وهو ، في ذلك ، يتخذ موقفاً حازماً : « وهذا النحو من البحث مألوف وشائع ، ولكنني مع ذلك سأعدل عنه ، وسأكون شديد الاقتصاد في ذكر الحوادث والاخبار والتواريخ التي تتصل بحياة الأشخاص ... ، لا لأنني أهمل هؤلاء الأشخاص اهمالاً ، أو أنسى تأثيرهم العظيم في البيئة التي نشئوا فيها ، بل لأن لي رأياً أظن أنه هو الرأي المقرر الآن عند الذين يمتنون بتاريخ الآداب والآراء ، وهو أن هذه الآداب والآراء على اختلافها وتباين فنونها ومنازعها ، ظواهر اجتماعية أكثر منها ظواهر فردية : أي أنها اثر من آثار الجماعة والبيئة أكثر منها اثراً من آثار الفرد الذي رآها واذاعها » (٢) .

هكذا يتبين لنا أن كلا الفريقين ، ممثلي القديم وممثلي الجديد ، لم يستطيعا طرح قضية التراث العربي - الإسلامي طرْحاً يحيط بالمشكلة على نحو تاريخي دقيق وحازم . ولقد ابتنا فيما سبق الدور السلبي الكبير ، الذي لعبه في هذا الحقل التواطؤ الاجتماعي التاريخي .

أن « الجديد » يكتسب جدته من « القديم » وينتهي في اطره : هذا كان الكلمة الجمهورية الأخيرة في الذهنية الاقطاعية الغيبية . وفي الحقيقة ، لا يمكننا أن نطلق ضمن هذه الرؤية السلفية التعبير « جديد » إلا تجاوزاً ، وذلك لأنه هنا لا يتمتع بوجود متميز نوعياً عن القديم .

بيد أنه يمكن ملاحظة ظاهرة أخرى ضمن الاتجاه التجديدي . فالى جانب المجددين ، الذين تأثروا قليلاً أو كثيراً بالتواطؤ الذي تكلمنا حوله ، كان هنالك تيار فكري تجديدي قد أخذ منحى متميزاً بشكل واضح عن منحى المجددين اولئك . أن هذا التيار ، الذي يعتبر سلامه موسى من أبرز ممثليه ، يقسوم في أساسه على محاولة تجاوز شامل للتراث العربي - الإسلامي . أن تجاوزاً من هذا النوع كان يتضمن رفضاً للتراث هذا ، من حيث هو كذلك ، والبدء من جديد . ونحن نرى أن من نتائج هذا التصدي للتراث كانت محاولة استبدال الحروف الأبجدية العربية بحروف لاتينية ،

(١) طه حسين : قادة الفكر - دار المعارف بمصر ١٩٥٢ ، ص ٦ .

(٢) المصدر السابق - ص ٦ - ٧ .

تستطيع استيعاب الثقافة المعاصرة استيعاباً عميقاً ، كما عبر عن ذلك في حينه سلامه موسى(١) .

في الحقيقة ، نحن نستطيع تقصي هذا القصور في فهم قضية تراثنا فهماً علمياً تاريخياً دقيقاً من قبل سلامه موسى والذين تأثروا به من خلال سببين : الأول هو أن تراثنا الفكري — والحضاري عموماً — قدم إلينا بشكل مشوه ممسوخ ، بحيث أبرزت منه الجوانب السلبية الغيبية والمناهضة للتقدم العلمي والاجتماعي إبرازاً بدائياً مملاً في طريقة تقديمه . أما السبب الثاني فقد كمن في كون أولئك لم يستوعبوا المنهج المادي التاريخي بشكل جدلي حي .

لقد وقعوا في التبسيطية . فهم فهموا الثورة الفكرية الثقافية والاجتماعية على أنها نفي كلي للتراث ، بحيث ينبغي تكوين « بداية » جديدة كلياً . ان مفهوم نفي النفي الجدلي فهم من قبلهم من حيث هو رفض دون تمثل وذون استعادة جدلية لذلك التراث . إلا أن دورهم كان ، بالرغم من ذلك ، بارزاً في عملية تكوين وعي علمي جديد في مصر وفي أكثر الاقطار العربية .

ان القيام بمحاولات لدراسة التاريخ الفكري العربي — الاسلامي شهد فترات تاريخية مختلفة إلى حد كبير وعلى أيدي مؤرخين عديدين . والحقيقة ، إن التعرض لتاريخ التاريخ في الحقبة العربية — الاسلامية الوسيطة لهو جانب أساسي في عملية إعادة النظر العلمية الشاملة في تراثنا ، أي إن انجاز هذه العملية المعقدة والمتعددة الجوانب تقتضي دراسة ماكتبه المحدثون والقدماء حول تاريخ تلك الحقبة . والمسألة تستبين لنا معقدة إلى حد كبير ، حيثما ندرك أن التاريخ العربي — الاسلامي وحركة تاريخه من قبل مؤرخيه الأوائل قد امتازجا ، بحيث ينبغي اظهار الواقع التاريخي وتمييزه عن تفسيره المقدم من أولئك المؤرخين اظهاراً دقيقاً .

بيد أننا نريد هنا التأكيد على مسألة جوهرية لها مساس بقضيتنا هذه ، وهي أننا من خلال عملية تاريخ حقبة اجتماعية معينة نستشف تاريخ الحقبة التي كتب فيها المؤرخون هؤلاء . وهذا يبرز لنا في أهميته القصوى من خلال دراسة وتقصي تاريخ الفكر الفلسفي المادي في المرحلة العربية — الاسلامية الوسيطة مثلاً .

(١) انظر : سلامه موسى ، البلاغة المصرية واللغة العربية — المطبعة المصرية — مصر .

ان المؤرخ الذي يكتب حول وقائع حدثت قبله ، يقدم لنا هذه الوقائع من خلال عصره هو ، أي المؤرخ . في هذه الحال يتوجب على المؤرخ لظاهرة اجتماعية أو فكرية ما أن يبحث ، في الخط الأول ، عن المصادر الأصلية ، كتابية أو مادية ، التي وجدت في عصر هذه الظاهرة وسجلتها . إن تاريخنا العربي - الاسلامي يطرح أمامنا هذه المسائل المنهجية بشكل ملح وحاد . فهو ، هذا التاريخ الذي قدم إلينا من خلال رؤى أكثرها غامض وعلى مدى قرون عدة من الزمن ، قد فقد حركته ومضمونه الحقيقي على أيدي أغلبية الذين كتبوا حوله .

إن عدم قدرة معظم المؤرخين العرب - الاسلاميين على الإحاطة العميقة بالحركة التاريخية العربية - الاسلامية وعلى استيعابها في خطها الجوهري - وهذا يعود الى أسباب ذاتية وأخرى موضوعية - ، أدى بمؤرخيها إلى أن يبحثوا عن ذلك الخط إما في ظواهر جانبية من ذلك التاريخ ، وإما في أوهام مثالية غيبية .

فالبلادري يرى في التاريخ العربي - الاسلامي تاريخ النبلاء وأشرف العرب ، الذين أخذوا على عاتقهم نشر الدين الاسلامي في المناطق المختلفة . كذلك نلاحظ المسعودي يصنف التاريخ ذاك على أساس من تسلسل الخلفاء والقواد ، بالرغم من أنه ، إلى جانب ذلك ، يتعرض لكثير من المسائل الاجتماعية والفكرية والاقتصادية . أما الطبري فإنه يرى في التاريخ العام تاريخاً للأديان . وابن مسكويه انطلق بدوره ، في فهمه وتحليله للتاريخ ، على أساس أخلاقي . فهو رأى التاريخ العام ، والاسلامي - العربي من ضمنه ، تجسيدا لقيم أخلاقية (إسلامية) معينة .

اما الخطوة الضخمة والهامة في تاريخ الفكر الاجتماعي (السوسيولوجي) عامة ، فقد أرسى دعائمها ابن خلدون ، وتابعه على هذا الطريق المؤرخ البارز المقريري . فهذان - الأول في « مقدمته » والثاني في « إغاثة الامة بكشف الغمة » - طرحا قضية التاريخ من خلال رؤية تاريخية جديدة مخالفة للسابقة عليها مخالفة جوهريّة . انهما ينطلقان ، في محاولتهما لفهم التاريخ الانساني ، من تحليل اجتماعي ومعاشي (اقتصادي) له ، أي من الحركة التحتية الأساسية ، وان لم تكن الوحيدة ، للتاريخ .

والشيء الجدير بالتفكير والملاحظة هو ان مجموعة من المفكرين العرب المعاصرين ، وبشكل خاص الممثلين منهم للذهنية الاقطاعية الغيبية ، لا يرون الخط الجوهري المشار اليه فوق ، الذي يميز ابن خلدون والمقريري عن

سبقهما من المؤرخين . فالجميع ، برايهن ، قد قدموا « عملاً ضخماً » ، وكلهم يمكن اقحامهم تحت اطار واحد متجانس .

وعلى كل حال ، فنحن سوف نرى في فصول لاحقة من هذا الكتاب ، الى اي حد استطاع هذان المفكران الكبيران طرح قضية التاريخ والتاريخ من وجهة نظر مادية وتاريخية .

ولا شك اننا ، على ضوء ماسبق ، نتبين مخاطر « السلفية » و « التبسيطية » في آن واحد . فالسلفية تبرز من خلال رفض دراسة وتقصي تراثنا على أساس من العلم المعاصر . فممثلوها يحاولون ، على طريقة الحاوي ، اقناع النظارة أن كل شيء يمتد في أصله الى القمم . فليس من جديد جوهري في العالم العياني وفي مدارك الانسان . وفي الحقيقة ، ان هذه الرؤية السلفية « القبليّة » تتيح للانسان امكانية واحدة : التطلع إلى وراء ، والطموح الى وراء ، وتطويع الحاضر من قبل الماضي بشكل تعسفي مهين .

لقد ترك لنا اسلافنا العظام ارثاً حضارياً عملاقاً . ولكن بالرغم من هذا فاننا سوف لن نكون علميين وصادقين مع تراثنا اذا انكفأنا راجعين اليه رجوعاً ميكانيكياً . ان الانسانية الحديثة والمعاصرة قد اكتشفت حقائق وابدعت مكتسبات ضخمة أيضاً في مجال العلوم والتقنية والعلاقات الاجتماعية ؛ فهل يحق لنا انكار هذا انطلاقاً من اخذنا بذلك « القمم الأصل » ؟ ان من ينكر ذلك ، يستوي مع المتعصبين العرقيين من الاوربيين ، المنكرين لمنجزاتنا في العصر الوسيط . فالحضارة الانسانية تشكل وحدة جدلية عميقة لم يستطع طرحها توينبي أو شبنجلر وغيرهما من المؤرخين المثاليين — بالمعنى الفلسفي — .

ونحن اذ نصل الى هذه النقطة ، تبرز امامنا مسألة تقتضي الاجابة الدقيقة ، وهي فيما اذا يحق لمؤرخ الفلسفة أو التاريخ العام استخدام مفاهيم حديثة في اقدمه على التراث بغاية تقصيه ودراسته . ان ممثلي الدهنية الاقطاعية الغيبية يسقطون هذا التساؤل من أي حساب . فهو ، بالنسبة اليهم ، غير مشروع اصلاً . انهم يرفضون ، مثلاً ، استخدام مفهوم « اليمين » و « اليسار » أو « التقدمي » و « الرجعي » ، بحجة أن هذه المفاهيم لم تكن سائدة ضمن الرصيد اللغوي السياسي — الاجتماعي للعصر المحاول دراسته . انهم يرفضون استخدام مفاهيم « الطبقة الاجتماعية » أو « العلاقات الطبقية » أو « الممارسة » أو « التطور » أو

« الثورة » الخ ... بحجة إن هذه المفاهيم من مكتسبات العلم الاجتماعي الحديث . نحن ملزمون ، طبقاً لذلك الرفض ، ليس فقط بالعودة إلى العلاقات الاجتماعية السابقة وضوابطها الفكرية والأخلاقية والجنسية والحقوقية والسياسية ، وإنما أيضاً بالتحرك في المفاهيم الفكرية والتصورات الغيبية والتعبيرات اللغوية التي استخدمها الناس قبل قرون .

الحقيقة ، اننا ، كمؤرخين ، نستطيع استعمال مفهومي « اليمين » و « اليسار » على فترات تاريخية سابقة ، بفاية تحديد « موقف اجتماعي سياسي » أو « موقف فكري فلسفي » لدى أناس أو طبقة اجتماعية من عصرنا ، كما لدى أناس أو طبقة اجتماعية من عصور سابقة . ان « اليسار » هنا يعني أخذ موقف واع قليلاً أو كثيراً من مشكلات أمة أو طبقة ، مشكلات تقدمها أو تخلفها . وكذلك أيضاً مفهوم « اليمين » . والحقيقة ، أن هذين المفهومين يساعداننا على تفهم الموقف الذاتي الانساني الذي يعكس ، على نحو معقد ، عملية تطور أو تخلف عيانية مادية لمجتمع ما . والا فهل بقدرتنا ان نرفض القول بوجود « طبقات » اجتماعية في القرن الثامن مثلاً في المجتمع العربي الاسلامي بالمعنى الذي حدده التطور العاصف في مجال علم الاجتماع والتاريخ والاقتصاد السياسي في القرن التاسع عشر وما بعده ، لمجرد الادعاء بأن مفكري ذلك القرن الثامن لم يستخدموا هذا المفهوم بمعناه الحديث ؟ اذن ماهي مهمة البحوث الاجتماعية والدينية والسياسية والاقتصادية والفلسفية التي تطمح في اكتشاف القوانين الأساسية المحركة للمجتمعات البدائية والطبقية ؟

ان جعل الماضي معيار ومحك الواقع الحاضر لا يؤدي فقط الى الخط من قيمة هذا الماضي ، وإنما أيضاً الى أخطاء ومزالق كبيرة أو صغيرة في مختلف المجالات ، ومن ضمنها الفكرية .

ان البحث الاجتماعي العلمي يتحدد من خلال نقطتين ، أولاهما اكتشاف الواقعة أو الوقائع التاريخية ، كما هي ، بصورة موضوعية كاملة ، إن أمكن . أما النقطة الأخرى ، التي لا تقل أهمية عن الأولى ، فإنها تقوم على « تفهم » تلك الوقائع تاريخياً ، أي النظر إليها ضمن إطار تاريخي محدد . وبدقة أكثر ، هذه الوقائع ينبغي رؤيتها ضمن حركة نمو ذاتية ، لها تاريخ ضمن تاريخ اعم وأشمل ، ومن ثم تفهمها في تفاعلها الحي وعلائقها المتبادلة مع غيرها . ولكن ضمن هذه النقطة الأخيرة تبرز ناحية على غاية من الخطورة والأهمية ، وهي ضرورة تحاشي رؤية الوقائع التاريخية

مجموعة أو خليطاً تتساوى من خلاله أهمية وحسمية .

بدون الوقوع في مزالق « الاقتصادية الميكانيكية » ، التي تمنح العامل الاقتصادي الدور الحاسم والوحيد في عملية النمو الاجتماعي الانساني ، نرى انه من اللازم الاشارة الى أهمية هذا العامل في العملية تلك ، بمعنى انه خطأ فاحش أن نبحث عن نمو « الفكر » في الفكر نفسه بمعزل عن الإمكانيات التي خلقتها له الجوانب الاجتماعية - الاقتصادية والسياسية والتكنيكية . ولقد بحثنا هذه المسألة في السابق . انما نودّ هنا ، على ضوء ماسبق ، التأكيد على ان المنهجية هذه هي القادرة فعلاً على طرح قضية « التراث » العربي - الاسلامي بشكل يعيد لهذا التراث حقوقه وجوانبه المشرقة الايجابية المسلوبة من قبل ممثلي الدهنية - الاقطاعية الغيبية في الحقل التاريخي ، وكذلك من قبل الأطر الضيقة الهيجينة لمثلي الجديد ، المنطلقين من الدهنية البورجوازية - الاقطاعية المتخلفة والانتقائية . ان ذلك التأكيد يقوم على كون تلك المنهجية التاريخية توحد في اثنائها الايديولوجيا بالعلم ، فتتحول بذلك الى منهجية علمية .

واخيراً ، نود القول بأن ماهدفنا اليه في هذه المقدمة هو التدليل الملح على ضرورة اعادة نظر شاملة في مجموع ماكتب حول التاريخ العربي - الاسلامي الوسيط على ضوء أحدث التطورات العلمية في حقل الدراسات الاجتماعية والتاريخية ؛ بالطبع مع الاحتفاظ ، وبالتالي مع التأكيد على المكتسبات العلمية التي حققها مؤرخونا القدماء والمحدثون في انتاجهم ، الذي كرس لدراسة ذلك التاريخ .

الملاح الإجماعية الأساسية لمجتمع الجزيرة العربية الجاهلي

تمهيد :

ان قضية الوضع الاجتماعي لمجتمع الجزيرة العربية الجاهلي (قبل الاسلام) لا تزال تثير مشكلات معقدة ومتشعبة في وجه الباحثين فيها ، عرباً كانوا أو اجانب . وفي الحقيقة ، ان هذه القضية سوف تثير في المستقبل أيضاً مثل هذه المشكلات . وبالطبع ، هذا بحد ذاته ايجابي ، حيث انه خطوة ضرورية على طريق الاسهام في استجلاء الحقيقة التاريخية على اساس علمي وطيد .

وبغض النظر عن المحاولات العديدة لدراسة تلك القضية ، التي قام ويقوم بها باحثون يأخذون بوجهات نظر لا تاريخية غيبية ، فاننا نعلم انها معقدة أيضاً ضمن العلماء الآخذين بالنظرية التاريخية المادية . ولكنها هنا ، ضمن هذا الاطار ، تبقى موضوعاً يخضع للدراسة العلمية الموضوعية ، ويمكن لها بالتالي ان تجد حلاً صحيحاً . وبالطبع ، هذا الحل يمكن تقصيه بشكل دقيق بتضافر جهود عديدة متشابهة لعلماء من مختلف الحقول . أما ما نقوم به نحن هنا ، فانه لا يعدو أن يكون محاولة لتقضي الابعاد الأساسية الأولية لهذه القضية . اننا نعلم ان هنالك الكثير من الدراسات القائمة على تصنيف التطور التاريخي الاجتماعي بشكل مراحل ، تتتابع الواحدة بعد الأخرى . فيبدأ ، على أساس ذلك ، بالمشاعية البدائية ليحبر الى الاقطاعية ، بعد المرور بالعبودية ، وهكذا ...

ان هذا التصنيف التاريخي الاجتماعي يستثير نقطتين ، يرى انهما جوهريتان ، وينبغي بالتالي أخذهما بعين الاعتبار في حال تعرضنا لمسألة تحديد الاطر الاجتماعية - الاقتصادية للمجتمع العربي - الاسلامي الوسيط عمسوما :

النقطة الأولى - « قديماً افترض المرء أن الاقطاعية قد تطورت ، فقط في حالات استثنائية ، على أساس العلاقات البطريكية (الأبوية) المتلاشية،

وان الانتقال من العبودية الى الاقطاعية هو الذي كان ، على العكس (من ذلك) ، القاعدة . اما في الواقع ، فان المسألة قد سارت تماماً بعكس ذلك . فمع نشوء الانتاج الفائض جرى تحويل جزء ضئيل فقط من المنتجين المباشرين الى عبيد (وغالباً كان هؤلاء اتباع قبائل غريبة) . أما الجمهور الواسع من السكان فقد احتفظ بالحرية الشخصية واستغل من قبل الدولة . ومع الزمن ، ارتبط هؤلاء السكان الفلاحيون بالأرض ، ودخلوا في ارتباط شخصي بالملك الكبار ، واتخذ نتاج الفلاحين الفائض شكل ريع عقاري . » (١)

النقطة الثانية - لقد تحقق التطور التاريخي والاجتماعي الواقعي بشكل جدلي . فالتشكيلة الاجتماعية - الاقتصادية الواحدة ، مثلاً الاقطاعية ، تكونت وتطورت واكتسبت أبعادها الشاملة من خلال التشكيلة السابقة ، أي من خلال نفيها - نفياً جدلياً - لهذه السابقة . هذا من طرف . أما من طرف آخر ، فأننا نجد من المهم التأكيد على أنه لم يكن نادراً أن تعيش في تاريخ المجتمعات الانسانية عدة تشكيلات اجتماعية - اقتصادية « غير متطورة » مع بعضها طوال حقبة معينة من الزمن . وعبر تفاعل حضاري شامل وبعد مسيرة من التطور ، تحققت السيطرة لواحدة من تلك التشكيلات على الاخرى ، بحيث أصبحت هذه التشكيلة العنصر الحاسم في بنية وتطور المجتمع ، وبحيث بقيت الاخرى ظواهر مرافقة في المجتمع هذا ، أي ان هذه الأخيرة ظلت تمارس تأثيراً غير حاسم في سير المجتمع .

أنا دون شك ، سوف ندرك أهمية وخطورة هاتين الملاحظتين ، حيثما نأتي على مسألة الاطر الاجتماعية - الاقتصادية العامة والحاسمة للمجتمع العربي في الحجاز قبل تكون الاسلام ، وللمجتمع العربي - الاسلامي بعد ذلك . وفي الحقيقة تبقى هذه المسألة بحاجة حقيقية ماسة الى مشاركة فعالة من علماء التاريخ والاقتصاد السياسي والسكان والاجتماع ومؤرخي الدين والفن والفلسفة والعلم .



حينما نصنف مرحلة بحثنا هذا الى « ما قبل الاسلام » و « ما بعده » ،

(١) N. F. Kolsenizki : النموذجي والخاص في المجتمعات الطبقة القديمة . نشر

في مجلة : دراسات في علم الاجتماع ، برلين العدد (١) ١٩٦٧ ، ص ٧٣ .

فاننا لا نعني بـ « الاسلام » عقيدة دينية فقط ، بل ايضاً ، وبشكل اساسي ، حركة اجتماعية جلبت معها نتائج عميقة .

وسوف لن نستطيع استيعاب المرحلة الثانية اللاحقة بمعزل عن المرحلة الاولى . وهذا يقتضي الاحاطة بالوضع الاجتماعي العربي - الجاهلي - احاطة سريعة ، ولكن واضحة .

كانت مكة الأرض التي نشأ فيها الاسلام . وقد تطورت قبل هذا الاخير ، بحيث تحولت الى أهم مدينة في الحجاز ، الذي يكون مع اليمن الجزء الغربي من الجزيرة العربية . اما اليمن فيقع في الجنوب ، والحجاز في الشمال .

ولقد أقام معظم العرب آنذاك في شبه الجزيرة العربية . ان هذه الجزيرة لها خصائص جغرافية جديرة باهتمام الباحث المتقصى . فهي تتاخم من الشرق الخليج العربي وبحر عمان ، ومن الغرب البحر الاحمر ، ومن الشمال سوريا ، ومن الجنوب المحيط الهندي .

ومن المعروف ان مناطق الجزيرة العربية ، من حيث الناحية المناخية الجغرافية ، مختلفة بشكل واضح . وهي تضم صحراوين رئيسيتين ، الاولى هي النفوذ ، وتقع في الشمال ، والثانية الاحقاف ، وتقع في الجنوب . الاولى تمتد من البحرين حتى الصحراء العراقية ، اما الثانية فتتمتد من اليمن حتى الحجاز . والحجاز نفسه غير خصب زراعياً . كجُلُوس النظر عن بعض مناطقه ، نجده متصفاً بتطرف مناخي : فهو بارد جداً في الليل ، وحار جداً في النهار .

اما في حقل النشاط التجاري ، فقد تضمنت الجزيرة العربية طريقين تجاريين رئيسيين هامين ، كلاهما انطلق من حضرموت في الجنوب . الأول امتد حتى سوريا ، مروراً بالخليج العربي ؛ والثاني حتى سوريا ، ولكن مروراً بالبحر الاحمر فمصر .

ان هذا التحديد الطبيعي - المناخي والتجاري يلقي ضوءاً على طبيعة العملية الحياتية المعيشية في الجزيرة العربية آنذاك .

اما بالنسبة الى مكة - وهذا ما يعنينا هنا بشكل رئيسي - ، فقد قامت أهميتها على وضعها الاستراتيجي جغرافياً ، وبالتالي تجارياً . فهي ، بوقوعها على الطريق التجاري الغربي الذي وصل اليمن بمصر وسوريا ، اكتسبت أهمية بالغة . وقد ازدادت هذه الأهمية اتساعاً وعمقاً ، على الاخص بعد تحول الوزن التجاري في بدايات القرن السادس الميلادي من

أيدي اليمنيين إلى أيدي الحجازيين . في ذلك العصر عانت اليمن من نزاعات ماحقة نشبت من أجلها بين الفرس والاحباش . وقد تحولت نتيجة تلك النزاعات الدامية إلى دولة فارسية عام ٥٧٦ هـ . إلا أنها (اليمن) ظلت تحكم وتدار من قبل السكان العرب الأصليين .

ولقد أثرت النتائج السيئة القاسية للنزاعات تلك بشكل سلبي عميق وملحوظ على الوضع الاجتماعي - الاقتصادي لسكان الجزيرة العربية . بيد أن ذلك - وهذا ينبغي الانتباه إليه بدقة - حمل معه مكاسب جديدة وواسعة للسلطة القبلية في مكة ، كما امتد بتأثيره الإيجابي هذا إلى بقية سكان مكة أيضاً ، وإن كان جزئياً وبسيطاً بالقياس إلى مكاسب السلطة تلك . هكذا نجد أن تحويل الحركة التجارية من الطريق الشرقي إلى الطريق الغربي كان يعني عملياً توطيد سلطة « الأرستوقراطية القبلية » المكية .

ضمن هذا الإطار الاجتماعي - الاقتصادي (سلطة الأرستوقراطية المكية المركزة في الحركة التجارية) برزت مكة في مجموع الحجاز كمركز رئيسي للتجارة الواسعة ، إلى جانب كونها مركزاً للعبادة الدينية ، لوجود الكعبة فيها التي حج العرب إليها سنوياً . أما « المدينة » فلم ينلها نصيب كبير من هذا التطور التجاري الواسع .

إننا حيث نلح على الدور الكبير الذي مارسه التجارة والراسمال التجاري في حياة مكة ، فإننا نطلق من الواقع التالي ، وهو أن مكة الموصوفة من قبل القرآن بأنها واد غير ذي زرع (١) ، لم يكن فيها ، كما هو معروف ، سوى بئر ماء واحد ، هو زمزم . وقد اقتضى واستلزم هذا أسلوباً معيناً في تحصيل وكسب الحياة المادية المعاشية للمكيين . إن هذا الوضع الاقتصادي الجغرافي ، الذي تميز بالكفاف والادفاع ، حول أنظار المكيين إلى البحث عن مصادر معاشية أخرى تحقق لهم وجودهم الاجتماعي . وفي الحقيقة ، انحصرت تلك المصادر ، بشكل رئيسي ، في الحركة التجارية . هذا يعني أن المكيين قد مارسوا التجارة أيضاً قبل تحول الحركة التجارية من الخط الشرقي إلى الغربي .

لقد خلق ذلك التحول « الاقتصادي التجاري » في مكة بنية سكانية فيها كثير من الخصائص الاجتماعية المغايرة لسابقتها ، وفي وقت أخذت تبرز

(١) انظر : القرآن ، سورة إبراهيم ، الآية ٣٦ .

فيه مكة كأهم مدينة في الجزيرة العربية . وكذلك الامر أيضاً بالنسبة الى القبائل البدوية ، التي خضعت لقحل محيطها الطبيعي والاجتماعي والتي ، بسبب ذلك ، كانت تأمل في ايجاد مخرج لها في الترحال والهجرة من منطقة الى أخرى (١) . ان هذه القبائل لقيت في مكة ، المدينة التجارية المتنامية بقوة ، كما في مدن أخرى ، مثل صنعاء في اليمن والطائف في الحجاز ، حياة اقتصادية مستقرة وثابتة نسبياً . فهذا لم يؤد فقط الى تحسين جزئي في حياة البدو المرتبطين بمكة والمدن الأخرى ، وانما أيضاً الى تكوين حضارة مدينية تجارية .

لقد زج سكان مكة في الحركة التجارية بشكل قوي . فهي شكلت بالنسبة اليهم الشريان الحياتي الرئيسي والاساسي . لقد شاركوا فيها بنشاط وبضرورة اقتصادية - اجتماعية ، بحيث تكونت لديهم ، مع الزمن ، مصلحة عامة عميقة في انجاح وتطوير هذا الشريان المعاشي . وهذا ماحثهم ، كما قلت بضرورة اقتصادية - اجتماعية ، على ان يؤمنوا سيرها دون عوائق وبشكل ثابت مستمر .

ان وضع المسألة ضمن هذا الاطار يدعونا الى بحث الاجراءات ، التي قام بها المكيون من اجل ضمان استمرار الحركة التجارية . فمن اجل حماية القوافل التجارية من الغزوات اللصوصية ، التي كان يقوم بها البدو المنتشرون على اطراف الطرق التجارية وفي هذه الطرق نفسها ، تشكل وتبلور شيئاً فشيئاً « مبدأ » معترف به من قبل الجميع قليلاً أو كثيراً ، توجب على اساسه ان تمارس التجارة ويحج إلى الأماكن الدينية المقدسة خلال أربعة أشهر من كل سنة باطمئنان وبحرية ، وعلى نطاق واسع . أما خلال الأشهر الثمانية الأخرى من السنة ، فقد سُمحت فيها الحروب والغزوات (٢) .

وهنا نود الإشارة إلى الواقع التاريخي ، وهو انه على الرغم من أن ذلك « العرف » المبدئي قد خرق واسيء إليه في احيان كثيرة ، فإنه ساهم فعلاً في تنظيم الحركة التجارية في مكة ومناطق أخرى ، وفي إعطائها القدرة

(١) لقد قام سكان الجزيرة العربية أكثر الاحيان بهجرات الى مناطق مختلفة ، وذلك بدوافع اقتصادية - مناخية . وقد تم هذا ضمن الجزيرة ، كما تم أيضاً من هذه الى بلدان أخرى ، كالهجرة الاولى الكبيرة نحو مصر وبلاد الرافدين عام ٣٥٠٠ ق.م : (انظر : ر. لاندوا ، الاسلام والعرب - بيروت ١٩٦٢ ، ص ٢٧ - ٣٠) .

(٢) انظر : ي. هل ، الحضارة العربية ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ١٥ .

على النماء والتطور .

لقد تعاطت مكة التجارة مع بيزنطة وبلاد الرافدين والهند وبلدان أخرى ، كما تعاطتها مع مدن الجزيرة العربية .

وفي هذا الإطار من المسألة نرى ضرورة التأكيد على ان تطور التجارة في مجموع الجزيرة العربية ، وعلى الأخص في مكة ، لم يقد إلى « توحيد » ، وإنما إلى (س) اقتصادي محدود ضمن سوق كانت في البدء متجانسة بشكل أولي بدائي . أما في السوقين الآخرين من الحجاز ، عكاظ وذو المجاز ، فلم تتمكن التجارة أن تتحول إلى ينبوع رئيسي ثابت للحياة الاقتصادية .

لم يكن قد نشأ في السوقين عكاظ وذو المجاز حياة اقتصادية ثابتة ومتطورة ، ما عدا ما كان يتم فيهما خلال الموسم السنوي (أربعة أشهر) من تبادل للبضائع والثقافات . كان « عكاظ » نموذجاً حياً للتمازج العقلي والحضاري بين مختلف القبائل العربية ؛ وكذلك أيضاً « ذو المجاز » . إلا أن كليهما كانا « موسمياً » . على العكس من ذلك ، استطاعت الحياة الاقتصادية الثابتة والمتطورة أن تضرب جذوراً عميقة في مكة ، ليس فقط موسمياً ، وإنما أيضاً بشكل دوري . وهذا ما أدى بها إلى أن تتحول إلى السوق الرئيسي في مجموع الجزيرة العربية (١) .

ولكن بالرغم من هذا ، فإنه لم يوجد في مكة بعد بنية اقتصادية - اجتماعية موحدة بشكل شامل ، بيد أن هذا كان في عملية صيرورته ونموه . لقد تمت في مكة ، وخصوصاً في مواسم الحج ، عملية تبادل واسعة النطاق بالبضائع والتجارب والآراء بين فئات عديدة غير متجانسة من التجار العرب والسوريين والفرس والأحباش . وفي الحقيقة ، كانت هذه اللقاءات الدورية والأخرى غير الدورية بين فئات اجتماعية متميزة في ثقافتها وبنائها الاجتماعية - الاقتصادية من العوامل الأساسية ، التي أسهمت في خلق بنية اقتصادية - اجتماعية موحدة في مكة . ولكن في الحين الذي كانت تتشكل وتنمو فيه هذه البنية وتستكمل خصائصها ، كانت عملية التمايز الاقتصادي والاجتماعي والثقافي تتسع وتكتسب شيئاً فشيئاً وتأثر عالية بين سكان مكة ومدن أخرى ، ومن ثم بين سكان مكة وهذه المدن من جهة وسكان المناطق الصحراوية القاحلة والمتعددة من جهة أخرى .

(١) قارن نفس المصدر السابق ، ص ١٧ .

ومن الضروري الإشارة الى ان تلك العملية اخذت مجراها بعلاقة وثيقة مع تكون وتطور مراكز ثقافية واقتصادية مدنية . أما الحركة التجارية برأسمالها التجاري فقد مارست في ذلك دور النابض المحرك . بين تلك المراكز احتلت مكة في القرن السادس وحتى نشوء الاسلام وما يعيده اهم مكان . ولقد رأى المؤرخ « أوليري » في كتابه « العرب قبل محمد » انه كان يوجد في مكة نفسها بيوت تجارية رومانية استخدمها الرومان للشؤون التجارية وللتجسس على احوال العرب ؛ كما كان فيها احباش ينظرون في مصالح قومهم التجارية (١) .

في الاوقات الاخيرة قبل نشوء الاسلام ، حيث تحولت النزاعات بين بيزنطة وفارس الى ظاهرة مرافقة للحياة في هاتين الدولتين ، بلغ تطور الحركة التجارية في مكة درجات عالية . فقد عرف المكيون جيداً كيف يستغلون تلك النزاعات لصالحهم ، وتكونت لديهم في هذا الحقل تجارب كثيرة . ونتيجة لذلك ارتفعت اعداد القوافل التجارية بشكل ملحوظ . فحسب معطيات تاريخية يقدمها لنا الطبري ، ضمت احدى هذه القوافل ١٥٠٠ جملاً .

وباعتبار ان « المبدأ » او « العرف » الذي تواضع عليه العرب التجار ، والذي يحرم عليهم السلب والإغارة على القوافل التجارية خلال أربعة اشهر من السنة ، قد خرق دائماً من قبل البدو ، فقد تحول اللخميون في الحيرة إلى حراس ووسطاء مأجورين بين الفرس وعرب الجزيرة ، والفسانيون في سوريا بين عرب الجزيرة وبيزنطة ؛ إلى جانب ان اللخمين والفسانيين ، كانوا أنفسهم تجاراً .

والشيء الذي يستثير نظر الباحث المؤرخ هو أنه قد تشكلت في مكة شيئاً فشيئاً وخلال العملية التجارية الضخمة « العالمية » طبقتان اجتماعيتان ، لهما مصالح ومطامح إجتماعية وإقتصادية وحقوقية متعارضة . فمن الطرف الاول برز المسيطرون على التجارة والمنظمون لها أكثر الأحيان كمرابين وأصحاب بنوك وكارستوقراطيي الكعبة الدينيين ذوي الامتيازات . وقد كان القرشيون في طليعة هؤلاء ، وبالتالي في طليعة سكان مكة والمدن العربية الأخرى على العموم . فبايديهم إستلقت السلطات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والحقوقية والدينية . وقد ساعدهم على ذلك

(١) مأخوذة من : احمد أمين ، فجر الاسلام - القاهرة ، الطبعة التاسعة ١٩٦٤ ، ص ١٣ .

كونهم القيمين على الكعبة وسدنتها . حول ذلك يخبرنا الزمخشري في « كشافه » انه كان لقريش رحلتان : واحدة في الشتاء إلى اليمن ، والاخرى في الصيف إلى الشام ، فيمتارون ويتجرون . وكانوا في رحلتهم يحققون أهدافهم التجارية باطمئنان وهدوء ، « لأنهم أهل حرم الله وولاية بيته ، فلا يتعرض لهم ، والناس غيرهم يتخطفون وينغار عليهم » .

أما من الطرف الآخر ، فقد وجد العوام الأحرار ونصف الأحرار والأرقاء (العبيد) ، الذين كان وضعهم الاجتماعي - الاقتصادي متردداً ويزداد سوءاً . وهؤلاء (أي العوام الأحرار ونصف الأحرار والأرقاء) شكلوا الطبقة الثانية في مكة والمدن الأخرى ووجدوا أنفسهم ، من خلال عملية كسب حياتهم ، متعارضين في مصالحهم مع التجار الكبار وأصحاب البنوك والمرايين .

ولقد تطلبت واستتبعت عملية توسيع وتعميق آفاق التجارة تنظيمياً أكثر دقة وإحكاماً وتمويلاً وتجهيزاً واسعاً ، ومخططين مسبقاً . ولكن هذا كان قد وضع شيئاً فشيئاً أمام القرشيين مهمة دقيقة وأساسية ، وهي القيام بإيجاد فرق دفاع وحماية مأجورة لمرافقة القوافل التجارية وتجهيز هذه الفرق بشكل جيد من حيث العتاد والمتطلبات المعاشية والخبرة بأمور الطرق التجارية . وقد تشكلت هذه الفرق ، بالدرجة الأولى ، من عوام وأرقاء مكة ومدن أخرى ، وكذلك من بدو مناطق صحراوية عديدة .

ومن يتتبع الأمر بدقة ، يجد أن العوام لم يجدوا في تلك الحال أفضل طريق للعيش وتحصيله من أن ينخرطوا في صفوف تلك الفرق الدفاعية . أما بالنسبة إلى الأرقاء ، فقد كان الأمر مختلفاً عن ذلك ؛ لأنهم كانوا مرغوبين من قبل ساداتهم التجار والمرايين الخ . . على القيام بهذه الخدمة . من هذا كله يستبين لنا أن مجموع سكان مكة ، النخبة (أي الملا) والعوام والأرقاء كانوا مرتبطين إقتصادياً بممارسة التجارة وتوسيع آفاقها .

وهنا ينبغي أن نلاحظ بأن رقيق مكة كانوا يتكاثرون بشكل مواز لعملية توسيع وتعميق الحركة التجارية فيها . وهم أنفسهم كانوا ، إلى جانب الجلود والبخور والتمور والسيوف والسجاجيد ، مادة للتجارة والمقايضة . لقد كانوا يشترون بالدرجة الأولى من أفريقياس . غير أن هذا لم يكن المصدر الوحيد للعبودية . فقد كان العرب أنفسهم

معرضين أيضاً لأن يتحولوا الى عبيد ، وذلك نتيجة غزو تشنه إحدى القبائل ضد أخرى . هذان كانا المصدرين الرئيسيين للعبودية في الحقبة الجاهلية قبل الاسلام . إلا انه الى جانب هذين المصدرين الرئيسيين ، كان هنالك طرق أخرى فرعية للاسترقاق ، مثل الخطف والحيلة والدّين واللعب(١) .

وهناك واقع هام ينبغي أخذه بعين الاعتبار لدى التعرض للواقع الاجتماعي الطبقي للمجتمع العربي الجاهلي : في حالات عديدة كان ممكناً ان تُعبر الحدود بين العبد والحر . فلقد كان كل مغلوب في حرب أو غزو ما معرضاً لأن يصبح عبداً . أما ضمن القبيلة الواحدة وفي المراحل الأولى البدائية للحركة التجارية التحضرية ، فقد كان الاسترقاق بشكل عام غير وارد وغير مألوف .

ولكن مع تعميق الحركة تلك وإدخال نتائجها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية العميقة الى الحياة القبلية ، أخذت العصبية القبلية (البطريكية) تضحل ، بحيث أصبح إسترقاق أعضاء القبيلة الواحدة ممكناً . إن الاهتمام بهذه المسألة وملاحظتها بعمق شيء أساسي من أجل استيعاب عملية التطور والتقدم الاجتماعي في العهد الجاهلي .

ولكن تحرير الرقيق كان ، من ناحية أخرى ، ممكناً ضمن ظروف معينة ، مثل الغزو والكرم أو تملك أولاد الموهوبين من أمهات أمات (أي رقيقات) . أما العبيد الذين حرروا من قبل سادتهم ، فقد كوّنوا ماسمي بالموالي . وقد بقي هؤلاء مرتبطين بأسيادهم السابقين إرتباطاً محدداً يجعلهم ، ضمن ظروف حربية أو إجتماعية أو إقتصادية ، ملزمين بتأدية واجبات معينة تلقاء سادتهم أولئك .

وهناك نقطة أخرى تلقي ضوءاً على وضع « العبودية » ضمن النساء . فالأطفال من أب حرّ وأم مسترقّة تُنظر إليهم كعبيد ، وعُوملوا كذلك(٢) . وبالرغم من أن المرأة كانت تمارس عملاً ما إلى جانب عملها المنزلي ، فإنها بقيت دون الرجل في أمور كانت تعتبر أساسية جداً ، كاقتراس غنائم الحروب مثلاً . وبشكل عام ، كانت العبودية تُعتبر لدى

(١) أنظر : منير العجلاني ، عبقرية الاسلام في مبادئ الحكم ، دمشق - بدون تاريخ إصدار ، ص ٢٣ - ٢٤ .

(٢) ولنا في شخصية الشاعر العربي منترة بن شداد ، بالرغم من الفموض التاريخي الذي يحيط بها مثلاً على ذلك .

العرب الجاهليين مرادفاً للعار والنخسة ، من أي مصدر أتت . وهي لم تكتسب الطابع التقليدي ، الذي ساد في الدولة الرومانية القديمة مثلاً ، أي أنها لم تشكل في المجتمع العربي الجاهلي نظاماً موحداً وشاملاً لمجموع قطاعات الحياة الاجتماعية ، بل ظلت ظاهرة مرتبطة بالعمل التجاري وتغلغله في المجتمع ، أكثر من ارتباطها بالأعمال الزراعية والعمرانية من سدود ومنشآت مختلفة . وهذا ما سنتعرض له فيما بعد .

بيد أنه يبقى ضرورياً أن ننوه بأن تملك العبيد والإتجار بهم بلغ لدى العرب ، قبيل الإسلام ، درجة عالية بشكل ملحوظ . ومثال عبد الله بن جدعان ، الذي إنعقد في بيته « حلف الفضول » ، هذا الحلف الذي شارك فيه بنشاط « محمد » قبل دعاوته الدينية ، إن ذلك المثال لبلوغ جداً في هذا الحقل . فلقد كان عبد الله هذا أحد كبار النخاسين (أي تجار الرقيق) . وهو قد سمي بسبب ثرائه بـ « حاسي الذهب » من قبل معاصريه .

لقد عمل العبيد والعوام ليس فقط كحماة وحراس للقوافل التجارية الخاصة بالأنثرياء المتنفذين ، بل إنهم مارسوا ، إلى جانب ذلك ، صنائع وحرفاً يدوية بدائية ، كما عملوا ، بحدود ضيقة ، كمزارعين . وقد انتشر هذا خصوصاً في الفترات التي تميزت بحركة تجارية باثرة قليلاً أو كثيراً . ونحن نستطيع أن نجد سبباً آخر لإلتفات العوام والرقيق النسبي إلى الصنائع والحرف اليدوية والزراعة البدائية في موقف العرب السادة الأنثرياء من العمل اليدوي بشكل عام ، هذا الموقف الذي تميز باحتقار العمل ذاك وبالترفع عنه .

وفي الحقيقة ، هذا الموقف من العمل اليدوي يعبر بعمق عن الوضع الاجتماعي الطبقي للتجار والمرايين السادة الأنثرياء وعن رؤاهم الدهنية (الأيديولوجية) ، ولو بأسلوب عفوي خاص . هذا الأسلوب الخاص الذي تحدد من خلال شكلين من أشكال النشاط الإنساني : التجارة والغزو . وفي الحقيقة ، إن الشكلين هذين ، اللذين مارسهما الأغنياء والأقوياء - معارضين بذلك النشاط الإنساني اليدوي - يمكن فهمهما وتقييمهما تاريخياً واجتماعياً إنطلاقاً من الخصائص الاقتصادية الطبيعية لمنطقة الجزيرة العربية آنذاك . ولقد رأينا ، فيما سبق ، أن هذه الخصائص قامت بشكل عام على الكفاف والقلة والقحل .

في المسألة هذه نقطتان ، ينبغي تفهمهما لدى طرح العلاقة بين العمل اليدوي والعمل التجاري و « الحربي » في موقف السادة العرب الأنثرياء :

النقطة الأولى تقوم على معارضة اجتماعية طبقية بين السادة من طرف والعوام والرقيق من طرف آخر ، وبالتالي على معارضة « إيديولوجية » موقفية بين الممارسة اليدوية « العبودية » وبين الممارسة الأخرى التجارية والحربية « الحرة » . أما النقطة الثانية ، فتقوم على أن المعارضة بين الموقفين « اليدوي » و « التجاري الحربي أو الغزوي » من العالم الاجتماعي قد تحددت أطرها وآفاقها من خلال الامكانيات الاقتصادية - الاجتماعية القائمة .

هذا يعني أننا حين نقارن ذلك بالقضية نفسها لدى السادة والعبيد في الدولة اليونانية والأخرى الرومانية القديمتين ، فإننا سوف نلاحظ أن المشكلة قد اكتسبت في المجتمع في تلك الدولتين شكل تعارض عميق بين الفعالية « الفكرية الفلسفية » والفعالية « اليدوية المباشرة » .

وبالطبع ، هذا الشكل الأخير من التعارض يُعتبر ، تاريخياً ، مرحلة عليا متطورة من مراحل تقسيم العمل الإنساني إلى يدوي وفكري .

إن ذلك يعني أن معارضة العمل اليدوي المباشر بالعمل التجاري الغزوي في الحقبة العربية الجاهلية الانتقالية يمكن النظر إليها من حيث كونها أدنى تطوراً مما هو الحال في المجتمع اليوناني والروماني القديم . ولكن حتى في الفترات اللاحقة من توطد المجتمع العربي ، حيث بلغ التطور الاجتماعي والاقتصادي والفكري هنا شأواً عالياً ، لم تنشأ تلك الهوة السحيقة بين العمل اليدوي والآخر الفكري . وهذا يتعلق بطبيعة العبودية (الرقيق) التي وجدت آنذاك . وسوف نتعرض لهذه الظاهرة لاحقاً في هذا الكتاب .

إن العرب قبل الإسلام لم يستطيعوا ممارسة الزراعة والصنائع اليدوية إلا ضمن حدود معينة وضيقة . وبالطبع ، كان هذا يعود إلى الشروط الجغرافية المناخية القاسية المحيطة بهم . فنحن إن أخذنا بعين الاعتبار والتبصر التقاليد الاجتماعية والأخلاقية الخاصة بالفروسية والعنجهية البطركية المسيطرة آنذاك ، والتي ساهمت في تكوين ذلك الموقف الازدرائي والاحتقاري من الزراعة والصناعة ، فإن المحيط الجغرافي المناخي قد مارس بدوره في هذا المضمار دوراً ملحوظاً ، لا يمكن للباحث غرض النظر عنه .

هذه الظاهرة كان ابن خلدون قد لاحظها في حينه ، بيد أنه عممها على غير حق . فهو كتب « بأن العرب أكثر بعداً عن الصنائع من جميع الناس .

والسبب هو أنهم غارقون في البداوة وبأنهم أكثر بعداً عن العمران الحضاري . « (١)

فالعرب الجاهليون الأحرار « إختصوا » إذن بشكل عام بالتجارة والغزو . فعلى طريق التجارة مع دول حضارية سادت آنذاك ، كما على طريق الصنائع اليدوية المتواضعة إستطاعوا سدّ حاجاتهم الحياتية الأولية .
والآن إذا حاولنا تقصي قضيتنا المطروحة بشكل موجز ، هذه القضية القائمة على تحديد الملامح الأساسية للمجتمع العربي الجاهلي المديني في الحجاز ، فانه من الضروري والجوهري إبراز مايلي :

إن المجتمع المديني ذاك تكون خلال عملية تاريخية تتوجت بتبلور طبقتين إجتماعيتين رئيسيتين ، هما طبقة التجار والمرايين في الطرف الأول ، وطبقة العبيد والعوام الأحرار ونصف الأحرار في الطرف الآخر . بيد أن علاقات الانتاج البطريكية (الأبوية البدائية) للقبائل المختلفة لا زالت حتى آنذاك موجودة . أما أنها كانت تجتاز عملية اضمحلال ، فهذا من الضروري التأكيد عليه .

ان التجارة والربا لم يظهرأ ويتطورا ك « بديل » لهذه العلاقات الانتاجية البطريكية (التي قامت على الاقتصاد الطبيعي ، أي على تربية المواشي ومنتجاتها الالبانية الأولية ، كما على الغزو) ، وإنما الى جانبها . ولقد بلغ الراسمال الربوي - التجاري في مكة في مطلع القرن السابع درجات عالية في تطوره . فهنا ، أي في مكة ، كان يطلب المرابون من مدينيهم فائدة بنسبة ٤٠٪ الى ١٠٠٪ ، كما يخبرنا لامانس (٢) . وبغض النظر عن الجانب اللانساني في الواقع ذاك ، فانه استطيع ، على أساس الاستغلال الربوي المتزايد هناك ، تكوين وضع اقتصادي معين متماسك وثابت الى حد كبير .

وقد ساهم في هذا السبيل الاقتصاد النقدي الآخذ بالنمو . فهذا الاقتصاد جلب معه ، بشكل أولي ، دورة اقتصادية ثابتة . كذلك نلاحظ ان حرفاً مختلفة نشأت واكتسبت ، بالرغم من بدائيتها ، واقعاً اقتصادياً متميزاً في حياة المجتمع الانتقالي العامة . وعبر تلك التحولات الاقتصادية - الاجتماعية ، كانت مكة تبرز أكثر فأكثر كمركز اقتصادي استراتيجي لمنطقة الجزيرة العربية .

(١) ابن خلدون : المقدمة - القاهرة ، دون تاريخ اصدار ، ص ٤٠٤ .

(٢) النظر في هذا : بندلي جولي ، من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام .

أما الأرقاء (العبيد) فقد برزوا من حيث هم « ناس » ، وذلك على العكس مما كان سائداً في الدولة الرومانية القديمة . فهنا ، في هذه الدولة ، كان ينظر الى العبد من حيث هو « شيء » ، كما يخضع لشتى الاضطهادات من قبل سيده ، ومن ضمن ذلك القتل الجسدي . ان الرقبة ، المك ،

والجاهلي على العموم ، تمتع فعلاً بحق أساسي ، هو حق الحياة . ولا شك انه قد قامت علاقة معينة تحددت على أساسها تبعية الرقيق بسيده . أما طابع هذه التبعية فقد قام على أساس « تملك » السيد لرقيقه . هذا يعني ، بقول آخر ، ان حق « تصرف » السيد بالرقيق لم يتعد نطاق استخدامه في الشؤون التجارية والحربية والزراعية والمنزلية .

أما فيما يتعلق بظاهرة وأد البنات الوليدات لدى بعض القبائل ، مثل قبيلة تميم ، فإن المسألة طرحت نفسها أيضاً على أساس اجتماعي طبقي . ففي الوقت الذي تمت فيه تلك الظاهرة نتيجة عوامل مادية و « أخلاقية » ، فإنها أصابت البنات من أبوين حريين أو عبيدين على حد سواء . أما اولاد كلا الفئتين من الآباء فإنهم لم يخضعوا لتأثيرات تلك الظاهرة .

في هذه المسألة نجد نوعاً من التساوي بين العبد والسيد . ولا شك ان الباحث في تاريخ الحقبة العربية الجاهلية لا يمكنه إلا ان يأخذ هذا الواقع التاريخي ذا الدلالة العميقة بعين الاعتبار .

ونحن إن وضعنا هذا الواقع أمام أعيننا ، الذي وجد فيه الرقيق خلال أوقات السلم والحرب ، قاننا نستطيع سحب النتيجة الهامة ، وهي انه قد تكون في المجتمع العربي الجاهلي قبيل نشوء الاسلام وضع ~~مخلخل~~ من الناحية الاجتماعية الطبقية ، حمل في اثنائه امكانية التداخل والفرز الطبقي ضمن الرقيق والسادة على حد سواء .

ولقد تكاثرت جمهور العوام بشكل مواز لعملية التمايز الاجتماعي -الاقتصادي ضمن القبيلة الواحدة وعدة قبائل . ان هذه العملية اكتسبت مضامينها من خلال الحركة التجارية الآخذة في العمق والاتساع والشمول مع الشرق والغرب ، ومن خلال تطور وسيطرة الرأسمال الربوي في مجموع الحياة الاقتصادية للمجتمع العربي الجاهلي . هكذا يظهر واضحاً ان الاغتناء الاقتصادي لطبقة التجار المرابين أو المرابين التجار ، والافتقار لطبقة الرقيق والعوام الأحرار ونصف الأحرار قد تحققا على هذه الطريق الوطيدة .

التجارة ذات الحجوم المتسعة أكثر فأكثر ، والربا ذو النسب العالية في الفائدة .

لقد شكل العوام ، خصوصاً في بدايات القرن السابع أحد المصادر الأساسية للاسترقاق في المدن . وهذا الواقع اكتسب في مكة وتأثر عالية في تطوره . فهم ، أي العوام ، كانوا أكثر الأحيان معرضين لأقسى وأشرس معاملة من قبل المرابين ، وذلك في حال عدم تمكنهم أرجاع المبالغ المستحقة لأولئك في الوقت المحدد . وقد تحدث القرآن بوضوح حول هذه المسألة ، مثلاً كما جاء في سورة البقرة — الآية ٢٧٤ ، وسورة النور — الآية ٣٢ .

ان واحداً من « المخرج » لتلك الجماهير اليائسة المضطهدة من أوضاعها، الآخذ سوؤها في الازدياد والعنف ، كان — أي المخرج — قد كمن في أذعانهم لأن يتحولوا من « أحرار » الى أرقاء تابعين لدائنيهم المرابين . وقد تطورت عبودية « الدين » هذه في بدايات القرن السابع ، بحيث أنها شكلت ، كما أسلفنا ، مصدراً أساسياً من المصادر الرئيسية للعبودية في الحقبة العربية الجاهلية . ومن سياق المسألة في طرحها هنا ، يستبين ان عبودية « الدين » تلك ساهمت بشكل عميق وفعال في مد جسور متحركة ومتداخلة بين العوام والعبيد (الرقيق) .

وهنا نجد أنفسنا امام نتيجة هامة حتى الحد الأقصى ، تمس قضية العوامل العميقة الدفينة التي مهدت لنشوء الحركة الإسلامية بجانبها الاجتماعي الهام : على أساس تلك الرابطة الوثيقة والشروط وجودها بشكل موضوعي بين العبيد (الرقيق) والعوام الأحرار ونصف الأحرار ، تكونت وتبلورت الدوافع الاجتماعية البعيدة للحركة تلك .

لقد وجد ضمن العوام — والأرقاء أيضاً — صناع وعمال يدويون . وبالعلاقة مع اتساع وتعميق النشاط التجاري حققت الصناعة اليدوية تقدماً معيناً . وكانت الحاجات الحياتية للعرب الجاهليين مشروطة بالوضع المناخي الجغرافي . لقد صنعوا ثيابهم من وبر الجمال والماعز ، وكذلك من جلود حيوانات مختلفة . أما بيوتهم فقد انشأوها من الحجارة والنخيل . وكذلك الحال فيما يخص « آلهتهم » ، التي صنعوها أكثر الأحيان من النخيل . وهناك واقع يستدعي الاهتمام ، وذلك بالعلاقة مع مسألة وحدة الفكر بالواقع ، وهو ان « طبيب الحيوانات » عندهم قد وُجد في شخصه الحداد والبيطري النظري . ولقد ساهم هذا بشكل ملحوظ في رعاية الحركة التجارية (١) .

(١) انظر : ي . هل ، الحضارة العربية ، نفس المعطيات السابقة ، ص ١٧ .

ولكن بشكل عام يمكن القول بأن الأعمال والصناعات اليدوية لم تستطع ان تبلغ في مكة والمدينة درجة عليا وشاملة من التطور . الا انها حققت بشكل أولي حاجات ومطالب السكان والتجار ، وخصوصاً في اوقات الاسواق والبازارات التجارية المنتظمة والدورية . ذلك لأن هذا تطلب من السكان الاصليين الاثرياء تهيئة مسبقة مركزة وكاملة الى حد كبير . هذا يعني ، من طرف آخر ، أن المكتسبات البسيطة ، التي تمت هناك في حقل الصناعات اليدوية ، ارتبطت بشكل وثيق مع تطور وتوطد الاقتصاد النقدي - التجاري .

وهنا يبرز سؤال جدي يطرح نفسه بالعلاقة مع التحليلات السابقة ، وهو : هل وجدت في الحجاز الجاهلي مسألة ملحة خاصة بـ « الأرض » ؟

ان تقصي المسألة بأبعادها الاجتماعية والتاريخية يمنحنا القناعة بالاجابة السلبية على ذلك التساؤل . فالعلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية هناك وجدت وتطورت ، على الأقل حتى نشوء الاسلام وتوطيد مواقع « النبي » في المدينة ، ضمن قبائل منفصلة عن بعضها بحدود ، ومتصارعة أكثر الأحيان .

ولقد أدى ادخال التجارة والربا في الحياة الاقتصادية - الاجتماعية لتلك القبائل الى تكوين حلقات تخلخل ضمن نظامها الاجتماعي البطريركي ، وان لم يستطع ازالته . عدا ذلك ينبغي اخذ الواقع التالي بعين الاعتبار ، وهو أن تآثر تلك القبائل بالعلاقات الاجتماعية التجارية - الربوية الجديدة كان مختلفاً ومتمايزاً من واحدة لآخرى . ففي مكة نفسها ، الترسانة الرئيسية والهامة للتجارة والربا في الجزيرة العربية منذ بدايات القرن السادس ، تمركزت شريانات النشاط التجاري - الربوي ذاك في أيدي قبيلة القرشيين .

هذا يبري أنه من الضروري النظر الى قضية « الأرض » في الحقبة العربية الجاهلية انطلاقاً من معطين تاريخيين ، الأول بالنسبة الى القبيلة الواحدة ، والثاني بالنسبة الى عدة قبائل .

فضمن القبيلة الواحدة كانت « الأرض » شكلياً ملكية عامة لمجموع اعضاء القبيلة . ولكن في الحقيقة ، كانت هذه الأرض (الحديث يدور هنا حول الأرض المتضمنة بعض المراعي أو بئر ماء ، وبالتالي القابلة للاخضاب نسبياً) ضمن امتيازات رئيس القبيلة أو الاعضاء الاقوياء فيها ، وان لم يكن هذا مقررأ بشكل رسمي حقوقي .

وقد برز هذا المعيار نفسه بالنسبة الى الأرض وحيازتها من قبل عدة قبائل . إن تجوال ورحيل قبيلة ما إلى مناطق عديدة ، وغزوات القنص من قبل قبيلة ضد أخرى أو ضد عدة قبائل ، كان يتم ، بالخط الاول ، بدوافع اقتصادية معاشية ، وإن كان هذا قد تم مرافقاً بعوامل أخرى أو ملتبساً إياها ، مثل الشجاعة والتبجح بالأصول القبلية . هنا يمكننا التذكير بالعداوة - التي أخذت أكثر الأحيان شكلاً حربياً - بين الأوس والخزرج في المدينة ، أو بين هاتين القبيلتين من طرف والقرشيين في مكة من طرف آخر . بيد أنه لا تنتج عن ذلك النتيجة القائلة بقيام علاقات ملكية زراعية هنالك بالمعنى الواسع ، وبأن ذلك الإقتتال بين القبائل يعبر عن وجود مثل تلك العلاقات . ذلك لأن هذا يقتضي وجود مساحات أرض خصبة وكافية وثابتة نسبياً في خصوبتها ، ويقتضي بالتالي وجود إمكانيات سقاية ثابتة . أي أن وجود درجة معينة من التطور الزراعي شيء ضروري من أجل نشوء علاقات تملك خاص بالأرض . وهذا الذي عددناه ما كان موجوداً . بذلك نجد أن ما يميز العلاقات الانتاجية الاجتماعية في الحجاز الجاهلي هو فقدان ملكية الأرض بالمعنى الدقيق المميز .

لقد كتب فريدريك إنجلز عام ١٨٥٣ رسالة الى كارل ماركس جاء فيها : « إن غياب ملكية الأرض هو في الحقيقة مفتاح لمجموع الشرق . وهنا يكمن التاريخ السياسي والديني . ولكن من أين أتى كون الشرقيين لم يتوصلوا إلى ملكية الأرض ، أو على الأقل إلى الملكية القطاعية ؟ إنني أعتقد بأن هذا قد وُجد بشكل رئيسي نتيجة المناخ ، مرتبطاً بعلاقات الأرض ، وخصوصاً في المناطق الصحراوية الواسعة التي امتدت من الصحراء عبر المنطقة العربية وفارس والهند والتتر حتى الخليج الآسيوي الكبير . أما السقاية الاصطناعية فقد كانت هنا الشرط الأول للزراعة (١) » .

على هذا يمكننا أن نلاحظ بأن ما أرجعه إنجلز إلى المناخ يبدأ بالتوقف مع نشوء وتطور الحركة الاسلامية . فخلال عملية إجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية طويلة ، كانت قمتها الاولى نشوء الحركة تلك ، تكونت شيئاً فشيئاً بنية متماسكة الى حدود ضرورية من القبائل العربية ، وخصوصاً من تلك القبائل التي كانت أقرب الى الحياة المدنية الحضارية .

أما مع بداية الحروب العربية الاسلامية في الحقبة اللاحقة ، فقد تغيرت صورة المسألة . ذلك لأن ملكية الأرض أخذت هناك باحتلال مكان واضح

(١) ماركس - إنجلز : حول الدين ، دار نشر ديتش ، برلين ١٩٥٨ ، ص ١٠٠ .

ضمن الحياة الاقتصادية . هذا يظهر إذن بأنه لم تنشأ في الحجاز الجاهلي بعد علاقات إنتاجية قائمة على ملكية الأرض . بل أكثر من ذلك ، لم تكون هناك نخبة إقطاعية وجمهور فلاحين أقنان .

لقد تكونت وترعرعت الحركة الإسلامية في فترة زمنية بلغ فيها الراسمال التجاري - الربوي درجات مرموقة ، وتضاعف فيها بالتالي إستغلال الأرقاء والعوام . وقد أصاب هذا الاستغلال أعضاء القبيلة الواحدة من قبيل أغنيائها وأغنياء قبائل أخرى على حد سواء . فالعصر « الذهبي » ، الذي سيطرت فيه قرابة الدم والعصبية والذي كان فيه الواحد من أجل الكل والكل من أجل الواحد ضمن القبيلة الواحدة ، هذا العصر قد تلاشى بدون رجعة .

أما الوضع الجديد الآخذ في التكون والنمو والقائم على إضطهاد واستغلال عنيين لك « أخوة » و « الأقرباء » الضعفاء الفقراء ، فإنه لم يتح الفرصة للشاعر كي يتغنى بوحدة وتلاحم قبيلته كلها ، كما كان الأمر سابقاً :

لايسألون أخاهم حين يسألهم في النائبات على ما قال برهانا

على العكس من ذلك، نجد شعراء هذه الحقبة الجديدة والتميزة بالاضطهاد والإستغلال (وهم، أي الشعراء، إيديولوجيو قبائلهم) ينظمون حول قضايا جديدة بكثير من التعاسة والشكوى والإحتجاج . فالأعشى ، شاعر تلك الفترة ، يقول مخاطباً ذوي الإمتيازات الاجتماعية والاقتصادية في مكة :

تنامون في الظل ملأى بطونكم وجاراتكن يبتن غواثيا

من ذلك كله يمكن صياغة النتيجة الأساسية التالية : **كمخرج عفوي وضروري** لجمهور الأرقاء والعوام الحجازي المضطهد والمستثمر - وخصوصاً في مكة والمدينة - وكتعبير عن الطموح الإجتماعي المشروع تاريخياً لخلق شعب موحد في الحقول الإجتماعية والاقتصادية والثقافية وبهيد عن الحروب المبيدة بين القبائل العديدة ، نشأت وتكونت الملامح الأولية الأساسية للحركة الإسلامية في القرن السابع .

المسار التاريخي للمجتمع العربي الإسلامي

الإسلام وتحول البنية الاجتماعية الاقتصادية والسياسية للمجتمع العربي الجديد

حسب روايات اسلامية^(١) وغير اسلامية ، كان الوضع في مكة وفي مدن عربية أخرى قبل بدايات الحركة الاسلامية مهياً لاستقبال « مخلص » جديد للناس من البؤس الاجتماعي والاقتتال القبلي و « الاوهام » الوثنية . فلدى مجموع القبائل العربية ، التي دخلت حياتها المسيحية قليلاً او كثيراً ، توقع المرء مثل هذا « المرسل » . وفي هذا الحقل اضفى المرء على هذا التوقع شغافاً اسطورياً متعدد الالوان والاشكال .

وكذلك من الوجهة التاريخية كان وارداً أن يتكون ويتطور الامل والطموح في مجيء مثل ذلك المحرر للقبائل المتشتتة المتصارعة . بل أكثر من ذلك ، اذا وجد ذلك التوقع وذلك الطموح فعلاً ، فانهما برهان واضح على توتر الوضع الاجتماعي - الاقتصادي والسياسي والفكري في مكة ومدن عربية أخرى في مطلع القرن السابع ، هذا التوتر الذي أدى الى تواجد العوامل الضرورية لنشوء وتبلور الحركة الاسلامية التي لعبت دوراً كبيراً في تفسير وتحويل البنى الاجتماعية والاقتصادية والقيمية للمجتمع العربي الجاهلي .

لقد تعرف « النبي محمد » (عاش من ٥٧٠ حتى ٦٣٢) على طبقة التجار والمرايين وعلى طبقة الرقيق والعوام الاحرار ونصف الاحرار عن كئيب . فقد كان له قبل نشاطيته الاسلامية اربعين سنة من العمر ، قضاها الى حد كبير في قلب الأحداث المكية .

ان النضال الطبقي الاجتماعي بين الاغنياء والمفقيرين ضمن القرشيين ، الذين كان « الرسول » منهم - هذا النضال الذي تقنع بقناع العنجهية

(١) انظر مثلاً : محمد الخضري ، محاضرات حول تاريخ الامم الاسلامية - القاهرة

١٩٢٦ ، ص ٨٦ - ٨٧ و ٨٩ .

العصبية القبلية وبكثير من العادات والتقاليد البطريكية - والنضال بين مجموع سكان مكة والمدن العربية الأخرى ، وكذلك المسار الحياتي المأساوي « للرسول » نفسه ، ان هذا كله كون العوامل الحاسمة (طبعاً هنالك أسباب أخرى) لنشوء الحركة الإسلامية . لقد كانت هذه الحركة في نشوئها وتبلورها تعبيراً عن البؤس الاجتماعي العميق لأكثرية سكان الحجاز - وخصوصاً مكة - ، وفي نفس الوقت احتجاجاً ضد هذا البؤس ، وبالتالي « سلاحاً » لتجاوزه .

ان الحركة الإسلامية قد عبرت في تلك الحقبة من وجودها عن البؤس المكثف لجماهير العوام الأحرار ونصف الأحرار والرقائق المكيين وغير المكيين على طريقتها الخاصة . ان هذه الطريقة الخاصة في التعبير ، التي يحتل فيها الانسلاخ عن العالم المادي (الطبيعي والاجتماعي) مكاناً رئيسياً ، لاتعني أبداً نفي النتائج العملية المباشرة والايجابية التي انعكست في حياة المعدمين ، بل تعني نفي وجود ارتباط مباشر بينها وبين المعطيات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي كمنّت وراء تكونها وتطورها . فهي - أي تلك الطريقة الخاصة في تمثيل الأمور واستيعابها - ترجع التحول الكبير الذي حدث في بنى المجتمع العربي الجاهلي الى عوامل خارقة ومفارقة . فالحظة التاريخية تفقد هنا كيانها من خلال ذلك التصور التاريخي .

وانه من الخطورة الجدية أن لا يستطيع الباحث تقصي وكشف تلك اللحظة التاريخية ، حيث يقع في متاهات المثالية الفلسفية الموضوعية أو في متاهات التصورات الغيبية . ولكن في حال انفلات الخط الأساسي للمسار التاريخي الحقيقي من يد الباحث في تاريخ الأديان والحضارات أو تعقد هذا الأمر بالنسبة اليه ، يمكن ضبط هذا الخط ، بشكل مباشر ومتوسط ، من خلال النتائج العملية التي اتكأت عليها تلك الأديان والحضارات .

والحركة الإسلامية ، كأي حركة دينية أخرى ، تضمنت - بالطبع ضمن اطر خاصة ونوعية - ذلك التقاطب بين كونها مرتبطة بنتائج عميقة في المجال الاجتماعي العملي وكونها تلحق المجتمع والطبيعة والإنسان بمحرك أو بمحركات مفارقة وخارقة . وهذا التقاطب كان شيئاً طبيعياً ، كما كان في حينه ، ايضاً ، نشوء الفلسفة المثالية الموضوعية (القائلة بوجود وعي أو عقل لا انساني يوجد ويحرك العالم المادي) على يد أفلاطون شيئاً طبيعياً ، نتيجة لتقسيم العمل الانساني الى جانب فكري وآخر يدوي في المجتمع الحضاري - الطبقي . فالإنسان في هذا المجتمع يحقق أشياء ومكتسبات

هامة جداً على المستوى الاجتماعي - العملي . ولكنه - ضمن الأطر النظرية للمثالية الفلسفية الموضوعية وضمن التصور اللاهوتي الغيبي - يجتزى هذه الأشياء ، التي حققها ، من إطارها الاجتماعي الحي ، ويلحقها بفعل مفارق خارق .

ان روجيه جارودي ، في محاضرة له حول « الاشتراكية والاسلام » ، لايعطي هذه المسألة حقها من التقصي والاهتمام . فهو ، في الوقت الذي يلح فيه على أهمية دراسة القضايا الدينية من خلال رؤية تاريخية جدلية، نراه عاجزاً عن تمثل تلك اللحظة **اللاتاريخية** في التصور الديني للعالم للطبيعي والاجتماعي الانساني . لقد كتب في محاضرته تلك : « وحين عالج ماركس وانجلز - بعد ان أصبحا على وعي تام بمذهبهما - المشكلة الدينية من جديد، فان هذه الجدلية القائمة في نص عام ١٨٤٣ (أي في كتاب « مقدمة لنقد فلسفة القانون عند هيجل ») اتسعت ولم يعودا يتكلمان عن الدين عامة على طريقة فيورباخ الانثروبولوجية ، وأوضح تحليلهما التاريخي ان المعتقدات الدينية تعبر على وجه التحديد (كانعكاس وكاحتجاج) عن ظروف تاريخية مختلفة ، يمكن أن تلعب دوراً متبايناً في العصور المتباينة ، وأنه ليس من العلمية أن نضفي على كل عصور التاريخ نفس المفهوم الميتافيزيقي الذي أسماه فيورباخ « جوهر الدين » (١) .

لاشك انه من الضروري التمسك بـ « تاريخية » البنى الاجتماعية والفكرية والدينية ، أي التأكيد على أن هذه البنى وجدت نتيجة تطور تاريخي سابق وطويل كثيراً أو قليلاً ؛ ولكن من الضروري أيضاً الالتحاق على ان « التصورات » الدينية تتضمن شرطياً **محاولة الانسلاخ** من التاريخ العياني الشخص ، بحيث تنشأ ، عبر ذلك ، هوة بين ما يعتقد المرء وبين ما يفعله . فما يمكن أن يكون ، في هذا الإطار ، ايجابياً ، يكمن - بشكل جوهري - في الممارسة العملية التي يحققها المرء الأخذ بتلك التصورات . أما هذه التصورات نفسها ، فانها طريق معبد لانسلاخ الانسان عن اللحظة التاريخية العيانية التي يعيشها .

ان **الانفصام** في شخصية الانسان في المجتمعات الطبقيّة لا يبرز فقط عبر تصوراته الدينية وسلوكه العملي الضروري ، وانما أيضاً في آرائه تلك الفلسفية والجمالية والاخلاقية والاجتماعية الخ... فهو يفكر أو يعتقد

(١) روجيه جارودي : الاشتراكية والاسلام - محاضرة نشرتها مجلة « الطليعة » المصرية ، يناير ١٩٧٠ ، ص ١٤٦ .

بشيء ما على نحو ، ويمارس وجوده الحقيقي - العملي على نحو آخر .
بالطبع ، ينبغي أن يتجسد في شخصيته حد ما من التطابق بين الفكر والعمل .
ولكنه خلال عمله (ممارسته) يحقق ، بالرغم من عدم وجود تجانس أو
انسجام شامل بين ذينك القطبين ، عملية تغيير وتحويل العالم وأنسنته .
أما اللحظة الواعية الضرورية والمراقبة لهذه العملية ، فإنها تتكون بالتعارض
مع التصورات الغيبية والمثالية الموضوعية والمثالية الذاتية .

ضمن هذه الاحاطة بالمسألة نجد أن تاريخ المجتمع الانساني الطبقي
لا يقوم على معطيات التصورات تلك ولا يمكن فهمه انطلاقاً منها ، وإنما على
العلاقات الاجتماعية وانعكاساتها الفكرية الإيجابية . ذلك لأن التصورات
هذه ، أولاً ، تفهم أصلاً عبر تلك العلاقات وانعكاساتها ، ولأنها ، ثانياً ،
نشأت ضمن علاقة وثيقة مع عملية تشويه الواقع الحقيقي المادي بالنظريه
ك « تخرج » وهمي لشيء « غير » وهمي .

ونحن حيث نأخذ بعين الاعتبار واقع عدم وجود حدود لا تعبر بين العوام
والرقيق ، هذا الواقع الذي خلق ، كما تبين لنا سابقاً ، رابطة تضامن
موضوعية عميقة بين هؤلاء ، وحين نأخذ بالتالي بعين الاعتبار واقع الاحتجاج
الواعي قليلاً أو كثيراً من قبل أولئك المضطهدين (العوام والرقيق) ضد
مضطهديهم ، أي ضد « الذي جمع ماله وعدده ، يحسب أن ماله أخذه » (١) ،
أقول ، أن أخذنا بعين الاعتبار ذلك كله يؤدي بنا الى التأكيد على ضرورة
كشف العلاقة بين ذلك الواقع وبين الحركة الإسلامية التي ابتدأت عام ٦١٠
وبقيت سرية مدى ثلاث سنوات ، تحول بعدها « الرسول » الى داعية علني .
وعلى ضوء المعطيات التاريخية والاجتماعية لفترة نشوء وتبلور الحركة
الإسلامية نجد العلاقة تلك قائمة على كون الحركة هذه تعبيراً مباشراً عن
الواقع المزدوج ذاك ، أي التضامن بين العوام والرقيق من جهة ، واحتجاج
هؤلاء ضد واقعهم البائس ومحاولة تجاوزه من جهة أخرى .

ان نزاع « الرسول » مع الملائكة حمل ، بشكل متوسط وغير مباشر ،
مضموناً سياسياً واجتماعياً - اقتصادياً وفكرياً . وقد استطاع (أي
الرسول) كسب العبيد والعوام من خلال قدرته على اقناعهم المباشر بضرورة
التمرد على « الملائكة » الظالمين ومن خلال فكرة « وحدانية الاله » ، التي
تستوجب وجود رعية واحدة ، « متساوية » أمام الله . ولقد اتضح ذلك الطابع

(١) القرآن ، سورة الهزلة ، آية ٢ و ٣ .

الاجتماعي - الاقتصادي والسياسي للنزاع بين العوام والرقيق من طرف والملا من طرف آخر من خلال ممارسة « الدعوة » المحمدية . كما أن عملية التمايز الاجتماعي بين الطبقات المكية اخذت ، في التطور اللاحق ، تتسع وتكتسب طابعاً مسلحاً انفجارياً .

ان التجار الكبار والمرابين في مكة - وقد كان ابو جهل ، عم الرسول ، واحداً منهم - أخذوا يحسون بعمق متزايد وبحقد متأجج خطر الرسول واتباعه ضد مصالحهم الاجتماعية - الاقتصادية والسياسية والحقوقية والدينية . وفي الحقيقة ، أن هذا « الخطر » قهم ويتفهم من قبل الباحثين المثاليين الفلاسفيين والفيسيبيين من خلال المظهر فقط ، الذي اتخذته آنذاك ، اي من خلال الشكل الديني . وهم يرجعون ذلك الخطر الى نشوء فكرة « الاله الواحد » . ذلك لأن « الرسول » قد طرح على المكيين فكرة « الاله الواحد » بالتعارض مع « تعدد الالهة » ، الذي ساد آنذاك ؛ بالرغم من أن « الله » كان احد الالهة ، الذين اخذ المكيون بهم قبل دعوة الرسول (١) .

بيد أننا اذا استنطقنا المسألة علمياً عبر واقعها الاجتماعي والتاريخي العياني ، فاننا سوف نصل الى اليقين بأن الملا المكي كافح ورفض فكرة « الاله الواحد » ورأى فيها خطراً محدقاً لانه انطلق ، بالدرجة الاولى ، من الدفاع عن مصالحه وامتيازاته الاجتماعية والمالية . فلقد وجد في مكة فعلاً عدة مئات من الالهة والاصنام الصغيرة كانت تدر عليهم ، بشكل دوري منتظم ، اموالاً طائلة من قبل العرب الوافدين الى مكة لزيارة هذه الالهة والاصنام وتقديم الصلوات والهدايا والقرايين لها . ان هذا يكشف بوضوح عن الطابع الاجتماعي الايجابي للحركة الاسلامية ، ويرى ، من ثم ، المضمون الحقيقي ، ولكن غير المباشر ، للكفاح ضدها ووضع العراقيل الجسيمة على طريقها من قبل سادة الكعبة المتنفلين . ومما له حقا في هذا المجال دلالة واضحة عميقة هو تسمية « الملا » المكي انصار « الرسول » بالادنين والمحقرين والاراذل : « فقال الملا الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم اراذلنا .. » (٢) .

ان نشاط « الرسول » الدعائي يمكن النظر اليه من خلال فترتين رئيسيتين ، الاولى تبدأ مع دعوته السرية في عام ٦١٠ في مكة ، وتمتد حتى « صلح الحديبية » عام ٦٢٨ . أما الفترة الثانية فانها تبدأ مع هذا « الصلح »

(١) انظر : ر. لاندو ، الاسلام والعرب ، نفس المعطيات السابقة ، ص ١٦ .

(٢) القرآن : سورة هود ، آية ٢٧ .

وتنتهي بوفاة « الرسول » عام ٦٣٢ . وبشكل عام يمكن القول بأن الفترة الأولى تتميز وتحدد بكفاح « الرسول » وأنصاره « الأراذل » ضد الملا المكي بشكل حازم وعنيف . كذلك نجد المسلمين (أي المحمديين) يقودون - وبطليعتهم الرسول - نزاعات ونضالات سلبية ومسلحة ، في آن واحد ، ضد الملا المكي .

وفي الحقيقة ، منذ هجرة « الرسول » وأصحابه المكيين الى المدينة - يثرب - عام ٦٢٢ نجد ميزان القوى قد أخذ بالتغير لصالحهم ، وإن لم يكن هذا التغير عميقاً بعد . إلا أنه مع تحقيق انكسار الملا المكي التجاري - الربوي في معركة « بدر » عام ٦٢٤ ، استطاعت الحركة الإسلامية أن تشق طريقاً واسعاً الى قلوب « الفقراء والمساكين ... » . فخلال وبعد هذه المعركة اتسعت مبادرة جماهير الأرقاء والعوام الأحرار ونصف الأحرار لسحق الملا المكي ، الذي أحسّ بعمق المخاطر الحقيقية « العملية » للحركة الإسلامية .

لقد رأى هذا الملا (التجار والمرابون) في مجيء تلك الجماهير المسحوقة الى السلطة الاجتماعية - الاقتصادية والسياسية « خرقاً للقوانين الطبيعية » وايداناً باضمحلال « العالم » (ولكن أي عالم ؟ انه عالمهم هم ، عالم البؤس والاستثمار) . لذلك فانهم وجهوا عملهم بشكل منسق وشامل باتجاه سحق هؤلاء « الدخلاء » على التاريخ . وفي سبيل تحقيق هذا الهدف جهز أولئك « القيّمون على مسيرة التاريخ » حملة جديدة بقيادة أبي سفيان ضد « الخارجين على القانون » ، ضد القائمين على الحركة الإسلامية ، بقيادة « الرسول » .

كانت هذه الحملة في « أحد » عام ٦٢٥ . لقد أظهرت معركة « أحد » أن المستغلين التجار والمرابين كانوا لا يزالون يتمتعون بقوى اقتصادية وحربية كبيرة . فقد استطاعوا كسر « المسلمين » ، وبالتالي تقوية مواقعهم السابقة وخلق فوزى واضطراب في صفوف « الثائرين » .

نتيجة للمعارك اللاحقة بين العسكريين الرئيسيين ، الملا التجاري - الربوي في مكة من طرف والمضطهدين المسلمين الثائرين من طرف آخر ، وعلى الأخص بعد معركة « الخندق » القاسية ، نشأت أوضاع جديدة مناسبة لعقد اتفاق بين الفريقين ، كان ، بشكل عام ، لصالح التجار والمرابين المكيين . وقد وجد هذا صيغته الحقوقية والسياسية باتفاق الحديبية .

ان من شروط هذا الاتفاق إيقاف النشاط الاسلامي الاجتماعي والسياسي والفكري المعادي للملا المكي . وقد كان هذا تعبيراً عن تنازل سياسي واقتصادي (وفكري لصالح الملا ذاك . والذي حدث بعد ذلك هو ان كبار التجار والمرايين دخلوا الاسلام ، وفي مقدمتهم « أبو سفيان » ، ليستطيعوا عن قرب ضمان مواقعهم الاجتماعية والاقتصادية ، ومنحها القدرة على النماء والتطور - وسوف نرى ذلك فعلاً وبشكل بارز في الفترة التي تسنم فيها الامويون ، ومعاوية بن ابي سفيان في طليعتهم ، الحكم - .

لقد جاء في كتاب « سيرة الرسول - عن طبقات ابن سعد » حول صلح الحديبية مايلي: « فكتب علي عليه السلام هداماً صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو اصطالحا على وضع الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض على انه من اتى محمداً من قريش بغير اذن وليه رده عليهم ومن اتى قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه وان بيننا عيبة مكفوفة . . وان من احب ان يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه وان احب ان يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه . . (١) » . هكذا تستبين لنا تلك الشروط : ١ - وضع الحرب بين المسلمين الثائرين والقرشيين التجار والمرايين عشر سنين ؛ ٢ - من اتى المسلمين من القرشيين الطامحين في الانحياز الى صفوف الثائرين من غير اذن « وليه » رده اليهم ، ولكن من اتى قريشاً ممن مع المسلمين لم يردوه اليهم ؛ ٣ - من احب الدخول في عقد « الرسول » وعهده دخل فيه ، ومن احب الدخول في عقد قريش وعهدهم دخل فيه ؛ ٤ - ان المسلمين يرجعون الى المدينة - وقد كانوا عند الحديبية قرب مكة .

لقد كان ذلك مرحلة جديدة في الحركة الاسلامية الناشئة، انطلقت منها (من المرحلة) ابواب عريضة واسعة أمام تجار ومرايي مكة للدخول منها الى الاسلام محاولين تحويله من حركة للفقراء المعدمين والرقيق الى حركة للأثرياء ولاعداء التقدم الاجتماعي . ان البند الثاني من الصلح يظهر ، الى جانب البند الاول ، هذا الاتجاه الجديد . ولتكوين صورة أكثر وضوحاً عن هذه المسألة نسوق هنا نصاً آخر عن الكتاب السابق : « وبيننا هم يكتبون الكتاب (أي كتاب صلح الحديبية) اذ جاء جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد قد انفلت من مكة الى رسول الله (ص) وكان قد أسلم فقيده قريش وعذبتة فلما رآه أبوه سهيل (وهو المكلف من قريش بعقد الصلح مع الرسول) قام اليه فضرب وجهه واخذ بتلايبه ثم قال يا محمد قد لجت القضية بيني

(١) انظر : ص ١٨٧ من هذا الكتاب ، اصدار دار الفكر للجميع ، الطبعة الثانية ١٩٦٩ .

وبينك قبل ان ياتيكَ هذا قال صدقت وقال (ص) يا ابا جندل قد تم الصلح بيننا وبين القوم فاصبر سلى يجعل الله لك فرجاً ومخرجاً (١) .

وقد اثار هذا تساؤلات لدى المسلمين ، وفي طليعتهم الخليفة عمر بن الخطاب ، تساؤلات حول وثيقة الصلح : « حتى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال يا رسول الله الست برسول الله ؟ قال بلى ، قال اولسنا بالمسلمين ؟ قال بلى ، قال اوليسوا بالمشركين ؟ قال بلى ، فعلام نعطي الدنية في ديننا ، قال أنا عبد الله ورسوله لن اخالف امره ولن يضيعني » .

ان هذا الاتجاه القائم على تفجير الاسلام كحركة اجتماعية كبيرة لصالح « الفقراء والمساكين » أخذ ينمو ويكتسب جذوراً قوية في كفاح الذين « يكتزون الذهب والفضة » من مرايين وتجار ضد الذين لا يملكون . وقد كتب أحمد أمين في « فجر الاسلام » : وقد ثبت ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يعطي بعض الناس يتألف قلوبهم للاسلام ، كما أعطى ابا سفيان والأقرع بن حابس ، وعباس بن مرادس ، وصفوان بن أمية ، ويمينية بن حصن ، كل واحد منهم مائة من الإبل ، حتى قال صفوان : لقد أعطاني وهو ابغض الناس الي ، فما زال يعطيني حتى كان أحب الناس الي . (٢) .

وأحمد أمين يعلل ذلك بضرورة « تأليف القلوب » على الاسلام ، قلوب الجميع من فقراء مسحوقين وساحقيهم الاغنياء .

وقد تابع أبو بكر ، الخليفة الأول ، هذا الاتجاه . الا أن عمر بن الخطاب قاوم ذلك بعنف وحزم . وقد برزت أهمية هذه المسألة خصوصاً بعد وخلال الفتوحات الاسلامية ، حيث أصبح في حوزة الدولة العربية - الاسلامية ممتلكات جديدة ضخمة ، من اراضي وخزانات سقاية ومصادر تجارية ، ونحو ذلك .

فبالإضافة الى منح العطايا المنقولة للدوي السلطان الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ، أخذت « الأرض » تمارس دوراً في هذا المجال . ففي نص لـ « الزيلعي » ، أورده أحمد أمين في كتابه ذاك ، نجد إشارة الى ذلك الواقع الجديد : « ثم في زمن أبي بكر جاء عيينة والأقرع يطلبان أرضاً ، فكتب لهما بها ، فجاء عمر (بن الخطاب) فمزق الكتاب وقال : ان الله أعز الاسلام

(١) نفس المصدر السابق - نفس الصفحة .

(٢) أحمد أمين : فجر الاسلام - الطبعة التاسعة ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٢٢٨ .

وأغنى عنكم ، فان ثبتم عليه والّا فبيننا وبينكم السيف(١) .

لقد كان للفتوحات الاسلامية لكثير من البلدان اثر كبير في توطيد ذلك الاتجاه . وبالطبع ، فقد مكن له أيضاً اولئك الذين توافدوا على الاسلام ليس انطلاقاً من ارضية اجتماعية كادحة ، وانما ، كما سبق وقلنا ، لتفجير الاسلام الأصلي ، وبالتالي لتسخيره لمصالحهم الاجتماعية - الاقتصادية ، التي عجزوا عن الاحتفاظ بها وتوطيدها في حال بقائهم خارجة ومقاومتهم له . ولا شك ان عثمان بن عفان كان قد ساهم بقوة في فتح الابواب على مصراعيها أمام « الذي جمع ماله وعدّده » وأمام « الذين يكتزون الذهب والفضة » .

لقد جاء في شرح « ابن أبي الحديد » لنهج البلاغة وعلى لسان المعتزلة ، ان عثمان بن عفان قد « أوطأ بني أمية رقاب الناس وولاهم الولايات واقطعهم القطائع . وفتحت ارمينية في أيامه فأخذ الخمس كله فوهبه لمروان . . . وحمل المرامي حول المدينة كلها من مواشي المسلمين كلهم الا عن بني أمية ، واعطى أبا سفيان بن حرب مائتي ألف من بيت المال ، في اليوم الذي أمر فيه لمروان بن الحكم بمائة ألف من بيت المال » . كما ان قصة الشاعر الزاهد «أبي ذر الغفاري » في كفاحه ضد «الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله » ، وعثمان بن عفان في طليعتهم ، هذه القصة معروفة في العديد من كتب التاريخ .

ان كل هذا يري طبيعة الحياة الاجتماعية آنذاك ، التي اتسمت بالتناقض بين مصالح الاكثرية الكادحة من سكان الدولة العربية - الاسلامية ومصالح الطبقة الجديدة - القديمة القائمة على امتصاص واستنزاف الجوانب الكفاحية التحريرية للحركة الاسلامية . لم يكن ذلك التاريخ فريداً في نوعه في التاريخ الاجتماعي ، بل يمكن تقصيه - طبعاً ضمن ظروف اجتماعية تاريخية مختلفة - في تاريخ الدين المسيحي . فهذا الدين ، بعد ان نشأ كحركة اجتماعية ودينية حاولت - على طريقته الخاصة - تحقيق طموح الفقراء والعبيد المسحوقين في الانعتاق من العبودية والبؤس ، وجد نفسه محاطاً بضغط هائلة ، مصدرها السادة المالكون ، لتحويل طابعه ومجراه ، بحيث يصبح أداة طيعة في أيديهم ، يسحقون من خلالها وباسمها كل من يطمح للانعتاق من سلطتهم الاجتماعية والاقتصادية والاخلاقية .

ان التطور اللاحق للاسلام في « المدينة » ، والفتوحات العربية -

(١) نفس المصدر السابق - نفس الصفحة .

الاسلامية لمختلف البلدان ، مثل سورية والعراق عام ٦٣٨ ومصر عام ٦٤١ ، قد عمل على تجويل العلاقات الاجتماعية الطبقية في الجزيرة العربية والبلدان المفتوحة . ففي الجزيرة هذه تلاشت المجموعات القبلية البطركية (الابوية) شيئاً فشيئاً من خلال تكون المجتمع العربي - الاسلامي الموحد . وقد برز المبدأ النظري - الاجتماعي لهذا المجتمع من خلال الحديث : لا فضل لعربي على اعجمي الا بالتقوى . ان هذا المبدأ ، الذي اكد عليه عمر بن الخطاب بوضوح في جملة الرائعة « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا » ، قد كثف الاتجاه الديموقراطي والمساواة (سوف نرى لاحقاً كيف دافع ابن رشد وآخرون عن هذا المبدأ وكيف طوره في ابعاده الفلسفية) . بيد ان المبدأ هذا لم يأخذ في الواقع مجراه الا في فترات وجيزة من تاريخ الدولة الناشئة ، وعلى الاخص في بداياتها ، الى جانب كونه لم يتحقق كاملاً في أي من فترات الدولة ، بحيث يخضع له مجموع المواطنين من أي عرق كانوا . فلقد استثنى العرب من الاسترقاق . وفي التطور اللاحق للمجتمع الجديد تشكلت وتطورت علاقات جديدة بين الارقاء والاسياد ، وذلك لصالح هؤلاء الاخيرين بالدرجة الاولى . كما أخذ مستوى العوام الاحرار ونصف الاحرار ، وضمنهم الصناع اليدويون ، بالتحسن بعض الشيء ونسبياً نتيجة اتساع الحركة الاقتصادية على نطاق الدولة الجديدة الكبيرة . وفي مجرى هذه العملية أخذت « الأرض » ، كما رأينا ، تدخل نطاق الحياة الاقتصادية المعاشية ؛ فنشأت خلال ذلك علاقات أرض اقطاعية .



ان مسألة « الرق » و« تحريره » شغلت مكاناً خاصاً في الاسلام . والحقيقة ، ان الاسلام ، من حيث هو حركة اجتماعية ، لم يطمح - حتى في الفترات الاولى من نشوئه - في ان يزيل العبودية جذرياً . لقد تحقق ، ولا شك ، تحرير كبير للعبيد (الارقاء) ، ولكن غير كامل . ان القرآن والحديث لم يحرمهما قطعاً . وقد لاحظ هذا الواقع كثيرون من المؤرخين العرب والمستشرقين (١) . لقد بقي الغزو سبيلاً واسعاً للاسترقاق . ففي عهد « الرسول » نفسه بقي هذا جارياً وماخوذاً به : « واصاب (ص) منهم - أي من بني المصطلق - سبياً كثيراً قسمه في المسلمين » (٢) .

(١) انظر مثلاً : محاسن الاسلام ، للكاتبة الإيطالية لورافيتشا فاليري : ترجمة طه فوزي - يافا ١٩٢٤ ، ص ٥٩ . وكتاب : فجر الاسلام ، لاحمد أمين - نفس المعطيات السابقة ، ص ٨٨ .
(٢) سيرة الرسول - المعطيات المذكورة سابقاً ، ص ١٦٣ .

ولكن هذا التحرير بقي مع ذلك هاماً ويمثل ، ضمن العلاقات الاجتماعية - الاقتصادية والسياسية آنذاك ، مكسباً ضخماً للتقدم الانساني ولصالح المضطهدين . لقد طوِّب بمنع استرقاق المسلمين من اية امة او شعب كانوا ، مما أدى الى فتح باب كبير امام العبيد ليحصلوا عبره على حريتهم وكرامتهم . وهذا ، ولاشك ، من الاسباب العميقة والمباشرة التي كمنت وراء كون الناس (والعبيد على الأخص) أخذوا « يدخلون في دين الله أفواجا » .

بهذا الخصوص يخبرنا علي بن ابي طالب ، كما جاء عند ابي داود والترمذي ، انه - قد « خرج عبدان الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية قبل الصلح ، فكتب اليه موليهم يقولون يا محمد والله ما خرجوا اليك رغبة في دينك ، وانما هربوا من الرق (خط التشديد مني : ط.ت) ، فقال ناس ردهم اليهم ، فغضب صلى الله عليه وسلم من ذلك ... وابى أن يردهم (١) » . لم يكن هنالك تصور للمدى البعيد حول قضية تحرير الرقيق . الا ان طبيعة الاحداث الاجتماعية والسياسية والحربية كانت آنذاك انفجارية ؛ بمعنى ان الاسلام ، كحركة اجتماعية ، اطلق عملية التحرير من عقالها ، وفتح بذلك باباً عملت الاحداث اللاحقة على الاتي يوصد ابداً ، وعلى أن تتحقق انتصارات رائعة في حياة العرب والانسانية .

لقد كان هنالك سبل عدة للحد من « الاسترقاق » . وإن درست هذه السبل بعمق ، فان الباحث فيها سوف يصل الى نتائج هامة تلقي أضواء على كيفية تغلغل الحركة الاسلامية الاجتماعية ، في فترات عديدة من تطورها ، في الشعوب التي اخضعت للحكم الجديد . من تلك السبل كان مثلاً منسح استرقاق المسيحيين واليهود والآخرين المؤمنين باديان قائمة على اله واحد . اما أن هذه الحركة قد فضلت ، عملياً ، العرب على الآخرين غير العرب ، فهذا لايفقدها طابعها التحرري والثوري في التاريخ العربي . لقد كانت اعظم وأشمل حركة اجتماعية شهدتها الجزيرة العربية حتى القرن السابع وانعكست تأثيراتها في التطور اللاحق على مجمل الدولة الجديدة . انها عملت على ادخال تحولات هامة اجتماعية واقتصادية وفكرية في المنطقة ، وفتحت آفاقاً واسعة امام عملية نشوء وتطور منطقة موحدة اجتماعياً واقتصادياً

(١) هذا النص أورده احمد أمين في « فجر الاسلام » - نفس المعطيات السابقة ، ص ٨٨ . كما نجد النص هذا في كتاب « سيرة الرسول » - نفس المعطيات السابقة ، ص ١٨٨ ، مع بعض الفروق .

وسياسياً ، أي أمام عملية نشوء وتطور علاقات إنتاجية اجتماعية جديدة .
لقد سارت عملية الحدّ من الاسترقاق ، بعد نشوء الاسلام ، على قدم وساق . فالعرف الاجتماعي ، الذي خضع له الاطفال من اب حر وام أمة (عبدة) في المجتمع الجاهلي البطريكي - القبلي - ازيل من قبل الإسلام . لقد كان على الاطفال من ذلك المنشأ الطبقي ان يبقوا - حسب ذلك العرف - ارقاء . ولقد اضعف هذا « العرف » في الحقيقة الوضع العائلي بشكل واضح الى حد التمزق . ولا شك ان هذا تعبير عن حدة التناقضات الاجتماعية الطبقيّة في المجتمع الجاهلي القبلي . بيد ان الاسلام في الوقت الذي ازال فيه ذلك « العرف » ، فانه استبقى امكانية استرقاق الاطفال من آباء ارقاء . الى جانب هذا المصدر للاسترقاق ، بعد نشوء الاسلام ، كان الحصول على رقيق ممكناً من أسواق الرقيق (النخاسة) المنتشرة في الجزيرة العربية ، كما عن طريق شرائهم من بلدان أخرى .

هنا ينبغي ابراز الواقع التالي ، وهو ان امكانية الحصول على رقيق عن طريق الاطفال من آباء ارقاء قد ضلّت شيئاً فشيئاً في التطور اللاحق للدولة العربية - الإسلامية ، وبالضبط حين ادخل الامويون تقليد « اخفاء » العبيد في الحياة العامة . لقد كان الهدف البعيد من هذا التقليد تخفيف التكاليف المادية التي ينفقها السيد على عبيده . ولكن ذلك ادى الى الاقلال من أعداد الرقيق في بيوت وأسواق السادة . وهذا ما جعل هؤلاء الاخيرين يبحثون عن عبيد لهم في أسواق البلدان الأجنبية .

في اليونان العبودية كان سائداً أسلوب الافناء الجسدي للعبيد بشكل واسع ، بحيث ساهم هذا بقوة في اهتزاز النظام الاجتماعي هناك . أما في الدولة

بن عفان ، فقد كان « خصي » الرقيق الشكل الرئيسي الذي حدّ من أعدادهم في الدولة .

ولا شك ان هذا يلقي ضوءاً على أحد خصائص الرقيق في الدولة العربية - الإسلامية الوسيطة : احتفاظهم بحق الحياة . وقد ظل الغزو أو الحرب الشكل الأساسي للاسترقاق ، أي تحويل « الأحرار » الى « رقيق » . ولكن حتى أسرى الحزب الأحرار لم يكن دائماً من الضروري ان يسترقوا ؛ فقد كان ممكناً ان يشتروا حريتهم بالمال أو بأشياء ثمينة . عدا هذا السبيل

ففي حالات معينة كان على المسلم أن « يعتق » رقبة - عبداً - كـ « تكفير » عن خطيئة قام بها . لقد جاء ، بخصوص هذا ، في الحديث : « من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل أرب منه أرباً منه في النار » ؛ كما جاء في القرآن : « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً الا خطأ ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى أهله (١) » . وهناك خطوة جديدة أكد عليها الاسلام في بداياته ، وخصوصاً في عهد « الرسول » والخليفة عمر بن الخطاب ، وهي تخصيص مبلغ من المال من أموال « بيت المال » لتحرير الرقيق . ان هذه الخطوة قد تمت انسجاماً مع الخلفية التاريخية الاجتماعية للإسلام . فهو نشأ ، اجتماعياً ، كتعبير عن طموح الفئات المسحوقة في التحرر تحرراً تتحدد آفاقه وأبعاده ضمن امكانيات العصر آنذاك .

وهناك نقطة مؤثرة ينبغي التعرض لها في إطار هذه المسألة : ان طموح الفئات المسحوقة في التحرر من قيود الاملاق والعبودية كان من سمات العصر ذاك . الا ان هذا الطموح اصطدم بالأطر التاريخية العيانية ، التي لم تكن تحمل بعد في أحشائها امكانية تحقيق ذلك الطموح . وفي الحقيقة ، نحن نجد أعرق تعبير عن هذا الطموح المشروع والعميق في تلك الحقبة التاريخية في كلمة عمر بن الخطاب المدينة لملك الرقيق والمرايين والتجار الاثرياء بشكل فاحش : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » .

ان مبدأ الحرية والمساواة « الطبيعية » بين الناس قد نادى به الاسلام ، وخصوصاً حتى العهد الخطابي ، ومن ثم من قبل الفلاسفة الأخلاقيين بالمنحى المادي الانساني ، مثل الفارابي وابن رشد ، كما نادى به لاحقاً الثورة الفرنسية البورجوازية الكبرى ١٧٨٩ . ولكن بينما تم ذلك في الاسلام في وقت كان يتأهب فيه المجتمع العربي - الاسلامي لتوطيد العلاقات الاجتماعية القطاعية ولغرس البذور التمهيدية الأولى للعلاقات الصناعية البورجوازية ، فانه اكتسب أبعاده في فرنسا في القرن الثامن عشر في وقت كانت فيه العلاقات الاجتماعية القطاعية قد استنفدت مجموع امكانيات وجودها التاريخي ، وأصبحت المسألة بالتالي تطرح نفسها بالحاح من خلال ثورة بورجوازية متميزة واضحة . ولذلك فان المبدأ الخطابي في الحرية والمساواة لم يتحقق الا بقدر ما اتاحته امكانيات التطور والتقدم في إطار اقطاعي تجاري متضمن ملامح أو بدوراً أولية مبكرة لمجتمع بورجوازي صناعي . هذا

(١) سورة النساء - آية ٩٢ .

لا يعني أن المبدأ ذاك كان سابقاً لأوانه ؛ ذلك لأن المساواة والحرية هما نتاج مجموع حقب التطور البشري . والعبودية ، وإن لم تنزل من حياة المجتمع العربي - الإسلامي إلا بحدود ، فإنها كوفحت بأشكال مختلفة وبدرجات متميزة في حداثتها . ولا شك أن المبدأ الخطابي ظل ، من حيث هو مطمح وحلم إنساني عميق ، يمارس تأثيره ويعبئ جماهير المعدمين والعبيد سياسياً وأخلاقياً .

أما المبدأ الفرنسي الثلاثي (حرية ، أخوة ، مساواة) فقد اكتسب مضامينه الواقعية الممكنة ضمن الأطر الجديدة التي تحركت فيها الثورة البورجوازية . لاشك أن « عبودية » رأسمالية قد حلت محل عبودية إقطاعية قديمة ؛ ولكن هذا نفسه يعتبر خطوة إلى أمام .

إن الأمر هذا بالغ الدلالة بالنسبة إلى التطورات اللاحقة في الدولة العربية - الإسلامية . فالحركات والانتفاضات ، التي وقفت وراءها جماهير العبيد والفلاحين المعدمين - وخصوصاً تلك التي انضوت تحت اسم القرامطة والزنج - كانت تعبيراً عملياً عن مبدأ المساواة والحرية الخطابي ذاك . لقد فشلت تلك الانتفاضات والحركات نتيجة فشل التطور البورجوازي الصناعي واستيعابه لمطامحها ونتيجة اصطدامها بالقوة الإقطاعية ، التي رفضت - وهي التي رافقها الوجود الرقيق - أن تعترف بحق المساواة حتى شكلياً . إن الأمويين قد رفضوا ، مثلاً ، مبدأ الحمدي الثوري الذي نادى بتحرير العبد حال دخوله الإسلام واعفاء المعدمين من الفلاحين من الضرائب المرهقة حال تبنيهم الإسلام ديناً لهم .

ولكن بالرغم من هذا فإن العبد في المجتمع العربي - الإسلامي اعتبر وعومل بالخط العام كإنسان ، وليس كشيء (١) . بل إن هذا الواقع التاريخي للعبد يشكل سمة هامة من سمات ذلك المجتمع ؛ وأخذ هذه السمة بعين الاعتبار ضروري من أجل تفهم المجتمع العربي - الإسلامي تفهماً علمياً دقيقاً .

مع موجة الغزوات الإسلامية - العربية لبلاد فارس وبيزنطة ومصر بعد موت « الرسول » اتسع الاقتصاد النقدي واكتسب مواقع قوية في الدولة الجديدة الفتية . وعبر ذلك انطلقت حركة عاصفة للتبادل البضائعي . أما

(١) في حديث للـ « رسول » : « من ضرب غلاماً له حداً لم يأت به أو لطمه فإن كفرته أن يعتقه » .

وفي حديث آخر : « لا يقل أحدكم عبدي وأمتي وليقل فتاي وفتاتي وغلامي » .

المكتسبات التكنيكية - العلمية والاقتصادية ، التي حققتها شعوب تلك البلدان في تاريخها المديد ، فقد تعهدت وطورت بشكل بارز من قبل الفاتحين ، وخصوصاً في مجال أنظمة السقاية . كما نشأت مدن جديدة ، مثل البصرة والكوفة .

في تيار هذه العملية انطلق اتجاه كبير وعميق للتمازج والتمثل بين العرب وشعوب البلدان المختلفة ، وذلك في جميع المستويات التحتية والفوقية . أما العوامل التي كمنت من وراء ذلك ، فكانت كثيرة . ضمن هذه العوامل التمازج السكاني ، الذي تم - طبعاً عن طريق تأثيرات أخرى - من خلال اقتناء النساء الاجنبيات العديداً والتزوج بهن من قبل العرب ، بحيث تحولن الى « سراري » لهؤلاء . ولقد لقي التسري تشجيعاً كبيراً في المجتمع الجديد ، المنفتح ، حتى ان « الرسول » قال في حديث له : « عليكم بالسراي فانهن مباركات الارحام (١) » . كما قال عمر : « ليس اكيس من اولاد السراي لانهم يجمعون فصاحة العرب وعزها ، ودهاء العجم (٢) » .

لقد لمس المرء تأثير دور العبيد (الرقيق) في مجموع قطاعات المجتمع الجديد ، في جهاز الدولة في العلم والفن والادب ، وفي الحياة العائلية ، وبشكل خاص في قطاع الانتاج المادي القاسي ، مثل بناء الخزانات المائية التابعة للدولة .

وعلى العموم يمكن القول بأن العبيد هناك برزوا بعمال مأجورين مياومين . الا أنهم لم يعاملوا على التساوي . فقد ظهر نوع من التمييز « العنصري » في هذا المجال . ذلك ان « السود » ضمن العبيد ، الذين جلبوا من أفريقيا ، استخدموا بأجور قليلة ، عدا أنه لم يطمح فيهم - بشكل عام - الا من أجل انجاز المهام القاسية التي تتطلب جهداً جسدياً خاصاً . بالعكس من ذلك ، احتل العبيد « البيض » ، وخصوصاً الاناث منهم ، مكاناً جيداً في الحياة العامة ؛ مع أن مبدأ « الخصي » للعبيد قد انتشر بشكل واسع ، وبشكل خاص في الحقبة العباسية . وقد مسّ هذا المبدأ جميع

(١) المنهاج البديع في احاديث الشفيخ (ص) - تأليف محمد علي الانسي ، بيروت ١٩٥٨ ، ص ١٤١ من الجزء الرابع .

(٢) نفس المصدر السابق - ص ١٢٢ . على نفس هذه الصفحة تجد النص التالي : « وهؤلاء الثلاثة (اي سالم بن عبد الله بن عمر ، وقاسم بن محمد بن ابي بكر ، وعلي زين العابدين بن الحسين بن علي) فاقوا أهل المدينة علماً وورعاً فكان أهل المدينة قبل ذلك يتأون من التسري فلما نشأ هؤلاء الثلاثة منهم رغبوا فيه » .

العبيد الذكور ، من أي عنصر كانوا . وقد اكتسب هذا النمط من العلاقات الرقمية أبعاده من خلال تطور وتوسع تجارة العبيد في الداخل ومع البلدان الأخرى ، وذلك قبل وبعد موجة الفتوحات الرئيسية ، أي حتى منتصف القرن السابع تقريباً .

والآن ، قد يبدو ، بعدما تقدم من معالجة لدور « الرقيق » في الفترات الأولى من نمو المجتمع العربي - الإسلامي ، أن المجتمع هذا كان - بشكل أساسي - مجتمع عبيد ، أي أنه قام - بشكل أساسي - على علاقات اجتماعية تتحدد من خلال وجود العبيد وصادتهم .

إننا في الوقت الذي تؤكد فيه على أن العبيد قد مارسوا في المجتمع ذاك دوراً هاماً ، فإن هذا لا يتضمن الاستنتاج التالي ، وهو أن أولئك (أي العبيد) قد طبعوا المجتمع المعني ، من حيث هو كل ، بطابعهم الخاص . فلا في المجتمع القبلي (الجاهلي) ولا في المجتمع الجديد الكبير يعد الإسلام استطاعت العبودية أن تسم العلاقات الانتاجية الاجتماعية بشكل رئيسي بميسمها .

ففي المجتمع الأول - القبلي الجاهلي - سادت ، بشكل أساسي ، العلاقات البطريكية ، حيث مارس فيها سيد القبيلة أو جدها السلطة على مجموع أفرادها . ضمن هذه العلاقات الاجتماعية لم تلعب الملكية الخاصة للأرض دوراً ملحوظاً . فالأرض كلها كانت من أجل الجميع . بالطبع ، كان هذا يرجع إلى طبيعة الأرض المناخية الجيولوجية . ولا شك أنه كانت هنالك حالات أخرى مارست فيها ملكية الأرض دوراً معيناً في تكوين العلاقات الاجتماعية الانتاجية . وهذا وجد خصوصاً في المناطق القابلة للزراعة والمتضمنة بئر ماء مثلاً .

إن سيد القبيلة - أو جدها - كان يتمتع بامتيازات خاصة ، مثل توزيع الغنائم نتيجة حرب أو غزو ، عبيداً كانوا أو جمالاً أو خرافاً الخ... ولكن تملك الأرض لم يأخذ طابعاً فردياً ، وإنما جماعياً . ونحن نرى بأنه من المفضل أصلاً ألا نتحدث عن وجود تملك للأرض في المجتمع القبلي قبل الإسلام . فالأرض نفسها لم تطرح بعد كوسيلة أساسية من وسائل الانتاج .

في ذلك المجتمع ظلت العبودية سائدة ، ولكن ليس كظاهرة «حاسمة» وإنما «مرافقة» ؛ وهذا بالرغم من أنها قد تطورت آنذاك بحجوم ملحوظة . لقد انحلت العلاقات الاجتماعية البطريكية في المجتمع الجاهلي شيئاً فشيئاً من خلال علاقات جديدة اقتصادية متنامية بشكل متصاعد وبورجوازية

مدينة اولية . وقد اخذت ملامح التحويل الاقطاعي تخط ابعادها حتى مند المراحل الاولى من نشوء الاسلام . فقد كان اسرى الحرب ، الذين يهدون في المدينة الى المحاربين المنتصرين ، يشغلون في الزراعة البدائية كعمال مياومين . والارض ، التي كانوا يعملون عليها ، لم تخصص بطبيعة الحال ، بل بقيت ملكية خاصة بأسيادهم .

هكذا نجد أن العبيد (الرقيق) قد اكتسبوا في مواقعهم الانتاجية حرية التحرك . فقد شكلوا جزءاً هاماً من الحياة الانتاجية الاجتماعية العامة . لم يكونوا فقط أداة البناء الحضاري ، كما كان الامر بالنسبة الى عبيداليونان وروما القديمتين ، بل انهم كانوا أيضاً ذوات مبدعة محترم حقها في الحياة ومنظور اليها - بشكل عام - بنوع من الود والانسانية .

ان الكثيرين من باحثي تاريخنا ، عرباً كانوا أو اجانب ، يستبعدون دور العبيد في عملية بناء المجتمع العربي - الاسلامي الوسيط . وهم ان تحدثوا عن ذلك ، فانهم يقصرونه على كونهم (اي العبيد) لم يمثلوا اكثر من «خدم» منزليين أو ندماء لسادتهم . ان البحث فيهم ، من حيثهم ظاهرة اجتماعية انتاجية ، لا يتصدون له ، معتبرينه مغالاة في تحديد المشكلة أو انزلاقاً « ميكانيكياً » في البحث الاجتماعي .



والآن نحاول بحث وتقصي الملامح الأساسية العامة لمسألة الارض وملكيته في المجتمع العربي - الاسلامي الوسيط ، ذلك لان هذا يساهم في القاء ضوء ساطعة على الاطار الاجتماعي الانتاجي الرئيسي لذلك المجتمع ، ويساعد - ولو بشكل غير مباشر - على رؤية الابعاد الاجتماعية الحضارية التي تبلور في رحمها الفكر العربي - الاسلامي آنذاك .

لقد المحنا سابقاً أن مسألة الارض وملكيته اخذت ، مع نشوء الاسلام والقيام بالفتوحات لبلدان اجنبية ، تبرز وتحتل مكاناً هاماً في الحياة الاجتماعية والاقتصادية العامة للمجتمع الجديد . ولقد ناوا الخليفة الكبير عمر بن الخطاب عملية اقطاع الاراضي للمحاربين والقواد العسكريين^(١) . ولكن في الفترات اللاحقة للمجتمع ذاك ، وبالعلاقة مع التأثيرات المتنامية لحركة الفتوحات ، تكون وتطور نظام جديد للاراضي في المناطق المختلفة

(١) انظر حول هذا مثلاً : أبو الاعلى المودودي ، مسألة ملكية الارض في الاسلام ، دمشق

للامبراطورية الجديدة. لقد تضمن هذا « النظام » الاشكال الرئيسية التالية:
أولاً - أرض الجزيرة العربية .

ثانياً - الأرض التي دخل أصحابها الاسلام ودفعوا ، انطلاقاً من ذلك ، ضريبة الزكاة فقط .

ثالثاً - الأرض التي احتفظ مالكوها بدينهم القديم وخضعوا للسلطة المركزية الجديدة ، ولكن دفعوا لها ضريبة الجزية والخراج .

رابعاً - الأرض التي فتحت وأُخضع أصحابها بالقوة ، ودفعوا ضريبة الجزية والخراج - وقد كان وارداً أن يُسترق هؤلاء بعد إخضاعهم .

خامساً - الأرض الموات أو التي ليس لها أصحاب .

إن الشكل الأول من الأراضي لم يكن ، بشكل عام ، ملكية خاصة . فلقد ملك الأرض هنا ، بشكل غير مباشر ، الخليفة ، الذي برز على أنه الممثل الروحي والديني لمجموع السكان . إن هذه الأرض (أرض الجزيرة العربية) وُضعت تحت مراقبة مباشرة من الدولة وتعمدت من قبلها من حيث السقاية والزراعة . وفي سبيل ذلك استخدمت الدولة القوى العاملة الضرورية ، من عبيد وفلاحين ومهندسين . ولقد عومل الفلاحون والعبيد هنا كعمال مأجورين . أما محاصيل الأرض فكانت تُلحق ببيت المال . ومن هنا تنفق على المشاريع العديدة التي تقوم بها الدولة .

بيد أنه مع تسلم الأمويين السلطة عام ٦٦١ والعباسيين عام ٧٥٠ ، أخذ اتجاه جديد في هذا المجال يفرض نفسه، اتجاه قام على توزيع أراضي الجزيرة العربية نفسها ، بحيث لم تعد تعتبر هذه الأراضي ملكية تابعة للدولة فقط . وقد أخذ هذا الاتجاه يقوى ويحقق وتأثيره عالية في تطوره بشكل مواز لعملية إضعاف السلطة المركزية ، وخصوصاً في الدولة العباسية .

أما توزيع الأراضي تلك فلم يتم لصالح الفلاحين المعدمين ، وإنما لصالح كبار موظفي الدولة وقوادها العسكريين . . . ، وذلك حسب مبدأ « الاقطاع » .

والأمر يختلف بالنسبة إلى الشكل الثاني من « الأرض » . فأصحاب الأرض هنا تحولوا إلى مسلمين ، ومقابل هذا احتفظوا بها . وبطبيعة الحال، فقد كان عليهم ، كما هو الأمر بالنسبة إلى العرب المسلمين ، أن يدفعوا « الزكاة » ، التي هي واحد من المبادئ الأساسية للأخذ بالاسلام . وقد جُبيت من قبل موظفين رسميين ؛ إلا أنها لم تكتسب طابعاً قسرياً . أما كميتها

تكانت في الاحوال العامة، حسب «لأنداء» في كتابه حول الإسلام والعرب (١) ٢ ١/٢ ٪ من دخل المسلم ، الذي (أي الدخل) يتجاوز حداً معيناً .

هنا نجد أنه من الضروري الإشارة الى أن مجموعات كبيرة من الفلاحين المسلمين قد دخلوا الإسلام بسبب أنهم ، طبقاً للشكل الثاني من تملك الأرض، حرروا من دفع الضرائب على دخولهم اليسيرة . لقد وجدوا في الحركة الإسلامية تحررهم الاقتصادي والاجتماعي . قال جانب أعفائهم من الضرائب، نظر اليهم كمسلمين متساوين مع غيرهم « كأسنان المشط » . لقد كان عمر بن الخطاب هو الذي أدخل مبدأ التحرير هذا كركيزة أساسية السياسة العربية - الإسلامية العملية تجاه المضطهدين الفلاحين . ونحن نشهد في التطور اللاحق خرقاً كبيراً لهذا المبدأ من قبل أكثرية الحكومات التالية .

إن ذلك المبدأ الخطابي ، الذي ساهم بشكل بارز في نشر مبادئ الحركة الإسلامية في أوساط واسعة من سكان البلدان المفتوحة ، وبالتالي في توسيع قاعدة التحرر الانساني ، اثر « سلبياً » على موارد « بيت المال » ، الذي تحول الى الخزانة الخاصة بالحكام وبطبقته الاجتماعية . وهذا ما دعى الأمويين - باستثناء الخليفة عمر بن عبد العزيز - الى إلغاء المبدأ ذلك، بحيث توجب حتى على الذين يدخلون الإسلام دفع ضريبتى الخراج والجزية . إلا أنهم احتفظوا بحق تملكهم للأراضي الخاصة بهم .

والنتيجة لذلك لم يعد من فرق بين الدين دخلوا الإسلام مجدداً والذين احتفظوا بدينهم الأصلي ، وذلك من حيث موقف الطبقة الاجتماعية السائدة من هؤلاء ومن أولئك . من هذا نخلص الى نقطتين هامتين جداً :

الأولى هي أنه قد تصبّت جسور عريضة ومتينة بين الناس الذين لا يشاركون في السلطة الاقتصادية والسياسية ، أدت في المستقبل الى تكوين جبهة ، أكثر الأحيان ، قوية مضادة للطبقة الحاكمة .

أما النقطة الثانية - وهي مكملّة للأولى - فقد تركزت في انخفاض اعداد الطامحين من البؤساء والمضطهدين في الدخول في الإسلام . وبالنتيجة تكون شيئاً فشيئاً عداء ضد السلطة المركزية السائرة في طريق تعميق آفاق التطور الاقطاعي على مستوى الدولة .

هكذا أخذ الشكل الثالث من ملكية الأرض يحتل أكثر فأكثر مكاناً هاماً .

(١) انظر : لانداء ، الإسلام والعرب - نفس المعطيات السابقة ، ص ٤٩ .

لقد ظل السكان الاصليون ، مالكو الارض محتفظين ، تبعاً لذلك ، بدينهم وعقدوا معاهدات صلح مع الفاتحين ، في حين ظلت ملكية اراضيهم في حوزتهم . إلا أنه توجب عليهم دفع ضريبتى الخراج والجزية ، كما فعل مثلاً أهل نجران المسيحيون في الجزيرة العربية نفسها .

أما ما يخص الشكل الرابع من ملكية الارض ، أي التي تبعت سكان بلد غير مسلم أخضع من قبل الفاتحين بالقوة ، فقد برزت حالتان رئيسيتان . في الحالة الأولى تنظر الى الارض من ذلك النوع على أنها غنيمة حرب ، بحيث وزع أربعة أخماس منها على الفاتحين وأدخل الخمس الأخير ضمن عائدات بيت المال . لقد أعطى « الرسول » مثلاً عملياً على هذه الحالة حين أخضعت المنطقة اليهودية « خيبر » لسلطة العرب - المسلمين .

أما في الحالة الثانية فقد حولت الارض المفتوحة الى ملكية عامة للدولة والمجتمع ، وذلك تحت مراقبة الحكومة المركزية . وقد ظل الملاك السابقون لهذه الارض عليها ، ولكن بصفة عمال مستأجرين ، أو أنهم عقدوا اتفاقية مع ممثلي الحكومة المركزية يمكنهم حسبها البقاء على الارض لقاء واجبات معينة يقدمونها للدولة . ونحن نستطيع أن نرى في الاجراءات التي قام بها الخليفة عمر بن الخطاب في سوريا مثلاً مثلاً نموذجياً على ما أوردناه .

أما بالنسبة الى سماح السلطة المركزية بتملك بعض المناطق المفتوحة من قبل سكانها الاصليين ، فإن هذا يختلف من منطقة الى أخرى ، وذلك حسب الواجبات التي ينجزها سكان هذه المناطق للسلطة المركزية .

وحسب المعطيات التاريخية العملية ، يمكن القول بأنه في الاشكال الثلاثة الأخيرة من تملك الارض كان سكان المناطق المفتوحة معرضين لامكانية تحويلهم الى رقيق .

وأخيراً نخلص الى الشكل الأخير من تملك الارض ، الذي ساد في المجتمع العربي الإسلامي الوسيط ، وهو الارض الموات أو التي لا ملاك لها . ان الارض من هذا النوع كانت إما صعبة الزراعة ، أو أن أصحابها ميتون . فبالنسبة الى الارض الموات ، أي الصعبة الزراعة ، فقد وضع المبدأ الحمدي : « من أحيا أرضاً ميتة فهي له » . أما حين لم يكن مالك للارض ، أو أن هذا قد قتل في حرب ما ، فقد أعطيت للمسلمين مع التقيد بالمبدأ التالي الذي روعي قليلاً أو كثيراً ، وهو أن المالك الجديد للارض اذا لم يزرعها ويحييها ، بشكل

عام ، خلال ثلاث سنوات ، فانها تنتزع منه وتعطى لآخر (١) .

لقد اثارت قضية « الأرض » في الحركة الاسلامية كثيراً من المناقشات والدراسات . وقد تصدى لها فريقان رئيسيان : الاول يحاول انتزاع اليقين من بعض الآيات القرآنية بأن الأرض ، حسب تلك الحركة ، لا تشكل ملكية خاصة ، بل عامة . أما الفريق الثاني فيحاول العكس ، أي اثبات ان الاسلام ، في مبادئه الاجتماعية - الاقتصادية ، قال بالملكية الخاصة للأرض .

ونحن نرى هنا ، على ضوء التفصيلات التي اتينا عليها فوق ، أن الحركة الاسلامية ، وخصوصاً في خطواتها المتأخرة ، قالت بالملكية الخاصة للأرض ، وليس فقط بحق الاستمتاع بها ، وإن لم يأخذ بهذا الموقف جميع الخلفاء والشخصيات المرموقة آنذاك ، كعمر بن الخطاب وأبي ذر الغفاري .

والآن ، حين نحاول الوصول الى بعض النتائج الأساسية المترتبة على علاقات التملك بالنسبة الى الأرض ، وبالتالي بالنسبة الى « الرقيق » من حيث هو موضوع تملك ، فإننا نواجه النقاط التالية :

أولاً - ان التطور الاجتماعي الطبقي للمجتمع العربي - الاسلامي حدد أكثر فأكثر من خلال أسلوب الانتاج الاقطاعي ، وذلك بالرغم من وجود آفاق تطور رأسمالي صناعي مبكر .

ثانياً - ان العبودية ، التي سادت في عصر الجاهلية البطريركي ، لم تزل لاحقاً بشكل جذري وشامل ، وإنما حددت منها بأشكال وأساليب مختلفة ومتعددة . والعبودية في اطار الدولة العربية - الاسلامية اكتسبت اشكالا جديدة (فهناك العبودية المنزلية ، والعبودية القائمة على العمل المأجور في الزراعة وفي حقول السقاية) . ولكنها لم تبلغ مبلغ التشكيلة المجتمعية الاقتصادية في الاطار ذاك ، أي أنها لم تتحول الى « المؤثر » الاجتماعي الجوهري والحاسم . أما الذي استطاع تحقيق ذلك ، فقد كانت الاقطاعية . هذا يعني أن العبودية وجدت هنا ، في المجتمع العربي - الاسلامي الوسيط ، كما كان الحال في المجتمع الجاهلي البطريركي ، كظاهرة اجتماعية طبقية مرافقة .

ثالثاً - لم يستطع التطور الاجتماعي - الاقتصادي في المجتمع العربي -

(١) انظر : ابو الاعلى المودودي ، مسألة ملكية الأرض في الاسلام ، نفس المعطيات سابقا ،

الاسلامي الوسيط الا أن يمارس تأثيراً غير متساو في مناطق المجتمع هذا المختلفة .

ان عدم الوحدة الاجتماعية - الاقتصادية في تلك المناطق ما هو الا نسبي، ذلك لأن المناطق المختلفة هذه ساد فيها اتجاه مشترك قام على تواجد وتطور علاقات اجتماعية اقطاعية ورقيقية ورأسمالية مبكرة .

رابعاً - ان هذا الاتجاه المشترك في التطور قد تكوّن وتطور وتضاعف بالتآخي مع الحركة التجارية الواسعة آنذاك بين مختلف مناطق الامبراطورية من جهة ، كما بين الامبراطورية ودول أخرى من جهة ثانية ؛ كذلك بالتآخي مع نشوء وتطور سلطة مركزية قوية كثيراً أو قليلاً في الحقول الاقتصادية والسياسية والعسكرية في المدينة ، ثم في دمشق وفي بغداد وقرطبة . هذا على الرغم من أن تلك السلطة كانت تدخل شيئاً فشيئاً في حالة التمزق . والملاحظ انه نشأ وتطور تبادل بضائعي نشيط ومتعدد الجوانب بالعلاقة مع توسع الحركة التجارية في المنطقة . كما ارتبطت بذلك عملية ازدهار الاقتصاد النقدي .

وفي الحقيقة ، هذا الاقتصاد النقدي الناشئ كوّن البذور الاولى للميل البورجوازي الصناعي الديمقراطي المبكر في المجتمع ذاك ، هذا الميل الذي وقف يعارض الاقطاع بأشكال مختلفة ، ومن ضمنها الشكل الاجتماعي والآخر الفكري الايديولوجي . ولكنه (ذلك الميل) بقي « ميلاً » ولم يكتسب طابع التشكيلة المجتمعية الاقتصادية الحاسمة في الدولة تلك .



لقد تمت تحت ظل السلطة الاموية خطوات هامة لتدعيم الاقتصاد النقدي ولخلق دولة موحدة نسبياً سياسياً واقتصادياً وثقافياً . في طليعة تلك الخطوات كان سك نقود جديدة على نطاق الدولة كلها ، وتحويل اللغة العربية الى اللغة الرسمية الأساسية . وقد تحقق ذلك في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٨٤ - ٧٠٥) . ومع نهوض الاقتصاد النقدي ، وبالتالي نهوض التبادل البضائعي اكتسبت المدينة في الدولة العربية - الاسلامية أهمية متصاعدة من حيث هي مركز اقتصادي وثقافي مكثف. بيد أن المدينة استطاعت أن تتطور وتتوسع عمودياً وافقياً من خلال الارتباط مع مقتضيات ومتطلبات الدفاع العسكري ضد أعداء الدولة الداخليين والخارجيين . ولندكر هنا من تلك المدن ، على سبيل المثال ، دمشق وحمص والبصرة والكوفة . وقد

أسست المدينتان الأخيرتان أصلاً كمدينتين عسكريتين في العراق ، بينما الأخيرتان برزتا قبل الفتح العربي - الإسلامي كمركزين عسكريين بيزنطيين ، وظلتا محتفظتين بصفتهما هذه ، أي كونهما مركزين عسكريين ، بعد الفتح خلال عهد الخليفة عمر بن الخطاب .

ان المدينة أصبحت شيئاً فشيئاً الحامل الرئيسي للحضارة الجديدة الضخمة والمتعددة الآفاق . ومن الضروري الإشارة الى ان ملاك الأرض الكبار ، الذين أخذوا تحت ظل السلطة الأموية يمارسون - الى جانب قوى اجتماعية أخرى - تأثيراً حاسماً في الحياة الاجتماعية العامة ، ساهموا بشكل قوي في تطور المدينة . كذلك الملاك المتوسطون ساهموا في العملية تلك . والجدير بالذكر ان أماكن الإقامة للملاك الأرض الكبار والمتوسطين كانت المدينة ، وليس الريف . كما ان قسماً منهم عمل ، في نفس الوقت ، كتاجر وكمالك لمراكز صناعات حرفية . وعلى هذا الطريق ساهموا بشكل مباشر في تطوير الحياة الاقتصادية للمدينة .

من طرف آخر اتبحت للفلاحين الريفيين ، عبر التطور السريع للاقتصاد البضائعي السوقي ، امكانيات جديدة متنامية لتسويق وتوزيع منتجاتهم في المدينة . ان الفلاحين استطاعوا ان يبيعوا محاصيلهم في المدينة وأن يغطوا ، من ناحية أخرى ، حاجاتهم من البضائع الاستهلاكية المعروضة فيها (في المدينة) .

لقد قام السوق المدني ، ضمن ما قام عليه ، على المنتجات الريفية الزراعية التابعة للمشاريع الخاصة ولمشاريع الدولة . والمدقق بالامر يلاحظ ان هذا اللقاء بين المدينة والريف كان واحداً من الأسباب الأكثر أهمية للنهوض الحضاري الشامل في المجتمع العربي - الإسلامي ، وخصوصاً في المرحلة العباسية منه . ولكن عن ذلك نشأ وتطور واقع له أهميته الاجتماعية - الاقتصادية والسياسية ، وهو الارتباط التاريخي بين الاتجاه الاجتماعي البورجوازي الأولي المبكر من طرف ، الذي حمل في أحشاء الاقتصاد النقدي ، وبين مصالح الأمراء والموظفين الكبار والقواد العسكريين والسادة الاقطاعيين من طرف آخر .

وانسياقاً مع هذا الواقع التاريخي المثير نجد الصناعات اليدوية المدنية والتجار وأصحاب المصانع الأولية (أصحاب المانيفاكتورات) يتبعون في انتاجهم المطاعم والحاجيات المختلفة للبلاط الخلفي والعسكريين الأخدين بحياة الرفاه المدنية ولقصور الأمراء الكثر وموظفيهم ذوي الأعداد المتعاظمة .

وهذا يلقي لنا ضوءاً على الحقيقة التاريخية التالية ، وهي أن الارهاصات (أو الاتجاهات) البورجوازية التي تواجدت آنذاك قد سقطت مع سقوط السلطة الاقطاعية العسكرية . وبالطبع ، نحن لانرى في ذلك **التناقض التاريخي** بين الارهاصات هذه والعلاقات الاجتماعية الاقطاعية المتينة العامل الوحيد في تلاشي آفاق تطور بورجوازية صناعية متميزة الى حد كاف في المنطقة العربية - الاسلامية آنذاك ، وان كنا نعتبره عاملاً جوهرياً في ذلك .

ان «النقد» من حيث هو معادل عام، فرض نفسه في الحياة الاقتصادية العامة شيئاً فشيئاً . ولم يتم التبادل فقط على أساس الصيغة : بضاعة ← نقد ، وانما أيضاً حسب الصيغة : بضاعة ← بضاعة . وقد دفع الفلاحون ضرائبهم المتوجبة عليهم تلقاء الدولة طوال الفترة الأموية وبدايات الفترة العباسية على شكل محاصيل زراعية ينتجونها هم . بيد ان هذا الوضع تغير في القرن التاسع ، حيث « ان الضريبة المتوجبة للسلطة المركزية لقيت تحولاً واسعاً من المحاصيل الزراعية الى النقد » (١) .

لقد اكتسب « التبادل البضائعي » حجوماً كبيرة بين الفلاحين في المدينة وفي الريف . وفي الحقيقة ، كان من نتائج ازدهار الاقتصاد النقدي السوقي ليس فقط التبادل الاقتصادي الواسع بين الريف والمدينة في الدولة العربية - الاسلامية ، وانما أيضاً « تبادلاً » سياسياً مرموقاً . والانتفاضات الفلاحية العديدة ، التي اشتعلت طوال وجود هذه الدولة ، غذيت عن طريق تلك العلاقات الشاملة بين الريف والمدينة ، الى جانب عوامل أخرى ساهمت في ذلك . لقد اخذ الاقطاع يحتل شيئاً فشيئاً في الحقبة الأموية والحقبة العباسية - بشكل خاص - أهمية متعاظمة . فالضباط الكبار والقادة العسكريون كانوا ، في نفس الوقت ، ملاك أراضي وعقارات . ولكن ضمن هؤلاء الملاك في الحقبة الأموية نشأ وتبلور أكثر فأكثر تمايز في الوضع الاجتماعي ، بحيث يمكن الحديث عن فئة النبلاء العسكريين ذوي الامتيازات من طرف ، وفئة الملاك الاقطاعيين من طرف آخر . أما الفئة الأولى فقد تكونت من العرب ، بينما الثانية من عرب وغير عرب .

وقد حدث في احيان كثيرة أن كافات الحكومة المركزية ضباطا وقواداً عسكريين من أصل عربي على انتصاراتهم بـ « أقطاعهم » قطع أرض خصبة كثيراً أو قليلاً ، أو ولاية من ولايات الدولة أو إحدى مناطقها . ولكن الضباط

(١) H. Ley : دراسة حول تاريخ المادية في العمر الوسيط - برلين ١٩٥٧ ، ص ٢٧ .

والقواد العسكريين استطاعوا الحصول على تلك « الهبات » و « المكافآت » بعد أن تمهدوا بدفع كمية محددة من النقد للحكومة المركزية وخلال فترة زمنية محددة أيضاً من قبل الفريقين ، الحكومة المركزية من طرف والقواد والمريدين من طرف آخر . وقد استملك هؤلاء المساحات الواسعة من الأراضي الخصبة في العراق ومصر الخ . . وبالرغم من أن استملاكهم في الجزيرة العربية لم يكن واسعاً ، بسبب الوضع الخاص لأراضي الجزيرة العربية (انظر ما ذكرناه سابقاً حول قضية الأرض) ، فإنه - وخصوصاً منذ العهد الأموي - أصبح مألوفاً . حول ذلك يخبرنا الطبري في « تاريخه » . فهو يكتب لنا عن أساليب تملك واستغلال مثل هذه المساحات الكبيرة من الأرض في العهد الأموي .

ان الاضطهاد الاجتماعي والسياسي لفئات من مصدر غير عربي ازداد في عصر الأمويين بشكل طردي مع عملية تعميق وتوسيع العلاقات القطاعية الانفصالية في الدولة العربية - الاسلامية . ففي بعض مناطق الدولة الضخمة والمتعاطمة نشبت انتفاضات مسلحة ضد السياسة الضرائبية التي مارسها الأمويون ، مثل الانتفاضة التركية في آسيا الوسطى عام ٧٣ هجرية . ذلك لأن الأمويين مارسوا ضغطاً سياسياً واقتصادية ضد الفئات غير العربية كما تخلوا عن أهم المبادئ الاجتماعية التي دافع عنها « الرسول » وعمر بن الخطاب ، وهو إعفاء الناس غير العرب والذين يدخلون الاسلام من جميع الضرائب ، ماعدا « الزكاة » . وقد برزت أهمية هذا « التخلي » خصوصاً في أوساط الفلاحين والارقاء . والجدير بالملاحظة أن معاوية بن أبي سفيان (٦٦١ - ٦٧٩) ، الخليفة الأموي البارز ، أحس بالمخاوف التي يشكلها مواطنو الدولة العربية - الاسلامية غير العرب ضد هذه الدولة . وحول هذا يخبرنا ابن عبد ربه في « العقد الفريد » : « ان معاوية قال : اني رأيت هذه الحمراء (يقصد الفئات غير العربية في الدولة) قد كثرت . . . وكأني انظر الى وثبة منهم على العرب والسلطان ، فقد رأيت أن أقتل شطراً ، وأدع شطراً لاقامة السوق وعمارة الطريق » (١) .

ان السلطة الأموية مثلت في حينها بنية أرستوقراطية قبلية وعسكرية . في إطار هذه السلطة تلاشى الاتجاه الديموقراطي ، الذي طرحه الاسلام ، وحلت محله سلطة سلالة ذات امتيازات اقتصادية وسياسية وعسكرية . وقد تركز اتجاه الأمويين العام تلقاء المواطنين غير العرب والخليطين ، سواء كانوا

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد - جزء ٢ ، ص ٩٠ .

عبيداً أو موالى أو أحراراً من الفلاحين وغيرهم ، على الاحتفاظ لأنفسهم بالمواقع الرئيسية في جهاز الدولة والجيش ، بينما تركوا الآخرين شؤون الزراعة والصناعات الحرفية والعلم والفن . وقد برز الصانع اليدوي والعبد العامل في حقل الصناعة اليدوية كـ « فنانيين » .

في ذلك الواقع لم يُعبّر فقط عن وجه آخر من وجوه قِطاع الحرف اليدوية وقطاع العبيد في المجتمع العربي - الاسلامي الوسيط تجاه العمل الجسدي المرهق والمهين حتى العظم الذي قام به عبيد وحرفيو أثينا وروما قديماً ، وإنما نجد فيه (في الواقع ذاك) واحداً من المبررات الجوهرية التي دعت الى **تضامن** تلك الفئات (العبيد والحرفيين الفقراء والفلاحين المعدمين) وكفاحها ضد الارستوقراطية الاقطاعية . وقد انضم الى تلك الفصائل العوام والفقراء ضمن العرب .

ان الاتجاه الأموي الذي قام على الاضطهاد القومي والاجتماعي للشعوب المنضوية تحت لواء الدولة والفقراء والمعدمين ضمن العرب ، خلق أساساً واسعاً لانتفاضة أولئك ومقاومتهم للسلطة المركزية . والملاحظ ان نتائج تلك الانتفاضة والمقاومة قد استغلت أكثر الأحيان من قبل الاقطاعيين ضمن تلك الشعوب . بالعلاقة مع ذلك الواقع المعقد وجسدت الحركة المسماة بـ « الشعوبية » أرضاً خصبة . لقد رفعت « الشعوبية » شعاراً من قبل الفرس بشكل خاص يحاولون ، من خلاله ، التأكيد على أن الشعوب (والمقصود هنا الشعب العربي والشعب الفارسي) متساوية ، وأن « لأفضل عربي على أعجمي الا بالتقوى » . والحقيقة ، ان الطبقة الاقطاعية الفارسية هي التي غدت تلك الحركة ، هادفة من ذلك الى وضع أنفسهم في موقع مساواة مع العرب الذين أطاحوا بهم . مع العلم ان الطبقة الارستوقراطية الاقطاعية الفارسية كانت تدعي ، قبل نشوء الاسلام واخضاعه فارس للدولة العربية - الاسلامية الجديدة ، بأنها الشعب المختار الممتاز من سائر الشعوب . وقد وجدت هذه الطبقة الاقطاعية الفارسية المغلوبة أرضاً خصبة لدعاوتها ضد العرب بشكل عام ، متسترة في ذلك بشعار المساواة بين العربي والأعجمي ، وذلك في الاتجاه المماثل الذي نشأ ضمن السلطة الاقطاعية الارستوقراطية العربية . فليس من النادر أن نعثر على هذا الاتجاه في نصوص لمثليين لسه مرموقين وغير مرموقين ضمن سادة الحقبة الأموية ، بل وما قبل وما بعد هذه الحقبة . فمعاوية بن أبي سفيان مثلاً قال : « ان الله اختاركم (المقصود هم العرب) من الناس وصفاكم من الامم كما تصفى الفضة البيضاء من خبثها » .

ان تلك الحركة الشعبية باطرافها العديدين ، استغلت لاحقاً من قبل العباسيين الى حد بعيد، بحيث توصلوا ، كما سنرى ، الى السلطة بمساعدة ادعياء المساواة ، الاقطاعيين الساسانيين ، وبمساعدة المعدمين من العبيد والفلاحين الاعاجم والعرب الذين أصيبوا بسهام العنصرية الأموية .

لقد تم اذن اسقاط الأمويين من الحكم في عام ٧٥٠ نتيجة أسباب اجتماعية واقتصادية مرافقة بعوامل قومية (شعبية) ، كما نتيجة النزاعات العنيفة التي أثارها المتنفذون الأمويون أنفسهم ضمن العرب ، هذه النزاعات التي أسفرت عن طابع قبلي (جاهلي) محموم - لان اولئك توخوا من اشغال هذه النزاعات بين عرب الشمال وعرب الجنوب من الجزيرة العربية تدعيماً لمواقعهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الأخذة بالتدهور . ان الظواهر الشعبية (بمعنى القومية) ، التي ساهمت في اسقاط الحكم الأموي ، اكتسبت في الحقبة العباسية الجديدة وزناً في التأثير على الاحداث آنذاك .

وخلال الفترة الطويلة التي حكم خلالها الأمويون ، وتمتد أكثر من قرن ، كان الاتجاه قائماً لتوطيد العلاقات الاجتماعية الاقطاعية ، وذلك بالتعارض مع « المركزية » في السلطة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، هذه المركزية التي ساهم في توطيدها الاجراء الذي قام به الخليفة عبد الملك بن مروان ، وهو مسح شامل لأراضي الدولة . الى جانب هذا « المسح » ساهم ، كما ابرزنا مراراً ، الاقتصاد النقدي في توطيد « المركزية » المناوئة للتفتيت الاقطاعي ؛ وكذلك التجارة ذات الحجوم الضخمة والممتدة آفاقها من البحر الجنوبي حتى القوقاز، ومن البحر الاطلانطيقي حتى الهند والصين وتركستان، وحتى انكلترا أيضاً . والاسطول العربي الاول ، الذي انشأه معاوية ، لم يخدم أغراضاً عسكرية فقط ، وانما ساهم في تعميق حركة التجارة تلك .

ان هذه الامور مجتمعة عملت على توطيد « المركزية » في الدولة العربية - الاسلامية ، وبالتالي على الكفاح ضد « الاقطاع » . ولذا فيمكن اعتبارها، ضمن اطارها الاجتماعي التاريخي ، مظاهر للارهاصات البورجوازية الصناعية المبكرة ، التي سبق وتكلمنا عنها .

★ ★ ★

كان سقوط الأمويين قد تم على يد العباسيين . الا أن هؤلاء الآخرين لم يستطيعوا ذلك الا بعد أن كسبوا الى صفهم جموع الفئات غير العربية ، والفلاحين والعبيد المستثمرين من قبل الدولة ، والعوام المدينيين الذين لا يملكون ، وأخيراً الشيعة والخوارج الثائرين على بني أمية . ولقد أظهرت الأحداث اللاحقة أن العباسيين لم ينشدوا مساعدة تلك الجموع من الفئات السياسية وغير السياسية المضطهدة الا من أجل سحق الأمويين ليحلوا محلهم في السلطة ، وليس بغرض تحرير تلك الجموع .

وكما هو معروف ، كوّن « البرامكة » الفارسيون إحدى الحلقات الرئيسية الأساسية في عملية انجاح وصول العباسيين الى السلطة ، حيث شكل هذان الفريقان نوعاً من التحالف المصلحي الطبقي . ولا شك أن كلا من هذين الآخرين كان ينطوي على مطامح خاصة ، أدت لاحقاً الى خلق تعارض ، ثم صراع بين الفريقين المومي اليهما . وقد تم هذا فعلاً عام ٨١٣ ، حيث بدأ العباسيون بهجوم عنيف على البرامكة ، حلفائهم السابقين . بيد أنه علينا هنا الإشارة إلى محدود أساسي ، أوقع في شركه مجموعة ضخمة من الباحثين العرب والأجانب ، وهو أن النزاع والصراع الدموي الذي نشب بين العباسيين والبرامكة الفارسيين لم يكن أبداً بين العرب والفارسيين عموماً ، كما توهمنا بذلك الأعداد الضخمة من كتب التاريخ ، بل أنه كان فعلاً بين طبقتين اقطاعيتين في المجتمع العربي - الاسلامي وفي فارس .

أما الفلاحون المعدمون والعبيد التابعون للدولة والعوام المدينيون ضمن الأعاجم والعرب على حد سواء ، الذين ساهموا بشكل حاسم في كسب المعركة ضد الأمويين ، فقد وجدوا أنفسهم في وضع اجتماعي - اقتصادي مماثل ، في الخط العام ، للوضع السابق عليه . فلم تمض خمس سنوات على تأسيس السلطة العباسية ، أي في عام ٧٥٥ ، حتى اشتعلت الانتفاضة الفارسية المسماة بـ « زمباس » ضد هذه السلطة .

لقد أخذ تطور الاقتصاد والثقافة في ظل السلطة العباسية يكتسب آفاقاً جديدة واسعة خصوصاً في عهد هارون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩) والمأمون (٨٣٣ - ٨١٣) ، وذلك بالعلاقة مع تخفيض نسبي للضرائب المتوجبة على الفلاحين ، ومع إقامة أنظمة سقاية ذات حجوم ونوعيات عالية ، وكذلك بالعلاقة مع استصلاح واستغلال مساحات واسعة من الأراضي الزراعية . ان الزراعة المتطورة ، والتجارة الواسعة المنفتحة على العالم ، والانتاج

البشائي ، والصناعات اليدوية ، ونظام الحرف المتطور ، ان ذلك كله استطاع بلوغ قمة عالية في تطوره آنذاك ، وذلك بالعلاقة مع المكتسبات العلمية والتكنيكية التي انجزها علماء ذلك العصر وعصور الحضارات القديمة الزاخرة . وجدير بالابراز واقع انه مع تطور الاقتصاد النقدي ازدهر أيضاً رأسمال تجاري قوي ، مما اثر على عملية تجديد الانتاج الاقتصادي بشكل ايجابي فعال . ذلك لان قسماً كبيراً من ذلك الرأسمال وُضع في خدمة تطوير الانتاج وفي ايجاد فروع انتاجية جديدة . لقد انتهى وقت الفتوحات عام ٧٣٢ ، حيث كان الامويون لا يزالون في السلطة . وبغض النظر عن عمليات الفتوحات القليلة ، التي قام بها العباسيون ، مثلاً في صقلية ، فقد تميزت الحقبة العباسية بازدهار مدهش في الحقول الاقتصادية والاجتماعية والثقافية: في بغداد اقيم مثلاً سوق صيني بكامله بيعت فيه افضل الاصناف من الفرو والجلد والشمع والسلاح ؛ وفي فارس تطورت صناعة السكر ؛ وصناعة الزجاج وجدت في سوريا وفلسطين . وقد انتج في بغداد الزجاج الملون ، وكذلك الورق عام ٧٩٤ - ٧٩٥ . وفي بغداد نفسها كما في مناطق اخرى من الدولة العربية - الاسلامية تأسست فبارك لانتاج الورق . هناك نجد الورق الحريري وورق الكتابة وأنواعاً أخرى صنعت من الكتان والخرق .

كما انه تم انتاج انواع مختلفة من العطور ، التي تقتضي ، لكي تستخرج ، وجود معارف كيميائية معينة. بالإضافة الى ذلك تطورت صناعة المنسوجات والسجاجيد بشكل واسع (١). أما صياغة الذهب فقد عملت ، ضمن ما عملته ، على تغطية حاجات فنون الزينة ، التي استخدمت في قصور الخلفاء والقادة العسكريين والتجار الاثرياء ، وفي المساجد والمؤسسات العامة الخاصة بالدولة . وقد اتسع نطاق استعمال النقد المعدني (الذهب والفضة) شيئاً فشيئاً ، من حيث هو وسيلة أساسية من وسائل التبادل الاقتصادي ، بالرغم من انه لم يسيطر على ذلك /النحو في الحياة الاقتصادية للريف . في اطار هذه المسألة اكتشف البعض نقوداً عربية من تلك الفترة في روسيا وسكاندينافيا (٢) .

أما التطور السريع والفني للعلوم الطبيعية والتجريبية، كعلم الميكانيك (الحيل) والكيمياء والحيوان والنبات والفلك ، فقد ساهم بشكل ملحوظ

(١) انظر حول ذلك : ي. حل ، الحضارة العربية - نفس المعطيات السابقة ، ص ٩١-٩٤ .

(٢) انظر : نفس المصدر السابق ، ص ٩١ . انظر أيضاً : لاندائو ، الاسلام والعرب - نفس

المعطيات السابقة ، ص ٨٠ .

في تكوين ذلك الازدهار الشامل . ان البنية الاجتماعية الاموية السابقة «الاحادية» الجانب و «المغلقة» ازيلت هنا من خلال بنية اجتماعية «مختلفة» طبقياً ومتعددة الجوانب ومنفتحة عالمياً . والموالي شاركوا ، ضمن اطار هذه البنية العباسية ، ليس فقط في الشؤون الاقتصادية ، وانما أيضاً في تلك ، السياسية والعسكرية للدولة . وبتعبير ادق يمكن القول بان المملكة العباسية ضمت في شرايينها النبلاء الاقطاعيين والتجار الكبار وارباب البنوك ضمن مختلف الشعوب التي انضوت تحت لوائها . اما الارهاصات ، وربما يمكننا القول ، الاندفاعات البورجوازية القوية المبكرة ، التي احتواها تطور الانتاج البضائعي والاقتصاد النقدي ، فانها استطاعت فرض نفسها في كل مكان انبثقت فيه وتاججت شعلة الكفاح الواعي قليلاً او كثيراً ضد عمليات الانفصال والتمزق في جسد الدولة . أي ان تلك الاندفاعات فرضت نفسها الى حد بعيد ، حيثما نشأت وتطورت علاقات بضائية نقدية بين السوق المحلي والسلطة المركزية في داخل الدولة ، كما بين الدولة وأسواق اجنبية . مثل الهند وروسيا . ولا شك ان هذا كان قد اقتضى وجود رأسمال تجاري مارس الى جانب عوامل أخرى دوراً حاسماً في الحياة الاقتصادية .

بيد ان تلك الاندفاعات البورجوازية القوية لم تكتسب طابعاً متميزاً مستقلاً وشاملاً الى حد كاف . وقد ساهمت في تكوين هذا الوضع طبيعة عملية نشوء وتطور هذه الاندفاعات ، هذه العملية التي تميزت ، كما سبق ورأينا ، بتواطؤهما التاريخي مع مصالح النخبة الاقطاعية الارستوقراطية العسكرية المسيطره على الأجهزة العليا في الدولة وعلى الحياة الاقتصادية الزراعية بشكل خاص .

ولقد حاول النبلاء الاقطاعيون في الشعوب المختلفة للدولة دائماً اثاره الوهم بان كفاحهم ومنافستهم مع السلطة المركزية في هذه الدولة ما هو إلا كفاح فلاحهم وصناعهم اليدويين وعوامهم الفقراء وعبيدهم ضد السلطة هذه ، وذلك دفاعاً عن حقوقهم (أي حقوق اولئك الفلاحين الخ . .) المهضومة . والنبلاء الاقطاعيون اولئك كانوا يهدفون من ذلك اكساب محاولاتهم في الانفصال والاستقلال عن الدولة المركزية طابعاً مشروعاً . وكمثال على هذا نستطيع ذكر النضال الذي نشب بين النبلاء الاقطاعيين الفارسيين ، وبطلانهم البرامكة ، من جهة والسلطة المركزية للدولة من جهة أخرى ، هذا النضال الذي أدى الى نزع السلطة من البرامكة وتجريدتهم من كثير من امتيازاتهم . ولكن في نفس الوقت نشبت انتفاضات عديدة للفلاحين والعبيد في مختلف المناطق والدويلات التابعة للدولة ضد الاضطهاد الاجتماعي والاقتصادي الذي مارسه ضدهم الأمراء والقادة المحليون ، الممثلون للخلافة . لقد كان لأولئك

الفلاحين والعبيد مطالب اجتماعية واقتصادية لم يستجيب لها الأمراء والقواد
المشار اليهم .

ولقد استدعى هذا الواقع انتشار بعض الحركات « القومية » ضمن
شعوب الدولة، هذه الحركات، التي وان كانت أحياناً ، كما رأينا ، مشروعة
في نشأتها ، فانها استغلت حتى الحد الأقصى من اقطاعي تلك الشعوب
الذين سعوا للانفصال والاستقلال . ولذلك فان تلك الحركات القومية كانت
معرضة للتلوث بمخاطر « الشعوبية » الشوفينية . بيد أن المضمون الطبقي
بقي جانباً جوهرياً من جوانب دوافع الحركات تلك . ونحن نستطيع أن
نرصد في تاريخ الحقبة العباسية الانتفاضة البابكية الخرمية كواحدة من
أهم وأعمق انتفاضات العصور الوسطى قام بها عبيد فلاحون وعوام أحرار
ونصف أحرار معدمون واستمرت من عام ٨١٦ حتى عام ٨٣٨ في إيران وفي
أذربيجان . وقد شارك في هذه الانتفاضة إيرانيون وأكراد وأتراك وعرب
أيضاً (١) . إلا أن المخاطر كانت قد وجدت لاستيعاب وامتصاص آفاق هذه
الانتفاضة من قبل اقطاعي تلك الشعوب وتحويلها من حركة مشروعة
تهدف الى تعميق اتجاهات التقدم التجاري والصناعي النقدي ، التي كان
بإمكانها (أي الاتجاهات هذه) استيعاب تلك الحركة وحركات مماثلة أخرى
من خلال تحقيق بعض مطالبها ، الى حركة اقطاعية انفصالية شعوبية
(بالمعنى الشوفيني) .

ومن خلال الانتفاضات الثورية الكثيرة والمتتالية للفلاحين والعبيد والعوام
ضد السياسة الضرائبية للسلطة المركزية الممثلة بأعوانها الأمراء المتنفذين في
مناطق الدولة المختلفة (ومن الجدير بالذكر أن هذه السياسة الضرائبية لم
تنفذ على نحو واحد ومتساو في تلك المناطق؛ وسبب ذلك يعود الى الظروف
السياسية والاقتصادية المتميزة في الاقطار المتميزة في تطورها وإلى علاقات
الأمراء المتنفذين بالسلطة المركزية) ، وكذلك من خلال نوازع الاستقلال
والانفصال لدى الأمراء والقادة عن السلطة المركزية وتحقيق ذلك في مناطق
مختلفة من الدولة (٢) ، وأخيراً من خلال اضعاف السلطة المركزية في بغداد

(١) انظر حول ذلك تفصيلاً لدى الطبري في « تاريخه » ، ولدى أبي منصور البغدادي في
« الفرق بين الفرق » .

(٢) نذكر على سبيل المثال على ذلك الامارة الاموية التي نشأت في اسبانيا عام ٧٥٦ . كما
أسس ادريس بن عبد الله سلالة شيعية في مراكش ٧٨٨ . وسيطر الاغالبة على تونس بعد عام
٨٠٠ . وبين ٨٦٨ و ٩٥٠ ساد حكم الطولونيين في مصر الخ ١٠٠٠ .

نتيجة النزاعات ضمن هذه السلطة التي اشتعلت بين العرب والفرس والأتراك الخ . . من خلال ذلك كله وضعت صعوبات جديدة وضخمة على طريق تطور الانتاج البضائي وتسويقه على مستوى مناطق الدولة بمجموعها .

وقد حاولت السلطة المركزية أن تحدد ، لصالحها ، من اتجاه التمزق والانفصال ذلك . لقد توجب عليها أن تكافح ، في آن واحد ، ضد العصاة والمتمردين من ممثليها الأمراء والحكام في المناطق العديدة ، وضد الحركات الثورية الفلاحية والريفيكية . ومن أجل ذلك استخدمت السلطة المركزية محاربين مأجورين من المدينة والريف - وضمن هؤلاء الكثير من العوام الفقراء والارقاء والفلاحين الذين لاملكية لهم . ومنذ خلافة المعتصم (٨٣٣ - ٨٤٢) مروراً بالوائق (٨٤٢ - ٨٤٧) والمتوكسل (٨٤٧ - ٨٦١) أرغمت السلطة المركزية على دخول معارك مستمرة ، وأكثر الأحيان يائسة ضد المتمردين من كل نوع .

وقد قدم لنا تاريخ تلك الفترة العسيرة أمثلة حية من الحركات الثورية، التي قام بها العبيد والفلاحون المسحوقون ؛ ولاشك أن الحركة القرمطية والحركة التي قام بها الزنوج في البصرة تقفان في طليعة تلك الأمثلة .

من ناحية أخرى ينبغي أن نشير الى أن اتجاه التمزق الى دويلات في فتراته المتأخرة قد أدى - آخذين بالطبع بعين الاعتبار التقدم الذي تم حتى ذلك الحين في حقلي الاقتصاد والتكنيك - الى أن تنشأ بعض الدويلات التي ازدهر فيها الاقتصاد النقدي والتجارة والزراعة بشكل ملحوظ ، كما كان الأمر مثلاً في مصر أيام الطولونيين (من ٨٦٨ حتى ٩٥٠) وفي اسبانيا الأموية . في هذه الدويلات تكونت أسواق مستقلة نسبياً عن سوق الامبراطورية الشامل وحياة سياسية وثقافية متطورة .

بيد ان التمزق الاقطاعي المتنامي للدولة العربية - الاسلامية حدة على العموم وأكثر فاكثراً من امكانيات التبادل البضائي على مستوى الدولة هذه، وجلب معه بالتالي نتائج سلبية بالنسبة الى الدويلات والاقطاعات من حيث هي منفردة . على ذلك النحو أخذت الخلافة تعاني أكثر فاكثراً من صعوبات سياسية واقتصادية وحربية . وقد رافق ذلك تغيير مستمر في الاسر الحاكمة في بغداد . وان كان ممكناً في القرنين التاسع والعاشر أن تنشأ وتتطور مراكز تجارية وثقافية عملاقة، فقد أصبح هذا فيما بعد غير وارد . كما أن العلاقات الاقتصادية بين المناطق المختلفة للدولة أضعفت في القرنين الحادي عشر والثاني عشر بشكل قوي ؛ والنزاعات اللاحقة بين تلك المناطق قادت الى

الخراب الاقتصادي . أما الارهاصات والانذافات البورجوازية القوية في اطار القوى المنتجة فقد اصابتها ضمور وازمة من خلال اضعاف السوق التجارية الشاملة والتبادل البضائعي ومن خلال العصيانات ذات النزعات الانفصالية ، والحركات الثورية الفلاحية والرققية الاصلية .

وقد عمل التمزق القطاعي للمجتمع وازالة وحدته السياسية والاقتصادية والجمركية النسبية على تسهيل عملية تكوين الحرف المنزلية البدائية ، كالغزل ، وارتداد اقتصاد الدولة العام الى الزراعة البدائية المتخلفة بقوى انتاج وعلاقات انتاج قنية خاملة .

وحين حاول الخليفة الناصر (١١٨٠ - ١٢٢٥) يائساً « للممة » الخلافة واعادة وحدتها، كان العصر قد استنفد آفاق مثل هذه المحاولة . فالمنقول وقفوا ، وفي مقدمتهم هولاء ، في بغداد بقبضتهم المدمرة . فقفوا بحقد ووحشية على ما تبقى من معالم الحياة الاقتصادية والثقافية والصناعية . وكان ذلك خطأ فاصلاً بين عالمين (مجتمعين) ، كان آخرهما تكتيفاً لحياة اقتصادية وسياسية وفكرية اقطاعية متخلفة حتى الاعماق .

* * *

اثناء موجة الفتوحات الخارجية اخضعت في عهد الامويين اسبانيا - ماعدا المنطقة الجبلية - أستوريا - من قبل العرب ما بين ٧١١ و ٧١٨ . بيد انه بعد سقوط السلطة الاموية في دمشق عام ٧٥٠ هرب الاموي عبد الرحمن الاول الى اسبانيا ، واسس هناك في عام ٧٥٦ امارة قرطبة .

لقد كانت اسبانيا منذ القرن الخامس تحت قبضة القوط الغربيين . وفي القرن السادس سقطت اسبانيا الجنوبية على أيدي البيزنطيين . بيد انه خلال سيطرة القوط الغربيين كان « الاقطاع » قد تحول الى المؤشر الجوهرى الحاسم في العلاقات الاجتماعية للمجتمع الاسباني . وقد سقطت مملكة القوط الغربيين في القرن السادس تحت ضغط الانتفاضات الفلاحية واتجاهات التمزق والانفصال القطاعي .

والآن ، ان كان العرب قد استطاعوا اخضاع اسبانيا الاقطاعية المتداعية في خلال سنتين ، فان هذا لايجد تفسيره فقط في التمزق والضعف السياسيين والاقتصاديين للبلد ، وانما أيضاً - وهذا له دلالة الكبيرة - في « البديل » الذي قدمه العرب الفاتحون لاسبان ، وهو حضارة غنية عملاقة وانسانية على وجه العموم .

ان اهم شيء قام به العرب هناك كان : ١ - انتزاع مساحات ارض

خصبة واسعة من الملاك الكبار المحليين وتقسيمها على الاقنان المسحوقين والذين لاملكية لهم ؛ و ٢ - تخفيض الضرائب التي توجب على الفلاحين والعوام الاحرار وانصاف الاحرار دفعها للدولة . وبما ان الدخول في الاسلام كان يعني بالنسبة الى العبيد والاحرار المعدمين ضمن الفلاحين والعوام المدينين تحريرهم من الضرائب (ومن الزكاة أيضاً ، لان دخولهم المعاشية كانت منخفضة) والعبودية ، فقد دخل فعلاً فيه ، اي في دين الفاتحين ، اعداد ضخمة من اولئك البؤساء . كذلك الآخرون الآخذون بدين توحيدي ، اي اهل الكتاب من مسيحيين ويهود ، استطاعوا الاحتفاظ بدينهم والعيش باطمئنان ضمن العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية الجديدة . بيد انه توجب عليهم دفع ضريبة « الجزية » للدولة المركزية ، وذلك مقدار دينار ذهبي واحد في السنة عن الرأس الواحد من الرجال ، اما النساء والصبيان فلا (١) .

ان هذا يري ان العرب الفاتحين قد عملوا ، من خلال خطواتهم الهامة تلك ، على تغيير العلاقات الاجتماعية الاقطاعية تلك وهزها واضعاف العبودية ، وان لم يعملوا على ازالة هاتين الظاهرتين الاجتماعيتين بشكل نهائي . هذا الى جانب ومن خلال قيامهم ببناء مجتمع جديد قائم على تجارة مفتوحة على العالم واقتصاد نقدي متقدم . وهذا يفسر لنا كون العرب الفاتحين لم ينظر اليهم من قبل جماهير الاقنان والعوام الاحرار ونصف الاحرار والعبيد كغزاة ، بل كمحررين ، بالمعنى الدقيق للكلمة . وقد عبر ذلك عن نفسه فكراً ذهنياً من خلال التسامح العميق الذي أبداه العرب المسلمون تجاه المسيحيين واليهود الاسبان . فمما يذكر ان المدن الرئيسية قرطبة وغرناطة وبعض المدن الأخرى اديرت من قبل اليهود المقيمين هنالك .

لقد عاشت اسبانيا تحت السيطرة العربية ، وعلى الخصوص منذ عهد الامويين هناك ، نهوضاً بارزاً في المجالين الاقتصادي والثقافي . فلأول مرة في تاريخ البلد تدخل فيه السقاية الاصطناعية بشكل واسع واساليب زراعية جديدة ونباتات جديدة ، مثل الرز وقصب السكر والمشمش والرمسان والبرتقال والصوف (٢) .

وجدير بالابراز الواقع التالي ، وهو انه قد تكوّن في اطار السلطة السياسية المركزية هناك أساس واسع ومتعدد الجوانب لازدهار الانتساج

(١) انظر : ر. لاندوا ، الاسلام والعرب - نفس المعطيات السابقة ، ص ١٧٢ . و : احمد أمين ، فجر الاسلام - نفس المعطيات السابقة ، ص ٨٦ .
(٢) انظر : ر. لاندوا ، الاسلام والعرب ، نفس المعطيات السابقة ، ص ١٧٧ .

البضائمي والاقتصاد النقدي ، وبالتالي لحركة تبادل بضائمي واسعة وذات وتأثير عالية . وقد امكن لذلك الواقع أن يكتسب مضامينه الحقيقية الدافقة على طريق تحويل ملكية الارض الصغيرة الحرة من قبل الفلاح المحرّر الى المؤشر الرئيسي للعلاقات الاجتماعية الانتاجية في الريف ، ومن خلال التحاق العبيد المحررين بقطاعات مختلفة من المجتمع ، كالقطاع الفلاحي والصناعي اليدوي والعسكري ، وأخيراً من خلال ادخال نظام مرموق لمنشآت السقاية ذات الحجم الضخم وتطوير التجارة والصناعة اليدوية التي انتجت ، على سبيل المثال ، السيوف والاسلحة الاخرى المستعملة آنذاك ، وقامت بتحويل المعادن .

ان تحويل - بل نود ان نقول تثوير - العلاقات الاجتماعية وقوى الانتاج جلب معه طبقات وفئات اجتماعية جديدة. وقد شكلت المدينة ، خلال ذلك ، الترسانة الرئيسية للارهاصات والاندفاعات البورجوازية الفتية . فقرطبة ، زينة الدنيا (١) ، كانت مثلاً بارزاً على ذلك . ان تعداد سكانها بلغ في عهد السيطرة الاموية نصف مليون . لقد عمل فيها في مجال استخراج الحرير فقط ، هذه الصناعة التي بلغت هناك وتأثير ضخمة في تطورها ، ما يقارب ثلاثة عشر الفا من العمال ، وفيها ، أي قرطبة ، وجد سبعون مكتبة عمومية ، وثلاثمائة حمام عمومي ، وسبعمئة مسجد ، ومدارس حكومية مجانية كثيرة ؛ كما وجد فيها الجامعة الشهيرة باسمها ، ومكتبة الحكم الثاني ، التي احتوت اربعمائة الف مجلد (٢) .

ومن الامور الهامة الجديرة بالملاحظة الدقيقة ان الامارة الاموية (استمرت من ٧٥٦ حتى ٩١٢) ولاحقاً الخلافة الاموية (وجدت من ٩١٢ حتى ١٠٣١) مارستا دوراً مختلفاً عن دور الامويين المسقطين في المشرق العربي . والحقيقة ان فترة الازدهار هناك انطلقت تكتسب ابعادها وآفاقها الزاخرة بعد القضاء على حركات « الشغب » والفوضى في قرطبة ومدن اندلسية اخرى قام بها امرء مقاطعات اقطاعيون او متواطئون مع الاقطاع لتجزئة الدولة . وقد تم ذلك اثناء حكم الخليفة عبد الرحمن الثالث (٩١٢ - ٩٦١) . ان هذا استطاع الاسهام في تكوين دولة قوية موحدة سياسياً . ومع الحكم الثاني (٩٦١-٩٧٦) بلغ التقدم الاقتصادي والثقافي في اسبانيا العربية - الاسلامية قمته الاولى ، وتكوّن وجه مشرق جديد في تطور البلد تحت سلطة الامويين.

(١) انظر : T. J. de Boer : تاريخ الفلسفة في الاسلام - شتوتغارت ١٩٠١ ، ص ١٥٤ .

(٢) انظر : ر. لاندوا ، الاسلام والعرب ، نفس المطبوعات السابقة ، ص ١٧٧ . و : ي. هـ. ، الحضارة العربية ، نفس المطبوعات السابقة ، ص ١١٩ .

المغربيين . لقد كتب حول ذلك هـ. لاي (برلين) بحق ، بأن الأمويين « حققوا في المغرب ، ما حاول أسلافهم (الأمويون) في المشرق أن يكبحوه . فبينما هم في بغداد أقاموا سلالة للأقطاع والاضطهاد (العنصري) ، نراهم في المغرب قد أثروا على نحو تقدمي ، حيث أنهم ساعدوا على تحطيم العلاقات الاقطاعية القائمة وبقايا العبودية... (١) » .

ونحن نرى واحداً من الاسباب الحاسمة لذلك في الواقع التاريخي ، وهو أن الأمويين ، الذين كونوا في المغرب دولة موحدة قوية ، لم يفعلوا ذلك على أساس مخلفات الامارات الاقطاعية المتقاتلة فيما بينها في البلد ، وليس على أساس التحريك المستعمر للمصالح القبلية البطركية وأغبياءهم من المصالح ، وأخيراً ليس على أساس الاضطهاد الاقتصادي والاجتماعي والثقافي لآبناء الشعوب المختلفة للدولة . بعكس ذلك ، توجب عليهم ، هذا في المغرب العربي ، أن يكافحوا أولئك الامراء والاعوان الاقطاعيين . ذلك لأن تقدم القوى المنتجة للمجتمع الاسباني آنذاك لم يعد ممكناً على أساس التمزق السياسي والاقتصادي الاقطاعي المريع . وإن حطم الأمويون المغاربة تلك العمارة الاقطاعية المتآكلة ، وعملوا على بناء مجتمع « حديث » متقدم ، فانهم فعلوا ذلك مدفوعين بعوامل عديدة ، في طبيعتها مطالب التقدم في حقل السقاية والتجارة ، هذا التقدم الذي كون لنفسه جذوراً عميقة في المشرق العباسي ، ومتطلبات تكوين وتطوير مجتمع قادر على حل المشكلات العديدة والمعقدة ، التي طرحت آنذاك . ولا شك أن الأمويين المغاربة قد استخلصوا بدراية وتيقظ دروس الهزيمة العميقة للأمويين في دمشق ، ودروس التنافس الواسع والشامل بين قرطبة الأموية وبغداد العباسية .

في عام ١٠٣١ سقطت هذه السلالة الأموية في اسبانيا . وقد بدأ اتجاه السقوط هذا يقوى بعد انتزاع السلطة من أيدي الخليفة الصغير هشام ابن الحكم من قبل « الحاجب » المنصور بن أبي عامر واقامة ديكتاتورية سلالته رجعية متواطئة مع الامراء الاقطاعيين ومناهضة للتقدم الحضاري العام .

ان الدولة - السلطة - المركزية ، التي ازدهر فيها بشكل مدعش الاقتصاد النقدي ، والتبادل البضائي ، والتجارة المفتحة على العالم ، وتكنيك سقاية متطور جداً ، وبالتالي زراعة عالية الوتائر الانتاجية وصناعات يدوية متعددة ، ان ذلك كله سار في اتجاه التلاشي تحت الضغط القوي

(١) هـ. لاي : دراسة حول تاريخ المادية في العصر الوسيط - نفس المطبوعات السابقة ،

المتنامي لاتجاهات التمزق والانفصال في مناطق الدولة المختلفة في ظل سيطرة السلالة تلك . وقد بلغ مدى التمزق هذا حداً تحولت الدولة فيه الى أكثر من عشرين امارة ، سميت بـ « الطوائف » . ولم يمض زمن طويل بعد موت المنصور بن ابي عامر حتى اشتعلت في البلد حرب أهلية (١) . بيد ان حكم « الطوائف » الاقطاعية هذه لم يستمر طويلاً ، حيث سقط بفعل التحركات الداخلية المناوئة وبفعل الغزو الذي قام به للبلاد « المرابطون » ؛ وهم شعب مراكشي بربري .

لقد أقام هؤلاء في اسبانيا ومراكش (أفريقيا الشمالية) دولة مركزية ارستوقراطية قبلية أخذت فيها بعين الاعتبار التركة العربية - الاسلامية المشرقة . ولكن في الوقت الذي احتفظوا فيه بالكتسبات الاقتصادية والثقافية لاسلافهم العرب الاسلاميين ولم يعرضوها للضياع أو التلاشي ، فانهم لم يطوروها الى امام بشكل ملحوظ . بل انهم في حالات وحقول معينة مارسوا دوراً سلبياً . من ذلك ، مثلاً ، الملاحقة التعصبية العنيفة للمسيحيين واليهود المحليين وللflasفة والفلاسفة بشكل عام أثناء حكم علي بن يوسف تاشفين (١١٠٧ - ١١٤٣) - وقد كان هذا الأخير ، اي يوسف بن تاشفين مؤسس السلالة المرابطية .

وقد سقط الحكم المرابطي عام ١١٤٧ على أيدي سلالة أخرى تميزت باتجاهاتها الاجتماعية - الاقتصادية المنفتحة المتقدمة وتفكيرها المتحرر ، وهي سلالة الموحدين .

لقد أتى هؤلاء من شمالي افريقيا ، واستطاعوا أن يسيطروا على اسبانيا حتى ١٢١٢ . أن تأسيس سلطتهم وتطورها كانا ذا أهمية جوهرية بالنسبة الى احياء وتطوير حضارة الاقتصاد النقدي والتجارة ذات الحجم العالمية ، التي (اي الحضارة) أرسى دعائمها وعمقها العباسيون في المشرق ، والامويون في المغرب .

ان الموحدين قد خلقوا بقيادة ابي يعقوب يوسف (١١٦٣ - ١١٨٤) وبعده ابي يوسف المنصور (١١٨٤ - ١١٩٩) دولة ساهم فيها المسلمون والمسيحيون واليهود مجتمعين بتطوير الاقتصاد الزراعي والتجارة والحرف اليدوية والثقافة بشكل عام . وقد مات مؤسس هذه السلالة الموحدية ، محمد بن تومرت ، قبل انتصار سلالته على المرابطين .

وفي الحقيقة ، أن تنويع الازدهار الاجتماعي - الاقتصادي والثقافي

(١) انظر : م . بيجار ، في فلسفة ابن رشد - القاهرة ١٩٥٤ ، ص ٢١ .

لإسبانيا العربية - الإسلامية قد تم تاريخياً في عصر الموحدين . وقد أغنى هؤلاء التحولات العميقة في البلد بخصائصهم القومية المتكونة عبر تاريخ مديد .
ان I. Goldzieher يمثل الرأي بأنه لم يكن ممكناً في دولة الموحدين أن يتقلد أحد وظيفة قضائية دون أن يكون مسيطراً على اللغة البربرية (١) .
الا أن الموحدين هؤلاء ، الذين حكموا طوال ستة عقود من السنين ، أرغموا أخيراً على مواجهة نهايتهم نتيجة النزاعات المستمرة مع الدويلات المسيحية المجاورة والموحدة عسكرياً ، وتحت ضغط اتجاهات التمزق والانفصال الاقطاعي الداخلية . ففي عام ١٢١٢ انتصرت القوى الموحدة الخاصة بكستيليا وأراغون ونافاراً والبرتغال على آخر أمير موحد ، هو محمد الناصر ، في معركة قرب Las Navas de Tolosa .

وكان بذلك نهاية تلك الحضارة العربية - الإسلامية التي ساهمت بعمق وبشكل شامل في اغناء مكتسبات البشرية الاجتماعية - الاقتصادية والثقافية .

* * *

وأخيراً ، حين نحاول رصد الملامح الأساسية والجوهرية للمجتمع العربي « الجاهلي » ، ومن ثم للمجتمع العربي - الإسلامي بشكل موجز ومكثف ، فإننا نواجه النقاط التالية :

١ - ان المجتمع العربي في حقبة « الجاهلية » كان مجتمعاً قبلياً بطريركياً ، ثم تطور ، في الحقبة العربية - الإسلامية الى اقطاعية ليس عبر العبودية ، وانما بشكل مباشر ؛ أي دون أن يمر بالعبودية ، من حيث هي نظام اجتماعي متكامل ومتطور وشامل . والعبودية وجدت كذلك في المجتمع القبلي ذلك ، ولكن كظاهرة خاضعة للاطر الاجتماعية - الاقتصادية العامة لهذا المجتمع .

بذلك يبدو لنا عدم قدرة التعبير « الجاهلية » على احتواء الملامح الجوهرية الاجتماعية والاقتصادية للفترة هذه . فبدلاً من ذلك التعبير نقترح التحديد المفهومي التالي : « المجتمع القبلي البطريركي » .

٢ - ان انحلال المجتمع العربي القبلي البطريركي تم بشكل رئيسي ، كما قلنا ، ليس على طريق نظام اجتماعي عبودي شامل ، بل من خلال ثلاثة اتجاهات مجتمعة ، هي الاقطاعي والعبودي والى حد ما البورجوازي الأولي المبكر . بالطبع ، لم يبق الأمر لاحقاً ، كما كان في بدايته . فالاتجاه

(١) انظر : ١. غولدسيهر - مواد لمعرفة حركة الموحدين في إفريقيا الشمالية - نشرت في « المجلة الألمانية لجمعية بلاد الشرق » ، مجلد ٤١ ، لايبزغ ١٨٨٧ ، ص ٧١ .

الاقطاعي استطاع أخيراً أن يدمج المجتمع بطابعه الحاسم . ومن الجدير بالابراز واقع أن العبودية منذ العصر القبلي البطريركي (الجاهلي) حتى اضمحلال المجتمع العربي - الاسلامي في وقت متأخر كانت قد أثبتت موجوديتها دائماً ، ولكن من حيث هي ظاهرة مرافقة . من طرف آخر نلاحظ أن القبلية البطريركية لم تتلاش من خلال بديل اقطاعي . فالارستوقراطية القبلية المكيّة لم يشهر السلاح في وجهها من قبل ارستوقراطية أرض ، أو من قبل اقنان وفلاحين . لقد أبرزنا سابقاً ، ان الاسلام قد اكتسب ملامحه الأولى الاساسية من حيث هو تعبير عن الحاجات والمصالح المتنامية للحركة التجارية الواسعة ، التي كان يكبح من نموها الاقتتال العنيف بين المجموعات القبلية المختلفة . والذي حدث ، ويستحق كامل الاهتمام والدراية ، هو أن تحقيق تلك المطالب والمصالح التاريخية للتقدم الاجتماعي قد تم بشكل رئيسي عبر النهوض بالمستوى الاجتماعي والاقتصادي والثقافي للرقيق والعوام الأحرار وأنصاف الأحرار . وبتعبير آخر ، ان النهوض بذلك المستوى ورفعها بشكل ملحوظ تاريخياً لم يمكن تحقيقه الا من خلال الإسهام في خلق علاقات اجتماعية واقتصادية جديدة ، تتميز بشكل أساسي بأنها تحقيق لتعادل ومساواة اجتماعيين معينين . بالإضافة الى ذلك ، من الملاحظ ان تحقيق تلك المطامح التاريخية لقي ارهاصات عميقة من خلال عملية الفتوحات لبلدان اجنبية ومن خلال تنظيم الطرق التجارية بشكل دقيق ومأمون . هنا يكفي أن نشير الى مدينة البصرة ، التي أسست في عهد عمر بن الخطاب عام ٦٣٥ ، والتي كانت صلة الوصل في عملية التجارة البحرية بمجموعها في حوض الخليج العربي .

في مجرى ذلك أخذت اتجاهات اقطاعية وبرجوازية اولية تطرح نفسها بوتائر مختلفة في نطاق المجتمع العربي - الاسلامي الوسيط . ومن الأهمية بمكان ان نلاحظ الواقع التالي ، وهو أنه طوال الفترة التي تواجدت فيها الدولة آنذاك ، بدءاً من خلافة أبي بكر (٦٣٢ - ٦٣٤) وانتهاءً باضمحلالها أيام السلطة العباسية ، لم تستطع « العبودية » ولا الاتجاه البورجوازي الأخذ في النمو اكساب العلاقات الاجتماعية السائدة الطابع الجوهري المحدد لها . لقد ظلا ، أي العبودية والاتجاه البورجوازي ، ظاهرتين مرافقتين للاتجاه الكبير الحاسم والمتعاضد في تحديده لإطار العلاقات الاجتماعية تلك . ضمن هذا التحديد للمسألة نجد « هـ . لاي » محققاً حين يكتب : « في اقطاعية

المجتمع العربي - الاسلامي يمكن تقرير وجود عناصر للمجتمع العبودي ،
واخرى للتمزق الاقطاعي ، وبدايات (وضع) مركزي ، هذه البدايات التي
قامت على عوامل بدات معها صيرورة مجتمع بورجوازي (١) » .

٣ - أما «الاقطاعية» فقد أخذت شيئاً فشيئاً، ومنذ تكوّن الخلافة ،
تكتسب أهمية متعاظمة ، واصبحت في العهد الأموي ، ومن بعده العباسي
الشكل الرئيسي في العلاقات الاجتماعية الانتاجية .

وقد تم هذا ليس فقط انطلاقاً من قانونية التطور الداخلية ، مع ان
هذه قد مارست في ذلك التأثير الحاسم ، بل أيضاً تحت تأثير الحضارات
القديمة الشهيرة في بيزنطة وما بين النهرين ، هذه الحضارات التي تجاوزت
في الحقل الاجتماعي - الاقتصادي التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية القائمة
على العبودية من خلال اقامتها للاقطاعية كأساس حاسم لبنائها . ان احتكاك
المجتمع العربي - الاسلامي الوسيط بهاتين الحضارتين العريقتين في مجموع
الحقول كان له اثره العميق في اتجاهات التحرك الاجتماعي والثقافي .

(١) هـ . لاي : دراسة حول تاريخ المادية في العصر الوسيط - نفس المطبوعات
السابقة ، ص ٢٥ .

معالم الحياة الفكرية وعوامل نشوء فلسفة وعلم في العصر العربي - الإسلامي الوسيط

١ - معالم الحياة الفكرية في المجتمع القبلي البطريكي - الجاهلي

لقد تكون « الاسلام » في مكة في الجزيرة العربية ، حيث لم يكن قد وجد هناك بعد فلسفة وعلم بالمعنى المتميز الدقيق للكلمة . ونحن سوف نحاول هنا طرح قضية تكون امكانات خصبة مع نشوء الاسلام ساهمت في تعبيد طريق النماء والتطور العلمي والفلسفي في العصر العربي - الاسلامي الوسيط . كما اننا سوف نقوم بمحاولة تحديد ابعاد وآفاق تلك الامكانات .

ومن أجل استيعاب اكثر دقة لمسألتنا هذه ، نرى من الضروري أن نرصد الوضع الفكري العام للمجتمع القبلي البطريكي - الجاهلي - ، الذي ابتداء « قبل الاسلام بنحو قرنين تقريباً (وانتهى) بظهور الاسلام » (١) ، وأن نحلل الجوانب الايدولوجية الاساسية في الاسلام وفي التيارات الدينية والنظرية الأخرى ، التي ساهمت بشكل مباشر أو غير مباشر في تكوين وبلورة ذلك الوضع . في الجزيرة العربية قبل الاسلام كانت « المسيحية » منتشرة الى جانب « اليهودية » . كذلك كانت هناك « الدهرية » ، وقد احتلت مكاناً ما في حياة العرب العقلية . الى جانب ذلك كله ومن خلاله تم ، كما هو معروف ، تلاقح وتبادل فكري عميق وذو ابعاد متعددة وغنية بين العرب والبيزنطيين والفارسيين ، حيث مارس العرب في هذا المجال دور الوسطاء التجاريين بين أولئك .

وفي الحقيقة ، من الممكن ان يكون هنالك عوامل وبواعث أخرى ساهمت

(١) ج. هيوث دن : : الادب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي - مكتبة الثقافة العربية ، ص ٦ .

في تكوين وعي الانسان العربي في تلك الحقبة التاريخية ، قبل نشوء الاسلام في القرن السابع . الا اننا ، هنا ، نرى ان تلك العوامل والبواغث ، التي اشرنا اليها ، هي التي صاغت بشكل رئيسي الدائرة الفكرية والدينية للوعي ذاك . ونحن اذ نعمل على دراسة كل من حلقات هذه الدائرة على حدة ، فاننا لا ننسى ان هذه الحلقات يمكن فهمها كخلفية للوعي الانساني العربي آنذاك فقط حينما ننطلق من اعتبارها تكون فعلاً وحدة عضوية ، لا تنفي طبعاً وجود تناقض فيها .

لقد وجدت اليهودية في الجزيرة العربية قبل الاسلام بقرون عدة ، وكان مركزها الرئيسي مدينة يثرب (المدينة) . عدا ذلك كانت منتشرة في مناطق أخرى من الجزيرة العربية ، مثل تيماء وخيبر . أما في يثرب نفسها فقد وجدت ثلاث قبائل ، هي بنو قريظة وبنو قنيقاع وبنو نضير (١) . وهذه القبائل مارست حياة مادية متطورة بحدود الوضع آنذاك .

أما من أين تحدر يهود الجزيرة العربية هؤلاء ، فيما اذا كانوا قد أتوا من فلسطين بعد انكسارهم على يد البيزنطيين ، كما يخبر أبو الفرج الاصفهاني في كتابه البارز « الاغانى » ، أو فيما اذا كانوا عرباً من الجزيرة العربية تهودوا بعد ذلك ، كما يخبر ياقوت في « معجمه » ، ان هذا التساؤل والاجابة عليه لهما دلالة ليست عديمة الأهمية في دراسة وتوضيح ابعاد وآفاق وعي الانسان العربي آنذاك . ذلك لان اليهود قد تأثروا في الاسكندرية وعلى البحر الابيض المتوسط بشكل قوي ومباشر بالثقافة الهلينية . ولاشك انه في الوقت الذي يستعيد المرء فيه في ذهنه الدور الذي مارسه اليهود في حركة الترجمة العاصفة من اليونانية الى العربية ، يجد نفسه على طريق منح ثقته لرأي أبي الفرج الاصفهاني . هذا بالاضافة الى ان هنالك فعلاً عرباً تهودوا تحت تأثيرات عديدة احتواها التفاعل والتبادل التجاري الذي تم بين العرب والشعوب الاخرى (٢) .

(١) انظر حول ذلك : سيرة الرسول - عن طبقات ابن سعد ، نفس المعطيات السابقة ، على صفحات مختلفة . وايضا : المسعودي ، التنبيه والاشراف - دار التراث - بيروت ١٩٦٨ ، ايضاً على صفحات مختلفة .

(٢) بالعلاقة مع هذا الواقع التاريخي نرى من الضروري الاشارة الى ان الصهيونية العالمية تعريف التاريخ الحقيقي ، حين تتهم من يقاومها ويقاوم اسرائيل بالعداء للسامية . فالعرب « الجاهليون » وفي الدولة العربية - الاسلامية لم يكونوا معادين لليهود ، من حيث هم كذلك ، اي يهود مؤمنون بـ « الدين » اليهودي ، وانما ضد العرقية ، ضد خرافة « الشعب المختار » وضد « الصهيونية » فسمهم .

لقد اثرت اليهودية على بنية الوعي الانساني العربي ، وذلك من خلال
١ - التصورات الخاصة بها والتي طرحتها امام ذلك الوعي ، و٢ - من
خلال التأثيرات الهلينية التي ادخلتها معها الى الجزيرة العربية . فمن حيث
تصوراتها الدينية نجد تأثيرها قد تم عبر فكرتين ، فكرة « الشعب المختار » ،
وفكرة « الاله الواحد » .

اما من ناحية الفكرة الاولى ، فقد كان تأثيرها سلبياً ورجعياً . لقد
ساهمت ، حسب ما ارى ، في تكوين بعض ارهاصات « الشعوبية » او
« العرقية » في ذلك الوقت وفي اوقات لاحقة ، وإن كان هذا قد تم على
نحو غير مباشر . فلقد عاش اليهود في يثرب منعزلين نسبياً عن العرب
المسيحيين والآخرين ، او محاولين العيش بعزلة عن هؤلاء .

وقد كان في ذلك خطوة خطيرة على طريق محاولة اكساب « اليهودية »
مضموناً وطابعاً عرقيين الى جانب كونها عقيدة دينية . لم تسر الأمور كما
أريد لها أن تسير ، ذلك لأن « اليهودي » العربي ظل يمارس وجوده من
حيث هو كذلك ، أي عربي .

ان فكرة « الشعب المختار » اليهودية يمكن فهمها وتفسيرها بالدرجة
الاولى انطلاقاً من رؤية اجتماعية طبقية . فلقد اخذ بها (أي اليهودية)
بشكل عام اولئك الافراد ضمن العرب ، الذين كانت لهم فعلاً مواقع
اقتصادية متينة وخصبة . فالقيّمون على شؤون الصناعات الحرفية
والزراعية الاولى كان الكثير منهم يهوداً . ان « الشعب المختار » كان في
تصورهم تلك المجموعة من الناس القادرة فعلاً على الاحاطة بالحياة
الاجتماعية - الاقتصادية بشكل عملي فعال . ووضعهم « الشعب المختار »
تلقاء الشعوب « الأخرى » على نحو متعارض متجابه ، يعني اضعاف طابع
ديني - عرقي على التعارض والتناقض بين الذين يملكون ويحسنون الاحاطة
العملية تلك وبين الذين لا يملكون ولم يدخلوا حلبة الحياة الاقتصادية . لقد
جاء في « التنبيه والاشراف » للمسعودي ، عن عمر بن الخطاب ان « الرسول »
قال : « لا يجتمع دينان في جزيرة العرب » (١) ، يقصد بهما الاسلام
واليهودية .

والحقيقة ان اليهود ناصبوا الدعوة الاسلامية العداء ليس فقط
دينياً ، وإنما أيضاً وبشكل عنيف اجتماعياً واقتصادياً . ان عدم امكانية

(١) المسعودي : التنبيه والاشراف - نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٢٢ .

تواجد « دينين » في الجزيرة العربية يعني ، ضمن مايعنيه ، عدم امكانية تواجد « الذين يكتزون الذهب والفضة » مع « الفقراء والمساكين .. » . واليهود ، ومنهم قبيلة بني قنيقاع التي عمل افرادها كصاغة^(١) ، استشفوا فعلاً مخاطر الحركة الاسلامية عليهم . فكانت حروب بين الفريقين^(٢) ، جسدت بعمق كفاح عالمين متناقضين ، عالم المرابين والتجار الاثرياء وعالم المسحوقين من ارقاء وعوام .

ولا شك ان فكرة « الشعب المختار » اليهودية ، التي لقيت قبولا لدى وسط عربي معين (أي لدى العرب الذين تهودوا) ، يمكن تقصّيها في « العصبية الجاهلية » وفي « الشعبوية » ، كما ذكرنا سابقاً .

بيد أن الفكرة اليهودية الأخرى « الاله الواحد » كان لها - منظوراً للمسألة من جانبها التاريخي - صدى ايجابي ، وخصوصاً في المدن والمناطق المتحضرة نسبياً ضمن العلاقات الاجتماعية في الجزيرة العربية آنذاك . ففي تلك المدن والمناطق تاجع نزاع بين الواحديين (في هذه الحال : اليهود) وبين عبدة الاوثان المختلفة . وقد برز هذا الوضع في مكة بوضوح .

لقد واجه الملا المكي خطراً جدياً ماثلاً في فكرة «الالوهية الواحدة» ، كما شكلت هذه الفكرة في المسيحية والاسلام ، في حينه خطراً على ذلك الملا . بيد انه من الملاحظ أن هذه الفكرة ، التي رفضها الملا ذاك ، لم تكن داعياً لرفض فكرة « الشعب المختار » من قبله ، اي من قبل « النخبة » المختارة « في مكة . هكذا نكون قد تحاشينا في بحثنا الوقوع في وهم يقوم على أن « اليهودية » قد دخلت الجزيرة العربية آنذاك في « وحدتها » المزعومة المكونة من « الاله الواحد » و « الشعب المختار » . فخطر الفكرة الاولى على الملا المكي لم يكن موجهاً ، بالدرجة الأولى ، ضد أوثانه ، من حيث هي أوثان بلغ عددها ٣٦٥ (٣) ، وإنما ضد مصالحه وامتيازاته الاجتماعية والاقتصادية والدينية والحقوقية ، التي كمنت وراء تلك الأوثان . ذلك لأن هذه الأخيرة كانت تشكل مصدراً رئيسياً خصباً لحياة الملا الثرية . فالحجاج قد وفدوا من كل مناطق الجزيرة العربية الى مكة من أجل تقديم الضحايا والقرايين للأوثان المؤلهة ، وذلك مقابل كمية من النقد أو اعطيات أخرى تقدم الى ذوي الأمر من الملا .

(١) سيرة الرسول ، عن طبقات ابن سعد - نفس المعطيات السابقة ، ص ١٢٢ .

(٢) انظر حول ذلك مثلاً : نفس المصدر السابق ، ص ١٣١ ، ١٥٧ ، ١٧٧ ، ١٨٩ .

(٣) انظر : ر. لاندوا ، الاسلام والعرب - نفس المعطيات السابقة ، ص ١٥ .

اما المسيحية فقد كان تأثيرها على الوعي العربي في الحقبة القبلية البطيركية أكثر عمقاً عما هو لدى اليهودية . وكاليهودية ، انتشرت المسيحية بشكل خاص في المناطق المدنية ، حيث كان سائداً نوع من التشكل السياسي والاجتماعي المتميز ، كالحيرة ونجران . وقد دخلت المسيحية الجزيرة العربية ممزجة ومتأثرة بالثقافة اليونانية الهلينية بوضوح . أما ادخالها الى جنوبي الجزيرة العربية فقد تم على أيدي الأحباش ، الذين وصلتهم المسيحية بواسطة البيزنطيين (١) .

ان اللحظة أو الجانب الديني من الوعي العربي المدني دعم ، بشكل أساسي ، من قبل المسيحية واليهودية ، اللتين انتشرت في الجزيرة على نحو غير متساو . ونحن نلاحظ هذا الواقع غير المتساوي مكثفاً في مكة .

وفي الحقيقة ، يشكل ظهور وانتشار المسيحية واليهودية في الجزيرة العربية ، من الناحية التجريدية الذهنية ، تقدماً ملحوظاً تلقاء الوثنية . فلقد اكتسب الوعي العربي آنذاك ابعاداً جديدة وقدرة على التجريد أكثر من أية فترة مضت . ولكن هذا التقدم لم يكن كذلك بالنسبة الى عملية المعرفة العقلانية للواقع الموضوعي ، الطبيعي والاجتماعي .

اما « الوثنية » فقد ظلت محتفظة ببعض مواقعها القوية ، وخصوصاً في مكة . ان الحسية البدائية والتشخيص والتجسيد في الاوثان انتصبوا في نزاع مع « التوحيدية » المسيحية واليهودية ، المتضمنة نوعاً من التجريد الذهني . بيد ان الوثنية اعتقدت ، كالمسيحية واليهودية ، بوجود قوى غير مرئية ومن لحمة مغايرة للحمة واقعنا الاجتماعي والطبيعي الموضوعي . ولكن خلافاً للمسيحية واليهودية ، نجد الوثنية قد تضمنت جانباً طبيعانياً . فالوثن المسمى بـ « ود » مثلاً ، الذي يظهر لنا في شكل رجل عملاق سلاحه في يده ، كان يعني بالنسبة الى قبيلة « عزرة » القوة ، ويجسد الدور الهام للحرب (الغزو) في الحياة اليومية الاقتصادية العامة والشخصية والاخلاقية . كذلك أيضاً الوثن « العزى » ، الذي تضمن شكل كوكب فينوس ، وعبد من قبل القرشيين في مكة ومن آخرين .

ان الطبيعية (نتورا لتيت) (٢) المتضمنة في الاوثان اختزنت عنصراً انسانياً ، تولد من محاولة تحويل « عواطف ومشاعر » الظواهر الطبيعية في خدمة الانسان .

(١) انظر : نفس المصدر السابق - ص ٢٢ .

(٢) Naturalitaet

هكذا يمكن اعتبارها شكلاً-بتأثراً من الإنسانية (انثروبومورفزم) (١) .
و « النفس » في الاطار الوثني ، الذي ساد آنذاك ، لا تملك استقلالية تلقاء
الاجسام والاشياء الطبيعية ، الا من خلال كونها « نفساً » لهذه الاجسام
والاشياء .

ان الاجسام والاشياء الطبيعية هذه منحت نفوساً وقوى خاصة
لا يمكن فصلها عنها . ونحن نلاحظ ذلك من خلال التصور حول « الشيطان
أو ابليس » نفسه . فالشيطان يقيم في كل جسم أو موضوع « شيطاني » ،
« شرير » . والمدقق في الامر يجد مثل هذه التصورات في عصرنا لدى بعض
القبائل البدوية في المملكة السعودية مثلاً .

ان الاعتقاد بوجود مثل هذه « النفوس » لم ينطلق من تصور لامادي
أو لاحسي (بمعنى ما وراء الحس) . هذا يعني ان ذلك الاعتقاد لم يتجاوز
التصور الحسي الخاص بطبيعة مؤنسنة .

ان هذا الاتجاه قد ساد ، بالدرجة الأولى ، لدى البدو الرحل
القدماء . فهؤلاء كسبوا حياتهم المعاشية تقريباً فقط من خلال ممارستهم
الرعي . ان المطر ، والارض الخصبة ، والجمل ، والخروف شكلوا وكوتوا
آفاق الحاجات الحياتية للانسان البدوي ولافاق وعيه الذاتي . وقد تضمنت
هذه العلاقة بين تلك الاطراف المتعددة طابعاً سببياً عفوياً . وبطبيعة الحال ،
فقد تكون وتبلور ذلك على طريق « العمل » المجتهد بتحصيل البدوي
لحاجاته اليومية الضرورية المتواضعة . فالمطر والارض الخصبة والجمل
والخروف يخدمون حياته المتواضعة تلك . ولذلك فوجوده مشروط بشكل
ضروري بوجودهم . فالمسألة ظلت ، كما هو بين ، محصورة ضمن نطاق
الحياة اليومية للبدو ؛ ولا شيء آخر فوق ذلك .

ان البدو القدماء لم يستطيعوا القراءة والكتابة . وقد خضعوا لقبائلهم
وعشائرهم ، التي ملكت كل واحدة منها « عالمها الذهني » الخاص .
وارتبط هذا العالم الذهني بالحاجات الحياتية الاولى للقبيلة والعشيرة .

الاجسام والاشياء الطبيعية ، الا من خلال كونها « نفساً » لهذه الاجسام
والاشياء .

بمقدار ما استطاع المتسربون الجدد أن يفرضوا انفسهم ضمن القبائل العربية البدوية .

يبد أن هذه لايعني القول بأن اللحظة الدينية الغيبية قد وجدت ارضها الخصبة بدءاً من دخول المسيحية واليهودية الى حياتهم . ذلك لأن مثل هذه اللحظة تنشأ ، بشكل عام ، خلال عملية العمل الانساني كتعبير ذهني عن المعجز المادي الاجتماعي والنظري المعرفي للانسان الاجتماعي .

الى جانب ذلك كله نجد ان تلك الرؤية للعالم لدى البدو لم تتكون بمعزل عن أي تأثير اجنبي . فمما لا شك فيه أن مجموع مناطق الجزيرة العربية قد تأثرت بدرجات مختلفة بالحضارات البشرية السابقة . وقد لعبت التجارة في عملية التأثير والتأثر هذه دوراً رئيسياً مرموقاً . خلال ذلك وجدت الجزيرة العربية نفسها في نقطة لقاء واحتكاك هامة بين الطريقين التجاريين الرئيسيين المتقاطعين ، واللذين من خلالهما التقى الشرق بالغرب على نحو يدعو الى الدهشة .

على أساس من هذا الاستيعاب للمسألة نستطيع فهم النزاعات العنيفة والمديدة ، التي اندلعت بين القوى الكبيرة آنذاك من أجل السيادة على المناطق الهامة اقتصادياً واستراتيجياً في الجزيرة العربية . فنحن نقرا في كتب التاريخ بأن المصريين القدماء قد أسسوا عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد مستعمرة في يثرب ، بغاية البحث عن النحاس واستخراجه . كما هاجم قائد الاسكندر الكبير المسمى « انتيفونوس » مدينة سلع ، عاصمة الانباط من أجل اخضاعها لحكمه ، ولكنه لم يفلح في ذلك . الا ان هذه المدينة اخضعت لاحقاً ، أي عام ١٠٥ بعد الميلاد ، من قبل الامبراطورية الرومانية ، وعام ٥٤ من قبل الفرس ، واخيراً عام ٥٥٠ من قبل الرومان (١) . كما ينبغي الإشارة هنا الى النزاعات المديدة والعنيفة التي دارت بين الفرس والبيزنطيين من أجل المنطقة الجنوبية الخصبة في الجزيرة العربية .

إنطلاقاً من ذلك يصبح بديناً ، ضمن اية تأثيرات غنية ومتعددة تحقق التبادل العميق الاقتصادي - المادي والفكري بين الجزيرة العربية والحضارات السابقة والمعاصرة لها . هذا يعني ان اللحظة الدينية - اللاعقلانية في وعي العرب البدو لم تجد مصدراً وباعثاً لها فقط في الارهاصات التي قدمتها ، في هذا الحقل ، المسيحية واليهودية فقط ، وانما أيضاً في الاديان والاساطير

(١) انظر : د. لاندو ، الاسلام والعرب - نفس المعطيات السابقة ، ص ٣٠/٢٩ .

القديمة الفارسية والهندية واليونانية - الرومانية والمصرية . التي حملها تجار وسائحو تلك البلدان ، الذين قدموا الى الجزيرة العربية . كذلك نستطيع القول بأن الطقوس الدينية قد نشأت هناك - في الجزيرة العربية - أيضاً تحت تأثير حركة التبادل الاقتصادية والفكرية هذه . بل نحن نميل هنا الى الافتراض بأن العرب القدماء قد تعرفوا على تأليه الاوثان والاصنام عن طريق المصريين ايضاً .

وقد أرغمت التصورات الحياتية العفوية للبدو القدماء ، التي اخترنت في اثنائها الاصلية عناصر طبيعانية متعارضة مع الروحانية الغيبية ، على التلاشي تحت الضغط الكبير للمسيحية واليهودية والوثنية المحوغة دينياً . فكل موضوع (وضمن ذلك الانسان البدوي نفسه) ، الذي يحتوي « ذاته » او « نفسه » ، وُضع في تعارض مع « ذاته » او « نفسه » . ذلك لأن « ذاته » او « نفسه » فصلت عنه ، وأُضيف عليها طابع غيبي مفارق . وقد فصلت النفس ومنحت استقلالية تلقاء الجسد على ذلك النحو في التكريرية (١) (في هذه الحال : الوثنية) كما في الواحدة (٢) (في هذه الحال : المسيحية واليهودية) . الى جانب تلك الاتجاهات الدينية والارهاصات الطبيعية ، كان قد وُجد اتجاه طبيعاني الحادي متميز مثله « الدهريون » . ان كتب « الملل والنحل » للمؤرخ الفلسفي الشهرستاني يعتبر وثيقة هامة في تاريخ هذا الاتجاه الفكري . فهو قد سماهم ، وهو المؤرخ الفلسفي المثالي ، « معطلة العرب » ، ورفض آراءهم بشكل حازم (٣) . وقد صنفهم في ثلاث مجموعات هي : ١ - منكرو الخالق ، والبعث ، والاعادة . ٢ - منكرو البعث والاعادة . ٣ - منكرو الرسل .

وخلال بحثه لمعطلة العرب ، يعتمد الشهرستاني بشكل رئيسي اساسي على القرآن كمصدر تاريخي . هذا يري ، من طرف آخر ، انه حتى من جانب الاسلام اعترف بوجود هذا الاتجاه الطبيعاني الالحادي في المجتمع العربي البطريركي القبلي .

لقد ساهم في تكوين ذلك الاتجاه وجود العنصر الطبيعاني المتعارض مع العنصر الغيبي المفارق في وعي العرب « المثقفين » آنذاك ، والمباحثات والمناقشات الحادة التي تمت بين الاتجاهات الدينية والفكرية (مثل

Polytheismus (١) Monotheismus (٢)

(٣) انظر هذا الكتاب للشهرستاني ، قسم ٢ ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٢٣٥ - ٢٤٩ .

المسيحية واليهودية والأديان الهندية والفارسية والبيزنطية والفرق الطبيعية الدنيوية) . ولا شك أن معالجة المصدر الأجنبي لهذا الاتجاه الفكري تشكل جانباً هاماً من المسألة .

بيد أنه من الضروري أيضاً تفصي الأطر الاجتماعية - الاقتصادية والفكرية العامة ، التي تحرك في أرجائها ذلك الاتجاه .

لقد أبرزنا في مواضع سابقة من هذا الكتاب ونتيجة لتحليل قمنا به للوضع الاجتماعي للطبقات المسحوقة في الجزيرة العربية ، وخصوصاً في مكة ، أن هذه الطبقات (الرقيق ، والعوام الأحرار ونصف الأحرار) تتحدد اجتماعياً وتاريخياً وفكرياً من حيث هي مبدعة المجتمع الجديد . ومن حيث هي كذلك ، كانت تجد نفسها بشكل أو آخر وبقليل أو كثير من الوضوح والوعي متجهةً باتجاه الأخذ بالديولوجية تناهض الإيديولوجية الوثنية الغيبية السائدة ، إيديولوجية التجار والمرايين . وقد كان للدهرية أن تمارس هذا الدور التاريخي كإيديولوجية للطبقات المسحوقة . إلا أن آفاق التقدم الاجتماعي والفكري آنذاك لم يكن لها أن تستوعب ذهنياً من قبل « الدهرية » ، وذلك لسببين : أولهما يكمن في الضعف وعدم التماسك الفكريين في الدهرية من حيث هي رؤية فكرية معينة ، لم يكن لها أن تمنح تلك الطبقات المسحوقة بوصلة نظرية فكرية ، لأن منطق التاريخ كان قد تحدد آنذاك من خلال آفاق التقدم ضمن رداء ديني . أما السبب الثاني فهو التمرکز الشامل للمسيحية واليهودية في الجزيرة العربية آنذاك .

وهناك واقع ينبغي إبرازه ، وهو أن الدهريين العرب قد تأثروا بشكل مباشر بالدهريين الفارسيين ، وذلك عن طريق المواصلات التجارية المستمرة والسلمية معهم . وقد تيسر لهذه المواصلات أن تكتسب وتأثر عالية في تطورها من خلال احتكاك العرب بالفارسيين ، بشكل خاص في الحيرة التي أسست من قبل الفارسيين وحكمت من قبل العرب اللخمييين .

إن De Boer يرى أن الدهرية قد اكتسبت « اعترافاً مكشوفاً خلال حكم الساساني يردجرد الثاني (من ٤٣٨/٩ - ٤٥٧) » (١) .

إن الدهرية ترى في الزمان السبب الأولي للوجود . والزمان هذا ، حسبها ، غير مخلوق ولا نهائي . والفريق الواحد ضمن الدهرية رفض.

(١) دي بوير : تاريخ الفلسفة في الاسلام ، شتوتغارت ١٩٠١ ، ص ١٥ .

الاعتراف بوجود اله إطلاقاً : « وقالوا ماهي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر . » (١)

إن الشهرستاني في كتابه المشار إليه سابقاً لا يسمي لنا أي ممثل لذلك الاتجاه الدهري .

إلا أن الآخرين ، أي المجموعتين الأخريتين ضمن الدهريين ، اعترفوا بوجود اله ، في الوقت الذي رفضوا فيه البعث والاعادة . إن هذا التمايز والاختلاف يُبرر من قبل الشهرستاني بشكل غير تاريخي وعلى نحو تعسفي . فهو يورد بيت شعر لشاعر مجهول الاسم :

حياة ثم موت ثم نشر حديث خرافة يا أم عمر (٢)

وخلال ذلك يفترض الشهرستاني ، دون مبرر واضح وعقلي ، أن بيت الشعر هذا يتضمن القول بوجود خالق بغض النظر عن نفي البعث . بعكس ذلك يمكننا أن نفترض بأن أولئك ، الذين رفضوا البعث المسيحي ، رفضوا أيضاً القول بوجود خالق للعالم .

إن ذلك الاتجاه الطبيعي الالحادي لم يكن قوياً بشكل كاف ، بحيث يقف في خط معارض قوي لـ (الكثرية) ، أي تعدد الآلهة في الجزيرة العربية ومعارض للتصور حول إله واحد الذي كان ممثلاً من قبل « الحنفية » . إن الاسلام قد نشأ تاريخياً عبر ملازمات عميقة كثيراً أو قليلاً للمسيحية واليهودية والوثنية ، حيث جعل من اللحظة الدينية موضوع وجوده الديني . ولقد حدث هذا بالرغم من الخلافات والتناقضات التي برزت بينه وبين هذه الاتجاهات الدينية . أما الارهاصات الطبيعية الالحادية ضمن الوثنية فانها لم تتلاش نهائياً مع نشوء وتطور الاسلام . إنها اكتسبت وجوداً جديداً ضمن الاتجاهات الفكرية المادية اللاحقة .

(١) القرآن ، سورة الجاثية - الآية ٢٤ .

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٢٦ .

المقالة الأولى : الأسس الأساسية في تكوين علم وفلسفة

في المذهب العربي - الإسلامي الوسيط

مع نشوء الإسلام وتبلور آفاقه نجد بدايات حياة فكرية قد أخذت في التكوين . و « الجدّة » الحقيقية التي جسدها الإسلام نفسه كمنت في تقدميته التاريخية . إن هذه التقدمية التاريخية كانت قد برزت في تعارض واضح مع المسيحية واليهودية . ونحن هنا نرى أن ذلك يكمن في « دنيويته » . هذا يظهر لنا بشكل متميز عبر مقارنة مع المسيحية الأرثوذكسية .

إذا كانت العلاقة بين الإنسان والاله في إطار فكرة التثليث لدى الاشكال الأساسية السائدة آنذاك في الكنيسة المسيحية ، وهي اليعقوبية والملكانية والنسطورية ، قائمة على ارتباط وجودي « انطولوجي » معين ما بين الاله والإنسان ، والإنسان والاله ، فإنها تكتسب الصيغة التالية : الأب والإبن والروح القدس . على أساس هذه العلاقة نرى أن ليس هنالك من هوّة لا تعبر بين الإنسان والاله . فالإنسان (أي المسيح) هو على نحو ما جزء من الاله أو شيء مشابه له حسب الزمان والذات .

أما الأمر في الإسلام فإنه يختلف في تقاطع معينة . ففيه تكمن هوّة لا تتجاوز بين الإله والإنسان . فالإله هنا خلق الإنسان لينش من ذاته (أي من ذات الإله) وليس من مادة ما ، وإنما من عدم سلبي مطلق . فالقرآن يؤكد : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » (١) .

ولقد توجب ، انطلاقاً من واقع الهوة تلك ، على الفلاسفة والمتصوفين في إطار الدولة العربية الإسلامية الوسيطة أن يكافحوا من أجل انسنة العلاقة بين الإله والإنسان بغاية إبراز الإنسان كعنصر فعال ليس فقط في العالم المادي ، وإنما أيضاً في العالم الآخر ، الإلهي . ولهذا السبب بالضبط

١ - القرآن ، سورة العنكبوت ، الآية ٥٩ .

كانت فلسفة « وحدة الوجود » و « نظرية الفيض » قد احتلتها مكانا بارزا في الحياة الفكرية للدولة تلك .

إن الإرتفاع الى الإله من قبل الإنسان قد حلّ ضمن المسيحية حسب كل من الآراء التي طرحت لدى الفرق المسيحية المختلفة . أما في الصوفية الاسلامية - العربية فقد برزت مسألة الإرتفاع ذاك في محور ومركز المشكلة ، وكذلك أيضا الى حد ما في الفلسفة آنذاك .

إن هذا الموقف الفكري النظري للمسيحية والاسلام انتصب بشكل معارض للممارسة لدى الإنسان المسيحي والإنسان المسلم . ففي الممارسة المسيحية تبرز سلبية العلاقة بين الإله السلبي والإنسان المعذب ، أو سلبية الإله والإنسان في آن واحد . إنها غربة تجاه العالم المادي الواقعي . ولكن من الملاحظ أن التأكيد على « الفرد » في المسيحية وإبرازه إنما هو شكلي . ففي الحقيقة ، ليس ذلك الإبراز لدور الفرد أكثر من موقف ذاتي تأملي يسهم في عملية اغتراب هذا الفرد تلقاء واقعه الموضوعي الحقيقي . إنها ذاتية سلبية تكمن مهمتها في « تخليص » الإنسان الفرد من « هذا » العالم التعيس الملعون ، أي في إخضاعه وتبويضه مع هذا العالم . لقد كان هذا ولا يزال جانباً جوهرياً من جانب التصور المسيحي حول علاقة الإنسان بالاله .

بيد أننا نلاحظ المسألة مختلفة لدى الاسلام . فالفرد هنا يرى نفسه أمام مهمات كثيرة وعميقة تجاه نفسه هو . و « خلاصه » يتعلق به نفسه الى حد متميز . إن الخطيئة الأصلية ، التي يمكن إزالتها أو التخفيف من تأثيرها ضمن المسيحية من خلال تضحية شخصية ، ولكن سلبية ، إن هذه الخطيئة تضع أمام الإنسان المسلم وجائب ومهمات دنيوية وملموسة من أجل تجاوزها . وهكذا فليس « العذاب » السلبي هو طريق الى الخلاص ، كما هو الحال في المسيحية ، وإنما « الكفاحية » الدنيوية المغلفة بأغلفة دينية هي محتوى الخلاص في الاسلام .

إن « الخلاص » يكتسب ضمن الاسلام مضمونا آخر ، حيث أنه (أي الاسلام) يؤكد على الإنسان المشخص الاعتيادي . ومن الأمور التي تحتاج الى التقصي والبحث الدقيقين كون « الاسلام » ، الذي نشأ في القرن السابع ضمن ظروف حرجة اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً ، قد جسد مرحلة جديدة هامة من مراحل عملية تجاوز الاطر الماورائية الموغلة في إنفلاقها الماورائي . ففيه لم يتكون جهاز كهنوتي مستقل عن البنية الاجتماعية السائدة . فالشيخ أو الإمام أو الفقيه لم يكن له وظيفة دينية من حيث هو

كذلك (في وقت لاحق تكونت هذه الوظيفة) ، بل كان يمارس في نفس الوقت مهنة ما ، كأن يكون لحاماً أو فلاحاً أو طباعاً أو تاجراً الخ . . .

لاشك أن هذا « التوزع » الاجتماعي الطبقي في بنية « المؤمنين » المسلمين قد لعب دوراً خطيراً في التطور الفكري آنذاك ، ولاحقاً ضمن المجتمع العربي - الإسلامي . ان التوزع الاجتماعي الطبقي ذاك كان الخلفية « الاجتماعية » للتوزع الفكري والديني ضمن المسلمين . والجدير بالاهتمام العميق أن نشوء الفرق والتيارات والاتجاهات الدينية والفكرية انطلاقاً من الاسلام كان قد رافقه عملية تأويل عميقة الجذور من قبل المسلمين المتميزين اجتماعياً طبقياً وفكرياً ثقافياً .

ان الكثيرين من المستشرقين والباحثين العرب يقعون في متهات ذاتية مثيرة ، حين يحاولون طرح مسألة « التأويل » للاسلام ، التي نشأت أولاً مع منشئه . فهم يفهمونها كظاهرة فكرية محضة منعزلة عن آفاق التطور الاجتماعية والحضارية العامة في الدولة العربية - الاسلامية آنذاك .

الى جانب ذلك العنصر الثوري المحرك ، التأويل ، طوال وجود الدولة تلك ، يمكن ان نذكر ايضاً تنكّر الاسلام لفكرة « الوسيط » كجانب محرك آخر منه في اتجاه تعميق آفاقه الغيبوية . بمناسبة موت « الرسول » في ٨ حزيران عام ٦٣٢ وقف الخليفة الأول ابو بكر الصديق يخطب في الناس : « من يعبد محمداً ، فان محمداً قد مات ، ومن يعبد الله ، فان الله حي لا يموت » . ان محمداً لم يتمتع بتلك المواصفات التي أطلقت على المسيح . ان المسيح هذا ، « ماسح العذاب من على الارض » ، يموت من أجل خلاص الآخرين . فالخلاص المسيحي متجسد في فعل التضحية الذي حققه المسيح .

ومن الخطأ البين وضع مفهوم « الشفاعة » المحمدية مع مفهوم « الخلاص » المسيحي في اطار واحد . ان « الشفاعة » المحمدية لاتتأخر مع فكرة « الوسيط المختص » ، الذي يحمل على كتفيه اثقال الانسانية بمجموعها ، فكل « نفس مأكسبت » . فالانسان يقف أمام أو تحت الاله وحيداً ، دون وسيط ، وبمعنى آخر ، دون مؤسسة كنسية . اما الاله فهو ، على العكس من ذلك ، في كل الوجود ، أيضاً في داخل الانسان . وهذا يتضمن في ذاته نتيجة ، هي ان الانسان المسلم ليس بحاجة « للاتحاد » بالاله . لكي يحقق مطامحه ومثله العليا . ان مطامحه ومثله هذه يمكنه تحقيقها في عالمه الانساني الحقيقي .

ان الاله الاسلامي يستطيع الوصول الى اي فرد . والعكس ليس كذلك . اي ان الانسان غير قادر للوصول الى الاله او الاتحاد به . بالطبع هو يستطيع « الوصول » الى الاله بالمعنى المجازي ، بمعنى أنه (اي الانسان) ينقذ « أوامر » الاله المنصوص عنها في « كتابه » . وبذلك فهو قريب منه، محبب اليه .

بيد أنه ضروري أن نشير الى أن تلك العلاقة بين الاله والانسان المسلم لا يمكن أن تؤدي إطلاقاً الى اقتراب الانسان منه اقتراباً وجودياً «انطولوجياً» . ان تصوّر «المفارقة» و «العلوية» يتمتع بهما الاله من حيث «الذات» ، في الحال الذي يظل فيه ضمن العالم الانساني من حيث الفعل والتأثير وانطلاقاً من مقتضيات « العناية الإلهية » . ولكن بالرغم من هذا فان العلاقة تلك — منظوراً اليها انطلاقاً من الاله الى الانسان — كانت تشكل ملامح أولية غير صريحة وغير مباشرة لتصوير كوني قائم على «وحدة وجود» مثالية(١) . أو ربما يكون أدق اذا رأينا في جانب العلاقة تلك (اله ← انسان) عاملاً غير مباشر من عوامل نشوء وتطور نظرية عربية — اسلامية لاحقة في وحدة الوجود .

والتصور الاسلامي الأولي هذا حول وحدة الوجود أحادي الجانب . فهو ينفي ، كما رأينا ، كل علاقة متبادلة نشيطة بين الاله والانسان . ذلك لان هذا الأخير (الانسان) يعتبر ، ضمن هذه الرؤية للمسألة ، نتاجاً سلبياً للاله . بل انه يشكل «الهيولي» السلبية ، التي تحدث عنها ارسطو . وهو بالتالي لا يملك سوى حاضره المفرد المتعين . وفي الوقت الذي تشغل فيه الهيولي لدى ارسطو مكاناً ابرز تاريخياً من الانسان الاسلامي (ذلك لانها خالدة في الزمان ، بينما يخلق الانسان ذاك من عدم محض) ، فانه (اي ارسطو) يحدد من نطاق فعالية الاله ، بحيث يجعل منه في الخط الاول محركاً اول . ان هذا الاله الأرسطي خالد ، ولا نهائي . لكنه لا يتدخل في جزئيات العالم . وهذا يعني ان ارسطو أسقط صفة وقدرة « العناية الإلهية » عن الاله . على العكس من ذلك ، تكون « العناية الإلهية » جزءاً جوهرياً من مفهوم الاله الاسلامي .

والحقيقة ، ان تصور الاله المطلق ، المحيط بالعالم والمسيطر له كله

(١) « وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سرهم وجههم .. » - القرآن : سورة الانعام ، آية ٣ .

نشأت كتعبير عن رفض الاله المسيحي المؤتسن والاله اليهودي المحدود الافق والفاعلية في العالم . وهي (أي تلك الفكرة) حيث تكونت ، فانها كانت بذلك تعبيراً عن النشاطية العملية غير المباشرة للمكيين ، الناحية منحى توحيدياً في الحقول الاجتماعية والثقافية والاقتصادية .

ولقد أثر في تبلور الوضع « الروحي » الجديد في الجزيرة العربية عاملان أساسيان : الأول هو الضرورة التاريخية الملحة لخلق وحدة اجتماعية - اقتصادية وسياسية في المجتمع ، وذلك بالعلاقة مع تعاضل ونمو احتياجات الحركة التجارية المنفتحة على العالم . أما العامل الثاني فهو التأثير العميق بمستوى التطور الديني المسيحي واليهودي حتى آنذاك ، مرتبطاً بالمحاكمات العنيفة المتشعبة والخصبة بين الوثنيين والدهريين والواحيدين . ان « الله » هو اله الجميع . فالتجارة المنفتحة على العالم ، وبالتالي الافكار الشمولية التي طرحت نفسها على مستوى عالمي كانت قد وجدت في « وحدانية » التصور الديني والعاطفي تبريراً مقبولاً وسهل التفهم من قبل مجموعات من الناس تجمعهم وحدة الهدف والسلوك الاجتماعيين . وباعتبار ان الاسلام قد عبر في مرحلة نشوئه عن المطامح الحياتية الاولى للعوام والرقيق والزارعين والصناع الصغار ، وذلك من خلال العمل على تحقيق تلك المطامح عن طريق ممارسة التجارة الواسعة وتطوير الحياة الاجتماعية العامة ولم تشمل تلك الفئات من السكان في وحدة سياسية محددة ، باعتبار ذلك كله نرى ان « الاله » الاسلامي هو اله « المحرومين » الذي يسلط « غضبه » على الظالمين المرابين . والمحرومون اولئك لهم ، الى جانب نتائج كفاحهم في الحياة الدنيوية ، الجزاء الكبير في « الجنة » ، بينما الظالمون هؤلاء سوف يلقون العذاب الاليم في « النار » . وفي الوقت الذي نرى فيه الاتجاه قوياً في الاسلام للتأكيد على امكانية تحقيق مطامح ومطالب الانسان المسلم خلال حياته الدنيوية دون شرط « الاتحاد » بالاله ، نلاحظ ان هذا « الشرط » وارد في المسيحية ، وذلك من خلال اتحاد « الابن » و « والاب » وتكوينهما « الروح القدس » . وبالرغم من ان الاسلام لم يمل الى طرح « الإله » من خلال تصور قائم على « وحدة الوجود Pantheism » ، فانه لم يرفيه ذاتاً محضة توجد بعيداً عن العالم المادي . ان « علوية » الاله الاسلامي لا تتضمن القول بذات موجودة بعيداً عن ذلك العالم على نحو مطلق .

بالطبع ، نحن نلاحظ ان الاسلام يميل الى القول بالاله على نحو بنتيئي

— أي انطلاقاً من وحدة الوجود — ، ولكن فقط من طرف واحد هو : الله — الانسان . أي أن الله هو الذي يحيط بالانسان والعالم بينما الانسان لا يمكنه الاتحاد أو الاحاطة بالله . ولقد عمل المتصوفة الاسلاميون والفلاسفة النازعون منزوع وحدة الوجود لاحقاً على اتمام «الحلقة» ، حيث أكدوا على ضرورة « الصعود » من الانسان الى الاله و « النزول » من الاله الى الانسان . كما ان المعتزلة ركزوا سهام تقدمهم على تصور « الاله » من خلال رفضهم لك « جبرية » وللتمييز بين « ذاته » و « صفاته » .

ان هذا كله كان ذا اهمية عظمى في تأثيره على عملية تكوين علم نظري وتجريبي في اطار المجتمع العربي الاسلامي الوسيط .

لقد نشأت وتطورت الفلسفة هناك في علاقة عضوية مع العلم ، ولكن ليس بشكل متواز . وعلى وجه العموم اقتصر النشاط العلمي في بدايات التطور الثقافي للمجتمع ذاك على التجارب العملية التطبيقية التي استقت الكثير من ملامحها من الحضارات الهندية والفارسية واليونانية . والحقيقة ان آفاق وأبعاد التطور الفلسفي والعلمي الطبيعي قد تحددت بشكل عام بمقتضيات ومتطلبات التقدم التكنيكي المادي العاصف آنذاك . وبتعبير آخر : ان العلم والفلسفة أمكن لهما النماء والتقدم تحت ظلال ذلك التقدم التكنيكي المادي . وهذا ما يدعونا الى تخطيء الرأي القائل بأن « حاجة العرب الى العلم (انبعثت) من الدين » (١) . اذ ليس من الدقة العلمية التاريخية ان نأخذ بالجوانب الخارجية المباشرة من المسألة ، معتقدين انها هي المؤثر العميق والمحرك لها . ان أخذ الخصائص الداخلية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية لتركيب المجتمع العربي الاسلامي الوسيط بعين الاعتبار يلقي ضوءاً ساطعاً على مسألتنا ، مسألة نشوء وتطور علم وفلسفة في المجتمع المشار اليه آنفاً . ومن خلال القيام بتحليل دقيق للخصائص تلك تستبين لنا النقاط التالية كعوامل أساسية في تكوين ذلك البناء العلمي الفلسفي :

١ - التطور المتلاحق والمكثف لقوى الانتاج المادية في المجتمع العربي الاسلامي الوسيط ، هذه القوى التي قامت على نظام سقاية متطور تكنيكياً بشكل عال ، وعلى تبادل بضائعي واسع الابعاد ، وأخيراً على حركة تجارية منفتحة على العالم . وقد كنا قد عالجن هذه المسائل في فصل سابق

(١) عمر فروخ: مبقرة العرب في العلم والفلسفة - بيروت ١٩٥٢، الطبعة الثانية ، ص ٤٣ .

من هذا الكتاب .

٢ - ان احدى خصائص التطور الفكري - العلمي والفلسفي -
انذاك يمكن الكشف عنها في البنية الايدولوجية للاسلام نفسه . في مقدمة
المسائل المكوّنة لهذه البنية نجد مسألة « الخلق من عدم مطلق » ،
و « العلاقة بين الاله والانسان » و « الحرية والجبرية » و « علاقة الصفات
بالذات الالهية » .

هاهنا ينبغي التاكيد على أن الاسلام في بنيته تلك قد تضمن اثارا
عميقة لعملية تكوّن وتطور علم وفلسفة ذات معالم محددة وواضحة . وقد
برزت هذه الاثار انطلاقاً من الجوانب الاجتماعية والسياسية في الاسلام .
هذا يعني ان هذا الاخير لا يمثل ديناً فقط ، وانما أيضاً « رؤية » دنيوية
تطرح الأمور في الحياة الاجتماعية على نحو ايجابي .

ان الاتجاه الاسلامي الديموقراطي « الدنيوي » والمعادي للانغلاق الملتى
وللانعزال الاجتماعي يمكن البحث عنه في « رؤية » الاسلام تلك حول المجتمع
الانساني . وبالطبع ، هاهنا يكمن تناقض بين الموقف الاجتماعي العياني
المفعم بارادة التغيير والتحويل لصالح الانسان ، وبين الاحساس الديني
الذي يلحق ذلك الموقف بقوى خفية غيبية . ان ذلك التناقض يجسّد
النزاع بين الفعل واللافعل . وفي الحقيقة ، ان الجوهر الديني القائم على
سلخ المتدين من واقعه العياني بالحقاق هذا الواقع بقوى غيبية غير انسانية،
يجد نفسه باستمرار متعارضاً مع الفعل الانساني الذي يقتضي بالضرورة
اخذ ذلك الواقع العياني كما هو، دون أية اضافة خارجية. ان هذا التعارض
والتناقض كان في تاريخ الفكر العربي الاسلامي الوسيط خصباً للغاية . فقد
عمل على توضيح معالم الاتجاهيين الاجتماعيين الكبيرين ، الاقطاعي
والبورجوازي التجاري المبكر . ان الاول من هذين الاتجاهيين **الح** على
تلك « الاضافة الخارجية » ، بل جعل منها محور الوجود الانساني (وسوف
نجد ان الاشاعرة والغزالي قد مثلوا هذا الاتجاه بقوة وعلى نحو طريف
ومثير حقاً) . اما الاتجاه البورجوازي التجاري والديموقراطي المبكر فقد
الح في الخط الاول على الفعل الانساني الحر وعلى رؤية الوجود بكثير من
تدخل العنصر الانساني الواعي (وبالطبع يقف المعتزلة وابن رشد في طليعة
ممثلي هذا الاتجاه ، وذلك من خلال نظرية الخالقين والقول بتعطيل الصفات
الالهية ، لدى المعتزلة ، ومن خلال نظرية وحدة الوجود المادية والتاكيد على
العقل الفعال العالمي المشترك بين جميع الناس على نحو ديموقراطي متساو

لدى ابن رشد) . لاشك أن الاسلام في فترات كفاحه الاولى ضد « الذي جمع ماله وعدده » والذي جعل من الاعداد الكبيرة من الاوثان مصدر ثروة ابتزها من « الفقراء والمساكين » ، ان الاسلام في تلك الفترات قد مارس ، بشكل غير مباشر ، بجانبه ، الأول القائم على « الاضافة الخارجية » ، والثانية القائم على الفعل الانساني المحوّل ، دورا ايجابيا كبيرا في اضعاف طاقة اصحاب الامتيازات الاقتصادية والروحية على قهر المضطهدين من رقيق وعوام احرار ونصف احرار . فالارتفاع بعلاقة هؤلاء المضطهدين مع مضطهديهم الى علاقة بينهم وبين « قوة » خفية غيبية تحتضن في يديها العادلتين مصيرهم ، كان قد أدى ضمن ذلك الواقع التاريخي ، الى تقليص اظافر البؤس الاجتماعي والروحي من خلال رفض « شرعية » التملك الاضطهادي لخيرات المجتمع من قبل هؤلاء المضطهدين . ان اعلان جميع الناس متساوين في الحقوق والواجبات أمام تلك « القوة » مارس في حينه تأثيراً في التخفيف من الضغوط الاجتماعية على المضطهدين وفي طرح قضية العدالة والحريّة في المجتمع ضمن غلاف ديني .

وحين يرى بعض المؤرخين الاسلاميين كتاب القرآن ليس فقط كوثيقة دينية ، بل كذلك كتراث حقوقي واخلاقي واقتصادي واجتماعي (١) ، فان هذا صحيح اذا أخذنا بعين الاعتبار الجانبين ، الروحي والعملي في الاسلام . ولاشك ان الجانب « الروحي » قد اثر آنذاك بشكل ايجابي . أما استيعاب هذا التأثير فيكمن في تفهم الوضع الاجتماعي الحضاري في تلك الحقبة التاريخية . ان فكرة او تصوراً ما من التصورات تكتسب دلالات اجتماعية ونظرية مختلفة باختلاف الحالات التاريخية المتعاقبة . هذا يعني ان المشكلة تتحدد من خلال « المشروع التاريخية » و « الحقيقة المعرفية » . وقد تعرضنا لهذه المسألة في موضع آخر من فصول هذا الكتاب . هاهنا يجدر بنا التأكيد فقط على ان الفكر المثالي والفكر المادي ، والعلم والدين ، ظاهرات مشروعة تاريخياً ، وإن لم تكن جميعها صحيحة من وجهة نظر علمية معرفية دقيقة . ولاشك ان العلم والفلسفة قد ربعا الكثير من ذلك الواقع الخصب . وحيث وجد المناخ الاجتماعي والسياسي المجدد لافاق المستقبل الديموقراطي المبكرة ، كان الفكر الفلسفي والعلمي المادي الهرطقي يضرب

(١) انظر حول ذلك : على سامي النشار ، نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام ، الاسكندرية ١٩٦٢ ، الجزء الاول ، ص ١ - ٢ . و : محمد يوسف موسى ، القرآن والفلسفة ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٣٢/٢٤/١٣/٧ .

جذوراً عميقة في الحياة الانسانية .

٣ - وهناك عامل آخر ساهم بشكل جوهري في تكوين وصياغة الارهاصات الاولى للفلسفة والعلم في المجتمع العربي - الاسلامي الوسيط ، وهو **التأويل** لدى الفرق **الكلامية** . ان تاريخ هذه الحركة يمتزج بقوة وعلى نحو عضوي بنشوء وتطور الاتجاه الفكري الآخذ بـ « العقل » كمنطلق وكمحور في طرح المسائل الفكرية والاجتماعية والدينية المختلفة .

وفي معرض الحديث حول اتجاه التأويل العقلاني يذكر المرء الممثلين الاوائل له ، كما يذكر قمته ممثلة بالمعتزلة .

ولا شك أن « داود ابن المحبر » كان في طليعة الاوائل في هذا الاتجاه . كذلك يمكننا أن نرى في « مالك بن انس » ممثلاً بمعنى معين لذلك الاتجاه . لقد برز داود بن المحبر من خلال كتاباته حول « العقل » . وهو في كتاباته هذه قد ارتكز على « حديث قدسي » حول العقل رواه ابن تيمية في « بغيته » . ومفاده ان « أول ما خلق الله العقل ، فقال له أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر ، فقال وعزتي ما خلقت خلقاً أكرم علي منك فبك آخذ ، وبك أعطي ، وبك الثواب والعقاب » (١) .

والجدير بالذكر ان داود بن المحبر هذا قد عاش ، كما يخبر ابن تيمية ، في بدايات القرن الثالث الهجري (٢) ، أي في وقت كان القول بمثل ذلك يؤدي بصاحبه الى عواقب وخيمة . ونحن هنا لايهمنا فيما اذا كان ذلك الحديث صحيحاً عن لسان « النبي » أو موضوعاً ، انما الدفاع عنه واتخاذهُ مرتكزاً كبيراً من قبل ابن المحبر وجماعات أخرى هو الذي يبرز لنا واقع الصراع الفكري الذي دار بين « التسليمية » و « العقلانية » والذي عمل بدوره على بلورة آفاق التقدم الفلسفي والعلمي الحقيقي .

ولاشك أن داود بن المحبر قد حاول في ذلك - ونحن نرى هنا ان ذلك الحديث القدسي موضوع لأنه يتجاوز وجهة النظر العامة الاسلامية - القيام بتقديم تفسير عقلي في الخط الاول للقرآن .

من طرف آخر نلاحظ ان مالك بن انس قد ركز على وحدة النظر والعمل ،

(١) انظر : ابن تيمية : بغية المرناد في الرد على الفلاسفة والقرامطة والباطنية ، القاهرة ١٣٢٩ هـ . ، ص ٥ .

(٢) نفس المصدر السابق - ص ٢٩ .

أو الكلام والعمل . فهو يؤكد بأنه لا يجب « الكلام الا فيما تحته عمل » (١) .
انه استطاع ، في ذلك ، ان يمنح مفهوم الممارسة العملية التجريبية نبضة
قوية ، وإن كان قد عمل على كبح التفسير العقلاني الحر للكتاب الاسلامي
الاساسي ، القرآن . ان العلم والفلسفة العقلانية الهرطقية قد اختزنادائماً
الكثير من النتائج الايجابية من خلال طرح الأمور الفكرية والدينية بشكل
مجانِب لد « تسليمية » و « القدرية » و « الإيمانية » .

اما المعتزلة فقد مارسوا تأثيراً عميقاً حقاً على عملية تكون وتطور
فلسفة وعلم متميزين في حدود الفكر المادي الفلسفي والانساني الهرطقي
المبكر في المجتمع العربي الاسلامي الوسيط .

لقد كان ابراز موقع الإنسان والتأكيد عليه تلقاء الاله المشكلة الاساسية
التي عالجها المعتزلة والتي كونت قاسماً مشتركاً بين مجموع القضايا التي
طُرحت من قبلهم . ونحن نجد تلك المشكلة الاساسية قد ظهرت لدى
المعتزلة من خلال مناقشتهم لسألتين ، هما « صفات الذات الالهية »
و « حرية » الانسان .

لقد كتب الشهرستاني متعرضاً للمسألة الاولى : « والذي يعم
طائفة المعتزلة من الاعتقاد : القول بأن الله تعالى قديم ، والقدم أخص وصف
ذاته . ونفوا الصفات القديمة أصلاً ، فقالوا : هو عالم بذاته ، قادر بذاته ،
حي بذاته ، لا يعلم وقدرة وحياة . هي صفات قديمة ، ومعان قائمة به .
لأنه لو شاركته الصفات في القدم الذي هو أخص الوصف لشاركته في
الالهية . وانفقوا على ان كلامه محدث مخلوق في محل ... وسموا هذا
النمط : توحيداً » (٢) . وقد عبر عن هذا الاتجاه بكثير من الوضوح المعتزلي
الكبير ابو الهذيل العلاف (١٣٠ - ٢٢٦ هـ) . فالخياط ، وهو أحد
المدافعين عن الفكر المعتزلي ، يخبرنا أن ابا الهذيل قال : « ان علم الله هو
الله » (٣) .

ولقد رأى الكثيرون من مؤرخي الفكر في طرح المعتزلة هذا لـ « الصفات »
نفياً مستتراً ، أو على الأقل اضعافاً « سلبياً » لمفهوم « الاله » الاسلامي .
وعلى العكس من ذلك ، أكد رواد الاتجاه الاشعري السني على الفصل بين

(١) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله - ص ٥٠ .

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل - الجزء الاول ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٤٢-٤٥ .

(٣) الخياط : كتاب الانتصار - بيروت ١٩٥٧ ، ص ٨٠ .

الصفات والذات الالهية ، واعتبروا ان التوحيد بين ذينك الطرفين يؤدي الى تعطيل الاله . لقد « قال ابو الحسن (الاشعري) : الباري تعالى عالم بعلم ، قادر بقدره ، حي بحياة ، مريد بارادة ، متكلم بكلام ، سميع يسمع ، بصير يبصر .

قال : وهذه الصفات ازلية قائمة بذاته تعالى . لا يقال : هي هو ، ولا هي غيره ، ولا : لاهو ، ولا : لاغيره » (١) .

لقد أدرك الاشاعرة المخاطر التي تنجم عن القول المعتزلي بنفي الصفات الإلهية . وهذا الامر يبرز على وجه الخصوص بالنسبة الى صفة «القدم» . فلقد احتلت هذه الصفة مكاناً أساسياً جوهرياً ضمن الصفات الالهية أو « الاسماء الحسنى » . ان المعتزلة بتعريضهم الذات الالهية من أي تعيين صفاتي ، قد توصلوا الى مفهوم الجوهر اللازماني واللامكاني ، بل الجوهر الخارج عن نطاق التعيين الوجودي . ان الامعان والايغال في السلب الصفاتي للذات أدى الى تحويلها الى تقيضها ، **اللاذات** . وقد ألح على هذا الاتجاه اللاهوتي السلبى معمر بن عباد السلمي . فالشهرستاني في مؤلفه الهام « الملل والنحل » يخبرنا « انه يحكى (عن معمر بن عباد) انه كان ينكر القول بأن الله تعالى قديم . . . وحكى جعفر بن حرب عنه انه قال : ان الله تعالى محال ان يعلم نفسه . لانه يؤدي الى الايكون العالم والمعلوم واحداً . ومحال ان يعلم غيره ، كما يقال محال ان يقدر على الوجود من حيث هو موجود » .

ويتابع الشهرستاني ، مؤرخ الفلسفة المثالي ، معلقاً على ذلك القول المعمرى فيقول : « ولعل هذا النقل فيه خلل . فان عاقلاً ما لا يتكلم بمثل هذا الكلام الغير معقول » (٢) .

وفي الوقت الذي طرح فيه المعتزلة قضية « التوحيد » على ذلك النحو السلبى التعطيلي ، فإنهم — ماعدا الصالحى — أكدوا على أن «العدم» يمثل شيئاً (٣) . وقد « غالى (الخياط) في اثبات المعدوم شيئاً وقال : الشيء ما يعلم ويخبر عنه . والجوهر جوهر في العدم ، والعرض عرض في العدم (٤) » .

(١) الشهرستاني : الملل والنحل — نفس المعطيات السابقة ، ص ٩٥ .

(٢) الشهرستاني : نفس المصدر السابق — ص ٦٨ .

(٣) انظر : الاسفرايينى ، التبصير ، ص ٣٧ .

(٤) الشهرستاني : الملل والنحل — نفس المعطيات السابقة ، ص ٧٧ .

مما لاشك فيه ان ملاحقة هذه المسألة لدى المعتزلة تشكل إحدى مهمات البحث عن الفكر المعتزلي الهرطقي المادي . ان مجموع الاجسام والجواهر والاعراض تتضمن ، حسب ذلك ، شكلين وجوديين ، هما **الكموني و العياني** . أما الانتقال من الواحد الى الآخر ، فيتم من خلال تدخل الهي . والوجود الكموني ملتحم بوجود الاله على نحو لايفصل . وبناء على ذلك فان الاله لا يخلق شيئاً من عدم محض . ان الخياط يحاول في كتابه « الانتصار » عرض هذه المسألة والانتصار لها بالرغم من عدم الافصاح عن ذلك ، وذلك باسم الدفاع عن الجوهر الواحدي ، الله (١) . ان المفهومين الارسطيين ، الامكان والتحقق ، قد أثرا في صياغة المفهومين المعتزلين الأساسيين ، الوجود الكموني والوجود العياني .

لقد كان « النظام » (مات ٢٣١ هـ .) قمة الفكر المعتزلي . وهو الذي أدخل مفهوم « الكمون » لأول مرة في الفكر هذا (٢) . ومما لاشك فيه أن المعتزلة بمقولاتهم حول العدم ، من حيث هو شيء ، قد أصابوا مقتلاً من التصور المثالي الغيبي للاله . عن هذه المقولة تبرز ثلاث نقاط أساسية ، هي :

- ١ - رفض المصادرة الإسلامية حول الخلق من عدم محض إطلاقاً .
- ٢ - التأكيد على قدم العدم الشئىء الى جانب الاله .
- ٣ - الاضعاف من الموجود الأول ، وذلك بأسلوب مستتر وذكي . ان هذه العملية قد تمت عبر منحيين ، الأول أرجاع الفعل الالهي الى القيام بمساعدة الانتقال من الوجود الكموني الى الوجود المتحقق للأشياء . أما المنحى الثاني فقد عبر عن نفسه من خلال السلوب الصفاتية للاله ، بحيث يتحول هذا الأخير الى مجرد اسم . فهو ، في صفاته الإسلامية كأصل محرك للعالم ، يفقد على يد المعتزلة أي تحديد .

ويذهب النظام الى التأكيد على مفهوم السببية ومفهوم الضرورة من خلال تأطير الفعل الالهي ضمن حدود السببية ، حيث يقول : « لا يوصف الله بالقدرة على أن يخلق قدرة غير القادر ، وحياة غير الحي » (٣) . أن

(١) انظر : الخياط - كتاب الانتصار ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٩٠ .
(٢) انظر : الشهرستاني - الملل والنحل ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٥٦ . الخياط : كتاب الانتصار - نفس المعطيات السابقة ، ص ٩٧/٤٤ .
(٣) الأشعري : مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ٢١٦ ، الجزء الثاني .

« القدرة المطلقة غير المحدودة واللا سببية التي يتمتع بها الاله تتخلى في فكر النظام لـ « قدرة » مؤنسنة ، لها حدود ضرورية . أما فكرة الحركة لدى النظام من حيث هي (اي الحركة) « مبدا تغير ما » (١) ، فقد مارست تأثيراً حاسماً في تحديد تلك النقاط . وهذه الحركة ، من حيث هي مبدا تغير ما ، هي حركة الاجسام ، انها حركتها الذاتية ، السماة بـ « حركة اعتماد » (٢) . وفي الحقيقة ، ان « الاجسام كلها متحركة ، حركتان : حركة اعتماد وحركة نقلة . فهي كلها متحركة في الحقيقة وساكنة في اللغة ، والحركات هي الكون ، لا غير ذلك » (٣) .

ان النظام الذي لا يرفض ، كبقية المعتزلة ، على نحو مباشر مفهوم « الاله » كاصل للعالم ومحرك له ، يؤكد تلك الحركة الداخلية للاشياء ، حيث يرى « ان الاجسام في حال خلق الله [لها] متحركة حركة اعتماد » (٤) . وحالة الكمون للاجسام لا تنقصها الحركة عموماً ، بل فقط الحركة الظاهرة . وهذه الاخيرة ماهي الا تعبير عن الحركة المكانية (٥) .

ان النظام لم يبحث في اي وضع كان يوجد فيه الجسم قبل الخلق ، اي في اي وضع كموني وجد فيه . وبمعنى أدق ، انه لم يصرح فيما اذا كان الجسم موجوداً بشكل عام قبل الخلق . ولكننا اذا استعدنا في ذاكرتنا المفولة المعتزلية عن العدم كشيء قديم قدم الاله نفسه ، فاننا سوف نتوصل الى الاستنتاج الهرطقي المادي بان الاجسام الموجودة كاشياء منعدمة متحركة بذاتها وليس نتيجة فعل خارجي ، وان التأثير الالهي في عملية الخلق يرتد الى عملية شكلية مرافقة .

ان هذا الأمر قد أكد عليه على نحو خاص من قبل بعض المعتزلة ، مثل الخياط ، الذي قال بان « الجوهر جوهر في العدم ، والعرض عرض في

(١) الشهرستاني : الملل والنحل - نفس المعطيات السابقة ، ص ٥٥ .

(٢) انظر : الشهرستاني ، نفس المصدر السابق ، نفس الصفحة . ابو الحسن الاشعري : مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ٢٠ - ٢١ ، الجزء الثاني .

(٣) الاشعري : مقالات الاسلاميين - نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٠ - ٢١ .

(٤) نفس المصدر السابق - ص ٢١ .

(٥) نفس المصدر السابق ، ص ٢٠ - ٢١ .

العدم» (١) ، أي أن الشيء موجود في حالة الكمون العدمية قبل أن يكون موجوداً بالتحقق .

وهكذا فالأمر يتحدد بالنسبة الى المعتزلة من خلال طرحه انطلاقاً من وجود العالم المادي الذاتي ، الى جانب مشاركة الهية في تحديد ذلك الوجود . وتحول الأشياء من حالتها الامكانية الى حالتها المتحققة البيعانية هو فعل خاص بهذه الأشياء يُعبّر عنه بالانتقال من حركة الاعتماد الى حركة النقلة . هاهنا يتبدى لنا التأثير الارسطي القائم على مقولتي الامكان والتحقق واضحاً . كذلك « العدم » ، كشيء موجود ، يفصح عن تأثير ب « المادة غير المتعينة » القديمة الافلاطونية و ب « المادة الاولى الارسطية » .

والجدير بالبحث والشيق في المسألة يكمن في اخضاع هذه القضايا بالفلسفة المبدئية لخصوصيات الواقع الحضاري العربي الاسلامي الجديد وفي اغنائها ، وبالتالي في تجاوزها لاحقاً من قبل الفلاسفة العرب الاسلاميين تجاوزاً خلافاً ، وفي الوقت الذي تؤكد فيه على أن هذه المسائل الكلامية المعتزلية تشكل مرحلة ما قبل الفلسفة في ذلك الواقع ، فاننا نرى انه لم يكن للمرحلة الفلسفية المتميزة اللاحقة من غنى عن هذه المرحلة الاولى لكي تحدد ملامحها الجوهرية . بل اننا نميل هنا الى الرأي بأن الفكر الكلامي ، المثالي منه والمادي ، والعقلاني منه والتسليمي ، يشكل حلقة ، وان كانت اولية مبكرة وحيانا كثيرة غير متميزة وبدائية ، للفكر الفلسفي اللاحق . اي أن التمييز المطلق بين علم الكلام والفلسفة غير دقيق .

اما فيما يخص قضية الحرية الانسانية ، فقد كوّن المعتزلة حولها وجهة نظر ذات أهمية عظمى في تاريخ الفكر الاجتماعي . ووجهة نظرهم هذه اتخذت اتجاهاً صريحاً في مناوئته للاتجاه القدري التسليمي . وقد مارس المعتزلة في نظريتهم تلك ، وخصوصاً في مرحلة الازدهار الاجتماعي والاقتصادي والعلمي العاصف اثناء حكم الخليفة المأمون ، تأثيراً كبيراً في

(١) الشهرستاني : الملل والنحل - نفس المعطيات السابقة ، ص ٧٧ . (ويتوجه مثله علي الجبائي وابنه في قولهما بأن الجواهر والامراض كانت في حال العدم امراضاً وجواهر . فاذا قالوا : لم تول امياناً وجواهر وامراضاً ولم يكن حدوثها لمعنى سوى اميانها ، فقد لزمهم القول بوجودها في الازل . . » - عبد القاهر البغدادي : الفرق بين الفرق ، ص ١٠٧ ، مأخوذ من : الشهرستاني : ص ٧٧) .

العملية الانسانية التنويرية . وفي الحقيقة ، ان تلك النظرية في الحرية الانسانية تعبير عن التحولات الاجتماعية العميقة التي امتدت في أديم المجتمع آنذاك .

ان المعتزلة جميعا قد « اتفقوا على ان العبد القادر خالق لافعاله خيرا وشرا » (١) . ويناقدن أبو الهذيل العلاف الجبريين قائلا : « فاذا كان الكافر عندكم غير قادر على الخروج من الكفر الذي هو فيه فقد صح انه ليس بمختار ولا فاعل له بل هو مضطر اليه مجبر عليه ، لأن القادر على الفعل هو القادر على تركه . فاذا صحت القدرة على أمر من الأمور صحت على تركه ، واذا انتفت عن تركه انتفت عنه » (٢) .

ان المعتزلة في طرحهم مسألة الفعل الانساني الحر على هذا النحو **الانساني** قد اثاروا جانباً أساسياً ثوريا من جوانب قضية الحرية : الانسان بخيره وشره ، بحبه وحقده ، بعدالته واضطهاده هو المسؤول عن نفسه . انه هو جذر المشكلة وهو المؤهل لحلها . ان هذا الموقف الانساني قد تكون في احشاء التقدم الاجتماعي والاقتصادي والعلمي والسياسي آنذاك .

ولقد كافح الاشاعرة ضد المعتزلة في مسألة « الحرية الانسانية » هذه ، كما في مسألة « الصفات » التي تكلمنا حولها سابقاً . وهذا ، ولاشك ، موقف طبيعي منهم . فلقد قال هؤلاء باللاحرية الانسانية ، من طرف ، وبالقدرة الالهية المطلقة من طرف آخر . اما بالنسبة الى القضية الأخرى ، فقد أكدوا على الصفات للذات الالهية تأكيداً تبرز فيه « التسليمية » و « الايمانية » على نحو كامل لدى الكثيرين منهم .

في الحقيقة ، انه من الصعب لقاء ضوء كشاف على الوضع الفكري في المجتمع العربي الاسلامي الوليد بمعزل عن البحث الدقيق في المسائل التي طرحها المعتزلة ، والتي هي ، كما جاء في « كتاب الانتصار » للخياط ، التوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . والمهم في الأمر هنا يتركز في المسالتين الأوليتين . لقد توصل المعتزلة في مناقشتهم لهما ، بشكل مباشر أو غير مباشر ، الى نفي « الصفات » عن الذات الالهية **وتحويل هذه الذات الى جوهر في ذاته ولذاته** . كما توصلوا - وهذا بالعلاقة مع المسألة الأولى - الى

(١) الشهرستاني : نفس المصدر والمعطيات السابقة ، ص ٤٥ .

(٢) الخياط : كتاب الانتصار - نفس المعطيات السابقة ، ص ١٧ - ١٨ .

نفي الفعل والفعالية عنه ، حيث يصبح الانسان نفسه القابض على مصيره .
ان العصر المأموني ، الذي تميز باحتوائه بوادر جدية مبكرة للتطور الصناعي
البورجوازي ، كان العصر المعتزلي . والتأكيد العميق على العنصر الانساني
كان يتضمن بشكل اولي امكانية الانفتاح على واقع الحرية والمساواة بالمعنى
البورجوازي المبكر المناهض للهيكل الهرمي الطبقي الاقطاعي .

ان التراتب الديني الممتد من الذات الالهية حتى الانسان « العادي »
مروراً بالملائكة والنبي والصحابة ، ان هذا التراتب ، الذي مارس دوراً
فعالاً في مجابهة ارباب السلطة المالية والاجتماعية والدينية في المراحل
الاولى من الاسلام ، تحول على أيدي المتنفذين الاقطاعيين لاحقاً الى اداة
تبرير لكونهم « الأوصياء » والقيمين على المجتمع . في اطار هذا الوضع
الجديد المتميز ، وبالعلاقة مع تكون البوادر المبكرة للمجتمع الصناعي
البورجوازي الذي يؤكد على **الفعالية الفردية الحرة** ، طرح المعتزلة فكرة
الحرية والمسؤولية في الفعل الانساني . ان علي سامي النشار ، المدافع
عن الاشعرية بحرارة ، يرى بحق بأن المعتزلة قد مضوا « في جرأة وثقة
نادرتين يعلنون ان قدرة الله وارادته لا تؤثر على قدرة العبد وارادته ، لأن
من المحال اجتماع مؤثرين على اثر واحد ، لو أراداه معاً . ان الشيء المراد
يتحقق اذا ما وجدت دواعيه » (١) .

وبالطبع ، ان الوجهة اللاجدلية العامة لآراء المعتزلة في « الحرية
والمسؤولية » لاتدعو اطلاقاً الى الاقلال من قيمتها . بل ان هذه الآراء
- منظوراً اليها في اطارها التاريخي - مارست دوراً عملاقاً في طرح قضية
الانسان من وجهة نظر هرطقية مادية . وبما أن المعتزلة قد قالوا بكون
الانسان الخالق الفعال لافعاله الخيرة والشريرة ، فقد جوبهوا بعنف من
قبل النصيين الاشاعرة وغيرهم . فالاشاعرة ردوا على « الحرية » المعتزلية
بتعليمهم حول « الكسب » الذي لم يخرجهم من نطاق القول بـ « القدرة
والعناية » الالهيتين المطلقتين .

ان الميل المعتزلي ، ولا أقول الاتجاه الواضح والواعي على نحو متميز ،
لتجاوز العنصر الغيبي الغريب عن الانسان ولا يبرز العالم المادي الموضوعي
في حركته الذاتية وقدمه ، قد خلق أساساً عميق الجذور من أجل تكون

(١) علي سامي النشار : نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام ، الجزء الاول ، الطبعة الثانية ،
الاسكندرية ١٩٦٢ ، ص ٣٤٥ .

وتبلور علم وفلسفة متطورين في العالم العربي - الاسلامي الوسيط . ان ذلك الميل قد فتح باب الفكر العقلاني الحر على مصراعيه . وطرح العقل Ratio كمعيار وحيد وجوهري للبت في الأمور الانسانية قد وقف في تعارض حقيقي وجدّي مع الآراء التسليمية والغيبية آنذاك ، كما عمل على توجيه الاهتمام بالبحث العلمي المنطقي المستقل .

ان تأثير المعتزلة في تكوين وتبلور علم وفلسفة في العصر ذاك لم ينطلق فقط من الآراء الهرطقية والناحية منحي مادياً التي طرحوها ، وانما أيضاً من المنهجية العقلانية التي صاغوها بالعلاقة مع تلك الآراء . فطريقة البحث الفكري العلمي عموماً ، وطريقة الحكم على الأمور والمواقف اليومية تنطلقان من جذر واحد جوهري ، هو العقل : ان المعتزلة قد « اتفقوا على أن أصول المعرفة ، وشكر النعمة واجبة قبل ورود السمع . والحسن والقبح يجب معرفتهما بالعقل (خطوط التشديد مني ، ط.ت) » (١) . وبرأي عمر فروخ انهم ، اي المعتزلة ، قد بالغوا في التأكيد على العقل « حتى قالوا : » اذا تعارض العقل والنقل فاتبع العقل « (٢) . والحقيقة ، انهم وضعوا خطأ فاصلاً بين العقل (المعرفة العقلية) وبين السمع (الايمان) . لقد اخضعوا القرآن لتفسير عقلي متميز جلب معه نتائج مخالفة له في نقاط اساسية . لقد قال الحسن البصري ، وهو استاذ للشخصية المعتزلية الكبيرة واصل بن عطاء : « ما نزل الله آية الا وهو يحب ان يعلم ما اراد بها » (٣) .

ولقد اوغل المعتزلة في ابراز العقل الانساني والقدرة الانسانية ، بحيث جعلوا منهما مثيلين للقدرة الالهية . وهذا ملمح اساسي من ملامح الفكر التنويري الانساني والبنيتي (القائم على وحدة الوجود المادية) اللاحق . ان ابا الحسن الاشعري يخبرنا ان الفرق الاسلامية اختلفت « في قدرة الانسان على ما علم الله انه لا يكون . (١) فاجازات « المعتزلة » ذلك . (٢) . انكره « اهل الاثبات » (٤) . هذا هو احد جوانب الخط الواضح والاساسي الذي يفصل ذينك الاتجاهين ، اللذين يشير اليهما الاشعري نفسه .

ان هذا العنفوان والتحدي التنويري الانساني يطبع الفكر المعتزلي

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٤٥ .

(٢) تبر فروخ : عبقرية العرب في العلم والفلسفة - نفس المعطيات السابقة ، ص ٤١ .

(٣) ابن تيمية موافقة - جزء ١ ، ص ١٣٩ .

(٤) الاشعري : مقالات الاسلاميين - نفس المعطيات السابقة ، ص ٢١٤ .

بميسمه بقوة ، ويؤثر على الاتجاه الانساني التنويري اللاحق . ونحن نرجح هنا تأثير الشاعر الالماني الكبير Goethe الذي تعرف كثيرا على قليل على القرآن وبعض جوانب الادب العربي ، بالاتجاه المعتزلي الانساني الناحي منحى بنتيئيا ، حين يخاطب الاله في ملحمة الشهيرة Faust : « انني انا ، فاوست ، انني نذك » (١) .

بالطبع ، اننا حين نشير الى ان النظام الفكري المعتزلي محاط بغلاف تأملي contemplative (٢) ، فاننا لانرى في ذلك نقطة جوهرية يخضع لها هذا النظام . ذلك لان المعتزلة لم يكونوا ، في اكثريةهم ، مفكرين فقط ، وانما ايضا سياسيين وعلماء طبيعيين . وشخصية الجاحظ المعتزلي الكبير (مات عام ٨٦٠) تقدم لنا ، من خلال كتابه « الحيوان » ، مثالا بارزا على ما نزعناه هنا .

لقد تحولت الايديولوجية المعتزلية الى ايديولوجية الدولة ، والمجتمع الى حد كبير ، اثناء حكم الخليفة العباسي المعتزلي المأمون (حكم من ٨١٣ حتى ٨٣٣) ، اي في فترة زمنية اكتسبت فيه عملية الترجمة وانتقلت عن اللغات الاجنبية العريقة ابعادا وآفاق واسعة افقيا وعموديا . والايديولوجية تلك ، التي تطورت وتبلورت تحت تأثير الحركة الحضارية العامة آنذاك . ساهمت بدورها في اكساب هذه الحركة طابعا هرطقيا انسانيا وذا منحى مادي مبكر ، كما ساهمت بالتالي في افساح الطريق لتكوين علم طبيعي وفكر نظري فلسفي مستقلين عن الدين . وهي لذلك المهد العميق المباشر لهذا الفكر وذاك العلم .

٤ - أما العامل الآخر الذي مارس دورا في عملية تكوين وتبلور فلسفة وعلم طبيعي في العصر العربي الاسلامي الوسيط فهو التلاقح والتمازج مع الحضارات الانسانية المتقدمة ، واليونانية منها على نحو خاص . ان الترجمة والنقل للتراث الفكري قد سهلا ، في خلال ذلك ، تلك العملية . وعلينا ان نقدر هنا بشكل عام ان العلم والفلسفة اليونانيين قد مثلا عونا كبيرا باثارتها سلسلة لاتنقطع من الاستفزازات والمباحكات والمناقشات بين الاطراف المختلفة من ممثلي الثقافة آنذاك . والجدير بالملاحظة هو ان اعمال ارسطو قد لقيت انتشارا عميقا في الاوساط

(١) Faust : Goethe لايزرغ ١٩٦٢ ، دار نشر الجزيرة ، ص ١١ .
(٢) kontemplativ

الفكرية المتباينة ، والهرطقية المناهضة للنصية والتسليمية منها على وجه الخصوص . لقد جوبه ارسطو بشكل عام بأفلاطون من قبل اولئك الآخرين ، كما جوبه أفلاطون بارسطو من قبل العقلانيين الهرطقيين الناحين منحى مادياً . . .

وبما أن ارسطو قد دخل الواقع الفكري آنذاك ممزوجاً بجوانب افلاطونية وافلاطونية حديثة ، فقد توجب على ممثلي الاتجاه التقدمي ضمن ذلك الواقع أن يقرزوا ، خلال ممارستهم الفكرية ، تلك الجوانب عن ارسطو الحقيقي . أن ابن سينا وابن رشد قد عملوا بجهد في سبيل تعرية ارسطو من الظلال الافلاطونية والافلاطونية الحديثة المثالية ، وتقديمه بصورة أكثر مادية وهرطقية مما كان عليه هو أصلاً . وقد كانت مواقف الطبقات الاجتماعية من العالم الطبقي والاجتماعي من وراء عملية استعادة ارسطو على نحو يتآخى مع مقتضيات وجودها التاريخي .

ان الفلاسفة اليونانية القديمة لم تحتفظ في المجتمع العربي الاسلامي الوسيط بعناصرها الاساسية فقط . انها قد طورت أيضاً بشكل يدعو الى الدهشة من قبل فلاسفة ذلك المجتمع . فاستبقاء التراث الفلسفي والعلمي اليوناني لدى المفكرين العرب الاسلاميين لم يكن تحنيطاً لهؤلاء المفكرين ، بل كان تجاوزاً لهذا التراث واكسابه مضامين أكثر عمقاً واقترباً من وضع حلول للمشكلات الفكرية والاجتماعية التي طرحت نفسها آنذاك .

والذي حدث هو أن مجموع الاطراف الكلامية في العهود الاولى للمجتمع العربي الاسلامي الجديد احتاجت كثيراً أو قليلاً الثقافات التي انجزتها الشعوب الأخرى . وقد قام السريان بنقل التراث الفكري اليوناني الى اللغة السريانية ، ثم نقل هذا الى العربية . ان « منطق » ارسطو قد كان محط انظار المعتزلة والاشاعرة على حد سواء . الا أن احتياجات الواحد من هذين الفريقين للـ « منطق » ذاك كانت تختلف بالنسبة الى احتياجات الآخر انطلاقاً من عاملين اساسيين :

١ - الموقف الطبقي الاجتماعي لكل من هذين الفريقين ومقتضيات هذا الموقف السياسية والاجتماعية والاخلاقية .

٢ - الموقف من القضايا التي طرحها الاسلام في الحقول الفلسفية الدينية والحقوقية الانسانية .

ان طاليس وديموقريطس واقليدس وبطليموس وارسطو وافلاطون

وسقراط ... كانوا قد حوّلوا بانظمتهم الفلسفية الى موضوع شامل للحوار والمناقشة والبحث لدى مثقفي المجتمع العربي الاسلامي الوسيط (١). والمؤلفات الفلسفية لأولئك المثقفين تقدم لنا اعمق المناقشات وأكثرها إخضاعاً وإغناء للفكر الانساني في العصور الوسيطة .

وبالطبع لم تتم عملية الترجمة والنقل عن الثقافة اليونانية القديمة فقط . وانما اكتسبت طابعاً موسوعياً « عالمياً » احتوى الثقافات الهندية والفارسية والصينية والسريانية . وهذه الثقافات انعكست باشكال وحدود مختلفة في بنية الثقافة العربية الاسلامية الوسيطة . ولكن هذا لم يعمل على فقدان شخصية الثقافة تلك ، بقدر ماعمل على تعميق ملامحها وتحديدتها على نحو أكثر اصالة .

اننا في الوقت الذي نرى فيه أن الثقافة العربية الاسلامية الوسيطة، والفلسفة والعلوم الطبيعية منها خصوصاً ، قد تكونت الى حد كبير تحت تأثير الثقافات الأجنبية ، فإنها ظلت محتفظة بكونها ثقافة المجتمع العربي الاسلامي الوسيط . انها لم تكن هجينة ، كما يؤكد البعض من المثقفين العرب المعاصرين . ذلك لأن التأثير بعوامل أجنبية لا يعني اطلاقاً الوقوع في واقع «هجين» ، اذا استطاع ممثلو هذه الثقافة استيعاب هذه المسألة بعمق . ان واصل بن عطاء والنظام والجاحظ والكندي والفارابي وابن سينا والحلاج وابا العلاء المعري وابن طفيل وابن رشد وابن خلدون هم جزء جوهري من تراثنا الثقافي . وهؤلاء لم يكونوا أبداً نسخة عن الثقافة اليونانية أو الهندية أو الفارسية ، بل هم بالضبط مفكرو المجتمع العربي الاسلامي الوسيط .

(١) انظر حول ذلك العرض الشيق ، ولكن المليء بالاططاء التاريخية ، الذي يقدمه الشهرستاني في كتابه (الملل والنحل - الجزء الثاني ، القاهرة ١٩٦١ من ص ٥٨ حتى ١٥٨) .

بدايات الفكر الفاسفي

العربي - الاسلامي

افلاطون وارسطو وافلوطين ، وتبلور بدايات الفلسفة العربية الاسلامية

منذ المرحلة الاموية للمجتمع العربي - الاسلامي الوسيط بدأت عملية النقل من اللغة اليونانية الى العربية . فنحن نستطيع ملاحقة هذه العملية في شخص خالد بن يزيد (مات عام ٧٠٤) وفي العهد الذي حكم فيه الخليفة عمر بن عبد العزيز (٧١٧ - ٧١٩) . بيد أنها (أي عملية النقل تلك) اكتسبت وتائر سريعة وشاملة مع ترسيخ المرحلة العباسية من تاريخ المجتمع العربي - الاسلامي الوسيط . ولقد تحولت تلك العملية في المرحلة العباسية من اطار العمل الفردي الضيق الى اطار العمل المتخصص المتبنى من قبل الدولة نفسها . ان ذلك الواقع يبرز الأهمية الكبيرة التي منحت للعمل الفكري والعلمي في اطار الدولة والمجتمع آنذاك .

وحركة النقل تلك لاتهمنا هنا الا باعتبارها مفتاح التمازج الثقافي الحضاري العميق الذي تم بين الثقافة اليونانية القديمة والأخرى العربية الاسلامية . بيد انه من الضحالة الفكرية ان نقول بأن ذلك « التمازج » هو الذي كوّن الفكر العربي - الاسلامي . ذلك لأن هذا الفكر لم يجد مصادر تكونه وتطوره بالدرجة الاولى في الثقافات الاجنبية ، وان كانت هذه الأخيرة قد قدمت نبضات حية له وأمدته ب « عبارة » واقية يمر عليها متجهاً الى اهدافه . أما مصادره العميقة فكانت في بنيان المجتمع العربي - الاسلامي نفسه ، اي في ذلك التوزيع الاجتماعي الطبقي (الرقيق والاقطاعي والبورجوازي المبكر) وفي البنيات الفكرية التي كانت استجابة واعية كثيراً او قليلاً له (للتوزيع ذاك) . ان هذه المسألة على تعقيدها ، سوف نجدها تطرح نفسها بحدة حين يطرح السؤال : لماذا مارس ارسطو وافلاطون تأثيراً متبايناً على مفكري العصر العربي - الاسلامي

ذلك ؛ بل أكثر من ذلك ، لماذا فهم أرسطو على انحاء مختلفة من قبل
المفكرين أولئك ؟

لقد عرف العرب — المسلمون أعمال افلاطون وأرسطو من خلال هذه
الأعمال نفسها التي ترجمت إلى العربية ، وكذلك من خلال أعمال الفيلسوف
الاسكندراني أفلوطين (٢٠٤ — ٢٦٩) ، الممثل الرئيسي للأفلاطونية الحديثة (١)

لكن خلال ذلك نشأ **التباس تاريخي** ذو دلالة كبيرة ساهم في خلق
مشكلات وتعميدات ضخمة في وجه التقدم الفلسفي آنذاك . وقد كان من
وراء هذا الالتباس ترجمة الكتب الثلاثة الأخيرة من مؤلف أفلوطين المسمى
بـ « التاسوعات Enneaden » ، التي ترجمت إلى اللغة العربية تحت
عنوان « ثيولوجيا أرسططاليس » . ولقد انجز ترجمته عبد المسيح بن عبد
الله نعيمه الحمصي (حوالي ٨٣٥) . وهناك البعض من الباحثين (٢) الذي
يرى بأن « التاسوعات » قد صُنحت ترجمتها من قبل الفيلسوف الكندي ،
الذي عاش حوالي ١٨٥ — ٢٥٢ هجرية . ولكن شيئاً جديراً بالملاحظة يظهر
لدى الكندي ، كما يلاحظ ذلك أبو ريده الذي أشرف على إصدار « رسائل
الكندي الفلسفية » ، وهو أن الكندي في رسالته حول « عدد كتب
أرسططاليس » لا يشير أبداً إلى تلك الثيولوجيا « الأرسطية » . وهذا
الواقع يمنحنا الحق ، كما يرى أبو ريده ، لنقد الرأي القائل بأن العرب
المفكرين قد استسلموا في فترتهم الفكرية المبكرة أو لفات فلسفية إدعوي
أنها من تأليف أرسطو في مرحلة نموه الأولى أو نضجه (٣) .

لقد عرفت في المراحل الأولى لنشوء الفلسفة العربية — الإسلامية
تقريباً كل مؤلفات أرسطو الأساسية . والرسالة المشار إليها فوق للكندي
حول « عدد كتب أرسطوطاليس » تقدم لنا مثلاً بارزاً على ذلك ووثيقة
تاريخية دقيقة . في هذه الرسالة يشهد الباحث إلى أي حد عميق توصلت
المعرفة آنذاك بمؤلفات أرسطو . والكندي لا يقدم لنا تلك الوثيقة كمؤرخ
للفلسفة بالدرجة الأولى ، وإنما كفيلسوف عمل على إقامة مذهب فلسفي
مثالي . أن الكتب الأرسطية « مابعد الطبيعة » و « في النفس » و « في

(١) الشهرستاني يسمي أفلوطين بالشيخ اليوناني ، لعدم معرفته اسمه الحقيقي هذا
(انظر : شهرستاني : الملل والنحل — جزء ٢ ، نفس المعطيات السابقة ، ص ١٤٤) .

(٢) مثلاً : جميل صليبا — من افلاطون إلى ابن سينا ، دمشق ، الطبعة الثانية ١٩٣٨ ، ص ٥٥ .

(٣) انظر : رسائل الكندي الفلسفية — نشرها م. أبو ريده ، مصر ١٩٥٠ ، جزء ١ ،
ص ٣٦٣ — ٣٨٤ .

« السماء » و « في الكون والفساد » وكتابات أخرى اخلاقية ومنطقية وحيوانية - خاصة بعلم الحيوان - لم يُشر إليها فقط في تلك الرسالة ، وانما قدمت تقديمًا فلسفيًا يعرف القارئ بمحتواها الاساسي (١) . خلال ذلك نجد الكندي يبذل جهداً ملحوظاً لفرز الأعمال الارسطية عن مثيلاتها الافلاطونية ، على وجه الخصوص .

أما عن الأعمال الافلاطونية، فان ابن النديم يخبرنا في « فهرسته » (٢) ، بأن حنين ابن اسحاق (٨١٠ - ٨٧٧) قد شرح كتاب « السياسة » لافلاطون ، وبأنه قد رأى كتاب « المناسبات » منسوخاً بخط يد يحيى ابن عدي . عدا ذلك عُرِف من أعمال افلاطون « أبولوجيا » و « طيمائوس » و « السفسطائي » و « فيدروس » و « الجمهورية » و « كريتون » و « غورغياس » و « مينون » و « بروتاغوراس » (٣) .

لقد تكون نتيجة نقل التراث الفلسفي اليوناني الى اللغة العربية ، اللغة الرسمية للمجتمع العربي الاسلامي الواسع بشعوبه ولغاته ، وضع فكري فذ من حيث التمازج العميق بين هذا التراث وثقافة المجتمع الجديد . ولكن هذا الوضع حمل في اثنائه في نفس الوقت ظاهرة سلبية ، هي **التداخل** في المواقف الفكرية ، وبالتالي عدم التميز والوضوح فيها . وبالطبع ، لم تكن ثقافة المجتمع الجديد ذاك نتاج عملية النقل والتمازج تلك فقط ، بل ان الاسلام كَوّن الترسانة الواسعة لمجموعة ضخمة من المشكلات الفكرية والدينية والاجتماعية التي عملت ، بفعل عامل **التأويل** واستخدامه حتى الحد الأقصى من قبل الاطراف الفكرية المتنازعة ، على تقديم وقود لنزاع تلك الاطراف .

ومما له أهمية في عملية الكشف عن مضامين هذه النزاعات في المراحل الاولى واللاحقة من المجتمع العربي الاسلامي الوسيط ، أن يأخذ الباحث بعين الاعتبار العميق العملية المعقدة والمتشعبة التي كمنّت في محاولة **تنقية** ارسطو من العناصر التي دخلت أعماله ، إن كان من مصدر افلاطوني أو افلاطوني حديث (افلوطيني) ، وبالتالي في ابراز الجوانب المادية الهرطقية

(١) انظر هذه الرسالة في : المصدر السابق ، ص ٣٦٣ حتى ٣٨٤ .

(٢) انظر : ابن النديم ، فهرست ، القاهرة ١٣٨٤ هـ . ، ص ٣٤٤ .

(٣) انظر : نفس المصدر السابق ، ص ٣٥٣ . وكذلك : دي بوز ، نفس المصدر المعطى سابقاً ، ص ٢٨ .

في افكاره والتأكيد عليها . والاهتمام هذا بفكر ارسطو ومحاولة فرزهِ عن الافكار المثالية اللاهوتية لم ينبع من النمو الذاتي الخاص لدى مفكري المجتمع ذاك فقط ، وانما أيضاً ، وبالعلاقة الوثيقة مع ذلك ، من الوضع الاجتماعي التاريخي العياني . لقد كان ازدهار وتطور اقتصاد زراعي وبضائعي واسع ، ومن خلال تعاظم الحركة التجارية ، المحرك والدافع غير المباشر لتكوّن وتطور علم طبيعي وفلسفة آخذة بمنحى مادي هرطقي . بالطبع ، من الضروري في هذا الاطار من المسألة الاشارة الى ان الازدهار والتطور الزراعي والبضائعي والتجاري ذلك كان قد تم في ظلال الملامح التطورية البورجوازية المبكرة .

ان كلا الطرفين ، العلم الطبيعي والواقع الاجتماعي الاقتصادي ، قد اثرا على بعضهما على نحو متبادل . والجدير بالذكر ان الحاجات التقنية لذلك الواقع الاقتصادي الاجتماعي قد أسهمت في حدود بعيدة في تحريك التقدم العلمي الطبيعي . ونحن لانحتاج الان الى تقديم ثبوت كامل بالمكتسبات العلمية التي تحققت آنذاك في حقول الكيمياء والفلك والميكانيك (الحيل) الخ . . . فالكثير من هذه المكتسبات أصبح من المعلومات المعروفة لدى الكثيرين من العلماء (١) .

ان هذا التطور العلمي الفلسفي قد لقي على نحو غير مباشر دعماً اولياً من الاوساط الدينية الاسلامية المتحررة . في ذلك الوضع لم يستطع افلاطون الا أن يمارس تأثيراً سلبياً ، وخصوصاً من خلال نظريته في المعرفة من حيث هي « تذكر » . على العكس من ذلك نجد ان ارسطو - وبحدود معينة افلاطون - قد مارس التأثير الايجابي الاكبر ، ضمن المؤثرات الاجنبية، على عملية التقدم العلمي الطبيعي . وقد أبرز Munk (٢) في هذا المجال واقع ان العرب قد فضلوا ارسطو على افلاطون ، وذلك بسبب منهجه التجريبي الذي لبى مطالبهم الأولية في البحث العلمي ، والذي عارضوه بالتصورات المثالية الخيالية الافلاطونية .

لقد أخذت عملية استخدام الفكر الارسطي الهرطقي المادي تكتسب

(١) انظر حول ذلك : طوقان ، العلوم عند العرب ، مصر - دون تاريخ اصدار - . وكذلك :

J. D. Bernal ، العلم في التاريخ ، برلين ١٩٦٧ ، ص ١٧٩ - ١٨٣ .

(٢) انظر : Munk -

Milanges de philosophie juive et arabe, Paris 1859, S. 312. .

أبعادها وآفاقها منذ بدايات الفكر المعتزلي وبعد ذلك . وهذا ظهر خصوصاً في الاتجاه الذي سلكه أبو الهذيل العلاف والنظام ، المفكران المعتزليان الكبيران اللذان عاصرا الكندي . فلم يحوّل « منطق أرسطو » فقط ، وإنما أيضاً كتابه الأساسي « مابعد الطبيعة » الى سلاح فكري في أيدي المفكرين العديدين في المعركة ضد الاتجاهات الفكرية التسليمية النصية . وقد استنفدت في خلال ذلك الأفكار الأفلاطونية من قبل المتكلمين السنيين ، كما من قبل بعض الفلاسفة الذين تأثروا بشكل واسع بالأراء الإسلامية حول « الوجود » .

إن التعاليم المتمسكة بالنصوص القرآنية والسنية - مع بعض الاجتهادات الفرعية في هذا المجال - التي أتى بها أصحاب المذاهب الأربعة أبو حنيفة (٧٠٠ - ٧٦٧) ، ومالك بن أنس (٧١٣ - ٧٩٥) ، ومحمد بن إدريس الشافعي (٧٦٧ - ٨٢٠) ، وابن حنبل (٧٨٠ - ٨٥٥) ، وكذلك التعاليم الكلامية المتميزة ، وفي طبيعتها القدرية والاشعرية ، إن هذه جميعاً قد تكونت وتبلورت وتطورت في إطار التصورات الإسلامية حول الوجود والإنسان . ومثلوا هذه التعاليم الدينية الفقهية والميتافيزيقية استخدموا المنطق الأرسطي ، أو بشكل أدق ، أنهم أرغموا من قبل الأطراف المعادية - المعتزلية - على تعاطي الأمور المنطقية لتقوية مواقعهم وللرد على تلك الأطراف .

وقد ركز ممثلو تلك التعاليم الميتافيزيقية النصية مقاومتهم على جانبين أساسيين من جوانب الفكر الأرسطي الهرطقي والذي يتسم بلامح مادية . هذان الجانبان هما نظرية أرسطو حول « المادة » ، وتصوره حول « المحرك الأول » . ففي الأولى وجد أولئك النصيون خطراً على « التوحيد » الإلهي ، ذلك لأن « المادة » الأرسطية قديمة قدم الإله ، المحرك الذي لا يتحرك . وقدمها يؤدي إلى القول بـ « خالقين » ، كما أدى أيضاً قول المعتزلة بحرية الإنسان إلى نظرية « الخالقين » . وكلاهما ، النظرية الأرسطية والأخرى المعتزلية ، رفضتا وكوفحتا من قبل الاتجاهات السنية النصية .

كذلك رفضت هذه الأخيرة التصور الأرسطي حول « المحرك الذي لا يتحرك » لأنها رأت فيه خطراً على الراي السني في الإله ، القادر في كل زمان ومكان على التدخل في أمور العالم المادي والعناية به . أي أن « العناية » و « القدرة المطلقة » على التدخل في كليات وجزئيات العالم المادي تنتفيان من خلال الأخذ بـ « المحرك الذي لا يتحرك » .

لقد كانت تلك المسألتان الأرسطيتان محور كفاح احتدم بعنف بين الأطراف الفكرية المتباينة . إن مانعنيه بذلك هو أن هذه الأطراف وجدت في تلك المسألتين مادة شيقة ومثيرة للغاية لتدعيم مواقفها الفكرية والسياسية إما **معهما** ، أو **ضدهما** . وهنالك عامل عقد الواقع ذاك ومنحه الكثير من التشعبات والتفرعات ، وهو ترجمة « ثيولوجيا » افلوطين ، أي « تاسوعاته » باسم ارسطو . لقد كان هذا كسباً للفلسفة المثالية وللدين بالدرجة الأولى . اذ عن طريق ذلك استطيع ازالة او ، بالحد الأدنى ، تخفيف الخلافات الأساسية بين ارسطو وافلاطون وافلوطين . ولكن بالرغم من ذلك هنالك محاولات نجدها لدى بعض المفكرين العرب قامت على التدقيق في حقيقة كتاب « اثنولوجيا » .

فنحن نواجه احدى تلك المحاولات لدى الكندي في رسالته التي اتينا على ذكرها سابقاً والخاصة بتعداد كتب ارسطو وعرضها على نحو عام . هاهنا يغفل الكندي الإشارة الى « اثنولوجيا » نهائياً . كذلك الفارابي في كتابه « كتاب الجمع بين الحكيمين » يقر بوجود خلاف بين ارسطو وافلاطون ، ولكنه يحاول حل هذا الخلاف « المصطنع » ، بحسب رأيه ، على نحو مصطنع . أما ابن سينا فقد تكلم بوضوح عما « في اثنولوجيا من المطنع » (١) .

ولكن الأبحاث العامة في مجموع ما قدمه لنا المفكرون الاسلاميون العرب ثرينا بأن هؤلاء المفكرين جميعاً لم يستطيعوا ايجاد وضوح متكامل حول تلك المسألة . وهذا ما ساهم ، على نحو غير مباشر ، في تعقيد الموقف الفكري الفلسفي آنذاك ، بحيث ظلت المواقف الفلسفية المادية الهرطقية والمثالية التسليمية متداخلة بأشكال مختلفة . أي أن عدم كشف حقيقة « اثنولوجيا » كان احد الأسباب في عدم اكتساب مواقف فكرية حازمة ومتميزة بالحدود الدقيقة . والباحث لا يسعه الا أن يأخذ هذه المسألة بعين الاعتبار ، اذا أراد استجلاء مواقع الضعف أو التردد أو الانتقائية أو عدم الوضوح لدى بعض المفكرين العرب الاسلاميين الذين نحوا منحى مادياً هرطقياً . ولا شك أن هنالك أسباباً أخرى عملت على تكوين ذلك الوضع ، منها محاولات الفكر الاقطاعي التبريري المثالي استيعاب وامتصاص الارهاصات الفكرية المادية الهرطقية ، وبالتالي محاولات ذلك الفكر الاقطاعي قمع هذه الارهاصات في المهد . كذلك من أسباب تعقيد ذلك الوضع

(١) ابن سينا : كتاب البحوث - في : عبد الرحمن بدوي ، ارسطو عند العرب ، الجزء الاول ، القاهرة ١٩٤٧ ، ص ٢١ .

عدم النمو الشامل والعميق للاتجاه البورجوازي الصناعي المبكر ، الذي حمل في أحشائه مواقع التقدم الفلسفي المادي الهرطقي والعلمي الطبيعي . كما أن الصعوبات الذاتية المعرفية كانت ، من حيث هي تعبير حقيقي عن **عملية نمو حقيقية** في الفكر العربي الاسلامي ذاك ، أحد الاسباب في عدم الوضوح والتميز الدقيقين في هذا الفكر . ذلك لأن هذا الأخير حلقة من حلقات تاريخ الفكر الانساني العام .

ونحن إن اردنا استجلاء **المؤثرات** الاساسية العميقة التي ساهمت في تكوين وبلورة وجهات نظر الفلاسفة الاسلاميين العرب حول « العالم المادي » أو « المادة » ، فاننا نجد أمامنا التأثير الارسطي والافلاطوني والافلوطيني . ولا شك ان الاسلام ، في جانبه الديني الغيبي - الميتافيزيقي - قد مارس تأثيراً واضحاً في وجهات نظر بعض أولئك الفلاسفة . ولكن من الضروري التأكيد على نقطتين نرى انهما اساسيتان في اطار مسألتنا هذه : ١ - ان الفكر الفلسفي المثالي في المجتمع العربي الاسلامي الوسيط قد تكون تحت تأثيرات افلاطونية واسلامية ، كذلك الجوانب المثالية في المنظومة الفلسفية لأرسطو وافلوطين وفلاسفة آخرين أسهمت في تكوين ذلك الفكر بشكل خاص . ٢ - ان الاسلام شكل الاطار الديني العام ، الذي انطلق منه أيضاً الفلاسفة الذين نحوا منحى مادياً مبكراً . هذا يعني أن هؤلاء الفلاسفة في الوقت الذي انطلقوا فيه ، **كالفلاسفة المثاليين** ، من ذلك الاطار الديني العام ، نجدهم ، في النتائج التي توصلوا اليها ، يتجاوزون هذا الاطار بقوة واصرار . انهم في الوقت الذي أدركوا فيه حدود **منطقهم** ، ركبوا موجة ذلك الاطار بدكاء وحذر لم ينجيانهم في حالات معينة من الاضطهاد والملاحقة والنفي . ان هذا الامر يمكن ملاحظته بدءاً من المفكرين المعتزلين ومروراً بالفارابي وابن سينا وابن باجه وابن طفيل وآخرين ، وانتهاءً بابن رشد .

ان هذا يبرز حقيقة أخرى ، وهي أن الفلسفة العربية الاسلامية الوسيطة بمثلها الماديين الهراطقة لم تقم ، كما يدّعي الكثيرون من الباحثين العرب والمستشرقين الأجانب ، على أساس التوفيق بين الفلسفة والدين ، بقدر ما أكدت من خلال الصيغة تلك (التوفيق بين الشريعة والحكمة ، أو العقل والنقل) على شرعية وجود الحكمة والعقل في عالم كان فيه الفكر النقلي النصي والمجابه للفكر العقلاني المتحرر يشكل اللثمة العامة لبنية الجماهير الثقافية . ان الفكر العقلاني هذا لم يطرح تلك الصيغة الا لكي

ينفذ الى التأكيد على وجوده الشرعي . بل ان الامر قد تعدى هذا النطاق لدى بعض ممثلي ذلك الفكر ، مثل ابن طفيل وابن باجه وابن رشد ، حيث رأى هؤلاء أن القول الفصل للحكمة والعقل ، اذا تناقض هذان مع العقل والشرية . وقد كان هذا ولاشك محاولة كبيرة لجبر الشريعة الى الحكمة ، وليس العكس ، كما حدث لاحقاً على يد الفيلسوف اللاهوتي المسيحي توما الاكوينسي .

ان الكندي قد ظل يتحرك على أرضية دينية في رؤيته للمشكلات الوجودية الأساسية ، ومن ضمن ذلك مشكلة « الوجود المادي » . فهو احتفظ بالمصادرة الاسلامية حول « الخلق » من عدم مطلق . ولكنه أكسبها تبريراً فلسفياً جديراً بالبحث المعمق ، لأنه هنا وجد نفسه محاطاً بدوامية من المسائل التي ينتفي تجاوزها على نحو منطقي ضمن الدائرة التي تنطلق منها تلك المصادرة . وهذا يفسر لنا وجود ميل أولي لدى الكندي للأخذ بالتعليم الفيضي كحل لتلك المشكلة ، مشكلة الخلق من عدم . أما الفارابي فيمثل محاولة شيقة وهامة على طريق اراحة تلك المصادرة . لقد أخذ بالتعليم الفيضي الأفلوطيني ، بعد أن ادخل عليه تعديلاً عميقاً أكسبه طابعاً متميزاً باطار الفكر العربي الاسلامي الوسيط . وفي نفس الوقت طرح الفارابي قضية « العالم الواحد » رافضاً بذلك ، على نحو غير مباشر وبقليل أو كثير من الوضوح ، القول بـ ١ - « إثنين العالم » و ٢ - بوجود عالم مفارق ، عالم الهي علوي ، وعالم عياني حسي .

ان بداية الفكر الفلسفي المتميز لدى الكندي في المجتمع العربي الاسلامي الوسيط كانت محاولة لتأطير الدين باطار فلسفي . ولكنها ، منذ بداية تكونها ، واجهت مشكلات ذاتية لم يكن لها أن تتجاوزها بأدوات نابعة من الاطار الديني الفلسفي . ان التعليم الفيضي قد قدم في اثناء ذلك واحدة من الامكانيات لاستشراق آفاق حل معقول للمسائل المطروحة . والفارابي استطاع ، ولاشك ، صياغة تلك الامكانية بقوة فكرية عميقة متماسكة . وقد تم ذلك ، كما قلنا ، باسم الدفاع وصيانة المبادئ الدينية في « نقائهم » . الا ان التطور اللاحق للفكر الفلسفي ، ومن ضمنه قضية « الوجود المادي » أو « العالم » ، كان قد تجاوز بشكل شامل البدايات الفلسفية التي انجزها الكندي والفارابي . ان ابن سينا يمثل ، في ذلك ، الشخصية الاولى التي استطاعت فعلاً ارساء قاعدة فلسفية متميزة بتماسكها ووضوحها الماديين . اننا نشهد لديه المحاولة الفلسفية العميقة الاولى في اطار المجتمع العربي الاسلامي الوسيط لرفض مباشر وشامل للمصادرة

الدينية القائمة على الخلق من عدم مطلق . وقد استخدم ابن سينا في جهده ذلك أرسطو بشكل أساسي ، كما استنفذ التعليم الفيضي الأفلوطيني ، بحيث أنه أقام على أساس ذلك ، ونتيجة إبداع فلسفي ذاتي عميق ، بنياناً فلسفياً فارعاً يتحدد بوحدة وجود مادية .

أما الحلقات الأخرى في التحول الفلسفي آنذاك ، فقد تحققت على أيدي المفكرين ابن باجه وابن طفيل وابن رشد . وسوف نجد أن ابن طفيل لم يمثل مجرد امتداد لابن سينا ، بل أسهم في تطوير الفكر الفلسفي المادي الهرطقي ، وخصوصاً في حقل نظرية المعرفة . أما ابن رشد فإنه ولا شك قد شارف بالفكر ذاك قمته ، وكان بذلك أعظم مفكر في العصر الوسيط تكشفت في منظومته الفلسفية تجربة فلسفية خصبة للغاية عكست ، على نحو خاص ، أبعاد ومطامح الانهيارات الاجتماعية البورجوازية المبكرة التي تواجدت في المجتمع العربي الإسلامي آنذاك ، فكانت ، بذلك ، الإطار النظري الأيديولوجي لتلك الانهيارات .

إن البدايات المثالية للفكر الفلسفي في العصر الإسلامي العربي ، التي احتوت بذور انشطارها وتجاوزها ، ما لبثت أن أفسحت الطريق للفكر المادي الهرطقي ممثلاً بتلك الشخصيات التي أتينا على ذكرها .

والجدير بالذكر أن مجابهة الفكر الفلسفي المثالي آنذاك لم ينتطع لها الفلاسفة الناحون منحى مادياً متميزاً فقط ، وإنما أيضاً ممثلو الصوفية الإسلاميون ، الذين جابهوا مصادرة الخلق من عدم على نحو صوفي خاص ، أي من خلال الأخذ بـ « وحدة وجود » روحية ، وذلك دون المرور بأرسطو و «عالمه المادي القديم» ، بل عبر تأثير فيضي أفلوطيني وصوفي هندي وديني إسلامي .

ولكن بالرغم من تعاضد قدرة الفكر المادي الفلسفي لاحقاً واتساع آفاقه وفرضه نفسه على الواقع الفكري كشكل أساسي من أشكال هذا الواقع ، فإنه اندخر بعنف تحت ضغط الفكر الإقطاعي التسليمي وخلفيته الاجتماعية والاقتصادية والعلمية والأخلاقية .

وبالطبع ، إن ابن خلدون بفكره التاريخي الناحي منحى مادياً كان محاولة من الفكر الفلسفي المادي لإكساب مجابهته للفلسفة المثالية والتعسف التسليمي والضجالة الفكرية طابع الشرعية . لقد كانت هنالك بدايات في الفكر الفلسفي التاريخي آنذاك ، ولكن ابن خلدون تجاوز هذه البدايات

بعمق فكري لم يشهد مثله تاريخ الفكر الإنساني حتى ذلك العصر . ولكن ابن خلدون أتى بفتح التاريخ الكبير في عصر لم يكن أصلاً قادراً على الإحاطة بهذا الفتح وتطويره إلى أمام من قبل ممثلين آخرين له . وهذا الواقع - بالطبع باستثناء الشخصية البارزة المقريري - يرينا بوضوح كيف أن عملية صياغة الفعل التاريخي الاجتماعي بقانون اجتماعي استكملت أبعادها بعد دخول المجتمع العربي الإسلامي الوسيط مرحلة الانحطاط والاضمحلال . فكان ابن خلدون بذلك قد كثف تجارب واسعة في الحقول العديدة التي تمت في مرحلة ازدهار ذلك المجتمع تكثيفاً نظرياً معمقاً . ان الفكر التاريخي - والفكر الخلدوني يمثل حلقة جوهريّة من تطوره - وأي فكر آخر لا يمكن اشتقاقه ميكانيكياً من الواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ، بل هنالك عملية معقدة تتم خلال تعبير ذلك الفكر عن نفسه . وهذا يعني ان ابن خلدون هو الحصيلة الحقيقية لفترة ازدهار المجتمع العربي الإسلامي الوسيط في ازدهاره وفي انحطاطه في آن واحد .

وفي الفصول التالية نحاول تحديد المعالم الأساسية للحلقات المفردة والمختلفة للفكر العربي الإسلامي الوسيط ، كما لهذا الفكر من حيث كليته ، ولكن بعد المرور على مشكلة « الذرة » أو « العالم الذري » في الفكر هذا .



معالم المذهب الذري في الفكر العربي - الاسلامي الوسيط الإطار النصي الايماني لهذا المذهب

١ - ان « الذرية » او « المذهب الذري » يمثل أحد اشكال التطور الأساسية للفكر العربي - الاسلامي الوسيط . ولا شك ان دراسته وتقصيه بشكل علمي دقيق لهو أمر هام بقدر أهمية دراسة وتقصي تراثنا ككل . وقد أهملت دراسة هذه الظاهرة الفكرية في تراثنا من قبل مفكرينا المعاصرين ، الا في حالات ضئيلة وغير موسعة ومتميزة . بيد انه ظهرت بعض ابحاث في هذا الخصوص انجزها مستشرقون وعلماء في تاريخ العلم والفلسفة ، نذكر منها « تصورات حول بنية المادة في تحول العصور » لـ F. Lieben و « ابحاث حول النظرية الذرية الاسلامية . » لـ S. Pines المترجم الى العربية تحت عنوان « مذهب الذرة عند المسلمين » .

في البدء نود ان نشير الى حقيقة نرى انها أساسية لاستيعاب هذا المذهب وكذلك لاستيعاب الملامح الرئيسية للفكر العربي - الاسلامي الوسيط عموماً . هذه الحقيقة هي أن قانونية التطور الفكري الاسلامي - العربي تكمن في عملية تكوّن وتطور اتجاهين فكريين رئيسيين ومتعارضين قليلاً او كثيراً ، هما الارثوذكسي (ويضم الفلسفة المثالية ، والايمانية الدينية الغيبية) والمادي (الذي يقيم مع العقلانية الهرطقية ومع الجدلية رباطات وثيقة) .

ونحن يمكننا ان نلاحظ هذين الاتجاهين في المذهب الذري ذاك بكثير أو قليل من الوضوح ، وعلى الرغم من التعقيدات والمنعطفات التي تجابهنا لدى دراسته وتتبعه في آثار الذريين العرب - الاسلاميين . الى جانب ذلك ، سوف يستبين لنا صدق الموضوعة التالية ، وهي ان فكرة ما يمكن ان تؤثر باشكل مختلفة ضمن احوال اجتماعية حضارية مختلفة ، وان تؤخذ وتتبنى من خلال منظورات متباينة في حقب اجتماعية حضارية متباينة . ان هذه الموضوعة الجدلية هامة بشكل مبدئي ، من حيث انها تلقي

ضوءاً ساطعاً على عملية ظهور « الذرية » في الفكر العربي - الاسلامي الوسيط ، وخصوصاً حين يدور الحديث حول العلاقة بين الذرية الاسلامية - العربية المثالية الروحية والآخرى اليونانية القديمة المادية الهرطقية .

ان مفهوم « الذرية الاسلامية - العربية » يحتوي ، بشكل عام ، منحيين أساسيين رئيسيين ومتعارضين فيما يخص « الجوهر » أو « الجزء الذي لا يتجزأ » .

المنحى الاول يرى الجوهر على أنه غير قابل للتجزئة والتقسيم ؛ أما الثاني فيؤكد على أنه (أي الجوهر) قابل للتجزئة بشكل لا نهائي .

ولقد عبرت الذرية الاسلامية - العربية مراحل ثلاثة من تطورها في اطار المجتمع العربي - الاسلامي الوسيط : المرحلة الأولى يمثلها المعتزلة ، والثانية يمثلها الاشاعرة ، أما الأخيرة فنجدتها لاحقاً ممثلة ببعض الفلاسفة الذين لا يمكن ان نذكرهم هنا ، بل نذكرهم في كتابنا التالي .

أما الشخصية الأولى ، التي عملت في اطار ذلك المجتمع على طرح قضية الجوهر أو الجزء الذي لا يتجزأ ، فقد كانت المعتزلي أبو الهذيل العلاف (٧٥٢ - ٨٤٠) (١) .

ونحن نستطيع ان نرى في كتاب أبي الحسن الاشعري « مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين » مصدراً دقيقاً وأساسياً من مصادر التعرف على آراء أبي الهذيل و « علماء الكلام » الاسلاميين عموماً في الجزء الذي لا يتجزأ . كذلك « كتاب الانتصار » للمعتزلي الخياط يقدم لنا معلومات وآراء هامة عن « الذرية » المعتزلية ، ومن ضمنها آراء أبي الهذيل في ذلك .

ان أبا الهذيل ينطلق من ان هنالك عالمين ، اولاهما خالد ولا نهائي (وهو الاله) ، بينما الآخر محدود ونهائي (وهو العالم المادي) (٢) . وهو حين يفترض وجود جوهر لا ينقسم ولا يتجزأ ، فانه يعمل ذلك متأثراً بعوامل اسلامية نصية . فهو يقول ، كما جاء في « مقالات الاسلاميين » للاشعري : « ان الجسم يجوز أن يفرقه الله سبحانه ويبطل ما فيه من الاجتماع حتى

(١) يقول أبو الهذيل : « اني لا أقول بحركات لا تنتهي آخرها ، كما لا أقول بحركات لا تنتهي اولها ، بل يصيرون الى سكون دائم » - الشهرستاني : الملل والنحل ، نفس المعطيات السابقة ، جزء ١ ، ص ٥٢ .

(٢) انظر : كتاب الانتصار للخياط ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٨٠ .

يصير جزءاً لا يتجزأ» (١) .

ولا شك أنه من الخطأ أن نشق آراء أبي الهذيل العلاف هذه حول الجزء من مصادر إسلامية نصية ، وأن كانت هذه قد مارست عليه تأثيراً معيناً . أن معطيات تاريخية ثريتنا بيقين أنه قد تعرف بكثير أو قليل من العمق والبدقة على الفلسفة اليونانية القديمة ، ومن ضمنها الذرية الديموقريطية المادية . وهذا ما يظهره الشهرستاني ويؤكد عليه (٢) .

ومن الجدير بالذكر أن أبا الهذيل كان من معاصري الخلافة المأمونية المشرقة ، التي تمت أثناء وجودها عملية النقل الضخمة ، هذه العملية التي أرست حجراً أساسياً في بناء التمازج والتبادل الثقافي . لقد أردنا الإشارة إلى العلاقة بين نظرية أبي الهذيل حول الجوهر الذي لا يتجزأ بالذرية اليونانية لكي نحدد ، بشكل أولي ، أبعاد وآفاق فكر أبي الهذيل ومجموعة الدريين من بعده ضمن المجتمع العربي - الإسلامي الوسيط . إلا أن أخذ أبي الهذيل بـ « الجزء الذي لا يتجزأ » من مصادر نرى أنها يونانية بالدرجة الأولى ، كما سنرى لاحقاً ، كان يكمن وراء طموحه في اكساب « القدرة » الإلهية المطلقة مشروعية فكرية منظرة .

أبو الهذيل يميز أصلاً بين « الجسم » و « الجزء الذي لا يتجزأ » ، الذي هو الجوهر . والجزء هذا « لا طول له ، ولا عرض له ولا عمق له ، ولا اجتماع فيه ، ولا افتراق » ، وأنه قد يجوز أن يجمع غيره وأن يفارق غيره ، وأن الخردلة يجوز أن تتجزأ نصفين ثم أربعة ثم ثمانية إلى أن يصير كل جزء منها لا يتجزأ » (٣) . أي أن الجزء الذي لا يتجزأ هو الأبسط والأخير في شيء ما . والعالم الفاسد (المضمحل) هو الذي يتألف من أجزاء لا تتجزأ . وباعتبار أن الجزء الذي لا يتجزأ يمثل الموضوع الأكثر بساطة في بنية العالم النهائي ، فقد توجب أن لا يملك « امتداداً » ، كما رأينا من قول أبي الهذيل السابق . وهذا يؤدي إلى أن نرى في ذلك الجزء نقطة رياضية « نهائية » . أن أبا الهذيل تغاضى عن وجود هذه الصعوبة في وجه رأيه حول جزء لا يتجزأ ، ليس له في نفس الوقت امتداد ، في الوقت الذي يؤكد فيه أن هذا الجزء يتحرك ، ويدخل في حالة هدوء ، كما أنه يلامس أجزاء أخرى لا تتجزأ تحيط

(١) أبو الحسن الأشعري : مقالات الإسلاميين . . . نفس المعطيات السابقة ، الجزء الثاني ، ص ١٢ .

(٢) انظر : الشهرستاني ، الملل والنحل ، نفس المعطيات السابقة ، جزء أول ، ص ٥٠ .

(٣) الأشعري : مقالات الإسلاميين . . . نفس المعطيات السابقة ، القسم الثاني ، ص ١٢ .

به . وهذه القدرات المختلفة للجزء الذي لا يتجزأ يعتبرها أبو الهذيل « اعراضاً » خاصة به .

أما « الجسم » فإنه ينشأ مؤلفاً من ستة أجزاء لا تتجزأ . وقدرة الجزء الواحد على ملائمة ستة أجزاء أخرى محيطة به، كانت ، في الحقيقة ، تعبيراً غير مباشر عن الاعتراف بوجود « امتداد » للجزء ذاك (١) .

إن تحديد أبي الهذيل للجوهر (الجزء الذي لا يتجزأ) قال به مفكرون معتزليون آخرون ، بغض النظر عن بعض الاختلافات بين الواحد والآخر منهم . فمعمربن عباد السلمي (مات عام ٢٢٠ هـ) ، وهو واحد من وجوه المعتزلة البارزة ، يقول ، موافقاً في ذلك أبا الهذيل : « ليس كل جوهر جسماً ، والجوهر الواحد الذي لا ينقسم محال أن يكون جسماً ، لأن الجسم هو الطويل العريض العميق ، وليس الجوهر الواحد كذلك » (٢) . والجسم هو ما يتألف من ثمانية أجزاء لا تتجزأ على الأقل (٣) . وهكذا ، فالجوهر يملك ، تبعاً لذلك ، القدرة على ملائمة أمثاله ، كما يملك القدرة على الامتداد . بالإضافة إلى أبي الهذيل ومعمربن عباد ، يعدد أبو الحسن الأشعري في كتابه شخصيات معتزلية أخرى طرحت مسألة « الجزء الذي لا يتجزأ » ، مثل أبي علي الجبائي (٢٣٥ - ٣٠٣) وهشام بن عمر الفوطي (مات عام ٢٢٦ هـ) . وهذان ، كأولئك ، لم يعتبروا الجوهر جسماً (٤) .

وحيث يعترف الجبائي ، كما فعل سابقاً أبو الهذيل ومعمربن عباد السلمي ، بأن الجزء الذي لا يتجزأ يلائم أمثاله (٥) ، فإن الفوطي لم يقل بهذه الصفة للجزء ذاك (٦) . وهذا يعود إلى أن الفوطي لم ينطلق ، على غرار أبي الهذيل ومعمربن الجبائي ، من مفهوم « الجزء الذي يتجزأ » ، وإنما من مفهوم « الركن » المؤلف من ستة أجزاء لا تتجزأ والذي يشكل على هذا النحو الوحدة الأولية للجسم . والجسم هذا يتألف ، حسب الفوطي ، من ستة

(١) انظر : نفس المصدر السابق - ص ١٤ .

(٢) الأشعري : نفس المصدر السابق - ص ٨ .

(٣) الأشعري : نفس المصدر السابق - ص ٥ .

(٤) الأشعري : نفس المصدر السابق - ص ١٤/٨/٦ .

(٥) الأشعري : نفس المصدر السابق - ص ١٤ .

(٦) الأشعري : نفس المصدر السابق .

أركان أو ست وحدات ، وكل من هذه الوحدات تملك القدرة على ملازمة وحدات أخرى (١) .

وقد رأى الجبائي أن الجسم يمكن أن يتألف من اثنين أو أكثر من الأجزاء التي لا تتجزأ . أي « أن الجزئين اللذين لا يتجزأان يحلها جميعاً التأليف ، وأن التأليف الواحد يكون في مكانين » (٢) .

أما أبو الحسين الصالحي فإنه يقف في خط مخالف لأولئك المفكرين في تحديدهم للعلاقة بين الجسم والجوهر . فأبو الحسين هذا ، الذي كان ، كما يخبرنا الشهرستاني ، واحداً من ممثلي « الأرجاء » (٣) ، يرى أن « لا جوهر إلا جسم » (٤) . وعلى ذلك ، يصبح الجسم والجوهر أو الجزء الذي لا يتجزأ تحديدين منطقيين لموضوع واحد . وباعتبار أن « الجسم هو : ما احتمل الأعراض كالحركات والسكون ، وما أشبه ذلك ؛ فلا جسم إلا ما احتمل الأعراض . . . (فان) الجزء الذي لا يتجزأ جسم يحتمل الأعراض ، وكذلك معنى الجوهر أنه يحتمل الأعراض » (٥) . والجسم الواحد (الجوهر) يوجد في الوضع الذي يمكنه من ملازمة جوهر آخر ، وذلك على أساس « التأليف » أو التركيب الذي يتم بينهما . بيد أن الصالحي يعتبر « أن التأليف لا يسمى حتى يكون تأليف آخر ، ولكن أحدهما قد يجوز على الجزء ولا نسميه تأليفاً اتباعاً للغة . . . وذلك أن أهل اللغة لم يجيزوا مماسة لشيء » (٦) .

ولقد أخذ بفرضية « الجوهر » أو « الجزء الذي لا يتجزأ » مفكرون آخرون ، منهم الحسين بن محمد النجار (مات عام ٢٣٠ هـ تقريباً) وضرار بن عمرو وحفص الفرد . وهؤلاء ، حسب الشهرستاني ، من أتباع « الجبرية » (٧) . ولقد بين الأشعري أن أولئك المفكرين الثلاثة كانوا ذوي رأي واحد فيما يخص قضية « الجسم » و « الجوهر » . فالأجزاء التي لا تتجزأ هي ، حسبهم ، « اللون والطعم والحر والبرد والخشونة واللين ،

(١) الأشعري : نفس المصدر السابق .

(٢) الأشعري : نفس المصدر السابق - ص ٥ .

(٣) انظر : الشهرستاني ، الملل والنحل ، جزء أول ، نفس المعطيات السابقة ، ص ١٢٥/١٤٥ .

(٤) الأشعري : مقالات الإسلاميين - نفس المعطيات السابقة ، الجزء الثاني ، ص ٨ .

(٥) الأشعري : مقالات الإسلاميين - نفس المعطيات السابقة ، ص ٤ .

(٦) نفس المصدر والمعطيات السابقة .

(٧) الشهرستاني : الملل والنحل - جزء أول ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٩٠ .

وهذه الأشياء مجتمعة هي الجسم ، وليس للأجزاء معنى غير هذه الأشياء ،
وان أقل ما يوجد من الأجزاء عشرة أجزاء ، وهو أقل قليل الجسم «(١)» .

بيد أن الجزء الذي لا يتجزأ يفهم من قبلهم من حيث هو عرض ؛ وبذلك
يكون الجسم مكوناً من اعراض (٢) . أما هذه الاعراض المؤلفة للجسم فانها
« مجتمعة على المجاورة » (٣) . وقد انكر ضرار « المداخلة » وان يكون شيان
في مكان واحد ، عرضان أو جسمان «(٤)» .



فيما سبق عرضنا آراء بعض القائلين بـ « الجزء الذي لا يتجزأ » .
ولكن هذه الآراء لقيت معارضة عنيفة من بعض المفكرين الكلاميين ، وفي
طليعتهم ابراهيم بن سيار النظام (مات عام ٢٣١ هـ) . وكما يبدو من
سير الأمور آنذاك ، تكون ضمن المعتزلة اتجاهان فيما يخص الموقف من
« الجزء الذي لا يتجزأ » . وهذا يري التعقيد الكبير الذي يحول دون رؤية
« المعتزلة » ضمن اطار متجانس كلياً ، بحيث نجد انفسنا في اطار المسألة
هذه مرغمين على التأكيد على اتجاهين متعارضين : واحد معتزلي أشعري ،
وآخر معتزلي . ان النظام يمثل الاتجاه المادي الهرطقي المبكر . بينما يمثل
ابو الهذيل العلاف الاتجاه الديني التبريري ؛ وهو في هذا يلتقي مع راس
الاشاعرة ، أبي الحسن الأشعري ومن بعده تلامذته ، مثل الباقلاني
والجوينسي .

حول موقف النظام من « الجزء الذي لا يتجزأ » يخبرنا الشهرستاني
بأنه « وافق الفلاسفة في - نفيه - » (٥) . أما الأشعري فقد نقل عن النظام
انه قال : « لاجزاء الا وله جزء ، ولا بعض (٦) الا وله بعض ، ولا نصف الا وله

(١) الأشعري : مقالات الاسلاميين - الجزء الثاني ، نفس المعطيات السابقة ، ص ١٦١ .

(٢) الأشعري : نفس المصدر السابق - ص ٦ .

(٣) الأشعري : نفس المصدر السابق - ص ٢٣ .

(٤) الأشعري : نفس المصدر السابق - ص ٢٣ .

(٥) الشهرستاني : الملل والنحل - جزء أول ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٥٥ .

(٦) ان لفظ « البعض » قد « دل أول الامر على ما يدل عليه لفظ الجزء .. » ولكنه لم

يتل ما ناله لفظ « الجزء » من خصوصية الدلالة على جزء المادة الذي لا ينقسم » . (س .

بينس ، مذهب اللذة عند المسلمين - القاهرة ١٩٤٦ ، ص ٥) . على نفس الصفحة يشير

بينس الى التقابل بين البعض والكل في كتاب الانتصار (للخياط) ص ٧ س ١٠ .

نصف ، وان الجزء جائز تجزئته أبداً ، ولا غاية له من باب التجزؤ «(١)» .
 ان موقف النظام كان واضحاً في نفيه لفرضية الجزء الذي لا يتجزأ .
 والنصوص التاريخية التي بين أيدينا تؤكد ذلك باقناع. هدا يعني أن تفسير
 O. Pretzl لراي النظام في نفي الجزء الذي لا يتجزأ غير دقيق . فهو (اي برتسل)
 يرى بأن « طريقة تعبير النظام تسمح لنا بأن نعتبر أن معنى كلامه هو ان كل
 نصف له نصف آخر يكمله ، وان كل جزء يقتضي بالضرورة جزءاً آخر
 يقابله »(٢) . فالاستشهادات التي أوردناها فوق عن الاشعري والشهرستاني ،
 وكذلك ماقرره المعتزليان الخياط(٣) والجاحظ(٤) ، يقدم لنا قناعة كافية
 بموقف النظام في نفيه للجزء الذي لا يتجزأ . وموقفه هذا انعكس في رايه
 حول « الجسم » . فهو يقول محدداً الجسم بأنه « هو الطويل العميق ،
 وليس لأجزائه عدد يوقف عليه ، وانه لا نصف الا وله نصف .. »(٥) .

أما النقطة العقيدية الحاسمة في رفض النظام لفرضية الجزء الذي
 لا يتجزأ ، كما طرحها مفكرو عصره الاسلاميون ، فانها تكمن في تأكيده
 المبدئي بأن الله « لا يوصف .. بالقدرة على أن يرفع جميع اجتماع الاجسام
 حتى تكون اجزاء لا تتجزأ »(٦) . والجزء القابل للتجزئة بشكل لانهائي يملك
 امتداداً خاصاً .

-
- (١) الاشعري : مقالات الاسلاميين - الجزء الثاني ، نفس المعطيات السابقة ، ص ١٦ .
 (٢) اوتو برتسل : مذهب الجوهر الفرد عند المتكلمين الاولين في الاسلام . بحث منشور
 في العربية في كتاب : س . بينس - مذهب اللدرة عند المسلمين ، نفس المعطيات السابقة ، ص ١٤٢ .
 (٣) انظر : الخياط - كتاب الانتصار ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٣٢ .
 (٤) انظر : الجاحظ - كتاب الحيوان ، الجزء الخامس ، ص ٢٠ .
 (٥) الاشعري : مقالات الاسلاميين - الجزء الثاني ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٦ .
 (٦) نفس المصدر والمعطيات السابقة ، ص ٢١٩ .

ان التأكيد الذي يرد في « كتاب الانتصار » للخياط (نفس المعطيات السابقة ، ص ٤٦) ،
 والذي يوافق النظام حسبه على « ان الله يفعل في حال واحدة مالا يتناهى من الافعال » ،
 ان هذا التأكيد يتعارض بشكل مبدئي مع الاستشهاد الاخير المأخوذ عن الاشعري . فالمسألة
 مبدئية تتعلق بتقليص الفعل أو القدرة الالهية فيما يخص تجزئ الاجسام تجزئاً
 نهائياً . ونحن نرى هنا أن الخياط في تأكيده ذلك الاخير لا يعرض راي النظام فعلاً ، وانما
 يتصرف بالامور حسب رؤيته وتفسيره لها ، كما فعل ذلك في عدة مواضع من كتابه . وهذا
 يؤدي الى عدم دقة في عرضه للمشكلات المتعلقة بـ « الجزء » . فهو - في الصفحة ٣٤ -
 يتجاهل النظرية النظامية حول التقسيم اللانهائي للاجسام بشكل يتناقض مع ما اورده على
 الصفحة ٣٢ .

حتى الآن عرضنا لموقفين من « الجزء الذي لا يتجزأ » . الأول يأخذ بهذا الفرض انطلاقاً من دوافع ايمانية غيبية ، والثاني يرفضه بدوافع مادية هرطقية . وقد وجد طرف ثالث في النظرية الاسلامية العربية ممثلاً بشكل رئيسي من قبل عباد بن سليمان . ان هذا يأخذ من ناحية بالجزء الذي لا يتجزأ ، وهو « شيء لا طول له ولا عرض ولا عمق ، وليس بأي جهات ، ولا مما يشغل الأماكن ، ولا مما يسكن ولا مما يتحرك » (١) . ولكنه من ناحية أخرى ينفي أن يكون لهذا « الجزء » وجود حقيقي ، لأنه (أي عباد) يحدد الصفة الحسية للجزء ذاك بشكل « لا يجوز عليه أن ينفرد » (٢) ، ولأنه ، كما يبدو من الاستشهاد الأول منه ، لا يعتبر ان للجزء امتداداً أو قدرة على الملامسة أو جهات أو حركة . أما الجسم ، حسب عباد ، فهو « الجوهر والأعراض التي لا ينفك منها ، وما كان قد ينفك منها من الأعراض فليس ذلك من الجسم ، بل ذلك غير الجسم ، وكان يقول : الجسم هو المكان » (٣) .

ان وجهة النظر هذه حول « الجوهر » قيدت باتجاه التضييق على الجزء الذي لا يتجزأ وتبخيره .

كذلك يخبرنا النظام بأن آخرين ، ولا يسميهم ، « قالوا : ان الجزء قائم الا أنه لا يقوم بنفسه ، ولا يقوم بشيء من الأشياء اقل من ثمانية أجزاء لا تتجزأ ، فمن سأل عن جزء منها فانما يسأل عن أفراد ، وهو لا ينفرد ، ولكنه يعلم ، والكلام على الثمانية ، وذلك أن الثمانية لها طول وعرض وعمق ؛ فالطول جزءان ، والطول الى الطول بسيط له طول وعرض ، والبسيط الى البسيط جهة لها طول وعرض وعمق » (٤) .

لقد كانت تلك آراء متعددة حول « الجزء » وجدت في الحياة الفكرية للمجتمع العربي الاسلامي الوسيط . وقد دارت المسألة حول الجزء ذاك من حيث هو نهائي لا يتجزأ ، ومن حيث هو يتجزأ بشكل لا نهائي . والحقيقة ، ان هذه الآراء تظهر الخصوبة الفكرية الواسعة ضمن المجتمع ذاك . وقد عبر هذا الواقع عن نفسه حتى من خلال التباين في الرأي في اوساط المفكرين

(١) الاشعري : مقالات الاسلاميين - نفس المعطيات السابقة ، ص ١٤ .

(٢) نفس المصدر السابق ونفس الصفحة .

(٣) نفس المصدر السابق - ص ٦ .

(٤) نفس المصدر السابق - ص ١٥ .

المعتزليين ، كما أظهرنا سابقاً .

وقد ظهر لنا أن هنالك ممثلين معتزليين كبيرين طرحا مسألة «الجزء» على نحوين متباينين ، وهما أبو الهذيل والنظام . والتباين والتناقض بين هذين المفكرين نستطيع استجلاءهما من خلال امعان النظر في منطقيتهما بالنسبة الى مسألة « الجزء الذي لا يتجزأ » . لقد أبنا سابقاً رأي أبي الهذيل في أن الله قادر على تقسيم الجسم حتى يصبح جزءاً نهائياً لا يتجزأ . أما بالنسبة الى النظام فان هذا غير ممكن . لقد ورد في كتاب « مقالات الاسلاميين » بأن المفكرين « اختلفوا : هل يوصف الباري بالقدرة على أن يرفع جميع اجتماع الاجسام حتى تكون اجزاء لا تتجزأ ؟

(١) فانكر ذلك « النظام » ومن أنكر الجزء الذي لا يتجزأ « (١) » .

لقد كان من وراء رأي أبي الهذيل ذلك الاخذ بمسألتين ، الأولى هي « القدرة » المطلقة للاله ، والثانية هي التمييز بين عالم الاشياء الفاسدة وعالم الخلود . أما الاشياء الفاسدة فان لها «كلاً» و «جميعاً» (٢) و «غاية» . وهذه الحدود المفهومية ، التي تكتسب مضامينها من العالم الحسي المتغير والفساد ، لا تنطبق على العالم الالهي الخالد (٣) .

ان ابا الهذيل ينطلق من الآيات القرآنية التي تؤكد على أن « الله على كل شيء قدير » (٤) ، و : «أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » (٥) ، و : « أحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً » (٦) الخ . . .

ان هذا المنطلق الديني النصي يرفضه النظام حازماً ، ويسير خطوة أخرى بتضييقه حدود القدرة الالهية .

ان ماسقناه من مختلف الآراء حول «الجزء الذي لا يتجزأ» يري بوضوح التعقيد الذي طرأ على هذه المسألة في اطار الدرية الاسلامية العربية الوسيطة ، كما يبرز حقيقة أساسية مارست دوراً أساسياً في تاريخ الفكر النظري ،

(١) نفس المصدر السابق - ص ٢١٩ .

(٢) ان « الكل » و « الجميع » لهما في الاصل نفس المعنى الفلسفي . بيد ان مفهوم « الكل » ، اذا قوبل بمفهوم « الجزء » ، يصبح أكثر قوة على التعبير الفلسفي .

(٣) انظر : الخياط ، كتاب الانتصار ، نفس المعطيات السابقة ، ص ١٦ .

(٤) القرآن - سورة النحل ، آية ٧٦ .

(٥) القرآن - سورة فصلت ، آية ٥٢ .

(٦) القرآن - سورة الجن ، آية ٢٨ .

وهي أن فكرة ما يمكن أن تنعكس في تأثيرها بأشكال مختلفة تتبع عادة التباين في الوضع الاجتماعي الطبقي والعلمي والفلسفي . ان فكرة « الجزء » تلك عملت على تعميق الاتجاه الفلسفي المادي وعلى بلورة المنهجية العلمية في رؤية العالم . ان هذا الدور الذي لعبته تلك الفكرة على أيدي لويكيبوس وديموقريطس وابقور ، يُخلي المكان لدور آخر في المجتمع العربي الاسلامي الوسيط .

وهذا الدور الآخر يتصف بتكريس التصورات الفلسفية المثالية الغيبية التي تنفي الحركة عن الشيء .

لقد رفض النظام فرضية الجزء الذي لا يتجزأ ، لأن الأخذ بذلك سوف يقود برأيه على نحو مباشر الى اعتبار هذا الجزء تقطرية رياضية لا امتداد لها . وهذه النقطة الرياضية تساوي صفراً . ان النظام لا يطرح المسألة هذه ، بحسب النصوص التي وصلتنا منه أو حوله ، بذلك الوضوح والتماسك . ولكن المفهوم الذي أدخله في الفكر العربي الاسلامي ، الذي هو **الطفرة** ، يشير الى انه ، أي النظام ، قد وضع نصب عينيه المسألة على ذلك النحو الذي عرضناه فوق .

حول ذلك يخبرنا الشهرستاني بأن النظام « وافق الفلاسفة في نفي الجزء الذي لا يتجزأ . وحدث القول بالطفرة لما ألزم مشي نملة على صخرة من طرف إلى طرف أنها قطعت ما لا يتناهي ، فكيف يقطع ما يتناهي ما لا يتناهي ؟ قال : تقطع بعضها بالمشي ، وبعضها بالطفرة . وشبه ذلك بحبل شد على خشبة معترضة وسط البئر ، طوله خمسون ذراعاً ، وعليه دلو معلق . وحبل طوله خمسون ذراعاً علق عليه معلاق ، فيجر به الحبل المتوسط ، فان الدلو يصل الى رأس البئر وقد قطع مائة ذراع بحبل طوله خمسون ذراعاً في زمان واحد ، وليس ذلك الا لأن بعض القطع بالطفرة » (١) . ان المكان ، بحسب ذلك ، لانهائي . وقد رفض مفهوم « الطفرة » من معظم المتكلمين ، وضمنهم ابو الهذيل ، « وأحالوا ان يصير الجسم الى مكان لم يمر بما قبله ، وقالوا : هذا محال لا يصح » (٢) .

وفي الحقيقة ، كان مفهوم النظام حول « الطفرة » مشوباً بالتأملية .

(١) الشهرستاني : الملل والنحل - نفس المعطيات السابقة ، ص ٥٥ - ٥٦ .

انظر أيضاً : الاشعري - مقالات الاسلاميين ، نفس المعطيات السابقة ، ص ١٨ .

(٢) الاشعري : نفس المصدر السابق ونفس الصفحة .

ولكنه كان ولا شك - ضمن الظروف الفكرية العيانية آنذاك - محاولة جدية لتفسير الواقع الموضوعي تفسيراً مادياً هرطقياً مخالفاً للتفسير الآخر المثالي الايماني . وبالرغم من ذلك فلم يُخيل للنظام أن المسألة غير معقدة . لقد توقف أمام التساؤل المشروع : كيف يمكن للمرء أن يتكلم عن جزء يتجزأ بشكل لا نهائي ، دون أن يتوصل الى النتيجة بأن كمية أجزاء جبل ما تساوي كمية أجزاء حبة الخردل ؟ أن النظام يجيب على هذا التساؤل بأن أجزاء الجبل أكبر من أجزاء حبة الخردل . أن الخياط المعتزلي ينقل عن ابراهيم النظام انه « يزعم أن الجبل اذا نصف بنصفين ونصف الخردلة بنصفين فنصفا الجبل أكبر من نصفي الخردلة ، وكذلك أن قسماً أرباعاً وأخماساً وأسداساً فأرباع الجبل وأخماسه وأسداسه أكبر من أرباع الخردلة وأخماسها وأسداسها ، ثم كذلك اجزاؤهما اذا جُزئتا ابداً على هذا السبيل كان كل جزء من الجبل أكبر من جزء من الخردلة وجميع أجزاءهما متناه في مساحته وذرعه » (٤) .

هاهنا ينبغي التذكير بالذرية الرياضية في اليونان القديمة في النصف الأول من القرن الخامس قبل الميلاد (٢) . فحسب ذلك ، رأى المرء أن « جميع السَّعَات تتكون من نقاط لا امتداد لها » (٣) . وقد استطاع زينون مجابهة هذه « الذرية » انطلاقاً من تعليمين رياضيين للقدمات :

« ١ - أن مجموع عدد كبير بشكل لانهائي لسعاتٍ ما ذات امتداد ، وإن كانت صغيرة جداً ، يجب أن يكون كبيراً بشكل لانهائي . ٢ - أن مجموع عدديهما كبير أيضاً بشكل لا نهائي لسعاتٍ دون امتداد هو دائماً مساو للصفر ، ولا يمكن أن يصبح ابداً مساوياً لسعة محدودة واقعياً » (٤) . في طرحه للمسألة على ذلك النحو ، اعتمد زينون على « الامتداد » كدعامة أساسية . والتعليم النظامي الخاص بـ « الجزء الذي يتجزأ » بشكل لا نهائي يتضمن مفهوم الامتداد ذاك . وهذا الأخير مرتبط بموضوعة أخرى، هي « لأبدية » الجزء .

أن ابن الراوندي يخبرنا حول حوار جرى بين النظام وبين الدهريين ، حيث عطف عليهم النظام « يسألهم في النهايات ويوجب عليهم تثبيتها »

(١) الخياط : كتاب الانتصار - نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٤ .

(٢) س . لوريس : بدايات فكر يوناني - نفس المعطيات السابقة ، ص ٦٨-٧٨ .

(٣) نفس المصدر السابق - ص ٦٨ .

(٤) نفس المصدر السابق - ص ٧٤ .

الحدوث . فقال لهم : ليس يخلو ما مضى من قطع الاجسام من ان يكون متناهيًا أو غير متناه ، فإن كان متناهيًا فله أول وهذا هدم قولكم . وان كانت غير متناهية فليس له أول وما لا أول له لا يجوز الفراغ منه وفي الفراغ مما مضى دليل على نهايته . ثم زعم أنه ليس من قطع مضى الا وهو غير متناه . وذلك أنه زعم أنه لا نهاية للقاطع ولا لقطعه فاذا زعم أنه قد فرغ من قطعه فقد أوجب الفراغ مما لا يتناهى ، وما لا يتناهى لا أول له عنده «(١)» . ان الخياط يورد هذا المقطع عن الراوندي بهدف الدفاع عن النظام ضد ابن الراوندي . فيقول : « فهذا بعينه ما انكره على أهل الدهر »(٢) .

الا اثنا نميل الى الراي بأن ذلك لم ينكره النظام . فالخياط قدم الينا في كتابه « الانتصار » آراء المعتزليين ليس كمؤرخ ، وانما من حيث هو معتزلي يدافع عن تلك الآراء . ونحن اذا علمنا أن تلك الآراء ليست موحدة في جميع نقاطها ، فانه يصبح ممكناً أن يكون الخياط قد عرضها كما فهمها هو من خلال مواقفه المعتزلية الاساسية . ففي كتابه المشار اليه لا يشير الى مفهوم « الطفرة » النظامي ، لانه ربما لم يقبل به . وفي نفس الوقت نود التذكير بالموضع من كتاب الاشعري « مقالات الاسلاميين » الذي يرفض فيه النظام القول بأن الله لا يوصف بالقدرة على أن يرفع جميع اجتماع الاجسام حتى تكون اجزاء لا تتجزأ(٣) .

لقد كان ممثلو « الجزء الذي لا يتجزأ » مرغمين ، بشكل أو آخر ، على القول بأن هذا الجزء يكون العنصر النهائي . الا أن مسألة صعبة كان تطرح نفسها امامهم ولها علاقة عضوية بالقول ذاك ، وهي مسألة « الامتداد » . لقد كان عليهم أن يحلوا أو أن يتغاضوا عن التناقض الذي ينشأ عن القول بجزء لا يتجزأ وبالتالي لا يملك امتداداً من طرف أول وعن النتيجة التي تتضمنها هذا القول بشكل ضروري من طرف آخر ، هذه النتيجة التي تؤكد بأن الجزء الواحد ينبغي أن يوجد الى جوار اجزاء أخرى مماثلة له وأن يلامسها بالتالي . ان حجة زينون ضد الذرية الرياضية القديمة — والتي تعرضنا لها فوق — والخاصة بمسألة « الامتداد » تستخدم هنا تلقاء مفهوم « الجزء » المعتزلي . ان المعتزلة ، الذين دافعوا عن هذا المفهوم ، اعتقدوا بأنهم قادرون على تجاوز التناقض ذاك من خلال أخذهم بكلا الوجهين للمسألة:

(١) الخياط : كتاب الانتصار — نفس المعطيات السابقة : ص ٣٣ .

(٢) نفس المصدر السابق ونفس الصفحة .

(٣) الاشعري : مقالات الاسلاميين — نفس المعطيات السابقة ، ص ٢١٩ .

فالجزاء ، بحسب ذلك ، لا يتجزأ ونهائي ، ولكنه في نفس الآن يملك امتداداً .
بخصوص هذا الرأي وجد ثلاثة اتجاهات . الأول مثله أبو الهذيل
وأبو هاشم الجبائي ، والثاني مثله البلخي والفوطي ، والثالث مثله أبو
بشر صالح .

فأبو الهذيل أعلن ، كما أوردنا سابقاً ، أن الجزء الذي لا يتجزأ قادر
على أن يلامس ستة من أمثاله التي تكون جسماً . من طرف آخر يرى أبو
هاشم الجبائي أنه من غير الممكن أن يتصور المرء الاجزاء دون امتداد (١) .

أما البلخي فقد رأى أن الجزء الذي لا يتجزأ ليس له امتداد ، بينما
الجسم هو الذي يملك امتداداً ، هذا الجسم الذي يتألف من عدد من
الاجزاء . وبالاتفاق المبدئي مع البلخي يؤكد الفوطي بأنه فقط « الركن » ،
الذي يتألف من ستة اجزاء ، قادر على أن يلامس الاركان الأخرى .

أما أبو بشر صالح ، الذي يمثل الرأي الثالث ، فقد استخدم مفهوم
« الإشغال » . تبعاً لذلك ليس من الممكن أن يلامس الجزء أكثر من جزء
آخر . ذلك لأن الأول يشغل الثاني بشكل كلي ، أي يحيط به كلياً . فمن
المستحيل أن تلامس مجموعة من الاجزاء من قبل جزء واحد . والا فينبغي
أن يكون هذا الجزء كبيراً على نحو لا نهائي ، مما يتناقض مع المقدمة الأساسية
حول « عدم امكانية تجزئة » الجزء الأخير . لذلك يلامس الجزء ليس أكثر
وليس أقل من سبعة .

وبمعرض الحديث عن وجود تشابه بين آراء المتكلمين حول الجزء
الذي لا يتجزأ وبين وجهة نظر أبيقور حول نفس المسألة ، يكتب س. بينس :
« وثم شبه جوهري بين مذهب المتكلمين ومذهب أبيقور في الجزء ، إن صح
أن هذا المذهب كان يشتمل على النظرية المسماة نظرية الاجزاء المتناهية في
الصغر Minima . . . والاجزاء المتناهية في الصغر ، لا الجواهر الفردة ،
عند أبيقور ، قد تشبه الاجزاء التي لا تنقسم عند المتكلمين بعض الشبه » (٢).
ان هذا التمييز بين الاجزاء المتناهية في الصغر والجواهر ، ثم النظر الى
الأولى على أنها متشابهة مع « الاجزاء » لدى المتكلمين لا يؤدي الى اعتبار
مشكلة « الامتداد » ملفية أو محلولة ، ذلك لأن تلك الاجزاء المتناهية في

(١) انظر : أبو رشيد سعيد النيسابوري - كتاب المسائل في الاختلاف بين البصريين
والبغداديين - مأخوذ عن : س. بينس ، نفس المصدر المعطى سابقاً ، ص ٨٤ .
(٢) س. بينس : مذهب الذرة عند المسلمين - القاهرة ١٩٤٦ (الطبعة العربية) ، ص ٩٤-٩٥ .

الصفير نفسها تقتضي ، لكي تحقق وجودها فعلاً ، ان تشغل حيزاً مكانياً .
وأن تلامس بالتالي جزءاً أو أجزاء محيطية بها . وسوف نعود لاحقاً الى مسألة
تأثير الذرية الاسلامية بالمذهب الذري اليوناني .

ان الذرية الاسلامية شهدت في شكلها الاشعري نهوضاً ملحوظاً في
اطار - ديني نصي . أما الممثل الرئيسي لهذا الشكل من الذرية فقد كان ابو
الحسن الاشعري نفسه (٨٧٣ - ٩٣٥) . والممثلون اللاحقون له كان منهم
ابو بكر الباقلاني (مات ٤٠٣ هجرية) ، وامام الحرمين ابو المعالي الجويني
(مات ٤٧٨ هجرية) . الا اننا في اطار هذا الكتاب سنكتفي بإيجاز المعالم
الرئيسية لهذا التعليم الاشعري .

ان تلك المعالم الرئيسية يمكن استخلاصها من الكتب التالية : « التمهيد »
للباقلاني ، و « الارشاد » للجويني ، و « دلالة الحائرين » لابن ميمون .
كذلك في مؤلف ابن رشد الشهير « الكشف عن مناهج الأدلة » يجد المرء
ملاحظات نقدية هامة حول الآراء الاشعرية في « الجزء » .

ونحن يمكننا العثور على ثلاث نقاط من مؤلفات أشعرية حول تلك
المسألة :

١ - خلق العالم بفعل الارادة الالهية المطلقة ؛ ٢ - الانكار الجازم لاية
قانونية أو سببية في العالم المادي ؛ ٣ - وأخيراً الخلق المستمر .

ان العالم الطبيعي هو موضوع الحديث عن « الجزء الذي لا يتجزأ »
بالنسبة الى الاشاعرة . هذا يعني ، ان العالم الالهي يبقى خارج نطاق هذه
المسألة . والعالم الطبيعي هذا يتألف من جواهر (أجزاء لا تتجزأ) وأعراض (١) .

ان الجوهر ذاك لا يوجد الا مع عرض . وهو يعتبر في هذا المعنى محلاً
للعرض . وبما أن العرض هو ما يتغير ، فان الجوهر (الجزء) محل للتغير .
والجسم الذي يتألف من جواهر وأعراض ، أي من أشياء ذات طبيعة متغيرة ،
لا يمكنه الا أن يكون من هذه الطبيعة . ولكن هذا العالم المتغير ، الذي لا يمتنع
وجوده من ذاته نفسه ، يحتاج ، لكي يبقى موجوداً ، الى قوة لا متغيرة

(١) انظر : ابن رشد: الكشف عن مناهج الأدلة - نشر سوية مع : فصل المقال ، مصر ١٣١٩
هجري ، ص ٢٨ .

وموجودة على الدوام . ان هذه القوة هي الاله (الله) (١) .

ان آراء الاشاعرة حول الجوهر (الجزء الذي لا يتجزأ) لا تتضمن الاجسام المؤلفة من جواهر واعراض فقط ، وانما تتعرض أيضاً لك «زمان» و«المكان» . وكل شيء ينقسم الى اجزاء لا تتجزأ ، ليس موجوداً بشكل واقعي . ان ذلك كله يوجد في الوهم فقط . ذلك لانه في الواقع يتألف من ذرات صغيرة جداً لا تنقسم ومفصولة عن بعضها بشكل مطلق . فالكثرة - الى جانب الحدوث - تؤلف العنصر الاكثر في الاشياء الطبيعية .

وقد ساهم الفوطي (مات ٢٢٦ هجرية) ومن بعده ابو القاسم البلخي (مات ٣١٧ أو ٣١٩) في بلورة وجهة النظر الاشعرية حول «الامتداد» . فالاول لم يعترف ، كما مر معنا ، بوجود امتداد للجوهر (أي الجزء) وامتنع عن القول بإمكانية الملامسة بالنسبة الى هذا الاخير ، حيث اعترف بهذه الامكانية وبالتالي بالامتداد فقط فيما يخص « الارقان » .

اما البلخي فقد انطلق اكثر من ذلك . فهو قال بأن الجواهر لا تملك امتداداً ، ولذلك فهي غير قادرة على أن تلامس بعضها . أما « الامتداد » الذي يملكه الجسم ، فانه يرجعه الى ما يسميه بـ « التأليف » ، هذا التأليف الذي يتعد من الاعراض .

وقد بنى الاشاعرة مذهبهم على تلك الاسس « النظرية » : فالجواهر المنفصلة عن بعضها بشكل مطلق ، يمكن أن يجمع بينها الله فقط . وهذا الاخير وحده

(١) الفزالي يشير في كتابه « تهافت الفلاسفة » الى وجود راين اشعرين حول انعدام الجوهر « الجزء » . وحسب هذين الرايين ، اللذين لا يذكر الفزالي ممثليهما ، تنعدم الاعراض من ذاتها . ولكن أصحاب هذين الرايين يختلفون فيما يخص الجواهر . فالفرقة الاولى تقول بأن الجواهر ليست « باقية بانفسها ولكنها باقية ببقاء زائد على وجودها . فاذا لم يخلق الله البقاء انعدم لعدم المبقى » (ص ٨٨) . اما الفرقة الثانية فانها ترى بأن « الجواهر ... تفنى بأن لا يخلق الله فيها حركة ولا سكوناً ولا اجتماعاً ولا افتراقاً فيستحيل أن يبقى جسم ليس بساكن ولا متحرك فينعدم » (ص ٨٩ من كتاب الفزالي الذي نشره M. Bouyges ١٩٢٧ في بيروت) .

اما ابن رشد فيرى أن الاشاعرة ينطلقون من ثلاث مقدمات للبرهان على رأيهم حول « خلق العالم » : « احداها ان الجواهر لا تنفك من الاعراض اي لا تخلو منها . والثانية ان الاعراض حادثة . والثالثة ان مالا ينفك عن الحوادث حادث » . (ابن رشد : الكشف عن مناهج الادلة - نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٧) . عن ذلك يستبين في رأي الاشاعرة ، انه مادام جوهر يوجد مع اعراض معينة ، فهو موجود . وانه في الوقت الذي يكف فيه عن الوجود مع تلك الاعراض ، يكف عن الوجود اطلاقاً . اما الله فهو سبب ذلك دائماً . انه وحده الذي يستطيع أن يخلق الاعراض ويعدمها .

يمكن أن يمنحها وجوداً زمانياً أو مكانياً ، ذلك لأن استمرارية واقعية لا توجد لا بين الجواهر ولا بين أعراض الأجسام ، لا بين الجواهر حسب الزمان ولا حسب المكان . ان « العناية » الإلهية و « الإرادة » و « القدرة » المطلقة للاله وحدها تستطيع ان تصنع شيئاً من تلك الجواهر . وقد لخص الشهرستاني ذلك كله فيما يلي بالنسبة الى الاشاعة : « لا تأثير للقدرة الحادثة في الاحداث ، لأن جهة الحدوث قضية واحدة لا تختلف بالنسبة الى الجوهر والعرض . فلو أثرت في قضية الحدوث لاثرت في حدوث كل محدث حتى تصبح لاحداث الألوان ، والطعوم ، والروائح . وتصلح لاحداث الجواهر والأجسام ... غير أن الله تعالى أجرى سنته بأن يحقق عقيب القدرة الحادثة ، أو تحتها ، أو معها ... » (١) .

ان « إنهاك » العالم المادي المؤلف من اجزاء محدثة ولا تتجزأ يتعمق من خلال التعليم الاشعري القائل « بأن الأعراض لا تبقى زمانين » (٢) . انها يمكن أن توجد فقط زماناً واحداً ، ذلك لأنها تخلق على الدوام في كل زمان ، أو في كل لحظة .

ان هذا القول الخاص بوجود « الزمان الواحد » للأعراض قد تعرض له قبل الأشعري بعض المفكرين (٣) . وقد اخذ منه (٤) وأعطى مضموناً ينطلق من فكرة القدرة الإلهية المطلقة المتدخلة في كل شؤون العالم على نحو كلي وعلى نحو جزئي . وخلق الجواهر نفسها يرتبط بخلق الأعراض . ذلك لأن وجود هذه الأخيرة شرط لوجود الجواهر . كما أن الأعراض يمكن خلقها فقط مع جواهر (٥) . وبالتالي يمكن خلق الجواهر في كل لحظة زمانية : إنها عملية خلق متصلة دائمة لجواهر مستقلة عن بعضها تماماً ، لا تجمع بينها علاقة أو قانونية طبيعية أو صفة وجودية مشتركة . بل ان كل ذلك يتحقق من خلال المبدأ الأعلى الإلهي الخاص بالقدرة المطلقة والعناية والتدخل المطلقين بشؤون العالم .

بهذا المعنى لا يمكن للاله الا ان يكون فعالاً : فكل شيء يتضمن فعلاً الهياً . واذا لم تخلق الجواهر ، فان هذا يعني تعريتها من كل عرض

-
- (١) الشهرستاني : الملل والنحل - نفس المعطيات السابقة ، ص ٩٧ .
(٢) ابن رشد : تهاافت التهاافت - القسم الاول ، الطبعة الاولى ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٢٣٩ .
(٣) الأشعري : مقالات الاسلاميين - نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٢ .
(٤) الشهرستاني : الملل والنحل - نفس المعطيات السابقة ، ص ٩٦ .
(٥) ابن رشد : تهاافت التهاافت - نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٣٩ .

(كالحركة والسكون والتركيب) . وقد لاحظ الغزالي حول هذه المسألة التي طرحها أسلافه الأشاعرة بأنهم مالوا الى القول بأن « الاعداد ليس بفعل انما هو كف عن الفعل » (١) .

٢ - واذا اردنا الآن أن نلاحق مسألة الدوافع المباشرة وغير المباشرة لنشوء وتطور المذهب الدرّي الاسلامي العربي ، فان هنالك حقيقة ينبغي أخذها بعين الاعتبار المبسّط ، وهي أن ذلك المذهب قد لبّى في شخص ممثليه حاجات دينية نصية . وهذا المذهب قد تحول الى جزء أساسي من التصور الديني حول الجبرية . وهو بذلك مارس دور المبرر والمكرس للسلطة الدينية النصية التي استخدمت بقوة من قبل الدين أخذوا موقف العداء من « القدرين » ، أي الذين قالوا بحرية الانسان ، وبالتالي من التقدم الاجتماعي آنذاك . إن هذا الموقف التبريري والتكريسي يظهر لدى بعض المعتزلة ، كما رأينا ، ولدى الأشاعرة وآخرين أخذوا بـ « الجزء السدي لا يتجزأ » .

قأبو الهذيل اعتقد أن الله وحده قادر على تقسيم الجزء حتى يصبح جزءاً لا يتجزأ .

من طرف آخر يرى « حفص الفرد وغيره : جائز أن يقلب الله الاعراض أجساماً والأجسام اعراضاً ؛ لأنه خلق الجسم جسماً والعرض عرضاً ، وانما كان العرض عرضاً بأن خلقه الله عرضاً ، وكان الجسم جسماً بأن خلقه الله جسماً ؛ فجائز أن يكون الذي خلقه الله عرضاً يخلقه جسماً ، والذي خلقه جسماً يخلقه عرضاً » (٢) . أما صالح وابو الحسين الصالحي فانهما يريان بأنه من الممكن أن يخلق الله جواهر دون اعراض ، أو أن يرفع اعراضاً من جواهرها (٣) .

وإن كنا قد قررنا سابقاً أنه وجد كفاح بين الذين أخذوا بـ « الجزء

(١) على صفحات أخرى من كتاب « مقالات الاسلاميين » للاشعري ، يرفض أبو الهذيل الاخذ بمبدأ السببية في الاحداث الطبيعية . وفي الحقيقة ، أن هذا الموقف التسليمي لأبي الهذيل يتعارض مع رأي آخر له حول تقلب القدرة الالهية ، بحيث أنه - حسب الاشعري وبالتعارض مع ما قاله الخياط عنه : كتاب الانتصار ، نفس المعطيات السابقة ، ص ١٦ - يصف علم الله وقدرته بـ « الكل » و « الجميع » ، ويؤكد بالتالي بأن حركة سكان الجنة تتوقف وان هؤلاء السكان يدخلون في سكون دائم ، مما يؤدي الى نهاية التأثير الالهي . وها هنا نجد أنفسنا على حافة الاله الارسطي ، الذي يحرك ولا يتحرك ، دون تدخل مباشر في العالم .

(٢) الاشعري : مقالات الاسلاميين - نفس المعطيات السابقة ، ص ٥٤ .

(٣) نفس المصدر السابق - ص ٢٢١ .

الذي لا يتجزأ » وبين الذين رفضوه ، أي بين الاتجاه القدري النصي وبين الاتجاه الهرطقي الانساني - التنويري - ، فان الاتجاه الأول احتفظ بدوره الحاسم في تحديد الساحة الفكرية . ولذلك فمن الصعب ان يتكلم الباحث هنا عن أكثر من عناصر أولية مادية هرطقية تواجدت آنذاك .

إننا نجد هذه العناصر ممثلة بشخصيات بارزة مثل معمر ، وهشام بن الحكم (مات ٢٩٩ أو ٢٧٩ هجرية) ، والنظام .

لقد أكد معمر ، حسب الاشعري ، بأن الشيء المتحرك هو كذلك بنفسه . ان هذا الرأي المعتمري ينبغي ، لكي يستوعب في أهميته ، ان يُطرح بالعلاقة مع رأيه حول « الخلق » . حول ذلك يخبرنا الخياط عن ابن الراوندي أن معمر قال بأنه « محال أن يفني الله جميع خلقه حتى يبقى وحده » (١) . وقد قال هشام بن الحكم قولاً مشابهاً . وهو أحد الشيعة البارزين (٢) . لقد قال : « معنى الجسم أنه موجود ، وكان يقول : انما أريد بقولي جسم أنه موجود ، وأنه شيء وأنه قائم بنفسه » (٣) .

ان هذا التأكيد الهرطقي المناهض بوضوح للتصور الاشعري الديني حول المسألة ، أقول ان هذا التأكيد على **الوجود الذاتي** للجسم طوّر من قبل النظام من خلال المسائل الثلاثة التي عالجها ، الأولى حول « الجزء » ، والثانية حول « الحركة » ، والثالثة حول « الطفرة » . وقد تعرضنا سابقاً لها .

ان وجهة النظر الخاصة بـ « الجزء الذي لا يتجزأ » ، التي أخذ بها بعض المعتزلة ، مارست دوراً سلبياً في عملية تكوين فلسفة وعلم دقيقين مستقلين كثيراً أو قليلاً عن الدين آنذاك . وقد تعارضت هذه مع آراء المعتزلة حول انكار « الصفات » الالهية وحول « حرية » الفعل الانساني . ومن المعروف والملاحظ أن انكار الصفات أدى الى الحد الواسع من قدرة الاله على نفسه وعلى التدخل في شؤون العالم ؛ كما أن القول بحرية الفعل الانساني قاد إلى الدفاع عن وجود خالقين اثنين . وعلى العكس من ذلك ، انسجمت الآراء الاشعرية ، التي عارضت آراء المعتزلة تلك على طول الخط وجابهتها ، مع مبدأ الخضوع المطلق للقدرة الالهية المطلقة . وقد كان لهذه

(١) الخياط : كتاب الانتصار - نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٢ .

(٢) انظر : الشهرستاني ، الملل والنحل ، نفس المعطيات السابقة ، ص ١٨٤ .

(٣) الاشعري : مقالات الاسلاميين - نفس المعطيات السابقة ، ص ٦ .

الآراء خلفية ومنعكسات سياسية اجتماعية . أما المعتزلة في نظراتهم الأساسية فقد ساهموا في بلورة ملامح الفكر الفلسفي المادي اللاحق في إطار المجتمع العربي الاسلامي الوسيط ، أو - بشكل أدق - في تطوير فرضية حول العالم قائمة على أساس ديني - يحصر الفعل الالهي في إطار عملية الخلق الأولى ، ويرفض من بعد ذلك القول بتدخل الاله في شؤون العالم - .

٣ - والآن تبقى أمامنا مهمة البحث في المؤثرات الأساسية التي ساهمت في نشوء وتطور المذهب الدرّي الاسلامي العربي الوسيط . هنا نتساءل فيما اذا يمكننا النظر الى « الذرية اليونانية القديمة » كمصدر رئيسي أو كأحد المصادر لذلك المذهب .

ان O. Pretzl قد ارتكب خطأ في بحثه حول « النظرية الدرّية الاسلامية المبكرة » . فهو يقدم برهاناً على عدم تأثر المذهب الدرّي الاسلامي العربي بالذرية اليونانية تلك انطلاقاً من آراء اثنين من مؤرخي الفلسفة ، وهما الشهرستاني والبغدادى ، حيث يرجع هذان المؤرخان ليس نظرية « الجزء الذي لا يتجزأ » وإنما - على العكس من ذلك - نظرية « التجزئة اللانهائية للجزء » لتأثير « الفلاسفة » (١) .

ان الغموض يكمن في كون پرتسل لم يدقق تماماً في قول الشهرستاني والبغدادى ذاك . ان ارسطو لم يكن بالنسبة اليهما غير معروف . لقد عرفاه من حيث هو « المعلم الأول » . أما بالنسبة الى ارسطو فقد كانت الذرية اليونانية القديمة ، ممثلة بلويكيبوس وديموقريطس ، معروفة ، وهو قد رفضها في حينه .

واذا دقق الباحث في تاريخ حركة الترجمة للتراث اليوناني الى اللغة العربية من القرن الثامن حتى القرن العاشر، وخصوصاً على أيدي السريان، فانه (أي المدقق) سوف يصل الى النتيجة المحتملة جداً ، وهي أن معرفة العرب المسلمين بالذرية اليونانية قد تمت عبر ارسطو بالدرجة الاولى .

ان حركة الترجمة بدأت في العهد الأموي ، تحت تأثير مباشر من خالد بن يزيد . الا انها اكتسبت طابعاً واسعاً بدءاً من العهد العباسي . وقد تمت هذه الحركة عبر لغات أخرى ، وفي حالات قليلة مباشرة الى اللغة العربية .

(١) نفس المصدر المعطى سابقاً ، ص ١٤١ .

وقد حملت عملية الترجمة ، لتعقيد الطريق الذي سلكته ، كثيراً من
الايخطاء والأوهام وعدم الوضوح (١) . إلا أنه غير صحيح أن ترجع هذه
الايخطاء والأوهام وعدم الوضوح الى عدم النضج في الترجمة فقط . ذلك
لان المواقع الاجتماعية السياسية والطبقية للمترجمين ولم خلفهم من الأمراء

وعدم الوضوح . وقد توجب لاحقاً ليس فقط تجاوز وتصحيح هذه
الايخطاء . . . ، وإنما أيضاً إعادة النظر بأسماء مؤلفي كتب كاملة . ولاشك
أن عملية التنقية هذه التي لحقت التراث اليوناني الذي نقل الى العربية
تبرز هامة أيضاً بالنسبة الى عملية نقل الذرية اليونانية الى العربية .

وقد عاش الممثل الأول للذرية الاسلامية العربية ، وهو ابو الهذيل
الغلاف ، والممثل الأول لاتجاه المناوئ لهذه الذرية ، وهو هشام بن
الحكم ، في وقت (في القرن الثامن والتاسع) وصلت فيه حركة الترجمة
والنقل تلك قمماً أساسية في تاريخها .

لقد كتب الشهرستاني حول قضية « الصفات » لدى أبي الهذيل ،
بأنه « اقتبس هذا الرأي من الفلاسفة الذين اعتقدوا ان ذاته واحدة لا كثرة
فيها بوجه » (٢) . وفي موضع آخر يذكر أن « النظام ، قد طالع كثيراً من
كتب الفلاسفة وخلط كلامهم بكلام المعتزلة . . » (٣) ، وأنه « وافق الفلاسفة
في نفي الجزء الذي لا يتجزأ » (٤) .

من طرف آخر يخبر الأشعري ، بأن هشام بن الحكم وغيره من
الروافض : « يزعمون ان الجزء يتجزأ أبداً ، ولا جزء الا وله جزء ، وليس
لذلك آخر الا من جهة المساحة ، وأن لمساحة الجسم آخر ، وليس لأجزائه
آخر من باب التجزؤ » (٥) ، وأنه - أي هشام - يقول « بالمداخلة » (٦) ،
وبالطرفة ، حيث يقول « ان الجسم يكون في مكان ، ثم يصير الى المكان

(١) ان اباحيان التوحيد يثير في « المقاييس » الى أن ترجمة التراث اليوناني الى
اللغة العبرية ، ومن هذه الى اللغة السريانية ، ومن هذه الى العربية قد أساء الى خصائص
المعاني والحقائق المترجمة بشكل واضح (انظر : المقاييس) - طبعة السندوبي ، ص ٢٠٨ .

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل - نفس المعطيات السابقة ، ص ٥٠ .

(٣) نفس المصدر السابق - ص ٥٣ .

(٤) نفس المصدر السابق - ص ٥٥ .

الثالث من غير أن يمر بالثاني « (١) . كما أن هشام بن الحكم قال بـ « الكمون » .
كذلك يخبرنا عبد القاهر البغدادي بأن النظام قد اقتبس رأيه حول
انكار « الجزء الذي لا يتجزأ » ورأيه حول « الطفرة » من هشام بن الحكم
ومن الفلاسفة الملاحدة (٢) .

عن ذلك يستبين لنا أن هشام بن الحكم ، الذي تأثر به النظام في
آرائه تلك ، ينبغي أن يكون قد تعرف على آراء أولئك الفلاسفة ، وأن أبا
الهديل العلاف لم يتعرف على آراء الفلاسفة المختلفين بشكل عام فقط ،
وانما أيضاً وبشكل خاص على آراء الفلاسفة الذين تأثر بهم النظام وهشام
بن الحكم (٣) .

والآن ينبغي التساؤل عن أولئك « الفلاسفة » الذين مارسوا ذلك
التأثير على « النريين » الاسلاميين العرب . وبشكل واضح : هل كان
أولئك يونانيين أم من أصل آخر ؟ ان الاحتمال الأكبر هو أنهم كانوا من
اليونان القديمة ؛ كما أن أرسطو مثل ، في ذلك الحال ، الوسيط المباشر
الذي تعرف عليه العرب الاسلاميون على ذلك المذهب الدرّي اليوناني . أما
المبررات للأخذ بذلك الاحتمال فهي التالية :

أولاً - اننا نجد في مؤلفات المفكرين الاسلاميين العرب ، والفلاسفة
منهم على نحو خاص ، ومؤرخي الفلسفة والفرق الاسلامية العربية ابرازاً
لتأثير الفلاسفة والمفكرين ، الهنود مثلاً ، على تكوين وبلورة الفكر العربي
الاسلامي الوسيط . أما الفلسفة اليونانية الرومانية القديمة فتتمتع بمكان
واسع ومتميز في تلك المؤلفات . فمؤرخ الفلسفة الاسلامية العربية البارز
الشهرستاني يكتب واضعاً النقاط على الحروف فيما يخص مسألتنا تلك :
« فان الاصل في الفلسفة والمبدأ في الحكمة للروم ، وغيرهم كالعيال لهم » (٤) .

وبغض النظر عن مغالاة الشهرستاني وعدم رؤيته للمسألة على نحو
تاريخي دقيق ، فانه قد أبان اهتمام المفكرين آنذاك بالتراث اليوناني
الروماني القديم . وقد عرف الفلسفة بأصلها اليوناني ، فقال : « الفلسفة

(١) نفس المصدر السابق - ص ١٢٦ .

(٢) البغدادي : الفرق بين الفرق - القاهرة ١٩١٠ ، ص ١٢٣ .

(٣) انظر : ابن المرتضي ، النية والامل ، ص ٢٦ - مأخوذ عن : سامي النشار ، نشأة
الفكر الفلسفي في الاسلام ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٣٥٦ .

(٤) الشهرستاني : الملل والنحل - نفس المعطيات السابقة ، الجزء الثاني ، ص ٦٠ .

باليونانية : محبة الحكمة . والفيلسوف هو : فيلا وسوفا . . « (١) .

وابن خلدون يخبرنا ، في خلال بحثه حول العلوم العقلية في عصره حيث يشني على اليونان والرومان في هذا الحقل ، بأنه لما « فتحت أرض فارس ووجدوا فيها كتباً كثيرة (فارسية اخذها اليونان حين دخل الاسكندر فارس) كتب سعد ابن أبي وقاص الى عمر بن الخطاب ليستأذنه في شأتها وتنقلها للمسلمين فكتب اليه عمر أن اطرحوها في الماء . . وذهبت علوم الفرس فيها عن أن تصل اليينا . وأما الروم فكانت الدولة منهم ليونان أولاً وكان لهذه العلوم بينهم مجال رحب . . ثم جاء الله بالاسلام . . (و) تشوقوا الى الاطلاع على هذه العلوم الحكيمية . . فبعث أبو جعفر المنصور الى ملك الروم أن يبعث اليه بكتب التعاليم مترجمة . . فقرأها المسلمون . . وازدادوا حرصاً على الظفر بما بقي منها وجاء المأمون . . « (٢) .

قد يبدو من هذا النص الطويل أن ابن خلدون يبالغ في بعض الأمور ، ولكن المسألة الأساسية تبقى واضحة : أن التراث الفلسفي اليوناني الروماني قد احتل المكان الأوسع في الانظمة الفلسفية لمفكري العصر الوسيط العربي الاسلامي .

ولا شك أن الثقافة الهندية قد مارست تأثيراً معيناً على المفكرين أولئك . فنقل كتاب « بانتشاناتترا - كليلة ودمنة » من قبل ابن المقفع عن اللغة الفهلوية - أي ليس عن اللغة السنسكريتية مباشرة - في عهد الخليفة العباسي المنصور (٧٥٤ - ٧٧٥) لهو برهان قاطع على ذلك . ولكن أن يكون ذلك التأثير قد امتد الى الحقل الفلسفي المتميز في الدولة الفتية آنذاك ، وعلى الاخص في قضية « الذرية » ، فإن هذا ما يدعو الى الشك . لقد كتب س . بينس مؤلف كتاب « مذهب الذرة عن المسلمين » عام ١٩٣٦ حول ذلك بأن : « اجابتنا عن المسألة التي نحن بصددنا هنا ، وهي تأثير الهند في مذهب الجزء عند الاسلاميين لاتتجاوز هذا : انه وان كان ينبغي الا نرفض ، بلا بحث ، افتراض هذا التأثير معتبرين أنه مستحيل ، فان حالة معارفنا لاتسمح بأن نجيب في أمره بقول ايجابي جازم ، وآخر ما يقال في هذه المسألة ان الأمر غير واضح » (٣) . ذلك لانه « فيما يختص بالعلوم الفلسفية فان

(١) نفس المصدر السابق - ص ٥٨ .

(٢) ابن خلدون - المقدمة ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٤٨٠ .

(٣) س . بينس : مذهب الذرة عند المسلمين - نفس المعطيات السابقة ، الطبعة العربية ، ص ١٢٠ .

ما يحكيه المسلمون عما قد يكون من تأثير للهنود ، قليل جداً ، وغير موثوق به « (١) . ومما لا شك فيه أن إحدى التأثيرات الهندية كانت قد تمت عبر « الصفر — Zifr » .

ان أول كتاب عربي ظهر فيه « الصفر » نشر في عام ٨٧٤ (٢٧٤ هجرية) . بينما الكتاب الهندي الأول ، الذي ظهر فيه « الصفر » ، فقد نشر عام ٨٧٦ (٢) . ولكن ادخال الصفر واستعماله في الحساب يرجع الى الهنود في القرنين السابع والثامن (٣) .

وقد كان لظهور « الصفر » في المجتمع العربي الاسلامي دوراً هاماً في حقل الحساب ، والرياضيات عموماً ؛ كما كان عنصر إثارة فكرية للكلاميين النصبيين الايمانيين والهرطقيين العقلانيين على حدٍ سواء .

بالطبع ، هنا يدور الحديث حول « الصفر » من حيث هو عدد في سلسلة نهائية . عدا ذلك ينبغي ملاحظة أن شكل الصفر في العربية هو النقطة (.) ، فالنقطة ليس لها ، من الناحية الهندسية ، كما اعتقد ، أبعاد محدودة . فهي الشيء الأخير ، الذي يمكن افتراض وجوده . وهذا هو في الحقيقة ما تصوره اللادينيون الاسلاميون العرب حول الجزء الذي لا يتجزأ والذي ليس له امتداد .

وحينما يقول س . بينس بأنه يميل « الى الشك في أن المتكلمين في ... العصر المبكر كانوا يتصورون ، عن شعور تام ، ان الاجزاء التي لا تتجزأ هي بمثابة النقط ... » (٤) ، فاننا نرى أنه محق في ذلك . ان هذا يعني انه لا يمكن الحديث عن تأثير هندي من خلال « الصفر » على عملية تكوين الذرية الاسلامية العربية . بل ان ذلك التأثير الهندي تحقق في مراحل تطور لاحقة من تاريخ الذرية تلك .

على العكس من ذلك يمكننا تقصي واكتشاف تأثير يوناني في المراحل الأولى من تكون تلك الذرية ، وعلى الخصوص من خلال أرسطو . ففي بدايات القرن التاسع ترجمت مؤلفات أرسطية عديدة الى العربية . وقد وجد « أوجانون » أرسطو صدى ملحوظاً لدى الفرق الاسلامية المختلفة

(١) نفس المصدر السابق — ص ١١٩ .

(٢) انظر : عمر فروخ ، عبقريّة العرب في العلم والفلسفة — نفس المعطيات السابقة ، ص ٤٤ .

(٣) انظر : موسوعة ماير الجديدة ، مجلد ٦ ، لايبزغ ١٩٦٣ ، ص ٢١٣ .

(٤) س . بينس : مذهب الذرة عند المسلمين — نفس المعطيات السابقة ، ص ٦ .

الأولى . انه ، أي أرسطو ، تحول إلى ينبوع خصب للمباحثات والنزاعات والحوارات بين تلك الفرق ، ابتداءً من العصر العربي الإسلامي الوسيط حتى نشوء الفكر الفلسفي وتطوره وتكامله هناك . أما افلاطون فلم يلق هذه الأرض الخصبة . فقد تقل من أعمال أرسطو إلى العربية كتاب الحيوانات ، وكتاب حول العالم وقسم من كتابه حول النفس ، وكتاب المتيورولوجيا . ويعتقد أن يحيى بن بطريق (بداية القرن التاسع) هو الذي قام بذلك ، كما يقال عن عبد المسيح بن عبد الله الحمصي (حوالي ٨٣٥) بأنه قام بترجمة شرح يوهان فيلوبونس على الطبيعة ، والكتاب الارسطي حول السفسطائية (١) . ولكن منذ النصف الثاني من القرن الثامن وبداية القرن التاسع في عهد الخليفة المنصور وهارون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩) بدأت عملية الترجمة للتراث اليوناني ، ومن ضمنه تراث أرسطو (٢). أما قمة حركة النقل والترجمة فقد كانت في عهد الخليفة المأمون (٨١٣ - ٨٣٣) . ففي « بيت الحكمة » وتحت أمانة رئيس المترجمين حنين بن اسحق (٨١٠ - ٨٧٧) مورست عملية الترجمة بشكل شامل وعميق .

لقد أوردنا المسائل السابقة لندلل على الاتجاه الواسع الذي وجد مع بدايات الدولة العربية الإسلامية للاتصال العميق بالتراث اليوناني ، ولنبيّن على أساس ذلك الامكانية التي نشأت لتعرف المسلمين العرب على المذهب النري اليوناني القديم .

ان الدريين الاسلاميين العرب تعرفوا على مسألة « الجزء الذي لا يتجزأ » اليونانية من خلال المؤلفات التي كانت تعتبر أرسطية كثيراً أو قليلاً ، وكذلك من خلال الشراح الارسطيين ، خاصة أولئك الذين قاموا بشرح على كتاب « مابعد الطبيعة » ، بشكل مباشر أو غير مباشر ، مثل Themistius (٣) .

(١) انظر : دي بور - تاريخ الفلسفة في الاسلام ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٣ .
(٢) انظر : هـ . لاي - دراسة حول تاريخ المادية في العصر الوسيط ، نفس المعطيات السابقة ص ٤٢ . كمال اليازجي : معالم الفكر العربي في العصر الوسيط - الطبعة الثالثة ، بيروت ١٩٦١ ، المقطع الممنون ب « الترجمة والنقل » . ر . لاندوا : الاسلام والعرب - نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٤١ .

(٣) ينبغي الإشارة هنا إلى حقيقة هامة ، وهي أن تسمية كتب أرسطو وشرحها بشكل موجز من قبل الكندي في القرن التاسع في إحدى رسائله الفلسفية (انظر: رسائل الكندي الفلسفية - نشرها أبو ريده ، مصر ١٩٥٠ ، قسم أول ، ص ٣٦٣-٣٨٤) تقدم لنا دليلاً واضحاً على أن كتب أرسطو ، وخصوصاً « ما بعد الطبيعة » و « في النفس » كانت معروفة لدى المثلثين الاوائل للدولة الإسلامية . عدا ذلك ينبغي التذكير بأن آراء الكندي كان لها علاقة أكيدة مع المعتزلة ، كما تأثر هو بهم بحدود معينة .

ومن الملاحظ أن الدريين الاسلاميين لم يتأثروا بالذرية اليونانية على نحو مباشر ، وبشكل « صاف » . ان المقصود بذلك هو أن تلك العملية قد مازجتها عناصر أرسطية وافلاطونية وفيثاغورية .

أما فكرة « الوحدة البسيطة المتجانسة والتي لا تنقسم » فلم تكن بالنسبة الى الدريين المعتزليين جديدة تماماً . فالله ، أو « الواحد » البسيط ، أي الذي لا ينقسم لا في الواقع المتحقق ولا في الامكان ، لم يكن فقط نتيجة ابداع ذاتي خاص حققه الكلاميون الأوائل ، وانما كان للذرية اليونانية ومصادر أخرى ، مثل « الواحد » الارسطي و « الواحد » الفيثاغوري ، تأثير واضح في تحديده وبلورته (١) .

ان احدى الافكار الاشعرية والمعتزلية الاولى المتعلقة بالجزء الذي لا يتجزأ وهي « التدخل » و « الاحاطة » بكل جزئيات العالم ، نجدها لدى الفيثاغوريين (٢) . وقد أكد Fritz Lieben بحق على التأثير اليوناني الذي على الدريين الاسلاميين ، ولكنه قصر محاولة تحويل الذرية الديموقريطسية باتجاه ديني ايماني على الاشاعرة ؛ بالرغم من أن بعض المعتزلة ساهموا في اعطاء تلك المحاولة بعض ابعادها الدينية الايمانية ، كما شهدنا الأمر لدى أبي الهذيل مثلاً (٣) .

أما زعم Pretzl بأن الذرية الاسلامية لم تتأثر بمثلتها اليونانية القديمة ، هذا الزعم القائم على أساس أن « الجواهر » أو « الذرات » في الذرية الاسلامية لم ينظر اليها من حيث هي مبدأ « انطولوجي » كوزمولوجي فلسفي أو من حيث هي العناصر الأولى المكوّنة للوجود ، كما هو الحال بالنسبة الى الذرات الديموقريطسية (٤) ، ان ذلك الزعم غير دقيق وغير صحيح تاريخياً . فبالرغم من أن « الذرات » أو « الأجزاء التي لا تتجزأ » في الذرية الاسلامية لم تؤخذ كأساس وجودي شامل ، فان هذا لا يعني القول بنفي ذلك التأثير والتأثر بين الذرية اليونانية والاسلامية . هذا من ناحية . أما من الناحية الأخرى فانه أيضاً ليس من الدقة التاريخية ارجاع العلاقة بين المذهبين الدريين الى علاقة شبه « في التسمية » فقط (٥) .

(١) انظر : ارسطو - ما بعد الطبيعة ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٨٦ . الشهرستاني :

الملل والنحل - نفس المعطيات السابقة ، ص ٧٤ .

(٢) الشهرستاني : نفس المصدر السابق - ص ٧٤ .

(٣) انظر : F. Lieben ، تصورات حول بناء المادة في تحول العصور ، فيينا ١٩٥٣ ، ص ٧٤/٧٣ .

(٤) انظر : pretzl ، نفس المصدر المعطى سابقاً ، ص ١٣٨ - ١٤٠ .

(٥) كما يشير س. بينس في كتابه : مذهب الذرة عند المسلمين ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٦٤ .

اننا نجد العلاقة بين المذهبين قائمة على أكثر من التسمية ؛ هذا بغض النظر عن المضمون الديني التبريري الذي اكتسبه المذهب الدرّي الاسلامي . والمناقض تماماً لمضمون المذهب اليوناني :

أولاً - ان عدم امكانية تجزئة «الجزء» أو الجوهر في الواقع قد أكد عليه ممثلو الذرية اليونانية وممثلو نظيرتها الاسلامية(١) . بالطبع ، الاختلاف يبرز في هذه المسألة بالنسبة الى المنطلقات في كلا المذهبين . فلدى الذرية اليونانية يبقى منطلق ومصدر الذرة هي الذرة نفسها ؛ أما لدى الذرية الاسلامية فالمنطلق والمصدر لك « جوهر أو الجزء » هو الله .

ثانياً - حسب الاشاعرة توجد الجواهر بذاتها ، بمعزل عن اية علاقة بينها . فلا يمكن القول بوجود شيء من الرباط أو التأثير والتأثير المتبادلين بينها . انها توجد منعزلة كلياً عن بعضها . وبالرغم من ذلك فانها تؤلف الأجسام والاعراض وكل شيء مخلوق من الله . ولكن من وراء ذلك كله يوجد الله . انه وحده يستطيع أن يصنع من تلك الذرات شيئاً .

كذلك لدى ديموقريطس نجد الذرات بعيدة عن الانصهار في وحدة عضوية بينها . انها بعيدة ليس فقط عن أن تكون ضمن وحدة ، وانما هي أيضاً لا تمارس فعلاً متبادلاً بينها . الا أن ديموقريطس لا يلجأ في ذلك كله الى فعل الهي خارج عن الذرات(٢) .

ان تلك الذرات الديموقريطسية المتحركة ميكانيكياً من خلال دفع (ما(٣) ، تتحول لدى الذرية الاشعرية الايمانية الى أساس ديني لتبرير وتنظيم القدرة الالهية المطلقة على التدخل في العالم على نحو جزئي وكلي . انها هنا تتحرك وتؤثر على بعضها ، ولكنها توجد بشكل عام فقط من خلال تدخل الهي ، أي من خلال « الاصبع » الالهى الدافع .

ثالثاً - من المعروف أن ديموقريطس قد ألحق صفة « الثقل » بالذرات(٤) . أما هذه المسألة فانها طرحت أيضاً من قبل المعتزلة ، وان

(١) قارن : ف. كابيلي ، ما قبل السقراطيين ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٩٥ .

وسامي النشار : نفس المصدر المعطى سابقاً ، ص ٣٩٩ .

(٢) قارن : نفس المصدر السابق ، ص ٣٠٢ - ٣٠٥ . وسامي النشار : نفس المصدر المعطى سابقاً ، ص ٣٩٨ .

(٣) انظر : ف. كابيلي ، نفس المصدر المعطى سابقاً ، ص ٤٠٣ .

(٤) انظر : نفس المصدر السابق - ص ٤٠٧ .

كان على نحو مختلف بعض الشيء عما هو لدى ديموقريطس . لقد كتب الاشعري : « الثقل هو الثقيل ، وكذلك الخفة هو الخفيف ، وانما يكون الشيء أثقل بزيادة الاجزاء ، وهذا قول جمهور المعتزلة ، وهو قول الجبائي » (١) . فشيء ما يمكن أن يكون أثقل من شيء آخر ، اذا احتوى على عدد من الاجزاء أكثر من الشيء الآخر . هذا يري أن « مقولة » الثقل قد عولجت أيضاً من قبل الدريين الاسلاميين ، ولو بشكل موجز ، وذلك بالعلاقة مع مسألة الجوهر . طبعاً كان هنالك بعض الاختلاف . فالثقل لدى الاسلاميين اعتبر من خصائص « الشيء » ، بينما لدى اليونان اعتبر خاصاً بـ « الجوهر » .

رابعاً — كذلك الشبه بين الـ Minima لدى ابيقور والاجزاء لدى الدريين الاسلاميين ، الذي افترض وجوده س . بينس كما اشرنا الى ذلك سابقاً ، يمكن ايراده في اطار المسألة هذه .

خامساً — اما اعتراض pretzl على افتراض وجود تأثير ذري يوناني على الدريين الاسلاميين ، والذي بحسبه تفتقد الدرية الاسلامية فكرة « الخلاء » (٢) ، فانه غير مقبول . من طرف آخر لا يمكننا القول بأن الدريين الاسلاميين قد تبنا مذهبهم كاملاً من الدريين اليونان . فبغض النظر عن امكانيات الترجمة والنقل المحدودة نسبياً آنذاك ، نجد أن تأثير الدريين الاسلاميين قد « ضُبط » من خلال حاجات المجتمع الايديولوجية .



ان « الدرية » الاسلامية العربية تشكل نسخة مزيفة عن الدرية المادية اليونانية ؛ ولكن زيفها هذا مشروع تاريخياً . لقد كانت في جوهرها مناهضة للعلم والفلسفة المادية الهرطقية . انها انطلقت من مصادرات ومسلمات دينية ايمانية . وقد هدفت في أن تخضع « المادة » أو « العالم المادي » في اشكاله الكمية والكيفية لإطار ديني لاهوتي تبريري . وعلى العكس من ذلك ، يمارس « الاله » الدور المطلق في تحديد معالم تلك المادة وآفاق تحولها وتغيرها .

(١) الاشعري : مقالات الاسلاميين — نفس المعطيات السابقة ، ص ٩٥ .

(٢) pretzl : نفس المصدر المعطى سابقاً — ص ١٤١ .

الا أنها ، أي الذرية الاسلامية ، حيث طرحت قضية « العالم » ،
أثارت بأشكال مختلفة مسائل عديدة فلسفية وعلمية ، وان لم يكن بمقدورها
أصلاً حل هذه المسائل .

أما الاتجاه **المضاد** « اللادري » فقد ساهم بوضوح وقوة في تكوين
وبلورة الفكر الفلسفي الهرطقي المادي وفي إثارة بعض مسائل الرياضيات
على نحو ايجابي . وفي هذا الاطار استطاع ذلك الاتجاه اللادري الوقوف
بحزم كثير أو قليل في وجه المحاولات العديدة العنيفة لتطويع الفكر الانساني
في اطر ايمانية تسليمية جبرية . والجدير بالملاحظة أن هذا الاتجاه الفكري
الذي أثبت تماسكاً بارزاً وجد من يمثله لاحقاً في شخص عدد من الفلاسفة
الآخذين بمنحى مادي هرطقي ، مثل ابن سينا . فهؤلاء كانوا ، في رفضهم
للـ « جزء الذي لا يتجزأ » ، منسجمين مع مواقفهم المادية الهرطقية من
قضايا الوجود والمعرفة .

الكندي - بدايات الفكر الفلسفي المتميز والتكريس الفلسفي لمصادرة الخلق من عدم

ان الكندي (عاش من ٨٠١ حتى ٨٦٧) يعتبر لدى العديدين من الباحثين **الفيلسوف الأول** في اطار المجتمع العربي الاسلامي الوسيط . ونحن نستطيع الأخذ بهذا الرأي ضمن تحفظ أساسي . ان هذا التحفظ ينطلق من أن مميزات أساسية للفكر الفلسفي الاسلامي العربي وجدت قبل الكندي ، وذلك في اطار **المفهوم الفلسفي** و **اطار القضية الفلسفية** على السواء . أي أن الفكر الفلسفي **الخاص والتميز** وجد بأشكال أولية قبل الكندي ، وعلى الخصوص في منظومة المسائل الفكرية التي طرحها المعتزلة . لقد ناقش هؤلاء « اللغة » ليس فقط من حيث هي وسيلة تخاطب وتفاهم بين الناس على العموم ، وإنما أيضاً من حيث هي الاداة الفلسفية للتعبير عن قضايا الوجود الطبيعي والانساني .

لاشك ان الكندي قد قدم جهداً كبيراً حقاً في حقن التقدم اللغوي الفلسفي ، اذ أنه أدخل مجموعة كبيرة ممتازة من الاصطلاحات الفلسفية في تاريخ الفكر العربي الاسلامي (١) . وهو في ذلك كان قد استفاد من الترجمات الفلسفية ، بل ومن المحتمل أنه نفسه قام أحياناً بنشاط في اطار الترجمة والنقل . هذا يبرز جانباً أساسياً من جوانب المسألة ، وهو :

١ - أنه من غير الدقة العلمية أن نسحب خطاً فاصلاً بشكل مطلق بين **الفلسفة و علم الكلام** ، حيث نعتقد بأن الأولى بدأت مع الكندي ، وأن علم الكلام مرحلة فكرية سابقة على التفكير الفلسفي المنظم في اطار المجتمع العربي الاسلامي الوسيط .

٢ - لقد ساد خلال فترة زمنية طويلة التباس أساسي لدى فهم

(١) كوثيقة هامة وعميقة حول نجاح الكندي في هذا الحقل نستطيع ان نأخذ : رسالته في حدود الاشياء ورسومها . في : رسائل الكندي الفلسفية ، نفس المعطيات السابقة ، جزء ١ ، ص ١٦٥ - ١٧٩ .

الظاهرة الفكرية المسماة بـ « علم الكلام » . وساهم مفكرون عديدون اسلاميون عرب قدماء ومعاصرون في توطيد أسس هذا « الالتباس » . وابن خلدون قدم فعلاً أرضاً خصبة لذلك الواقع . ان تعريفه الشهير لعلم الكلام بأنه « الدفاع عن العقائد الايمانية بالادلة العقلية » يبرز ويستشهد به من قبل مجموعة كبيرة من المستشرقين والباحثين العرب . والحقيقة أن الامر ليس كذلك تماماً ، كما تصوره ابن خلدون . فـ « علم الكلام » الذي ساهم المعتزلة في تكوين وتطوير معالمة ، لم يكن فقط دفاعاً عن تلك العقائد ، وانما أيضاً - وهذا هو الخط الاساسي الذي ساد في مجمل الفكر العربي الاسلامي الوسيط - محاولة لتكوين رؤية جديدة الى الوجود الطبيعي والانساني متميزة بماديتها وهرطقيتها . وقد شهدنا ، فيما سبق ، امثلة حية على هذه الرؤية .

ان المسائل التي طرحها « علم الكلام » ، مثل الحرية والجبرية وصفات الذات والحركة والكمون وقدم الشيء وأصل القرآن والجزء الذي لا يتجزأ الخ . . . ، قد طرحت من خلال اتجاهين اساسيين ، مادي هرطقي مبكر ومثالي ايماني نصي . والذي يساهم في تعقيد عملية الكشف عن هذين الاتجاهين بشكل متميز من قبل بعض الباحثين ، هو أن كلا ذينك الاتجاهين **انطلقا من اطار ديني واحد** . ولكن منطلقهما المشترك هذا لم يؤد الى نتائج مشتركة ، بل كان التعارض والتمايز والتناقض في الكثير من نتائجهما من القوة والوضوح ، بحيث ينبغي القول بأن الاتجاه الأول - المادي الهرطقي - قد حقق تقدماً **جديداً نوعياً** بالنسبة الى منطلقه . فهذان الاتجاهان ، وخصوصاً الأول منهما ، قد تبلورا من حيث هما كذلك ضمن تاريخ معين خاص بهما . إننا نقول هنا « وخصوصاً الأول منهما » لأن الاتجاه **النصي** الآخر قد حاول ما أمكن التحرك ضمن اطار « منطلقه » .

وفي الحقيقة ، نحن نلاحظ هذه المسألة المبدئية مجسدة على نحو عميق في الخطوات الفلسفية الكبرى التي انجزها امثال النظام وابن سينا وابو بكر الرازي وابن رشد .

هكذا نستطيع اذن توضيح معالم الموقع الذي شغله الكندي في تاريخ الفكر النظري الاسلامي العربي .



لقد عاش الكندي في عصر تحولت فيه المعتزلية الى ايدولوجية الدولة وقسمت فيه الفرق الأخرى الجبرية النصية - السلفية - . هذا العصر امتد من خلافة المأمون (٨١٣ - ٨٣٣) عبر عهد المعتصم (٨٣٣ - ٨٤٢) والوائق (٨٤٢ - ٨٤٧) حتى تسنم المتوكل السلطة في عام ٨٤٧ .

ان هذه الفترة (اربعا وثلاثين سنة) تميزت بتقدم اقتصادي واجتماعي وفكري شامل ، ويمكن اعتبارها الفترة الأكثر اشراقاً في تاريخ المجتمع العربي الاسلامي الوسيط في المشرق .

وحيثما صعد المتوكل الى السلطة الخلافية بدأت حملة ارهاب واسعة النطاق ضد المعتزلة واتباعهم . هذه الحملة أصابت الكندي بسهامها لوجود بعض نقاط التقاء بينه وبين المعتزلة . واذا وجدت نقاط اللقاء تلك (١) ، فان هذا لا يعني ان الكندي لم يكن له شخصيته الفلسفية المستقلة عنهم . ولا شك انه تأثر بالتراث الفكري اليوناني ، والارسطي منه بشكل خاص . بل انه ساهم بشكل أساسي في خلق تواصل عميق بين الثقافة العربية الاسلامية آنذاك والتراث الفكري اليوناني . ومحاولاته في ترجمة فلسفة ارسطو وطرحها ضمن اطار جديد ، هامة من أجل كشف شخصيته الفكرية وتحديد العصر الفكري الذي عاش فيه . واصبح معروفاً بكونه الفيلسوف المشائي - الارسطي - ، مما ساهم في تقوية مطامح النصيين في النيل منه . والحقيقة ان الكندي ، السني اعتبره الكسندر هرتزن الفيلسوف العربي الاول الاساسي الذي بعث ارسطو ، قد اخذ ارسطو وعرفه ممزوجاً بلامح افلاطونية حديثة ومن خلال مواقع اسلامية لاهوتية .

وقد طرح الكندي في مؤلفاته العديدة مسائل متعددة فلسفية وعلمية . واعتبر ان الرياضيات طريق الانسان الى الفلسفة ، وقد حاول أن يلسم بعلوم عصره ، بحيث أن هذا انعكس في نتاجه الفلسفي . اذ عمل على طرح القضايا الفلسفية في اطار اقناع علمي طبيعي ورياضي .

ولا شك ان موقفه من قضية « العالم » في كليته ينعكس ، بشكل أو آخر ، في مواقفه من القضايا الأخرى العديدة التي طرحها . وسوف نحاول طرح القضية تلك كما رآها الكندي ، خصوصاً في رسائله الفلسفية .

هنالك خط أساسي ينسحب على مجموع النتاج الفكري الكندي ،

(١) انظر : رسائل الكندي الفلسفية - نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٧ - ٣١ .
د. يازجي: معالم الفكر العربي في العصر الوسيط - نفس المعطيات السابقة، ص ١٩٠ .

ويتميز بكون الكندي ، بالرغم من تأثيره الكبير بأرسطو ، فيلسوفاً احتفظ بالحلقات الأساسية من الإسلام كدين (١) . وهذا يعني بالتالي انه لم يأخذ بمفهوم أرسطو عن « العالم » و « المادة » . ان هذا لم يكن ممكناً لسببين : الأول أن الكندي تعرف على أرسطو ، كما قلنا ، ممزجاً بمعالم الأفلاطونية الحديثة ، بالرغم من أنه أبدى اتجاهها أولاً لفهم أرسطو بعيداً عن التأثيرات الأفلاطونية الحديثة . أما السبب الثاني فهو التأثير الكبير الذي مارسه الدين على عملية تكوين ذهنيته (أي ذهنية الكندي) الفلسفية ، وخصوصاً في مسألة « الخلق » و « علاقة » الإنسان بالاله .

إذا كان أرسطو قد امتنع عن القول بوجود الجسمي اللامحدود واللا نهائي في إطار الأشياء الحسية (٢) ، فإنه أكد على وجود جوهر مادي قديم خالد (٣) . وهذا بغض النظر عن المفاضلة الذاتية بين ذلك الجوهر المادي والجوهر الآخر العقلي ، أي المحرك الإلهي الذي لا يتحرك . أما الهيولى ، أو المادة الأولى ، فإنها توجد فقط بحسب الامكان . وانتقال الهيولى من حالة الامكان الى حالة التحقق يعبر عن نفسه بـ « الحركة » . وعملية الانتقال هذه بحاجة دائمة الى صورة تمنحها مضمونها الحقيقي . وعلى هذا الطريق نصل الى « صورة الصور » أو « المحرك الذي لا يتحرك » الإلهي . ولكن شيئاً يبقى أساسياً وثابتاً في منظومة أرسطو : ان الهيولى أو الجوهر المادي القديم قديم خالد .

من طرف آخر لم يستطع أفلاطون أن يتفادى الأخذ بوجود « مادة » قديمة ، كما هو الحال بالنسبة الى « المثل » . وقد أخرج من نطاق عالم « مثله » كل حسية « شريرة » . فالعالم الحسي اللانقي ، عالم المادة المحسوس ، الذي لا يمكن أن يكون مكتوناً من عالم المثل النقي ، تكون من مادة قديمة غير متعينة . فهناك إذن عالمان ، كل منهما يتمتع بالقديمة والخلود .

الا ان العالم المادي لا يمكن أن يستوعب الا على نحو غير يقيني ، أو نصو مجازي . ذلك لأنه « غير محدود وغير متعين » إطلاقاً . وبهذا المعنى فإنه يمثل اللاوجود ، ويقابله الوجود الحقيقي ، وجود العالم الامثل الذي

(١) انظر : نفس المصدر السابق - ص ٢٤٤ ، حيث يرى الكندي أن كل ما قاله النبي

محمد يمكن أن يبرهن عليه من خلال « العقل » . ومن لا يقبل ذلك فإنما هو من لاعقل له .

(٢) انظر : أرسطو - ما بعد الطبيعة ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٦٨ .

(٣) أرسطو : الطبيعة ٢٠٩ b ٣ - ٧ .

يمنحه الفعالية والحقيقة . ونتيجة هذه الفعالية الممنوحة ينشأ عالمنا الحسي العياني (١) .

ان العلاقة بين عالم المثل وعالم المادة القديمة غير المتعينة تختلف عن علاقة الصورة بالهيولى لدى ارسطو . فهناك تعارض مطلق يحيط بطرفي العلاقة الأولى ، بينما التعارض نسبي بين طرفي العلاقة الثانية . فأن تكون الهيولى الأرسطية مالكةً لقدميتها واستقلالها في آن واحد ، لا يعني أنها يمكن أن « تتحد » مع الصورة على نحو من الانحاء ، بحيث ينتج عن ذلك الاتحاد شيء ما . وبالعكس من ذلك ، لا تتم ملازمة او علاقة مباشرة بين « المثل » المطلقة المفهومية والتمتعة بقمة الوجود وبين المادة الأولى اللامتعينة او العالم المادي العياني . وفي سموها وتعالها تمنح المثل المادة القديمة اللامتعينة الفعالية لانتاج عالمنا الحسي العياني .

أما بالنسبة الى الشخصية الفلسفية الثالثة التي مارست تأثيراً على الفكر العربي الاسلامي الوسيط ، وهي افلوطين ، فان المسألة تكتسب منحى آخر .

قد يبدو لنا أن قضية « الوحدة » قد حلها افلوطين بان ازال ثنائية « الصورة والمادة » الأرسطية وثنائية « الحسي والمثالي العقلي » الأفلاطونية . ان « الواحد » الأفلوطيني لا يتمتع وحده بالوجود ، هذا « الواحد » الذي يحتل قمة الوجود . وقد رفض افلوطين في « تاسوعات » (٢) ، التي طور فيها تعليمه حول الفيض ، أن يكون العالم الحسي منبثقاً عن أصل مادي ما قديم قدم « الواحد » .

ان تأكيد ارسطو على وجود « مادة قديمة » ، وافتراض افلاطون بوجود مادة مطلقة غير متعينة تتكون منها العوالم الحسية بمساعدة عالم المثل ، قد رفضهما افلوطين . ذلك لأن الأخذ بهما يؤدي ، حسب رأيه ، الى القول بوجود خالقين . من طرف آخر لم يقبل بان يأخذ بـ « واحد » يخلق أو يبدع العالم من عدم محض ؛ ذلك لأن هذا تناقض منطقي . ان افلوطين يتوصل على ضوء مقدماته الى نتيجة ساهمت لاحقاً في بلورة جوانب معينة من الفكر الفلسفي العربي الاسلامي .

انه يحاول أن يحل قضية « الوحدة - الكثرة » على نحو حازم ، وذلك

(١) انظر : طيماوس - حوار لافلاطون يصف فيه عملية خلق العالم .

(٢) انظر : افلوطين - التاسوعات ، برلين ١٨٧٨ .

من خلال ايجاد ناظم منسجم بين هذين الشككين للوجود . والحقيقة اننا نرى في تعليمه حول « الفيض » تعبيراً عن حالة الانحطاط التي المت بالمجتمع العبودي المتأخر . ففي محاولة افلوطين حلّ مسألة الوحدة والكثرة تقوم هوة عميقة بين هذين الشككين الوجوديين . ونحن نستطيع ان نرى هنا ثلاث نقاط تبرز المسألة على نحو دقيق . النقطة الأولى تقوم على كون « الواحد » مطلقاً وعارياً من كل وصف وتعيين ؛ النقطة الثانية تتعلق بـ « الهیولی » من حيث هي امكان حسّي مطلق وغير متعين ومؤهل لأن يكتسب أية صورة ؛ أما النقطة الأخيرة فتقوم على تحديد العلاقة الوسيطة بين « الواحد » و « الهیولی » ، هذه العلاقة التي تتحقق من خلال « الفيض » .

والحل المزعوم لقضية « الوحدة - الكثرة » لم يكن لدى افلوطين في الحقيقة أكثر من مظهر خارجي للمسألة . ذلك لأن « العقلي المفهومي » يتقابل ، في آخر تحليل ، بـ « الحسي » مقابلة مطلقة ، وذلك بالرغم من الحاحه على « صدور » الكثير من الواحد . فالثنائية وليست الاحادية هي التي تسود في الفكر الفيضي الافلوطيني (١) .

ضمن هذا التعدد والتشعب الفكري يختط الكندي في وجهة نظره حول « المادة » و « العالم المادي » طريقاً آخر مختلفاً . ان تأثره بأفلاطون وارسطو وافلوطين لم يلامس المسألة الأساسية في رأيه ، وهي مسألة العلاقة بين « الحق » و « الخلق » . كما يقول الصوفيون الاسلاميون ، اي بين الله والعالم .

في وجهة نظره تلك ظل الكندي ، في الخط العام ، يتحرك على ارض دينية غيبية ، بالرغم من محاولته إنساب العملية اطاراً معلماً رياضياً . في البدء نجد الكندي يطرح قضية « الله » وقضية « العالم » من حيث هما قضيتان متعارضتان بشكل مبدئي أولي . ان الآية القرآنية : « انما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » (٢) تكتسب لدى الكندي مضموناً وطابعاً فلسفيين ، يطرحهما من خلال منظور منطقي منسق . وفي مجموع محاولاته للبرهان على « عملية الخلق » للعالم تبرز مقولتان رئيسيتان ،

(١) ان A. Drews يؤكد العكس من ذلك في « تاريخه للاحادية في العصر القديم » .

(٢) انظر : رسالة الكندي في كمية كتب ارسطو - نفس المعطيات السابقة ، ص ٣٧٥ .

القرآن - سورة يس ، آية ٨٢ .

هما « النهاية » و « اللانهاية » في علاقتهما ببعضهما .

ان اللانهائي هو ، بحسب ذلك ، الله ؛ اما العالم او ، على نحو مصغر ، الجسم فنهائي . ان هذا التحديد ينسحب على مجموع افكار الكندي الفلسفية . بيد أنه من الملاحظ انه كلما انحدر الباحث في بحثه لفلسفة الكندي من أعلى الى أسفل (أي من العالم الالهي الى العالم المادي الحسني) ، يرى نفسه مواجهاً لجوانب فلسفية أكثر « دنيوية » و « علمانية » . فالكندي يرى ان « الطبيعة علة أولية لكل متحرك ساكن ... فالطبيعي هو كل متحرك ؛ فاذا علم الطبيعيات هو علم كل متحرك ، فاذا ما فوق الطبيعيات هو لا متحرك ... ؛ فاذا قد وضح أن علم ما فوق الطبيعيات هو علم مالا يتحرك » (١) . وفي رسالة أخرى يرى الكندي بأن « ... علم الاشياء الطبيعية هو علم الاشياء المتحركة ، لأن الطبيعة هي الشيء الذي (يجعل) منه الله العلة والسبب لجميع الاشياء المتحركة الساكنة حسب الحركة » (٢) . هاهنا يخلق الكندي تمايزاً حاسماً لا يتجاوز بين العالم الالهي والآخر الطبيعي . واذا كانت الطبيعة لدى افلوطين تمثل الدرجة الاخيرة والدنيا في عملية « الصدور » ، فانها لدى الكندي نتيجة ابداع خاص بالفاعل الاول ، الذي هو الاله . ان هذا الفاعل الاول ، أو « العلة الاولى - مبدعة ، فاعلة ، متممة الكل » ، غير متحركة » (٣) . اما الكلمة « نتيجة » هنا فلا تعني كونها حلقة متممة لمجموعة من العلاقات السببية . وهذا مفهوم بنفسه لدى الكندي ، لأن الفعل الالهي ، وهو الابداع ، يتحدد في انه « اظهر الشيء عن ليس » (٤) ، أو في انه « تأييس الايسات عن ليس » (٥) .

وهكذا يتبين بوضوح أن « الخلق من عدم » موضوع مركزة كما هي منطلق جوهرى في منظومة الكندي الفلسفية .

(١) كتاب الكندي في الفلسفة الاولى . في : رسائل الكندي الفلسفية - نفس المعطيات السابقة ، القسم الاول ، ص ١١ .

(٢) رسالة الكندي حول طبيعة الفلك . في : رسائل الكندي الفلسفية ، نفس المعطيات السابقة ، القسم الثاني ، ص ٤٠ . وهنا نود ان نشير الى اننا لم نجد هذا القسم الثاني في العربية . وقد كنا قد وجدناه في برلين واستخدمناه في كتابة هذا الفصل .

(٣) رسالة الكندي في حدود الاشياء ورسومها . في : رسائل الكندي الفلسفية ، نفس المعطيات السابقة ، القسم الاول ، ص ١٦٥ .

(٤) نفس المصدر والصفحة السابقة .

(٥) رسالة الكندي في الفاعل الحق الاول التام . في : رسائل الكندي الفلسفية ، نفس المعطيات السابقة ، ص ١٨٢ .

ونحن إن نظرنا الى موضوعه الكندي تلك ضمن اطار تاريخ الفلسفة العربية الاسلامية ، فاننا سوف نجد انها تمثل خطوة الى وراء . ان ارسطو وافلاطون قد قالا بوجود مادة قديمة يمكن تعيينها وتحديدتها كثيراً أو قليلاً ، وذلك الى جانب أخذهم بـ « مبدأ عقلي » الهي . وقد تضمن ذلك القول النتيجة الأساسية والمميزة لمجموع اشكال الفكر الفلسفي اليوناني ، وهي عدم الأخذ بـ « عملية خلق إلهي » للعالم عن عدم مطلق . فـ « المادة » نفسها لدى افلوطين تصدر عن « الواحد » ، وليس عن « عدم » مطلق مزعوم . وهذا بالرغم من كونها « الشر اطلاقاً » وكونها أدنى حلقة في عملية الصدور تلك .

فتلقاء تلك الآراء الثلاثة حول « المادة » و « العالم المادي » يمثل الرأي الكندي محاولة لا عقلانية لطرح العلاقة بين الاله والعالم . والذي يميز العلاقة هذه هو أنها قائمة على ثنائية مطلقة على نحو من الانحاء ، أي أنها مطلقة من حيث الميل الذي يستشفه الباحث لدى احاطته بالمشكلة الفلسفية الأساسية عند الكندي . الا أن القيام بتطويع الاله الديني لاطار فلسفي من قبل الكندي ، أي تحويله « الاعتقاد » الايماني بالاله الى « نظرية » حول الاله ، كان ولا شك خطوة على طريق اضعاف الاتجاه النصي اللاعقلاني آنسلك .

لقد استخدم الكندي ، كما اشرنا سابقاً ، مفهومي « النهاية » و « اللانهاية » لتبرير وجهة نظره حول وجود عالين متعارضين اطلاقاً ، عالم الهي عقلي ، وعالم مادي حسّي . فحسب ذلك التقسيم نجده يلحق اللانهاية بالعالم الاول ، بينما النهاية يعتبرها من مقومات العالم الثاني . وفي الوقت الذي يؤكد فيه الكندي على أن الأزلي « لا جنس له ... (وانه) لا يفسد ، لأن الفساد انما هو تبدل المحمول لا الحامل الاول ... (وانه لا) يتبدل ، لأن الفاسد ليس فساداً بتأيسر أيسيته ... والاستحالة تبدل ؛ فالأزلي لا يستحيل ، .. والنام هو الذي له حال ثابتة ... (كما انه) لا يمكن أن يكون جرم أزلي ولا غيره مما له كمية أو كيفية ، لانهاية له بالفعل » (١) ، اذن في الوقت الذي ينزع فيه الكندي عن الاله صفات الجنس والفساد والتبدل والاكمال وكل شيء يرتبط بالكم أو الكيف ، نجده من طرف آخر وعلى خط مستقيم يلحقها بالعالم المادي الحسّي . والجرم ذاك ، الذي لانهاية له بالفعل ، انما هو في القوة (٢) .

(١) رسالة الكندي في الفلسفة الاولى - نفس المعطيات السابقة ، ص ١١٣ - ١١٤ .

(٢) نفس المصدر السابق - ص ١١٤ .

ان الكندي في برهانه على ذلك يلجأ الى نتائج منطقية صورية مستخدماً خلال ذلك مفهوم « العِظَم » ، وذلك على النحو التالي :

١ - الاعظام المتجانسة « التي ليس بعضها بأعظم من بعض متساوية » (١) .

٢ - « اذا زيد على أحد الاعظام المتجانسة المتساوية عظم محانس لها ، صارت غير متساوية » (٢) .

٣ - « انه لا يمكن أن يكون عظمان متجانسان لا نهاية لهما » أحدهما أقل من الآخر ؛ لأن الأقل بعد الأكثر أو بعد بعضه » (٣) .

٤ - « الاعظام المتجانسة التي كل واحد منها متناه ، جعلتها متناهية » (٤) .

من هذه المقدمات الأساسية توصل الكندي الى مصادره الرئيسية ، ومفاده انه « لا يمكن أن يكون جرم لانهاية له » (٥) . ولكن ان يكون الجرم لانهاية ، فان هذا يقتضي ، كما قلنا ، أن يكون الجرم كذلك فقط في اطار الامكان . و « الوهم » وحده هو الذي يتيح لنا أن نفترض ذلك (٦) .

ان « الجرم » (٧) . في رأي الكندي لا يمكن اعتباره والهيولى شيئاً واحداً . فالهيولى ، التي يسميها الكندي في مواضع معينة من رسائله « طينة » ، ليست هي جرماً أو جسماً ، وانما تشكل مع الصورة الاجسام (٨) . والاشياء تقسم بشكل عام الى ثلاث مقولات وجودية ، هي ١ - اشياء لا تنفصل في

(١) رسالة الكندي في ايضاح تنامي جرم العالم - في : رسائل الكندي الفلسفية ، نفس

المعطيات السابقة ، ص ١٨٨ .

(٢) نفس المصدر والصفحة السابقة .

(٣) نفس المصدر السابق - ص ١٨٩ .

(٤) نفس المصدر السابق - ص ١٩٠ .

(٥) نفس المصدر السابق - ص ١٩١ .

(٦) رسالة الكندي في الفلسفة الاولى - نفس المعطيات السابقة ، ص ١١٦ .

(٧) ان الكندي يحدد « الجرم » أيضاً بأنه الطويل العريض العميق (نفس المصدر السابق ،

ص ١٢٠) . انظر أيضاً رسالته في حدود الاشياء ورسومها ، نفس المعطيات السابقة ،

ص ١٦٥ . ان هذا التحديد الكندي للجرم كناقذ شاهدناه لدى المعتزلي معبر ، مما

يظهر علاقة الكندي بأراء المعتزلة على العموم .

(٨) كتاب الجواهر الخمسة للكندي . في رسائل الكندي الفلسفية ، القسم الثاني ،

نفس المعطيات السابقة ، ص ١٦ .

وجودها عن الهيولى ؛ ٢ - أشياء يمكن أن ترتبط بشكل عام بالهيولى ، ولكنها ليست غير قابلة للانفصال عنها ؛ ٣ - أشياء ليست مرتبطة أصلاً بالهيولى (١) . ولكن هذه المقولات الثلاث يمكن أرجاعها بشكل جوهري الى اثنتين ، الأولى حول الأشياء المركبة والمرتبطة على نحو أو آخر بالهيولى ، مثل الاجسام والنفوس ، أما الثانية فهي حول الأشياء البريئة عن كل هيولى ، مثل الأشياء الالهية (٢) .

أما الأشياء من نوعية المقولة الأولى فتتأصل فيها الجواهر التالية : الهيولى والصورة والمكان والحركة والزمان (٣) . وفي الوقت الذي يرى فيه الكندي الهيولى والصورة على أنهما جوهران أساسيان ضمن الجواهر السابقة ، فإنه يفصلهما عن العناصر الأربعة ، الحار والبارد والرطب والجاف . ذلك لأن هذه العناصر اجسام ، ولذلك فهي مركبة ؛ بينما الجوهران الأساسيان ، الهيولى والصورة ، فانهما بسيطان ، ولذلك فهما

قبل أن يدخل الكندي في بحثه المفصل حول الهيولى ، يلاحظ بأنها آخر شيء في جنسها ، أي أنها تكون أشمل مفهوم ضمن جنسها (٥) .

فمن خلال طرحه لها بالعلاقة مع الصورة ، يتوصل الكندي الى تحديد واضح لها . وقد تأثر في ذلك بأرسطو : انها « ما يقبل وليس ما يتقبل . . . وإذا رفعت الهيولى ، فإن ما يضاعدها يرفع ؛ بينما حينما يرفع ما يضاعدها ، فإنها لا ترفع . من الهيولى كل شيء . انها ما يتقبل التناقض دون فساد » (٦) . وفي رسالة أخرى يعرف الكندي الهيولى بأنها « قوة معدة لحمل الصورة . . . » (٧) .

أن الكندي يقرر ، بالاتفاق مع أرسطو ، أن الهيولى حامل الصورة الذي يتميز بكونه سلبياً تجاهها . ولكنه يعتبرها ، وهنا يختلف مع أرسطو ،

(١) انظر : نفس المصدر السابق ، ص ٨ - ١٠ .

(٢) نفس المصدر السابق ، ص ١٠ .

(٣) نفس المصدر السابق ، ص ١٤ .

(٤) نفس المصدر السابق ، ص ١٦ .

(٥) قارن هذا بـ لينين - المادية والمذهب النقدي التجريبي ، ضمن : أعمال لينين ، مجلد ١٤ ، برلين ١٩٦٢ ، ص ١٤١ ، حيث يتعرض لينين لقضية التعريف .

(٦) كتاب الجواهر الخمسة للكندي - نفس المعطيات السابقة ، ص ١٦ .

(٧) رسالة الكندي في حدود الأشياء ورسومها - نفس المعطيات السابقة ، ص ١٦٦ .

بأنها موضوع لكل شيء ، وذلك بعد أن تكون قد خلقت من قبل الإله . وفي هذا الإطار يقال بأنها لا ترفع ولا يمكن أن يطرح بديل عنها . والباحث يمكن أن يجد نقاط اختلاف أخرى بين الكندي وأرسطو .

فأرسطو يؤكد مراراً بأن « المادة » توجد حسب الامكان فقط ، بينما « الصورة » توجد حسب التحقق : « أن الهدف النهائي هو التحقق ؛ وللتعاطف معه يصل المرء الى القوة (الممكنة) » (١) . أن مفهوم « القوة » أو « الامكان » يُستخدم من قبل الكندي بالنسبة إلى الهیولی كما بالنسبة إلى الصورة . وحسب ذلك توجد كلاهما ، الهیولی (٢) والصورة (٣) حسب القوة .

بيد أن الباحث في منظومة الكندي الفلسفية يجد نفسه يميل الى القول بأن الفكرة الأساسية لدى الكندي في هذا الحقل لا تبرز على أساس كون الهیولی والصورة موجودتين حسب القوة (الامكان) ، وإنما على أساس أن الهیولی وحدها توجد حسب القوة .

ان الكندي يصنف الأشياء في اطار مفهومي « الامكان » و « التحقق » الى ثلاث مقولات : الأشياء الموجودة حسب التحقق بشكل مطلق ، والأشياء الموجودة حسب الامكان بشكل مطلق ، والأشياء الموجودة حسب الامكان ولكن التي تنتقل الى حالة التحقق (٤) . فبالنسبة الى العالم السماوي ، فإننا نجدتها تدخل ضمن نطاق المقولة الأولى . أما ما يوجد تحت ذلك العالم ، فانه يدخل في اطار المقولة الثانية والمقولة الثالثة ، ذلك لأن العالم السماوي سبب لكل الأشياء الموجودة دونه (٥) . ان هذا يفهم باعتبار أن ذلك العالم السماوي يخص الأشياء الالهية ، وهو بالتالي برىء عن الهیولی والصورة (٦) .

(١) أرسطو : ما بعد الطبيعة ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٢١٦ .

(٢) انظر آخر استشهاد مأخوذ عن الكندي .

(٣) انظر : كتاب الجواهر الخمسة للكندي - نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٠ .

(٤) انظر : رسالة الكندي في الابانة عن سجود الجرم الاقصى - نفس المعطيات السابقة ، القسم الاول ، ص ٢٥١ .

(٥) انظر : نفس المصدر السابق . ان تقسيم الوجود الى عالين ، واحد فوق القمر وآخر تحته ، يتحدر من أرسطو في مؤلفاته العلمية الطبيعية ، مثل « حول السماء » .

(٦) انظر : نفس المصدر السابق ، ص ٢٤٨ . بيد أننا نواجه لدى الكندي تناقضاً فيما يخص هذه المسألة . فهو حين يرى بأن كل شيء حسي يتضمن دائماً هیولی وأن الحسي ، لذلك ، جرم أو جسم ، فان هذا لا يتطابق مع رأيه حول الفلك من حيث هو برىء من الصورة والهیولی .

ها هنا نتوصل الى نقطة ثانية يختلف فيها الكندي عن أرسطو ، وهي تمس العلاقة بين الهیولی والصورة . فهو ، أي الكندي ، يكتب متعرضاً لهذه المسألة : « الصورة غير مفارقة عنصرها ، وهما موحدان » (١) . أما « العنصر » فهو ، برأيه ، طينة كل طينة (٢) . ومن الملاحظ أن الكندي هنا يطرح الهیولی (الطينة) في وحدتها العضوية مع الصورة ، وهذا على الأقل في إطار العالم المادي التحتي - عالم ماتحت القمر - . ولا شك أنه في هذه النقطة يحقق تجاوزاً أساسياً لأرسطو . إذ أن هذا الأخير ، انطلاقاً من منطق الذي يرفض التقاء المتعارضات والمتناقضات في وحدة عضوية ، يعتبر أن الهیولی ليست **موحدة** مع الصورة ، بالرغم من أنها تتواجد معها .

ولكن في الحين الذي يُضعف فيه الكندي من « الاله » الديني ، فإنه يعمل منه شيئاً مشابهاً لـ « صورة الصور » الأرسطية . فلقاء الصورة بالهیولی (المادة) يتحقق لدى الكندي فقط في العالم التحتي - المركب - . والفلک هو علة فاعلة قريبة لكل مكوّن تحته (٣) . والله (أو الخالد) ليس مرتبطاً بالصورة أو بالهیولی . فهو العلة الأولى المبدعة والفاعلة والمتمة الكلّ وغير المتحركة (٤) . فوّه لا يوجد شيء ، بينما يوجد تحته كل شيء . وفي وجوده المفارق العلوي يسيّر ويراقب العالم بصفته العلة الأولى المحركة .

ان الكندي يتحدث عن نوعين من العلة ، علة بعيدة - وهي الله - ، وعلة قريبة - وهي الفلک . وحين يتكلم أرسطو عن « هیولی أولى » ، فإنه يفهم تحت ذلك المطلق اللامحدود والمهيأ لأن يكتسب أو أن يتقبل صورة ما . وهذا يعني ان الهیولی الأولى تُحدد من حيث هي شيء سلبي منفعل بريء عن كل المواصفات ماعدا كونه شكلاً من اشكال الوجود « المطلقة اللامتعينة » . ولكنه في الوقت الذي يكتسب فيه صورة ما ، يصبح حائزاً على **كيفية معينة** . ان هذه « الكيفية » موجودة على نحو أولي في « الهیولی » الكنديّة نفسها : بسبب أن « الصورة التي في الطينة تتبع الطينة - فإنه ليس كل طينة تقبل كل صورة » (٥) .

(١) رسالة الكندي في الابانة عن سجود الجرم الاقصى - نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٤٨

(٢) انظر : رسالة الكندي في حدود الاشياء ورسومها - نفس المعطيات السابقة ، ص ١٦٦ .

(٣) انظر : رسالة الكندي في الابانة عن سجود الجرم الاقصى - نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٤٨ .

(٤) انظر : رسالة الكندي في حدود الاشياء ورسومها - نفس المعطيات السابقة ، ص ١٦٥ .

(٥) رسالة الكندي في ماهية النوم والرؤيا - نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٩٩ .

لقد قلنا سابقاً ان الكندي قد قيد فلسفياً من المصادرة الدينية الرئيسية الخاصة بـ « الخلق من عدم مطلق » . ان هذا القول يحتاج التدقيق الاقرب . فان كان الكندي لم يأخذ بتعليم « الفيض » الافلوطيني بشكل حاسم ، فانه يرينا من خلال منظومته الفلسفية بعض تأثير بذلك التعليم . في هذا الحقل نرى من الضروري التعرض لمسألة « تراتب » الاشكال الوجودية المختلفة . فحسب ارسطو هنالك أربعة أسباب للوجود . وهذه اما أن تكون «عنصرية ، واما صورية ، واما فاعلة، وإما تامة» (١) . والكندي يرى العلة الفاعلة ، التي هي في قمة الوجود (٢) ، منقسمة الى بعيدة وقريبة . فاذا كان الله العلة الاولى البعيدة لكل شيء في الوجود والخالقة لكل شيء من عدم مطلق ، فان الفلك يجسد العلة القريبة . في هذا الواقع يكمن تراتب درجي في عملية الخلق : فالفلك يخلق كشيء أول ضمن عملية الخلق تلك التي تتأصل في وجود العلة الاولى الالهية ؛ بعد ذلك تأتي الاجسام الارضية في التراتب ، هذه الاجسام التي تتأثر بالفلك كعلة قريبة (٣) .

ان هذا التراتب في عملية الخلق ينبغي أن يؤخذ بعين الاعتبار لدى استيعابنا للمشكلة الفلسفية الأساسية لدى الكندي ، بالرغم من انه (الكندي) في موضع آخر من رسائله ، يرجع الفلك السماوي والارض الى علة واحدة خالقة . ذلك لأنه يتكلم عن نوعين أساسيين من الفعل ، الأول ويسميه « الحقي » ، وعبره يتم « تأييس الأيئسات عن ليس » (٤) . أما الثاني فهو فعل « بالمجاز ، لا بالحقيقة » (٥) . وكونه بالمجاز يعني انه معلول للفعل الأول « الحقي » ؛ ذلك لأن « الباري ، تعالى (هو) العلة الاولى لجميع المفعولات التي بتوسط والتي بغير توسط ، بالحقيقة ، لأنه فاعل لا منفعل بته ، الا أنه علة قريبة للمنفع الأول ، وعلة بتوسط لما بعد المنفع الأول من مفعولاته » (٦) .

هذا يري أن الكندي في مصادره حول الخلق من عدم لم يستطع أن يمر على التعليم الفيضي دون توقف ودون اهتمام . فهو في حديثه عن الوجود

(١) انظر كتاب الكندي في الابانة عن العلة الفاعلة القريبة للكون والفساد — نفس المعطيات السابقة ، ص ٢١٧ .

(٢) نفس المصدر السابق — ص ٢١٨ .

(٣) نفس المصدر السابق — ص ٢٣٦ .

(٤) رسالة الكندي في الفاعل الحق الاول التام — نفس المعطيات السابقة ، ص ١٨٢ .

(٥) نفس المصدر السابق — ص ١٨٣ .

(٦) نفس المصدر السابق .

الحقّي الأول ، يصفه بأنه « ذو القدرة التامة والقوة الكاملة والوجود الفائق » (١) . وهذا الفهم للوجود الأول الحقّي ، من حيث هو وجود فائق ، نرى دعماً له في رأي الكندي حول الجسم الانساني كسجن للنفس . فالنفس يمكن ان تصبح « قريبة الشبه بقوة الاله تعالى شأنه ، اذا هي تجردت عن البدن وفارقتة وصارت في عالمها الذي هو عالم الربوبية » (٢) .

ان في هذا القول حول النفس أمراً خطيراً فيما يخص تحديد موقع الكندي من تاريخ الفكر العربي الاسلامي الوسيط : ان عملية التمازج العميقة التي تمت بين ممثلي هذا الفكر وبين الثقافات الاجنبية المختلفة قد انعكست بشكل لا يدعوا الى الشك في تفهم وتفسير اولئك الممثلين الفكريين للتصورات والمصادر الكونية الأساسية في الدين الاسلامي . طبعاً ، هذا جانب من جانبي المشكلة . اما الجانب الآخر فهو الوضع الاجتماعي الطبقي للموس الذي استشار مجموعة من التساؤلات الفلسفية على نحو غير مباشر في اذهان المفكرين ، وحدد بالتالي بشكل متوسط ، بالطبع ضمن تأثيرات العصر العلمية الطبيعية والتكنيكية ، الملامح البعيدة للاشكال الممكنة للاجابات على تلك التساؤلات .

هكذا يبدو لنا الكندي في محاولته غير المباشرة وربما غير الواعية لاكتساب الاله الاسلامي طابعاً مغايراً يتميز بلامح من وحدة الوجود ، التي يبرز فيها الانسان الى جانب الاله في علاقة « شبه » متكافئة . ان « الاله » قد برز قبل الكندي قبل قرنين ونصف القرن من الزمن من حيث هو اله مفارق وعلوي فساهم بذلك ١ - في اتجاه تجريد التجار والمرايين الوثنيين امتيازاتهم الطبقية ، وذلك عن طريق ربط علائق الناس جميعاً بقوة الهية واحدة يشترك في الخضوع لحكمتها جميع اولئك الناس ؛ كما ساهم ٢ - في طرح قضية الوجود الاجتماعي السياسي الواحد ، اي قضية الدولة العربية الواحدة « المتناسكة » . ان ذلك « الاله » تحول مع تعميق التأثيرات الثقافية الاجنبية على الحياة الفكرية العربية الاسلامية ومع تبلور وضع طبقي وعلمي جديد في المجتمع الى اله انساني - مؤنس - . وبالطبع هاهنا يكمن واقع جديد يتميز بتعاظم قدرة الانسان في المجتمع ذاك على احاطة

(١) انظر : رسالة الكندي في الفلسفة الاولى - نفس المعطيات السابقة ، ص ١٦٢ .

(٢) رسالة الكندي في القول في النفس - نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٧٨ .

نظرية وعملية أفضل بالوجود الاجتماعي والطبيعي .
وظهور تأثيرات افلاطونية وأفلاطونية حديثة في تصور الكندي للاله
كان ولا شك من العوامل الدافعة لتجاوز مصادرة الخلق من عدم مطلق (١) .

★ ★ ★

العلاقة الشرطية بين الزمان والحركة والجسم

لقد انطلق الكندي في آرائه حول « اللانهائي » و « اللامحدود » من
أرسطو . فهذا الأخير يقرر في « مابعد الطبيعة » ان « اللامحدود ليس
وجوداً بالتحقق » ، وانما بالامكان *potentia* (٢) . وكذلك يرى الكندي ان
كل « مافي الذي لانهاية له بالقوة فهو أيضاً بالقوة لانهاية له » (٣) . والجسم
الذي يحتوي على « الحسية » كصفة رئيسية له ، لا يمكن أن يكون لانهاية
بالتحقق لا حسب أرسطو (٤) ولا حسب الكندي (٥) . ان الحجة التي
يطرحها أرسطو في وجه فرضية « اللامحدود » ، نجدها بالنخط الجوهرية
لدى الكندي . أرسطو يقول : « وإلا فسوف يكون كل جزء ينتزع من
اللامحدود ، نفسه لا محدوداً » (٦) . أما الكندي فانه يبرهن على ذلك الأمر ،
أخذاً بعين الاعتبار الوجود « الحقيقي » اللانهائي والوجود « المجازي » النهائي :
« فإن كان جرم لا نهاية له ، فانه اذا فصل منه جرم متناهي العظم ، فان
الباقى : اما أن يكون متناهي العظم وإما لامتناهي العظم ، فإن كان الباقى
متناهي العظم فانه اذا زيد عليه المفضول منه المتناهي العظم ، كان الجرم
الكائن عنهما متناهي العظم ؛ . . فهو اذن متناه لا متناه ، وهذا خلف لا يمكن .
وان كان الباقى لا متناهي العظم ، فانه اذا زيد عليه ما أخذ منه صار أعظم
مما كان قبل أن يزداد عليه أو مساوياً له . . . وهذا خلف لا يمكن ، فليس
أحدهما أعظم من الآخر . . . (وليس) الجزء مثل الكل ؛
فقد تبين أنه لا يمكن أن يكون جرم لانهاية له » (٧) .

-
- (١) بالرغم من ذلك يرى ابو ريده أن الكندي لم يتأثر في رسائله الفلسفية بالافلاطونية
الحديثة . انظر : نفس المصدر السابق ، ص ٨٠ (٨) .
(٢) أرسطو : ما بعد الطبيعة ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٦٨ .
(٣) رسالة الكندي في وحدانية الله وثنائي جرم العالم - نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٠٣ .
(٤) أرسطو : ما بعد الطبيعة . - نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٦٨ .
(٥) رسالة الكندي في وحدانية الله - نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٠٣ .
(٦) أرسطو : مابعد الطبيعة - نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٦٨ .
(٧) رسالة الكندي في وحدانية الله - نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٠٣ .

وعن القول بـ « نهاية » الجرم تنسحب نتائج لها علاقة بالزمان والمكان والحركة . ان الجرم ، حسب ذلك وبلغة منطقية صورية ، حامل . ومحمولاته هي الزمان والمكان والكم والحركة . وباعتبار ان الحامل (الجرم) لا يمكن ان يكون لانهائياً ، فان محمولاته لا يمكنها أيضاً ان تكون لانهائية في حالة التحقق (١) . فقط في حالة القوة يمكن لتلك المحمولات ان تكون لانهائية (٢) . ان الجرم يوجد فقط مع محمولاته : « ولا جرم بلا زمان ... والحركة انما هي حركة الجرم ، فان كان جرم كانت حركة ، وان لم يكن جرم لم تكن حركة » (٣) . وهذه جميعاً ، الحامل (الجرم) ومحمولاته (الحركة والزمان) « لا يسبق بعضها بعضاً في الإنية ؛ فهي معا » (٤) . الا ان عدم السبق في الإنية بالنسبة الى تلك لا يعني انها (أي المحمولات والحامل) تشكل وجوداً واحداً متجانساً .

ان الزمان ، حسب ارسطو والكندي ، هو « عدد الحركة ؛ اعني انه مدة تعدها الحركة (٥) » . ذلك لانه اذا « لم يكن زمان لم يكن مدة تعدها الحركة ، لانه ان كانت حركة متتالية ، « فمن ... الى » موجود » (٤) .

والآن حينما يستخلص الكندي من موضوعته حول « نهاية » الجرم والزمان والمكان والحركة ان هذه جميعاً مخلوقة من « الوجود الحقيقي » ويمكن ان تخلق من قبله دائماً ، فانه يتعارض في ذلك مع ارسطو . فهذا الأخير يعلن انه من غير الممكن « ان تكون الحركة — أو الزمان — قد خلقت في وقت ما ، أو ان تضمحل . ذلك لأنها كانت دائماً . انه لا يمكن ان يوجد قبل وبعد ، اذا لم يوجد زمان » (٧) . ان الحركة والزمان لا يشترطان وجودهما انطولوجياً (وجودياً) فقط ، كما هو الحال لدى الكندي ، وانما

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) نفس المصدر السابق — ص ٢٠٤ .

(٣) نفس المصدر السابق — ص ٢٠٤ .

(٤) نفس المصدر السابق — ص ٢٠٥ .

(٥) نفس المصدر السابق — ص ٢٠٤ . ان ارسطو يعرف الزمان بأنه « عدد (أو عداد) الحركة باتجاه القبل أو البعد » . Diogenes Laertius : حياة وآراء فلاسفة

شهيرين — برلين ١٩٥٥ ، مجلد ٢ ، ص ٢٤٣) .

(٦) رسالة الكندي في مائة مالا يمكن ان يكون لا نهاية له .. — نفس المعطيات السابقة ،

ص ١٩٦ .

(٧) ارسطو : مابعد الطبيعة — نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٨٣ .

هما أيضاً خالدان قديمان ، كالمادة وكالاله (المحرك الأول الذي لا يتحرك) .
انهما كذلك متصلان .

لا شك أن الكندي أيضاً يعتبر الحركة والزمان متصلين (١) . الا ان اتصالهما (او استمراريتهما) هذا متعلق امره أولاً وأخيراً بإرادة الله . فلهي هذه الإرادة يبدأ كل شيء ، كما ينتهي كل شيء . ان كون أو صيرورة العالم الحسي نفسها يعتبرها الكندي حركة (٢) . الا ان هذه « الحركة » لا تقتضي وجود حركة سابقة أكثر قدماً (٣) .

ان الله وحده قادر على انجاز عملية خلق العالم الحسي . هذا يعني اذن أن الحركة نفسها ليست قديمة وليست لانهائية . فالله قادر على خلقها وعلى اعدامها — انهاؤها — . وبالأصل انها تنشأ مع الجرم (٤) .

وحين يرى الكندي بأن الزمان متصل ، فانه يعني بذلك « أن له فصلاً (حدّاً) مشتركاً للماضي منه والآتي ؛ وفصله المشترك هو الآن الذي هو نهاية الزمان الماضي الأخيرة ونهاية الزمان الآتي الأولى . ولكل زمان محدود نهايتان : نهاية أولى ونهاية آخرة » (٥) . والحركة ، كالزمان ، لا يمكن ان تكون لانهائية ؛ لأنها ، أيضاً كالزمان ، تمثل إحدى محمولات الجرم . ومجموع هذه الاشكال الوجودية ، الجرم أي الحامل ، ومحمولاته تكتسب وجوداً ، حيثما يريد الله ذلك . هكذا يقرر الكندي اذن : « فللكل محدث اضطراراً عن ليس » (٦) .



والآن ، وبعد عرض جوانب هامة من فلسفة الكندي في « الوجود » الحقيقي والوجود المجازي ، نحاول اختزال وابرار هذه المشكلة من خلال النقاط التالية :

-
- (١) رسالة الكندي في الفلسفة الاولى — نفس المعطيات السابقة ، ص ١٢٢ .
 - (٢) كتاب الجواهر الخمسة للكندي — نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٤ .
 - (٣) على العكس من ذلك تشترط الحركة لدى ارسطو وجود حركة سابقة ، وهذه تشترط وجود حركة اسبق ، وهكذا الى لانهاية . ذلك لان تحريك شيء ما يحتاج حركة وجودها قديم حسب الزمان قدم المحرك الاول الذي لا يتحرك .
 - (٤) انظر : رسالة الكندي في الفلسفة الاولى — نفس المعطيات السابقة ، ص ١١٩ .
 - (٥) نفس المصدر السابق — ص ١٢٢ .
 - (٦) رسالة الكندي في وحدانية الله . . . — نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٠٧ .

أولاً - أن الأرضية المباشرة التي يتحرك عليها الكندي قد تكونت من عناصر مختلفة . إلا أن التصور العام الوجودي كونه الكندي تحت تأثيرات دينية لاهوتية - اسلامية - . فالمشكلة الأصلية التي يطرحها : وهي علاقة الله بالعالم (والانسان من ضمنه) ، هي مشكلة الخلق الديني من عدم اطلاقاً . ففي رأيه أن « قول الصادق محمد صلوات الله عليه وما أدى عن الله جلّ وعز ، لموجود جميعاً بالمقاييس العقلية » (١) . أما الفارق الموجود بين الدين والفلسفة ، أو الحكمة والشريعة ، فإنه يقوم في اختلاف الاسلوبيين المتبعين من قبل كل منهما (٢) . طبعاً ، ينبغي أن نستعيد في اذهانتنا ما كنا قد وجدناه لدى الكندي من انحرافات أولية عن هذا الخط المشار اليه هنا ، وخصوصاً في رأيه حول النفس .

٢ - أن التصور الديني الاسلامي حول الخالق الجبار واللاطبيعي يعبر عن نفسه ثانية في منظومة الكندي الفلسفية وبمفاهيم فلسفية دقيقة؛ بل أحياناً بلغة دينية (٣) . والكندي يسمي «الله» بلغته الفلسفية بـ «الأزلي» و « المطلق » (٤) و « العلة الأولى » (٥) . ولاشك أن تحويلاً أولياً لتصوير «الله» الى مفهوم عن الاله من حيث هو علة أولى، يمكن ملاحظته والتأكيد على ايجابيته ضمن الاطار الفكري الهرطقي . هذا بالعلاقة مع مفهوم الكندي حول « النفس » ، الذي أشرنا اليه فوق .

ب - مع تبني الكندي للتصور الديني حول « الله » ، وإن كان قد حوّلّه ، كما رأينا الى مفهوم فلسفي ، أصبح القول بالخلق ضرورياً . أن خطوة الكندي هذه تمثل عودة الى وراء مقابل آراء افلاطون وارسطو وافلوطين وبعض المعتزلة حول « الله » و « العالم » . إلا أن الكندي نفسه لم يقدر على قيادة وجهة نظره تلك حول الخلق بشكل حازم ودون صعوبات منطقية ، مما جعله يحاول اللجوء ، على نحو واسع كثيراً أو قليلاً ، الى تعليم افلوطين حول « الفيض » ، الذي قدم لاحقاً على يد الفارابي حلاً ممتازاً

(١) رسالة الكندي في الإبانة عن سجود الجرم الاقصى - نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٤٤ .

(٢) انظر : رسالة الكندي في كمية كتب ارسطو طاليس - نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٧٢ - ٢٧٣ .

(٣) انظر : كتاب الكندي في الإبانة عن العلة الفاعلة - نفس المعطيات السابقة ، ص ٢١٥ .

(٤) انظر : كتاب الكندي في الفلسفة الأولى - نفس المعطيات السابقة ، ص ١١٣ .

(٥) انظر : كتاب الكندي في الإبانة عن العلة الفاعلة - نفس المعطيات السابقة ، ص ٢١٩ .

للمسكلات الوجودية المضروحة . وقد تبدى للكندي أن مفاهيمه حول «الخلق من عدم» وحول «العالم» قد انتقدت على هذا الشكل . الا أن هذه المفاهيم سوف تفقد لاحقاً قوتها على نفطية الاحتياجات الفكرية الثقافية والاجتماعية الإنسانية ، وخصوصاً حيثما أخذت عملية التقدم الاجتماعي الاقتصادي والعلمي الطبيعي تكتسب وتائر عميقة .

ان المنطق السببي كان يطرح نفسه بعمق شيئاً فشيئاً على «فكري ذلك العصر ويحثهم على التأكيد على لحظات أخرى من الوجود، لحظات العالم المادي ، والانسان ، والفعل النشيط ، والعقل الفعال ، والحركة الذاتية للعالم المادي الخ ...

ثانياً - ان وجهة نظر الكندي حول «الخلق من عالم مطلق» طبعت مجموع آرائه الفلسفية الأخرى . و «المادة» عولج ، حسب ذلك بشكل «فوقي» وعلى نحو «متأفف» .

٢ - انها ، اي المادة ، لم تكن موجودة دائماً ، لقد خلقت في زمان ما من «العدم» المطلق التهليلي ونتيجة فعل إلهي خارق . وهي تبقى موجودة ، طالما يريد الله لها ذلك (١) . ف «الهيولى» أو «الطينة» لا تشكل المادة الأولى الأصلية التي يمكن أن يتكون منها وعلى أساسها العالم المادي العياني . لك لأن مثل هذه الهيولى «القديمة» غير موجودة أصلاً . ان «الابداع» «الخلق» هو الفعالية الخاصة بالاله ، وليس بشيء آخر (٢) .

ب - اذا كان الزمان والمكان والحركة غير منفصلين عن الجرم ، فهم يشكلون معه اشكالاً وجودية مترابطة نسبياً ، اي نتيجة فعل إلهي غائي سابق . انهم جميعاً لا يحتوون أية لحظة من لحظات الوجود الذاتي . فالذات ، ذاتهم ، ليست أكثر من وجود مجازي أصله الحقيقي كامن في الوجود الإلهي . ان الكندي يعلل ذلك كله بكون الشيء - او العالم المادي - ليس «علة كون ذاته» (٣) .

واذا كان الكندي في رسالة أخرى له يؤكد بأن «ليس في الطبيعة شيء

(١) كتاب الكندي في الابانة عن العلة الفاعلة - نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٣١ .

(٢) انظر : رسالة الكندي في كمية كتب أرسطوطاليس - نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٧٥ .

(٣) كتاب الكندي في الفلسفة الأولى - نفس المعطيات السابقة ، ص ١٢٣-١٢٤ .

عبث وبلا علة « (١) ، فان هذا ينبغي أن يفهم ضمن اطار الكندي الفلسفي العام ، الذي يؤكد على « الله » كعلة أولى وسبب أول للوجود . بالطبع . من الخطأ رؤية هذه المسألة بمعزل عن الصعوبات التي اعترضت الكندي على طريق تبريره لهذه المسألة « الخلقية » . بل ربما يمكننا القول بأننا إن أخذنا استخدام الكندي البسيط للتعليم الفيضي كمخرج من المأزق - هذا الاستخدام الذي برز في رأيه حول النفس - وإن أخذنا هذا الرأي الأخير حول السببية الطبيعية فإننا سوف نجد أنفسنا على حافة التأكيد بأن الكندي في آرائه تلك الأخيرة كان الممهد غير المباشر للفكر المادي الهرطقي **اللاحق الذي طرح** مشكلة الوجود من خلال وحدة مادية متماسكة السى حذر بعيد .

ج - من خلال المفاهيم « الوحدة » و « الكثرة » و « الواحد » و « الكثير » توصل الكندي - هذا اذا لم يؤكد على الجوانب السابقة في فكره والخاصة بالفيض والسببية - الى ثنائية وجودية صارمة . ف « الواحد » الحقيقي ، الذي يسميه الكندي ب « وحدة . . محض » (٢) يضعه في خط متعارض اطلاقاً مع الاشياء الحسية المتكثرة (٣) . والواحد الحقيقي هذا لا صفات له (٤) ، وإن كنا قد اضفينا صفات « سلبية » عليه . انه « مرسل » على نحو مطلق غير مشروط « ولا يقبل التكثير ولا هو المركب ، ولا كثير . . . » (٥) . على العكس من ذلك نجد الكندي يؤكد على الوحدة الجدلية المتبادلة بين الكثرة والوحدة ، ولكن في نطاق العالم المادي الحسي : « فيبقى اذن . . أن تكون الوحدة مشاركة للكثرة أي مشاركة لها في جميع المحسوسات » (٦) . ان هذا التناقض بين كون العالم « الحقيقي » بعيداً عن الكثرة والوحدة وكون العالم « المجازي » مجال الكثرة والوحدة يبرز النزاع الفكري العميق الذي يلف المنظومة الفلسفية الكندية ، نزاعاً بعين الرؤية الجدلية الحية الباحثة بجهد وعناء عن الجوانب المتناقضة والمتصارعة ، ولكن المتواجدة معاً بشكل شرطي من طرف ، وبين التصور الميتافيزيقي البريء من كل حياة وخصب ونمو من طرف آخر . ان هذا النزاع يحتوي مفارقة مذهلة : ان الخصوبة

(١) رسالة الكندي في الابانة عن سجود الجرم الاقصى - نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٥٤ .

(٢) كتاب الكندي في الفلسفة الاولى - نفس المعطيات السابقة ، ص ١٦٠ .

(٣) نفس المصدر السابق - ص ١٤١ .

(٤) نفس المصدر السابق - ص ١٦٠ .

(٥) نفس المصدر السابق .

(٦) نفس المصدر السابق - ص ١٤١ .

والتعدد والحيوية والنمو تنشأ جميعاً عن اللاخصوبة واللاتعدد واللاحيوية-
واللانمو !

أن موقع الكندي في تاريخ الفكر الاسلامي العربي الوسيط أساسي ،
من حيث أنه ، أي الكندي ، أثار بأشكال طريفة وعميقة مشكلة الوجود
بملحقاته . والشيء المهم في ذلك هو أنه جسد ذلك الميل المبكر لطرحه لمشكلات
الوجود بشكل مختلف ، بل متناقض مع الطرح النصي الايماني . هذا بفضل النظر
عن كون الكندي قد توصل الى هذا « الميل » كنتيجة من نتائج الصعوبات
الذاتية المنطقية التي اعترضته خلال محاولاته لايجاد تناسق وتماسك في
وجهة نظره الأساسية حول « الخلق من عدم مطلق » .

الفارابي - الارهاصات المادية الفلسفية

عملية تجاوز الشائعية بين الإله والعالم ، ومجاوزة المادة من عدم

١ - ان الفارابي يقف في صف الشخصيات الفذة في تاريخ الفكر العربي - الاسلامي الوسيط . فقد ساهم بشكل فعال في تعميق خط التقدم للفكر الفلسفي والاجتماعي على وجه العموم . بيد أن دراسة تراث الفارابي الفكري تتحول الى عمل عابث ، اذا لم تتعرض بدراسة لتاريخ هذه الشخصية الفكرية . لقد كتب الفارابي « المدينة الفاضلة » ، فعبّر بذلك عن مرحلة اجتماعية حضارية كاملة ، مرحلة تميزت بتحويلات عميقة في بنى المجتمع العربي - الاسلامي الوسيط - في القرن التاسع .

ان الدولة العباسية ، التي نشأت على اعقاب الدولة الاموية ، احتوت في احشائها اتجاهين اجتماعيين - اقتصاديين ، الاقطاعي والبورجوازي المبكر . كان الأول منهما يزداد عمقاً وشمولاً في حياة المجتمع ، ويذيب بالتالي شيئاً فشيئاً آفاق التقدم البضاعي النقدي ذي السمة البورجوازية المبكرة .

ان هذا الواقع ، الذي اكتسب من خلال عمليات الغزو والتدخل الاجنبي وتأثر سريعة في تطوره ، وقف معارضاً بعنف آفاق تحقيق المطامح الاجتماعية في « العدالة والحرية والاخوة » ، التي طرحتها في حينه الحركات الثورية لجماهير المسحوقين ، مثل حركة الزنج وحركة القرامطة .

ان هذا الواقع الخصب والفني بالآفاق التاريخية اكسب الجهد الفكري الاجتماعي والفلسفي ، الذي انجزه الفارابي على نحو دافق بالتوقعات ، أهمية خاصة وقصوى . فمشروعه في « مدينته الفاضلة » لم يكن في الحقيقة الا « التقاطة » فكرية فذة ، واعية كثيراً او قليلاً لذلك الواقع ، أي محاولة لاعطاء تلك المطامح الاجتماعية في « العدالة والحرية والاخوة » ابعادها النظرية وشرعيتها التاريخية . ان « المدينة الفاضلة »

هي في الاصل - حسب الفارابي - مدينة المسحوقين في المدينة والريف من أرقاء وفلاحين معدمين ، هؤلاء الذين كان لافاق التطور البورجوازي المبكر أن تستوعب مشكلاتهم ، أي أن تمنحها امكانية التحقق .

لقد نشأ الفارابي فقيراً كادحاً في قرية قريبة من مدينة « فاراب » الفارسية ، وذلك في عام ٨٥٠ . وفي دمشق مات ، وقد أصبح « المعلم الثاني » . ان « المعلم الثاني » هذا عاش « ناطوراً في بستان في دمشق ، وكان دائم الاشتغال بالفلسفة ، وكان فقيراً يستضيء في الليل بالقنديل الذي للحارس » (١) .

ان كفاح الفارابي ، الذي عاش في المجتمع العربي - الاسلامي ، أصبح جزءاً أساسياً لا يتجزأ من مكتسبات هذا المجتمع العميقة . وقد اقترن هذا الكفاح من أجل التقدم الاجتماعي والثقافي بمحاولة مرموقة لاقامة صرح فلسفي شامخ .

من ضمن هذا الصرح الشامخ يبرز ، الى جانب مشروع « المدينة الفاضلة » التي أريد لها أن تحقق العدالة والحرية لفاقديهما ، الحل الفلسفي الطريف والخصب بأفاق متسعة لمشكلات فلسفية مبدئية معقدة . هذا يعني بوضوح أن التجديد الفكري الفارابي لا يبرز في اطار المشكلة الاجتماعية فقط ، وانما أيضاً ، وبشكل مترابط ، في اطار مشكلات الوجود و « المعرفة » الفلسفية الأولى .

لقد بدا كما لو ان الجذور الدينية الغيبية والمثالية - الفلسفية - التي اكتسبت على يد الفيلسوف الكندي أبعادها الفلسفية المنظرية ، كما راينا فيما سبق ، قد أثرت على مجمل التطور الفلسفي ، والفكري عموماً ، في الفترات اللاحقة من المجتمع العربي - الاسلامي الوسيط وما بعده . والمقصود هنا بتلك « الجذور » المشكلة الأساسية الدينية ، وهي « الوجود » الالهي وعلاقته بالعالم المادي ، هذه العلاقة التي تحددت ، ضمن التصور الديني ، ب « خلق » العالم المادي من « عدم » محض اطلاقاً بدافع من « الوجود » الالهي ، أو الاله .

بيد ان الصعوبات الخاصة الكبيرة ، التي نشأت وتبلورت في معمعان محاولات البرهنة على التصور الديني ذاك (أي خلق العالم من عدم محض اطلاقاً) ، والتي اعاققت قيادة البرهان على ذلك بشكل منطقي عقلاني حازم ،

(١) ابن أبي أصيبعة : ميون الانبياء في طبقات الاطباء - جزء ٢ ، ص ١٣٤ .

وكذلك حاجات التطور المادي للإنتاج البضاعي المتنامي وللتجارة العالمية الشاملة ، وبالتالي لدور العلوم الطبيعية في الحياة الاجتماعية الانتاجية والثقافية العامة ، ان كل ذلك قد ساهم في تعزيز عملية مجابهة التصور المشار اليه فوق وفي انبعاث اتجاه فكري جديد يمثل آفاق هذه الفترة على نحو معقد ومثير وملهي بالتوقعات ، في آن واحد .

ان ذلك الاتجاه الفكري قد عبر عن نفسه آنذاك من خلال فكرة « الفيض » أو « الصدور » . وفي الحقيقة ، لم تكن هذه الفكرة قد طرحت لأول مرة في كتابات الفارابي الفلسفية، بل انها تتحدث من أصول « افلوطينية » - نسبة الى افلوطين الاسكندراني - وأصول أخرى ، ليست في اسس « افلوطينية » الا انها اكتسبت على يد غارابي ابعاداً جديدة اكسبتها قوة فكرية في منحى هرطقي مادي غير مفصح عنه

ان تبني الفارابي لفكرة « ر » ، من خلال تحويلها في نقاط عدة ، قد أدى رسالة فكرية تاريخية جوهرية تحدت (أي الرسالة) بعملية تجاوز تصور الخلق للعالم المادي من عدم محض اطلاقاً ، هذا التصور الذي منحه الكندي اطاراً فلسفياً متميزاً والذي عمل ، على نحو غير مباشر ومعقد ، على تطويع العلوم الطبيعية ضمن اطر غيبية ، مما أدى - آنذاك - الى الوقوف في وجه عملية تكوين علوم طبيعية مفردة مستقلة ومتميزة نسبياً .

والشيء الذي يستثير النظر بالحاح هو ان تلك المجابهة للتصور المذكور قد انبثقت واكتسبت ابعادها العميقة بدافع من مبدأ « التأويل العقلاني » لمجموع ما يعترض المرء من مشكلات فكرية فلسفية .

والذي حدث هو ان ذلك « المبدأ » في التأويل قد انتصب على يد فريق من المفكرين ، في تعارض واضح قليلاً او كثيراً لتصور « الخلق » ذاك .

ونحن نرى هنا ان العديد من الانظمة والبنى الفلسفية ، التي تكونت آنذاك من قبل مفكرين مختلفين ، قد لامست مباشرة أو على نحو غير مباشر ذلك النزاع حول التصور اللاهوتي للخلق من عدم محض اطلاقاً والمشكلات التي تمخض عنها .

ضمن هذه الدائرة الفكرية نجد المفكرين الآخذين باتجاه مادي هرطقي مبكر قد اكدوا على عنصر التأويل العقلاني وبرزوه بشكل عميق طريف ، وذلك بالعلاقة مع اخذهم ببعض المكتسبات الفلسفية لدى شعوب مختلفة سابقة ومعاصرة لهم .

ان تكون وتبلور اتجاه تأويل عقلاني ساهم في تكوين ايدولوجية مادية هرطقية مضادة للايدولوجية الاقطاعية المثالية الغيبية ، التي كان لها ضمن الوضع السائد آنذاك القيادة الايدولوجية والاقتصادية - الاجتماعية .

كذلك هنالك واقع ينبغي رصده بحذر ودقة ، وهو ذو دلالة عميقة بالنسبة الى فهم التطور الفكري عامة في الدولة العربية - الاسلامية آنذاك . هذا الواقع يقوم على ان التخلي عن تصور الخلق من عدم محض اطلاقاً من قبل مجموعة كبيرة من المفكرين كان قد بحث عن مبرراته ضمن البنية الدينية نفسها ، هذه البنية التي احتوت ، بطبيعة الحال ، مسألة «الخلق» تلك ، من حيث هي جزء جوهري حاسم فيها .

ولقد بدأت عملية تلاشي تصور الخلق ذاك حتى على يدي « الكندي » نفسه ، الذي حاول اصلاً تكريسها والبرهان عليها باشكال مستحدثة ومثيرة الى حد كبير . الا ان الصعوبات المنطقية والفلسفية التي اعترضته على هذا الطريق ، جعلته ، كما رأينا سابقاً ، يبحث عن مواقع قوة للبرهان عليها في فكرة « الفيض » نفسها . ولكن الكندي ظل ، بالرغم من ذلك وبالخط العام الاساسي ، يتحرك ضمن دائرة تصور الخلق ذاك .

اما المفكر العربي - الاسلامي الذي استطاع لأول مرة في الاطار الفلسفي في المجتمع العربي - الاسلامي ان يتنطع لذلك التصور على نحو مفصح وحازم الى حد كبير ، فهو ، كما نرى ، ابو نصر الفارابي .

٢ - ان مسيرة التقدم العلمي والفلسفي معقدة حتى الحد الاقصى . فمن الخطأ التفكير بأن هذه المسيرة تنحو الى امام نحواً مستقيماً ، دون تعرجات ومنعطفات واقنعة والتباسات . ان تفكيراً مثل هذا لاوجود له في الواقع المشخص .

والحقيقة ، ان تاريخ العلم والفلسفة يقتضي من الباحث فيه الحذر الكبير والعميق امام بعض الظواهرات الفكرية التي توحى بمضامين معينة لاتحملها هي اصلاً . وهذا المحذور يكمن في التبسيطية والسطحية لدى بحث مشكلة فكرية ما في تاريخ الفكر .

ومن يحاول تقصي واستخراج الميل الاساسي في المنظومة الفلسفية للمفكر الكبير الفارابي ، يحس فعلاً ذلك التعقيد وتلك الصعوبة خلال القيام بهذه المحاولة . فيجد نفسه امام موقفين : اما ان يأخذ بالتفسيرات

المبسطة السطحية لأفكار الفارابي الجوهرية ، فيضيف بحثاً الى تلك الأبحاث التي لاتحصى والتي قام بها جمهرة من المستشرقين والباحثين العرب . والشئ الذي تتصف به هذه الأبحاث هو أنها تجوزت من خلال البحث التاريخي الفكري الجدلي . فهي تنطلق من ان الفارابي لم يكن أكثر من صدى لرجال الفقه النصيين ، أو لافلوطين ، الفيلسوف الإسكندراني الذي اكسب فكرة « الفيض » الالهي ابعادها الدقيقة .

على العكس من هاتين النظريتين للمسألة ، اللتين تتميزان بالسلفية واللاتاريخية ، نرى بأن الفارابي لأمس ، في مذهبه الفلسفي ، المادية الفلسفية ، وذلك من خلال اخذه بفكرة « الفيض » والدفاع عنها ، ولكن بعد ان أجرى تحويلاً هاماً في نقاطها الأساسية . وهاهنا يكمن الموقف الثاني .

هذا يعني أن ملاحقة تلك الفكرة وكشف آفاقها الفارابية سوف تتأتى عنها ، في نظرنا ، نتائج ضخمة في تأثيرها اللاحق على تكوين الفكر الفلسفي المادي في المجتمع العربي - الاسلامي الوسيط .

ان الفارابي يبني منظومته الفلسفية على أساس عدة مفاهيم أساسية ، اذا أخذت كما هي في ظاهرها ، فانها ربما توحى بضرورة رفض البحث عن منعطف مادي أو ، على الأقل ، عن ارهاصات مادية ضمن تلك المنظومة . اما تلك المفاهيم فهي الوجوب ، والامكان (الضرورة ، والامكانية) ، والصدور ، والوحدة ، والكثرة ، ومفاهيم أخرى .

ان « الموجود الأول » ، أي الاله ، يتصدر العالم على نحو شامل كلي . وحين يعمل الفارابي على تحديد الموجود الأول هذا ، نجده يمتنع عن الحاق أي تحديد أو تعريف منطقي به (١) . ذلك لأنه (أي الموجود الأول) لا يمكن ان يستوعب من قبل الفهم البشري . بيد ان هذا لا يمنع من « تحديده » ضمن مقاييس ومستويات الفهم البشري . هذا يعني ان ذلك التحديد سلبي لا يفصح عن الموجود الأول من حيث هو بذاته ولذاته ، بل من حيث هو لنا .

فهو ، بحسب ذلك ، واحد أحد كمياً وكيفياً : انه « من ان ينقسم اقسام الكمية وسائر انحاء الانقسام أبعد . . . وان كان من جهة كميته فهو واحد من جهة الكيفية . وما لا ينقسم في جوهره فهو واحد في جوهره » (٢) . وهو في « أحديته » هذه يفهم فقط من خلال ذاته . اذ « ان

(١) انظر: الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة - القاهرة ١٩٤٨ ، الطبعة الثانية ، ص ٨ .

(٢) نفس المصدر السابق - ص ٩/٨ .

وحدته عين ذاته «(١) . كما انه عقل من جهة وحدته الذاتية هذه . والعقل عار عن المادة . وهكذا فالموجود الأول ذات واحدة عقلية ، لا يطرأ عليها اضمحلال أو عدم . فيستحيل اذن وجود تمايز داخلي أو خارجي ضمن الذات تلك . هذا يعني انه (أي الموجود الأول) ، في نفس الوقت ، العقل والعاقل والمعقول «(٢) . بالاضافة الى ذلك ، هو مجرد عن أية صورة ، «لأن الصورة لا يمكن ان تكون الا في مادة . ولو كانت له صورة لكانت ذاته مؤتلفة من مادة وصورة «(٣) .

والموجود الأول هذا يتصف كذلك بـ « الضرورة » أو « الوجوب » ، بمعنى ان وجوده ضروري دون أي شرط . وهو ، من حيث هو كذلك ، « سبب أول » «(٤) ليس له نفسه سبب . كما انه غاية نفسه ، ولا يمكن أن نحمله أية مواصفات سوى كونه « الأول » .

لقد استعمل الفيلسوف الكندي في حينه مفهوم « الموجود الأول » ، ولكن ليس بشكل دقيق ومفصّل عنه «(٥) ، كما هو الحال لدى الفارابي .

إن هذا الأخير اعتبر «الموجود الأول» ، الذي هو الاله ، واجب الوجود . وبذلك يميّزه عن الموجودات الأخرى التي دونه في الوجود «(٦) .

إن عرض مفهوم « الموجود الأول » أو الاله لدى الفارابي يقتضي ، من طرف آخر ، التعرّض للموجودات الأخرى ، وبالطبع المادّية من ضمنها . أمّا هذه الموجودات فتوجد على شكل فيوضات عن الاله «(٧) ، الذي هو الموجود الأول . وأول هذه الموجودات الفائضة هو العقل الأول ، وآخرها المادّة أو العالم المادّي .

والشيء المثير بشكل بالغ في عملية الفيوضات هذه يكمن في الحلقة الأولى منها ، أي في « العقل الأول » .

(١) نفس المصدر السابق - ص ٩ .

(٢) نفس المصدر السابق - ص ١٠ .

(٣) نفس المصدر السابق - ص ٣ .

(٤) نفس المصدر السابق .

(٥) نفس المصدر السابق - ص (٢) و (٣) .

(٦) نفس المصدر السابق - ص ٢٤ - ٣٠/٢٥ .

(٧) نفس المصدر السابق ص ١٩ .

فالعقل الأول هذا ، على حدّ تعبير الفارابي ، واجب من حيث
« الموجود الأول » - الله - ، ويمكن من حيث ذاته هو .
والسؤال الملحّ يبرز الآن على النحو التالي : ما هو « مصدر » العقل
الأول هذا ؟ . والإجابة على ذلك هي بالطبع : الموجود الأول - الإله - نفسه .
هنا ، في هذه النقطة الحاسمة في فهم المنحى الأساسي لفكر الفارابي
« الفيضي » ، يأخذ الفارابي موقفاً مخالفاً لموقف الكندي والفلاسفة
اللاهوتيين الآخرين .

فهؤلاء جميعاً ينطلقون من أنّ العالم المادي وجد على سبيل الخلق
من عدم محض إطلاقاً ، وإنه (أي العالم ذاك) بالتالي غير قديم . فهو لم
يكن دائماً موجوداً ، بل قبل وجوده كان « عدم » مطلق . وبالطبع ينبغي
الآن تفهم هذا « عدم » من حيث هو متمتع بـ « وجود » ما على نحو من
الأنحاء . فهو ، أي عدم ، حسب أولئك الفلاسفة ، عارٍ عن الوجود . أي
أنه عدم بالمعنى السلبي . وبطبيعة الحال يفهم أولئك الفلاسفة عملية الخلق
باعتبارها جزءاً أساسياً من ممارسة الإله الذاتية . وهم يتابعون خطّهم
هذا حول الخلق بتأكيدهم على إمكانية العودة الى عدم ، طبعاً اذا اقتضت
إرادة الإله ذلك .

تجاه هذا التصوّر الغيبي اللاهوتي حول العالم المادي ، اختط
الفارابي طريقاً جديداً : ليس هنالك عالم ينشأ ويستلزم مقتضيات وجوده
الأساسية على سبيل الخلق من عدم محض إطلاقاً ، بل عالم يتكون عبر
فيض إلهي .

إن الفيض فعالية مرتبطة ذاتياً بالإله ، ذلك لأنه « جواد وجوده هو
في جوهره ويترتب عنه الموجودات ويتحصل لكل موجود قسطه من الوجود
بحسب رتبته عنه فهو عدل وعدالته في جوهره . » (١) ومن الجدير بالملاحظة
العميقة ما يؤكده الفارابي من أنه « متى وجد للأول الوجود الذي هو له
لزم ضرورة (خط التشديد مني : ط.ت) أن يوجد عنه سائر الموجودات » (٢) .

وهكذا فالفيض عملية ضرورية . ولكن من الأهمية بمكان التأكيد
الملح على أن هذه الضرورة تفهم من قبل الفارابي باعتبارها حرية .
فالموجود الأول ، في الوقت الذي يمارس وجوده على نحو حر وغير مشروط ،

(١) نفس المصدر السابق - ص ٢١ .

(٢) نفس المصدر السابق - ص ١٨ .

كما رأينا سابقاً ، لا يمكن له أصلاً إلا أن يحقق هذا الوجود اللامشروط . فالضرورة إذاً تحتوي على نحو جدلي الحرية أو اللاشروطية . إن الفارابي في هذه القضية يحقق تفهماً عميقاً للعملية الجدلية التي يمارس الإله من خلالها وجوده .

لاشك أنها « جدلية » تستحق الاهتمام من باحثي تاريخ الفلسفة العربية — الإسلامية الوسيطة. وهي جدلية يمكن تسميتها بالسلبية. وهذه قائمة أصلاً على اللاهوت السلبي الذي مارس تأثيراً جدياً في عملية تكوين الفكر المادي الهرطقي (المضاد للذهنية الاقطاعية الغيبية) .

ان الحجة الحسية هنا لا تجد الحد الأول الا المشروط لا يتناقض .

مع الضرورة ، أي ضرورة وجود الموجود الأول على هذا النحو الحر .
والإضافة ، بطبيعة الحال ، لا تلحق إطلاقاً الموجود الأول (١) .

ربما استطعنا كشف تناقض في وجهة نظر الفارابي حول الموجود الأول، هذا التناقض الكامن في اعتبار ذلك الموجود الأول علوياً ودون الإحاطة الإنسانية من طرف ، وفي كون الموجودات المادية ماهي إلا نتاج ضروري لفعالية الموجود الأول من طرف آخر . إلا أن هذا التناقض إذا أخذ على نحو غير ميتافيزيقي ، أي جدلي ، فإنه يصبح مفهوماً في ذاته . وحين ذلك ينحل التناقض على حساب « علوية » و « مفارقة » الإله الإسلامي السني ، ولصالح الإله الفيضي الفارابي .

أما نشوء الموجودات المتعددة والمختلفة عن الموجود الأول فإنه يتم على نحو تراتب هرمي . فمن الموجود الأول، الذي يعقل ذاته بشكل دائم وكلي، يفيض العقل الأول . وهذا العقل الأول يعقل ذاته كما يعقل الموجود الأول . ولكن في الوقت الذي يكون فيه العقل الأول بسيطاً كالوجود الأول ، فإنه بالرغم من ذلك لا يكفي ذاته بذاته . فهو بالنسبة الى ذاته ممكن ، بينما هو بالنسبة الى الموجود الأول واجب . إن هذا التمايز الوجودي في العقل الأول يتضمن ، ككل الموجودات الفائضة الأخرى ، الحقيقة ، وهي أن الموجود الأول ، من حيث هو كذلك ، يوجد فقط في تحقق دائم (٢) : « ولا يمكن أن يكون له وجود بالقوة ولا على نحو من الأنحاء . ولا إمكان أن لا يوجد ولا

(١) نفس المصدر السابق — ص ٢٣ .

(٢) نفس المصدر السابق ص ٣ .

بوجه من الوجوه . فلهذا هو أزليّ دائم الوجود بجوهره وذاته (١) .
والآن ، حيث يعقل العقل الأول الموجود الأول ، يفيض العقل الثاني . بينما
حين يعقل العقل الأول ذاته ، تفيض السماء الأولى . أما العقل الثاني فهو يعقل
من طرفه الموجود الأول ، وحين ذاك ينشأ (يفيض) عقل ثالث . وحين
يعقل ذاته ، تتكون كرة الكواكب الثابتة .

إن هذه الفعالية الفيضية تمتد حتى تصل الى العقل الحادي عشر ،
الذي هو القمر (٢) .

إن كل هذه العقول ، التي هي في الحقيقة عشرة ، وتصيب إحدى عشر
بإضافة الموجود الأول ، هي عارية ، كالموجود الأول ، عن المادة والصورة ،
أي عن « الجسمية » (٣) . كذلك هي عارية عن العدم والفساد وليست
منعزلة لاحتواء التناقض ، لأن هذه الصفات تلحق فقط الموجودات التي
توجد في عالم ما تحت القمر (٤) . فهذه العقول تتميز عن الموجود الأول بكونها
توجد فقط في حالة الإمكان باعتبار ذاتها ، بينما هو (أي الموجود الأول)
يوجد دائماً في حالة التحقق والضرورة باعتبار ذاته . أما الأجسام السماوية
فإنها تشبه الموجودات الهيولانية (المادية) بكونها ، كالصور ، تملك موضوعاً ،
أي مادة . أما اختلافها عن الأجسام ما تحت السماوية فإنه يكمن في كون
صورها وموضوعاتها عارية عن التناقض وغير مرتبطة بالفساد (٥) . وكذلك
موضوع « كل واحد منها لا يمكن أن يكون قابلاً لغير تلك الصورة ولا يمكن
أن يكون خلواً منها ولأن موضوعاتها وصورها لا عدم فيها بوجه من الوجوه
ولا لصورها امدام تقابلها فصارت موضوعاتها لا تعوق صورها أن تعقل وأن
تكون عقولاً بذاتها » (٦) .

إن الفارابي يسمي العقول « الأشياء المفارقة » ، بينما الأشياء التي
لها مادة وصورة والتي توجد تحت القمر ، فإنه يسميها بالأجسام
الهيولانية . وهذه « الأجسام » تكون موضوع بحث هام يدخل في نطاق
عملنا هذا .

(١) نفس المصدر السابق - ص ٢ - ٣ .

(٢) نفس المصدر السابق - ص ٢٤ - ٢٥ .

(٣) نفس المصدر السابق .

(٤) نفس المصدر السابق - ص ٢ .

(٥) نفس المصدر السابق - ص ٣٢ .

(٦) نفس المصدر السابق - ص ٣٢ .

ان انطلاق الفارابي من فكرة « الفيض » حدد على نحو مبدئي موقفه من « المادة » . ولقد رأينا أن الموجود الأول ، الذي يحتوي فعالية الفيض في ذاته من حيث الذات أي ان وجوده الذاتي يتحدد بكونه فياضاً بشكل سخي معطاء ، ان هذا الموجود الأول هو ينبوع الوحيد المبدع لمجموع الموجودات « كاملة » كانت أو « ناقصة » . اما هذه الموجودات « الناقصة » المادية فتقيم وجودياً (انطولوجياً) من الأعلى الى الأدنى : « فأخسها المادة الأولى المشتركة والافضل منها الاسطقسات ثم المعدنية ثم النبات ثم الحيوان غير الناطق وليس بعد الحيوان الناطق افضل منه » (١) .

ان كل الموجودات من هذا النوع المادي (الهيلواني) تتكون من قطبين أساسيين مشروط وجودهما على أساس متبادل ، هما المادة والصورة . أما وجودهما القائم على أساس علاقة متبادلة فهو كذلك بمعنى أن الواحد منهما يؤثر على الآخر ويتأثر به بدوره . فالصورة « لا يمكن ان يكون لها قوام ووجود بغير المادة » فالمادة وجودها لاجل الصورة ولو لم تكن صورة ما موجودة لما كانت المادة » (٢) .

في هذه العلاقة (الوحدة) الانطولوجية الجدلية نجد تعبيراً دقيقاً لاتجاه فارابي كمن في تجاوز ارسطو بالنسبة الى علاقة المادة بالصورة كما فهمها في حينه . والحقيقة ، اننا عشنا اتجاه التجاوز لارسطو في هذه المسألة حتى لدى الكندي . ولكن بالرغم من هذا تبقى نقاط أساسية يلتقي بها « الاله » الارسطي بـ « الموجود الاول » الفارابي . فكلاهما ذو طبيعة عقلية (روحية) لا يلحق به فساد او نشوء ، ولا يلحق به شيء من الاعراض الهيلوانية . ان هذه النقاط تكون أيضاً موضوع لقاء مع « المؤسس - الخالق » الكندي . طبعاً ، ان التأكيد على نقاط اللقاء تلك يغض النظر عن طبيعة العلاقة بين الاله والعالم المادي في رأي اولئك الفلاسفة الثلاثة . ففي اطار هذه العلاقة نجد الفارابي قد تخطى الكندي على أساس انه رفض الثنائية الكندية بين الاله والعالم المادي والحق على اتجاه وحدة الوجود بمجموع ومختلف اشكاله وانحائه . فمما لاشك فيه ان عقد رباط وثيق بين المادة (العالم المادي) والموجود الاول ليس فقط على أساس علاقة سببية بين كلا الطرفين ، وانما أيضاً على أساس علاقة وجودية ، نقول ، ان عقد

(١) نفس المصدر السابق - ص ٢٨ - ٢٩ .

(٢) نفس المصدر السابق - ص ٢٧ .

ذلك الرباط كان خطوة مرموقة على طريق ازالة ، او على الاقل ، اضعاف
الثنائية الكندية تلك .

وهكذا يستبين لنا بوضوح خطل الرأي القائل بأن الفارابي ، بالرغم
من أخذه بالموجود الأول الفيضي ، قد مثل في منظومته الفلسفية وجهة
النظر الدينية القائمة على القول بعالمين ، واحد اعلى « مفارق » وعلوي ،
وآخر أدنى ومحسوس . ذلك لأن الموجودات المتعددة والمتخلفة ، ابتداءً
بالموجود الأول وانتهاءً بعالم ماتحت القمر الهيلواني ، توجد من حيث هي
تكون عالماً واحداً . اي ان التمايز بين الموجودات تلك تمايز في الدرجة
الذاتية ضمن اطار وجودي شامل واحد .

ان الفارابي يقرر ، متبعاً في ذلك ارسطو ، أن كل واحد من تلك
الموجودات يكتسب وجوداً بالفعل حينما يحصل على صورته . هذا يعني
أنه « مادامت مادته موجودة دون صورته فانه انما هو ذلك النوع بالقوة » (١) .
وعن هذا يستنتج الفارابي ، متبعاً في ذلك مرة أخرى ارسطو ، ان المادة في
شيء ما تمثل ، لذلك ، النقص ؛ بينما الصورة ، على العكس من ذلك ،
تمثل الكمال (٢) . وهذا يعني اننا « اذا فارقنا المادة على التمام يصير
المعقول منه (أي من الموجود الأول) في اذهاننا أكمل ما يكون » (٣) . سوف
نرى لاحقاً ان الفارابي ، بالرغم من موقفه هذا من « المادة » ، لم يطرح المسألة
بالدرجة الأولى على نحو « اخلاقي » ، وانما على نحو « انطولوجي » ، وذلك
على العكس مما فعله « افلوطين » بالنسبة الى هذه المسألة ، حيث اعتبر
المادة الشر اطلاقاً بالمعنى الاخلاقي .

ان تلك النقطة تبرز حقيقة ان الفارابي لم يتبن فكرة الفيض الافلوطينية
بشكل غير نقدي ، بل انه فعل العكس من ذلك . فقد اكتسبت على يده
تطوراً ملحوظاً .

ان هذا التحول يظهر في النقاط الأساسية التالية :

الأولى منها هي ما ذكرناه فوق فيما يخص موقف الفارابي وافلوطين
من المادة كواحد من الموجودات الصادرة عن الموجود الأول . فتحت

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) نفس المصدر السابق - ص ١٥ .

(٣) نفس المصدر السابق .

التأثير الارسطي الاسلامي الذي تركز في فكرة « الاوساط » (١) ، نرى الفارابي يرفض القول بالمادة باعتبارها الشر اطلاقاً الذي اخذ به افلوطين (٢) ، فيرى فيها شكلاً من الاشكال الوجودية الطبيعية والضرورية . ان الحياة الحضارية الدافقة في المجتمع العربي - الاسلامي الوسيط كانت الخلفية العميقة لرفض الفارابي المفهوم الافلوطيني حول المادة كبؤرة مكثفة للشر . فالتقدم الاجتماعي الاقتصادي والعلمي آنذاك مارس تأثيراً عميقاً على الفهم الفلسفي للمقولات الفلسفية الأساسية . وفي الحقيقة ، بمزج عن أخذ واقع ذلك التقدم بعين الاعتبار يصبح عسيراً التوصل الى وضوح حول رأي الفارابي هذا .

وعن هذه المسألة تتحدد مواقف الفارابي من قضية المادة - الصورة . فالمادة ، التي تعتبر في نظر افلوطين اللاموجود المنفعل والسلبى والذي يمكن للصورة ان توجد عارية عنه ، نجدها في علاقة صميمية ضرورية مع الصورة . فلا يمكن لهذه الأخيرة ان تكتسب وجودها الحقيقي الا من خلال المادة . فالمادة تتمتع بوجود حقيقي ، كما هو الأمر بالنسبة الى الصورة ، سواء بسواء . فهي مثلاً خشب السرير أو معدن الخاتم ، بغض النظر عن كونها اقل درجة من الصورة . والمهم في ذلك هو ان « الامكان » أو « القوة » له وجوده الحقيقي . ان الفارابي يخط بذلك طريقاً ضيقاً مشى عليه لاحقاً مفكرون بارزون ، عملوا بدورهم على تعميقه واكسابه مضامين أكثر شمولاً ودقة .

لقد كتب الفارابي ، متجاوزاً ارسطو نفسه : « والصورة وجودها لا لتوجد بها المادة بل ليحصل الجوهر المتجسم جوهرأ بالفعل » (٣) ، ذلك لان المادة ، من حيث هي امكان ، لها أيضاً « وجودها » .

ان الفارابي لم يندر ظهوره لك « مادة » ، وانما واجهها بصدره من خلال تفهم دنيوي يطرح الروح الى جانب المادة بشكل وثيق . انه يعيش دنياه « كأنما يعيش ابدأ ، وكأنما يموت غدا » . هذه الرؤية الوسطية للمسألة تكتسب في فترات لاحقة وعلى أيدي ممثلي الفكر المادي الهرطقي طابعاً أكثر افصاحاً في ماديته وهرطقته .

ان « دنيوية » الفكر الفارابي المتعارض مع تصور الخلق من عدم

(١) يقول « النبي » محمد : ان لجسمك عليك حقاً .

(٢) افلوطين : التاسوعات - نفس المعطيات السابقة ، مجلد ١ ، ص ٦٣ .

(٣) الفارابي : آراء اهل المدينة الفاضلة - نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٧ .

محض إطلاقاً ومع تصور الاله المفارق العلوي ، اي المسيل المادي الفلسفي لدى الفارابي ، لا يبرز فقط في اطار مشكلات الوجود الاساسية الكلية، على النحو الذي اوردناه فوق ، بل أيضاً في اطار الفهم الاجتماعي التاريخي . ففي آرائه حول نشوء وتطور المجتمع ملامسات عميقة للفكر المادي الاجتماعي . فهو يرى « أن اجزاء المدينة مفعورون بالطبع بفطر متفاضلة يصلح بها انسان لانسان لشيء دون شيء . غير أنهم ليسوا اجزاء المدينة بالفطر التي لهم وحدها بل بالملكات الارادية التي تحصل لها وهي الصناعات وما شاكلها » (١) . في نظريته المادية التاريخية الاولى هذه ، التي يؤكد من خلالها على أهمية دور العامل الاجتماعي - الصناعي الاقتصادي - في عملية وجود وتطور المجتمع الانساني ، يعارض الفارابي ، في آن واحد ، اللاعقلانية الافلوطينية الضبابية فيما يخص « المادة الاجتماعية » ، وفكرة الفيض نفسها في مبدئها الاساسي القائم على انبثاق وانبلاج (فيض) المادي عن الروحي ، أي الوجود الأول . وربما استطعنا فهم الجانب الأخير هذا من المسألة من زاوية أن الفارابي قد اكسب فكرة الفيض من خلال « ماديته » الاجتماعية مضموناً جديداً : وحدة وجود مادية . ان هذا يشكل قضية بارزة في فهم تراث الفارابي الفلسفي . فنحن هنا نمثل الرأي بأن التحويل العميق الذي أجراه الفارابي في فكرة « الفيض » كمن من ورائه بالدرجة الأولى موقفه الاجتماعي التاريخي السياسي . ان المنحى المادي الهرطقي لدى الفارابي انطلق من رايه بأن الانسان الاجتماعي ليس « فطرياً » وبأن ليس هنالك من انسان مطلق فوق المجتمع والتاريخ ، بل انه نتاج تلك الملكات الارادية التي تحصل (له) ، وهي الصناعات وما شاكلها .

ولا شك ان ابن خلدون قد استفاد من فكر الفارابي الاجتماعي المادي هذا ، واستطاع على هذا الأساس وعلى أساس مكتسبات مفكرين آخرين اقامة بنية فكري ضخمة .

ان الفارابي قد حدد الوجود الأول أيضاً من حيث هو « جوهر واحد غير منقسم » (٢) . تلقاء هذا الجوهر الذي لا ينقسم يضع الفارابي الاشياء (الموجودات) والأعراض الهيولانية . في إطار المسألة هذه يوجد الوجود

(١) نفس المصدر السابق - ص ٨٠ .

(٢) نفس المصدر السابق - ص ١١ .

الأول خارج الزمان ، أي انه هو كذلك من حيث هو خاضع لتحديد زمني (١)، وبالتالي غير خاضع لإطار مكاني ، ذلك لأن الأجسام الهيولانية تحقق وجودها في مثل ذلك الإطار .

ان الزمان والحركة والمكان الى جانب اللانهاية والعدم تشكل موجودات ناقصة (٢) . انطلاقاً من هذا الواقع يعتبر العالم المادي عالم النشوء والفساد (الاضمحلال) . وهو، من حيث هو كذلك ، نهائي . بيد أن مفهوم اللانهاية يستخدم من قبل الفارابي على نحوين . فهو (أي الفارابي) بالرغم من انه يستخدم ذلك المفهوم ، كما رأينا ، بمعنى الوجود الناقص ، فإنه يحدد الموجود الأول الكامل إطلاقاً من حيث هو « غير متناه في الزمان » (٣) .

ونحن إن أخذنا المسألة في مظهرها الخارجي ، فإننا سوف نقر وجود تناقض في طرح الفارابي ذاك لمفهوم اللانهاية . بيد أن تناقضاً من هذا النوع يتلشى على يدي الباحث الأخذ الأمور في جوهرها : فحين يعتبر الفارابي الموجود الأول المطلق في كماله لانهاية ، فإن هذه اللانهاية تفهم بمعنى أن ذلك الموجود الأول هو حقاً « الأول » و « الأخير » ، أي السبب الأول و « الأخير » . انه لانهاية وخالد . لكن هذه اللانهاية هي النهائي ، الأخير ، انها حسب الزمان والكمال النهائية . وهكذا يتلشى التناقض السوهمي ذاك ، ويبقى الموجود الأول نهائياً - أخيراً - .

والآن ، مما لا شك فيه ان الفارابي قد اعتبر المادة ناقصة ، كما رأينا سابقاً ، بالرغم من انه يتميز في هذه المسألة بشكل واضح عن أفلوطين . فهي (أي المادة) تلاحق هدفها الداخلي في التكامل بشكل لانهاية . بيد أن بلوغها الكمال المطلق يبقى خارجاً عن نطاق ذاتها . إنها قادرة على الطموح في بلوغ ذلك بشكل لانهاية ، ولكنها غير قادرة على تحقيق ذلك . بهذا المعنى نجد جوهرها الوجودي (الانطولوجي) والذاتي لانهاية . إن هذا هو النتيجة المنطقية التي يمكن سحبها من كلا المقولتين المتعارضتين الفارابيتين ، الكمال والسلاكمال .

لقد عرضنا فيما سبق بعض الجوانب الرئيسية في فكرة الفيض في نسيجها الفارابي ، وعملنا في سياق ذلك على إبراز النقاط التي ميزت عملية

(١) نفس المصدر السابق - ص ١٧ .

(٢) نفس المصدر السابق - ص ٣٤/١٣ .

(٣) نفس المصدر السابق - ص ١٧ .

التحويل العميقة لتلك الفكرة، كما كانت واردة عند أفلوطين. ومن الضروري محاولة الكشف عن النقاط الأخرى المماثلة ضمن عملية التحويل الفارابية تلك.

فمن الجدير بالذكر وبالاتباه العميق عملية الفيض في تسلسلها الهرمي، كما طرحها الفارابي خصوصاً في « مدينته الفاضلة ». فمن ينفذ إلى جوهر هذه العملية، يلاحظ حساً تاريخياً عميقاً في فهم الفارابي لعملية تراتب الموجودات الفائضة عن الموجود الأول.

فالقضية التي تبرز هنا تكمن في كون الفيض الفارابي عملية توالد ذاتي تاريخي. والأمر لا يقتصر على تاريخية الفيض، وإنما تمتزج هذه التاريخية بإرهاصات مادية هرطقية تحتويها الإجابة على السؤال التالي: ماهو مصدر « الإمكان » أو « القوة »، التي يعتبرها الفارابي واحداً من الأشكال الوجودية الثلاثة الأساسية؟ فمن المعروف أن الفارابي يستخدم ثلاث مقولات فلسفية للإحاطة بكل أنحاء الوجود، وهي الوجوب، والإمكان، والوجوب والإمكان مأخوذين معاً. فحسب ذلك يحتل الموجود الأول وجوداً واجباً. فهو موجود أبداً من حيث هو واجب الوجود^(١). أما العقول العشرة التي تفيض عنه فهي تعبر عن نفسها من حيث هي واجبة الوجود بغيرها، أي بالموجود الأول، وممكنة الوجود بنفسها.

وأخيراً المادة التي توجد حسب الإمكان أو القوة. والتساؤل المشروع والملح يفرض نفسه في هذه الحال حول « أصل » الإمكان والوجوب في علاقتهما بالعقل الأول.

ولاستيعاب دقيق لهذه المسألة، علينا أن نؤكد مرة أخرى على أن « العقل الأول » يفيض عن « الموجود الأول ». أما تتابع الفيض فإنه يتم من خلال تعقل العقل الأول للموجود الأول، حيث ينتج عن ذلك العقل الثاني، ومن خلال تعقل العقل الأول لذاته، حيث تنتج السماء الأولى.

والآن نبلغ نقطة جوهرية وحاسمة في تحديد ذلك « الأصل » للإمكان والوجوب، أو بشكل أخص، للإمكان الذي تتحدد من خلاله المواصفات الجوهرية للعقل الأول.

إن الفارابي، الذي يحدد الموجود الأول من حيث هو أول على وجه

(١) ان الصورة توجد أيضاً حسب الوجوب أو التحقق. بيد أن الوجوب هنا لا يخص مقولة الوجوب في العقل العلوي من الوجود، هذا العقل الذي يتميز بكونه فقط اطار الوجود الإلهي.

الإطلاق ، رأى نفسه مرغماً بشكل أو آخر على أن يرى في هذا الموجود الأول ذاته وجوداً لموجود ثانٍ . في الحقيقة ، لم يكن للفارابي أن يسلك طريقاً آخر غير هذا الطريق لتجريب « نشوء » الكثرة . وإذا كان الموجود الأول ، من حيث هو وجوب ، أعلى وأفضل من العقل الأول الممكن ، فإن هذه الأفضلية يمكن بسهولة إقرارها كأفضلية ذاتية . ولكن هل لنا أن نقرأها أيضاً حسب الزمان ، أي حسب القبل والبعد ؟ وبتعبير أكثر إفصاحاً نتساءل فيما إذا كان الموجود الأول أقدم زمانياً من العقل الأول . إن من يحيط بالخيط الأساسي في منظومة الفارابي الفلسفية على نحو دقيق ، لا يسهه إلا أن يرفض الإجابة على ذلك التساؤل بشكل إيجابي تقريرياً .

إننا نجد أنفسنا هنا مرغمين على القول - منساقين في ذلك مع الفارابي - بأن ليس هنالك من سبق زمني للموجود الأول بالنسبة إلى العقل الأول الممكن ، هذا بالرغم من أننا لانرفض القول بأفضلية ذاتية للأول على الثاني .

وهنا يبدو كما لو كانت المسألة قد وجدت حلها النهائي، وكما لو أصبح الباحث في الفارابي على شاطئ الحل ذلك . إلا أن هذا ، في رأينا ، ليس كذلك . فنحن ، حيث انطلقنا في البدء من أن الفارابي قد أثار في أخذه لفكرة الفيض مشكلات عميقة وفتح آفاقاً فكرية رحبة خصبة لتطوير مادي هرطقي لاحق ، نجد أنفسنا هنا أمام تفسيرين للعلاقة القائمة بين الموجود الأول والعقل الأول . وكلا هذين التفسيرين يمكن اعتبارهما خلفية خصبة لتطوير مادي هرطقي لاحق .

فمن طرف أول نستطيع تفسير العلاقة تلك على أساس القول بقديم « المادة » (بمعنى العالم المادي الشامل) إلى جانب القول بقديم الإله (أي الموجود الأول) .

وفي هذه الزاوية من النظر يصبح « العقل الأول » نفسه الاصل البعيد للعالم المادي ، أو المادة الأولى التي انبثق عنها العالم المتعين . وبالطبع ، أن الأخذ بهذا التفسير يشير إلى أن الفارابي قد تأثر في رأيه هذا بأفلاطون وأرسطو . أما ضرورة الأخذ به من قبل الباحث في منظومة الفارابي الفلسفية فإنها ربما تبرز كمحاولة لتثبيت « الواحدة » لدى الموجود الأول وعدم المساس بها . ذلك لأن القول بوجود واحد أحد يخلق صعوبة أمام حل مسألة العلاقة بين « الروحاني » و « المادي » و « الوحدة » و « الكثرة » في حال الأخذ بتصور الخلق للعالم « المادي » من عدم محض إطلاقاً . فإن

تقول بعالم مادي له أصله البعيد في مادة قديمة بجانب عالم روحاني (الهي) قديم ، يبعد الإشكال الذي ينشأ عن القول بعالمين ينشأ أحدهما عن الثاني ، في الوقت الذي ينتفي فيه وجود تجانس ذاتي بينهما .

هذا من ناحية التفسير الأول . أما التفسير الثاني فيقوم على التأكيد على فكرة الفيض كحل لمسألة العلاقة بين « الوحدة » و « الكثرة » . إذ ينتفي ، على هذا الطريق ، القول بوجود عالم « مفارق » وآخر « عياني » . فهناك عالم واحد يتضمن الوحدة والكثرة على نحو جدلي : تضمن الوحدة للكثرة ، والكثرة للوحدة . والذي يبدو من كلا التفسيرين أن التصور حول الخلق من عدم محض إطلاقاً لم يعد له مكان في البناء الفلسفي الفارابي .

ان العلاقة بين « الوجوب - الموجود الأول » و « الامكان » قد احتوت في الاطار الفارابي تساؤلات وافافاً خصبة . وهي ، في حليها الاثنين ، وقفت في تعارض واضح مع التصورات اللاهوتية النصية . ان « الفيض » الفارابي كان جلاً فلسفياً هاماً جداً ضمن الاطار التاريخي الذي جاء فيه . و « المادة » ، التي حوول تفسير وجودها من قبل الكندي على ذلك النحو النصي ، تجد ذاتها هنا لدى الكندي إما في شكل « الامكان » القديم قدم « الوجوب - الموجود الأول » وإما في شكل « العالم الواحد » القديم . ان « المادة » ، التي عوملت على يدي افلوطين والكندي كما تعامل الخالة زوجة الاب طفل زوجها ، ارتفعت هنا في منظومة الفارابي الفلسفية الى مصاف العالم « القديم » ؛ هذا بالرغم من ان الفارابي لم يقل ذلك لفظاً .

ان اعتبار « الامكان » قديماً قدم « الوجوب » من حيث الزمان ، وان كان أقل منه ذاتاً ، سدد صفة الى فكرة الثنائية في الوجود ، كما عمل عمل التخميرة المعطاة على تكوين نظرية ابن سينا حول « المادة » . فكما سنرى ، تأثر ابن سينا في نظريته تلك برأي ارسطو حول المادة . ولكن هذا تم بغلاقة وثيقة مع التأثير الذي مارسه الفارابي على ابن سينا في هذه المسألة . بهذا بمعنى ان تخلي الفارابي عن « خلق » العالم المادي فتح الطريق واسماً أمام ابن سينا ليعطي هذا التخلي بعده الواضح والصريح .

والجدير بالذكر والانتباه العميق ان الفارابي افسح للفكر المادي الهرطقي طريقاً عريضاً أيضاً من خلال اخذه بفكرة « الفيض » ضمن زاوية

تاريخية جدلية . ان عملية « الخلق » النصية ترتد الى وراء مفسحة الطريق لعملية « فيض » تتم عبر فيوضات لها تراثها الذاتي والتاريخي ، وليس عبر فعل مفاجيء . وما سوف يسمى لاحقاً على يد الغزالي « بتراخي مفعول الفاعل عن ارادته » ، الذي هو الصياغة الفلسفية لعملية الخلق من عدم محض اطلاقاً ، يرفضه الفلاسفة الماديون الهراطقة ضمن المجتمع العربي - الاسلامي الوسيط ، مدعومين في ذلك من قبل ارسطو والفارابي .

وفي الوقت الذي ينطلق فيه الفارابي من ضرورة فيض الاشياء كلها عن الموجود الأول ، يفقد هذا الأخير وجوده لذاته بشكل علوي مفارق . بل اكثر من ذلك ، ان وجوده لذاته يصبح وجوده للعالم ؛ فهو لحة هذا العالم و « حركته - عقله » الخاصة الذاتية . والتحدث عن وحدة ذات يتمتع بها الموجود الأول تلقاء الموضوع (الذي هو العالم المادي) تتلاشى ، اذ تحل محلها وحدة الذات بالموضوع ، أو الوجود الواحد .

وهنا لابد من التنويه بان هذه المسألة (الوجود الواحد ، أو وحدة الذات والموضوع) قد اسهمت ، الى جانب عوامل أخرى ، في تكوين الملامح العامة الاساسية للتصوف الاسلامي ، الذي عارض الثنائية الدينية (اله - عالم) بوحدة وجود (ذات وموضوع) .

لقد تأثر الفارابي في عمله الفلسفي بكتاب « الربوبية » ، الذي عرف في حينه على أنه من وضع ارسطو ، وما هو في الحقيقة الا جزء من « تاسوعات » افلاطون . كما تأثر بـ « طيماوس » لافلاطون . وفي محاولته الفاشلة توحيد افلاطون مع ارسطو في آرائهما الاساسية ، لم يستطع الفارابي الوصول الى نتائج حقيقية ، لأن مقدمته غير صحيحة اصلاً . وهو في خلال ذلك رفض مقولة ارسطو حول قدم المادة (العالم) باسم الكتاب الارسطي المزيف المشار اليه فوق (١) . الا انه استطاع ، كما جاء في عرضنا ، تحقيق خطوة نهائية في الذكاء والتعقيد ، انقذ من خلالها على نحو أولي فكرة قدم المادة ؛ أو بشكل أدق ، عمل من خلالها (خلال تلك الخطوة) على رفض « خلق » المادة . ومما لاشك فيه ان محاولة الفارابي تلك « التوحيد بين الحكيمين » تمثل من الناحية الذاتية عملاً فكرياً تعسفياً . الا انها ، بالرغم من ذلك ، شكل من أشكال الالتباسات التاريخية . بل اننا نرى فيها ، اكثر من ذلك ، خطوة لا مندوحة عنها في حينه . والمقصود بذلك هو ان الفارابي حتى لو

(١) الفارابي : كتاب الجمع بين آراء الحكيمين ، نفس المعطيات السابقة ، ص ١٠٠-١٠٤ .

استطاع اكتشاف حقيقة كتاب « الربوبية » ، لبقى في موقفه المتحفظ من قضية قدم العالم بصياغتها الارسطية ، لكون الوضع الفكري العام لسم يتها بعد للأخذ بها بدون غممة أو جذر . ويذكر البير نصري نادر « ان المراجع التي اعتمد عليها الفارابي (في محاولته تلك) عديدة . . . والغريب في الأمر ان الفارابي ضرب صفحا عن كل هذه المراجع التي يذكرها عدة مرات في رسالته ، وتقييد بفكرة كانت قد رسخت عنده وهي انه لا يمكن ان يكون اختلافا جوهريا بين امامي الفلسفة اليونانية « (١) . ان مجابهة تصور « خلق » العالم عن عدم محض اطلاقا لم يكن لها ان تنسب آفاقها وابعادها آنذاك على نحو أفضل مما طرحه الفارابي في فكرته عن « الفيض » . هذا يعني ان التصدي لذلك التصور النصي بافصاح وعمق أكثر كان من المهمات الفلسفية الجريئة التي طرحها امام أنفسهم الفلاسفة اللاحقون ، وابن سينا في زيادتهم .

ان التعدد الخصب والعمق الرحيب في عالم الفكر سوف نحسهما عبر دراستنا للامح الفكر المادي الهرطقي اللاحق في المجتمع العربي - الاسلامي الوسيط .

والذي نرى ضرورة التأكيد عليه أخيراً يكمن في ان « . . الأول هو الذي عنه وجد (العالم) ومتى وجد للأول الوجود الذي هو له لزم أن يوجد عنه سائر الموجودات » (٢) . ان تأكيدنا على ذلك له مبرره العميق ضمن اطار التقدم الفكري الفلسفي في المجتمع العربي - الاسلامي الوسيط . فالأول حيث يوجد ، يوجد العالم . انه وجود واحد متلازم تلازم العلة والمعلول . في هذا القول ملامح مثيرة لمذهب وحدة الوجود الذي سينفني حتى الحد الأقصى من قبيل ابن سينا وابن رشد لاحقاً : فالعالم هو واحد ؛ وفي وحدته هذه يوجد العالم هذا كعلة وكمعلول لذاته هو نفسه . هاهنا نجد انفسنا على حدود ابن سينا الفلسفية الفسيحة .

(١) نفس المصدر السابق - ص ٧٨ .

(٢) الفارابي : آراء أهل المدينة الفاضلة - نفس المعطيات السابقة ؛ ص ١٨ .

ابن سينا - التحوّل الجذري لمفهوم أرسطو عن المادة

ثورة عميقة فعالة في عملية تجاوز النشائية «مادة - صورة» و«إله - عالم»

١- ابن سينا إحدى الشخصيات البارزة والشرقة في تاريخ الفكر العربي - الإسلامي الوسيط . ولد في عام ٨٩٠ في « أفغانه » بالقرب من خرميشن . ولقد وُحِدَ في شخصه على نحو فذ العالم والسياسي . إن مسيرة حياته ، التي يعرضها لنا ابن أبي أصيبعة في كتابه « عيون الانباء في طبقات الاطباء » ، ترينا قوته الابداعية العملاقة وعزمه على اقتحام كل الحقول المعرفية وكشف خباياها . وهكذا تبدو لنا الروح « الفاوستية » (١) مجسدة بعمق في شخصيته كممثل كبير للتقدم الفكري الفلسفي ومدافع تغمره القناعة والحماسة عن ذلك التقدم في المجتمع العربي - الإسلامي الوسيط . وقد بلغ التطور العلمي والفلسفي آنذاك على يده مرحلة عالية ، بقيت آثارها - وخصوصاً من خلال كتاب « القانون » - ممتدة حتى العصر الحديث الاوربي .

وقد احتل مفهوم « المادة » و « العالم المادي » مكاناً رئيسياً في تراث ابن سينا الفلسفي . بل إن الاحاطة بابن سينا نفسه كمفكر فلسفي لا يمكن القيام بها بمعزل عن تقصي وكشف أبعاد وآفاق ذلك المفهوم لديه .

في الوقت الذي ادار فيه ابن سينا ظهره للنصية في فهم مشكلات الوجود ، اعتمد بشكل أساسي على ارسطو في آرائه حول العالم المادي وتابع بالتالي الخط الذي بداه الفارابي في حقل المجابهة لفكرة « الخلق » من عدم محض اطلاقاً ولما ينتج عنها من مواقف أخرى، كالموقف من « الحركة » و « العناية » و « العلوية » و « المفارقة » ...

ولقد اشتد النزاع في عصر ابن سينا بين الفكر المادي الهرطقي وبين

(١) نسبة الى « فاوست » بطل مسرحية غوته المسماة باسمه . وفاوست هذا يتميز بطموحه الهائل في الاحاطة بكل شيء في العالم .

النصية . كما اكتسب اشكالا جديدة متشعبة . وابن سينا نفسه كان احد
الاطراف الموقين في هذا النزاع .

لقد نشأ في محيط متأثر بعمق بالافكار الاسماعيلية الهرطقية (اي
المؤولة للأمور الدينية على نحو يتجه ضد بعض المبادئ الدينية) ، فتعرف
عليها (١) ، كما تأثر بها قليلا أو كثيرا . وهو نفسه يتحدث كيف درس تحت
ارشاد أبي عبد الله النائلي ومراقبة ابيه (ابي ابن سينا) مؤلفات الاقدمين
الفلسفية والعلمية . فهو درس « ايساغوجي » لفرفوروس و « العناصر »
لاقليدس و « الماجست » لبطليموس (٢) . وإلى جانب اهتماماته بعلم الطب
وتطبيقاته وبالفقه ، ابدى ابن سينا اهتماما بالغا بكتاب « مابعد الطبيعة »
لأرسطو . لقد قرأ هذا الكتاب أربعين مرة ، ولم يستوعبه - هكذا يقول
هو . الى أن قرأ تفسير الفارابي على هذا الكتاب استطاع استيعابه (٣) .
ونحن وان كنا نضرب صفحا عن هذا العدد المبالغ فيه ربما ، نحس أن ننبه
الى اهتمام ابن سينا البالغ بهذا الكتاب الاساسي لأرسطو . أما كتاب
« الربوبية » لأفلوطين فقد شرح من قبل ابن سينا معتبرا اياه من وضع
أرسطو ، كما فعل في حينه الفارابي . هذا بالرغم من الشكوك التي أبدتها
ابن سينا حول ذلك .

ومن الضروري القول أنه بالرغم من تأثر ابن سينا بهذا الكتاب وبفلسفة
أفلاطون والكندي والفارابي ، فإنه ، في آرائه حول المادة والعالم المادي ،
قد تحرك بشكل عام على أرض أرسطية . هذا يعني أنه من الخطأ تاريخيا
وفلسفيا التأكيد على أن ابن سينا لم يخرج عن نطاق منظومة الفارابي
الفلسفية . أن « دي بور » الذي يعلن ذلك ، يرى أن ابن سينا الفارابي
لم يأخذ بمواقف أرسطية (٤) .

لاشك اننا إذا أخذنا بهذا الرأي لدي بور ، فإنه يصعب علينا جدليا
فهم وجهة نظر ابن سينا في المادة والعالم المادي . وسوف نرى ذلك فعلا
في سياق هذا البحث .

أن وجهة نظر ابن سينا تلك تمثل خطوة ضخمة وجدية على طريق

(١) انظر : ابن ابي اصيبعة ، عيون الانبياء - مصر ١٨٨٢ ، جزء ٢ ، ص ٢ .

(٢) نفس المصدر السابق - ص ٣ .

(٣) نفس المصدر السابق - ص ٣ - ٤ .

(٤) دي بور : تاريخ الفلسفة في الاسلام - نفس المعطيات السابقة ، ص ١١٩ .

تطور الفكر المادي الهرطقي عموماً . ومصدر أهمية هذه الخطوة يتأتى من كونها انتصبت في تعارض مستتر أحياناً ، ومعلن أحياناً أخرى لأربع وجهات نظر حول المادة والعالم المادي ، كانت مهيمنة بحدود مختلفة آنذاك في الوضع الفكري العام . هذه الوجهات الفلسفية والدينية مثلها الإسلام ، والكندي ، والفارابي ، وأرسطو أيضاً .

وبما أن آفاق وجهة نظر ابن سينا تلك قد انطلقت من أرض أرسطية ، فإننا سنحاول فيما يلي أن نبين كيف وضمن أية مجموعة من العوامل قد تحقق ذلك لابن سينا . كما سنحاول تبين النقاط الأساسية التي تجاوز ابن سينا من خلالها أرسطو نفسه .

٢٢ - إن « المادة » بحسب أرسطو هي ، في تحديدها العام ، ذلك اللامتعين المطلق أو ذلك اللامتصور ، الذي لا يمكن رصده بمعزل عن « الصورة » . كذلك الصورة توجد أيضاً بالنسبة إلى المادة . إنها (أي الصورة) العنصر الإيجابي الفاعل والمتحقق . بينما المادة العنصر السلبي المنفعل والممكن . بيد أن تلك الشرطية الوجودية في وجود كلا العنصرين من خلال بعضهما يمكن اعتبارها ، في ضوء ذلك ، من الدرجة الثانية أو الثالثة . ذلك لأن الصورة لها ، في ذلك ، الحسمية في تحديد الوجود أكثر مما للمادة . وهذا يبرز خصوصاً للبيان انطلاقاً من أن أرسطو قد أخرج « الحركة » من نطاق المادة . فالمحرك الذي لا يتحرك هو الذي يحرك ، على نحو اقحامي ، المادة ويمنحها الحركة .

إن المرء يستطيع كشف تناقض في وجهة نظر أرسطو هذه . فعملية الانتقال ، من حيث هي كذلك ، من الممكن (المادة) إلى المتحقق (الصورة) ، هذه العملية التي ينبغي أصلاً أن تحتوي هي نفسها حركة اتجاهها ، يتم تجاوزها على نحو مسبق وبأسلوب صوفي . فإن تنفي حركتها ، يعني بطبيعة الحال نفيها هي نفسها . فلم يعد هنالك من عملية تحول ، وإنما نوع من الفعل المملئ .

هذه النقطة الأولى من مسألة الحركة لدى أرسطو . أما النقطة الأخرى فهي لا تقل في سلبيتها عن الأولى . بحسب ذلك لا يمكن وضع مقولة حقيقية حول المتحرك والمتبدل ، أي حول الحركة (١) . بالعكس من ذلك ، يقرر أرسطو بإمكانية وضع مثل تلك المقولة بالنسبة إلى الساكن غير

(١) انظر : أرسطو ، ما بعد الطبيعة - نفس المعطيات السابقة ، ص ٩٤ .

المتحرك . فاذن ، حتى الاحاطة الفكرية « المفهومية » بالحركة والمتحرك ، الذي هو المادة ، غير ممكنة لدى ارسطو .

ان ارسطو ، الذي انتقد افلاطون لمضاعفته العالم في نظريته حول المثل ، ورفضها ، لم يستطع ان يسلم من تأثيراتها وعواقبها . فالثنائية بين الشيء والفكرة « عن » الشيء ، التي تعبر عنها المضاعفة الافلاطونية المثالية للوجود ، نجدها لدى ارسطو في نظريته حول المادة والصورة . فالصورة لا تحتفظ تلقاء المادة بالحسمية فقط ، وانما أيضاً باستقلاليتها . وهذا يؤدي الى ان الشرطية الوجودية بين الصورة والمادة ، التي جرى الحديث عنها فوق ، تخسر مجدداً من مقوماتها ؛ بل اكثر من ذلك ، انها ، أي الشرطية تلك ، ليست فقط من الدرجة الثانية أو الثالثة ، وانما هي شكلية وخارجية لا تقوم على وجود طرفين متكافئين في الحد الأدنى . ان وجهة « العلاقة » بين الصورة والمادة لدى ارسطو هي التوصل الى اخضاع المادة للصورة وانتزاع ذاتها منها والحاقها بالصورة .

وحين يقول ارسطو بالحاق عامل التشخيص أو التعيين بالمادة ، الذي بحسبه تكتسب الصورة نوعية معينة ، فانه (ارسطو) يجهض هذه الوظيفة التشخيصية أو التعينية للمادة ، وذلك من خلال تحديده مسبقاً للصورة بأنها العنصر الفاعل والايجابي ، على عكس المادة المنفعلة والسلبية . ان هذا يظهر عدم التماسك وعدم التجانس في رؤية ارسطو للمسألة (صورة - مادة) . ولكن عدم التماسك وعدم التجانس هذين لم يخدموا الفكر المادي والعلم . هذا بالمقارنة مع افلاطون ، الذي قدم - من خلال نظريته في المثل وفي التذكر - كوابح جديدة على طريق التقدم العلمي والمادي الفلسفي .

ان ايجابية ارسطو في حقل العلم والفلسفة تعبر عنها موضوعته التي كونها عبر الملاحظة العملية اليومية والتجربة العلمية ، وهي ان الفصل بين المادة والصورة لا يمكن الاقرار به « ضمن منتجات الفعالية العملية اليدوية » (١) .

ان ابن سينا تبني نظرية ارسطو في الصورة والمادة ، فاصبحت جزءاً أساسياً من منظومته الفلسفية ؛ ولكن بعد ان أجرى عليها تعديلات أساسية.

(١) هـ . لاي : دراسة حول تاريخ المادية في العصر الوسيط - نفس المعطيات السابقة ،

أفقدتها الى حد كبير طابعها الارسطي الالاجدلي (١) .

لقد انطلق ابن سينا في تكوينه لمنظومته الفلسفية من تقسيم الوجود الى قطاعين ، الوجود بحسب الذات ، والوجود بحسب الزمان . أما الأول فهو « المادة » ، والثاني هو واجب الوجود ، أي الاله .

ان هذين الشكليين الوجوديين هما اصلا العالم الحقيقيان والوحيدان . وكلاهما قديم وخالد . لقد كانا دائما وسوف يبقيان موجودين ابداً . ولقد تعرفنا على هذين المفهومين سابقاً لدى الفارابي ، وان لم يكن بهذا الوضوح المتميز . و « المادة » نفسها لم تكتسب بعد لدى الفارابي وجودها المقابل لوجود الاله ، بل عولجت من قبله ضمن اطار التسلسل الوجودي الفيضي . ان ابن سينا يستخدم هذين المفهومين كتعبير عن واقع الوجود الفعلي . وقد يبدو ان الحديث عن « مادة » و « اله » يدعو الى القول باثنيية وجودية . الا ان الحقيقة هي غير ذلك . فنحن سوف نرى انه بالرغم من القول بمقولتين وجوديتين وبقطاعين وجوديين كلاهما قديم وخالد ، فإن ابن سينا أبعد ما يكون عن مثل تلك الاثنيية ، حيث انه ، كما سنرى ، الح على العالم « الواحد » .

ابن سينا يكتب حول تلك المقولتين المبدئيتين : « فكل موجود : اما واجب الوجود بذاته . واما ممكن الوجود بحسب ذاته » (٢) . لقد بحث فيلسوفنا في هاتين المقولتين الانطولوجيتين (الوجوديتين) بشكل جلدري ،

(١) حول ذلك كتب E. Bloch : ان ابن سينا « لم يبدأ كأول واحد بهذا التحويل . ولكن على يده صنع ذلك (التحويل) مدرسة . ان سارتون ، خليفة ارسطو ، ظل مقتصرًا على عملية ادخال الصورة الفاعلة على المادة . وهذا بسبب ان العمل الفلسفي الحقيقي في المدرسة المشائية انطلقا مبكرا . انه وجد تخصصه في العلوم المفردة ، ولكن أيضا بشكل ضيق . فقط الكسندر افروديسياس استطاع ان يطور ، من خلال تعاليمه الطبيعية الواضحة ، السارونية الى امام . فقد عظم هذا « الاله كجسم سماوي » . كما جدد ما قدمه الينا شيشرون على انه رأي لسارتون ، وهو ان كل القوة الالهية موجودة في الطبيعة دون أي عقل من عالم آخر . ولكن لابسارتون ولا بالشراح الكسندر ، بل بابن سينا اربط اليسار الارسطي للمعبر الوسيط بمسألة (مفهوم المادة) « (ارنست بلوخ : ابن سينا واليسار الارسطي - برلين ١٩٥٢ ، ص ٤٠ - ٤١) .

(٢) ابن سينا : الاشارات والتنبيهات ، في ثلاثة اقسام - قسم ٣ - الطبيعة ، دون تاريخ اصدار ، دار احياء الكتب العربية ، ص ٣٧ . انظر أيضا الشهرستاني : الملل والنحل - قسم ٢ ، نفس المطبوعات السابقة ، ص ١٧٣ .

اذ أقام على أساسهما هيكلًا فلسفيًا ضخمًا . وعبر ذلك استخدم مفهومين فلسفيين أساسيين ، هما « القدم » و « الاحداث » ، وذلك في سبيل القاء ضوء كشاف على المسألة المبدئية .

أما ما يخص المفهوم الأول « القدم » ، فانه يتضمن معنيين : المعنى الأول يفهم بحسب الذات ، أما الثاني فيحسب الإمكان . والبحث في العلاقة بين هذين المعنيين يشكل نقطة جوهرية من نقاط استجلاء الفكر السينوي . ابن سينا يلجأ هنا الى مقولتي الانطلاق لديه ، واجب الوجود بذاته وممكن الوجود بذاته ، حيث يرى : « كل موجود ، اذا التفت اليه من حيث ذاته ، من غير التفات الى غيره : فإما ان يكون بحيث يجب له الوجود في نفسه . أو لا يكون . فإن وجب ، فهو الحق بذاته . الواجب وجوده من ذاته ، وهو القيوم » (١) . على العكس من ذلك ، ماحقه في نفسه الامكان ، فليس يصير موجوداً من ذاته . فإنه ليس وجوده من ذاته أولى من عدمه ، من حيث هو ممكن » (٢) . هذا يعني ان القديم بحسب ذاته هو الذي يكفي ذاته بذاته في كل الاعتبارات والعشيات وعلى سبيل الضرورة . ان هذا « القديم » هو الاله (٣) . وهذا لا يتغير لابل بالزمان — ذلك لانه لا يوجد في زمان — ولا بالمكان . بل انه هو نفسه لا يقدر على ذلك .

ان ابن سينا صريح في ذلك : انه « لا يتغير سواء كان التغير زمانياً أو كان تغيراً بأرادته (خط التشديد مني : ط.ت) ، يقبل من غيره اثرًا ، وان كان دائماً في الزمان لكنه بعد الذات في الرتبة الذاتية . وانما لا يجوز له ان يتغير كيفما كان ، لان انتقاله انما يكون الى الشر لا الى الخير . » (٤)

في هذا النص ، وعلى طريق نفى الحركة عن « الاول » ، نرى ابن سينا يلجأ على مفهوم « الضرورة » . فالاول نفسه تنطبق عليه الضرورة كما تنطبق على الموجودات الأخرى . ان هذا الأمر على غاية من الأهمية ، اذا استوعب بالعلاقة الوثيقة مع القضايا الأخرى التي طرحها ابن سينا ، وفي مقدمتها

(١) ابن سينا : الاشارات والتنبيهات ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٣٦ .

(٢) ايضاً : الشهرستاني — الملل والنحل ، نفس المعطيات السابقة ، ص ١٧٣ .

ابن سينا : نفس المصدر السابق ونفس المعطيات ، ص ٤٠ .

(٣) نفس المصدر السابق ، ص ١٤٧/١٥١ . ايضاً : الشهرستاني — نفس المصدر السابق ، ص ١٧٣ .

(٤) ابن سينا : شرح كتاب اللام (من كتاب الانصاف) ، ضمن كتاب : عبد الرحمن بدوي ، ارسطو عند العرب ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٣٠ .

« قدم العالم » من طرف اول ، و « فيض » العالم عن « الأول واجب الوجود » من طرف آخر .

21

انطولوجياً . فبحسب ذلك ، يترتب القول بقدمية العالم ، الى جانب قدمية الاله . انهما قديمان على حد سواء ، ومصادرة الخلق عن عدم محض اطلاقاً ترفض بشكل قاطع لا مجال فيه للتساؤلات والشكوك : « فالحادث يتقدمه قوة وجود وموضوع » (١) . والموضوع هو « المادة » . ولقد رأينا سابقاً أن المادة هذه لدى ابن سينا قديمة من حيث الزمان ، كالموجود الأول واجب الوجود . وقد ميز ابن سينا « المحدث » في الزمان عن « المحدث » لافي زمان . ذلك لأن « الإحداث » له هذان المعنيان . ان الاحداث الزماني يعني ان يوجد شيء بعد ان لم يكن له وجود في زمان سابق آخر . أما الإحداث اللازماني فيعني ان يكون شيء موجوداً دائماً وفي كل زمان ، الا ان هذا الشيء « المحدث » ادنى ذاتاً من المحدث (٢) . ان « المادة الأولى » هي هذا المحدث لافي زمان . اما الاجسام المركبة فهي المحدث في زمان . وهذا هو في الحقيقة ما يدعوه ابن سينا بالـ « بعدية الداتية » والـ « بعدية الزمانية » (٣) .

وعلى هذا النحو يغدو « القديم » قديماً باعتبار الذات ، وباعتبار الزمان . فالأول ، وهو الله ، يعني ان ليس للاله مبدأ خارج ذاته . فهو لذاته وبذاته ، أي انه غير خاضع لمفهوم الزمان ، وانما ذاته معيار كل شيء . أما الثاني ، القديم باعتبار الزمان ، فهو الذي ليس لزمانه بداية . انه قديم كالزمان الذي يحتويه (٤) .

في تقسيم ابن سينا لكـ « محدث » الى نحوين وجوديين ، يؤكد على ان « كل حادث فقد تقدمته المادة ، كما تقدمه الزمان » (٥) . عن هذا يبين لنا أن « الزمان » مقولة جوهرية بالنسبة الى منظومة ابن سينا الفلسفية ،

(١) ابن سينا : الاشارات ... ، القسم الثالث ، نفس المعطيات السابقة ، ص ١٠٣ .
(٢) ابن سينا : رسالة في الحدود ، ص ١٠٢ . وايضا : الشهرستاني ، نفس المصدر المعطى سابقا ، ص ١٧٩ .
(٣) ابن سينا : تفسير كتاب الطولوجيا - ضمن : عبد الرحمن بدوي - نفس المصدر المعطى سابقا ، ص ٦٠ .

(٤) انظر : ابن سينا ، رسالة في الحدود ، ص ١٠٢ .

(٥) الشهرستاني : الاشارات ... ، الجزء الثالث ، نفس المعطيات السابقة ، ص ١٠٣ .

استطاع بها - الى جانب مقولة « الذات » - الاحاطة بالوجود على نحو كلي .
لدى ابن سينا نجد المحاولة الجدلية الهامة لبحث « المادة » بعلاقة
عضوية مع « الزمان » و « المكان » . ولقد عمل ذلك بشكل غير مباشر على
تثبيت قواعد العلم الطبيعي والفلسفة المادية .

إن ابن سينا يقرر بأن « . . الزمان ليس محدثاً حدوثاً زمانياً ، بل
حدوث ابداع . لا يتقدمه محدثه بالزمان والمدة ، بل بالذات . ولو كان له
مبدأ زمني لكان حدوثه بعدما لم يكن ، أي بعد زمان متقدم . . . فاذن
الزمان غير محدث حدوثاً زمانياً ، والحركة كذلك » (١) . فالزمان ، اذن ،
قديم ، وغير مخلوق زمانياً . فاللانهاية في التسلسل الزمني واردة ومقررة .
ولقد عارض ابن سينا في رأيه هذا المؤدي الى نتائج مادية فلسفية هرطقية
« هذيانات المتكلمين . . . (الذين) منهم من جعل الزمان له وجود ، لاعلى
انه امر واحد في نفسه ، بل على انه نسبة ما على جهة ما لأمور ايها كانت
الى أمور ايها كانت . فقال : ان الزمان هو مجموع أوقات ، والوقت عرض
حادث يعرض وجود عرض الآخر مع وجوده ، فهو وقت للآخر أي عرض
حادث » (٢) . ان أولئك المتكلمين ، والاشاعرة في مقدمتهم ، قد قسموا
الزمان الى « آتات » منعزلة كلياً عن بعضها ، فرفضوا بذلك « استمرارية »
الزمان وقدمه .

من الملاحظ أن ابن سينا قد اعتمد في رأيه حول الزمان والحركة على
ارسطو . الا انه تخطاه في نقاط جوهرية سنعرض لها لاحقاً . ان الزمان
عنده هو « مقدار للحركة المستديرة من جهة المتقدم والمتأخر . . والحركة
متصلة . فالزمان متصل . . » (٣) . ومن الضروري أن نتقصى العلاقة بين
« الحركة » و « التغير » لكشف العامل أو العوامل التي تهيم أصلاً لوجود
التغير في الموجودات المتحركة .

لقد أبان ابن سينا أن التغير أو « التجدد لا يمكن الا مع تغير حال ،
وتغير الحال لا يمكن الا للذي قوة تغير حال : اعني الموضوع . فهذا الاتصال
اذن متعلق بحركة ومتحرك : اعني بتغير ومتغير » (٤) . لنلاحظ هنا : إن ابن

(١) انظر : ابن سينا ، النجاة ، ص ١١٦ حتى ١١٨ .

(٢) ابن سينا : كتاب المباحثات . فمن : عبد الرحمن بدوي ، نفس المعطيات السابقة ،
ص ١٦٨ .

(٣) ابن سينا : النجاة - نفس المعطيات السابقة .

(٤) ابن سينا : الاشارات . . - نفس المعطيات السابقة ، ص ١٠٠ .

سينا يطرح قضية التحول والتغير من خلال تأكيده على أن « تغير الحال لا يمكن الا لذي قوة تغير حال » ، أي على أن قدرة التغير هي متصلة في موضوع التغير نفسه . وفي الوقت الذي « لا يتصور (فيه) الزمان الا مع الحركة . » (١) ، فان « الحركة هي فعل وكمال أول للشيء الذي بالقوة . » (٢) .

ان في هذا القول اتجاهاً واضحاً بارزاً يكمن في الأخذ بـ « الحركة الذاتية » للأشياء ، وبالتالي للعالم من حيث هو كل . أصلاً لا يمكن تصور الشيء إلا مع الحركة ، كالحركة مع الزمان . ان في هذا نقطة بليغة الدلالة على تجاوز ابن سينا لارسطو في تصوره لمفهوم « الحركة » . لا شك ان ارسطو قد قال بوجود علاقة وثيقة بين الزمان والحركة ، حيث انهما كليهما متصلان (٣) . ولكن العلاقة هذه بين الزمان والحركة والمتحرك تتحدد من خلال تدخل « المحرك الذي لا يتحرك » عبر « الصورة » المستقلة والفاعلة ، بحيث أن تلك « الحركة » تتحول فعلاً الى كيان « دخیل ومقحم » في الشيء . ان ابن سينا في تأكيده على الحركة من حيث هي وجود « ذاتي » للشيء لا يقف عند التعميم الفلسفي له ، وانما يجعله مبدءاً صميماً من مبادئ العلم الفلسفي بالعالم على نحو دقيق : « قال أبو علي بن سينا : ان للعلم الطبيعي موضوعاً ينظر فيه وفي لواحقه كسائر العلوم ، وموضوعه : الاجسام الموجودة بما هي واقعة في التغير . وبما هي موصوفة بانحاء الحركات والسكونات » (٤) .

ان تحديد وجود الاجسام الطبيعية على هذا النحو يعني ان « ليس شيء من الاجسام الموجودة يتحرك او يسكن بنفسه ، او يتشكل او يفعل شيئاً غير ذلك (أي غير ان يكون منطلقاً من كمالاته الخاصة) . وليس ذلك له عن جسم آخر ، او قوة فائضة عن جسم » (٥) .

لذلك فان « الجسم الطبيعي هو ما تكون له وحدة طبيعية لا

(١) ابن سينا : النجاة - نفس المعطيات السابقة .

(٢) انظر : ابن سينا ، النجاة - ص ١٠٥ حتى ١٠٨ .

(٣) انظر : ابن سينا ، شرح كتاب حرف البلام . ضمن : مبدإ الرحمن بدوي ، نفس المصدر والمعطيات السابقة ، ص ٢٢ .

(٤) انظر : ابن سينا ، النجاة ، ص ٩٨ حتى ١٠٢ .

(٥) الشهرستاني : الملل والنحل - نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٠١ .

بالقرض» (١) . أن الاشاعرة ، ومن بعدهم الغزالي ، الذين أحالوا الوجود الموضوعي (العالم المادي) الى مجرد فرض أو وهم ، توصلوا على هذا الطريق بطبيعة الحال الى نفي السببية في الظواهر الطبيعية .

وصحيح أن ابن سينا لا يرى في الحركة جوهرأ ، اذ قد ظهر له « أن كل حركة ففي أمر يقبل التزايد والتقص . وليس شيء من الجواهر كذلك » (٢) ، وأنه يرى في المادة ، على العكس من ذلك ، جوهرأ (٣) ، ألا أنه لا يقيم بينهما هوة ميتافيزيقية لا تتجاوز ولا تعبر . فالجواهر أو المبادئ ثلاثة عنده ، هي المفارق ، والصورة ، والهيولي (٤) . ولكنه يرى أيضاً أن « الجسم » يأتي ما بين الصورة والهيولي . وعلينا أن نحذر هنا حالاً من فهم « المفارق » لدى ابن سينا بمعزل عن الاطار العام لمنظومته الفلسفية بحلقاتها الاساسية . مما يؤسف له أن مجموعة كبيرة من المستشرقين والباحثين العرب ينزلقون في متاهات ذاتية لدى دراستهم وتقويمهم لك « مفارق » السينوي . اننا سوف نرى أن مفهوم « المفارقة » لدى ابن سينا ينحصر في اطار الأفضلية « الذاتية » بين الموجودات .

ان واجب الوجود « مفارق » للمادة فقط بمعنى انه أكمل وأفضل وجوداً منها ، وليس بمعنى انه مجرد عن العالم المادي . ان القول بهذا شكل ويشكل التباساً في عملية استيعاب ابن سينا ككل . سوف نجد أن انطلاق ابن سينا من انه اذا « وجود المعلول متعلق بالعلة » من حيث هي على الحال التي بها تكون علة » (٥) ، سيؤدي بنا الى القول بوجود عالم واحد ، هو نفسه العلة والمعلول ، كقطعة من العملة بوجهيها الاثنين . فهذان الوجهان هما **مظهران** لشيء واحد **متجانس** . ان هذا الأمر هام جداً من أجل الاحاطة بفكر ابن سينا . وهو قد اكتسب لاحقاً ، وبشكل خاص على يد ابن رشد ، وضوحاً لالبس فيه ، كما سوف نرى في حينه .

لقد جعل ابن سينا « الممكن بذاته » جوهرأ وعرضأ . أما الجوهر الممكن بذاته ، وهو المادة ، فانه « ذات » لا يحتاج لكي يوجد الى العرض

(١) ابن سينا : كتاب المباحثات - نفس المعطيات السابقة ، ص ١٢٩ .

(٢) انظر : ابن سينا ، النجاة ص ١٠٥ حتى ١٠٨ . أيضاً : الشهرستاني ، الملل ٤٠٠ ص ٢٠٢ .

(٣) ابن سينا : نفس المصدر السابق لابن سينا ، ص ٩٨ حتى ١٠٢ .

(٤) الشهرستاني : الملل والنحل - نفس المعطيات السابقة ، ص ١٧٦ .

(٥) ابن سينا - الاشارات .. ، نفس المعطيات السابقة ، ص ١١٠ - ١١١ .

الموجود فيه . والجوهر هذا هو المادة الأولى . ومن هذه المادة الأولى تتكون
الاجسام المتحركة . اما الاجسام هذه فتقوم على اساس من
الهيولي والصورة .

لقد عمل ابن سينا على ابراز الرباط الذي لا ينفصم بين الصورة
والمادة ، التي يتكون منها العالم المادي . فهو يقول : « . . ان المادة لن
تتحرى عن الصورة قط ، وان الفصل بينهما فصل بالعقل فقط » (١) .
وفي هذا ولا شك تعبير عن وحدة « الوجود » و « الماهية » . ان الوجود ،
اي المادة ، هو كذلك ، من حيث انه في صورة . والصورة هي كذلك ، اي ماهية ،
من حيث انها في مادة .

ان « الصورة » في تلاحمها ب « المادة » تؤدي بنا الى النتيجة
الجوهرية ، وهي ان تحقق هذا التلاحم يتم عبر « الحركة » . لقد ابتنا
سابقاً رأي ابن سينا في ان « الحركة كمال اول لما بالقوة ، من جهة ماهو
بالقوة . فان الحركة له ، من حيث هو بالقوة في مكان يقصده ، لا من جهة
ماهو بالفعل انسان أو نحاس . . . » (٢) . هنا يميز ابن سينا لحظتين
تاريخيتين في عملية تكوين شيء ما . اللحظة الاولى هي ، كالثانية ، الشيء
في حالة التحقق ، إلا انه التحقق الممكن ، اي في حالة الإمكان . فالحركة
إذن غير مخلوقة ، إنها موجودة دائماً ، ولكن بارتباط وثيق مع المتحرك ،
اي الجسم الطبيعي المتحرك . إن انتقال شيء ما من « حالة » الإمكان أو
القوة الى حالة التحقق هو في الحقيقة تحقق اللحظة الثانية في عملية
صيورة الشيء . إن ابن سينا يتكلم هنا عن فعل أول وكمال أول ، كما عن
فعل ثان وكمال ثان (٣) . الفعل الأول يتأصل في الحركة الممكنة ، بينما
الثاني متأصل في الحركة المتحققة . هاهنا تكمن فكرة هامة حتى الحد
الاقصى وهي ان الحركة الاسلوب النوعي لوجود المادة .

إن ابن سينا نفسه كان يرفض الرأي القائل بأن الوضع الذي يوجد
فيه شيء ما في حالة الإنطلاق ، وهو وضع « الإمكان » ، يشبه وضعه في
حالة التحقق (٤) . إنه تحول دائم وثابت من الحركة الممكنة الى الحركة

(١) الشهرستاني : الملل والنحل - نفس المعطيات السابقة ، ص ١٧٥ .

(٢) ابن سينا : النجاة - ص ١٠٥ حتى ١٠٨ . انظر ايضا : الشهرستاني ، الملل والنحل
- نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٠٢ .

(٣) ابن سينا : النجاة ، ص ١٠٥ حتى ١٠٨ .

(٤) ابن سينا : نفس المصدر السابق .

المتحققة ، أي أنه تطور دائم للشيء ، وبالتالي للمادة ككل .

من خلال هذه الرؤية للمسألة نستطيع كشف التسرع في رأي (كمال اليازجي) ، حيث يؤكد أن « وجود الإمكان وانتقاله الى الوجوب عائدان عند ابن سينا الى اعتبار ثالث ، هو واهب الصور . وهو تعديل أساسي اقتضاه الإيمان الديني » (١) .

لذلك نرى أنه ليس من العبث أن ابن سينا قد حدد موضوع العلم الطبيعي ، كما أبرزنا ذلك في حينه ، على أنه الأشياء الموجودة من حيث هي في حركة . هذا يبرز بوضوح أن ابن سينا لم يتحدث عن « الحركة » من حيث أنها مفهوم عائم في الهواء وغير محدد . بل على العكس من ذلك تماماً . إنها تفهم من قبله بكثير أو قليل من الوضوح من حيث هي أسلوب وجود الأشياء ، أو على أنها — إذا استخدمنا تعبيراً من J. Böhme — القوة الدافعة أو العقل الحي أو القوة المتوترة أو القلق (٢) .

إن وجهة نظر ابن سينا حول الحركة ، هذه الوجهة النظر التي تنحو بقوة نحواً مادياً جدلياً ، قد اكتسبت تحديداً مفهوماً واضحاً ومتميزاً الى حد بعيد . والمتتبع لأبعاد المسألة لدى ابن سينا يجد نفسه مرغماً على الوصول الى النتيجة ، وهي أن ابن سينا في ذلك قد تجاوز بعمق مفهوم « الحركة » الأرسطي الميتافيزيقي « اللاجدي » . إن أرسطو في مفهومه ذلك عن الحركة لا يجعل من هذه الأخيرة صفة متأصلة للشيء الطبيعي وبالتالي للعالم المادي ككل ، كما أنه ينفي إمكانية اعتبار الحركة مقولة برهانية صادقة .

والآن ، تبرز نقطة أخرى تخص العلاقة بين « الصورة » و « المادة » كما بين هاتين الأخيرتين وبين « واجب الوجود بذاته » . إن ابن سينا يميز هنا المادة عن الهيولى . في سبيل ذلك يستخدم مفهوماً آخر ، هو « العدم » . فهو يكتب بأن « المبادئ المقارنة للطبيعيات الكائنة ثلاث : صورة ، ومادة وعدم . وكون العدم مبدأ هو لأنه لا بد منه للكائن من حيث هو كائن ، وله من الكائن بد . وهو مبدأ بالعرض ، لأن بارتفاعه يكون الكائن لا بوجوده . وقصر الصورة في الوجود أوفر من قسط المادة ، لأنها علتها المعطية لها الوجود . يليها الهيولى ، ووجودها بالصورة . وأما العدم فليس هو بذات

(١) كمال اليازجي : معالم الفكر العربي في العصر الوسيط ، بيروت ١٩٦١ ص ٢٠٧ .

(٢) انظر : ك. ماركس - ف. إنجلز ، المائلة المقدسة ، برلين ١٩٥٣ ، ص ٢٢٧ .

حتى ٢٥٨ .

موجودة على الإطلاق ، ولا معدومة على الإطلاق ، بل هو إرتفاع الذات الموجودة بالقوة ... والمادة إذا كان فيها هذا العدم فهو الهيولى . وإذا كانت فيها الصورة فهي موضوع . فكأنها هيولى للصورة المعدومة التي بالقوة وموضوع للصورة الموجودة التي بالفعل (١) . كما يظهر من ذلك ، فإن المادة هي قاعدة التبدل الدائم والتحول الذاتي من الإمكان الى التحقق ، في الوقت الذي تتأصل فيه المادة والهيولى في عملية التبدل والتحول هذه . في هذا المعنى يتحدث ابن سينا عما يسميه بـ « الهيولى المطلقة » ، التي تحدد من قبله بكونها الجوهر العاري من التركيب . أي أنها غير متعلقة بصورة ما موجودة بالفعل .

هنا ينبغي الإشارة الى نقطة نرى أنها ذات دلالة هامة في توضيح قضية « المادة » لدى ابن سينا . لقد تكلم مفكرنا هذا ، كما رأينا في الاستشهاد السابق ، عن أن قسط الصورة في الوجود أوفر من قسط المادة . ويعمل ذلك بأنها (أي الصورة) علة المادة المعطية لها الوجود . في الحقيقة ، نحن سوف نثبت جهلاً مريعاً حينما لانحاول استيعاب هذه المسألة ضمن الإطار العام الفكري السينيوي .

إن « الصورة » هنا هي التعبير الأوفى عن « ذات » المادة نفسها . وهذا يفهم بوضوح أكثر إذا ما علمنا أن ابن سينا قد الحق عامل « التشخيص » ، أي التحديد والتعيين ، بالمادة . فهذه هي التي تحدد وتعين الصورة ، وليس العكس . وعلى كل حال ، سوف نأتي على هذه المسألة لاحقاً بتفصيل أكثر . إن الهيولى ، التي تتحدد بكونها مادة إذا تضمنت هذه المادة العدم ، إن الهيولى هذه توجد بحسب الإمكان ، بينما الصورة بحسب الفعل : « لأن جوهر الصورة هو الفعل ، وما بالقوة محله المادة » (٢) . وفي كتابه « الشفاء » يؤكد ابن سينا على نحو أكثر تفصيلاً : « لهذا توجد المادة الكائنة في أجسام على نحو غير معزول عن الصورة الجوهرية . إن المادة تقوم إذن بالتحقق فقط من خلال الصورة الجوهرية . ولهذا فإن فصلت المادة عن الصورة الجوهرية في التصور الداخلي ، فإنها تسلك عملية منطقية ، ليس لها مطابق في الواقع الحقيقي » (٣) . أي أن عملية الفصل

(١) ابن سينا : النجاة ص ٩٨ حتى ١٠٢ .

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل - نفس المعطيات السابقة ، ص ١٧٦

(٣) كتاب الشفاء ، مأخوذ من الترجمة الألمانية له . ترجمه وشرحه M. Horten

هاله ونيويورك ١٩٠٧ ، السلسلة الثانية ، المجموعة الثالثة ، ص ١٣٢ - ١٣٣ .

بين المادة والصورة ليست ممكنة الا في الذهن ، اما في الواقع فلا .

وفي الوقت الذي يرى فيه ابن سينا ان الصورة اكثر أهمية من المادة من حيث الدرجة ، فانه يؤكد في نفس الوقت على تساوقهما الزماني طبقاً لنظريته حول التساوق الزماني للعلّة والمعلول (١) . والأمـر هـذا له جانب آخر هام .

فان كان ابن سينا قد اعتبر الصورة موجودة بالفعل والمادة موجودة بالامكان ، فانه لم يتخذ في ذلك موقفاً ميتافيزيقياً متصلباً . انه ينطلق من ان هذين القطبين الوجوديين ، الصورة والمادة لا يوجدان الى جانب بعضهما ، وانما مع بعضهما ومن خلال بعضهما ، وانهما يتداخلان في بعضهما . لقد كتب حول هذه المسألة الدقيقة بشكل لاليس فيه: ان « الصورة بالقوة » (٢) .

ان هذه الفكرة حول وجود « الصورة » في حركة ومن خلال التحول من قطب الى آخر وحول وجود « المادة » على نحو مماثل ، يعبر عنها ابن سينا بعمق وتماسك ، حيث يقول : « ان ما يسمى مادة ، يمكن ان يسمى أيضاً صورة ، وما يسمى صورة ، يمكن ان يسمى أيضاً مادة » (٣) .

ان هــ . لاي ، الذي يستشهد بهذه الفقرة في كتابه حول المادية في العصر الوسيط ، يعلق عليها كما يلي : « بذلك يفقد فصل المادة عن الصورة ، او المادة عن الجوهر أهميته البالغة ، التي ملكها لدى أرسطو . فمن خلال العلاقة المتبادلة بين المادة والصورة يتعرف على عملية التطور في المادة نفسها (٤) . لقد انجز ابن سينا من خلال ذلك خطوة عملاقة على طريق الاحاطة الجدلية العميقة للعلاقة بين المادة والصورة وعلى طريق تعميق عملية تجاوز « الثنائية » الأرسطية بين المادة والصورة .

ان ابن سينا العالم الطبيب ، الذي جسّد على نحو فكري موسوعي نفاذ عصره العربي - الاسلامي الذي حقق تطوراً اقتصادياً واجتماعياً وعقلياً عاصفاً ، استطاع ايقاظ الاهتمام بالمادة اهتماماً علمياً « دنيوياً » . فالارهاصات القوية التي تمت ضمن العلوم الطبيعية والحياة الاجتماعية العامة كانت من الاهمية

(١) انظر : ابن سينا ، الاشارات . . ، نفس المعطيات السابقة ، القسم الثاني ، ص ٨٩ .

(٢) ابن سينا : كتاب المباحثات ، نفس المعطيات السابقة ، ص ١٦٥ .

(٣) ابن سينا : كتاب الشفاء - نفس المعطيات السابقة ، ص ١٤٧ .

(٤) هــ . لاي : دراسة حول تاريخ المادية في العصر الوسيط - نفس المعطيات السابقة ،

ص ٨٨ - ٨٩ .

بحيث لم يستطع الفكر الفلسفي إلا أن يعطيها أبعادها وآفاقها الفلسفية النظرية . أن هذا قد تم بالرغم من أن ابن سينا عاش في فترة انحطاط الدولة العباسية العملاقة وتأسيس سيطرة الأمراء البويهيين على الحياة السياسية في بغداد .

لقد كان من معاصري ابن سينا المرموقين أبو العلاء المعري وإبن مسكويه والبيروني والشريف الرضي، وهؤلاء جميعاً طرحوا مشكلات مثيرة وأصيلة في حقول الفكر والعلم والأخلاق والأدب . ولاشك أن ابن سينا قد تأثر بهؤلاء ، كما أثر عليهم . وعلاقته مع العالم الكبير البيروني كان لها ولاشك بشكل أو آخر انعكاسها في فكره ، وخصوصاً على النحو المادي الهرطقي الذي نحاه .



من خلال تحقيق ابن سينا لفكرة الارتباط الوجودي الذي لا ينفصم بين المادة والصورة ومن خلال تأكيدده على عملية الانتقال المتبادلة بينهما ، كان ضرورياً وطبيعياً أن يصل إلى النتيجة التالية ، وهي أن المادة مهمة تماماً كأهمية الصورة من أجل تكوين العالم المادي . أنه يؤكد « فللهيولى إذن تأثير في وجود ما لا بد للصورة في وجودها منه : كالتناهي والتشكل » (١) . أن هذا « التأثير » يكمن ، بحسب رأيه ، في « أن المادة تحدد وتشخص (تعين) الصورة الجوهرية ... أن كل واحد من هذين المبدئين ، المادة والصورة الجوهرية ، هو سبب من أجل الآخر من زاوية ما محددة وبالنسبة إلى واقع معين ، وليس من نفس الزاوية » (٢) . وفي « الإشارات والتنبيهات » يرى ابن سينا في أي معنى يكون الواحد من ذينك المبدئين سبباً للآخر : « ... وتشخصت بها (أي بالهيولى) الصورة ، وتشخصت هي أيضاً بالصورة .. » (٣) .

عن ذلك تتكون بالنسبة إلينا نتيجتان :

الأولى تقوم على تأكيد ابن سينا على المادة من حيث تمتعها ، على نحو معين ، بالدور الرئيسي تلقاء الصورة ، وذلك في عملية تكوين العالم .

(١) ابن سينا : الإشارات .. - نفس المعطيات السابقة ، القسم الثاني ، ص ٤٦ .

(٢) ما بعد الطبيعة لابن سينا - مأخوذ عن : E. Bloch ، ابن سينا واليسارالارسطي ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٨٨ .

(٣) ابن سينا : الإشارات .. ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٨٧ .

أما النتيجة الثانية فتكمن في إبراز ابن سينا لتأثير التبادل بين الصورة والمادة في إطار مسألة « التشخيص » .

على هذا الطريق تطرح مسألة الوجود المستقل للصورة تلقاء المادة كلياً جانباً ، ويؤكد على الوحدة الجدلية بين المادة والصورة كتعبير عن رحمة عملية التكون والتحول والتطور في العالم المادي . لقد عملت هذه الأبحاث تقريب ابن سينا بشكل حثيث وملح من مواقع الفكر المادي الهرطقي .

★ ★ ★

إننا نرى كم عميقة تلك الجذور التي عمل ابن سينا على غرسها في هيكل بناء التقدم الفكري والاجتماعي . وبعد أن أفاض اللثام عن الملامح الجوهرية لك « مادة » وال « صورة » ، يتابع ابن سينا جهده الكبير للاحاطة بالحلقات الأخرى من المسألة ، لينشئ من بعد ذلك كله بنياناً نظرياً جعل منه عرضة للملاحظات والانتقادات من قبل المناوئين له .

إنه في تحديده لتلك الملامح الجوهرية للمادة والصورة أكد على استقلالية العالم المادي الذاتية من حيث هو عالم موجود مادياً موضوعياً .

وفي الحقيقة ، استطاع ابن سينا الاحاطة بالعالم المادي الموضوعي احاطة فلسفية مادية . لقد طرح مسألة الوجود العياني والمنعكس ، وبذلك توصل الى النقطة المركزية في نظرية المعرفة المادية : « الشيء اما عين موجودة ، واما صورة مأخوذة عنه في الذهن ، ولا يختلفان في النواحي والأمم . واما لفظة تدل على الصورة التي في الذهن . واما كتابة دالة على اللفظ . ويختلفان في الأمم » (١) . هذا يعني :

١- الشيء (العالم المادي) موجود موضوعياً وذاتياً ، أي مستقلاً عن الصورة الذهنية عنه ، التي يكونها الانسان في دماغه .

٢- الانسان الاجتماعي المفكر يعكس ذلك أنعمان في دماغه على نحو فكري مجرد .

٣- ان عملية الانعكاس هذه لا تختلف ، في ملمحها الجوهرية ، من شعب لآخر ، بل انها ضرورية وعامة في وجودها لدى الانسان .

٤- ان الشيء (العالم المادي الموضوعي) ممكن التعرف عليه فكرياً ،

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ، نفس المعطيات السابقة ، ص ١٦١ .

وليس هنالك من موانع مبدئية . ذلك لانه قابل مبدئياً للانعكاس المعرفي في دماغ الانسان .

٥- ان كون عملية الانعكاس المعرفي ضرورية وعامة وواحدة ، من حيث الجوهر ، لدى الجميع ، يعني انه لا يوجد نخبة من الناس تختص بالمعرفة الفلسفية والعلمية ، بل الجميع متساوون في امكانية تحقيق ذلك . وهذا ولاشك ملمح اساسي من ملامح الفكر الانساني الديموقراطي التنويري .

٦- ان الانطلاق من فكرة « الانعكاس » و « امكانية التعرف » على عالم ادى ابن سينا الى الوقوف في وجه نظرية افلاطون المثالية في « التذكر » كسبيل للمعرفة ، وفي وجه الآراء الغيبية الحدسية والايمانية في المعرفة .

في كل ذلك كان ابن سينا صادقاً بالدرجة الاولى مع نفسه كعالم تجريبي ذي عقل متوثب يعلق كل الآراء لكي يصل الى الحقيقة (١) . كما ينبغي القول بأن ابن سينا كان من الوجوه البارزة التي تبنت وطورت المذهب الاسمي Nominalism (٢) ودافعت عنه . ومن المعروف أن هذا المذهب ينطلق من أن « المفاهيم » الانسانية لاتملك وجوداً مستقلاً عن « الواقع المادي » الذي تعكسه هي ، وانما هي بالضبط « انعكاسه » .

والآن نحاول تقصي مسألة علاقة الواقع المادي ذلك ب « واجب الوجود بذاته » . لقد رأينا أن ابن سينا قد اعتبر الصورة موجودة من حيث الفعل (كما اعتبرها موجودة ايضاً من حيث الامكان) والمادة من حيث الامكان . وهذا يعني ، ضمن مايعنيه ، أن « الهولي والصورة » لاتكونان في درجة التعلق والمعية ، سواء (٣) . ولذلك فمن الضروري البحث عن تلك « الخلقات » التي تعمل ، من بعيد ، على ايجاد الرباط بين المادة والصورة .

ان في « بحثنا » هذا نقترف مفارقة او تناقضاً مع طرحنا الأخير لد « استقلالية الذاتية » للعالم المادي . هكذا يبدو الأمر . وهو فعلاً كذلك . الا اننا سوف « نكتشف » لاحقاً بأن هذا التفسير الوجودي (واجب وجود بذاته ، وعالم مادي) ماهو الا عملية تعسفية ليس لها حقيقة في منظومة ابن سينا الفلسفية ، وبأن ليس هنالك سوى عالم واحد

(١) انظر : ابن ابي اصيبعة ، عيون الانباء ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٣ .

(٢) Nominalismus

(٣) ابن سينا : الاشارات ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٨٤ .

مادي تسوده قانونية ذاتية هي هو نفسه . فلنتبع اذن العملية في ابعادها وآفاقها هذه .

لقد كتب ابن سينا : « الهيولى توجد عن سبب أصل وعن معين بتعقيب الصورة . اذا اجتمعا ، تم وجود الهيولى » (١) . اما مايعنيه بـ « السبب الأصل » ، فهو واجب الوجود بذاته . وما يعنيه بـ « المعين » فهو الحركة . ومن اجل كشف ماهية وابعاد العلاقة بين الهيولى – والعالم المادي عموماً – وبين واجب الوجود بذاته ، ينبغي معرفة ماهو هذا « الواجب الوجود بذاته » . ففي كتابه « المباحثات » أبان ابن سينا ان « الوجود البريء عن المادة : اما واجب الوجود ، فهو واحد هو مبدأ للحركة بوجه ما فتقدم . واما غير واجب الوجود ، فهو واسطة بينه وبين الأجرام ، فهو أيضاً مبدأ للحركة » (٢) .

وفي موضع آخر يحدد ابن سينا علاقة الطرفين بأنها « نسبة تمام الى نقص » (٣) . والآن حينما نلاحظ الوجود – متبعين في ذلك ابن سينا نفسه – ليس بالنسبة الى « القدم » (حيث نجد القديم من حيث الذات والقديم من حيث الزمان) ، فاننا سوف نواجهه من خلال ثلاثة قطاعات ، وبالتالي ثلاثة مفاهيم : الأول هو الضرورة او الوجوب ، الثاني هو الامكان ، والثالث هو الواقع المتحقق . وانطلاقاً من ذلك يصبح الوجوب هو « الأول » ، والامكان المادة ، والواقع العالم المادي المتكوّن .

ان « الأول – واجب الوجود بذاته هو السبب الأصلي ، الذي ، كما راينا سابقاً ، يمنح الهيولى القدرة على اكتساب الصور . الا ان هذا « الأول » لا يتضمن لا حركة ولا ارادة (٤) . فهو غير خاضع لأي تحديد سوى انه « موجود بالضرورة » اطلاقاً (٥) . انه ليس بجسم ولا بمادة جسمية ، ليس بصورة جسمية ولا بصورة عقلية في مادة مصورة . انه لا ينقسم

(١) ابن سينا : الاشارات . . ، نفس المصدر والمعطيات السابقة ، ص ٨٦ .

(٢) ابن سينا : كتاب المباحثات . ضمن : عبد الرحمن بدوي ، نفس المعطيات السابقة ، ص ١٩٥ .

(٣) نفس المصدر السابق ، ص ١٨٢ .

(٤) ابن سينا : الاشارات . . نفس المعطيات السابقة ، القسم الثالث ، ص ١٥٦ .

(٥) ابن سينا : كتاب المباحثات – ضمن : عبد الرحمن بدوي ، نفس المعطيات السابقة ، ص ١٦٠ .

لا بحسب الكم ولا بحسب الكيف ولا بحسب المبادئ (١) . بل أكثر من ذلك، أنه لا يفهم إلا من خلال اسمه . أنه واحد ، « وليس الواحد فيه إلا على الوجه السلبي » (٢) . ومن حيث هو كذلك ، يثبت أنه « عاقل لذاته معقول لذاته » (٣) . ان ابن سينا يوغل في هذا « التحديد السلبي » للواحد الأول ، بحيث يجعل منه بريئاً « عن العلائق والعهد والمواد ، مما يجعل الذات بحال زائدة » (٤) . ذلك لأنه (أي واجب الوجود بذاته) إذا لم يُحدد على هذا النحو ، فان وحدانيته سوف تتضمن حيثيتين . وهذا ما يناقض « ذاته » (٥) . لقد انكر ابن سينا امكانية البحث عن أي تمايز ضمن «الأول» .

ان نفي الصفات والحيثيات عن هذا « الأول » ، ان تعريته من أي تحديد « ايجابي » بارجاعه إطلاقاً الى كونه « الأول » ، أي بنفي أي تحديد مضموني له ، قد جعل منه مفهوماً مقارباً لك « عدم » .

ولكن ابن سينا لا يقف عند هذا التحديد السلبي لك «أول» . بل يؤكد في مواضع أخرى عديدة أنه (أي الأول) العلة لكل شيء . وباعتبار أنه كذلك ، أي الأول ، فانه معلول لذاته . في هذه النقطة ومن خلالها نبلغ مرحلة حاسمة في فكر ابن سينا الفلسفي .

ان الايقال في تجريد « الأول » من الصفات والحيثيات جعل منه يخضع لضرورة عالمية . فهو (أي الأول) « لا يتغير سواء كان التغير زمانياً أو كان تغيراً بارادته (خط التشديد مني : ط.ت) » (٦) . هذه المسألة تظهر بوضوح اذا اخذنا بعين الاعتبار حقيقة أن ابن سينا لجأ الى فكرة «الفيض» ، التي حولها الفارابي الى نظام فلسفي عارض فيه النصية الدينية القائمة على « الخلق » عن عدم .

لقد قرأ أيضاً ابن سينا كتاب « ثيولوجيا » . وعنه استقى نظريته في الفيض عن واجب الوجود بذاته . ولكنه - ابن سينا - اخذ نظريته هذه عبر تأثيره بارسطو اولاً وبالرواقية ثانياً ، بشكل مباشر أو غير مباشر .

(١) ابن سينا : النجاة - ص ١٢٨ .

(٢) ابن سينا : نفس المصدر السابق - ص ٢٥٢ .

(٣) ابن سينا : الاشارات ... ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٧٨ .

(٤) نفس المصدر السابق والصفحة .

(٥) نفس المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

(٦) ابن سينا : شرح كتاب حرف اللام - نفس المعطيات السابقة ، ص ٣٠ .

وكحصول عميقة الابعاد والآفاق للفكر السينوي الفلسفي يبرز « العالم » في وحدة مادية ، علته ومعلوله منه ، أي من العالم واليه . لنقرأ ابن سينا : « أقول : ان صدور الفعل عن الحق الأول انما يتأخر عن البدء الأول لابزمان ، بل بحسب الذات » (١) . ان ما « يصدر » عن « الحق الأول » هو من هذا الحق الأول وعنه ، كثيراً كان أو واحداً : « ان الواحد من حيث هو واحد ، انما يوجد عنه واحد ... وليست الكثرة له (للمعلول) عن الأول . فان مكان وجوده امر له بذاته ، لا بسبب الأول ، بل له من الأول وجوب وجوده (خط التشديد مني : ط.ت) ، ثم كثرة انه يعقل الأول ويعقل ذاته كثرة لازمة ، لوجوب حدوثه عن الأول . ونحن لا نمنع أن يكون عن شيء واحد ذات واحدة ، ثم يتبعها كثرة اضافية » (٢) .

في الحقيقة ، نحن لانستطيع فهم كيفية « صدور » الكثرة عن الواحد لدى ابن سينا بمعزل عن رأيه الجوهرى حول « الواحد » كعلة لذاته وكمعلول لذاته . ان « وجوب وجود » المعلول الكثير عن الأول هو العقدة الفاصلة في الأمر .

لقد كتب ابن رشد عن « الفلاسفة المشرقيين » ، وابن سينا أحدهم (٣) ، أنهم « يرون ان الآلهة عندهم ، هي الاجرام السماوية على ما كان يذهب اليه » (٤) . ان هذا القول يعني ، بالنسبة الى ابن سينا ، التأكيد على أن « الموجود الأول » من العالم وضمنه .

وبالطبع ، لم يكن لابن سينا ان يصل الى هذه النتيجة الفلسفية انطلاقاً من فكرة « الفيض » فقط ، وانما لعبت نظرية « قدم العالم » الارسطية والنظرية الرواقية حول « العلة والمعلول » أو « التأثير والتأثر » ضمن العالم الذي هو « جسم مادي » ، دوراً كبيراً في هذا المضمار .

بعد التعرف على هذه الجوانب الأساسية من الفكر السينوي لانستطيع ان نأخذ كلام ابن سينا على عواهنه حين يقول : « فعل الباري مخالف لافعالنا . فانه لا يكون تابعاً لتخيل » . وكذلك ارادته مخالفة لارادتنا ، فان

(١) ابن سينا : تفسير كتاب « التلويجيا » من الانصاف . ضمن : عبد الرحمن بدوي - ارسطو منذ العرب ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٤٧ .

(٢) ابن سينا : النجاة - ص ٢٧٣ حتى ٢٧٨ .

(٣) انظر : ابن طفيل : حي بن يقظان ، الطبعة الخامسة - دمشق ١٩٦٢ ، ص ١٤/٤ .

، وايضا : ابن رشد ، تهافت التهافت ، القاهرة ١٩٦٥ ، القسم الثاني ، ص ٦٣٩-٦٤٠ .

(٤) ابن رشد : تهافت التهافت ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٦٤٠ .

فعله كما قال : كن فيكون « (١) . ان ابن سينا يكمل الصورة حول « فعل الباري » بقوله : « صور الموجودات مرتسمة في ذات الباري ، اذ هي معلومة له ، وعلمه لها سبب وجودها » (٢) . ففعل « كن » هو ، كما يظهر من الاستشهاد ، فعل ابداع وليس فعل خلق او تكوين او احداث : « الابداع هو ان يكون من الشيء وجود لغيره متعلق به فقط دون متوسط من مادة او آلة او زمان . وما يتقدمه عدم زمني لم يستغن عن متوسط . فالابداع اعلى رتبة من التكوين والاحداث » (٣) . وعلى هذا ، فان فعل « كن » لا يمكن فصله عن الفعل الآخر المطابق « فيكون » . فكلاهما وجهان لشيء واحد ، لحقيقة واحدة .

لقد رفض ابن سينا القول بـ « الخلق الزمني » كقول باطل (٤) . ذلك لانه بحسب ذلك « يتوجب على الباري ان يتغير من وضع الى آخر . فعليه ان ينتقل من وضع عدم الاستطاعة الى وضع الاستطاعة . او لانه بحسب هذه الفرضية يتوجب على الموجودات ان تتغير من وضع عدم الامكان الى وضع الامكان دون أي سبب خاص آخر » (٥) . بل اكثر من ذلك . ان ابن سينا يرى في « نجاته » ان القول بابداع « المعلول » من حيث الذات وليس من حيث الزمان يجعل الفاعل افعل ، لانه ادوم فعلاً .

وقد رأينا ان ابن سينا يلجأ مبدئياً الى مفهومي « العلة » و « المعلول » ليظهر العلاقة بين المبدع والمبدع ، هذه العلاقة المتسمة بالتعادل من حيث « الوجود » . اذ ان كليهما قديم وجودياً ، أي ان الزمان لا يحدث هنا من قدمية هذين القطبين . اما وجه الخلاف والتمايز والمفاضلة بينهما ، فانه يبرز في مسألة الماهية . لقد كتب ابن سينا مبيناً تلازم وجود العلة مع وجود المعلول : « فاذا وجدت (العلة) ، كانت طبيعة او ارادة جازمة او غير ذلك . وجب وجود المعلول . وان لم توجد وجب عدمه . وايهما فرض ابدأ ، كان ما بازائه ابدأ . . » (٦) ولذلك « لما كان كل واحد منهما يرتفع

(١) ابن سينا : كتاب المباحثات ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٣٣ .

(٢) ابن سينا : كتاب المباحثات ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٣٣ .

(٣) ابن سينا : الاشارات . . ، نفس المعطيات السابقة ، القسم الثالث ، ص ١١٥-١١٦ .

(٤) ابن سينا : تفسير كتاب « التلويح » من الانصاف ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٧٧ .

(٥) ابن سينا : كتاب الشفاء - نفس المعطيات السابقة ، ص ٥٥٦ .

(٦) ابن سينا : الاشارات . . - نفس المعطيات السابقة ، ص ١١٢ .

الآخر برفعه ، فكل واحد منهما كالآخر في التقدم والتأخر «(١) . ولايضاح هذه المسألة الجوهرية يلجأ ابن سينا الى التشبيه « وهو أن العلة ؛ كحركة يدك بالمفتاح ؛ اذا رفعت ، رفع المعلول ، كحركة المفتاح «(٢) .

وبما أن العلة ارفع من المعلول ذاتاً وماهيةً ، فلذلك يقال : « وأما المعلول ، فليس اذا رفع ، رفع العلة . فليس رفع حركة المفتاح ، هو الذي يرفع حركة يدك . وان كانت معها . بل يكون انما امكن رفعها . لأن العلة ؛ وهي حركة يدك كانت رفعت . وهما - اعني الرفعين - معاً بالزمان ، ورفع العلة متقدم على رفع المعلول بالذات . «(٣)

وهنا ينبغي استعادة فقرة من « الاشارات » اثبتناها سابقاً ، وهي تلقى ضوءاً ساطعاً على طبيعة العلاقة بين « العلة » و « المعلول » . في ذلك يقول ابن سينا : « وجود المعلول متعلق بالعلة ، من حيث هي على الحال (خط التشديد مني : ط.ت) التي بها تكون علة «(٤) . لاشك انه يوجد ، بحسب ذلك ، مستوى ما من التجانس بين العلة والمعلول ، وذلك لكي يكون المعلول معلولاً للعلة .

هكذا ، وعلى هذا النحو ، نجد اتجاهاً قوياً ضرورياً قائماً على تلاشي المفاضلة الذاتية بين العلة والمعلول . وبذلك تلتقي الأولى بالثاني ليس فقط من حيث القدم الوجودي ، وانما أيضاً من حيث تجانس الماهية .

ومرة أخرى نجد أنفسنا امام الفكرة السينوية العملاقة ، فكرة العالم الواحد المادي المجسدة بفكرة « الوجود الأول » من حيث هو علة ذاته ومعلول ذاته على حد سواء وفي آن واحد .

★ ★ ★

والآن نحاول رصد الجوانب الاساسية من نظرية ابن سينا حول العالم كما عرضناها سابقاً :

١ - الارتباط الوجودي العضوي بين المادة والصورة ، اللتين تكونان العالم .

(١) ابن سينا : الاشارات . . - نفس المعطيات السابقة ، القسم الثاني ، ص ٨٩ .

(٢) نفس المصدر السابق ونفس الصفحة .

(٣) نفس المصدر السابق ، ص ٩٠ .

(٤) ابن سينا : نفس المصدر السابق - القسم الثالث ، ص ١٠ - ١١١ .

٢ - العلاقة الجدلية بين المادة والصورة ، بحيث تتحول الأولى الى الثانية ، وبالعكس . هذا يعني الرفض لـ « ثنائية » واجب الوجود وممكن الوجود . اذ ليس لديه سوى « عالم واحد » ، على النحو الذي أبتناه . ف « واجب الوجود » يشكل مع « ممكن الوجود » وجوداً واحداً **ذاً مظهرين** ، واحداً عليّ وآخر معلولي .

٤ - ان الوجود الحقيقي (العالم) يوجد فقط من حيث هو متحرك ، من حيث حركته النوعية ، بمعنى صيرورته وتحققه .

٥ - ان الوجود الحقيقي ذاك موضوعي في وجوده ولكنسه يكتسب صورة ذهنية في دماغ الانسان .

٦ - الوجود الحقيقي (العالم) هو كذلك باعتباره ضرورياً في وجوده ، وباعتباره هو نفسه ينبوع الضرورة . ان وجوده ضروري بذاته دائماً . فالبحث عن مصادر أخرى له خلف ، لكونه ضرورياً على النحو **الذاتي** .

٧ - عن ذلك تنبثق النتيجة الضرورية ، وهي ان قانونية وجوده منه وفيه واليه . ان ابن سينا في هذا لم يؤكد السببية الطبيعية فقط ، وانما أيضاً الحقيقة التالية ، وهي ان ليس هنالك من عوامل أخرى تفعل في العالم غير عوامله هو نفسه .

٨ - من الضروري جداً الاشارة الى رأي ابن سينا في كيفية معرفة واجب الوجود للعالم . ان هذه مسألة تحمل في اثنائها آفاقاً رحبة تمت في اتجاه التأكيد على ان ليس لدى ابن سينا سوى عالم **واحد** ، يمكن تسميته بـ « العالم المادي الطبيعي » او « العقل الكوني الكلي » . والنتيجة في كلتا الحالتين واحدة . لقد كتب ابن سينا ان « واجب الوجود يجب ان يعقل ذاته بذاته على ما تحقق . ويعقل ما بعده من حيث هو علة لما بعده ، منه وجوده » (١) . ان واجب الوجود يعقل ذاته من حيث هو **علة ذاته** ، ويعقل غيره - ما بعده - من حيث هذا **الغير معلول له** . اين وجه الثنائية في هذا المقال ؟ ليس هنالك شيء من هذا ؛ انه واحد . اما بالنسبة اليه ، فان الامر الذي طرحه ابن سينا هنا على غاية من الخطورة والاهمية : ان ابن سينا هنا يشير ، ولو على نحو غير متميز وواضح ، الى واقع جدلي جوهرى ، وهو ان السائد في العالم هو « التأثير والتاثر الشاملان المتبادلان » . فبحسب

(١) ابن سينا : نفس المصدر السابق - ص ٢٠١ .

ذلك ، ينتفي القول بوجود سبب « واخذ » للعالم ، بل هناك اسباب لا تحصى . وكل من هذه الاسباب هو في نفس الآن مسبب . ان العلة تستدعي معلولها ، وهذا « العلول » هو على نحو معين من الانحاء علة للعلة السابقة التي هي على هذا النحو المعين « معلول » . ان هذا يعني أول ما يعني ان **العالم** ليس هو **أحد** وجوهه أو جوانبه ، وانما هو كل وجوهه أو جوانبه . انه يحتوي أصلاً الفعل ورد الفعل على نحو متبادل . وبالطبع ، من الضحالة ان نسم هذه الرؤية للمسألة بميسم الثنائية . هاهنا يمكن الحديث بشكل **جوهري** عن الواحد المتكرر والكثرة الموحدة . وهذا هو ولاشك جدلية المكتسب الكبير الذي حققه ابن سينا ، وتجاوز من خلاله ارسطو والماديين الطبيعيين الميكانيكيين .

اما الجانب الهرطقي في المسألة ، فانه يكمن في ان ابن سينا قد رفض ، بشكل مباشر أو غير مباشر ، الأخذ بمبدأ التسلسل ، وبالتالي التوقف بالتسلسل عند سبب نهائي ليس بعده من أسباب أخرى ، كما هو الحال بالنسبة الى « المحرك الذي لا يتحرك » لدى ارسطو . انه لم ينطلق أصلاً - وهذا يمكن اكتشافه في فكر ابن سينا اذا أخذ في كليته - من مثل هذا التسلسل ، بل ، كما رأينا ، من واقع التأثير والتأثير الشاملين المتبادلين .

ان ابن سينا حينما يقول ان واجب الوجود « يعقل سائر الاشياء من حيث وجوبها في سلسلة الترتيب النازل من عنده طولاً وعرضاً » (١) ، فانه - انطلاقاً من قوله بواجب الوجود كعلة لذاته وكمعلول لذاته - من الضلال ان نفهم المسألة من منطلق « التسلسل » الذي اشرنا اليه فوق . ذلك لأن واجب الوجود « يعقل سائر الاشياء من حيث وجوبها » . ليس هنالك من « اضافة » في العالم ، بل الكل ضروري من حيث العقل الكلي (واجب الوجود) . بالطبع ، يوجد ضمن هذا « الكل الضروري » « ممكن جزئي » . وهذا تعبير عن ان **الجوهر** ، اي واجب الوجود أو العقل الكلي ، يتمظهر في اشكال عديدة هائلة يضمحل منها الواحد لينشأ مكانه شكل آخر .

والآن ننتقل الى جانب آخر من جوانب « العالم » كما طرحه ابن سينا ، وهو « الجزء الذي لا يتجزأ » وموقفه منه .

٣ - ان قضية « الجزء الذي لا يتجزأ » قد احتلت مكاناً ليس ذا شأن كبير في منظومة ابن سينا الفلسفية ، وان كان ذا دلالة بليغة بالنسبة

(١) ابن سينا : نفس المصدر السابق - نفس الصفحة .

الى آراء ابن سينا العامة في الوجود. لقد كتب في احدى رسائله الفلسفية حول « مذهب الجوهر الفرد عند اليونان ، فيقول ان الراي القائل بأن الاجسام مركبة من الهيولى (المادة) والصورة لم يحدث في الاقدمين الا اخيراً ، بعد الوفا من السنين . لأن أوائلهم كانوا يرون ان الأجسام متقررة الوجود من اجزاء لها لا تتجزأ وأن من اجتماعها يحدث الجسم ، ولم يزل هذا الراي فيهم مدة ، وكان مقبولاً مسلماً ، ثم جعل يضمحل قليلاً على طارء الثقة باطلاع المتأخرين على ما قص عنه المتقدم حتى انفسه بالحيلة

« المتوهم للمداخلة ، يوجب أن يكون ملاقي الوسط ، ملاقياً للطرف الآخر ، ملاقة الوسط له . وان لا يتميز في الوضع . اذ لا فراغ عن لقائه . فحينئذ لا يكون ترتيب ، ووسط ، وطرف ولا ازدياد حجم » (١) . وفي الوقت الذي ينفي فيه ابن سينا المداخلة بين جهات الجزئين الموجود بينهما جزء وسط ثالث على هذا النحو ، فانه ، من طرف آخر ، يقول بمداخلة محدودة جزئية بين تلك الجهات . فليس هنالك ملاقات « بالأسر ، بل بقي فراغ وانقسم مايتلاقى » (٢) .

هكذا يرفض ابن سينا مذهب الجوهر الفرد - القول بجزء لا يتجزأ - انطلاقاً من اعتبارات ذات دلالة دقيقة حقاً . وقد انطلق ابن سينا في ذلك من اعتباره « أن للجسم مقداراً ثخيناً متصلاً » (٣) . وكون الجسم متصلاً ، الى جانب كونه منفصلاً ، يعني ان الاجزاء المكوّنة له تلتقي عن طريق التماس . وهذا الوضع يشترط بدوره أن يكون للاجزاء « جهات » . ان « الجهة » كما يعرفها ابن سينا ، هي « حدث في . . . الامتداد ، غير منقسم فهو (اي الحد) طرف الامتداد ، وجهة الحركة » (٤) في جزء متحرك .

وبما أن الجزء يمتد على نحو لانهائي ، بمعنى تجزئته اللانهائي ، فان الجهة ، التي اعتبرها ابن سينا غير منقسمة ، تتواجد بشكل دائم تبعاً في اجزاء الجزء المنقسم . وحينما يبرز ابن سينا امكانية التجزئة اللانهائية للجزء في الوهم (٥) ، فانه يعارض هذه الامكانية بامكانية التجزئة اللانهائية في الواقع . ان قول ابن سينا بالامكانية الاولى ينبغي ان يقيم انطلاقاً من فكر ابن سينا العلمي نفسه . فمما لانشك فيه أنه تمسكاً بالروح العلمية اراد أن يطرح المسألة تلك على شكل فرضية . فالوهم الذي يتحدث عنه ابن سينا ماهو الا الافتراض المبدع . لقد اعوزت ابن سينا الآلات التكنيكية الدقيقة التي يستطيع من خلالها تحقيق رايه حول الانقسام اللانهائي للجزء، فترك ذلك يتحقق فعلاً في قرننا العشرين هذا .

وهناك زاوية أخرى هامة تتعلق بآراء ابن سينا حول الجزء المنقسم

(١) ابن سينا : نفس المصدر السابق - ص ١٦ .

(٢) نفس المصدر السابق والصفحة السابقة .

(٣) نفس المصدر السابق - ص ٢٢ .

(٤) نفس المصدر السابق - ص ١٢٤ .

(٥) نفس المصدر السابق - ص ٢١ .

أبداً ، وهي ان الجزء هذا يوجد فقط ضمن علاقة عضوية مع الزمان والحركة . وانطلاقاً من هذه العلاقة نجد الزمان والحركة نفسيهما ، كالجزء نفسه ، متصلين . ومن حيث هما كذلك ، أي متصلان ، يعتبران أيضاً قابليين للانقسام بشكل لانهائي . لقد عبر ابن سينا عن هذا بوضوح ، حيث يقرر « .. انه لا يتألف ... مما لا ينقسم ، حركة ولا زمان » (١) . ان ابن سينا قد انطلق في رأيه هذا من وجهة نظره الأساسية حول « المادة » و « العالم المادي » . فالعالم المادي هذا قديم وأبدي من حيث هو متحرك وموجود في زمان . وهكذا أيضاً الجزء الذي ينقسم أبداً ، هذا الجزء الذي هو صورة مصغرة عن العالم الكبير .

ومن يتبصر في وضع المسائل على هذا النحو السينوي ، يتبين له أن ابن سينا قد رفض الأخذ بالتصور الميتافيزيقي القائم على التسلسل في الموجودات الذي ينتهي أخيراً بوجود أعلى . إن التسلسل مطلق ، بمعنى انه لا يوجد سبب واحد للوجود ، بل أسباب لا تحصى . ذلك لأن كل حلقة من حلقات الوجود هي في نفس الوقت سبب ومسبب . وهذا الرأي قد شهدناه سابقاً بمناسبة الحديث عن « واجب الوجود » و « ممكن الوجود » .

ان أفكار ابن سينا حول « الجزء الذي لا يتجزأ » تمنحنا القناعة بأنه قد عرف حقاً الدرية اليونانية من خلال مؤلفات أرسطو ومفكرين اغريقيين آخرين ، كما من خلال المتكلمين من أشاعرة ومعتزلة . وآراؤه هذه امتداد خلاق لآراء هشام بن الحكم والنظام حول مسألة الجوهر الفرد . والذي يجمع بين هؤلاء المفكرين هو معارضتهم المباشرة للذريين الاشاعرة الذين انطلقوا في تبنيهم لمبدأ الجزء الذي لا يتجزأ من مصادرات ايمانية تقوم على الاقرار بوجود قدرة غيبية بإمكانها تجزئ الجزء الى حيث يتوقف عن ذلك .

ان رفض ابن سينا لهذا التصور « الذري » اقترن بتأكيد على أن ليس من بداية ولانهاية للعالم ، وعلى أن هذا العالم موجود من خلال ذاته ، وليس من خلال علة غائية موجودة خارجاً عنه .

هكذا نجد مرة أخرى وبشخص ابن سينا البرهان على أن فكرة فلسفية ما - ونعني هنا فكرة الجزء الذي لا يتجزأ - يمكن أن تفسر على مناحي مختلفة جذريا . ففكرة الجزء هذه ، التي نشأت وتطورت على أيدي الذريين الماديين اليونان ، يحاول تفسيرها ضمن علاقات اجتماعية

(١) نفس المصدر السابق - ص ٢٢ .

طبقية معينة ومستوى علمي محدد على نحو مثالي إيماني ، بينما رفضها
انطلاق من مواقع فلسفية مادية هرطقية .

ان ابن سينا ، الذي حقق الخطوة الاولى على طريق تجاوز الاطار
المثالي والديني لمشكلات الوجود والمعرفة بشكل مفهوح عنه وحازم ، سوف
يجد لاحقاً في اشخاص مفكرين كبار ، امثال ابن طفيل وابن رشد ، المكملين
الاكثر تميزاً ووضوحاً في تلك المشكلات .

وبكلمة أخيرة نود ابراز أن ابن سينا ، الذي تأثر بأرسطو - في قضية
قدم المادة - وبأفلوطين والفارابي - في قضية الفيض الوجودي - ، استطاع
الوصول الى مذهب فلسفي واحد Monism أكد من خلاله على « العالم
الواحد مادياً » ، هذا العالم الذي هو ، في آن واحد علة ومعلول . وان
ما سيسميه سبينوزا لاحقاً بـ « الطبيعة الطابعة » و « الطبيعة المطبوعة »
نجدته هنا لدى ابن سينا - طبعاً مع وجود فوارق في الحزم والوضوح المادي -
تحت مفهوم العالم العلة والعالم المعلول ، أو العالم كواجب وجود والعالم
كممكن وجود .

ان ابن سينا ، ومن بعده بشكل خاص ابن رشد ، لم يساهم فقط
في تكوين الفكر الاوربي الحديث القائم على مذهب وحدة الوجود ، وانما
ساهم فعلاً الى حد ملحوظ في تكوين « التصوف » الاسلامي العربي
الوسيط . هذا نلاحظه بقوة في البنية الصوفية لفكر الحلاج وابن عربي
لاحقاً - قضية الحقيقة الواحدة و « احوالها » عند هذا الاخير مثلاً - .

ابن طفيل - الامتداد الطبيعي لفكر ابن سينا المادي الهرطي

١ - الرمزية الفلسفية والارهاب الفكري الغزالي .

ان معالجة الجوانب المادية الجوهرية في فكر ابن طفيل الفلسفي تشترط على نحو ضروري معالجة الوضع السياسي والفكري في عصره في الاندلس . وقد حاولنا ذلك في فصل سابق من هذا الكتاب . الا انه يبقى ضرورياً التعرض لذلك الوضع عبر معالجة فكر ابن طفيل المادي، وبالعلاقة مع « الرمزية » أو « التقية » التي سادت آنذاك .

لقد وصلنا من أعمال ابن طفيل الفلسفية قصته الشهيرة « حي بن يقظان » (١) . وقصته هذه لا يمكن في الحقيقة استيعابها ووضعها في مكانها من تاريخ الفكر العربي - الاسلامي الوسيط، بمعزل عن تفهم دقيق لظاهرة الرمزية أو التقية . فالازدواجية في الطرح للمشكلات الوجودية والمعرفية ، هذه الازدواجية التي تلف القصة تلك من اولها حتى آخرها ، تجذب حلها الصحيح ، اذا كشفت الملامح الأساسية للوضع السياسي والعقلي آنذاك . ان احد هذه الملامح يكمن في التناقض المتنامي آنذاك بين « الحكمة » والعلوم الطبيعية من طرف و « الشريعة » في جوانبها النصية من طرف آخر ، اي بين المتعصبين من رجال الدين والفلاسفة والمفكرين الأحرار . وقد كان تعاظم هذا التناقض تعبيراً غير مباشر عن الكفاح الذي دارت رحاه على نحو مكشوف ومستتر بين الارهاصات الاجتماعية البورجوازية المبكرة والجدور الاقطاعية العميقة في الحياة العامة للمجتمع آنذاك .

في ذلك الكفاح كانت « النصية » المعادية للتقدم الاجتماعي والفكري

(١) في احتفال حدث في بيروت عام ١٩٦٢ بمناسبة مرور ٨٥٠ سنة على ميلاد ابن طفيل تحدث المندوب المراكشي عن اكتشاف مخطوطة جديدة لابن طفيل تحمل عنوان « شعر ابن طفيل حول الطب العام » انظر حول ذلك : مجلة « الطريق » ، بيروت ١٩٦٢ ، عدد كانون الثاني وشباط ، من ٦٤-٦٧ .

قد فقدت الكثير من مواقعها . ومن قبل شهدنا هذا الاتجاه في الشرق العربي الاسلامي يكتسب مضامينه أكثر فأكثر . وقد مهد لذلك الاتجاه الفارابي . ثم أتى ابن سينا فأكسبه طابعاً حازماً في وضوحه الفلسفي المادي الهرطقي ، كما رأينا هذا في حينه . بل قبل الفارابي أخذ ذلك الاتجاه يتكون ويتبلور على أيدي المعتزلة بمعارضة متميزة وواضحة كثيراً أو قليلاً للاتجاه النصي (الارثوذكسي) . وقد ، رأينا كما سنرى ، ان إحدى نقاط المجابهة والمعارضة بين هذين الاتجاهين كانت « قدمية » العالم المادي . كما رأينا انه على طريق تأكيد « القدمية » هذه قد أمكن الوصول الى « العالم أو الوجود الواحد مادياً » .

ان رد الفعل ، الذي أبداه الاتجاه الآخر الايماني ، كان عنيفاً . ولاشك ان « الفزالي » (١٠٥٩ - ١١١١) قد استطاع اكساب رد الفعل هذا وتأثره القصوى .

ان كفاح الفلسفة السنيوية الناحية نحواً مادياً هرطقياً والتي نشأت وتطورت كمرآة فكرية فذة لذلك العصر ضد محاولات تطويع العقل الانساني من خلال اطر نصيئة فاقدة للحياة ، ان ذلك الكفاح كان مهمة فكرية نظرية ضرورية لاكساب خطوات التقدم على طريق الاقتصاد النقدي البضائعي البورجوازي المبكر وعلى طريق العلم الطبيعي والتكنيكي والاجتماعي اطارها النظري العام .

لقد ذكرنا ان الفزالي كان ، في فكره الفلسفي ، قمة الاتجاه الايماني . ففي كتابيه الاساسيين « تهافت الفلاسفة » و « المنقذ من الضلال » يشهر الفزالي حملة شاملة ضد الفلسفة والفكر العقلاني المادي عموماً . لقد كتب بوضوح : « وعلمت يقيناً انه لايقف على فساد نوع من العلوم ، من لايقف على منتهى ذلك العلم (أي الفلسفة) » (١) وانسياقاً مع هذا الرفض للفلسفة ، فقد وجب تكفير الفلاسفة السابقين واللاحقين : « فوجب تكفيرهم (للفلاسفة اليونان) وتكفير شيعتهم من المتفلسفة الاسلاميين ، كابن سينا والفارابي وغيرهما » (٢) .

لقد مارس الفزالي دوراً مدمراً ضد الفلسفة . وهو في ذلك استفاد كثيراً من تجارب السابقين ، وفي طليعتهم الاشاعرة ، في كفاحهم ضد الافكار

(١) الفزالي : المنقذ من الضلال - الطبعة التاسعة ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ٧٤ .

(٢) نفس المصدر والمعطيات السابقة ، ص ٧٨ .

العقلانية الهرطقية للمعتزلة .

لقد قسم الغزالي الفلاسفة الى ثلاثة اقسام :

« الصنف الأول : الدهريون : وهم طائفة من الاقدمين جحدوا الصانع المدبر ، العالم القادر ، وزعموا ان العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه بلا صانع . . وهؤلاء هم الزنادقة . والصنف الثاني : الطبيعيون : وهم قوم اكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة . . فراوا فيها من عجائب صنع الله تعالى وبدائع حكمته ، ما اضطروا معه الى الاعتراف بفاطر حكيم . . . الا ان هؤلاء . . ذهبوا (الى) ان النفس تموت ولا تعود ، فجحدوا الآخرة ، وانكروا الجنة والنار . . . وهؤلاء أيضاً زنادقة . . . الصنف الثالث : الالهيون : وهم المتأخرون منهم [مثل] : سقراط . . . وارسططاليس . . . وهم بجملتهم ردوا على الصنفين الأولين من الدهرية والطبيعية . . ثم رد ارسططاليس على افلاطون وسقراط ، ومن كان قبله من الالهيين . . . ، الا انه استبقى أيضاً من ردائل كفرهم وبدعتهم بقايا لم يوفق للنزوع عنها ، فوجب تكفيرهم وتكفير شيعتهم من المتفلسفة الاسلاميين ، كابن سينا والفارابي وغيرهما « (١) . وبالنسبة الى الـ « الهيين » ، فان « مجموع ماغلطوا فيه يرجع الى عشرين اصلاً » ، يجب تكفيرهم في ثلاثة منها ، وتبديعهم في سبعة عشر . ولا بطلان لمذهبهم في هذه المسائل العشرين صنفنا كتاب « التهافت » . اما المسائل الثلاث ، فقد خالفوا فيها كافة الاسلاميين وذلك في قولهم :

١ - ان الاجساد لا تحشر ، . . .

٢ - ومن ذلك قولهم : « ان الله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات » . . .

٣ - ومن ذلك قولهم بقدوم العالم وازليته ، فلم يذهب احد من المسلمين الى شيء من هذه المسائل « (٢) .

عن اقوال الغزالي هذه نستنتج نقطتين ::

١- الموقف الغزالي الحازم من مكافحة الفكر الآخذ بملامح مادية هرطقية ، والدعوة الى موقف صوفي يعلق قضية الوجود والمعرفة من حيث هي قضية فلسفية انسانية . والحقيقة ، ان الغزالي نفسه انتهى الى هذا

(١) نفس المصدر السابق - ص ٧٦ - ٧٨ .

(٢) نفس المصدر السابق - ص ٨٣ - ٨٤ .

الموقف الصوفي المرتاب الذي يلحق الانسان والعالم المادي دفعة واحدة بعلّة غائية قبلية . فهو في الوقت الذي كفر فيه الفلاسفة في القضايا التي اشرنا اليها ، يجهز على « الملاذ » الاخير للعلم والعلماء ، الذي اعتقد انه (اي ابن سينا) سيكون الارضية الخصبة لنمو العلم . اما عملية الاجهاز تلك فتكمن في انه متوجب علينا اعتبار « الطبيعة مسخرة لله تعالى ، لاتعمل بنفسها ، بل هي مستعملة من جهة فاطرها . والشمس والقمر والنجوم والطبائع مسخرات بأمره لافعل لشيء منها بذاته عن ذاته » (١) .

وحين يرفض الغزالي اطلاقاً وجود حركة « ذاتية » للطبيعة ، كما رأينا في قوله الأخير ، فانه بطبيعة الحال ينفي وجود « سببية » طبيعية : ليس من « ضرورة » في الطبيعة . فهو يقول شارحاً رأيه هذا : « الاقتران بين مايعتقد في العادة سبباً وما يعتقد مسبباً ليس ضرورياً عندنا بل كل شيئين ليس هذا ذاك ولا ذاك هذا ولا اثبات احدهما متضمن لاثبات الآخر ولا نفيه متضمن لنفي الآخر فليس من ضرورة وجود احدهما وجود الآخر . ولا من ضرورة عدم احدهما عدم الآخر مثل الري والشرب والشبع والاكل والاحتراق ولقاء الناس ... وان اقترانها لما سبق من تقدير الله سبحانه يخلقها على التساوق لا لكونه ضرورياً في نفسه ... فلنعين مثلاً واحداً وهو الاحتراق في القطن مثلاً مع ملاقة النار . فانا نجوز وقوع الملاقة بينهما دون الاحتراق ونجوز حدوث انقلاب القطن رماداً محترقاً دون ملاقة النار » (٢) . على هذا النحو استبدل الغزالي مفهوم « السببية » و « الضرورة » بمفهوم « المعجزة » الالهية والنبوية (٣) . كما ارجع المفهومين الأوليين الى « العادة » ، بمعنى اننا اعتدنا تسميتهما بذلك .

٢ - لقد كفر الغزالي ابن سينا (والفارابي) في ثلاث نقاط ، كما رأينا ، منعياً اياه من نقاط التكفير الأخرى التي قال بها الدهريون والطبيعيون ، ومنها انكار القول بـ « مدبر أول » للعالم . والحقيقة ان الغزالي لو انتبه لمجمل المنظومة الفلسفية لدى ابن سينا (بل أيضاً لدى الفارابي وآخرين) ، لاكتشف خلو الساحة السينوية من نمط ذلك « المدبر الأول » . فلدى ابن سينا يوجد ، كما فصلنا في ذلك سابقاً ، عالم واحد هو

(١) نفس المصدر السابق - ص ٨٣ .

(٢) نفس المصدر السابق - ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

(٣) الغزالي : تهافت الفلاسفة - نفس المطبوعات السابقة ، ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .

في آن واحد المدبّر والمدبّر . ولو كان قد تم هذا « الاكتشاف » ، لصنف ابن سينا في صفوف الدهريين ، كما عرفهم الغزالي . لقد أثار الغزالي قضايا فلسفية كان قد طرحها في حينه ابن سينا وآخرون من قبله من اليونان . لقد أثارها بقصد اثبات بطلانها . ونحن نستطيع رصدّها على النحو الذي فعله هو : ازلية العالم ، وأبدية العالم ، والعالم ليس صنع الله ، بمعنى ارتباط المعلول بالعلّة ، ونفي الصفات ، والقول بالدهر ونفي الصانع بمعنى الخالق من عدم ، ونفي علم « الاول » بالجزئيات ، والقول باستحالة خرق العادات - أي القول بالسببية الطبيعية ، وانكارهم لبعث الاجساد ، الخ ...

لقد أخذ الغزالي على عاتقه في كتابه « التهافت » أن يرد « على الفلاسفة القدماء مبيناً تهافت عقيدتهم وتناقض كلمتهم فيما يتعلق بالالهيات ... (هؤلاء الذين لا يكونون) الا شرذمة يسيرة من ذوي العقول المنكوسة والآراء المعكوسة الذين لا يؤبه لهم ولا يعبا بهم فيما بين النظر ولا يعدون الا في زمرة الشياطين الاشرار وعمار الاغبياء والاغمار ... » (١) . هكذا أصبح الفلاسفة اذن زمرة من الشياطين الاشرار ، والشياطين الشريرة ينبغي استئصالها من الجذور . انها مارقة ، غبية . وهي ، الى ذلك ، مفسورة !

لقد كان الغزالي في ذلك الممثل الكبير الفد للاتجاه المثالي الايماني ، المضاد للعقلانية في الفلسفة والعلم (٢) . والتحليل التاريخي العياني يُسري بوضوح أن الغزالي في منظومته المثالية الصوفية قد عكس على نحو مثير اتجاه الاضمحلال والانحطاط الاجتماعي والعلمي في المجتمع العربي الاسلامي ، هذا الاتجاه الذي حملته القوى الاجتماعية الاقطاعية آنذاك معارضة بذلك قوى التحول البورجوازي المبكر .

(١) نفس المصدر السابق - ص ٦ - ٧ .

(٢) كتب الاب يوحنا قنير في « الغزالي - طبعة ثالثة منقحة ، الجزء الاول ، بيروت ١٩٦٥ » : « وكالت المدارس النظامية تلك (وقد درس في احداها الغزالي) وسيلة لتأييد السنة ونفوذ السلاجقة ... واذا كان على الغزالي أن يناصر السلطان القائم ضد كل دعوة ملوية ، وأن يدافع من آراء أهل السنة ضد المبتدعة » - ص ٧ . وفي موضع آخر : « ان الغزالي لا يهدم (في تهافته) فلسفة معلومة - فلسفة الفارابي وابن سينا - ليبني فلسفة أخرى خاصة ، وانما يهدم الفلسفة جملة ، ويحط من قدرة العقل ، ليرفع من قدر الرّوح . وان الغزالي يمسد حريص على الهدم واظهار التناقض ، أكثر مما هو حريص على اظهار الحق ... » ص ٢٣ - ٢٤ .

وعلى ذلك يمكننا القول بأن الهجوم الذي اكسبه الغزالي إبعاده الشاملة
ضد العلم والفلسفة العقلانية والمتجهة اتجاهاً مادياً هرطقياً هو التعبير
العميق عن الرفض القاطع لـ « الجديد » الذي حملته بذور التطور
البورجوازي المبكر . انه تكريس لاتجاه العودة الى القديم ، ولكن عودة
كاملة شاملة .

ان العناصر الفلسفية المادية الهرطقية لدى ارسطو ، التي أخذت
من قبل الفارابي وابن سينا بعد أن قام هذا المفكران بتطوير ارسطو نفسه
في هذه النقاط ، اي بعد أن تجاوزاه تحت تأثير الوضع الحضاري الجديد
العربي - الاسلامي ، ان وجود تلك العناصر جعلت من ارسطو في نظر الغزالي
« العدو للاسلام » الذي ينبغي ان يكافحه باسم جميع المدارس والاتجاهات
الاسلامية ، أي من وجهة نظر كاثوليكية « (١) » .

ان اتجاهات الانفصال الاقطاعية في الداخل ، وهجمات الصليبيين
الاقطاعية ، وأخيراً القبضة الاقطاعية المدمرة لهولاكو ، ان هذا كله قد قاد
الى سقوط المجتمع العربي - الاسلامي الوسيط بأفاهه التطورية الخصيبة .
هذه العملية بمجموعها روفقت بارتداد واسع عن العلوم الطبيعية والفلسفة
والعقل ، وبمحاولة « احياء » ايماني صوفي لك « علوم » ، « علوم الدين » (٢) .

ان اللحظة الانسانية الفعالة والمبدعة التي تلف المنظومة الفلسفية
السينوية تخلي الساحة هنا لكائن استسلامي همه وفعاليته الوحيدة
تتركز في الهروب من العالم المادي الى العالم (الآخر) . لقد وجد الغزالي
في الصوفية الحل للمشكلة ، هذا الحل القائم على التوصل بها « الى
تخلية القلب عن غير الله .. » (٣) .

من مجمل ما سبق نستطيع ابراز النقاط الاساسية في عقيدة الغزالي
- حجة الاسلام - ، وهي :

١ - ليس من قديم سوى « الواحد الأحد » . أما العالم المادي فمحدث ،
له ابتداء كما له انتهاء .

٢ - ان « القديم » هو الذي يحدث العالم المادي ، وبالتالي فهذا
« القديم » قادر على الاحاطة بالعالم في جزئياته ، كما في كلياته . وكون

(١) دي بور : تاريخ الفلسفة في الاسلام - نفس المعطيات السابقة ، ص ١٤٢ .

(٢) انظر كتاب الغزالي : احياء علوم الدين - مصر ، ١٣٢٦ هـ .

(٣) الغزالي : المنقذ من الضلال - نفس المعطيات السابقة ، ص ١٠٠ .

« القديم » قادراً على ذلك ، مرتبط بكونه موجد العالم بارادة حرة ، بعد أن لم يكن . فالارادة مرتبطة هنا عضوياً بفعل « الخلق » للعالم من عدم محض اطلاقاً .

٣ - كما أن العالم المادي حادث ، مخلوق من عدم ، كذلك لايركن الى « الزمان » و « المكان » كوجودين موضوعيين . انهما مجرد اصطلاحين اقترحناهما نحن للتعبير « عن علاقة بين تصوراتنا » (١) . في ذلك يقول الغزالي : « كما أن البعد المكاني تابع للجسم ، فالبعد الزماني تابع للحركة ، فانه امتداد الحركة ، كما أن ذلك امتداد اقطار الجسم ... فلا فرق بين البعد الزماني الذي تنقسم العبارة عنه الاضافة الى « قبل » و « بعد » وبين البعد المكاني الذي تنقسم العبارة عنه عند الاضافة الى « فوق » و « تحت » (٢) .

٤ - لوجود لسببية طبيعية ، وانما هنالك « المعجزة » الالهية والنبوية . وهذا يعني رفض العقل الذي يشير الى وجود السببية هذه : « ومن استقرا عجائب العلوم لم يستبعد من قدرة الله ما يحكى من معجزات الانبياء بحال من الاحوال » (٣) .

٥ - لقد رفض الغزالي فكرة « قدم » المادة ولواحقها ، حيث انطلق من حدوثها واعتبر ان العالم المادي « حدث بارادة قديمة اقتضت وجوده في الوقت الذي وجد فيه وان يستمر العدم الى الغاية التي استمر اليها . وأن يبتدىء الوجود من حيث ابتدا » (٤) .

وهو بذلك قد حدد موقفه من ارسطو وابن سينا . انه عارضهما بمصادرة « الخلق عن عدم » محض اطلاقاً . من طرف آخر رفض الامكانية الثانية القائمة على تجاوز هذه المصادرة ، وهي فكرة « الفيض » أو « الصدور » التي استخدمها الفارابي بشكل اساسي ، ووجد ابن سينا

(١) من مقدمة كتاب « المنقذ من الضلال » بقلم جميل صليبا وكامل عياد ، نفس المعطيات السابقة ، ص ١٥ .

(٢) الغزالي : تهافت الفلاسفة - نفس المعطيات السابقة ، ص ٥٨ . هذا الموضع يستشهد به جميل صليبا وكامل عياد في مقدمتهما لكتاب « المنقذ » .

(٣) الغزالي : تهافت الفلاسفة - نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٩١ - ٢٩٢ . وعلى الصفحة ٢٧٠ يقول : أن « السحر والتارنجات والطلسمات والمعجزات والكرامات .. ثابتة بالاتفاق بأسباب غريبة لا يطلع عليها » . انظر ايضا ص ٣١٦ .

(٤) نفس المصدر السابق - ص ٢٦ .

بينها وبين فكرة « قدم » العالم الإرسطية ، بحيث خرج أخيراً بمذهب مثير للغاية قائم على «وحدة الوجود في ماديته» ، كما رأينا سابقاً (١) . انه (الغزالي) ينطلق من مبدئه : « لم يصدر من المبدأ الأول الا واحد » . وهو يوضح ذلك على النحو التالي : « فان قيل نحن لانبعد صدور حادث من قديم أي حادث كان يل نبعث صدور حادث هو أول الحوادث من القديم . . » (٢) .

وبما أن العالم حادث ، فهو غير صادر عن القديم (الاله) وانما مخلوق من هذا الأخير عن ليس . ذلك لأن « الحادث موجود بعد عدم » (٣) محض إطلاقاً . هاهنا إذن تكمن المشكلة : العودة المطلقة الى القديم ، هذا القديم الذي أخذ يستنفذ على نحو شامل من قبل الاطار الاجتماعي الاقطاعي المتبلور أكثر فأكثر شمولاً وعمقاً .

٦ - نقد تائثر الغزالي بالفكر الصوفي الاسلامي : « فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل : « قوت القلوب » لأبي طالب المكي (رحمه الله) ، وكتب « الحارث المحاسبي » ، والمتفرقات الماثورة عن « الجنيد » و « الشبلي » و « أبي يزيد البسطامي » [قدس الله ارواحهم] وغيرهم من المشايخ (٤) . الا أن الرفض المبدئي والحازم لـ « قدم » العالم ولو « صدوره » عن القديم جعله يقف عند حد ضروري في تأثره بالصوفية ، وبالضبط عند حد القول بـ « وحدة الوجود » ولو على أساس روحاني . ذلك لأن القول هذا يستدعي التخلي عن « الواحد الأحد » العلوي والمفارق . وهذه ولا شك نقطة أساسية في الفكر الغزالي .

٧ - وأخيراً موقف الغزالي من « الانسان » و « العقل » . ان هذا الموقف يُرينا على نحو أكثر مباشرة الدور الذي مارسه الغزالي في استئصال شافة « الجديد » وتكريس القديم بتوحيده مع « الحاضر الاقطاعي » . أولاً : « الانسان شرف بالمعقولات اما ليطلع على مصلحته في العواقب في الدنيا والآخرة واما لتكمل ذاته المظلمة الناقصة » (٥) . ثانياً : الغزالي يرد على الفلاسفة القائلين بأن الله « لا يعلم الجزئيات المنقسمة بانقسام الزمان الى

(١) الغزالي : نفس المصدر السابق - ص ١١٥ - ١١٦ .

(٢) نفس المصدر السابق - ص ٤٧ .

(٣) نفس المصدر السابق - ص ١٠٣ .

(٤) الغزالي : المنقذ من الضلال - نفس المعطيات السابقة ، ص ١٠٠ - ١٠١ .

(٥) الغزالي : بهافت التهافت - نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٧١ .

الكائن وما كان وما يكون» (١) ، بحيث يحصرون هذا العلم بـ « الكليات » .
أن الغزالي ، بانطلاقه من « خلق العالم » بارادة حرة قديمة ، يؤكد على
القدرة على الاحاطة « الشكلية والجزئية » بهذا العالم من قبل الخالق .
ثالثاً : « ان حقائق الامور الالهية لاتنال بنظر العقل بل ليس في قوة البشر
الاطلاع عليه » (٢) .

هكذا يتبدى الموقف الغزالي الحقيقي : الانسان عنصر سلبي مرهون
وجوده بالخضوع لقدر محكم منصاغة ملامحه الأساسية والثانوية على
نحو ضروري قبلي teleologic (٣) . وعلى ذلك ، يصبح الحديث عن
تغيير للحياة الاجتماعية الانسانية من خلال كفاح الانسان - المضطهد -
شيئاً من العبث ، بل تجديفاً يحصد نتيجته ذلك الانسان، التي هي القمع .
هذا هو الوجه الفكري للغزالي ، الفيلسوف الذي استطاع التعبير
بقوة وغلنى نحو شامل عن عصره الحضاري الاخذ بسرعة في التمزق والتكلسن .



في الوقت الذي انسلم فيه الفكر الفلسفي عموماً في المشرق العربي ،
والعقلاني الهرطقي منه خصوصاً ، القياد للاعقلانية والجزئية الميتافيزيقية
واللانسانية ، في الوقت الذي اخذ فيه الفكر هناك يدخل عالم « الوهم » ،
كان في المغرب العربي واقع جديد في عالم الفكر ، كما هو الحال في عالم
المجتمع ، يتحسس طريقه مغموراً بمطامح هائلة في التقدم الفلسفي
الانساني . وقد لاحظنا هذا الواقع يكتسب بنيانه منذ عهد الخليفة الأموي
الحكم الثاني (٩٦١ - ٩٧٦) .

ان العنصر الاساسي في ممارسة الفكر وجوده ، وهو الحرية ، هذا
العنصر الذي كوفح بلا هوادة من قبل الاتجاه الغزالي ، يستعيد قواه
وابعاده واتفاه في الاطار المغربي الجديد .

وانطلاقاً من الواقع الذي اتينا على تحليله سابقاً على نحو مفصل ،
وهو كون المجتمع - الاسلامي في المشرق والمغرب قد احتوى ثلاثة انماط
اجتماعية - اقتصادية ، هي الاقطاع والرقيق والبورجوازية الاولى

(١) نفس المصدر السابق - ص ٢٢٣ .

(٢) نفس المصدر السابق - ص ١٨٠ .

(٣) teleologisch

المبكرة ، انطلاقاً من هذا الواقع كانت امكانية الردة والعودة الى وراء - لصالح الاقطاع - واردة دائماً . هذا يتضح لنا خصوصاً اذا علمنا ان الاقطاع كان يتطور بوتائر اسرع واشمل من كلا النمطين الآخرين ، بحيث انه - وهذا رأيناه في فصل سابق من هذا الكتاب - أصبح لاحقاً المؤشر الحاسم في تحديد المجتمع العربي - الاسلامي الوسيط في المشرق ، وبعد ذلك في المغرب .

ضمن هذا الاطار العياني الزاخر بالمشكلات والتحويلات نجد الحاجب « المنصور بن ابي عامر » ، أحد ممثلي الاقطاع الاجتماعي والفكري آنذاك ، يُشهر حملة شعواء ضد الفكر العقلاني الهرطقي وضد العلم ، وذلك بعد أن اغتصب السلطة من هشام بن الحكم . لقد أدت تلك الحملة الى اتلاف واحراق التراث الفكري العلماني والفلسفي الهرطقي الذي جُمع باهتمام ودقة في مكتبة قرطبة أيام الحكم الثاني . وقد قدم لنا القاضي سعد في كتابه « طبقات الامم » وصفاً حياً لهذه الحملة الظلامية ضد الفكر الفلسفي والعلمي التقدمي .

ومما يدعو الى الانتباه هو أن « المذهب المالكي » قد استطاع منذ سيطرة الأمويين في الأندلس أن يكتسب لنفسه مواقع قوية أكثر فأكثر ضمن المذاهب الفقهية التي وجدت هناك (١) . ومن المعروف أن « المالكية » قد تمسكت بالنصوص ورفضت بالتالي امكانية التأويل العقلاني . وقد تغلغلت الى حد بعيد في اوساط الجماهير المؤمنة . هاهنا يكمن أحد المصادر الجوهرية للتناقض الذي انبثق وتبلور وتطور بين المفكرين والفلاسفة الذين عملوا على التحرك بحرية في فهمهم للمسائل الفلسفية والدينية وبين تلك الاوساط الجماهيرية التي تصدرتها مجموعة من الفقهاء النصيين . وقد استخدم هذا التناقض من قبل هذه المجموعة في مناسبات عديدة للظعن بالفكر الفلسفي العقلاني .

ان « تكفير » الغزالي للفلاسفة الآخذين بمنحى مادي هرطقي في المشرق ، قد « تبني » من قبل « المكفّرين » في المغرب . ذلك لأن التناقض بين الاقطاع المتبلد والارهاصات البورجوازية المبكرة في المشرق ، وجد مثيله في المغرب . والحقيقة ، نحن يمكن أن نجد فروقاً عديدة بين اقطاع واقطاع في الحقل الفكري ، ولكننا نجد أيضاً ناظماً مشتركاً بينهما يكمن في اسلوب

(١) انظر حول ذلك : ابن خلدون - المقدمة ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٤٥٠ .

التفكير *Method of thought* (١) . وحل التناقض هذا كان قد اكتسب مضامينه تحت تأثير توزيع القوى الاجتماعية الطبقية آنذاك . نحن نجد مثلاً أن الحكم الأول قد وقف في وجه الفقهاء متحيزاً إلى جانب العلماء والفلاسفة .

أن إتلاف كتب خزانة قرطبة بدافع من الحاجب المنصور بن أبي عامر ، ثم إحراق كتب الغزالي نفسه - وهذا لا يدعوا إلى الدهشة ، لأن الغزالي قد ناقش في كتبه الفلاسفة في آرائهم المثيرة التي اثبتتها في كتبه هذه ، وهذا لم يكن يرضي مطامع المتعصبين - بايعاز من الأمير المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين ، كما يخبرنا بذلك المراكشي في كتابه « المعجب في تلخيص اخبار المغرب » ، وأخيراً حرق مكتبة ابن رشد ونفيه بأمر من الخليفة الموحي الأخير ، أن هذا ، وأشياء أخرى ، لهو تعبير بليغ عن واقع الكفاح الذي دارت رحاه بين الانبعاثيين الاجتماعيين والفكرين الكبارين ، الاقطاعي - الايماني الفيصلي والبورجوازي المبكر - العقلاني .

ومن مظاهر التعقيدات الاجتماعية والفكرية آنذاك أنه في الوقت الذي أحرقت فيه مؤلفات الغزالي ، ومن ضمنها « إحياء علوم الدين » ، تسنم العقلاني الهرطقي ابن رشد مكاناً بارزاً في الدولة المرابطية . فابو بكر بن ابراهيم ، صهر الأمير المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين ، استثار « انزعاج فقهاء وجنوده بأخذه لابن باجه مستشاراً ووزيراً أول له » (٢) . وقد عمل هذا الوضع المركب والمعقد - ضمن ماعمله - على تهيئة المناخ الفكري والديني لتكوّن وتطور الأفكار التقدمية الناحية نحواً مادياً هرطقياً صريحاً لدى ابن رشد ، ومن قبله أيضاً كثيراً أو قليلاً لدى ابن باجه وابن طفيل (٣) .

في ضوء كل ماتقدم يستبين لنا بوضوح الدور الضروري الذي لعبته « الرمزية » أو « التقية » في تحديد إطار التحرك للمفكرين الذين أطرحوا التنصية والتأويل الفيصلي جانباً . أن المسألة تحددت إذن في النقطة التالية، وهي أن المفكر من ذلك الطراز لم يكن ليستطيع الإفصاح عما ارتآه افصاحاً تاماً .

Denkweise (١)

- (٢) دي بور : تاريخ الفلسفة في الاسلام - نفس المعطيات السابقة ، ص ١٥٨ .
(٣) انظر : هـ . لاي ، دراسة حول تاريخ المادية في العصر الوسيط ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٥٥ .

ان من لا يأخذ هذا الواقع التاريخي الخاص بعين الاعتبار ، يجد نفسه مكتوف الايدي تجاه ظواهر فكرية عديدة في تاريخ الفكر العربي - الاسلامي الوسيط ، مثل قصة « حي بن يقظان » لابن طفيل . والذي يستثير الانتباه على نحو خاص هو ان ابن طفيل نفسه قد قال لنا لماذا لم يستطع قول كل شيء أراد قوله فعلاً : ان من الامور الصعبة ان يظفر المرء بحقائق الأمور الدقيقة ، « ومن ظفر بشيء منه لم يكلم الناس به الا رمزاً ، فان الملة الحنيفية والشريعة المحمدية قد منعت من الخوض فيه ، وحذرت عنه » (١) .

والجدير بالذكر ان ابن طفيل ، الذي شعر بضرورة « التقية » و « الرمزية » ، هو نفسه الذي كان قد شغل مكانة طبيب ووزير الخليفة الموحيدي ابي يعقوب . هذا يعني انه بالرغم من الحماية التي اكتسبها ابن طفيل بحكم عمله ، لم يكن قادراً على الافصاح . وقد أوردنا امثلة حية على الحملات الارهابية التي كانت تشنها بين الحين والآخر القوى المتعصبة ، هذه القوى التي كوّنت ، عن وعي أو بدون وعي ، الواجهة الشرعية للارهاب الاقطاعي . كتب ي . هل مشيراً الى الظاهرة المتزايدة في حياة المجتمع العربي الاسلامي في المغرب ، ظاهرة احتلال الحياة الاجتماعية والسياسية من قبل الاعداد الضخمة من المتعصبين « الذين احسوا بقوتهم زمن الأمير الثالث (فـ) ثاروا عليه ، ولكن بعد ان رفعوا راية العصيان مرة اخرى دمر ذلك الأمير « ربضهم » الذي كانوا يقطنون فيه ، ورحل من سكانه ٦٠٠٠٠ من الاندلس » (٢) .

هذا من طرف . أما من طرف آخر فنشهد في تاريخ تلك الحقبة الاجراء الانتقامي بحق المفكر العملاق ابن رشد الذي أوعز به الخليفة الموحيدي ابو يوسف يعقوب (المنصور) تحت ضغط المتعصبين اولئك ، هذا الاجراء الذي تركز على انهاء ابن رشد اخلاقياً وفكرياً ، ان لم يكن جسدياً (٣) .

لقد كان ضرورياً ان نورد ما أوردناه لتستبين لنا حقيقة جوهرية

(١) ابن طفيل : حي بن يقظان - دمشق ١٩٦٢ ، الطبعة الخامسة ، ص ١١ .

(٢) ي . هل : الحضارة العربية ، نفس المعطيات السابقة ، ص ١٢٠ .

(٣) م . بيسار يكتب بأن هذا الخليفة قد أصدر ، تحت تأثير المتعصبين بياناً حظر فيه على كل فيلسوف ومفكر حر الدخول الى الحياة الاجتماعية العامة ، وكان ضمن هؤلاء ابو جعفر الصحابي وابن رشد . (م . بيسار : حول فلسفة ابن رشد - القاهرة ١٩٥٤ ، الطبعة الاولى ، ص ٢٥) .

لا يمكن ، بمعزل عنها ، استيعاب الفكر العربي الاسلامي الاخذ بمنحى مادي هرطقي والمناهض لاسلوب التفكير الاقطاعي على وجه العموم . هذه الحقيقة هي اننا مدعوون على نحو ضروري الى ان ننزع الستر والاقنعة لدى محاولتنا استيعاب المشكلات الحقيقية التي عمل ذلك الفكر على طرحها ، وبالتالي الى ان نقرا « ما بين السطور » ، وذلك بالاستعانة بمعالم التوجه الاجتماعي والفكري الجوهرية آنذاك . والا فسوف نفشل في تقصي واستخراج المشكلات الحقيقية تلك لدى ابن طفيل ومن ثم لدى ابن رشد .

لقد كان للفكر النصي الغيبي المثالي اكثر الاحيان ان يفصح عن ذاته ، بل ان يهاجم الفكر الهرطقي المادي بوضوح وبعنف ، ذلك لانه انكا على وسادة السلطة في عمله هذا . اما الفكر الهرطقي المادي فلم يكن له الا في مراحل تاريخية قليلة جدا ان يفصح ، او ان يهاجم الخصم .

٢ - ابن طفيل بين قدم العالم وإحداثه والقضايا المنبثقة عن ذلك

كانت ولادة ابن طفيل في مدينة « وادي آش » ، بالقرب من غرناطة ، وذلك في أوائل القرن الثاني عشر . ويقول لسان الدين الخطيب والمراكشي وابن خلكان « ان ابن طفيل قد قرأ العلم على جماعة من أهل الحكمة ، منهم : أبو بكر الصائغ المعروف « بابن باجه » وغيره » (١) .

وعلاقته هذه بابن باجه لها دلالتها في ايضاح بعض الجوانب من فكر ابن طفيل . إن ابن طفيل نفسه يكتب عن ذلك المفكر الكبير المغمور . فهو يقول انه لم يكن بين الفلاسفة « اثقب ذهناً ، ولا اصح نظراً ، ولا اصدق رؤية ، من ابي بكر بن الصائغ . واكثر ما يوجد له من التأليف انما هي كاملة ومجزومة من اواخرها ، ككتابه « في النفس » و « تدبير المتوحد » وما كتبه في المنطق وعلم الطبيعة » (٢) . ان ابا بكر هذا (ابن باجه) انتقد اولئك الذين حاولوا الوصول الى الحقائق عن طريق الخيالات واللدائد غير المدركة . انه « عاب ... هذا الالتذاذ على القوم ، وذكر انه للقوة الخيالية ، ووعد بان يصف ما ينبغي ان يكون حال السعداء عند ذلك ، بقول مفسر مبين » (٣) . على العكس من ذلك ، اشار هو الى ان الرتبة في

(١) اورده جميل صليبا وكامل عياد في دراستهما لـ « هي بن يقطان » - نفس المعطيات السابقة ، ص ١٤ .

(٢) ابن طفيل : نفس المصدر السابق - ص ١٢ .

(٣) نفس المصدر السابق - ص ٩ .

السعادة الحقيقية للإنسان » ينتهى إليها بطريق العلم النظري والبحث
الفكري « (١) .

هذه المعالم الأولية لفكر عقلاني هرطقي سوف نجدها أيضاً لدى ابن
طفيل . بل ان هذا الأخير يخطو خطوات أوسع وأخطر بالنسبة الى تاريخ
الفلسفة . وهذا ما سنشهد من خلال دراستنا له .

ان ابن طفيل يتابع المبدأ الذي اختطه في حينه ابن سينا . الا إنه لم
يستطع تعرية التباس أساسي في « قضية ابن سينا » . لقد كتب ما يلي :
« وأما كتب « أرسطو طاليس » فقد تكفل الشيخ أبو علي (ابن سينا)
بالتعبير عما فيها (وجرى على مذهبه) ، وسلك طريق فلسفته في « كتاب
الشفاء » ، وصرح في أول الكتاب بأن الحق عنده غير ذلك ، وأنه إنما ألف
ذلك الكتاب على مذهب المشائين ، وأن من أراد الحق الذي لا جمجمة فيه
فعليه بكتابه في « الفلسفة المشرقية » (٢) .

ان الالتباس يكمن في أنه اعتقد بأن ابن سينا قد نحا أولاً وأخيراً
منحى أرسطياً . والحقيقة ، أنه نحا ذلك المنحى ، ولكن هذا ليس كسل
شيء . انه تأثر الى جانب ذلك بـ « الصدور » أو « الفيض » الأفلوطيني
الفارابي . ولكن هذا « التأثير » تم انطلاقاً من فكرة « قدم » العالم
الأرسطي ، مما عمل على تكوين منظومة فلسفية مثيرة للدهشة لدى ابن
سينا ، منظومة قاعدتها وهيكلها قائمان على « وحدة وجود مادية » . وقد
أتينا على ذلك مفصلاً في حينه .

ان ابن طفيل تأثر بـ « فيض » أفلوطين والفارابي ، ولكن
من الملاحظ أن هذا التأثير قد رافقه اتجاه قوي وحازم للأخذ بـ « قدم
العالم » الأرسطي ، طبعاً من خلال وبعد تحويلات وتطويرات جديدة لهذه
الموضوعة .

ان « حي » ، الشخصية الرئيسية في قصة ابن طفيل الفلسفية « تفكر
في العالم بجملته ، هل هو شيء حدث بعد أن لم يكن ، وخرج الى الوجود
بعد العدم ؟ أو هو أمر كان موجوداً فيما سلف ، ولم يسبقه العدم بوجه
من الوجوه ؟ » (٣) . وعلماً ان طفيل ان « حي » لم يترجع عنده أحد الحكمين

(١) نفس المصدر السابق - ص ٧ .

(٢) نفس المصدر السابق - ص ١٣ - ١٤ و ٤ .

(٣) نفس المصدر السابق - ص ٥٤ .

على الآخر ، « وذلك انه كان اذا اُزْمِع على اعتقاد القدم اعترضته عوارض كثيرة ، من استحالة وجود [مسا] لا نهاية له ، بمثل القياس الذي استحال عنده به وجود جسم لانهاية له ، وكذلك [ايضاً] كان يرى ان هذا الوجود لا يخلو من الحوادث ، فهو لا يمكن تقدمه عليها ، ومالا يمكن ان يتقدم على الحوادث ، فهو ايضاً محدث . واذا اُزْمِع على اعتقاد الحدوث ، اعترضته عوارض آخر وذلك انه كان يرى ان معنى حدوثه ، بعد ان لم يكن ، لا يفهم الا على معنى ان الزمان تقدمه ، والزمان من جملة العالم وغير منفك عنه ، فاذا لا يفهم تأخر العالم عن الزمان » (١) .

هكذا يكون الأخذ بفكرة « القدم » مرهوناً بأمور أخرى ، يبدو أنها

تتطلب من عالم الفكرة ... عالم المادة ... « ان النهاية »

و « النهاية » للجسم المحدث . ان « الاجسام » تلتقي في نقطة اساسية ، وهي كونها تحتوي « امتداداً » يتحرك طبقاً للابعاد الثلاثة ، التي هي الطول والعرض والعمق (٢) . اما « الامتداد » هذا فهو نهائي ، ينتهي في نقطة معينة . واذا كان الامر على غير هذا النحو ، فان المرء سوف يقع في خلف . ابن طفيل يورد في سبيل البرهان على ذلك المثال التالي : لنفترض ان هنالك خطين وان « احد هذين الخطين » قطع منه جزء كبير من ناحية طرفه المتناهي ، ثم اخذ ما بقي منه واطبق طرفه الذي كان فيه موضع القطع ، على طرف الخط الذي لم يقطع منه شيء (واطبق الخط المقطوع منه على الخط الذي لم يقطع منه شيء) وذهب الدهن كذلك معهما الى الجهة التي يقال انها غير متناهية ، فاما ان نجد الخطين ابداً يمتدان الى غير نهاية ولا ينقص أحدهما عن الآخر ، فيكون الذي قطع منه (جزء) مساوياً للذي لم يقطع منه شيء وهو محال ، [كما ان الكل مثل الجزء محال] ، واما ان لا يمتد الناقص معه ابداً ، بل ينقطع دون مذهبه ويقف عن الامتداد معه ، فيكون متناهياً ، فاذا رُدَّ عليه القدر الذي قطع منه أولاً ، وقد كان متناهياً ، صار كله [ايضاً] متناهياً ، وحينئذ لا يقصر عن الخط الآخر الذي لم يقطع منه شيء ، ولا يفضل عليه ، فيكون اذن مثله ، وهو متناه ، فذلك (ايضاً) متناه ، فالجسم الذي تفرض فيه هذه الخطوط متناه ، وكل جسم يمكن ان تفرض فيه هذه الخطوط ، (فكل جسم متناه) . فاذا فرضنا جسماً غير متناه ، فقد فرضنا باطلاً ومحالاً » (٣) . عن ذلك ينتج بالنسبة الى ابن

(١) ابن طفيل : نفس المصدر السابق - ص ٥٢ .

(٢) ابن طفيل : نفس المصدر السابق - ص ٥٢ .

(٣) ابن طفيل : نفس المصدر السابق ، ص ٥٢ .

طفيل أن « الامتداد » شيء محدود ، ونهائي . وكما نرى ، فإنه لا يوجد هاهنا تطابق بين هذا المفهوم عن الامتداد من طرف وبين المفهوم المماثل لدى الذرية الرياضية القديمة من طرف آخر ، هذه الذرية التي سبق الحديث عنها والتي بحسبها ينبغي « أن تكون كمية عدد كبيرة بشكل لانهائي من ساعات ممتدة ، وإن كانت صغيرة الى حد كبير ، كبيرة بشكل لانهائي » (١) .

ان ابن طفيل يطرح قضية « نهائية الاجسام » جانباً ، حيثما يطرح آراءه الحقيقية حول العالم . وهذا يحدث لصالح الفكر المادي الهرطقي على نحو واضح وصريح . فبالرغم من احتفاظ ابن طفيل بالتصور عن «الاله» ، فإنه ، كطبيب وعالم يعتمد التجربة في بحوثه ، لم يستطع الا أن يؤكد على موضوع « قدم العالم » . ان منهجيته التجريبية النظرية وتأثره بالعقلاني الكبير ابن باجه وبابن سينا في اتجاهاتهما المادية الهرطقية قد قاداه الى ان يتخلى عن المصادرة الدينية الايمانية الخاصة بالخلق من عدم محض اطلاقاً .

الله يذكر عن «حي» ، بطل قصته البارزة ، بأنه كلما رأى نفسه تميل الى الاخذ بـ « الخلق الالهي » للعالم ، اعترضته صعوبات جدية دون ذلك . ذلك لان الاخذ بذلك يتضمن النتيجة بأن الزمان سابق على العالم المادي : « واذا اُزْمِع على اعتقاد الحدوث ، اعترضته عوارض آخر وذلك أنه كان يرى أن معنى حدوثه ، بعد أن لم يكن ، لا يفهم الا على معنى أن الزمان تقدمه » . ويتابع ابن طفيل مؤكداً على أن « الزمان من جملة العالم وغير منفك عنه ، فاذن لا يفهم تأخر العالم عن الزمان » (٢) . وكما فعل ابن سينا في حينه ، يطرح أيضاً ابن طفيل السؤال التالي ويجب عليه ضمناً من منطلق التأكيد على قدم العالم المادي ، أي عدم حدوثه : « اذا كان - أي العالم - حادثاً ، فلا بد له من محدث ، وهذا المحدث الذي أحدثه ، لم يحدثه الآن ولم يحدثه قبل ذلك ؟ الطارئ طراً عليه ولا شيء هناك غيره ، ام لتغير حدث في ذاته ، (فإن كان) فما الذي أحدث ذلك التغير ؟ » (٣) .

ان الفكر الأرسطي - السينيوي يتغلغل ، كما نرى ، بعمق في ثنايا المشكلات الأساسية التي يطرحها ابن طفيل .

إله ، أي ابن طفيل ، منطقي ومتماسك في تفكيره . فهو يرى أن من

(١) س. لوريا : بدايات فكر يوناني - نفس المعطيات السابقة ، ص ٧٤ .

(٢) ابن طفيل : حي بن يقظان - نفس المعطيات السابقة ، ص ٥٥ .

(٣) نفس المصدر والمعطيات السابقة .

يقول بقدّم العالم ، وبأن « العدم لم يسبقه ، وأنه لم يزل كما هو ، فان اللازم عن ذلك أن حركته قديمة لا نهاية لها من جهة الابتداء . إذ لم يسبقها سكون يكون مبدؤها منه » (١) . فالعالم قديم ليس من حيث الزمان فقط ، وإنما أيضاً ، وبشكل عضوي ، من حيث الحركة . ان هذا العالم يوجد في زمانه الخالد ، وفي حركته الخالدة .

ان الشكوك والصعوبات التي يعاني منها « حي » ، تحل وترفع لصالح إجابة مادية هرطقية ، وإن كانت مستترة ، فإنها متميزة وواضحة المعالم . فابن طفيل ، الارسطي السينوي ، أو السينوي الارسطي ، يكشف المسألة وحلها بالصياغة التالية : « والعالم المحسوس ، وان كان تابعا للعالم الالهي ، شبه الظل له ، والعالم الالهي مستغن عنه (وبريء منه) فانه مع ذلك (قد) يستحيل فرض عدمه ، اذ هو لا محالة تابع للعالم الالهي ، وانما فسادُه أن يبدل ، لا أن يعدم بالجملة (خط التشديد مني : ط.ت.) » (٢) . ويعقب على ذلك ، مسبغاً على رأيه الخطير هذا شرعية دينية : « وبذلك نطق الكتاب العزيز حيثما وقع هذا المعنى في تغير الجبال وتصييرها كالعهن والناس كالفرأش ، وتكوين الشمس والقمر ، وتفجير البحار ، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسّموات » (٣) . وهذا يظهر على نحو واضح كيف ان المفكرين العرب الاسلاميين الذين نحوا منحى مادياً هرطقياً عملوا على تبرير منطلقاتهم الفكرية ونتائجها المادية العقلانية بنصوص قرآنية . الا ان هؤلاء المفكرين قد عرفوا كيف يخضعون بإحكام تلك النصوص لاسلوب في التأويل أثبت قدرته على فتح أبواب لم يعد اغلاقها ممكناً في العصور اللاحقة ، والعصر الحديث منها على وجه الخصوص .

والحقيقة ان الملامسة النقدية لبعض التصورات الدينية الأساسية من قبل معظم المفكرين والفلاسفة العرب الاسلاميين كانت في حدود البدايات المبكرة للمجتمع الصناعي البورجوازي . ان تلك الملامسة ظلت كذلك ، ولم تكتسب طابع الهجوم الشامل على مجموع التصورات الدينية التسليمية التي تحولت الى الايديولوجية الاقطاعية . ولكن مهمة القيام بذلك الهجوم الشامل التي انيطت بالثورة البورجوازية الصناعية الديموقراطية التي كان لها ان تكتسب أبعادها الاقتصادية والاجتماعية والعلمية التكنيكية العميقة والشاملة لولا الردة الاقطاعية البدائية المنزلية ،

(١) نفس المصدر السابق - ص ٥٦ .

(٢) نفس المصدر السابق - ص ٨٢ .

(٣) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

ان تلك المهمة قد اسقطت نتيجة هذا التراجع الشامل .
ومع ذلك تبقى تلك الملامسة النقدية هامة حتى الحد الاقصى في
تاريخ الفكر النقدي عموماً . انها لم تتحول الى هجوم مركز للاسباب تلك ،
بل ركبت موجة التيار الديني ، كما اشرنا الى ذلك في موضوع آخر من هذا
الكتاب . فحققت بذلك مهمتها الاساسية .

لقد قلنا ان ابن طفيل رفض القول بنشوء العالم من حيث كليته . واكد
على قدمه الزماني الحركي : لا شيء ينشأ من لا شيء . ان هذه الفكرة العقدية ،
التي يحتويها الفكر اليوناني القديم بمجموعه ، تؤخذ من ابن سينا ومن ابن
طفيل بعده لتطور الى امام ضمن ظروف اجتماعية وفكرية ودينية وأخلاقية
معقدة ، ظروف تحتوي امكانيات الانفجار الايجابي التقدمي والسلبى الرجعي
على حد سواء . ان القول بحفظ العالم من طرف ، والتأكيد على فساد
فقط من حيث تحوله من طرف آخر ، كان قد شكل احدى الترسانات التي
انطلق منها الفكر الماسدي الهرطقي ليس فقط في العصر الوسيط العربي
الاسلامي ، بل أيضاً الاوربي . ذلك لأن هذه المسألة كانت المنطلق للتعرض
لمسائل أخرى عديدة بروحية ومنهجية هذا المنطلق .

لقد اتبع ابن طفيل وجهة النظر السينوية حول قدم العالم ، حينما
تعرض لمسألة تحديد العلاقة بين العالم والاله . فبالنسبة اليه كلا القطبين
هذين قديمان . إلا ان « العالم كله بما فيه من السموات (والأرض)
والكواكب ، وما بينها ، وما فوقها ، وما تحتها ، فعله (وخلق) ، وهو
متأخر عنه بالذات ، وان كان غير متأخر بالزمان » (١) . ومن أجل ايضاح
هذه المسألة المبدئية يستخدم ابن طفيل مثالا مماثلاً للمثال الذي استخدمه
ابن سينا في حينه في طرحه للمسألة المعنية هنا . فابن سينا أتى ، كما
راينا سابقاً ، بمثال حول « المفتاح » وحركة اليد التي تجعله في وضع
الفتح . بينما استخدم ابن طفيل مثالا حول « الجسم » . فهو يقول :
« اذا اخذت في قبضتك جسماً من الاجسام ، ثم حركت يدك . فإن ذلك
الجسم لامحالة يتحرك تابعا لحركة يدك . حركة متأخرة عن حركة يدك
تأخراً بالذات ، وان كانت لم تتأخر بالزمان عنها بل كان ابتداءهما معاً
فكذلك العالم كله معلول ومخلوق لهذا الفاعل بغير زمان » . ويلحق ابن
طفيل كلامه هذا بالآية القرآنية الاساسية التي تؤكد على عملية الخلق :
« انما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » (٢) .

(١) نفس المصدر السابق ، ص ٥٨ .

(٢) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

وبذلك يطرح ابن طفيل علاقة الاله بالعالم من حيث هي علاقة بين سبب ومسبب يتواجدان معاً ، دون سبق زمني للواحد عن الآخر . وقد رأينا في فصل سابق كيف حدد ابن سينا تلك العلاقة أيضاً كعلاقة بين سبب ومسبب ، وذلك باسم الآية القرآنية نفسها التي أتينا على ذكرها فوق (١) . والحقيقة ان ابن طفيل ، كابن سينا ، لم يعقلن هذا الجانب الديني الاساسي الخاص بـ « الخلق » فقط ، وانما وضعه كله على بساط البحث ، بحيث عارضه بنظرية « قدم » العالم .

ان ذلك قد انطوى، بطبيعة الحال، على نتائج غير مباشرة في اطار الحاد مستتر يؤكد من خلاله على الكيان الانساني ، وذلك باعطائه محتوى فعالاً ايجابياً .

لقد استخدم ابن طفيل المفهومين الارسطيين « الصورة » و « الهيولى » . والعالم الحسني يمثل الحقل الوجودي لهما . فالجسم يتألف منهما (٢) . أما الهيولى فهي ، على سبيل المثال ، الطين في كرة ما . بينما الصورة تمثل الطول والعرض والعمق في هذه الكرة . وهذا الجسم « لا يفهم ... الا مركباً من هذين المعنيين (أي الهيولى والصورة : ط.ت) ، وان احدهما لا يستغني عن الآخر » (٣) . انهما يشكلان وحدة لا تنقسم . ان الهيولى او المادة - فكلا هذين يشكلان بالنسبة الى ابن طفيل شيئاً واحداً - تبقى ثابتة على حال واحدة . أما الصورة ، التي تمثل في الكرة تلك امتدادها ، فانها تتبدل وتتعاقب على اوجه كثيرة . وحين يقول ابن طفيل بان « المادة والهيولى .. عارية عن الصورة جملة » ، فانه يعني بذلك المادة الاولى ، بالرغم من انه لا يسميها كذلك .

وهناك وجه بارز من وجوه نظر ابن طفيل حول الصورة . فهو يعتبر الصورة حياة . وهذه الاخيرة تعتبر عنده على انها المبدأ الداخلي المحرك . ان ابن سينا رأى في الحركة اسلوب وجود جسم ما او اي موضوع . كذلك رأى ابن طفيل الحركة مرتبطة بالمادة وبالزمان على نحو لا ينقسم . انها - اي الحركة - بالنسبة اليه « من اخص (خط التشديد مني : ط.ت)

(١) انظر : ابن سينا ، كتاب المباحثات - في كتاب : عبد الرحمن بدوي ، ارسطو عند

العرب ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٣٣ .

(٢) انظر : ابن طفيل ، حي بن يقظان ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٤٩ .

(٣) نفس المصدر السابق ، نفس الصفحة .

صفات الاجسام «(١) . وهو حين يؤكد بأن « جميع ما على وجه الأرض لا يبقى على صورته : بل الكون والفساد متعاقبان عليه ابدأ »(٢) ، فان الأمر يغدو واضحاً بأن النشوء والاضمحلال في العالم المادي مرتبط بتغير دائم في صورته ، وبأن الصورة وتغيرها تعبير عن الحركة . ان الصورة - أي الحركة - التي لا يمكن أن تنفصم عن المادة ، تتحول الى المبدأ الحيائي الداخلي لهذه المادة . في هذه المسألة نحس توافقاً عميقاً بين ابن طفيل وابن سينا . وهذا ما يؤكده وحدة الفكر المادي الهرطقي العربي الاسلامي الوسيط .

ان التنوع الخصب والثراء الحياتيين للعالم المادي يُعبر عنهما بعمق من خلال نوعية ودرجة وخصب الصورة - الحركية - . أي أن الصورة ، التي هي الحركة ، تتضمن الاجابة على السؤال التالي : كيف توجد الاشياء وكيف نحدد اشكالها ؟ ان ابن طفيل يحدد قصده هذا : « فما كان قوام حقيقته بصور أقل ، كانت أفعاله أقل ، وبعده عن الحياة أكثر ، فان عدم الصورة جملة لم يكن فيه الى الحياة طريق ، وصار في حال شبيهة بالعدم ، وما كان قوام حقيقته بصور أكثر ، كانت أفعاله أكثر ، ودخوله في الحياة أبلغ ، وان كانت تلك الصور بحيث لا سبيل الى مفارقتها لمادتها التي اختصت بها كانت الحياة حينئذ في غاية الظهور والدوام والقوة »(٣) . ولذلك كان « الشيء المتقوم بصورة واحدة هو الاسطقصات الأربع ، وهي في أول مراتب الوجود . . »(٤) . وهذه الاسطقصات « ضعيفة الحياة جداً ، اذ ليست تتحرك الا حركة واحدة »(٥) . فهناك تطور يلحق بالصورة وتتصاعد لها من الأدنى الى الأعلى . وهذا التطور يتصاعد من تلك الاسطقصات مروراً بالاجسام المركبة منها ، حتى يصل الى النفس الانسانية (الحيوانية) ، التي ينظر اليها ابن طفيل من منظور مادي ميكانيكي(٦) ؛ وأخيراً ، يصل الى

(١) نفس المصدر السابق - ص ٧٥ .

(٢) نفس المصدر السابق - ص ٦٥ .

(٣) نفس المصدر السابق - ص ٦٥ - ٦٦ .

(٤) نفس المصدر السابق - ص ٦٦ .

(٥) نفس المصدر السابق - نفس الصفحة .

(٦) « حتى وصل (حي) الى القلب . فقصداً اولاً الى الجهة اليسرى منه وشقها ، فرأى

ذلك الفراغ مملوئاً بهواء بخاري ، يشبه الضباب الأبيض ، فادخل أصبه فيه ،

فوجدته من الحرارة في حد كاد يحرقه ، ومات ذلك الحيوان على الفور فصاح

منده أن ذلك البخار الحار هو (الذي) كان يحرك هذا الحيوان ، وان في كل

شخص من اشخاص الحيوانات مثل ذلك ومتى انفصل عن الحيوان مات » . (نفس

المصدر السابق - ص ٣٦) .

الاجسام السماوية(١) . والتصاعد المتنامي هذا للصور يتعلق بدرجة تطور الجسم المادي ، بحيث أن « الحيوية » و « الانسجام » يتعاظمان بشكل طردي مع عملية التصاعد تلك .

ان هذه القضية التي يلح عليها ابن طفيل لها أهمية خاصة في تاريخ مقولة « التطور » في الحقول المختلفة ، وليس فقط في الحقل الفلسفي . انه ينظر هنا الى التطور كخاصة من خصائص الاشياء المتحركة (المصورة ، أي الحائزة على صور) من منظور يلامس بقوة الرؤية الجدلية المتميزة مادياً .

لقد استطاع ابن طفيل في قصته الأساسية في تاريخ الفكر العربي الاسلامي الوسيط أن يثير بشكل عميق واحدة من اعقد القضايا الفلسفية ، وهي وحدة العالم المادي . ففي خلال عملية العمل التي يمارسها (حي) وبمساعدة ادوات العمل التي انتجها هو(٢) ، والقوى الطبيعية التي اكتشفها(٣) ، وكذلك من خلال تقليد الحيوانات والظواهر الطبيعية(٤) ، يستطيع (حي) أن يطور بشكل خلاق سلوكه العملي وقدرته الفكرية النظرية ، وهذا يتم على يد (حي) دون تقديم عون من أي توجه ديني .

ان عالم النشوء والتحول ، العالم المادي ، يتضمن في نفس الآن الوحدة والتميز : لقد تصفح حي « جميع الاجسام التي في عالم الكون والفساد : من الحيوانات على اختلاف انواعها ، والنبات ، والمعادن واصناف الحجارة والتراب والماء والثلج والبرد ... فرأى لها أوصافاً كثيرة وافعالاً مختلفة ، وحركات متفكة ومتضادة . وانعم النظر في ذلك ، والتثبت ، فرأى أنها تتفق ببعض الصفات وتختلف ببعض ، وأنها من الجهة التي تتفق بها واحدة (خط التشديد مني : ط.ت) ، ومن الجهة التي تختلف فيها متفايرة ومتكثرة (خط التشديد مني : ط.ت) »(٥) . والجدير بالملاحظة هو أن ابن طفيل لم يطرح المسألة هذه على أساس جدلي فقط ، وانما أيضاً - وهذا ينبغي رؤيته ضمن الاطار الفلسفي العام لديه - ضمن مفهوم مادي عن العالم (أي ضمن مفهوم وحدة الوجود المادية) : ان (حي) ينظر الى الشيء الذي اتحد به عنده النبات والحيوان (وكذلك الاشياء

(١) نفس المصدر السابق - ص ٦٦ - ٧٦ .

(٢) نفس المصدر السابق - ص ٣٦/٣١ - ٣٧ .

(٣) نفس المصدر السابق - ص ٣٤ - ٣٥ .

(٤) نفس المصدر السابق - ص ٢٨ - ٣٤ .

(٥) نفس المصدر السابق - ص ٣٩ - ٤٠ .

الجامدة) ، فيرى أنه جسم [ما] مثل هذه الاجسام : له طول وعرض وعمق ، وهو إما حار وأما بارد ، كواحد من هذه الاجسام انتي لا تنحس ولا تتغذى ، وانما خالفها بافعاله التي تظهر عنه بالآلات الحيوانية والنباتية لاغير . ويتابع ابن طفيل مشيراً ، على نحو غير مباشر ، الى الخاصية الميكانيكية للأجسام ، وهي حركتها الميكانيكية : « ولعل تلك الافعال ليست ذاتية وانما تسري اليه من شيء آخر ، ولو سرت الى هذه الاجسام الأخر ، كانت مثله » (١) . بطبيعة الحال ، لم يكن لابن طفيل أن يدنو من مفهوم للحركة الفيزيائية أو الكيميائية أو البيولوجية ، هذا الذي تحقق بعده بعدة قرون . وهذا ما جعله يلجأ ، على طريقة الماديين الميكانيكيين ، الى القول بنفي الفعل الذاتي عن الاجسام اللاحية لكي يستطيع تفسير الفرق بينها وبين الاجسام الحية . ان اللجوء الى حركة « خارجية » أو « دفعة خارجية » يبرره المعجز المعرفي النظري آنذاك . فحتى علم الميكانيك (الحيل) لم يكن ليستطيع طرح مسألة الحركة الميكانيكية على نحو جدلي ، وذلك لخلاء الساحة من العلوم الأخرى ، مثل الكيمياء والبيولوجيا . الا ان مفهوم ابن طفيل عن الحركة والجسم المادي يبقى هاماً جداً ضمن الحالة الاجتماعية التاريخية والعلمية والفلسفية التي وُجد فيها .

ان ابن طفيل يصل ، على لسان بطل قصته ، الى النتيجة الجوهرية وهي « أن الأجسام كلها شيء واحد : حيها وجمادها ، متحركها وساكنها . . . (وان) الوجود كله شيء واحد » (٢) .

وعلى هذا الطريق نجد ابن طفيل يحقق تماسكاً كبيراً في رؤيته للوجود المادي من حيث هو لابدائي ولا نهائي ، ومن حيث هو يمثل وحدة شاملة عضوية . وقد استطاع ، في هذه المسألة ، ان يتجاوز ليس فقط الفارابي ، وانما أيضاً ابن سينا ، وذلك من خلال اسلوب فلسفي يحقق وحدة « المجرد » مع « الحسني » بشكل مشير .

ومفهوم المادة أو العالم المادي يكتسب على يد ابن طفيل ، كما رأينا ، صيغة واضحة الى حد كبير . ان هذا يمكن تقصيه بوضوح أكثر ، حينما يأتي المرء على رأيه (رأي ابن طفيل) في التكون التاريخي للمعرفة . والحقيقة ان رأيه هذا يحتل مكاناً مركزياً في قصة « حي بن يقظان » . والذي يحيط بهذه القصة بشكل دقيق ، تنبعث فيه القنابة بأن ابن طفيل قد طمح من

(١) نفس المصدر السابق - ص ٤٢ .

(٢) نفس المصدر السابق - نفس الصفحة .

ذلك في كشف تاريخ المعرفة الانسانية وتدوينها بأسلوب فلسفي ادبي جذاب .

ان « حي » يقدم لنا صورة حية عن عملية ارتفاعه على عالمه الطبيعي المحيط المباشر ، وذلك عبر سيطرته العملية والنظرية على هذا العالم . وخلال ذلك يبرز لنا دور اليد الكبير (١) ، وأدوات العمل والمقارنة والملاحظة (٢) ، والفرضية (٣) ، وتقليد الحيوانات والظواهر الطبيعية ، وأخيراً دور التجربة (٤) في تحصيل المعرفة الحقيقية عن العالم وعنه نفسه (أي عن حي) .

والشيء المثير للدهشة حقاً فيما يخص « مفهوم » المادة او العالم المادي لدى ابن طفيل ، هو أن الوصول الى هذا المفهوم يتم عبر سلسلة مطولة وعميقة من التجارب العملية الحية التي يقوم بها حي في فترة تاريخية معقدة . وخلال ذلك يرتفع حي من المباشر الحسي الى اللامباشر المجرد ، ومن المفرد الملموس الى العام المفهومي (٥) .

ان التطور النظري المعرفي الذي ألمّ بـ « حي » استمر زمناً تاريخياً محدداً . والمعرفة تنشأ وتتطور تاريخياً كانعكاس للعالم المادي الموجود موضوعياً . ان هذه القضية تعالجها قصة « حي بن يقظان » بوضوح ودقة . بهذا المعنى نجد « مفهوم المادة » لدى ابن طفيل يمثل نتاجاً تاريخياً من نتاجات حي النظرية .

ولاشك ان « تاريخية » المعرفة تشكل مع « وحدة العالم » المادية إحدى المكتسبات الكبيرة التي حققها الفكر الفد لابن طفيل في تاريخ الفكر الانساني عموماً . وفي هاتين المسألتين تخطى ابن طفيل مجموع الفكر العربي الاسلامي السابق . فاول مرة يطرحهما بهذا الشكل المتماص والواضح فكرياً .

أخيراً تبقى قضية العلاقة بين الاله والانسان لدى ابن طفيل بحاجة الى البحث ، وذلك بالعلاقة مع وجهة نظره حول المادة والعالم المادي . وحيثما يتم ذلك ، نستطيع استخلاص النتائج الضرورية عنه .

(١) نفس المصدر السابق - ص ٢٨ .

(٢) نفس المصدر السابق - ص ٢٧ - ٢٨ .

(٣) نفس المصدر السابق - ص ٣٠ .

(٤) نفس المصدر السابق - ص ٣٦/٣١ - ٣٧ .

(٥) نفس المصدر السابق - ص ٢٧-٣٠/٣٩-٤٠ .

ان ابن طفيل يؤكد في قصته الفلسفية بشكل دائم امكانية وصول الانسان الى اسمى الحقائق ، التي هي الاله - او العالم الواحد - ، وذلك ضمن شروط عقلية وروحية معينة . اننا نلاحظ هنا اتجاهاً قوياً لدى ابن طفيل قائماً على مذهب « وحدة الوجود » المادية **Pantheism** . ان «حي» يبلغ المرحلة القصوى في فعاليتها النظرية والعملية . فابن طفيل يحدثنا انه (أي حي) « لما فني عن ذاته وعن جميع الدوات ولم ير في الوجود الا الواحد (الحي) القيوم ، وشاهد ما شاهد ، ثم عاد الى ملاحظة الاغيار عندما افاق من حاله تلك التي هي شبيهة بالسكر ، خطر بباله انه لاذات له يفاير بها ذات الحق (تعالى) وأن حقيقة ذاته هي ذات الحق ، وأن الشيء الذي كان يظن أولاً انه ذاته المغايرة لذات الحق ، ليس شيئاً في الحقيقة ، بل ليس بشيء الا ذات الحق ... » (١) .

ان هذا الرأي حول الاله ، الذي ينتزع الاله الاسلامي الديني من « علويته » و « مفارقتة » ، يؤدي الى التأكيد على عملية أنسنته وتحويله باتجاه العالم (٢) . والجدير بالذكر أن ابن طفيل قد أكد ذلك بارتباط مع رايه في قدم المادة أو العالم المادي . وهذا يبري بدوره الفرق الأساسي بين وحدة الوجود لدى ابن طفيل وابن سينا من قبله وابن رشد من بعده على الطرف الأول وبين الآراء والتصورات الخصبة الشيقة لدى المتصوفة الاسلاميين العرب ، وخصوصاً الحلاج وابن عربي . فالفلاسفة وصلوا الى رؤيتهم حول « وحدة الوجود » بالعلاقة مع تبنيهم لمفهوم المادة الارسطية القديمة وتطويرهم له بشكل خلاق ، بينما وصل المتصوفة اولئك الى تصوراتهم حول وحدة الوجود تحت تأثير التصوف المسيحي وتأثير التأويل الذي قاموا به لبعض المسائل الدينية الاسلامية .

ان ابن طفيل قد توصل ، من خلال آرائه حول العالم الالهي الواحد ، الى ازالة الهوة بين الانسان والاله . فالاله في الانسان ، والانسان في الاله . وكلاهما تجسيد للعالم الالهي الواحد . وهذا يعني أن ماتبيناه سابقاً من موازاة العالم للاله في الوجود القديم في قصة « حي بن يقظان » يفقد موقعه في هذا « العالم الالهي الواحد » ، حيث تحول الاله الى « روح » العالم « المادي » .

(١) نفس المصدر السابق - ص ٧٦ - ٧٧ .

(٢) **Säkularisierung** .

ولاشك أن ذلك قد تم — آخذين بعين الاعتبار الواقع العقلي السائد آنذاك — لصالح قيمة الإنسان وموضوعية العالم .

أما **العقل** فقد مارس في ذلك الدور الوحيد . أنه هو الذي أوصل الإنسان إلى هذه الآراء والنتائج المترعة بالآفاق المادية الهرطقية التنويرية . والشخصية الثانية في قصة « حي بن يقظان » آسأل يتخلى ، بعد تعرفه على حي والاتصال به بشكل عقلي مفصل ، عن مواقفه الدينية الإيمانية ليأخذ بالعقل منبراً ومنهجاً له في سلوكه النظري والفكري (١) .

إن ابن طفيل لم يطمح من ذلك إلى إقامة انسجام بين الشريعة والحكمة ، بقدر ما عمل على التأكيد على الدور الحاسم للعقل في تحقيق الحقائق الأكثر جوهرية للإنسان في حياته العامة والخاصة .

إن قصة « حي بن يقظان » كانت وستظل شاهداً حياً بارزاً على التقدم الفلسفي المادي الهرطقي في العصر الوسيط عموماً . ولاشك أن ابن رشد قد حصد النتائج الأخيرة من مجموع خط التطور الفكري الوسيط . لقد تعرف على ابن طفيل عن قرب وتأثر به ، دون شك ، في آرائه تلك التي حملت في ثناياها آفاق تقدم فكري علمي بخلاق .

(١) نفس المصدر السابق — ص ٩٢ .

ابن رشد - قمة الفكر المادي العقلاني الوسيط تلاشي الثنائية بين العالم والآلة

١ - لقد بلغ الفكر الفلسفي العربي - الاسلامي في العصر الوسيط
مرحلته العليا والنهائية في شخص ابن رشد الفذ .

ولد ابن رشد في الأندلس العربية الاسلامية (اي جنوب إسبانيا
ومراكش) في مدينة قرطبة عام ١١٢٦ ، ومات في ١١ كانون الأول عام
١١٩٨ . فهو قد عاش في فترة زمنية استطاع فيها « الموحدون » أن يأكدوا
أنفسهم كوارثين ومتممين ومطورين لمثلي العصر الحضاري المادي والثقافي
في الشرق - في دمشق وبغداد . لقد بنى الموحدون هؤلاء دولتهم على الأسس التي
خلقها ووطئها الأمويون في الأندلس ، وخصوصاً أثناء حكم الخليفة الحكم
الثماني .

لقد كانت قرطبة المدينة التي ولد فيها ابن رشد وعاش فيها فترة
هامة من عمره . ونشأ ضمن عائلة لها نفوذها العلمي والسياسي . فجدّه ،
الذي مات عام ٥٢٠ هـ ، كان قاضي قرطبة ووجهاً لامعاً من وجوه المذهب
المالكي . وفي عام ١١٦٩ مارس ابن رشد وظيفة قاضي اشبيلية ، ووظيفة
قاضي القضاة في قرطبة عام ١١٧١ . وقد مهد ابن طفيل ، الفيلسوف
والطبيب الأندلسي ، لابن رشد التعرف على الأمير « أبو يعقوب يوسف » ،
حيث كوّن هذا بداية أساسية وهامة في نشاط ابن رشد الفكري . فهو
قد كلف من الأمير ذلك بدراسة أعمال أرسطو وكتابة شروح عليها (١) .

وقد كان للأفكار الثورية العلمية ، التي أتى بها ابن رشد ، عواقب
مرمجة بالنسبة اليه . إذ أن الرجعية الدينية والسياسية حقدت عليه
بعنف ، مما أدى إلى تقيده إلى مدينة أليسانة - قرب قرطبة ، كما أحرقت

(١) ان « المراكشي » يصف في كتابه « المعجب في تلخيص اخبار المغرب » ، حسب رواية
لتلميذ لابن رشد ، اللقاء الذي تم بين ابن رشد مع الأمير هذا بحضور ابن طفيل .

كتبه . وقد كان ذلك بداية معركة عصبية وحاقدة ضد الفلسفة والفكر العقلاني عموماً . إلا أن تغير ميزان القوى الدينية والسياسية جعل الأمير يغفو عنه بعد مدة ، فعاد والتحق بالبلاط . إن الباحث المتقصي لتاريخ ابن رشد لا يسعه إلا أن يأخذ بعين الاعتبار الواقع التاريخي التالي ، وهو أن التناقض السياسي والفكري بين قسم كبير من جماهير الشعب - وعلى رأسها رجال الدين المتعصبون - وبين الفلاسفة والمفكرين الأحرار والأخدين بالعقل منطلقاً أساسياً لهم ، قد حدد طابع الوضع السياسي والفكري في عصر ابن رشد . وقد تذبذب الأمراء والسلاطين بين هذين الاتجاهين الرئيسيين . وإن استطاع ذلك التناقض أن يطبع التطور الفكري في الأندلس بميسمه ، فإنه قد ساهم خلال ذلك في تعقيد الطريق أمام الفلسفة والفكر حتى الحد الأقصى . وقد أصيب ابن رشد ، كما أصيب ابن باجة من قبله ، بشكل مباشر بسهام النصيين والمتعصبين . إن المرء قد أحس هناك قليلاً أو كثيراً ، بشكل مباشر أو غير مباشر ، بموجة الإرهاب الفكرية التي سادت في البلد . ولاشك أن هذا الوضع التاريخي يضع أمام مؤرخي الفلسفة والفكر بشكل عام مهمة دقيقة وعميقة ، هي فهم واقع الإرهاب الفكري ذاك وأخذه بعين الاعتبار ، حيثما يعملون على تقييم ما قدمه لنا مفكرو ذلك العصر . إنهم ، أي مؤرخي الفلسفة أولئك ، لا يحق لهم ، إنطلاقاً من ذلك الواقع التاريخي ، أن يطلبوا من مفكري العصر ذاك أن يكونوا قد قالوا كل شيء أرادوا قوله فعلاً . إن الرمزية ، أو الأسلوب الرمزي في الكتابة ، والتورية كانا قد احتلا مكاناً هاماً في كتاباتهم الفكرية .

كذلك ينبغي فهم الخط النسبي من قيمة الجماهير (السوق) المتمثل في دفاع الفلاسفة عن تميزهم عن الجماهير تلك ، إنطلاقاً من واقع الإرهاب الفكري الذي قاده المتعصبون - ومن خلفهم الجماهير الموجهة بهذا الاتجاه - ضد الفلسفة والفكر العقلاني الحر .

وفي الحقيقة ، كانت الذهنية (الايديولوجية) الاقطاعية هي السائدة آنذاك على مستوى الحياة العامة الواسعة ، وقد تميزت هذه الذهنية بالنصية والجمودية والغيبية المعادية للعلم والعقل . كما تميزت بمحاولتها إخضاع جميع أشكال الوعي الاجتماعي ، من فن وأخلاق وسياسة وفلسفة الخ ... لمقتضيات مهماتها في تكريس وتوطيد العلاقة الاجتماعية البدائية والانسانية .

ونحن حين نلاحظ ان ابن رشد ، ومن قبله آخرون امثال ابن طفيل ، قد جعل من « الجماهير » اقل قدراً وقيمة من « الفلاسفة » او المفكرين بشكل عام ، فانه من الضروري التأكيد على أن ذلك قد تمّ بغاية الدفاع عن الفلسفة والفكر العقلاني عموماً ، وبغاية تجريد الذهنية الاقطاعية الغيبية تلك من ادعائها بأنها القيمة على الفلسفة وعلى العقل . وبمعنى آخر ، ان الفلاسفة الاسلاميين العرب العقلانيين والماديين لم يكونوا ضد الجماهير ، بقدر ما كانت هذه الاخيرة ضد الفلسفة . هذا يظهر ان القول بوجود « حقيقتين » ، حقيقة فلسفية عقلانية وحقيقة دينية ايمانية ، كما هو الحال لدى بعض الفلاسفة العرب الاسلاميين الوسيطيين ، ومنهم ابن رشد نفسه ، ان ذلك القول لم يكن في حقيقة الامر سوى تصعيد لواقع التناقض الحاصل بين الفلاسفة والجماهير المتعصبة آنذاك وتكثيف فكري له . ان نظرية « الحقيقتين » تعكس ، على نحو طريف يستدعي الانتباه والاهتمام ، ذلك التناقض العدائي . ووقوف معظم الفلاسفة القائلين بتلك النظرية الى جانب الحقيقة الفلسفية العقلانية كان يفرض عليهم معارضة الجماهير المتفاداة باتجاه تعصبي . فحين كتب ابن رشد « اما الفلاسفة ؛ فانهم طلبوا معرفة الموجودات بعقولهم لامستندين الى قول من يدعوهم الى قبول قوله ، من غير برهان . . » (١) ، فانه كان يضع نصب عينيه ذلك الواقع الجماهيري التعصبي ، الذي لا يقوم على « البرهان » وانما على « الايمانية » . تبعاً لهذا الوضع التاريخي المعقد ينبغي على الباحث ان يتقصى الخيط الاحمر المميز في مذهب احد الفلاسفة او المفكرين ضمن اكوام هائلة من القضايا والقضايا الجانبية من خلال طرحه مسألة الميل الجوهرى تاريخياً في ذلك المذهب ، وتجنبه الوقوع في اشياء لها ، من حيث اطارها التاريخي ، أهمية جانبية ، أي من حيث علاقتها بذلك « الميل الجوهرى » .

لقد ساهمت اربعة عوامل في ارساء أرضية متينة لفكر ابن رشد ، هي :
١ - التطور البارز والملاحظ للاتجاه الارسطي المادي على يد ابن سينا في المشرق ، وابن باجه وابن طفيل في المغرب العربي ، هذا الاتجاه الذي اكتسب هنا وهناك مضامين مادية وعقلانية عميقة .

٢ - التأثير الفكري الكبير الذي مارسه مؤسس دولة الموحدين ابن تومرت بشكل مباشر على التطور الفكري الثقافي ضمن هذه الدولة . فهو

(١) ابن رشد : نهالت التهالت - تحقيق سليمان دنيا ، دار المعارف بيمر ١٩٦٤ ،

من ٣٤٥ - ٣٤٦ .

قد اتفق ، كما يخبرنا المراكشي ، مع المعتزلة فيما يخص قضية «الصفات» وقضايا أخرى، وذلك عبر معارضة واضحة للآراء الأشعرية في هذا الحقل (١) . ان هذا يظهر لنا بوضوح في كتابه « أعز ما يطلب » ، حيث يمكن هنا ملاحظة اتجاه نحو « وحدة الوجود » .

٣ - كعامل ثالث يمكننا اخذ الحملة التي اشتهرت ضد مؤلفات الغزالي بإيعاز من المرابطي « علي بن تاشفين » . ان الرجل (الغزالي) ، الذي زتدقت تحت رايته المعادية للتقدم الفكري والاجتماعي في الشرق العربي الافكار العلمية العقلانية والمادية ، يعتبر هنا ، أي في المغرب العربي ، « زنديقا » وتحرق كتبه . هذا يعني ان الحصار الذي أحكم ضد الفلسفة هناك لم يكتسب هنا أهمية ملحوظة . على العكس من ذلك ، نجد انه في نفس الوقت ، الذي امتنهن فيه وكوفح « فكر » الغزالي المثالي الغيبي ، كانت الفلسفة العقلانية المتضمنة ميلاً مادياً قد اكتسبت من خلال كفاحها ضد « النصية » الغيبية أهمية خاصة لدى حكام تلك السلالة المرابطية ، وعلى الخصوص على يد الفيلسوف الكبير ابن باجه . وقد تم ذلك بالرغم من الهزات الكثيرة والعميقة التي شهدتها عصر الموحدين .

إن هذه العوامل الثلاثة استطاعت ان تمارس دورها في إرساء خلفية عقلانية فكرياً وتقدمية اجتماعياً لفكر ابن رشد الفد فقط حيث كان الوضع الاجتماعي - الاقتصادي والسياسي العام أرضاً خصبة من أجل ذلك .

٤ - وهذا يدعونا الى التاكيد الواضح على البنية الاجتماعية - الاقتصادية والسياسية والحقوقية التي ساهمت ، كإطار هام وبشكل غير مباشر ومتوسط ، في تكوين فكر ابن رشد ذاك . إن هذه البنية تميزت ، كما عرضنا ذلك بشكل مفصل تقريباً في قسم سابق من هذا الكتاب ، بتقدم الانتاج البضائعي وتعاضم دور النقد ، تطور الراسمال الصناعي والراسمال التجاري ؛ بالرغم من ان ذلك بقي ، وخصوصاً في مراحل اضمحلال الدولة العربية الاسلامية الوسيطة ، معرضاً لخطر انتصار العلاقات الاجتماعية الاقطاعية انتصاراً حاسماً في مجموع حقول الدولة تلك . الى جانب ذلك نلاحظ انه لم يتشكل في الدولة الاسلامية العربية جهاز كهنوتي مستقل و متميز من الناحية الاجتماعية الطبقية عن مجموع قطاعات المجتمع ، وان كان هذا قد برز في الفترات الاخيرة اللاحقة من تطور

(١) انظر حول ذلك : م . بيسار ، حول فلسفة ابن رشد - نفس المعطيات السابقة، ص ٢٣ .

الدولة تلك . المهم في هذا الأمر هو انه كانت هنالك حرية فكرية وسياسية نسبية مارستها الاوساط غير المسلمة ، بحيث وضع التعدد في الأديان ، مما افسح مجالاً لمجابهة التعصب الديني حتى من خلال موقف لاديني .

وقد برز هذا الموقف العقلاني الجريء في تراث ابن رشد . فهو الذي كتب السطور التالية الثورية ، التي ساهمت بشكل أو آخر في التأثير الايجابي على لسنج Lessing الالماني (١٧٢٩ - ١٧٨١) مثلاً في مسرحيته الفكرية الشهيرة « ناتان الحكيم » ، : « فبين انه يجب علينا أن نستعين على مانحن بسبيله بما قاله من تقدمنا في ذلك . وسواء كان ذلك الغير مشاركاً لنا أو غير مشارك في الملة فان الآلة التي تصح بها التزكية ليس يُعتبر في صحة التزكية بها كونها آلة لمشارك لنا في الملة أو غير مشارك اذا كانت فيها شروط الصحة » (١) .

ان ابن رشد ، الذي تأثر بالاطار الثقافي العام الذي تكون ضمن عوامل عديدة ، اشرنا اليها ، ومن ضمنها ابن تومرت المذكور سابقاً ، دافع عن ارسطو في جوانبه المادية ضد الغزالي اللاعقلاني المثالي والمعادي للارسطية، وذلك بالعلاقة مع دفاعه الحماسي العميق عن المعتزلة - الذين تأثر بهم في حينه ابن تومرت هذا - في نقطتين أساسيتين ، هما قضية « صفات الذات » وقضية « العدم أو اللاشيء » . ولقد فعل ابن رشد هذا عاقداً مذهبه الفلسفي على مسألة « وحدة الوجود » .

٢ - والآن ، من خلال هذا المركب من القضايا وانطلاقاً من التناقض المميز والأساسي ، الذي عرضنا له سابقاً ، بين الجماهير الشعبية الموجهة ضد الفكر العقلاني الحر وبين ممثلي هذا الفكر ، سنحاول معالجة قضية المادة والعالم المادي بكل تعقيداتها وتفرعاتها وامتلائها في نظام ابن رشد الفلسفي ، ولكن على طريق استيعاب نظريته في « المعرفة » . أي اننا نحاول هنا دراسة مانسميه ب « الانطولوجيا » و « الفنوصيولوجيا » عنده .



انطلاقاً من ارسطو ، لكن عبر تطويره واغنائه وبالتالي تجاوزه ، يوجه ابن رشد نقداً أساسياً جذرياً لنظرية « المعرفة » الافلاطونية ، القائلة بتحصيل المعرفة من قبل الانسان ليس من خلال كشف حقيقي لجوانب جديدة من شيء أو قضية ، وانما من خلال « تذكر » للمعرفة التي يمتلكها

(١) ابن رشد : فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال ، مصر ١٣١٩ هـ ، ص ٤٠.

في لحظة ما ، حينما كانت نفسه (أي الانسان) في « عالم المثل » ، عالم النفوس المجردة من المادة المحسوسة الفاسدة . وفي هذه الحال لا يمكن ، كما يظهر من المسألة ، التحدث عن معرفة جديدة يحققها الانسان في حياته ، كذلك يصبح ، من طرف آخر ، مستحيلًا ان نعتبر « المعرفة » الانسانية الوجود الموضوعي معكوساً بشكل نظري في ذهن الانسان العارف .

بالعكس من ذلك ، يقرر ابن رشد في مؤلفاته ، كما نرى ذلك مثلاً في « تلخيص كتاب النفس » و « تلخيص مابعد الطبيعة » ، ان تحصيل « الكليات » يشترط بالضرورة وجود معطين ، هما الواقع الخارجي الموضوعي من طرف أول ، ثم الحواس كوسيط مباشر بين الواقع ذاك وبين الكليات (أي المفاهيم والمقولات ، مثل مفهوم الوجود أو مفهوم الانسان) من طرف آخر . ولهذا فعلينا أولاً ، كما يعني مفكرنا ، ان نحس شيئاً ما ، لكي نستطيع ، على أساس ذلك ، استيعابه « فكرياً » . وبما ان « الكليات » ليست فطرية في الدماغ الانساني ولا تدع نفسها تكتسب من خلال « تذكر » ما مزعوم لشيء كان ولا يزال موجوداً في عالم « المثل » ، وانما هي انعكاس وتعميم ذهني (نظري) لمواضيع وأشياء وظواهر مشخصة خارجية موضوعية ، بسبب ذلك كله اذن تنشأ وتتطور الكليات هذه تاريخياً ، في وقت محدد . ان ابن رشد بفكره العلمي الوثاب يجابه وهم المعرفة كـ « تذكر » بنظرية مادية (حسية) علمية مقننة تعمقها رؤية جدلية أولية : « انه اذا تؤمل كيف حصول المقولات لنا ، وبخاصة المقولات التي تلتئم منها المقدمات التجريبية ، ظهر انا مضطرون في حصولها لنا ان نحس أولاً ، ثم نتخيل ، وحينئذ يمكننا اخذ الكلي . ولذلك من فائته حاسة ما من الحواس ، فاته معقول ما ؛ فان ألاكمه ليس يدرك معقول اللون ابداً ، . . . وليس هذا فقط بل يحتاج . . . الى قوة الحفظ ، وتكرر ذلك الاحساس مرة بعد مرة حتى ينقذ لنا الكلي . ولهذا صارت هذه المقولات انما تحصل لنا في زمان (التشديد مني : ط.ت) . . . وبالجمله فيظهر ان وجود هذه المقولات تابع للتغير الموجود في الحس والتخيل اتباعاً ذاتياً . . . والاّ امكن ان نعقل اشياء كثيرة من غير ان نحسها ، فكان يكون التعلم تذكراً ، كما يقول افلاطون » (١) . ويتابع ابن رشد في تبیان طبیعة المعرفة وطريقها مشدداً على العلاقة الانطولوجية (الوجودية) الوثيقة بين « الكلي » و « الجزئي » ، وذلك

(١) ابن رشد : تلخيص كتاب النفس - واربع رسائل ، نشرها احمد فؤاد الاهواني ، ١٩٥٠ ، الطبعة الاولى ، القاهرة ، ص ٧٩ - ٨٠ .

— وهنا مرة أخرى — بالتعارض مع وجهة نظر افلاطون المثالية الميتافيزيقية ومع وجهات نظر الكلاميين والفلاسفة المثاليين القبيين ، الذين عاشوا قبله في اطار الدولة العربية الاسلامية الوسيطة ، مثل أبي الحسن الاشعري والغزالي : « وبالجمله فيظهر ظهوراً اولياً ان بين هذه الكليات ، وخيالات اشخاصها الجزئية ، اضافة ما بها صارت الكليات موجودة ، اذ كان الكلي انما الوجود له من حيث هو كلي بما هو جزئي ، ... » (١) وهنا يبلغ ابن رشد النتيجة الفلسفية المادية الاساسية والرئيسية : « وهو من البين ان هذه الكليات ليس لها وجود خارج النفس مما قلناه . وان الموجود منها خارج النفس انما هو اشخاصها فقط » (٢) .

والجدير بالاهتمام الكبير ان ابن رشد يطرح تلك المسألة الجوهرية ، مسألة الكليات والجزئيات وسير المعرفة في اطارهما ، بعلاقة عضوية مع « التجربة » الانسانية بشكل عميق يدعو حقاً الى الدهشة . فهو يقول : « فانه يظهر عند التأمل ان جل المعقولات الحاصلة (لنا) منها ، انما تحصل بالتجربة ، والتجربة انما تكون بالاحساس اولاً ، والتخيل ثانياً » (٣) .

بناء على ما سبق نستطيع استخلاص خطوط أساسية رئيسية في نظرية ابن رشد حول « المعرفة » ، هذه الخطوط التي تحتفظ بأهميتها

١ — ان « الموضوع » الخارجي الموضوعي ، او المادة او العالم المادي على وجه العموم هو الاسبق في الوجود على الوعي او العالم العقلي ، وان وجود هذا العالم الاخير (العقلي) مرتبط بوجود العالم الاول (المادي) ، ولا يصح العكس — أي ارتباط العالم الاول بالثاني . فكما نرى ، قدم ابن رشد في اطار نظرية المعرفة ، متأثراً بأراء ارسطو في « المعرفة » ، حلاً مادياً للعلاقة الفلسفية الأساسية بين الفكر والواقع المادي ، بين الوجود الفكري (أي الوعي) والوجود المادي .

٢ — ان موضوع او ينبوع المعرفة الانسانية هو العالم الخارجي الموضوعي . وهكذا فالمعرفة ليست عملية استعادة لا أفكار موجودة مسبقاً

الموضوعي الخارجي ، وهي مشروطة بهذه المعطيات . ان مفهومى « الجدة » و « التطور » ينتفيان في نظر القائلين بالمعرفة ك « تذكر » ، ويصبح العالم بما فيه المعارف البشرية تردداً لما سبق . فالغائية القبلية التي تحدد ، حسب افلاطون وآخرين في اطار الدولة العربية الاسلامية الوسيطة ، لكل شيء في عالمنا آفاق وجوده ونموه ، هذه الغائية يرفضها ابن رشد متسلحاً في ذلك بسلاح العلم التجريبي والعقل المتحرر من نير التأطيرات الغائية القبلية الميتافيزيقية .

٣ - ابن رشد يطرح ، خلال ذلك ، جانباً أساسياً هاماً من جوانب المعرفة . فهو يفهم هذه الأخيرة على أنها الوجه النظري من الوجود المادي الموضوعي وعلى أنها بالتالي ، وان لم يُصرَّح بذلك بوضوح ، انعكاس لذلك الوجود « . . انا مضطرون في حصولها لنا أن نحس أولاً » ، ثم نتخيل . . . » . ان وضع « المعرفة » في مكانها من الوجود كانعكاس لهذا الوجود لايعني فقط « ضبطها » ضمن ناظم منهجي دقيق ، وانما يقدم أساساً متيناً وواضحاً لانطلاق المعرفة عبر آفاق فسيحة من التطور ، آفاق لاتتأخى مع « اللادرية » و « التشكيكية » .

٤ - ان روح التقدم الاجتماعي - الاقتصادي والعلمي والتكنيكي في المجتمع العربي الاسلامي الوسيط مارست ، في فكر ابن رشد ، تأثيراً متميزاً خلاقاً . وقد برز هذا في تأكيد العقلاني المادي على التجربة العملية والعلمية كوسيلة أو كوسيط لامناص منه في تحصيل المعرفة بين الوجود المادي الموضوعي والوجود الفكري . والتجربة اذا اخذناها بالمعنى الواسع ، بمعنى الممارسة ، فانها سوف لن تقتصر على كونها طريق المعرفة ، وانما ايضاً معيار صحتها . ان ابن رشد لم يلاحظ هذا الجانب الثاني من المسألة الا بشكل غامض .

ونحن نستطيع استشفافه فقط من سياق المسألة كما طرحها ابن رشد . ولكن المهم في هذا الامر في خطه « المعرفي » هو اقصاؤه المتاهات الدائية والميتافيزيقية من نطاق عملية تكون وتطور المعرفة . وكان هذا ، دون أي ريب ، مجابهة غير مباشرة لتصورات النصيين المتبلدين في عصره .

٥ - وهناك نقطة أخرى في نظرية ابن رشد حول المعرفة لها اهمية خاصة وجديرة فعلاً باهتمام الباحث ، وهي تاريخية المعرفة . فهذه لاتتحقق نتيجة حدس أو قبس فكري بشكل فجائي ، وانما تتم عبر عمليات معقدة

وطويلة في الاحساس والفكر الانسانيين .

لقد شاهدنا في فصل سبق من هذا الكتاب كيف اشتطاع ابن طفيل ان يميظ اللثام عن مسألة النمو التاريخي للانسان ، وضمن ذلك معرفته بالعالم المحيط به . وهنا يطرح ابن رشد هذه المسألة آخذاً بعين الاعتبار العلاقة بين الكليات والجزئيات ، بين المجرد والمشخص . ان المفاهيم والمقولات الكلية المجردة هي ، حسب ذلك ، نتيجة تطور تاريخي يكمن محتواه في تكون تلك المفاهيم والمقولات عبر تطور الاحساس وتكرره ، كما يعبر عن ذلك ابن رشد .

هنا يرفض ابن رشد بوضوح ^١ - رأي القائلين بفطرية الكليات ووجودها اصلاً في الفكر الانساني دون مساس بالعالم المادي الموضوعي ، و ^٢ - رأي القائلين بالاصل الانساني (اي المثالي او الفبي) للمعرفة . ان كل ذلك يدعو ابن رشد ، في سياق شرحه لارسطو واغناثه وتعميقه له ، الى ان يؤكد : « وعلى هذا فليس يحتاج في الامور الطبيعية الى ادخال صور مفارقة في شيء من المتكونات ، ... » (١) . سوف نرى في مواضع تالية دفاع ابن رشد القوي عن قضية « الحركة الذاتية » ، التي يمنع الأخذ بها اقحام عوامل مثالية مفارقة مزعومة في اشياء عالمنا المادي الموضوعي .

ان نظرية المعرفة كما طرحها ابن رشد تمثل تقدماً عملاقاً في تاريخ الفلسفة على وجه العموم . فالنظرية هذه ، التي بمقتضاها « لا تملك الكليات وجوداً خارج النفس ... وما يوجد منها خارج النفس ، فهو فقط اشخاصها » (٢) ، إن هذه النظرية قد اكتسبت في العصر الوسيط التسمية المعروفة بـ « الاسمية » . لقد كانت هذه الاسمية ليس فقط تقدماً ضخماً في تاريخ الفكر الفلسفي ، وإنما أيضاً الشكل الاساسي والرئيسي للفلسفة المادية في العصر الوسيط .



اما الان فسوف نحاول معالجة القضية التالية ، وهي : ماذا فهم ابن رشد تحت مفهوم « الموضوع او الظاهرة الخارجية او الواقع المادي المشخص ؟ » بيد ان هذا يتطلب بدوره دراسة وجهة نظره حول مفهوم « المادة » .

(١) ابن رشد : تلخيص ما بعد الطبيعة ، تحقيق عثمان امين ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٥٢ .

(٢) انظر : نفس المصدر السابق - ص ٤٤ - ٥٩ .

إن بحث وتقصي هذه المسائل يستدعي دراستها في كتب ابن رشد الهامة ، وهي « تهافت التهافت » ، و « فصل المقال » ، و « شرح ما بعد الطبيعة » ، و « تلخيص كتاب النفس » ، و « الكشف عن مناهج الأدلة » ، و « تلخيص ما بعد الطبيعة » ، و « تلخيص كتاب المقولات » .

إن ابن رشد ينطلق من مبدئه الأساسي ، الذي يؤكد أنه فقط ذلك الإنسان ، الذي يتخذ من العقل المعيار الحاسم في فهمه واستيعابه القضايا العديدة ، يستطيع أن يتوصل إلى شيء حقيقي ، وذلك خلافاً للفقيه الذي بإمكانه الوصول إلى شيء ظني فقط (١) . لذلك فإن الفلاسفة ب (حكمتهم) التي ليست أكثر من بحث وتقصي الأسباب الحقيقية للأشياء - كما يقول ابن رشد (٢) - يبحثون عن هذه الأسباب وفيها ، داعمين ذلك في الخط الأول ببراہین مقنعة (٣) . إن البرهان على قضية « قدم العالم » يكمن في طبيعة الواجبات الجوهرية التي يأخذها فيلسوفنا على عاتقه . أنه في مناقشاته ومماحكاته مع الأشاعرة ، ومنهم الفزالي بشكل خاص ، ومع افلاطون ، الفيلسوف المثالي ، يكافح على الطالع والنازل وبحماسة عميقة من أجل برهان دقيق ومقنع لمسألة سرمدية وأبدية العالم المادي .

فهو يبحث عن براہین على ذلك حتى في القرآن نفسه ، بل ويتهم المتكلمين المدافعين عن عقيدة الخلق الإلهي للعالم المادي من عدم مطلق بأنهم لا يفقهون المبادئ الجوهرية في القرآن والدين على وجه العموم . أن المتكلمين هؤلاء ، الذين يلحّون على كون العالم المادي محدثاً من الإله ، ليسوا في قولهم هذا ، حسب ابن رشد « على ظاهر الشرع بل متاولون . فإنه ليس في الشرع أن الله كان موجوداً مع العدم المحض ، ولا يوجد هذا فيه نصاً أبداً » (٤) . هكذا يحدد ابن رشد موقفه المبدئي من هذه المسألة : تجريد غرمائه وخصومه من سلاحهم الدقيق ، وهو أنهم ، في تأكيدهم على « حدوث » العالم ، منطلقون من المبادئ الدينية الحقيقية ، وأنهم في ذلك متماسكون .

(١) انظر: ابن رشد، فصل المقال - مصر ١٣١٩ هجرية - نشر مع كتاب « الكشف عن مناهج الأدلة » ، ص ٧ .

(٢) انظر : ابن رشد ، الكشف عن مناهج الأدلة ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٢ .

(٣) انظر : ابن رشد ، تهافت التهافت ، نفس المعطيات السابقة ، القسم الأول ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٢٤٥-٢٤٦ .

(٤) ابن رشد : فصل المقال ، نفس المعطيات السابقة ، ص ١١ .

عدم مطلق محض بشكل متساو مع مسألة قدم العالم هذا، فقد رفضها ابن رشد بشكل قاطع . وما هذه المحاولة ، في نظره ، إلا « معارضة سفسطائية » (١) . وفي الحقيقة ، أثبت ابن رشد ، في ذلك ، عن قدرة منطقية عقلانية مرموقة . فهو يكتب في تحديد تلك المعارضة « السفسطائية » الفزالية : « كما انكم تعجزون عن نقض دليلنا (أي دليل الفزالي : ط.ت) ، في أن العالم محدث ... ، كذلك نعجز عن نقض قولكم انه اذا كان فاعل لم يزل مستوفياً شروط الفعل ، انه لا يتأخر عن مفعوله . وهذا القول غايته هو اثبات الشك ، وتقريره ، وهو أحد أغراض السفسطائيين » (٢) .

في مجابهة ابن رشد الشاملة لحجة الاسلام ، أبي حامد الفزالي ، يكمن التأكيد بأن العالم المادي كان دائماً موجوداً ، وهو لا يزال كذلك ، وسوف يكون أبداً . أما الفزالي فانه يرى ، خلافاً لذلك ، أن العدم سابق على الوجود (٣) . وكما كان الأمر سابقاً بالنسبة الى الاتجاه المادي لسدي ابن سينا وابن طفيل ، فاننا نجد أيضاً ابن رشد يعتمد ، في رأيه حول قدم العالم ، على الموضوعية الارسطية الأساسية عن الوحدة التي لاتنقسم بين الزمان والحركة . فهذان (أي الزمان والحركة) غير مخلوقين . انهما سرمديان وأبديان . ذلك لانه من العبث ومن قبيل عدم الدقة أن نقول — هكذا يؤكد ابن رشد — بأن الزمان حادث . والا فان القول هذا — يتابع ابن رشد في استنتاجه — سيقودنا لأن نفترض وجود أزمان كثيرة بشكل لا نهائي قبل الزمان ذاته (٤) .

في هذه المسألة ، كما في مسائل أخرى ، ينتقد ابن رشد الفزالي بحزم ، وذلك حيث يؤكد هذا الأخير بأن الزمان يوجد فقط في « الوهم » ، وبأن هذا الوهم ينشئ الزمان ، كما ينشئ الحركة ، من ذاته نفسه ، أي من ذات الوهم (٥) . فالزمان والحركة يوجدان ، حسب ابن رشد ، على نحو

(١) ابن رشد : تهافت التهافت ، نفس المعطيات السابقة ، القسم الاول ، ص ٧٥ .

(٢) ابن رشد : نفس المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٣) نفس المصدر السابق ، ص ١٣٥ .

(٤) انظر : ابن رشد ، تفسير ما بعد الطبيعة — قام بنشره M. Bouyges ، بيروت ،

١٩٤٨ ، الجزء الثالث ، ص ١٥٦٠ — ١٥٦١ .

(٥) في كتابه الرئيسي « تهافت الفلاسفة » — قام بنشره M. Bouyges ، بيروت ١٩٢٧ —

يكتب الفزالي حول ذلك مايلي : « قلنا المفهوم الاصلي من اللفظين وجود ذلك وعدم ذات . » ←

لا ينفصمان فيه عن بعضهما . أما « الذهن » الانساني فيدرك ويستوعب الزمان في ارتباطه مع الحركة ادراكاً واستيعاباً نظرياً ، فكثيراً ، ولكنه لا يمنحه الوجود أصلاً . لقد أولى ابن رشد هذه المسألة اهتماماً مبدئياً دقيقاً . فهو يأخذ على الغزالي « معاندته » في أن « الماضي والمستقبل اللذين هما القبل والبعد ، هما شيئان موجودان بانقياس الى وهما ؛ اذ قد يمكننا أن نتخيل مستقبلاً صار ماضياً . وماضياً كان قبل مستقبلاً » .

واذا كان ذلك كذلك ، فليس الماضي والمستقبل من الاشياء الموجودة بذاتها ، ولالها خارج النفس وجود ، وانما هي شيء تفعله النفس « (١) » . ويرد ابن رشد على ذلك قائلاً في « تهافتة » بوضوح عبقرى : « ان تلازم الحركة والزمان صحيح ، وان الزمان هو شيء يفعله الذهن في الحركة . لكن الحركة ليست تبطل ، ولا الزمان ، لانه » - وهنا نلاحظ ابن رشد دقيقاً للغاية في تبيان منحاه « المادي » المتميز - « ليس يمتنع وجود الزمان ، الا مع الموجودات التي لا تقبل الحركة . وأما وجود الموجودات المتحركة ، او تقرير وجودها ، فيلحقها الزمان ضرورة » (٢) . والزمان ليس فقط لابتداء له ، وانما أيضاً ليس له نهاية . ويرى ابن رشد أن الفلاسفة يتفقون مع (بعض) المتكلمين في نقطة ، هي « ان الزمان المستقبل غير متناه وكذلك الوجود المستقبل ، وانما يختلفون في الزمان الماضي والوجود الماضي » (٣) . فهذا (البعض) ممن المتكلمين يرى ان الزمان متناه في الماضي ، وهم بذلك يعتبرون من اتباع افلاطون ، كما يقول ابن رشد (٤) . بينما الذين يأخذون برأي ارسطو في هذه المسألة ، فانهم يؤكدون بأن الزمان غير متناه في الماضي ، أي لانهاية له (٥) . من هذا المنطلق الواضح في ماديته يتوصل ابن

والامر الثالث الذي فيه افتراق اللغتين نسبة لازمة بالاضافة اليها بدليل انا لو قدرنا عدم العالم في المستقبل ثم قدرنا لنا بعد ذلك وجوداً ثانياً لكنا عند ذلك نقول كان الله ولا عالم ويصح قولنا سواء اردنا به العدم الاول او العدم الثاني الذي هو بعد الوجود وآية ان هذه نسبة ان المستقبل بعينه يجوز ان يصير ماضياً فيعبر عنه بلفظ الماضي . وهذا كله لمعبر الوهم عن فهم وجود مبتدأ الا مع تقدير قبل له وذلك القبل الذي لا ينفك الوهم عنه يظن انه شيء محقق موجود هو الزمان ... وكما ان قيام الدليل على تنامي اقطار الجسم منع من اثبات بعد مكاني وراءه فقيام الدليل على تنامي الحركة من طرفيه يمنع من تقدير بعد زماني وراءه وان كان الوهم منشئاً بخياله وتقديره ... (التشديد مني : ط.ت) - (ص 56 - 54) .

(١) ابن رشد : تهافت التهافت - نفس المعطيات السابقة ، ص ١٤٩ - ١٥٠ .

(٢) ابن رشد : نفس المصدر السابق ، ص ١٥٠ .

(٣) ابن رشد : فصل المقال - نفس المعطيات السابقة ، ص ١٠ .

(٤) نفس المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٥) نفس المصدر السابق ، نفس الصفحة .

رشد الى الاستنتاج الجوهرى التالى : ان « مالا أول له فلا آخر له . ومالا آخر له فلا انقضاء لجزء من اجزائه بالحقيقة . ومالا مبدأ لجزء من اجزائه بالحقيقة فلا انقضاء له » (١) . « فاللابدائية واللانهاية هما الصفتان أو التحديدان الانطولوجيان (الوجوديان) الجوهريان للزمان والحركة ، في رأي ابن رشد ، ذلك « لأنه لا ينقضي . . الا ما ابتدأ » (٢) . والآن ، اذا كان الزمان والحركة لابدائيين ولانهايين ، فانهما كذلك ، كما يبرز ابن رشد ، فقط من خلال ارتباطهما انطولوجياً بالعالم المادي . وهذا العالم قديم وخالد قدم وخلود الاله بالضرورة .

ومن يتمعن في العلاقة بين الاله والعالم المادي ، كما يراها ابن رشد ، يجدها تفصح عن ذاتها عبر نقطتين اساسيتين كبيرتين .

فمن طرف نجد العلاقة تلك تكتسب الصيغة التالية : اله — عالم مادي . أما من الطرف الآخر فانها (أي العلاقة تلك) تبرز من خلال الصيغة الأخرى التالية : اله — مادة — صورة .

بيد اننا ، في الوقت الذي نضع فيه المسألة على هذا النحو ، نود ان نؤكد ان الصيغتين السابقتين تتطابقان ، حسب ابن رشد ، بشكل **جوهري** مع بعضهما . ولكن بالرغم من هذا فسوف نرى الدلالة الوجودية من وضعنا للمسألة في شكل العلاقة المزدوجة تلك .

في كتابه « تلخيص كتاب المقولات » يعدد ابن رشد خمسة انحاء من « المتقدم أو القبل » و « المتأخر أو البعد » . أولها واشهرها « المتقدم بالزمان بمنزلة ما نقول ان هذا اسبق من غيره واعتق من غيره . والثاني المتقدم بالطبع وهو الذي اذا وجد المتأخر وجد هو واذا ارتفع هو ارتفع المتأخر وليس بمكافئ له في الوجود ، اعني انه اذا وجد المتقدم وجد المتأخر بل متى ارتفع المتقدم ارتفع المتأخر وليس متى ارتفع المتأخر يرتفع المتقدم مثل تقدم الواحد على الاثنين . . . والثالث المتقدم بالمرتبة . . . والرابع المتقدم بالشرف والكمال . . . لكن هاهنا نحو آخر من انحاء التقدم وهو المتقدم بأنه سبب للشيء . . . اعني انه متى وجد المتقدم الذي هو سبب وجد المتأخر ومتى وجد المتأخر وجد المتقدم » (٣) . وحين يعرض ابن رشد

(١) ابن رشد : تهافت التهافت ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٨١ .

(٢) نفس المصدر السابق ، ص ٨٢ .

(٣) ابن رشد : تلخيص كتاب المقولات — نشره M. Bouyges ، بيروت ١٩٣٢ ،

ص ١١١ — ١١٣ .

علاقة الاله بالعالم المادي بالنسبة الى واحد من تلك الانحاء من « القبل » و « البعد » ، فانه يميز ، من خلال مجابهة بينة للغزالي ، بين « ارادة » الفاعل الأول (الاله) وبين « فعله » . وفي الحقيقة ، انه يلجأ الى هذا التمييز بقصد النظر الى الفاعل في وحدة عضوية مع فعله هو ، وذلك حسب الزمان . اي انه لا يقول بوجود تخلف زمني للفعل عن فاعل الفعل .

ان رفض ابن رشد الاخذ بفكرة تخلف أو « تراخي فعل المفعول ، عن فعل الفاعل له وعزمه على الفعل » (١) ، يبرز رفضه المبدئي لمسألة الخلق من عدم مطلق أو « محض » ، كما يسميه ابن رشد نفسه .

وبالرغم من انه يميز بين « الارادة » و « العزم » ، حيث يجعل « التراخي » بين المفعول والارادة جائزاً ولا يجعله جائزاً بين المفعول والعزم (٢) ، فانه (اي ابن رشد) ، كما يلاحظ سليمان دنيا ، محقق كتاب « تهافت التهافت » ، بحقد على ابن رشد ، يمثل الراي بأنه « اذا جاز التراخي بين الارادة والمفعول وقتاً ما ، فانه يجوز ان يستمر هذا التراخي ، الا اذا جدّ جديد ، ومادام لم يجدّ جديد ، فينبغي ان يستمر العدم . » ويتابع سليمان دنيا ، منطلقاً من رؤاه الغيبية : « ان يكن ذلك هو مايريده ابن رشد فقد فاته ان يلاحظ ان الارادة القديمة الجازمة قد جعلت من نقطة معينة حداً فاصلاً بين العدم والوجود . فاذا وصل العالم الى هذه النقطة ، انتقل من العدم الى الوجود ، بمقتضى الارادة القديمة الجازمة . » (٣) .

ان ذلك يري حقيقة جوهرية ، هي ان ابن رشد رفض اصلاً ان يكون فاصل أو هوة زمنية بين العزم على تحقيق الشيء وتحقق الشيء فعلاً . ذلك لان الاخذ بذلك يؤدي ، لدى ابن رشد ، الى افتعال هوة بين « ذات » الفاعل من جهة ، وبين صفاته وفعاله من جهة أخرى ، وبالتالي الى القول بوجود عدة اطراف فاعلة . بيد ان الفاعل يفعل بفعل لاينفصل عن ذاته ، ويريد شيئاً بارادة لاتنفصل عن ذاته . هذا يعني ان ليس من ايجاد أو خلق من عدم (محض) ، بل ان مايراد له ان يخلق من قبل خالق ، موجوداً اما — ١ — ضمن هذا الخالق كجزء ذاتي منه ، واما ٢ — على نحو مواز له . وقد رأينا ، فيما سبق ، كيف عمل الفارابي على تجاوز مصادرة

(١) ابن رشد : تهافت التهافت ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٦٤ .

(٢) نفس المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٣) نفس المصدر السابق ، ص ٦٣ .

« الخلق من عدم » من خلال تأكيده على « الفيض » الالهي ، حيث اعتبر العالم المادي حلقة من حلقات تمظهر الاله ووجوده .

اما ابن رشد فقد اتخذ من الامكانية الثانية طريقاً لتجاوز الخلق من عدم . ان العالم (المادي) قديم ، غير مخلوق : هذا ما اراد اثباته ابن رشد . وفي الحقيقة ، نحن قد واجهنا طرح المسألة على هذا النحو الرشدي منذ ابن سينا وابن طفيل من بعده ، وان لم يكن هذان قد استعملوا مفهوم « الارادة » ، وان لم يكونا كذلك قد طرحا المسألة طرحاً واضحاً متميزاً كما فعل ابن رشد .

هكذا نرى ابن رشد يلج على تحديد فعل الفاعل (الاله) . فاذا كان الفعل هذا قديماً ، فان العالم المادي (او المادة) هو أيضاً كذلك ، وذلك من حيث كونه نتاجاً لذلك الفعل القديم . وبالمقابل ، فنحن حين نعتبر هذا الأخير محدثاً (أي مخلوقاً) ، يصبح لزاماً علينا ان نعتبر العالم المادي محدثاً . وبما ان « الفاعل يخصصه ان فعله مساوق لوجود المفعول » (١) ، فان فعله ، وبالتالي مفعول فعله قديم . وكما هو ظاهر ، « المفعول » هو العالم ، اي نتاج فعل الفاعل .

والآن ، اذا كانت « الحركة فعل الفاعل » ، كما يعتقد الفلاسفة — هكذا يقول ابن رشد — ، فان « العالم لا يتم وجوده الا بالحركة » (٢) . عن هذا ينتج ان « الفاعل للحركة ، هو الفاعل للعالم » (٣) . بيد ان ابن رشد يرفض بشكل مبدئي وخازم الأخذ بمصادرة « الخلق من عدم » ، كما ابتنا سابقاً . فكلاهما ، الاله والعالم المادي ، خالدان في وجودهما ، من حيث انهما متوازيان في الوجود (٤) . وذلك بالرغم من انهما ذاتياً غير متساويين . فمن حيث « الذات » يفضل الفاعل مفعوله .

ان هذا الواقع ، واقع العلاقة القائمة بين الفاعل (الخالق) والمفعول (المخلوق بمعنى متميز) لدى ابن رشد ، يفرض علينا اذن النظر الى المشكلة في دقائقها وتمايزها . فحين ينطلق ابن رشد من أن الزمان والحركة والمحرك

(١) نفس المصدر السابق — القسم الثاني ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٤٨٢ .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) نفس المصدر السابق .

(٤) انظر حول ذلك أيضاً : نفس المصدر السابق ، ص ٦٣١ .

والمتحرك قديمة ، خالدة (١) ، فانه يميز بين المحرك الاول من جهة وبين المتحرك والحركة والزمان من جهة أخرى ، وذلك من حيث « القديمة » . فان يكون المحرك الاول متقدماً « على العالم » ، ليس تقدماً زمانياً ، صحيح « (٢) ، ومفهوم بذاته . ذلك لانه (أي المحرك الاول) « ليس في طبيعته الحركة - وانه أزلي وليس يتصف بالزمان » (٣) . ويتابع ابن رشد موضحاً الامر هذا : « لكن ليس يفهم تأخر العالم عنه ، اذا لم يكن تقدمه زمانياً ، الا تأخر المعلول عن العلة ؛ لان التأخر يقابل التقدم . . . فاذا كان التقدم ليس زمانياً ، فالتأخر ليس زمانياً » (٤) .

على هذا النحو من طرح المسألة يرى ابن رشد مركز الثقل بالنسبة الى العلاقة بين الفاعل (الخالق تجاوذاً) والمفعول (المخلوق تجاوذاً) كائناً في العلاقة الضرورية والمتبادلة بين « العلة » و « المعلول » .

وفي الحقيقة ، نحن كنا قد واجهنا طرح القضية هذا سابقاً لدى ابن سينا (في مثاله عن حركة المفتاح) وابن طفيل (في مثاله عن حركة الجسم) . الا أن ابن رشد يبرز القضية هذه بمزيد من التحديد والدقة ، ويجعل منها مبدءاً جوهرياً في منظومته الفلسفية . وقد تحقق هذا لديه من خلال ادخاله مقولة « الحركة » بشكل واضح وواع كركن أساسي من أركان تلك القضية ، أي من خلال منطلقه بأن العالم المادي (المعلول) لا يمكن أن يوجد ، من حيث هو قديم ، الا متحركاً .

والعالم المادي بصفته هذه كمعلول ، موجود قديماً خالداً ليس على سبيل « الاضافة » . ان ابن رشد يجابه هنا التصور الغيبي للغزالي عن العالم المادي بحزم وبعمق ، هذا التصور القائم على نفي وجود كيان جوهري ذاتي للعالم ذاك . فهو يؤكد ، طارحاً بالايديولوجية الاشعرية - الغزالية الميتافيزيقية جانباً ، بأن « العالم ليس موجوداً في باب الاضافة . وانما هو موجود في باب الجوهر . والاضافة عارضة له » (٥) . في هذه النقطة حقق

(١) ابن رشد يقول - نفس المصدر السابق ، القسم الاول ، نفس المعطيات السابقة ،

ص ١٣٦ - « واذا كان الزمان قديماً ، فالحركة قديمة . لان الزمان لا يفهم الا مع

الحركة . واذا كانت الحركة قديمة ، فالتحرك بها قديم . والمحرك لها ضرورة قديم » .

(٢) نفس المصدر السابق - ص ١٤١ .

(٣) نفس المصدر السابق - ص ١٣٨ . انظر بهذا الخصوص ايضاً : ص ١٣٩ .

(٤) نفس المصدر السابق - ص ١٤١ .

(٥) نفس المصدر السابق - ص ٢٧٧ .

ابن رشد خطوة واسعة وعميقة الى أمام ، تجاوز ، من خلالها ، مقولة ابن سينا حول « ممكن الوجود حسب ذاته - أي العالم المادي » ، هذا الوجود الممكن الذي يكتسب جوهريته الوجودية فقط من « واجب الوجود بذاته - أي الاله » ومن خلاله ، كما يخبرنا بذلك ابن رشد في كتابه « فصل المقال فيما بين الحكمة والشرعة من اتصال » (١) .

لقد كان طرح القضية من هذا المنظور الرشدي شكلاً متطوراً من اشكال الفكر المادي الهرطقي المعادي للايديولوجية القيسية التبريرية . ان ابن رشد في تحديده للعالم المادي كموجود جوهرى وضرورى يرفض ليس فقط رأي ابن سينا ذاك حول هذه المسألة ، وانما أيضاً طريقة «أبي المعالي» في ذلك . فأبو المعالي هذا بنى طريقته تلك « على مقدمتين احدهما ان العالم بجميع ما فيه جائز ان يكون على مقابل ما هو عليه حتى يكون من الجائز مثلاً اصغر مما هو واكبر مما هو ... حتى يمكن في الحجر ان يتحرك الى فوق وفي النار الى اسفل ... والمقدمة الثانية ان الجائز محدث وله محدث أي فاعل صيره باحدى الجائزين أولى منه بالآخر » (٢) . ان هذه الآراء ، التي تتضمن نفياً لوجود قانونية ذاتية للعالم والقائلة بالتالي بأن هذا العالم محدث ، غير قديم ، أي انه موجود من عدم مطلق (محض) من قبل قدرة او قوة كانت موجودة دائماً ، ان هذه الآراء وامثالها يرفضها ابن رشد : « فاما المقدمة الأولى فهي خطابية ... فظاهر كذبها بنفسه .. (وأما) القضية الثانية وهي القائلة ان الجائز محدث فهي مقدمة غير بيّنة بنفسها » (٣) .

ونحن حين نعتبر العالم قديماً من حيث الجوهر وليس من حيث العرض ، وموجوداً من حيث الضرورة وليس من حيث الجواز ، فان هذا يستبين لنا من كون فعل « الفاعل لا يتعلق بالعدم ؛ لأن عدم ليس بفعل . ولا يتعلق بالوجود الذي لا يقارنه عدم » (٤) . ان ابن رشد يحدد من خلال ذلك بالضبط بماذا يتعلق فعل الفاعل ، أي أنه يحدد العلاقة القائمة بين الفاعل الأول (الخالق تجاوزاً) من حيث فعله ، وبين المفعول (المخلوق تجاوزاً) من حيث وجوده : ليس هنالك من عدم مطلق محض ، وليس هنالك من خلق من مثل هذا عدم المزعوم ، على حد اعتبار ابن رشد .

(١) ابن رشد : فصل المقال - نفس المعطيات السابقة ، ص ٣٣ .

(٢) نفس المصدر السابق - ص ٣٢ .

(٣) نفس المصدر السابق - ص ٣٢ - ٣٣ .

(٤) ابن رشد : تهافت التهافت - نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٧٤ .

وفي الحقيقة ، ان ابن رشد ، في نفيه للمعنى المشار اليه ، يتابع الطريق الذي اختطه الفكر اليوناني النهجي (الكلاسيكي) المادي والمثالي على حد سواء . ولكنه في ذلك اختط ، كاسلافه ابن سينا وابي بكر الرازي وابن طفيل ، اتجاهاً فكرياً جديداً في المجتمع العربي الاسلامي الوسيط ، نستطيع ان نسمه بقناعة بميسم المادية .

هنا تجدر الملاحظة بان المادية الفلسفية قد اجتازت مراحل تاريخية عديدة وهامة ، ومن ضمنها المرحلة « الرشدية » . فالمادية الفلسفية تعني ، في هذا الاطار الرشدي ، تطور الفكر الانساني من خلال عملية ذات شقين مرتبطين ببعضهما عضوياً ، هما الانفصال عن التصور الغيبي الديني للعالم ، ومن طرف آخر التأكيد على الوجود المادي للعالم وعلى أنه ، كما سيقول سبينوزا فيما بعد ، سبب ذاته *causa sui* .

فانطلاقاً من وضع القضية بجانبها الأول : اله - عالم مادي ، نجد ان هذا العالم مواز في وجوده القديم لوجود الاله ، وذلك على أساس ارتباط عليّ به (أي بالاله) . الا ان هذا وارد ومعترف به من حيث كون العالم المادي جنساً أو كلاً ، وليس من حيث كونه اجزاء . ان ابن رشد دقيق جداً في هذه النقطة وحريص جداً على الدفاع عن « قدم » العالم . فهو يستخدم ، في سبيل ذلك ، مجموعة من المفاهيم تبدو ، لأول وهلة ، وكأنها متناقضة اطلاقاً وانه من العسير ايجاد جسور معينة تصل بينها . ولكنه ، بعقله الجدلي الثواب وبحماسه العقلانية الدافقة ، يستطيع ايجاد ناظم مشترك بينها ، قائم على البرهان على قدم العالم وماديته . ان مفاهيم «الصدور» الافلوطيني و « الحدوث » المثالي الديني و « الازلي أو القديم » المادي ، كل هذه يخضعها ابن رشد بذكاء لذلك الناظم : «ان صدور الحادث (العالم المادي) عن القديم الأول ، لا بما هو حادث ، بل بما هو ازلي ، من جهة انه ازلي بالجنس حادث بالاجزاء » (١) . هكذا يميز ابن رشد ، كما هو بين من خلال المسائل الأساسية المطروحة ، بين نوعين من «الإحداث» . فالنوع الأول يتم في زمان ، اما الثاني فيتم من حيث العلية . فما يخص «إحداث العالم» في منظور ابن رشد الفلسفي ، نجد انه يتحقق حسب النوع الثاني ، أي العلي . وقد ابرز ابن رشد هذا الجانب من المسألة بشكل ينطوي على كثير من العمق والدراية . كل ذلك حرصاً منه على اثبات قدم العالم اثباتاً عقلانياً منطقياً .

(١) ابن رشد : نفس المصدر السابق - ص ١٢١ .

ان القول بخلق للعالم المادي من عدم مطلق (محض) يبدو له غير متماسك منطقياً وعقلياً وعلمياً . فالفكر « السببي » الذي ينمو ويتطور في صلب عملية التقدم الاجتماعي والعلمي الطبيعي - هذا الفكر الذي وجد في المجتمع العربي - الاسلامي الوسيط ارضاً خصيبة معطاءة - انعكس في الفكر الفلسفي العقلاني المادي في المجتمع ذاك ، واصبح يكون جزءاً أساسياً من عملية الكفاح ضد الذهنية الميتافيزيقية (الغيبية) . انسياقاً مع الفكر السببي هذا رفض ابن رشد مفهوم « الاختراع » بمعنى الخلق من « لا شيء » . لقد ابان بوضوح لا لبس فيه : « الفلاسفة تقول : ان من قال : ان كل جسم محدث . وفهم من الحدوث الاختراع من لا موجود : أي من العدم ، فقد وضع معنى من الحدوث لم يشاهده قط » (١) . ان استخدام ابن رشد لغة تعبير دينية في عرضه للمسألة تلك ودفاعه عنها لا يمكن تفسيره ، حسب ما رأينا ، فقط انطلاقاً من الواقع الاجتماعي والفكري الذي عاش ضمنه ابن رشد والذي تميز ، كما سبق وقلنا ، بالارهاب الفكري الذي مارسه المتعصبون من رجال الدين ومن خلفهم الجماهير الواقعة بين انيابهم ضد الفكر العقلاني المادي اينما وجد ، ومن أي مصدر كان . اننا نستطيع ان نجد تفسيراً لذلك أيضاً في ان الدين قدم ، من خلال عنصر « التاويل العقلاني » الذي تضمنه ، امكانات جيدة لطرح المسائل الفلسفية الأساسية من مواقع مخالفة له قليلاً أو كثيراً ، وبالتالي للوصول الى نتائج مضادة له في امور معينة ، وفي طليعة هذه الامور بالطبع رفض مصادرة الخلق من عدم مطلق (محض) . وكمثال نموذجي على هذا الواقع الفكري المكثف نستطيع ايراد النص التالي لابن رشد ، وهو يحدد معنى « الحدوث » بالنسبة الى العالم المادي : « فالعالم محدث لله سبحانه . واسم الحدوث به اولى ، من اسم القدم . وانما سميت الحكماء ، العالم قديماً ، تحفظاً من المحدث الذي هو من شيء ، وفي زمان ، وبعد العدم » (٢) . على ضوء عرضنا السابق للعلاقة « اله - عالم مادي » نستطيع ان نستنتج تحديداً اولياً ، ولكن جوهرياً ، وهو ان العالم المادي ، من حيث هو قديم ، يوجد في علاقة وجودية (انطولوجية) مع الاله أو الفاعل الأول . وخين يحدد ابن رشد هذه العلاقة على محور مغاير للعلاقة القائمة بين الشخص وظله (٣)

(١) ابن رشد : نفس المصدر السابق - قسم ثاني ، ص ٦٢١ .

(٢) ابن رشد : نفس المصدر السابق - قسم اول ، ص ٢٧١ - ٢٧٢ .

(٣) ابن رشد : نفس المصدر السابق ، ص ١٣٩ .

— ذلك لأن بين العالم المادي والاله تمايزات بارزة ، مثل كون الاله لامتغياً وموجوداً خارج الزمان ، بينما العالم المادي متغير وموجود ضمن أطر حركية وزمانية (١) — فانها ، أي العلاقة تلك ، تبقى قائمة على نحو وجودي ، بمعنى انها متكافئة وجودياً : ليس من اسبقية وجودية زمانية لواحد منهما تلقاء الآخر . هذا يعني أن المسبب (العالم المادي) يشترط ، لكي يوجد ، وجود السبب (الاله) ؛ كما أن السبب هذا لا يوجد ، من طرفه ، الا اذا وجد المسبب . ولكن حتى اذا « تأخر » العالم المادي في وجوده عن الفاعل الاول (الاله) ، فانه — كما ورد في استشهاد اوردناه سابقاً — « ليس يفهم تأخر العالم عنه ، اذا لم يكن تقدمه زمانياً ، الا تأخر المعلول عن العلة ؛ لأن التأخر يقابل التقدم ... فاذا كان التقدم ليس زمانياً ، فالتأخر ليس زمانياً » (٢) .

لقد قلنا ان ابن رشد يعتبر ارتباط الاله بالعالم المادي ارتباطاً بين علة ومعلول ، ومعلول وعلة ؛ مع ان « الفاعل ينفصل عن المفعول باتفاق » (٣) .

الا انه من الضروري التاكيد على ان ابن رشد هنا — آخذين بعين الاعتبار الخطوط الجوهرية العامة لمنظومته الفلسفية — لايعني بانفصال الفاعل عن المفعول انفصلاً وجودياً ، على النحو الذي تكلمنا حوله فوق ، وانما يتكلم عن ذلك ، بمعنى الأفضلية « الدائنية » تجاه معلولها . فالجوهري والرئيسي ، في نظر ابن رشد ، ينطلق من وجود علاقة متبادلة متلازمة بين العالم المادي والفاعل الالهي . انه يتكلم عن ارتباط سببي للعالم ذاك بالفاعل هذا . ولكن ارتباطاً للسبب (الفاعل الالهي) بمسببه (العالم المادي) يمكن بالتالي كشفه وتقريره في البنيان الرشدي الفلسفي .

وفيما يخص العلاقتين ، اللتين اشرنا اليهما وبحثنا في واحدة منهما سابقاً وهما « اله — عالم مادي » و « اله — مادة » ، فاننا نرى ان ليس هنالك من تناقض جوهري بينهما في منظور ابن رشد . من طرف آخر ، وهذا هو الوجه الثاني والمهم من المسألة ، يستطيع الباحث في ابن رشد أن يتوصل الى اليقين بانه (اي ابن رشد) يميل الى ترجيح القول : **الفاعل موجود في العالم المادي** ، وليس هذا الأخير في الفاعل .

(١) ابن رشد : نفس المصدر السابق — ص ١٤٠ .

(٢) ابن رشد : نفس المصدر السابق — ص ١٤١ .

(٣) ابن رشد : نفس المصدر السابق — ص ٢٥٥ .

ان هذا يمكن الكشف عنه وتقصيه ، حينما يدرس المرء ما يسميه ابن رشد بـ « العقل المحض » أو « العقل الفعّال » ، وخصوصاً بالعلاقة مع الاتجاه الرشدي القوي القائم على وحدة وجود مادية . وهذا ما سيظهر من خلال دراسة العلاقة « الهـ - مادة » لدى ابن رشد ، حيث تكتسب المسألة هنا مضموناً مادياً مضاداً للتصور الغيبي الاسطوري . هنا ، في هذا الإطار تبرز المادة - العالم المادي بالمعنى الشامل - في غناها الثر وتعدد اشكالها الخصبة ؛ كما تبرز - وهذا هو الهام في الأمر - باعتبارها الوجود الحقيقي ، حيث يتحول الفاعل الالهي الى « عقل » العالم ولولبه . وقد ظهر هذا لاحقاً وبوضوح لدى سبينوزا .



في شرحه على ارسطو ، يقرر ابن رشد بأن مبادئ الوجود المادي المحسوس « ثلثة مادة وصورة والمجتمع منهما » (١) . وفي موضع آخر يرى ابن رشد ان تلك المبادئ الثلاثة هي ، من الطرف الاول ، الضدّان (وهما الصورة والعدم) ، ومن الطرف الثاني الموضوع . ثم يتبع ذلك بشرحه على الاسكندر افروديسياس (شارح ارسطو الشهير) فيما يخص مبدأ العدم ، فيرى (ابن رشد) ان الاسكندر هذا قد جعل العدم داخلاً في الجوهر (٢) . كذلك في « تهافتة » يتعرض ابن رشد لهذه المبادئ الثلاثة من حيث هي المبادئ الخاصة بالوجود المادي . بيد أنه هنا يرى « العدم » موجوداً من حيث العرض ، وذلك في الوقت الذي يقرر فيه بأن المادة والصورة توجدان من حيث الجوهر (أي الذات) . ان الأمر كذلك لان « العدم . . . شرط في حدوث الحادث ، أعني ان يتقدمه . فاذا وجد الحادث ارتفع العدم . واذا فسد وقع العدم » (٣) . بيد أن الصورة والمادة تبقيان في جميع الحالات مبدئين جوهريين للوجود المادي . والآن ، إن حاولنا أن نبحث عن مبادئ أكثر اولية وقديمة للعادة والصورة في الاتجاه الذي اختطه ابن رشد حول المادة - صورة ، فإننا سوف نستقر في النهاية على النتيجة ، وهي ان هذه المبادئ هي الصورة والمادة نفسيهما . ان هذه المسألة الجوهرية والدقيقة يعبر عنها ابن رشد في رفضه لنظرية « الفيض » رفضاً واضحاً .

(١) ابن رشد : تفسير ما بعد الطبيعة - نفس المعطيات السابقة ، ص ١٤٦٧ .

(٢) انظر : نفس المصدر السابق ، ص ١٥١٩ .

(٣) ابن رشد : تهافت التهافت - القسم الاول ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٤٧ .

في رفضه للنظرية هذه ينطلق ابن رشد من ارسطو في وقت يتجاوزه فيه (أي ابن رشد لأرسطو) . وفي الحقيقة يبرز رفضه لنظرية الفيض من خلال نقطتين لا يمكن فصلهما عن بعض . ففي الوقت الذي يرفض فيه هذه النظرية والفرضية السينوية (نسبة الى ابن سينا) حول «واهب الصور»^(١)، يبرز المادة والصورة من حيث هما قديمتان ومستقلتان تلتقاء الاله . ليس فقط هذه الفرضية وتلك النظرية خاطئتين . حسب ابن رشد ، وانما ايضاً ذلك الراي الذي يعمل من الاله مخترعاً :

وهذا هو « مذهب اهل الاختراع والابداع فهم الذين يقولون ان الفاعل هو الذي يبدع الموجود بجملته ويخترعه اختراعاً وانه ليس من شرط فعله وجود مادة فيها يفعل بل هو المخترع للكل . وهذا هو الراي المشهور عند المتكلمين من اهل ملتنا ومن اهل ملة النصرى . حتى لقد كان يحنى النحوي النصراني يعتقد انه ليس هاهنا امكان الا في الفاعل فقط »^(٢) .

ان ابن رشد يواجه كل تلك الآراء « الخاطئة » برأي ارسطو حول نفس المسألة . ولكن في الوقت الذي يتبنى فيه ابن رشد رأي ذلك الاخير، فانه يفعل هذا من خلال عملية تحويل وتطوير عميقة له . ان عملية التطوير هذه قد انطلقت ، في هذا المجال ، من بحث النقاط الرئيسية في المفاهيم الثلاثة ، المادة والصورة والعدم ، وذلك بشكل جدلي دقيق ومن خلال طرحها (أي تلك المفاهيم) في علاقتها مع مفهوم « الفعل الالهي » ، كما في تمايزها عنه . ان ارسطو يفهم تحت مفهوم « الاله » ، ضمن هذا الاطار من المسألة ، المحرك الأول الذي يحرك ولا يتحرك . بيد ان ابن رشد يخطو الى امام ، حيث يرى ان فعل الاله يكمن في حركة الامكان باتجاه التحقق ، أي « ان الفاعل ... ليس هو جامع بين شيئين بالحقيقة وانما هو مخرج (خط التاكيد مني : ط.ت) ما بالقوة الى الفعل ... وهو يشبه الاختراع ايضاً من جهة انه يصير ماكان بالقوة الى الفعل ويفارق الاختراع بانه ليس يأتي بالصورة من لاصورة ، وكذلك فيه شبه من الكمون »^(٣) . ثم يتابع ابن رشد ، في موضع آخر ، بشجاعة ، حيث يؤكد : « واما الامور المتكونة من ذاتها فالتى هي منها بالقوة هي جميع الاشياء التي لا يكون فيها شيء »

(١) انظر : ابن رشد ، تفسير مابعد الطبيعة ، نفس المعطيات السابقة ، ص ١٤٦٨ .

(٢) ابن رشد : نفس المصدر السابق ، نفس المعطيات السابقة .

(٣) ابن رشد : نفس المصدر السابق - نفس المعطيات السابقة ، ص ١٤٦٩ .

يحتاج الى مبدأ محرك لها من خارج حتى تصير بالقوة ذلك الشيء» (١) .
 ان ابن رشد يقصر حقل فعالية وتأثير الاله بشكل واضح على «الاخراج»
 ذلك للإمكان الى التحقق ؛ ذلك لان الأمور المتكونة من ذاتها والمؤلفة للوجود
 المادي لا تحتاج الى « محرك لها من خارج » . ورايه هذا يتوضح بمزيد من
 القوة من خلال مناقشته لنظرية الفيض أو الصدور ورفضه لها : « ليس
 هنالك صدور ولا لزوم ولا فعل حتى نقول ان الواحد يلزم ان يكون عن
 فاعل واحد » (٢) ، فما « جرت به العادة من اهل زماننا بأن يقال ان المحرك
 الكذا صدر عنه المحرك الكذا أو فاض عنه أو لزم أو ما أشبه هذه الالتفاظ
 فشيء لا يصح مفهومه على هذه المبادئ المفارقة » (٣) فان هذه كلها من
 صفات الفاعلين في بادية الرأي لافي الحقيقة . فان الفاعل قد تقدم من
 قولنا انه ليس يصدر عنه شيء الا اخراج ما بالقوة الى الفعل » (٤) .

هكذا اذن يمكن القول بأن الاله يعمل على نقل الإمكان الى التحقق ،
 وبالتالي على تكون « المركب » من المادة والصورة . اما هاتان ، الصورة
 والمادة ، فان وجودهما الذاتي ليس ملحقاً بفعل الاله ولا بفعل شيء آخر
 خارج عنهما . ان ابن رشد يعلن هذا بوضوح لاليس فيه : « والفاعل
 بالحقيقة عند الفلاسفة ... ليس يفعل الصورة ، ولا الهيولى . وانما
 يفعل من الهيولى والصورة المركب منهما جميعاً » (٥) . بيد اننا اذا سبرنا غور
 المسألة بعمق اكثر ، نجد ان هذا « المركب منهما جميعاً » هو أيضاً ليس
 من فعل الاله الفاعل . وهذا يفهم انطلاقاً من أن « عناصر » عملية الانتقال
 من الإمكان الى التحقق تخص بشكل جوهري المادة والصورة نفسيهما .
 ذلك لان « المادة الأولى وان كانت واحدة فانها كثيرة بالقوة والاستعداد » (٦) .

وحيث « انه لا يمكن ان يكون شيء ممكن لا يخرج الى الفعل أبداً (خط
 التأكيد مني : ط . ت) » (٧) ، فان المادة لا يمكن الا أن تتضمن بالضرورة هذه

-
- (١) نفس المصدر السابق - مجلد ٢ ، ١٩٤٢ ، نفس المعطيات السابقة ، ص ١١٧١ .
 (٢) نفس المصدر السابق - مجلد ٣ ، نفس المعطيات السابقة ، ص ١٦٤٩ .
 (٣) ابن رشد يتحدث عن مبادئ « مفارقة » هنا : والحقيقة ، ان هذه « المفارقة » تتلشى
 على يد ابن رشد نفسه ، حينما يتحدث عن علاقة الاله بالعالم . وهذا ما ستراه لاحقا .
 (٤) ابن رشد : تفسير ما بعد الطبيعة ، نفس المعطيات السابقة ، مجلد ٢ ، ص ١٦٥٢ .
 (٥) ابن رشد : تهافت التهافت ، القسم الاول ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٣٩٠ .
 (٦) ابن رشد : تفسير ما بعد الطبيعة ، مجلد ٣ ، نفس المعطيات السابقة ، ص ١٤٤٩ .
 (٧) ابن رشد : نفس المصدر السابق ، مجلد ٢ ، نفس المعطيات السابقة ، ص ١١٤٠ .

الصفة الوجودية في ذاتها . ان هذه النقطة ، التي تستثير انتباه ابن رشد بشكل عميق ، تبرز لنا في الآن نفسه ابن رشد مفكراً مادياً عملاقاً تجاوز ارسطو والفلاسفة العرب – المسلمين السابقين عليه والمعاصرين له في نقاط جوهرية دقيقة .

أما مفهوم « العدم » فان ابن رشد يستخدمه بذلك بغاية اقضاء الفعل الالهي عن العالم وذلك من خلال اكساب الوجود الالهي مضموناً قائماً على « وحدة وجود » مادية . ففي سياق شرحه على ارسطو ، يصنف ابن رشد العدم – ويسميه غير الموجود – في ثلاثة انواع ، الأول هو « الغير موجود باطلاق وهو العدم المطلق الذي ليس له وجود ولا توهم والثاني العدم الذي في الهولوى وهو عدم الصور والثالث الموجود بالقوة . فان الموجود بالقوة يقال فيه انه غير موجود أي غير موجود بالفعل» (١). ومن أجل توضيح هذا النوع الأخير من « غير الموجود » او العدم ، يلجأ ابن رشد الى طرح المسألة على النحو التالي القاطع : « ان الموجود يتكون من الذي هو غير موجود بالفعل ، وهو موجود بالقوة » (٢) .

وهكذا تنتفي لدى ابن رشد التصورات الدينية عن عملية خلق للعالم ، بما فيه الانسان ، من عدم مطلق . وفي الحين الذي يبدي فيه ابن رشد اهتماماً بالغاً بمفهوم « العدم » ، يعمل على مجابهة خصومه الفكريين من خلاله . فهو (أي ابن رشد) يتحيز بشكل واضح للمعتزلة عبر انتقاده العنيف للاتجاه الاشعري من حيث هو اتجاه ديني متميز . فالعدم او المعدوم هو بالنسبة الى المعتزلة والى ابن رشد « ذات ما » (٣) . والممكن هو بالتالي ذلك العدم (المعدوم) الذي يتهاى ان يوجد والا يوجد . وهذا المعدوم الممكن ليس هو ممكناً من جهة ماهو معدوم ، ولا من جهة ماهو موجود

(١) نفس المصدر السابق ، مجلد ٣ ، ص ١٤٤٩ .

بالفعل . وانما هو ممكن من جهة ماهو بالقوة «(١) . بيد أن عملية اقضاء التأثير الالهي على تحول الممكن الى المتحقق تبلغ مداها العميق ، حيث يؤكد ابن رشد بأن « كل شيء يتكون ويصير شيئا فليس يمكن ذلك فيه الا ان يكون له بالطبع شيء من الذي هو موجود له بآخره »(٢) . فحسب ذلك بصريح العبارة : لاشيء من عدم محض . ان مقومات تكون وصيرورة الاشياء في العالم هي خاصة بهذه الاشياء ؛ فليس هنالك من حركة او تأثير دخيل على الشيء ومقحم فيه اقحاما . فالبدء والانتها في عملية التكون والصيرورة تلك هما أصلا بدء وانتها متقومان بالشيء نفسه الذي يتضمنهما . فالوجود الذاتي للشيء المادي ليس هو هنا كذلك فقط بمعنى انه جوهرى ، بل ايضا بمعنى انه ينفي تأثيرا خارجيا ، مقحما من خارج .

ان ابن رشد ، الذي يؤكد في شرح له على ارسطو بأن « كل شيء يكون فانما هو من شيء وبشيء »(٣) ، يتجاوز ارسطو من خلال حزم ووضوح فكريين ماديين . ولاشك ان جانبا مهما من جوانب تفسير هذه الظاهرة الفكرية التاريخية يكمن في الموقف الرشدي السياسي الطبقي والفكري الاكثر تطورا ونضجا . ان موجة الهجوم الواسعة ، ولكن الآخذة اشكالا وسترا متعددة ضد النصية الدينية والظاهرة الدينية عموما ، التي (اي موجة الهجوم) امتدت طوال عدة قرون قبل ابن رشد واكتسبت بالتالي واقعا خصبا في اذهان مجموعة كبيرة من المفكرين العرب - الاسلاميين (مثل الجاحظ وابن الراوندي وابي بكر الرازي وممثلي نظرية المخادعين الثلاثة في القرن العاشر(٤) ، ان تلك الموجة الهجومية كانت ، بالاضافة الى التقدم الهائل الاجتماعي والعلمي ونشوء الارهاصات الاولى للعلاقات البورجوازية المبكرة والعلم الطبيعي المتميز وما رافقتها من حركات معادية لسلاقطع وايدبولوجيته ، الخلفية العميقة للمواقع المادية والانتقادية الدينية لابن رشد .

ان تركيز ابن رشد الدائب على قضية الوجود الخاص الذاتي للشيء له دلالاته العميقة فيما يخص مذهب الفلسفي بأكمله . انه ، وهو في نفس الوقت العالم الطبيعي الذي عاش ضمن علاقات اجتماعية - اقتصادية

-
- (١) ابن رشد : تهاافت التهاافت - قسم اول ، نفس المعطيات السابقة ، ص ١٩١ .
(٢) ابن رشد : تفسير ما بعد الطبيعة - مجلد ٢ ، نفس المعطيات السابقة ، ص ١١٨٥ .
(٣) ابن رشد : نفس المصدر السابق ، ص ١١٨٢ .
(٤) انظر حول هذا : حول المخادعين الثلاثة - دار نشر الاكاديمية ، برلين ١٩٦٠ . كذلك : عبد الرحمن بدوي ، تاريخ الالحاد في الاسلام - القاهرة ، ١٩٤٥ .

حملت في احشائها ملامح اتجاهات بورجوازية مبكرة ، وبالتالي ملامح تحول علمي طبيعي وفلسفي مادي هرطقي ، ان ابن رشد هذا لم يتوان عن التشديد دائماً على الرفض العقلاني لمصادرة الخلق ، وبالتالي لمصادرة « الدفعة الاولى » للعالم ، التي تفقد الشيء « ذاته » : « الطبيعة (يفهم منها طبع الشيء : ط.ت) محرك للشيء نفسه ، اي موجود في الشيء بذاته لا بالعرض » (١) . على هذا النحو ، أي من خلال التأكيد على « الطبيعة الذاتية الكامنة » للشيء الموجودة جوهرياً وليس عرضياً ، يتلاشى التأثير الالهي ، مباشراً كان أو غير مباشر ، على وجود الشيء (العالم) ، أي على وجود الصورة والمادة المشكلة لهذا العالم . هذا يعني ايضاً انه أصبح غير مشروع ان نتكلم عن علاقة « سبب - مسبب » بين الفاعل الأول (الاله) والعالم المادي (الصورة والمادة) . هذا أولاً . اما النقطة المركزية الثانية والمكملة للأولى ، التي يمكن رصدها ضمن تلك العلاقة السلبية ، فانها تقوم على كون الاله ليس بمقدوره ان يمنح الصورة والمادة مواصفاتها الوجودية المبدئية والكيفية . أي أن وجودهما وماهيتهما هما من خصائصهما نفسيهما (أي المادة والصورة) بالطبع . واذن ، فقانونيتهما ، قانونية وجودهما - هكذا تستبين المسألة في منظور ابن رشد الفلسفي الحازم - لن يكون لـ « تدخل » أو « عناية » الالهية شأن في تسييرها وصياغتها . ان التدخل على نحو كلي أو على نحو جزئي في شؤون العالم المادي يصبح غير وارد في سياق الخط الاساسي لمذهب ابن رشد الفلسفي ؛ هذا وإن استبقى ابن رشد بين الحين والآخر في كتاباته مفهوم « التدخل » الالهي في العالم . بل أكثر من ذلك ، ان هذا المفهوم في « التدخل » يفقد مبرراته ، حين نستعيد في اذهاننا رأي ابن رشد حول الفعل الالهي المنحصر في « اخراج » و « نقل » ماهو بالقوة الى ما هو بالتحقق .

عما تقدم يستبين لنا ان ليس هنالك من تناقض جوهري بين مضمون ماوصفناه بالعلاقة «الاله والعالم» وبين العلاقة «الاله - المادة ، الصورة» .

ففي الوقت الذي حدد فيه ابن رشد ، على وجه العموم ، التأثير الالهي على العالم بكون هذا الأخير معلولاً للاله (العلة) - والعلة لا توجد دون معلول - ، وبكون الاله يخرج ما بالقوة الى التحقق ، نجده يعبر بذلك عن العلاقة (اله - عالم) . ولكنه حين يدور الحديث عن « قدم » وخلود المادة

(١) ابن رشد: تفسير ما بعد الطبيعة، نفس المعطيات السابقة، مجلد ٣ ، ص ١٤٥٩-١٤٦٠ .

والصورة وعن عملية صيرورتها بالعلاقة مع « العدم » ، فان التأثير ذاك يتلاشى أو يصبح ظاهرياً . اما انقشاع هذا التناقض لصالح « المادة » ، وبالتالي لصالح الاتجاه المادي الهرطقي ، فانه يتم لدى ابن رشد^١ - عبر تلاشي التمايز أو الفارق الذاتي بين الاله والعالم و^٢ - من خلال توحيد الاله مع العالم في رؤية قائمة على « وحدة الوجود » المادية .

في مجال الجانب الأول من عملية انقشاع التناقض الظاهري ذاك ، نجد ابن رشد يرجع الفارق بين الاله والعالم الى « العدد » .

هاهنا تكمن احدى الملامح الجوهرية القوية لعملية ازالة التعارض بين الاله والعالم . وفي هذه النقطة حقق ابن رشد تقدماً ملحوظاً تلقاً - ارسطو والفلاسفة العرب - الاسلاميين ، من حيث الوضوح والحزم الفكريان . ان يكون الفارق بين الاله والعالم قد قصر من قبل ابن رشد على « العدد » ، يعني ان الخطوة لتفجير ذلك الفارق (أو الهوة) قد انجزت . وهذا لاشك لصالح قضية « وحدة العالم » المادية . وهنا يلوح لنا الجانب الآخر من عملية انقشاع التناقض الظاهري الذي تحدثنا عنه فوق . ان « وحدة » العالم هي من وحدة الاله (الفاعل الأول) . ان هذا الفاعل يصبح هنا جزءاً من الوجود الشامل : « والعالم اشبه شيء عندهم (عند الفلاسفة ، ومنهم ابن رشد) بالمدينة الواحدة »^(١) . وبما ان « الوحدة » تتضمن « التمايز » ، يصبح مشروعاً ومنطقياً ان تحتوي هذه المدينة (العالم) الواحدة موجودات متميزة^(٢) . والاله يتحول ، على هذا الطريق الى « قوة » أو « عقل » العالم الساري في هذا العالم والممسك به^(٣) . « وعلى هذا يصح القول : ان الله خالق كل شيء وممسكه وحافظه »^(٤) . وهكذا : « انه لا بد ان تكون ههنا قوة روحانية سارية في جميع اجزاء العالم ، كما يوجد في جميع اجزاء الحيوان الواحد قوة تربط اجزاءه بعضها ببعض والفرق بينهما ان الرباط في العالم قديم ، من قبل ان الرباط قديم »^(٥) .

(١) لهذا رشد : تهافت التهافت - قسم اول ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٣٧٦ .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) نفس المصدر السابق - ص ٣٧٤ .

(٤) نفس المصدر السابق .

(٥) نفس المصدر السابق - الجزء الثاني ، ص ٦٣٦ .

ان الاله الديني « المفارقة » يتلشى ، على هذا النحو ، في ملامحه الجوهرية . ف « المفارقة » ، كمؤشر أساسي لئلاله دالك ، تفسح الطريق لك « وحدة » ، التي تميز تلك « القوة العالمية » الالهية أو الطبيعية . ان الحرف « أو » هنا يعبر بعمق عن طبيعة المسألة . اذ لم يعد من فارق جوهرى بين ان نتكلم عن عالم الهى وبين ان نتكلم عن عالم طبيعى ، فكلما التحديدين يعبران ، أولا وأخيرا ، عن العالم الواحد المادى .

ان ابن رشد يصوغ مبدا وحدة العالم بوضوح عبقرى . فالأمر لديه على غاية الأهمية فيما يخص هذه المسألة بالذات . فمن يسبر غورها ، يتحقق فعلا من ان ليس لديه « ثنائية » بين العالم والاله ، وانما وحدة وجود مادية . واذا ما أخذنا بعين الاعتبار ان ابن رشد قد تأثر على نحو ما بالرواقية ، الى جانب تأثره الكبير بأرسطو ، فانه يبدو لنا بوضوح انه رفض القول بوجود عقل كلى عام بعيداً أو خارجاً عن العالم هذا ، عالمنا . ان فهم « الاله » على نحوين ، من حيث هو علة العالم ومن حيث هو معلول ذاته نفسه ، يؤدي الى رؤية الاله فى العالم ، والعالم فى الاله ، ويؤكد أخيراً القول بوجود عالم واحد . لقد كتب ابن رشد بوضوح : « والصحيح عندهم (أى الفلاسفة ، وبطليعتهم ابن رشد نفسه) ان الأول لا يعقل من ذاته إلا ذاته ، لا أمراً مضافاً ، وهو كونه مبداً . لكن ذاته عندهم » ، وهنا ينبغى التبصر والانتباه العميقان ، « هي جميع العقول ، بل جميع الموجودات » (١) . ان كفاح ابن رشد الدؤوب والزاخر بالثقة والعنفوان من أجل « العالم الواحد المادى » يقوده الى رفض مفهومي « المفارقة » و « العلوية » اللذين دافع عنهما منظرو التصورات الدينية النصية ، الاشاعرة . . فهؤلاء « دون المعتزلة اعتقدوا ان هذه الذات هي الفاعلة لجميع الموجودات بلا واسطة . والعالمية لها بعلم غير متناه ، اذ كانت الموجودات غير متناهية ، ونفوا العلل التي ههنا . وان هذه الذات . . موجودة مع كل شيء ، وفي كل شيء . اعني متصلة به اتصال وجود . . . فهؤلاء وضعوا مبدا الموجودات نفساً كلية مفارقة للمادة ، من حيث لم يشعروا » (٢) .

ان قضية العلاقة « مادة ، صورة ، عدم » مارست ، على يدي ابن رشد ، دوراً كبيراً فعلاً في تدعيم الاتجاه المادى الهرطقي عموماً . لقد حقق ابن رشد ، عبر حله لتلك القضية تقدماً عميقاً ملحوظاً تلقاء أرسطو ، الذي

(١) نفس المصدر السابق - ص ٣٣٤ . انظر ايضا ص ٣٧٦ .

(٢) نفس المصدر السابق - ص ٣٥٧ - ٣٥٨ .

شكل بالأصل منطلقاً له (لابن رشد) . ان قضية علاقة المادة بالصورة ، وبالعكس ، اكتسبت لدى ابن رشد ابعاداً جديدة طريفة وغنية بالمطامح الفلسفية .

في بدء الأمر يقرر ابن رشد مبدءاً جوهرياً في مذهبه الفلسفي : « ان الصورة غير كائنة ولا فاستدة الا بالعرض وكذلك الامر في المادة، وان الكائن الفاسد بالحقيقة هو الشخص المركب من الصورة والمادة » (١) . فكلاهما ، الصورة والمادة ، خالدتان وقديمتان ، اي غير مخلوقتين . وفي الوقت الذي يتحدث فيه ابن رشد عن مثل هذه المادة ، فانه يعني بها « المادة الاولى » التي « ليس يمكن فيها ان تتعزى عن الصورة » (٢) . فكل منهما لا يمكن فصله عن الآخر ؛ أو في الحالات القصوى يمكن ذلك، ولكن ضمن التحديدات المنطقية (٣) ، ذلك لأن « المادة علة للصورة بوجه . والصورة علة للمادة بوجه » (٤) . لاشك ان ابن رشد في وضعه للمسألة على هذا النحو ارسى خطوة رئيسية على طريق تجاوز الفصل الميتافيزيقي بين الصورة والمادة ، الذي شهدناه لدى ارسطو . ولكن هذا ليس آخر كلمة لابن رشد في هذا المجال ، فنحن سوف نواجه لاحقاً جوانب أخرى خطيرة في هذا السبيل .

بالعلاقة مع ارسطو يؤكد ابن رشد بأن « الموضوع الذي ليس فيه شيء من الفعل أصلاً هي المادة الاولى ... وإذا كانت (أي المادة الاولى) شيئاً ما بالفعل فهي ضرورة إما جسم ، وإما نفس ، وإما عقل » (٥) . بذلك يؤكد ابن رشد ويبرز القوة الخلاقة للمادة ، بحيث أنها تتطور فتكتسب صوراً وأشكالاً عقلية . إن الصور ليست هي هدف ذاتها . وبالتالي فإنها لا يمكن أن تقاس وأن تحدد من خلالها هي نفسها . انها تستطيع ذلك فقط « من جهة الهيولى ، اعني من جهة ماهي شخصيته » (٦) ؛ ذلك لأن « الشخص (يفترق) من الشخص من قبل المادة » (٧) .

(١) ابن رشد : تفسير ما بعد الطبيعة - مجلد ٢ ، نفس المعطيات السابقة ص ٨٥١ .

(٢) ابن رشد : تلخيص كتاب النفس - نفس المعطيات السابقة ص ٤ .

(٣) ابن رشد : تفسير ما بعد الطبيعة - جزء ٢ ، نفس المعطيات السابقة ص ١٠٢٨ .

(٤) ابن رشد : تهافت التهافت - قسم ١ نفس المعطيات السابقة ص ٢٨٧ .

(٥) ابن رشد : تلخيص كتاب النفس - نفس المعطيات السابقة ص ٨٤ - ٨٥ .

(٦) ابن رشد : نفس المصدر السابق - ص ٧٢ .

(٧) ابن رشد : تهافت التهافت - قسم اول ، نفس المعطيات السابقة ص ٨٩ .

هذا يعني بوضوح لامجال للشك فيه ان ابن رشد يتحدث هنا عن المادة من حيث هي العامل الذي يطبع الصورة ويحددها على نحو ما . بهذا المعنى تطرح « الصورة » من خلال المادة وعبرها .

بالعلاقة مع ذلك المركب من القضايا، نود الإشارة الى النقطة الجوهرية التالية : لقد أبان ابن رشد ، كما فعل ذلك أرسطو في حينه ، « ان الهويلى جوهر وهي التي هي موجودة بالقوة . . . وان الصورة هي الجوهر الذي بالفعل » (١) . بيد ان علاقة القوة (الامكان) بالفعل (التحقق) لاتتحدد ، حسب ابن رشد ، فقط من خلال كون « القوة لا تُهرى (خط التشديد مني : ط.ت) من الفعل » (٢) . انها تتحدد وتستبين لنا أيضاً بمعنى « انه متى قويس بين القوة والفعل الذي في تلك القوة ، وجدت تلك القوة متقدمة بالزمان على الفعل » (٣) .

ان ابن رشد ينتقد الرأي الاشعري التالي ويسخر منه ، وهو ان القوة ليست متقدمة بالزمان على الشيء الذي هو نتاج عملية تحول القوة الى الفعل (٤) . انه يرى ، انسياقاً مع ذلك الرأي ، بأنه « يلزم عنه الا تكون قوة أصلاً . . وهذا القول ينتحله الآن الاشعريون من أهل ملتنا وهو قول مخالف لطباع الانس في اعتقاداته وفي أعماله » (٥) . وبتعبير آخر يود ابن رشد ان يؤكد على ان المادة موجودة قبل الصورة المستقلة المتميزة بمعنى انها مقترنة دائماً بصورة تتحدد مواصفاتها ، كما رأينا سابقاً ، من خلال المادة .

ان ابن رشد يفجر ، بذلك ، الفصل الارسطي التقليدي بين المادة والصورة حتى النهاية . فهو ، أولاً ، يحدد القوة (اي المادة) في ارتباطها الانطولوجي الوثيق مع الفعل (اي الصورة) . وثانياً يصل ، عبر الموضوعات الاولى ، الى الرأي الصريح ، بأن القوة « لزم ان توجد إما فعلاً ما غير تام ، واما ان توجد مقترنة بصورة اخرى مفايرة للصورة التي هي قوية عليها . . . » (٦) . ولكنه في « تلخيصه » يصل بنظريته حول ارتباط الصورة

(١) ابن رشد : تفسير ما بعد الطبيعة - مجلد ٢ ، نفس المعطيات السابقة ، ص ١٠٣٥ .

(٢) ابن رشد : تلخيص كتاب النفس - نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٢ .

(٣) ابن رشد : تفسير ما بعد الطبيعة - مجلد ٢ ، نفس المعطيات السابقة ، ص ١٢١٨ .

(٤) ابن رشد : نفس المصدر السابق .

(٥) ابن رشد : نفس المصدر السابق .

(٦) ابن رشد : تلخيص كتاب النفس - نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٣ .

بالمادة قمة الوضوح والحزم الفكريين . فهو يرى بأن الكيفية « منها ما يوجد في الجوهر بذاته ، مثل الملكة والحال ؛ ومنها ما يوجد بتوسط مقولة أخرى: مثل الشكل فانه انما يوجد في الجوهر بتوسط الكمية » (١) .

وقد اكد بحق Van den Bergh ، الذي ترجم « تلخيص ما بعد الطبيعة » لابن رشد ، بأن ارسطو لم يميز في حينه بين كيفية متوسطة وكيفية غير متوسطة (٢) . إلا ان ابن رشد ، الذي ميز بوضوح فلسفي عميق بينهما ، استطاع ، على هذا الطريق ، ان يرجع « الصورة » الى التغيرات الكمية ، التي تطرأ على « المادة » . ولكن من خلال هذه الخطوة العملاقة « تفقد الصورة نهائياً وضعها الخاص ، الذي احتضن به افلاطون نظريته » (٣) . هكذا تبلغ عملية تلاشي « الثنائية » الارسطية القائمة على المادة والصورة آفاقها القصوى على يد ابن رشد في عصره .

ان الصورة تبرز ، على أساس ذلك ، من حيث هي الوظيفة الذاتية الداخلية للمادة واسلوب وجودها الكمي . انها « عدّاد » المادة و « مؤشرها » الكمي . والمادة هي موجودة ، حسب ذلك العدّاد او المؤشر ، على هذا النحو او ذاك ؛ ولكنها ، كما تبين لنا سابقاً ، تحتوي دائماً عنصر التحقق . ان هذا الأمر يتوضح امام أعيننا من خلال حقيقة انها نفسها (أي المادة) موضوع عملية تحول خالدة لا تتوقف . والمادة هذه ، أي الوجود المادي ، والزمان ، اللذان لا ينقطعان ولا يتوقفان عن الوجود من ناحية « القبل » ومن ناحية « البعد » على حد سواء ، أي من ناحية الأزلية والأبدية (٤) ، موجودان بشكل ضروري في حركة أزلية أبدية . والذي يحدد هذه الحركة ويميزها هو كونها الحركة من القوة (الامكان) الى الفعل (التحقق) ، أي كونها عملية التحول من تلك الى هذا .

والتحول هذا يعني عند ابن رشد التغير عموماً . والحقيقة ، ان من يعمق في تقصي المسألة هذه في منظومته الفلسفية ، يستطيع اكتشاف عناصر كبيرة في أهميتها الفلسفية والعلمية . ان ابن رشد يتحدث عما يعني التأثير

(١) ابن رشد : تلخيص ما بعد الطبيعة - نفس المعطيات السابقة ، ص ١٤ .

(٢) انظر : ابن رشد ، تلخيص ما بعد الطبيعة - الطبعة الألمانية، ترجمة Van den Bergh

ضمن : منشورات مؤسسة دي غوي ، ٧ ، Leiden ، ١٩٢٤ ، ص ١٢ .

(٣) هرمان لاي : دراسة حول الماديّة في العصر الوسيط - نفس المعطيات السابقة ، ص ١٤٣ .

(٤) : ابن رشد - فصل المقال . . ، نفس المعطيات السابقة ، ص ١١ .

والتأثر المتبادلين والشاملين في نطاق ظاهرات العالم كله . وفي خلال ذلك يبرز تأكيد على «حفظ» المادة والحركة بشكل مطلق ؛ أي ليس هنالك من شيء يضمحل بشكل مطلق ، بل هنالك تحول من شكل الى شكل آخر جديد من المادة . والمادة ككل تبقى خالدة وثابتة .

هكذا يشير ابن رشد بعمق مدهش اعقد المشكلات الفلسفية الخاصة بالتطور والوجود والخلود . ففي الحين الذي ينطلق فيه - وهذا ما اتينا عليه سابقاً بشكل مفصل - من أنه « يتكون شيء من غير شيء » ، يحدد معنى هذا التكوين بأنه « انقلاب الشيء وتغيره مما بالقوة الى الفعل » (١) . ولكنه (أي ابن رشد) لا يبقى ضمن هذا التحديد العام ، بل يسبر غور المشكلة على نحو أكثر تحديداً ووضوحاً ، حيث يرى - وهذا تعبير عن قانون التأثير والتأثر المتبادلين والشاملين بين مجموع ظاهرات العالم - أن « كل واحد من المكونات هو فساد للآخر ، وفساده هو كون لغيره » (٢) .

كما يظهر من سياق المسألة ، يفهم ابن رشد المادة من حيث هي الوجود المادي الصائر والتحول بشكل خالد . اننا نرى في هذا الطرح الرشدي لقضية التغير والتحول والتطور تأثيراً هيراقليطسياً غير مباشر ، أي عن طريق ارسطو . الا ان هذه الرؤية الرشدية في التغير والتحول والتطور لا يمكن ردها على نحو ميكانيكي الى التأثير الهيراقليطسي ؛ ذلك لان ابن رشد نفسه عاش عصره بعمق ، ذلك العصر الذي احتوى فعلاً تحولاً دافقاً الى امام ، في الوقت الذي لاحت فيه ملامح الكبوة الضخمة للدولة العربية - الاسلامية الوسيطة .

ولقد استخدم ابن رشد في نظريته حول التطور مفهوم « الذرية » ، ولكن على نحو مخالف للاشعرية . ان هذه الاخيرة - الاشعرية - جعلت من الذرات الديموقريطسية ، كما راينا سابقاً ، اجزاء روحانية لعالم روحاني خاضع لقدرة الاله المطلقة في تقسيم الاجسام الى اجزاء لاتتجزأ . ان الفكر الرشدي العلمي رفض نظرية الذرية أولاً - لأنها امر « ليس معروفاً بنفسه » (٣) ، أي لأنها تقول بذررات لاتتجزأ بعيدة - حسب ابن رشد - عن البحث العلمي المباشر ؛ وثانياً - لأنها طرحت على نحو كلامي غيبي ينفي

(١) ابن رشد : تهافت التهافت - قسم اول ، نفس المعطيات السابقة ، ص ١٨٧ .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) ابن رشد : فصل المقال . . - نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٨ .

عن الأشياء حركتها ووجودها الذاتيين ، حيث يتدخل الإله في الكليات والجزئيات الموجودة في العالم . ولكن ابن رشد في الوقت الذي رفض فيه القول بالذرات كمبادئ أولى للعالم المادي المصور ، أي الحاصل على صورة ، فإنه أخذ بهذه الذرات كذرات تتكوّن حينما ينشأ « الجديد » وعلى طريق هذا النشوء المجسد بتحول القوة إلى الفعل .

ان ابن رشد في نظريته حول العالم المادي القديم الواحد ، وفي نظريته حول التطور وحفظ المادة قد طرح الفكر المادي في وحدة عميقة مع الفكر الجدلي ، فأثر بذلك على مجموعة كبيرة من المفكرين الأوربيين في العصر الحديث ، بشكل مباشر أو غير مباشر ، وبشكل خاص عن طريق المدارس الرشدية التي تكونت هنا وهناك في بلدان أوربية معينة .

ان الحركة الأبدية والذاتية في العالم المادي هي ، حسب ابن رشد ، مفتاح الكشف عن ذلك العالم المادي في تنوعه وتعدد الضخم . فالسبيل « الخاص التي يتطرق منها إلى معرفة ذوات الأشياء المجهولة هي أفعالها (أي أفعال الهيولى) الخاصة بها . وفعل الهيولى إنما هو التغيير » (١) . لقد جلبت وجهة النظر الرشدية هذه حول « المادة » النتيجة الجوهرية الكبيرة ، وهي ان المادة باعتبارها لا توجد أصلاً إلا من خلال « صورة » معينة ، فان القيام بدراسة للصور التي تكتسبها في وجودها أمر لا بد منه في سبيل معرفة ذاتها ، أي ذات المادة . والمسألة ، موضوعة على هذا النحو ، تكاد تتحدد بكون المادة **الجوهر** ، والصورة **الظاهرة** . والظاهرة هنا لا تنقل في جوهريتها عن جوهرية المادة ؛ إنما تبقى هنا الباب إلى النفاذ إلى « ذات » المادة . ان « الشيء في ذاته » ، وهو المادة ، لا يمكن إلا ان « يتحول » إلى « شيء ظاهري » ، إلى « شيء لنا » ، كما سيقال لاحقاً بمناسبة الحديث عن Kant .

وحين يضع ابن رشد « الصورة » فوق « المادة » ، فإنه لا يفعل ذلك بالمعنى الانطولوجي ، أي ليس بمعنى أن الصورة لها الأولوية في الوجود تلقاء المادة ، بل انطلاقاً من اعتبار نظري معرفي ، بحيث تظل الصورة السبيل المباشر إلى « ذات » المادة ، والأولوية الانطولوجية تظل تحتفظ بها المادة تلقاء الصورة .

ان ابن رشد قد استطاع ، عبر طرحه لمسألتها العلاقة بين المادة

(١) ابن رشد : تفسير ما بعد الطبيعة - مجلد ٢ ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٧٨٠ .

والصورة ، ووحدة العالم الكونية المادية ، ان يساهم بعمق في تطوير الفلسفة المادية الهرطقية والجدلية الى امام ، وخصوصاً في تأكيد على العالم في وحدته المادية من طرف اول ، ثم في إبعاده لمفهوم « الاله » المفارق العلوي من مذهبه الفلسفي ، حيث جعله جزءاً من الطبيعة من حيث هو « عقلها » او قانونية وجودها . بيد اننا هنا لا نتحسس ذلك التوحيد الواسي للاله بالطبيعة والطبيعة بالاله ، على النحو الذي نراه لاحقاً لدى سبينوزا. الا ان ماحقته ابن رشد في هذا السبيل يبقى خطوة هائلة في تاريخ الفكر المادي الهرطقي والجدلي . هذا يعني ان ابن رشد قد ارسى حجراً ضخماً أساسياً لعملية تجاوز الثنائية بين الاله والعالم وبين المادة والصورة ، كما شهدناها بأشكال مختلفة في البنى الفلسفية لارسطو وافلاطون ، وفي البنية الدينية عموماً .

لقد كشفت خطوة ابن رشد تلك مكتسباً كبيراً للفكر المادي الهرطقي والجدلي ، حيث وحد بين الوجود والجوهر ، بين الظاهرة والجوهر - هذان اللذان عانيا من الانفصال الميتافيزيقي لدى افلاطون وارسطو والفرازي الشيء الكثير .

ان انتقاد ارسطو لافلاطون في رأيه حول مضاعفة الوجود ، وبالتالي فصل الجوهر عن الظاهرة ، لم يحصد ثماره على يد ارسطو نفسه ، الذي وقع في نفس المشكلة - وان كان على نحو آخر - . ان هذه الثمار كانت نتيجة مجهود شامل وعميق اوصله ابن رشد ، أخذاً بعين الاعتبار كسل ماقدمه في هذا السبيل كل من الفارابي وابن سينا وابن طفيل ، قمته في المصور الانسانية الوسيطة .

ابن خلدون - نشوء وتطور الفكر الاجتماعي المادي صياغة مفهوم "الوجود الاجتماعي المادي" بشكل أولي

لا شك ان البحث العلمي التاريخي لم ينفذ بعد بشكل معمق وموسع الى تراثنا الفكري الوسيط . ومعظم الذين حاولوا ذلك من المستشرقين والباحثين العرب فشلوا في تحقيق رؤية علمية متماسكة حول هذا التراث ، لانهم لم ينطلقوا من حركة التاريخ العربي الاسلامي الداخلية الجوهرية ، بل من جوانب غير جوهرية من هذه الحركة .

واذا عملنا على مقارنة هؤلاء الباحثين والمستشرقين بمن حاول من المفكرين من قبل ابن خلدون بحث الوجود الاجتماعي والتاريخي ، فاننا سوف نجد ، بالرغم من الفاصل الزمني الطويل بين اولئك وهؤلاء ، بان قاسماً مشتركاً معيناً يوحد بينهم جميعاً . وهذا القاسم المشترك يكمن في ان كلا الفريقين لم يكن بمقدورهما اكتشاف العوامل المحركة الاساسية للتطور الاجتماعي والتاريخي .

ان ذينك الفريقين اجتزعا بعض الظواهر او الروايات الانسانية الاجتماعية والفكرية وجعلوا منها نقطة الانطلاق في بحثهما . فالفريق الاول لجأ الى الاسطورة او الدين او الى شخصيات او « قوى » خيالية معينة ، وحاول ان يشتق منها حركة التاريخ . وقد اتينا سابقاً على ذكر البلاذري والطبري وآخرين من المؤرخين الاسلاميين العرب ، الذين ظلوا في ابحاثهم مجانبين للمشكلة الاساسية في الدراسة الاجتماعية . هذا على الرغم من انهم قدموا لنا معلومات ضخمة عن عصرهم على وجه الخصوص . ف « تاريخ الطبري » يشكل ولا شك احد المصادر الهامة للتعرف على العصر الذي عاش فيه الطبري ، من حيث الاحداث والمعلومات التي يوردها والتي لا تحصى . في « تاريخ الطبري » هذا صورة حية عن واقع الحرف والصناعات والفرق الفكرية الخ . . آنذاك . ولكننا لانعثر فيه على نظرية في المجتمع والتاريخ تطرح هذين طرحاً يمس المشكلة على نحو عميق علمياً . ولكن ، بطبيعة

الحال ، لا يمكننا وضع الطبري وهيرودوت في مستوى واحد ، بالرغم من ان كليهما لم يحقق خطوة نوعية أساسية في الفهم الاجتماعي والتاريخي . ذلك لأن « مادة » البحث التاريخي لدى هيرودوت تتحدر ، بالخط العام ، من مصادر تسيطر عليها الروح الأسطورية ؛ بينما تلك المادة عند الطبري تتميز بكونها واقعية ، مأخوذة من المجتمع العياني الذي عاش فيه الطبري .

أما الفريق الثاني من الباحثين المستشرقين والعرب في العصر الحديث فقد تطرق في بحثه الاجتماعي التاريخي الى الحلقات الجوهرية المحركة للتاريخ والمجتمع ، ولكنه لم يرها **جوهريّة** ، بل أخضعها لآطار ثانوي من العوامل الكامنة في قلب التحرك التاريخي والاجتماعي . ان هؤلاء المستشرقين والباحثين العرب قد أكدوا مثلاً على « الشخصية » او على « العامل الديني » او على « الأفكار » او على « الاخلاق » الخ . . . وهم بذلك يلتقون مع المؤرخين ما قبل ابن خلدون ، بالرغم من الاختلافات بين كلا الطرفين .

ضمن هذا الاطار التاريخي ينبغي ان نقيم الدور الذي لعبه العالم العظيم ابن خلدون في دفع البحث العلمي الاجتماعي والتاريخي الى امام .

وقد تعرضنا فيما سبق لمرحلة الانحطاط والاضمحلال الاقطاعية البدائية التي دخلت حياة المجتمع العربي الاسلامي الوسيط . وهذه المرحلة استمرت حتى القرن العشرين توطدت خلالها القيم الفلسفية والاخلاقية والعلمية المنطلقة من الايديولوجية الاقطاعية . وحيثما اخذت بدايات نهضة بورجوازية صناعية تخط طريقها الى الوجود، كانت الرأسمالية الاوربية قد وصلت في تطورها مرحلة الاستعمار الهادف الى قمع اية حركة تصنيعية في البلدان النامية والقادر فعلاً على تحقيق ذلك . الى جانب هذا وبالتعااضد معه قدر الاقطاع المحلي في الوطن العربي على استيعاب آفاق تلك البدايات ، بحيث أرغمت هذه الأخيرة تحت ضغط الاقطاع والاستعمار على اقامة ماسميناه سابقاً بـ « التواطؤ » بينها وبين الاقطاع .

ان هذا حدد آفاق الفكر الاجتماعي والفلسفي والاخلاقي والعلمي في الوطن العربي فجعلها قاصرة عن الاحاطة الجدلية الدقيقة بالمجتمع الانساني . وهذا ما يدعونا الى القول بأن المفكرين العرب الاسلاميين وغيرهم قبل ابن خلدون ، والمفكرين العرب الاسلاميين خلال عهد الانحطاط والمفكرين العرب في عهد البدايات البورجوازية المبكرة الحديثة تلك والتواطئة مع الاقطاع ، كانوا — بشكل عام — عاجزين عن سبر غور الظاهرة الاجتماعية والتاريخية سبراً عميقاً جوهرياً .

لا شك اننا نجد بعض الملامح لعملية السبر هذه لدى بعض المفكرين العرب الاسلاميين قبل ابن خلدون ، مثل الفارابي وابن رشد . ولكن هذين المفكرين نظرا الى القضايا الاجتماعية التاريخية من خلال منظور فلسفي يطرح مسائل الوجود والمعرفة والانسان على نحو كلي . انهما لم يركزا بحثيهما على المجتمع من حيث خصوصيته ، بل من حيث هو جزء من الوجود الكلي . اي انهما ركزا جهودهما على الوجود « التحتي » الذي هو الطبيعة او الكون ، بينما المجتمع ، كشكل لاحق من اشكال الوجود ، لم يتعرض له الا بقدر ما هو متمم لنظريتهما في الوجود الكلي . ونحن سوف نجد ان ابن خلدون قد الحّ بدوره على جانب من جوانب الوجود ، وهو المجتمع ، ولم يطرح هذا الأخير الا من حيث هو موضوع لعلم الاجتماع ولعلم التاريخ . وربما كان هذا الموقف لابن خلدون هو الذي مكّنه من الابتعاد عن التصورات والتأملات الميتافيزيقية الغيبية التي وقع فيها الكثيرون ممن سبقه ومن تلاه .

ولد ابن خلدون عام ١٣٣٢ في أسرة دخلت الاندلس ، فاقامت في « قرمونة » . ثم انتقلت الى اشبيلية ، ومنها الى سبته ثم الى تونس ، حيث ولد عالمنا هناك .

لقد كان ابن خلدون طاقة فكرية وسياسية ضخمة . انه عمل على استيعاب مجموع معارف عصره ، وذلك الى جانب رحلاته الواسعة الى كثير من مناطق الدولة العربية الاسلامية آنذاك . وقد كانت الفترة التاريخية التي عاش فيها ابن خلدون ، إرتداداً عنيفاً وشاملاً الى العلاقات الاجتماعية الاقطاعية ، بعد ان توطدت ، قبل ذلك ، حضارة اجتماعية واقتصادية وعلمية حملت في ثناياها كثيراً من علائم التحول الى مجتمع رأسمالي صناعي . ان ابن خلدون عاش فترة الارتداد تلك بعمق وعن كثب . فقد تقلد كثيراً من المناصب لدى الكثيرين من السلاطين والامراء في الدولة ، وتنقل مراراً ضمن مقاطعاتها .

وفي الوقت الذي وُطد فيه ابن خلدون العزم على كتابة مؤلفه الكبير «كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر» وكتابة «مقدمته» ، كان قد اجتاز مرحلة نضج علمي وسياسي كبير ، استطاع من خلاله تمثل نتاج عصره الفكري والسياسي والتراث الفكري الانساني المتقدم عليه تمثلاً موسوعياً عميقاً .

لقد كثف العصر الخلدوني عمليتين حاسمتين في تطور المجتمع العربي الاسلامي الوسيط . فمن جهة كان هذا المجتمع قد حقق انجازات ضخمة

ضمن اطار الانتاج البضاعي الواسع والحركة التجارية الشاملة ، بحيث كان هذا يتجه نحو إيجاد علاقات اجتماعية جديدة ، قائمة على الانتاج الصناعي الرأسمالي ، ومن جهة اخرى كانت عوامل عديدة تسهم بقوة في تفتيت ذلك الاتجاه ، عوامل داخلية وخارجية صبّت في تيار واحد : التحول نحو الاقطاع المنزلي البدائي .

ضمن هذا التناقض والتقاطب الاجتماعي التاريخي كمنت أهمية ابن خلدون النظرية في أنه لم يدرس التقاطب والتناقض هذين فقط، وإنما أيضاً، بل وفي الخط الأول ، في أنه انطلق من ذلك الواقع لينفذ الى غور الحركة الاجتماعية والتاريخية في كليتها .

ونحن لانشك هنا بأن ابن خلدون قد سعى في كتابه ومقدمته ، بوعي ووضوح ، الى طرح قضية علم الاجتماع او « علم العمران »، كما هو يسميه، طرحاً متبايناً بشكل نوعي عما كان سائداً قبله لدى المفكرين الاجتماعيين . وكان ذلك من خلال تفحصه وتقصيه لمسيرة المجتمع العربي الاسلامي الوسيط ، وعلى طريق تعرفه على نحو اولي ، ولكن واضح ، على بعض المجتمعات الانسانية الكبرى ، إن كان بواسطة الكتب او بواسطة ما تقل له او مارآه هو بنفسه ودرسه .

ولذلك فانه من الخطأ ان نشك في ان ابن خلدون حاول طرح قضية « القانونية الاجتماعية والتاريخية » طرحاً نظرياً عمومياً . بمعنى آخر ، اننا نقع في خطأ فادح اذا اعتبرنا ان بحث ابن خلدون الاجتماعي «موضعي ، طوبولوجي ، وضعي ؛ ولهذا جاء بحته وضعياً اكثر منه نظرياً . انه (ابن خلدون) رجل سياسة عملية ، لاتعنيه النظريات العامة ، بل تهمه الاحداث الفعلية الجارية والتي جرت في مجتمع معين يقصر دراسته عليه » . ويتابع عبد الرحمن بدوي ، كاتب هذه السطور ، مقيماً الفكر الخلدوني : «ولهذا هو لم يهدف الى وضع فلسفة سياسية ولا حضارية ... وفي داخل هذا الاطار يجب ان تقصر تقديرنا له «(١)» .

لاشك ان ابن خلدون لم تتيح له امكانية التعرف على نماذج عديدة من المجتمعات الانسانية ودراستها وتقصي ابعادها الاجتماعية والتاريخية . بيد أن ذلك لم يشكل عائقاً أمام طموحه وسعيه العلمي نحو اكتشاف قوانين

(١) عبد الرحمن بدوي : دور العرب في تكوين الفكر الاوربي؛ بيروت ١٩٦٥ ، ص ١٢٩ - ١٣٠ .

نموذجية عامة سائدة في المجتمعات الانسانية عموماً . ذلك لأن الكشف عن مثل هذه القوانين النموذجية لا يستدعي دراسة كل المجتمعات ، بل يكفي أخذ عينات أو نماذج عن هذه المجتمعات .

طبعاً نحن لانحاول هنا الادعاء بأن ابن خلدون قد توصل الى يقين ووضوح كاملين ومتماسكين حول « قانونية » التطور الاجتماعي ، بل أننا نود التأكيد على أنه قد اقترب بقوة من مواقع هذه القناعة والوضوح . لذلك فإنه ليس من الدقة ان نتساءل : « وكيف يحق له (لابن خلدون) ان يستخرج قوانين عامة تنطبق على العمران كله » ، إذا اقتصر على شواهد من تاريخ محدود ومجتمع معلوم ؟ (١) . ان هذا التشكيك من قبل عبدالرحمن بدوي يثير قضيتين : الأولى هي ان التحقق من صحة قانون اجتماعي أو طبيعي مالا يشترط تلمس هذا القانون في أحوال كثيرة من التطور الاجتماعي أو الطبيعي . ان هذا ، الذي أصبح في عصرنا ممكناً ، لم يكن متيسراً لابن خلدون . عدا ذلك ليس مطلوباً من عالم الاجتماع أو أي عالم آخر ان يلتم بكل الاجزاء ، لكي يتوصل الى العام الموحد لهذه الاجزاء .

اما القضية الثانية فهي ان الممارسة الاجتماعية والتاريخية الحية هي التي تستطيع فعلاً القاء ضوء ساطع على حقيقة أو خطأ قانون اجتماعي تاريخي معين . في هذه الحال ينبغي ان نتساءل فيما اذا تخطى القانون الاجتماعي الاساسي الذي اكتشفه ابن خلدون ، أم أنه أكد واثبت صحته في العصور اللاحقة ؟

ليس هنالك من تخط ، وانما اثبات وتعميق لاكتشاف ابن خلدون . لقد اكد في مقدمته بأن الاختلافات في عادات واخلاق مختلف الشعوب تتوقف على الطريقة التي يحصل بها كل منها على معاشه . وفي الحقيقة ، لقد امكن ويمكن التحقق من ذلك من خلال الممارسة العملية والعلمية للانسان في مختلف المجتمعات ، منذ المجموعات الانسانية البدائية حتى ارقى شكل من اشكال التطور الاجتماعي المعاصر للمجتمع . ان هذا الطرح للمسألة كان تمهيداً ضخماً لطرحها على نحو شامل معمق من قبل ممثلي الفكر التاريخي المادي في القرن التاسع عشر .

لقد بحث ابن خلدون في القرن الرابع عشر المشكلة الجوهرية في علم التاريخ والمجتمع ، وهي الدوافع الاساسية المحركة للتطور الاجتماعي

(١) نفس المصدر السابق - ص ١٢٩ .

والتاريخي ، واستطاع التوصل فعلاً الى بعد جديد كل الجدة في هذا المجال : فأسلوب الانتاج المادي هو الذي يحدد السمة الجوهرية لتطور اي مجتمع انساني . وبالطبع ، ان هذه الرؤية لاتهمل الجوانب الاخرى من المجتمع ، التي يمكن ان تمارس دوراً محركاً معيناً .

لقد وقف ابن خلدون ، من خلال نظريته حول اسلوب الانتاج المادي، في آن واحد ضد الاتجاهين الرئيسيين في حقل الاجتماع ، اللذين سادا طيلة عصور ، وهما المادية الميكانيكية والمثالية الغيبية . فالمادية في العصر اليوناني الرقيقي، بممثليها طاليس واناكسمندر واناكسيمنس وهيراقليطس وديموقريطس ، لم تر في المجتمع الا امتداداً ميكانيكياً للطبيعة . انها نظرت الى العالم في مجموعه من خلال رؤية بدائية مادية ، غير متطورة . وهذه « المادية الميكانيكية » لم يمثلها احد في الفكر العربي الاسلامي الوسيط على نحو مباشر ، وانما اكتسبت المادية هنا طابع « وحدة وجود » يكون فيها المجتمع جزءاً متميزاً قليلاً او كثيراً عن بقية الاجزاء . هذا يعني اننا لانستطيع ان نسم المادية العربية الاسلامية الوسيطة بميسم « الميكانيكية » . مع العلم ان « المجتمع الانساني » لم يرتفع في تلك المادية الى مرتبة القضية الرئيسية والاساسية من قضاياها .

اما المثالية الغيبية فكانت بطبيعة الحال ، ولا زالت ، ترى في المجتمع، والعالم عموماً ، نتاج خلق الهي او انساني ذاتي . فافلاطون والفراولي والقديس توما الاكوينى الخ . . . انطلقوا في فهمهم للمجتمع ليس منه نفسه، وانما من قوى غريبة عنه وخارقة ، فابتعدوا بذلك عن الحركة التاريخية الحقيقية . وهكذا ايضاً المثالية الذاتية المثلثة ب « بركلي » وآخرين .

ان موقع ابن خلدون من هذا كله يبرز اساسياً وجوهرياً . لقد حقق ما لم يحققه مجموع المفكرين السابقين عليه : ان ميكانيكية المجتمع الانساني تتحدد بوجودها وتطورها من خلال هذا المجتمع نفسه . والسببية تلعب في ذلك دوراً مبدئياً في الافصاح عن مهمة علم المجتمع والتاريخ . ان ابن خلدون ينطلق من ان « كل حادث من الحوادث ذاتاً كان او فعلاً لا بد له من طبيعة تخصه في ذاته وفيما يعرض من احواله » (١) .

بيد انه ، في الوقت الذي اكد فيه على ان الفلاسفة يجب ان يبحثوا الاشياء في اسبابها ومسبباتها ، وبالتالي ان يتجنبوا الحديث حول عالم

(١) ابن خلدون : المقدمة - نفس المعطيات السابقة ، ص ٣٥ - ٣٦ .

فوق المجتمع الانساني ، فانه - أي ابن خلدون - بقي مثالياً في نظره للعالم ككل . فهذا الأخير ، حسب ابن خلدون ، نتاج لخلق إلهي خارق ومفارق .

لقد رأى ابن خلدون في « اسلوب المعاش الإنساني » أو اسلوب الانتاج المادي الحلقة الرئيسية في حركة التاريخ والمجتمع . والفارابي ساهم في ذلك ولاشك (١) . ومساهمته ومساهمة آخرين مثل ابن رشد ، بالرغم من انها كانت كما رأينا محدودة بنطاق وامكانية معينة ، كانت ذات اثر واضح . كذلك تأثر ابن خلدون في ذلك بأرسطو من خلال كتابه في « السياسة » الذي ترجم الى العربية ولخص من قبل ابن رشد .

ان مفهوم « القانون » الاجتماعي والتاريخي اخذ يعلن عن نفسه في « مقدمة » ابن خلدون . وهذا القانون يعكس القانونية الداخلية للمجتمع نفسه . وهو اذ توصل الى مفهوم « القانون » ، فقد استطاع كشف « الحتمية التاريخية » . فالتاريخ لا يخطو على أساس اهواء انسانية ذاتية لامراء او لقوى ماورائية مفارقة ، بل حسب ضرورة موضوعية .

ومن الخطأ القول بأن ابن خلدون اخذ بهذه الضرورة بالمعنى الميكانيكي . بل انه من خلال تأكيدده على انه « لابد للعمل الانساني » (٢) من حيث هو ينبوع أساسي وحيد للكسب الحياتي المعاشي وعلى أن « الكسب هو قيمة الاعمال البشرية » (٣) ، فقد فهم تلك الضرورة على أنها الفعالية الانسانية ذاتها . وبمعنى آخر ، انه يرى ، ولو بدون وضوح ووعي اكاملين ، أن التاريخ من صنع الناس الاجتماعيين العاملين .

ان نقد ابن خلدون لمن سبقه من المفكرين الاجتماعيين الاسطوريين والمثاليين الغيبيين أو الماديين الميكانيكيين بأنهم لم ينطلقوا من حركة التاريخ الجوهرية ، وانما من جوانب ثانوية تخص الحكام أو المروق أو الشخصيات

(١) « ان اجزاء المدينة مفلطرون بالطبع بفطر متفاضلة يصلح بها انسان لانسان لشيء دون شيء . غير أنهم ليسوا اجزاء المدينة بالفطر التي لهم وحدها بل بالملكاث الارادية التي تحصل لها وهي الصناعات وما شاكلها » . (الفارابي : آراء اهل المدينة الفاضلة - نفس المعطيات السابقة ، ص ٨٠) .

(٢) ابن خلدون : المقدمة - نفس المعطيات السابقة ، ص ٣٨١ .

(٣) نفس المصدر السابق - ص ٣٨٠ .

البطلة ، ان نقده هذا لم يفقد عمقه وأهميته في عصرنا الراهن ، وخصوصاً بالنسبة الى علماء الاجتماع البورجوازيين في البلدان الرأسمالية المتطورة وبالنسبة الى مفكري البلدان « المتخلفة » الذين يمثلون الايديولوجية البورجوازية أو الاقطاعية .

ان تلك الأهمية تكمن في ان ابن خلدون قد استطاع في « مقدمته » إقامة صرح عميق للفكر الاجتماعي العلمي ، الذي يعتمد قانونية التطور المادي للمجتمع أساساً مكيناً له . وعلى هذا الأساس تمكن من تقديم « مشروع » صياغة متماسكة لمفهوم « الوجود الاجتماعي المادي » . وبذلك افتتح مرحلة علمية جديدة . علم الاجتماع .

المفكر البارز المقريري ، فتابع المنهجية الخلدونية ، معطياً الجانب الاقتصادي من المسألة أهمية نظرية وعملية كبرى . والجدير بالذكر ان فكر ابن خلدون قد أهمل طيلة العصور الاقطاعية البدائية التي مرت على المجتمع العربي الاسلامي الوسيط ، الى ان ظهرت ملامح الفكر المادي التاريخي في القرن التاسع عشر في أوروبا ، فاخذ الاهتمام يتصاعد عمقا بالتركة الخلدونية المعطاة .

ان هذا الاهتمام يبرز بقوة من خلال رسالة بعث بها مكسيم غوركي الى المفكر الروسي ف.ا. انوتشين بتاريخ ٢١ ايلول ١٩١٢ ، وفيها يقول : « ... انك تنبؤنا بأن ابن خلدون ، في القرن الرابع عشر كان اول من أظهر دور العوامل الاقتصادية وعلاقات الانتاج . ان هذا النبا قد احدث وقع خبير مشير . واهتم به صديق الطرفين (يقصد لينين) اهتماماً خاصاً ... » وبهذا الصدد كتب انوتشين : « اهتم فلاديمير ايلتشين (لينين) اهتماماً شديداً بمؤلف الفيلسوف العربي ابن خلدون « المقدمة » ، الذي يتناول دور العوامل الاقتصادية .

وكان لينين يتساءل : « ترى اليس في الشرق آخرون ايضاً من امثال هذا الفيلسوف ؟ » (١) .

الاجتماع والتاريخ . ومحاولة بعثه مجدداً في حياتنا الفكرية على نحو خلاق تقتضي توحيد الجوانب العلمية الثورية فيه مع الشكل الأكثر تطوراً وتقدماً من أشكال علم الاجتماع والتاريخ المعاصر . ان التدقيق في الفكر الرشدي والخلدوني من خلال رؤية تاريخية جدلية يمنحنا القناعة العلمية بأن تاريخنا الفكري قد أسهم بقوة في طرح مشكلات الوجود بجوانبه الطبيعية والاجتماعية الإنسانية طرحاً معمقاً محفوفاً بالآفاق والتوقعات العلمية والفلسفية بالنسبة الى العصر الوسيط والعصور الحديثة والمعاصرة.

المقرزي - خطوط أساسية في سبيل الإحاطة بالمجتمع الإنساني على نحو تاريخي علمي

المقرزي أحد المفكرين البارزين الممتازين في التاريخ العربي الاسلامي الوسيط ، الذين ساهموا بعمق في بلورة وتطوير الابحاث الاجتماعية . وفي الحقيقة إن من يتقصى تاريخ الفكر العربي الاسلامي انطلاقاً من القرن الخامس عشر ، يجد أن المقرزي يشكل حلقة أساسية في ذلك التاريخ ، وإن كانت هذه الحلقة ، بمعنى معين ، امتداداً لفكر ابن خلدون . فالمقرزي هو تلميذ لابن خلدون ، وربما تلميذه البارز الوحيد في العصر الوسيط العربي الاسلامي . وبذلك فهناك وحدة عميقة بين كلا المفكرين ، يتلمسها كل من يلمّ بالكتابين الأساسيين في تاريخ الفكر الاجتماعي عموماً ، « المقدمة » لابن خلدون و « إغاثة الأمة بكشف الغمة » للمقرزي .

لقد نشأ المقرزي في مصر وعاش (منذ ١٣٦٢ حتى ١٤٤٢) في عصر مضطرب سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وأخلاقياً ، في عصر حمل من المشكلات العديدة والمستعصية ما يمكن مقارنته بالعلاقات الاجتماعية التي عاش في ظلها ابن خلدون .

لقد كان القرن الخامس عشر في مصر وقتاً عصيباً ، امتدت فيه جذور الاقطاع الى اعماق المجتمع ، وسادت الرشوة والنصب والاحتيال ، وعمت ضائقة اقتصادية واسعة . ان هذا الواقع يمكننا رسم ملامحه انطلاقاً من مؤلف المقرزي نفسه « إغاثة الأمة بكشف الغمة » .

ان أهمية هذا المفكر تكمن في أنه حاول جاداً كشف القانونية الموضوعية لوجود وتطور المجتمع المصري آنذاك . وفي هذه النقطة نجده يلتقي بإبن خلدون . بيد أنه من الملاحظ أن المقرزي لم يطمح ، أو لم يستطع الوصول الى نواظم او مقولات نظرية اجتماعية عامة ، وإنما بقي ، بشكل عام ، ضمن الإطار العملي للمشكلة . وربما يمكن القول بأن المقرزي انطلق من المبادئ الأساسية التي طرحها وأخصبها ابن خلدون في «مقدمته» في فهمه ودراسته

للمجتمع المصري الوسيط . ولكن هذا لا يتضمن إطلاقاً التقليل من الأهمية النظرية للمقريري في كتابه المشار إليه فوق . بل على العكس من ذلك ، فنحن نجد في شخصه المدافع الأكبر عن آراء ابن خلدون الاجتماعية والمتابع الكبير الحازم لها ضمن ظروف خضارية معقدة ومتشعبة للغاية . وسوف نرى هذا ، حين نقرب من المسألة أكثر .

ولكن قبل أن نتعرض لذلك ، ينبغي الإشارة إلى أن الرأي القائل بأن ابن خلدون « بقي بدون اخلاف ، كما كان دون رواد » (١) ، غير دقيق ، إذ يتعارض مع الواقع التاريخي الحقيقي الذي تجسده ظاهرة المقريري . صحيح أن ابن خلدون لم يتحول إلى اتجاه فكري كبير بمجموعة كبيرة من الممثلين له ، ولكنه لم يندثر في الشرق دون وجود من يتابع عمله .

كإبن خلدون ، هكذا يحيط أيضاً بالمقريري تناقض أساسي وواضح في رؤيته للوجود من حيث هو ككل ، وللمجتمع على انفراد . فهو ، في الحقل الاجتماعي الإنساني ، يحاول اكتشاف العوامل والقوانين المحركة للمجتمع ؛ ويحقق في هذا الحقل خطوة هامة . ونحن إذ قلنا سابقاً أن هذه الخطوة هامة ولكن ليست جديدة نوعياً ، فإنما نعني أنها تتابع لما حققه ابن خلدون ، ليس فيه من الجدة والابتكار شيء بمقدار ما هو تحسيس وتطبيق لنظرية ابن خلدون في التطور الاجتماعي الإنساني . إلا أن هذا « التحسيس والتطبيق » له قيمة علمية اجتماعية ضخمة من حيث كونه تعبيراً عن قدرة النظرية الخلدونية على استيعاب ظواهر اجتماعية جديدة .

في كتابه « إغاثة الأمة بكشف الغمة » يعمل المقريري على تفسير الأحداث الاجتماعية تفسيراً اجتماعياً اقتصادياً . لقد قدم لنا صورة واضحة وشاملة عن اتجاهات التمزق الاجتماعي الاقتصادي في وطنه مصر ، عن الهبوط الكبير في حجوم الارزاق في الأسواق ، وبالتالي عن عملية الاحتكار التي قام بها الأثرياء من تجار ومرابين وأمراء . وبالعلاقة مع هذه الصورة يعرض لنا المقريري بشكل شيق ومثير النتائج الرهيبة والمرعبة لرفع الأسعار الخاصة بالحاجات الاستهلاكية الأولية .

وهو في كل المسائل الذي تعرض له من هذا النوع يجد سببين أساسيين للمشكلة ، واحداً طبيعياً ، مثل جفاف النيل أو فيضانه ، وآخر اجتماعياً : تحكم التجار الأثرياء بالأسواق وفرضهم شروطهم القاسية على

(١) دي بور : تاريخ الفلسفة في الإسلام - نفس المطبوعات السابقة ، ص ١٨٤ .

الطبقات الكساحة الفقيرة . وكمثال على الوضوح في الرؤية الاجتماعية الاقتصادية النظرية وعلى التحيز العلمي التاريخي للطبقات المسحوقة في موقف المقريري ، نورد هذا المقطع الحي من كتابه المشار اليه سابقاً : «ثم وقع الغلاء في الدولة الايوبية وسلطنة العادل أبي بكر بن أيوب ، في سنة [ست] وتسعين وخمسمائة : وكان سببه توقف النيل عن الزيادة وقصوره عن العادة ، فانتهمت الزيادة الى اثني عشر ذراعاً واصابع . فتكاثر مجىء الناس من القرى الى القاهرة من الجوع ، ودخل فصل الربيع فهب هواء أعقبه وباء وفناء ، وعدم القوت حتى أكل الناس صفار بني آدم من الجوع ، فكان الأب يأكل ابنه مشوياً ومطبوخاً ، والمرأة تأكل ولدها . . . ووجدت لحوم الأطفال بالأسواق والطرقات مع الرجال والنساء مختفية . . . ثم تزايد الأمر حتى صار غذاء الكثير من الناس لحوم بني آدم بحيث ألفوه ، وقل منهم من عدم القوت من جميع الحبوب وسائر الخضروات وكل ما تنبت الأرض . . . ومع ذلك كانت المخازن مملوءة غللاً ، والخبز متيسر الوجود يباع كل رطل بدرهم ونصف ، وزعم كثير من أرباب الأموال أن هذا الغلاء كسني يوسف عليه السلام ، وطمع أن يشتري بما عنده من الأقوات أموال أهل مصر ونفوسهم فأمسك الفلال وامتنع عن بيعها » (١) .

من هذا النص نستطيع أن نستشف القدرة الكبيرة لدى المقريري على تحليل الوضع الاجتماعي الاقتصادي آنذاك . لقد أكد على تناقض أساسي في المجتمع ذاك قطباه الرئيسيان تشكلهما الجماهير الفقيرة المعذمة الفلاحية والمدينية من طرف ، والتجار والمرابون وأصحاب الأتبان والقرى المدعومون من قبل الأمراء الاقطاعيين من طرف آخر .

والملاحظ أن المقريري لم يستطع رؤية الواقع آنذاك في تحوله الجدلي الثوري . فهو لم يتمكن من استشفاف آفاق المستقبل . ذلك لأنه لم يقترب من مفهوم « الثورة » الاجتماعية . الا أنه عمل على طرح الحلول الممكنة للمشكلة في إطار الواقع ذاك .

أن العاملين ، الطبيعي والاجتماعي ، في نشوء الأزمات الاقتصادية المربعة ، التي يحدثنا عنها في كتابه الغد ، أساسيان في تحديد ملامح هذه الأزمات . لكنه لم يكن قادراً على الوصول الى النتيجة : ازالة الملكية الفردية

(١) تقي الدين أحمد بن علي المقريري : كتاب اغاثة الامة بكشف الغمة - القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ٢٩ - ٣١ .

كحلٍ جذري للبؤس الاجتماعي . فهو قد تعرض للمحتكرين من تجار وأصحاب أطيان من حيث هم السبب الاجتماعي لهذه الأزمات ؛ ولكنه كان بعيداً عن طرح تجاوز سلطتهم الاجتماعية الاقتصادية والسياسية من خلال فعل جماهيري منظم . وهذا مفهوم بذاته ؛ فدور الجماهير الكادحة لا يزال بعد غير متميز وغير واضح في الحياة الإنتاجية ، وقدراتها السياسية التثويرية لم ترتفع بالتالي الى مستوى الفعل الواعي المنظم .

ان «الانسان المنتج» لم يُطرح بعد من حيث هو ذات فاعلة خالقة لموضوع، ومخلوقة لهذا الموضوع . فجذلية الذات والموضوع لم تكتسب بعد هويتها الفلسفية الواضحة لدى مفكري ذلك العصر وما قبله .

ان المقريري حين يتحدث عن الاسباب الاجتماعية للأزمات والتعاسات التي لحقت بالمجتمع المصري في القرن الخامس عشر ، يفرعها الى « ثلاثة أشياء لا رابع لها » (١) . فالى جانب تأكيده على الدور المخرب للتجار المحتكرين وأصحاب الاطيان الاقطاعيين ، يرى المسألة كما يلي : « السبب الأول ، وهو أصل هذا الفساد ، ولاية الخطط السلطانية والمناصب الدينية بالرشوة ، كالوزارة والقضاء ونيابة الاقاليم وولاية الحسبة وسائر الاعمال ، بحيث لا يمكن التوصل الى شيء منها الا بالمال الجزيل . فتخطى لأجل ذلك كل جاهل ومفسد وظالم وباغ الى ما لم يكن يؤمله من الاعمال الجليلة والولايات العظيمة ، لتوصله بأحد حواشي السلطان ... » (٢) هكذا يبين لنا المقريري ان السلطة السياسية لم تكن لصالح الشعب ، أو الطبقات الفقيرة المسحوقة ، وانما لصالح الطبقة التجارية الموسرة ، التي تقف أصلاً من وراء تلك السلطة . ولكنه لم يتوصل الى نتائج نظرية عامة فيما يخص هذه المسألة .

الا أن رؤيته لها من خلال وجود ارتباط بين السلطة السياسية ورجال التجارة والاطيان الاقطاعيين تشكل فكرة هامة حتى الحد الاقصى في عصره . وهو حين يتحدث عن العامل الثاني في الأزمات الاجتماعية والاقتصادية آنذاك ، نراه يتعرض لسلطة الاقطاع الآخذ في التوسع أكثر فأكثر : « السبب الثاني فلاء الأطيان : وذلك أن قوماً ترقوا في خِدم الأمراء يتولفون اليهم بما جبوا من الاموال الى أن استولوا على أحوالهم ، فأحبوا مزيد القربة

(١) نفس المصدر السابق - ص ٢٣ .

(٢) نفس المصدر السابق ونفس الصفحة .

منهم ، ولا وسيلة اقرب إليهم من المال ، فتعدوا الى الاراضي الجارية في
اقطاعات الامراء ، وأحضروا مستأجريها من الفلاحين ، وزادوا في مقادير
الاجر . فثقلت لذلك متحصلات مواليتهم من الامراء ... وعظمت نكايـة
الولاة والعمال ، واشتدت وطأتهم على أهل الفلح ، وكثرت المقارم في عمل
الجبسور [وغيرها] - وكانت الغلة التي تتحصل من ذلك عظيمة القدر
زائدة الثمن على أرباب الزراعة ، سيما في الارض منذ كثرت هذه المظالم ...
[و] مع ان الغلال معظمها لأهل الدولة أولي الجاه وأرباب السيوف ، الذين
تزايدت رغبتهم ... ، استمر السعر مرتفعاً لا يكاد يرجى انحطاطه،...» (١).

ان في هذا النص اشارات عميقة على ارتباط السلطة السياسية بأرباب
الحياة الاقتصادية الاجتماعية . فكانما ينظر المقريري الى هذه العلاقة على
انها علاقة تبعية . ونحن لانتوانى هنا عن التاكيد بأن هذه المسائل والمسائل
المبدئية التي اثارها في حينه ابن خلدون في « مقدمته » تشكل خطأ حاسماً
في نشوء وتطور وتبلور الفكر الاجتماعي (السوسيولوجي) العلمي عموماً .

اما السبب الثالث فيسميه المقريري « رواج الفلوس » (٢) . وهويرى
أن حصر التعامل بشكلي النقد المعدني الأساسيين ، الفضة والذهب ، حصراً
مضبوطاً ، ووضع التعامل بهما تحت المراقبة سوف يكونان كفيلين - الى
جانب تأثير اجراءات أخرى - بدحر الازمات الاجتماعية الاقتصادية . ان
المقريري في تشخيصه هذا بعيد ولا شك عن حل المشكلة ، ولكنه خـلال
ذلك يثير مسائل هامة جداً . فهو يرى ان النقود تمثل « ائماناً للمبيعات
وقيماً للأعمال » (٣) . فالنقد هو كذلك من حيث قيمته الاجتماعية . هاهنا
يبرز العمل الاجتماعي وقيمه كمحدد لأشكال التعامل الاقتصادية المختلفة .
وقد سبق ان رأينا هذا الاتجاه في طرح الأمور سائداً في فكر ابن خلدون .
والحقيقة ان بروز ذلك لدى ابن خلدون والمقريري في القرنين الرابع عشر
والخامس عشر يصعب فهمه واستيعابه بمعزل عن آفاق التقدم الاجتماعي
والاقتصادي والعلمي التي تحققت سابقاً ضمن اطار النمو البورجوازي
الصناعي المبكر في المجتمع العربي الاسلامي الوسيط . وكون ابن خلدون
والمقريري قد نشأ وطرحا أفكارهما في عصر لاحق ، يؤكد على الموضوعـة
النظرية القائلة بأن الفكر لا يرتبط بالواقع على نحو ميكانيكي ، بل انه

(١) نفس المصدر السابق - ص ٥٤ - ٤٦ .

(٢) نفس المصدر السابق - ص ٤٧ .

(٣) نفس المصدر السابق ونفس الصفحة .

يكتسب - وهذا ما تعرضنا له سابقاً - استقلالية نسبية تلقاء ذلك الواقع .
ولذلك فليس من المسائل التي لا تفهم أن يطرح ابن خلدون والمقريري
آراءهما العلمية المناهضة للاقطاع الذي يلف المجتمعين اللذين عاشا ضمنهما .
انهما ، وعلى الأخص ابن خلدون ، في الوقت الذي عملا فيه على تقييم
وتنظير فترات النمو البورجوازي المبكر السابقة ، خضعا للعلاقات الاجتماعية
الاقطاعية المتخلفة . ولا شك أن هذا يظهر بالتالي القدرة الفكرية النظرية
والموسوعية التي تمتع بها ذلك المفكران العظيمان .

أما الجانب العقري الآخر في فكر المقريري فيمكن في تأكيدده على
العامل الاجتماعي الاقتصادي من حيث هو السبب الأكثر حسمية في تحديد
ملامح التطور الاجتماعي أو الازمات الاقتصادية والاجتماعية . وهو يبرز
هذه المسألة من خلال تعرضه للعامل الطبيعي الجيولوجي . فالغلاء يرده
الى أحد أمرين : « الأول فساد نظر من أسند اليه النظر في ذلك ، وجهله
بسياسة الأمور ، وهو الأكثر في الغالب ؛ والثاني الجائحة التي أصابت ذلك
الشيء حتى قل ... » وهذا يسير " بالنسبة الى الأول » (١) . وهو يتابع
بعمق « ومع ذلك فلو وجد من أوتي توفيقاً والهم رشداً ، لكان الحال غير
ماعليه الآن بخلاف الحال في هذه المحن ... » (٢) .

أن المقريري في اثاره لمجموعة المشكلات تلك قد وقف ١ - ضد الجبرية
الطبيعية بتأكيدده على الجانب الاجتماعي الاقتصادي كعامل حاسم في عملية
التطور الاجتماعي الانساني ، و ٢ - ضد الجبرية الغيبية الغائية التي تؤكد
أن الازمات الاجتماعية ماهي الا تجسيد لفضب قدرة غيبية ما (٣) .

لقد عارض المقريري كلا الشكلين من الجبرية بتأكيدده الواضح الى حد
بعيد بأن المجتمع تتحكم في تطوره جملة من الأسباب الاجتماعية والاقتصادية
التي ، اذا فهمت بعمق ، تكشف عن مفتاح قانونية نشوء وتطور واضمحلال
المجتمع . الا أن المقريري ، في الوقت الذي لم يطرح فيه قضية البنى الفوقية
للمجتمع ، التي تساهم في تطور وبناء المجتمع ، لم يكن بإمكانه ، انطلاقاً
من ظروف العصر الاجتماعية والعلمية ، طرح مسائل التشكيلة الاقتصادية
الاجتماعية ، وقوى الانتاج ، وعلاقات الانتاج .

(١) نفس المصدر السابق - ص ٨٣ .

(٢) نفس المصدر السابق والصفحة السابقة .

(٣) يقول النبي محمد : « ان غلاء أسعاركم ورخصها بيد الله » . (المنهاج البديع في

احاديث الشفيع (ص) . تليف محمد علي الانسي - بيروت ١٩٥٨ ، ص ١٤١ .

كذلك لم يتجاوز المقريري ، في نظرتهم للطبيعة ، التصورات الغيبية الميتافيزيقية ، مما عمل على « فرملة » الطرح الفلسفي المادي لقضايا المجتمع في حلقاتها البعيدة ، مثل الثورة ، والقدرة الخلاقة للإنسان في تغيير العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

الا أن المقريري يظل ، كابن خلدون من قبله ، علماً ضخماً من اعلام الفكر الاجتماعي ليس في التاريخ العربي الاسلامي فقط ، وإنما في التاريخ البشري عموماً .

وبالطبع ، لن نكون مخلصين لفكر ذينك العلمين الكبيرين الا من خلال توحيدهما ، على نحو جدلي علمي ، بمعطيات العلم الاجتماعي المعاصر الأكثر تطوراً .

وأخيراً ينبغي الإشارة الى أن المسائل لم تكن بهذا الوضوح الفلسفي الاجتماعي في ذهن مفكرينا ، بحيث يمكن القول بأنهما « ماديان » . إذ أن هنالك مجموعة كبيرة من الصعوبات والعقبات الذاتية ساهمت في اضعاف نوع من « الانتقائية » على آرائهما . ولكن هذا لا يعني انهما في حقل المجتمع الانساني لم يأخذا في **الخط الأول** مواقع فكرية مادية . بل على العكس ، ان هذا ما يحدد رؤاهما ويميزها عن سواها لدى مفكرين سابقين وآخرين لاحقين .

كلمات أخيرة

والآن ، اذا أردنا ان نستوعب الخطوط الاساسية لتاريخ الانسانية الفكرية الثقافي ، فان دراسة وتفصي المكتسبات العربية - الاسلامية الوسيطة في هذا الحقل الفكري تشكل شيئاً جوهرياً . هذه الحقيقة التاريخية تتناقض على نحو واضح مع الآراء ووجهات النظر اللاعلمية حول تاريخ الفكر الانساني .

في طليعة هذه الآراء تحتل نظرية « المركزية الأوروبية » مكاناً مرموقاً . اما ممثلو هذه النظرية فهم كثر (وقد تعرفنا في مقدمة هذا الكتاب على Windelband كواحد من هؤلاء) . ولكنهم جميعاً يلتقون في نقطة مركزية : انهم يفهمون التاريخ الانساني الفكري (والحضاري عموماً) على انه تاريخ للفكر « الاوربي » بدءاً بالعهد اليوناني القديم ، ومروراً بعصر النهضة والتنوير ، ومنتهاً بالعصر الحديث والمعاصر . ان هذه الرؤية لمسيرة الفكر الانساني التاريخية يمكن تحديدها بكونها ١ - عنصرية رجعية؛ و ٢ - لاعلمية مناهضة للنتائج التاريخية المعيارية التي تحققت في هذا الحقل . وقد شاهدنا من خلال فصول هذا الكتاب رداً غير مباشر على تلك الآراء .

لقد نشأت الفلسفة العربية - الاسلامية الوسيطة خلال القرن الثامن وامتدت حتى القرن الثاني عشر ، ثم عاد الفكر العربي الاجتماعي للنهوض في القرن الرابع عشر على يد ابن خلدون (١) . وقد انجزت خلال ذلك كله عملية ضخمة ذات بعدين ، الأول قام على الحفاظ على التراث الفكري للحضارات القديمة (البابلية ، والهندية ، واليونانية على وجه الخصوص) وعلى تمهده بشكل ادى ، في التطور اللاحق ، الى تقديمه الى الشعوب الأخرى كاملاً في حالات كثيرة . اما البعد الثاني فهو تطوير التراث ذاك تطويراً خلاقاً ، اي تجاوزه على نحو ايجابي عميق من قبل مفكري العصر

(١) لم نضع في هذا الكتاب نصيباً أميناً دراسة الفكر الاجتماعي الخلدوني بشكل مفصل ، بالرغم من أهميته القصوى . ونحن نقوم حالياً بانجاز هذه الدراسة . وسنلحقها بالطبعة الثانية من هذا الكتاب ، ان أميح لنا ذلك .

العربي - الاسلامي الوسيط ، بحيث تكشففت من خلال ذلك (وليس فقط على أساس ذلك) الهوية الخاصة بالمفكرين أولئك .

ان ما يميز الممثلين المرموقين لتراثنا الفكري يكمن في انصهار صفة العالم والفيلسوف في شخصياتهم على نحو عميق ومثير . لقد تكونت مجموعة فذة من المفكرين العرب الاسلاميين على مدى قرون عدة ، نذكر منهم النظام والفارابي وجابر بن حيان والبيروني وابن سينا والحلاج والطبيب الرازي وابن باجه وابن طفيل وابن رشد وابن خلدون والمقريري . وقد تعرضنا في بحثنا هذا لعدد منهم .

ان تأثير هذه الشخصيات ، وبشكل خاص ابن سينا وابن رشد منهم في حقل الفكر الفلسفي ، قد تجاوز النطاق العربي - الاسلامي آنذاك . لقد امتد هذا التأثير على العصر الوسيط الاوربي وعصر التنوير والنهضة فيما بعد . فاسماء مثل Siger von Brabant في فرنسا و Meister Eckhart في المانيا و Marsilius von padua في ايطاليا اشتهرت وبرزت في انحاء اوربا من خلال كونها ممثلة ومدافعة كثيراً أو قليلاً عن مذهب « الرشدية » .

ان مضمون آراء أولئك المفكرين العرب - الاسلاميين الاجتماعي والسياسي - الى جانب الآراء التي طرحتها الحركات الثورية آنذاك ، مثل حركة القرامطة - ينعكس في موقف أولي معاد للفكرية (الايديولوجية) الاقطاعية، هذا الموقف الذي وجد دعائم ضخمة له على المستوى الاجتماعي في التطور الواسع افقياً وعمودياً للانتاج البضائعي وللإقتصاد التجاري ، وعلى المستوى الفكري في تطور غني للعلوم الطبيعية ، كالكيمياء والفلك والطب والحساب .

ونحن ان اردنا تحديد طابع الفكر العربي الاسلامي الوسيط في جوانبه الايجابية تاريخياً تحديداً أساسياً هاماً ، فاننا سوف نرى ان ذلك الطابع يقوم على مذهب « وحدة الوجود » مفهوماً ومصاغاً - في الخط العام - على أساس مادي فلسفي . بالإضافة الى هذا نجد ان ابن خلدون قد استطاع لأول مرة في التاريخ البشري - مستفيداً في ذلك من المحاولات البسيطة التي انجزها بعض المفكرين في هذا المجال مثل الفارابي - ان يكتشف ويعطّر نظرية اجتماعية ذات آفاق وأبعاد شاسعة ، دافعاً بذلك التطور العلمي والاجتماعي الى امام .

انطلاقاً من هذين الواقعين الفكريين يمكن فهم القضية على النحو التالي : لقد استطاع مفكرو العصر الوسيط العرب الاسلاميون طرح اسئلة جوهرية وملحة ، حينما حاولوا استيعاب الطبيعة و المجتمع الانساني ، كما هما موجودان ، أي في قانونياتهما الذاتية .

ان مفكري مذهب «وحدة الوجود» المادي كانوا يرون أن العالم الطبيعي خالد ، تماماً كالاله ، وان الاله هو « عقل » العالم . فهو يوجد ضمن العالم المادي ، وليس خارجه . وكانوا يرون أن العالم « الالهي » هذا يوجد ابداً في زمان ؛ ولذا فالزمان أيضاً خالد . وفي نفس الوقت يؤكد اولئك المفكرون على الوحدة الوثيقة بين العالم « الالهي » والحركة . فالحركة «الذاتية» التي أهملت من قبل ارسطو ، تبرز هنا وتمنح أهمية مبدئية . ولاشك ان هذا قد احتوى على دفعة عملاقة للتقدم العلمي آنذاك .

بيد ان اولئك المفكرين لم يستطيعوا فهم المجتمع والتاريخ فهماً فلسفياً مادياً ، كما فعلوا بالنسبة الى العالم « الطبيعي » . فهم - ربما بشيء من الاستثناء للغارابي كما لاحظنا في الفصل الذي كرسناه لدراسته - فسروا المجتمع والتاريخ على نحو مثالي غيبي قائم على فكرة الدين أو الملك أو الفيلسوف أو الشخصية المصلحة بشكل عام . أي أن التاريخ والمجتمع فسرا على انهما ليسا نتاج فعالية مادية جماهيرية ينجزها بالدرجة الاولى العوام والفلاحون والعبيد ، أي انهما لا يتحققان عبر «العمل» الانساني .

هذه القضية نجدها قد استحوذت على الاهتمام الاكبر من تفكير ابن خلدون وممارسته الاجتماعية . ولكن في الوقت الذي استطاع فيه ابن خلدون طرح قضية الوجود الاجتماعي وتطوره طرماً ملائماً بشكل عميق للفكر المادي التاريخي ، فانه لم يتمكن من تحقيق وجهة نظره هذه فيما يتعلق بـ « الطبيعة » . وكذلك الأمر بالنسبة الى المقرئزي .

فعلى العكس مما فعله اولئك المفكرون ، رأى ابن خلدون ان المجتمع الانساني ينبغي أن يفهم في حتميته المادية . وهذه الحتمية ، في الوقت الذي تعني فيه « أسلوب تحصيل المعاش المادي » ، فانها بعيدة عن الفهم الميكانيكي ؛ ذلك لأن ابن خلدون اعتبر « العمل » الانساني مبدع التاريخ أولاً وأخيراً .

ان تاريخ الفكر الفلسفي ، ومن ضمنه مفهوم المادة أو العالم المادي ، يُرى ، في امتلائه وغناه وبنفس الوقت تعقيده ، ميلين أو بالاحرى اتجاهين

كبيرين أساسيين، المادي والمثالي. في التقرير هذا تبرز تاريخية Historizitaet هذين الاتجاهين ، من حيث هي ذات أهمية قصوى في البحث العلمي الدقيق الخاص بتاريخ الفلسفة .

انطلاقاً من هذا الطرح للمسألة لا يجوز « ارجاع » حلقات تطور قضية فلسفية ما الى نتائجها الاخير ؛ وانما على العكس من ذلك ، ينبغي استنباط واستخراج هذا النتاج من تلك الحلقات التاريخية . ان ما يدعونا الى التاكيد على هذا الأمر هو الرد على الموقف غير العادل من تاريخ كثير من المفاهيم الفلسفية ، ومن ضمنها مفهوم المادة او العالم المادي الذي عالجنه في اطار هذا الكتاب . ولا شك ان واحدة من أهم حلقات التطور الفلسفي للمفهوم ذاك وجدت تعبيرها في الفلسفة العربية الاسلامية في العصر الوسيط .

ولقد هدفت من كتابي هذا ان احل تطور قضية العالم المادي - الوجود المادي - بأشكاله الأساسية لدى الفلاسفة العرب الاسلاميين آنذاك ، وذلك بالعلاقة مع طرح المؤثرات اليونانية الفلسفية التي انعكست كثيراً او قليلاً وبهذا الشكل أو ذاك في فكر أولئك الفلاسفة .

والحقيقة ، ان تقصي ودراسة تلك المسائل في الفكر هذا يريان بوضوح ان الفكر العربي الاسلامي الوسيط ، الفلسفي او النظري بشكل عام لم يتوقع في اطار المشكلات الوجودية (الانطولوجية) الضيقة ، بل طرح من خلال ذلك قضايا المجتمع والانسان ، بما في ذلك مفاهيم الحرية ، والحتمية ، والتطور ، والديموقراطية ، والعمل ، والمعرفة .

والجدير بالابراز هو ان الطموح من اجل عالم انساني والكفاح في سبيل ذلك كانا المؤشر الكبير للانظمة الفلسفية والاجتماعية العلمية (السوسيولوجية) لمفكري ذلك العصر الناحين منحى مادياً هرطقياً . ولكن هذا الطموح والكفاح من اجل تحقيقه ظهرا في تلك الانظمة ، وخصوصاً لدى الفارابي وابن طفيل وابن رشد ، من خلال الدفاع عن «وحدة الوجود» او عن « الوجود الواحد » ، حيث يصبح الانسان جزءاً مكتملاً للوجود المادي .

ان هذا الاتجاه يبرز بالحاح لدى ابن رشد في طرحه لـ «العقل الفعّال»، حيث تعلن عن نفسها ملامح واضحة لفكرة المساواة والديموقراطية والحرية، في عالم تحاول فيه الادمغة والحراب الاقطاعية سحق الجديد الايجابي اينما وجد ، وقد ظهر تأثير هذه الافكار البورجوازية المبكرة والثورية في

الانتفاضات الفلاحية التي حدثت في أوروبا الاقطاعية ، وعلى الاخص في حرب
الفلاحين في المانيا في العصر الوسيط التي قادها Thomas Muenzer .

وفي المقابل كانت الفلسفة المثالية النصية ، ممثلة بالخط الاول
بابي الحسن الاشعري والغزالي ، الوعاء النظري الكبير الذي احتوى مطامح
الاتجاه الاجتماعي الاقطاعي القائمة على تأطير الواقع والفكر ضمن أغلفة
الاستسلامية ، والنصية ، واللاسببية في الطبيعة والمجتمع ، واللاتطور .
وقد برز هذا في مسألة « الحرية » و « اللاسببية » على نحو خاص : ليس
هنالك من حرية ، بل جبرية يمكن تبريرها بما سماه الاشعري بـ « الكسب »
وبما سمي بالتدخل في أمور العالم « على نحو كلي وجزئي » ؛ وليس هنالك
من سببية شاملة لمجموع مظاهر الوجود ، بل غائية قبلية تعممها ارادة مطلقة
في تسيير أمور الوجود . بحيث يصبح القول ممكناً بأن القطن لا يحترق بالنار ،
اذا تدخلت تلك الارادة على نحو ما ومنعت ذلك الاحتراق ، بالرغم من
ملازمة النار للقطن . هذا ما طمح الي تأكيده فيلسوف الفكر المثالي الغيبي الغزالي
في العصر العربي الاسلامي الوسيط .

لقد كانت الريادة الاجتماعية الاقتصادية آنذاك في يد الاقطاع المتعظم
النفوذ . ولذا فقد كان بريادته الايديولوجية قادراً في معظم الحالات على
تسديد السهام ضد الفكر المادي الهرطقي ، هذا الفكر الذي تميزت مواقفه
المعادية للريادة الايديولوجية تلك بوضوح .

تبقى ظاهرة « التصوف » في العصر ذاك من الوجوه الطريفة والمثيرة
حقاً ضمن الذهنية الناحية منحى هرطقياً ، دون ان يكون مادياً . لقد
ظلت هذه الظاهرة تتأرجح بين الفكر المثالي المتميز وبين الفكر المادي المتطور .
انها انطلقت من نقطة اساسية تمثل خطأ مشتركاً بينها وبين الفكر المادي
ذاك . هذه النقطة هي مجابهة الواقع الاقطاعي وايدولوجيته المناهضة
للتقدم الاجتماعي ولل فكر الانساني . الا ان الطريق التي سلكته الصوفية
لم يكن هو نفسه بالنسبة الى الفلاسفة الماديين . فهو موقف فردي يعتمد
« التجربة الذاتية » محوراً لتحقيق غايته . بينما الطريق الفلسفي المادي
جمعي يعتمد العقل العام والسلوك العام في تحقيق غايته .

هذا يعني ان الخلاص « الصوفي » خلاص فردي وهمي ، لانه يرفض
« المجموع » ، بينما الخلاص الفلسفي المادي لا يتحقق الا على نحو شامل
انطلاقاً من كون الجميع يحتوون بذرة التقدم والخلاص ، وهي العقل

الإنساني النشيط . الى جانب ذلك ؛ نرى أن وحدة الفكر بالعمل - التي يتحقق على طريقها الخلاص الفلسفي المادي العام - تكتسب على يد الصوفية إطاراً وهمياً يرتد الى مجموعة من الافعال والتصورات الذاتية .

أن الصوفية الاسلامية شكل خجول من اشكال الفكر المادي الهرطقي . انها لم تكن قادرة على استيعاب المشكلة التي طرحتها - وهي تحرير الانسان - لانظرياً ولا اجتماعياً . هذا يعني انها ترتبط ، من حيث الآفاق التي اشأبت نحوها ، بآفاق الفكر المادي الهرطقي المتميز .

أن استيعاب « الصوفية » والفكر المادي الهرطقي كان له أن يتم من قبل التقدم البورجوازي الصناعي لو قيض لهذا التقدم أن يكتسب اليد العليا في المجتمع العربي الاسلامي . وضمن هذا الاطار من المسألة نرى أن « الصوفية » الاسلامية تعبير معقد عن مطامح الانسان آنذاك في التحرر ، ولكنه تعبير عاجز وقاصر ، إذ أنه سلبي .

هكذا نجد اذن الفكر العربي الاسلامي الوسيط في خصوصيته الضخمة ، بدءاً من المحاولات الأولى لداود بن المخبر ، مروراً بالمعتزلة ، وانتهاء بابن رشد وابن خلدون . انه فكر حي انساني و موسوعي و أصيل . وكذلك الجانب المناوئ للدين اخذوا بالذرية الاسلامية يشكل خطوة ايجابية على طريق مجابهة الايديولوجية الاقطاعية والاحتجاج عليها .

واعادة النظر الشاملة بمجمل قضايا هذا التراث العملاق تتطلب اخذ موقف ملتزم منه ، موقف يعيد الاعتبار للجوانب المشرقة منه ، و يقيّم الجوانب المظلمة على نحو علمي دقيق . هذا يعني أن اعادة النظر تلك شرط أولي من أجل خلق وضوح وتماسك علميين نظريين بالنسبة الى القضايا الاجتماعية والقومية الفكرية المطروحة في وطننا الكبير والصغير .

محتويات الكتاب

٣ - المدخل - على طريق الوضوح المنهجي

القسم الأول

الجنود التاريخية والمعرفية للفكر الفلسفي المادي والمثالي

- ١ - بين المادية والمثالية والاسطورة - النشوء المعقد للفكر الفلسفي المادي والمثالي
- ١١ - الفكر اليوناني الفلسفي والتطور الفلسفي اللاحق
- ١٣ - عنصران في تحديد العلاقة البدائية بين « المادية والمثالية »
- ١٩ - مرحلتان أساسيتان في التطور الاجتماعي للمجتمع البدائي وتأثيرهما على تطور الفكر الميثوبي - الاسطورة -
- ٢٢ - الاسطورة والسحر والطقس
- ٢٣ - الاسطورة في وحدتها وانشطاراتها
- ٢٥ - التناقض بين شكل الاسطورة ومضمونها
- ٢٦ - علاقة الاسطورة بالواقع الطبيعي وعملية تلاشيها وتجاوزها
- ٢٩ - نتائج التقدم في التكنيك والاصوات الطبيعية والتجريد الذهني
- ٣٠ - تجاوز وهمي للعالم المادي ، ومحاولة استيعابه نظريا وعمليا
- ٣١ - هل تاريخ الفلسفة احادي الجانب ؟
- ٣٢ - أيهما أكثر قدمية وأصالة ، الميل المادي أم الميل المثالي ؟
- ٣٥ - التمييز بين الهيمنة والتقدمية التاريخية ، بين حفيقة الاسطورة ومشروعيتها التاريخية
- ٣٦ - وجود العالم المادي الموضوعي وانعكاسه الواعي وعوامل تكون هذا الانعكاس

القسم الثاني

معالم المشكلة الفلسفية في شكلها المبكر اليوناني

- ٤٣ - الوضع الاجتماعي الاقتصادي والفكري في اليونان القديمة وشروط نشوء الفلسفة هناك
- ٦٤ - مفهوم « الطبيعة » لدى الفلاسفة الميليين - الملطييين

- ٨٥ - المعالم الأساسية لمفهوم « الذرة » لدى ديموقريطس
 ٩٨ - ارسطو - العالم المادي و « مفهوم » المادة كمشكلة فلسفية أساسية
 والتأرجح في ذلك بين المادية والمثالية - الخطوة الفعلية الأولى عن
 طريق تكون « مفهوم » عن المادة - الجوهر -

القسم الثالث

الفكر العربي الاسلامي الوسيط في حلقاته الأساسية

- ١٢٥ - ملاحظات حول مسألة تقويم جديد لتراثنا العربي الاسلامي - ولما
 كتب حوله
 ١٣٧ - الملامح الاجتماعية الأساسية لمجتمع الجزيرة العربية الجاهلي
 ١٥٤ - المسار التاريخي للمجتمع العربي الاسلامي - الاسلام وتحول البنية
 الاجتماعية الاقتصادية والسياسية للمجتمع العربي الجديد
 ١٩٤ - معالم الحياة الفكرية وعوامل نشوء فلسفة وعلم في العصر العربي
 الاسلامي الوسيط
 ١ - معالم الحياة الفكرية في المجتمع القبلي البطريركي - الجاهلي
 ٢٠٤ - ٢ - العوامل الأساسية في تكوين علم وفلسفة في المجتمع العربي
 الاسلامي الوسيط
 ٢٢٤ - بدايات الفكر الفلسفي العربي - الاسلامي
 - افلاطون وارسطو وافلوطين ، وتبلور بدايات الفلسفة العربية
 الاسلامية
 ٢٣٤ - معالم المذهب الدرّي في الفكر العربي - الاسلامي الوسيط -
 الاطار النصّي الايماني لهذا المذهب
 ٢٦٢ - الكندي - بدايات الفكر الفلسفي المتميز والتكريس الفلسفي
 لمصادرة الخلق من عدم
 ٢٧٦ - العلاقة الشرطية بين الزمان والحركة والجسم
 ٢٨٣ - الفارابي - الارهاصات المادية الفلسفية
 عملية تجاوز الثنائية بين الإله والعالم ، وتجاوز مصادرة الخلق
 من عدم
 ٣٠٢ - ابن سينا - التحويل الجدي لمفهوم ارسطو عن المادة
 ثورة عميقة فعالة في عملية تجاوز الثنائية « مادة - صورة »
 « والله - عالم »



- ٣٣٠ - ابن طفيل - الامتداد الطبيعي لفكر ابن سينا المادي الهرطقي
١ - الرمزية الفلسفية والارهاب الفكري الغزالي
٢ - ابن طفيل بين قدم العالم وإحداثه والقضايا المنبثقة عن ذلك
٣٥٥ - ابن رشد - قمة الفكر المادي العقلاني الوسيط ، تلاشي الثنائية
بين العالم والإله ١ - لقد بلغ الفكر الفلسفي العربي - الاسلامي
في العصر الوسيط مرحلته العليا والنهائية في شخص ابن رشد الفد
٣٨٩ - ابن خلدون - نشوء وتبلور الفكر الاجتماعي المادي - صياغة
مفهوم « الوجود الاجتماعي المادي » بشكل أولي
٣٩٨ - المقرئ - خطوط أساسية في سبيل الاحاطة بالمجتمع الانساني
على نحو تاريخي علمي
٤٠٥ - كلمات أخيرة
٤١١ - ثبت بالأخطاء المطبعية
٤١٤ - محتويات الكتاب

وافقت المديرية العامة للسعاية والانباء في وزارة الاعلام بطبع
وتداول هذا الكتاب تحت رقم ٢٠٨٣ تاريخ ١٩٧١/٢/٢٣ .

أن هذا الكتاب يطمح في إثارة القضايا الخاصة بالفكر العربي الوسيط أكثر مما يطمح في الوصول إلى أحكام نهائية حوله . إلا أن تلك « الإشارة » تسمح لنفسها بالادعاء المشروع بأنها تركز على منهجية متماسكة قادرة على الإحاطة بالمشكلة بإبعادها رمضاءعاتها . هذا يعني أن « مشروع الرؤية الجديدة للفكر العربي الوسيط » هو فعلاً « مشروع » عمل يمكن أن يستغرق عشر سنوات آخر ، لكي يكتمل في حدوده الدنيا .

لقد كتب حول الفكر العربي الوسيط حتى الآن من المجلدات أكثر مما كتب ممثلو هذا الفكر . وبالرغم من هذا فلا تزال المشكلة قائمة . أن معظم المستشرقين والباحثين العرب الذين تعرضوا لهذه المشكلة قد وقعوا ضحية الانتقائية البين - بينة أو السطحية أو الذاتية اللاتاريخية . ولذلك فإن أبحاثهم النهائية لا يمكن أن تمثل بالنسبة إلى الفكر العلمي التاريخي النقدي حتى ولا المقدمة أو التمهيد لدراسة تراثنا الفكري . أن تلك الأبحاث قد أثارت مجموعة من المشكلات الخاصة بهذا التراث ، ولكنها ظلت - في الحدود العامة - تراوح بين الانتقائية البين أو السطحية أو الذاتية اللاتاريخية .

أن مؤلف هذا الكتاب ، الذي سيسير بمشروعه هذا حتى الفترة الراهنة من مسار الفكر العربي ، يجد المبرر العميق لعمله قائماً في الخط الأول على استجلاء وحدة الفكر العربي منذ القرن السابع حتى العصر الحديث ، وعلى اكتشاف وإبراز المعالم الثورية في هذا الفكر لصهرها على نحو خلاق في بوتقة الكفاح العربي والإنساني من أجل التحرر الاجتماعي والقومي .

أن إعادة النظر في تراثنا الفكري - والحضاري العام - على نحو معمق لم تعد شأنًا من شؤون « المفكرين والمثقفين » ، بل تحولت في عصرنا هذا النابض بالتحويلات والمفاجآت والتوقعات الخصبة المعقدة إلى إحدى مهمات الثورة الاجتماعية والقومية والثقافية التكنولوجية .

من هذا المنطلق كان من أهداف الكتاب الأساسية اكتشاف « الجسور » التي تصل بين الجوانب الحسية الثورية في تراثنا وبين الفكر الثوري المعاصر . وهي محاولة ، أم مشروع ؛ ولكنها محاولة أو مشروع يجد مبرر وجوده ونمائه وتطوره في الوجه الجديد الآخذ في التكون في وطننا الصغير والكبير .

النشر والتوزيع في الاقطار العربية :

دمشق شارع بور سعيد هاتف ١١١٠٢٢

دار دمشق :

السعر :

Thanks to
assayyad@maktoob.com

To: www.al-mostafa.com